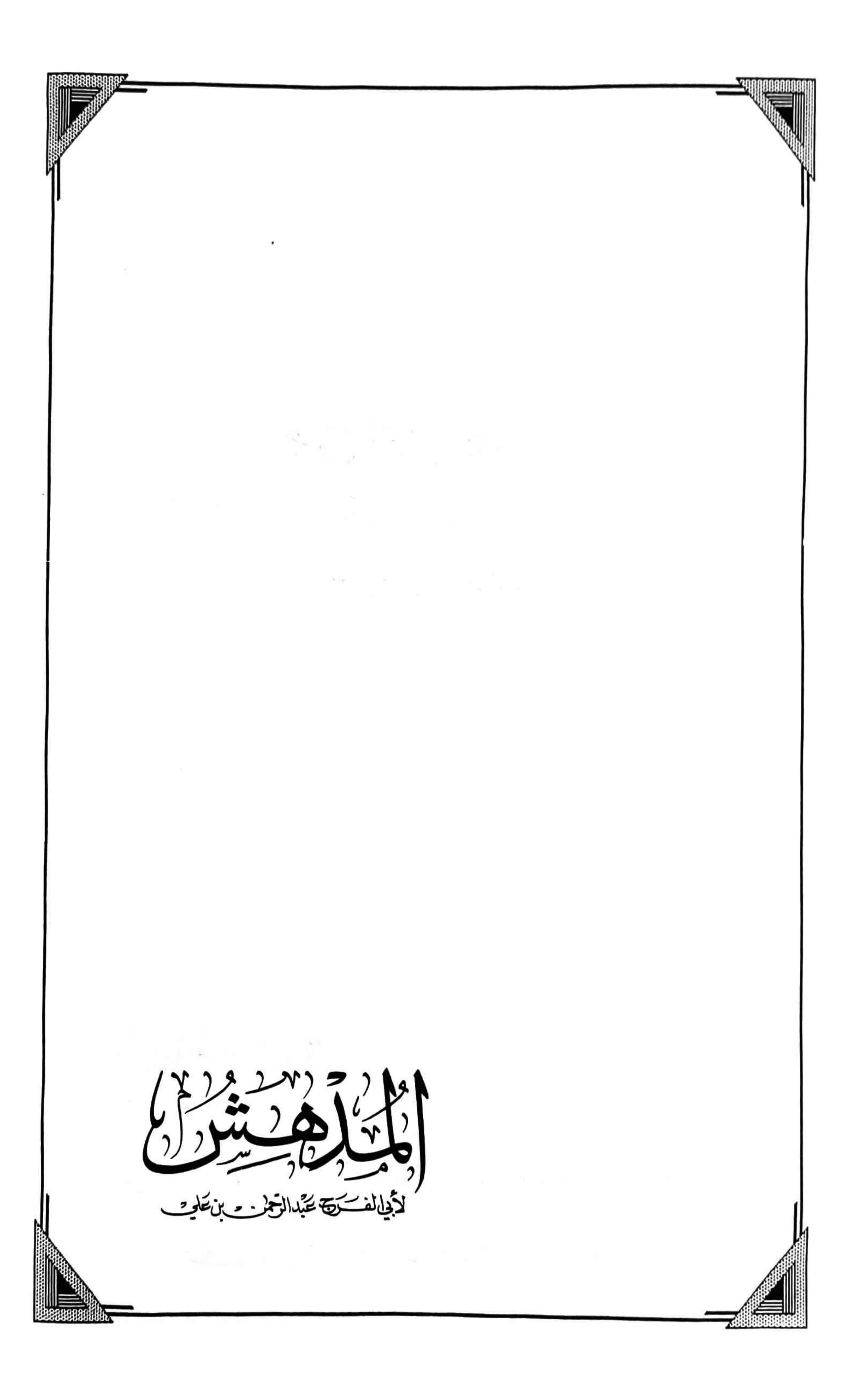


المدهش

لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

مكتبة الكوثر

للنشر والتوزيع

الرياض - شارع العليا العام - مقابل أسواق طيبة

هاتف : ٤٥٠٦٣٢٨

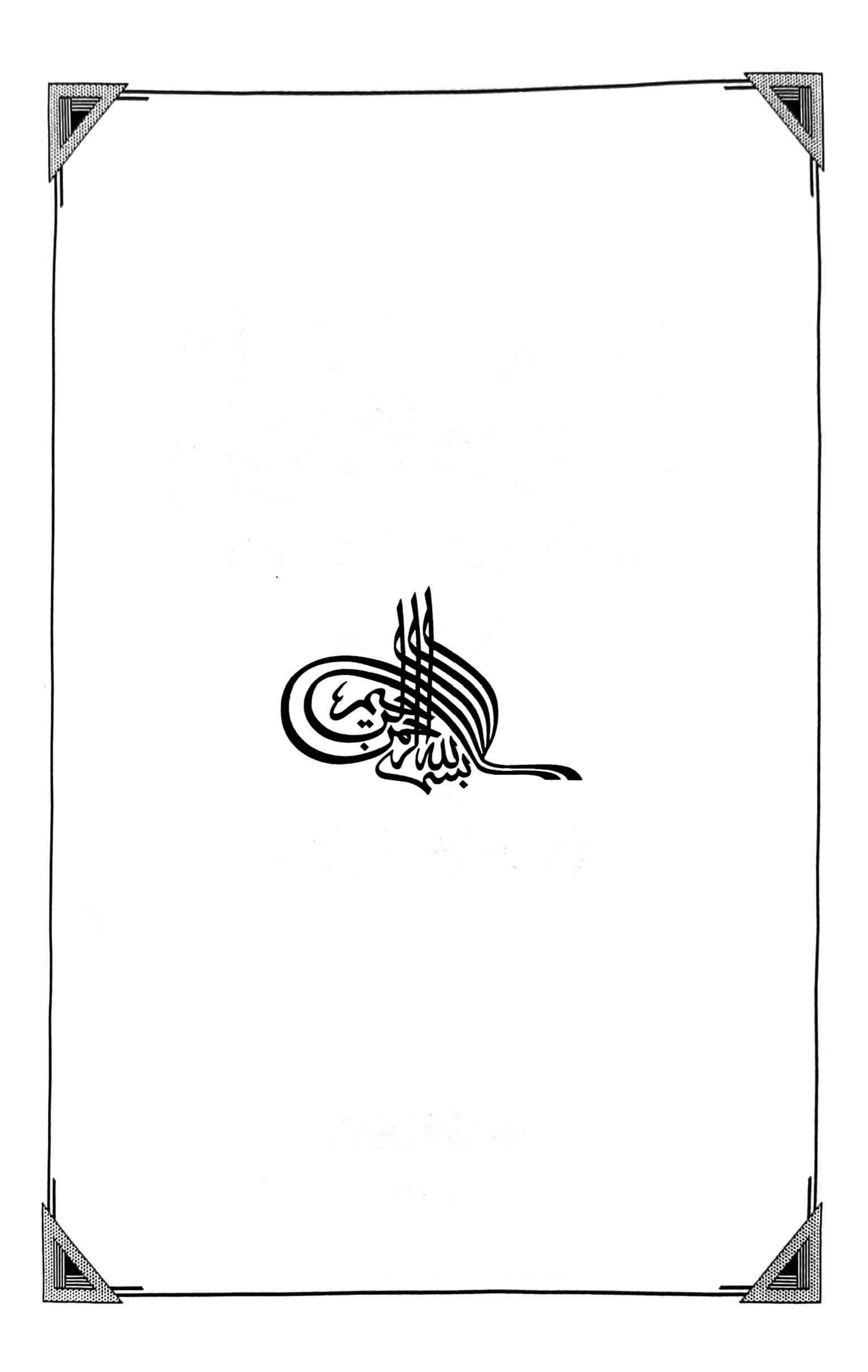
ص.ب : ١٦٨٦٣ - الرمز : ١١٤٧٤

المدهش

لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي
ابن الجوزي

اعتنى به
فتحي بن فتحي الجندي

مكتبة الكوثر
الرياض


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واستن بسنته إلى يوم الدين.

وبعد ..

فإن الإمام ابن الجوزي - أبا الفرج عبدالرحمن بن علي رحمه الله - والذي يصل نسبه إلى أبي بكر الصديق ﷺ غني عن التعريف. فهو إمام متفنن، وله أسلوبه المتميز، خاصة في ميدان الوعظ والتذكير، وهو بحق ريحانة الوعاظ والمذكرين في عصره، وله تأثيره الواضح فيمن جاء بعده.

قال الإمام الذهبي - رحمه الله -: «كان رأسا في التذكير بلا مدافعة. يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديها. ويُسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب. لم يأت قبله ولا بعده مثله. فهو حامل لواء الوعظ، والقيّم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة. وكان بحرا في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث، ومعرفة فنونه .. ذا تفنن وفهم وذكاء، وحفظ واستحضار، وإكباب على الحفظ والتصنيف، مع التصون والتجمل، وحسن الشارة، ورشاقة العبارة، ولطف الشمائل، والأوصاف الحميدة، والحرمة الوافرة عند الخاص والعام. ما عرفت أحدا صنف ما صنف .. أحب الوعظ ولهج وهو مراهق، فوعظ

الناس وهو صبي. ثم ما زال نافق السوق معظماً متغالياً فيه، مزدحماً عليه، مضروباً برونق وعظه المثل، كماله في ازدياد واشتهار، إلى أن مات رحمه الله»[1].

ومؤلفات ابن الجوزي - رحمه الله - في هذا الباب كثيرة، ولا سيما كتابه المعروف «المدهش».

وقد وقفت على هذا الكتاب منذ أمد بعيد فأعجبني أسلوبه، وهو أسلوب مدهش بحق. إلا أن المطبوع يعتريه الغموض وعدم الوضوح في كثير من المواضع. وأحياناً ينحط الأسلوب إلى درجة من السجع الركيك والمتكلّف والذي لا ينسجم مع أسلوب ابن الجوزي - رحمه الله -. وهو أسلوب رائق ومتميز في جملته. والحمل في ذلك غالباً يرجع إلى النساخ، ومن ثم تظهر هذه العيوب المتراكمة مع الزمن في المطبوع، وقد تكون المسئولية مشتركة.

هذا .. ولكم تمنيت أن ينشر الكتاب نشرة جديدة محققة، وقد لمست هذه الرغبة عند غير واحد من الإخوان ممن اطلعوا على الكتاب، ولكن دون جدوى. ومع ذلك فقد بقيت درر الكتاب تلمع رغم ما حولها من الشوائب.

وقد فكرت في استخلاص زبدة الكتاب على وجه حسن، فكانت الفكرة أن أصوغ منه رسائل على غرار ما صنعته في كتابي «رسائل مبكية من كلام الحسن البصري» والذي وجد قبولاً واستحساناً بفضل الله تعالى، وتعددت طبعاته.

وبالفعل فقد تم ذلك في كتاب جديد صدر بالفعل بعنوان:

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: (٢١/ ٣٦٧-٣٦٨) باختصار يسير.

«رسائل موقظة من كلام ابن الجوزي».

وقد عايشت «المدهش» طويلاً، ووقفت على مواضع الضعف فيه. وقد كان بالإمكان إصلاح الكثير من الأخطاء من خلال السياق، مع تجاوز المواضع المستغلقة؛ سيما وأن أسلوب الرسائل المشار إليها يعتمد على الانتخاب والاصطفاء.

ثم طُلب مني ضبط الأصل «المدهش» ليخرج في طبعة جيدة حسنة الإخراج والضبط. وقد رأيت أن من الأفضل الحصول على مخطوطة على الأقل لتساعد في ضبط الكتاب، وقد كان. وقد حصلنا بفضل الله تعالى على مخطوطة جيدة من مكتبة «ولي الدين يكن» بتركيا رقم (٤٤٢)، وتقع في (٢٣٧) ورقة.

وهنا لا أدعي أنني قد قابلت المخطوطة كاملة، وإنما عرضنا فقط المواضع المشكلة في المطبوع على المخطوط، وكذا مواضع السقط. وبفضل الله فقد تم تلافي الكثير من الأخطاء لا كلّها. وهناك مواضع كنت قد أصلحتها واستظهرتها قبل وصول المخطوط، وقد جاءت مطابقة أو مقاربة بفضل الله تعالى.

وإنما آثرنا هذه الطريقة لأن الكتاب أساساً في الوعظ والرقائق وإثقاله بالحواشي والفروق والتعليقات قد يعكر على الفائدة المرجوة منه، وهي حصول الموعظة وبلوغ تأثيرها من أقصر الطرق.

إضافة إلى ما سبق فقد رجعنا إلى كتب أخرى للمصنف - رحمه الله - ولغيره: كمصادر مساعدة في ضبط النص، سيما وأن هناك عدة مؤلفات للمصنف شبه مأخوذة ومُستلّة من «المدهش» بتصرف يسير.

هذا .. وقد حاولنا - قدر الطاقة - أن نخدم النص، فشرحنا

الكلمات الغامضة، وما أكثرها، وقد استدعى ذلك الوقوف طويلاً في بعض الأحيان مع المعاجم حتى لا نسجل للقارئ تعريفات معجمية قد لا تتناسب مع السياق. خاصة وأن أسلوب ابن الجوزي يتيمز برشاقة العبارة، وتوظيف السجع، مع «التلاعب بالألفاظ» إن صح هذا التعبير.

وكذلك فقد حرصنا على تخريج الروايات التي وردت في الكتاب باختصار مع التنبيه على بعض المواضع المنكرة في الكتاب والتي هي من قبيل الانسياق وراء الإسرائيليات والروايات التي لا أصل لها.

هذا .. ونحب أن ننبه إلى أن المصنف - رحمه الله - يُضمّن الكثير من شعر الغزل في مواعظه على سبيل الرمز والإشارة. وهذا المنهج لا غبار عليه إذا اتسعت العقول. وقد ينكره من غلظ حسه، وضاق عطنه **«وكل إناء بالذي فيه ينضح»**.

ونذكر في هذا السياق ما روي من أن عابداً سمع منشداً ينشد:

إذا ما العشرُ من «شعبان» ولّتْ — فصِلْ يا صاح ليْلَك بالنهارِ

ورَوِّني بأقداحٍ كبارِ — فقد ضاقَ الزمانُ عن الصِّغارِ

فقال العابد في نفسه: **«نعم، لقد ضاقَ الزمانُ عن الصِّغار»** فشمّر واجتهد في عبادته. والطيور على أشكالها تقع.

نسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله ذخراً لنا يوم الدين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب: أبو عيسى

فتحي بن فتحي الجندي

صـــور
مـن المخطوط

كتاب المدهش تصنيف
الشيخ الإمام العالم العلامة
الورع أبي الفرج عبد الرحمن
ابن علي بن الجوزي
تغمده الله برحمته
وأسكنه فسيح
جنته
آمين

٤٤٢
٢١

٤٤٤

الورقة الأولى من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي لا منتهى لعطايه ومنحه حمداً يقوم بالوا
من شكره ومدحه وصلى الله على اشرف نبي وانصحه
وعلى آله وازوجه ما استن طرف في مرحه وسلم اما
بعد فاني قد جمعت الله في علم الوعظ ما نصحه
والمحد وآثرت أن أنتقي هذا الكتاب من ملحه والله
الموفق في كل علم لاصلحه وقد قسمته خمسة ابواب

الباب الاول
في ذكر علوم القران
الباب الثاني
في نصرف اللغة وموافقة القران لها
الباب الثالث
في ذكر علوم الحديث
الباب الرابع
في ذكر عيون التواريخ
الباب الخامس
في ذكر المواعظ

وهذا الباب ينقسم قسمين قسم يذكر فيه القصص
والقسم الثاني تذكر فيه المواعظ مطلقا والله الموفق

الباب الاول
في ذكر علوم القران

الورقة الثانية / وجه أول

قال

فاذا بها قد جعلت سرير المملكة فوقف متحيرا ولهذ كنت لاعبا
بهذه القطعة فكيف وصلت الى هذا المقام فهتف بلسان
الحال ناييا عنها كم صبرت على ضرب الفوس ونشر المناشير
حتى بلغت الى هذا شعر

جئت اشكوا فاستوقفتني • الى ان كل مني من قبل ان كلمتني
وقد تنمن التمام ولكن • اقعدتني دمن الى ان قدتني
من اصفى واصف انى عزمك اتباعي فانفق الليل بفتح لي من طول
نومك وانها ر تستغيث من قبح فعالك شعر

• يا ايها الراقد كم ترقد • قم يا حبيبي قد دنا الموعد •
• وخذ من الليل ولو ساعة • حظ اذا ما هجع الرقد •
• من نام حتى ينقضي ليله • لم يبلغ المنزل او يجهد •
• قل لذوي الالباب اهل التقى قنطرة العرض لكم موعد •

تم الكتاب المبارك المعروف بالمدهش لابن الجوزي رحمه الله وغفر
له ولكاتبه ولقاربه ولجميع المسلمين والمسلمات والمومنين والمومنات
• وكان الفراغ من نسخه نهار الخميس الحادي عشر من شهر ذي القعدة •
• المعظم قدره من شهور سنة ١٠٣٢ اثنين وثلاثين والف •
• على يد العبد الفقير الى الله تعالى عمر بن •
• عثمان ابي مراه عفر الله له ولوالديه •
ولمن دعا له بالمغفرة ولجميع •
المسلمين امين •
امين

وقف شيخ الإسلام
ولي الدين أفندي ابن المرحوم
الحاج مصطفى آغا ابن المرحوم
الحاج حسين آغا

الورقة الأخيرة من المخطوط

المدهش

لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي
ابن الجوزي

اعتنى به
فتحي بن فتحي الجندي

مكتبة الكوثر

رب عونك

قال شيخ الأمة وعلم الأئمة، ناصر السنة، نجم الإسلام جمال الدين زين الأنام، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن حُمَّادَى ابن الجوزي - رحمه الله تعالى -:

الحمد لله الذي لا منتهى لعطاياه ومنحه، حمداً يقوم بالواجب من شكره ومدحه، وصلى الله على أشرف نبي وأنصحه، وعلى أصحابه وأزواجه ما استنّ[١] طِرْفٌ[٢] في مَرَحِه[٣].

أما بعد:

فإني قمت بحمد الله في علم الوعظ بأصحِّه وأملحه، وآثرت أن أنتقي في هذا الكتاب من مُلَحِه[٤]، والله الموفق في كل عمل لأَصلحه. وقد قسمته خمسة أبواب:

الباب الأول: في ذكر علوم القرآن العزيز.

الباب الثاني: في تصريف اللغة وموافقة القرآن لها.

الباب الثالث: في علوم الحديث.

الباب الرابع: في عيون التواريخ.

الباب الخامس: في ذكر الوعظ. وهذا الباب مقسم: قسم يذكر فيه القصص، وقسم يذكر فيه المواعظ مطلقاً، والله الموفق.

---

(١) «استنّ»: عدا. يقال: استن الفرس: عدا لمرحه ونشاطه شوطاً أو شوطين، ولا راكب عليه.

(٢) «طرف»: الطرف: الفرس الكريم الأبوين.

(٣) «مرحه». المرح: النشاط والخفة.

(٤) «ملحه». الملح جمع مُلْحة: الأحاديث الحسنة.

الباب الأول
في علـوم القرآن

في علوم القرآن

فصل
في ذكر الخطاب بالقرآن

الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهاً:

١- خطاب عام: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

٢- وخطاب خاص: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦].

٣- وخطاب الجنس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١].

٤- وخطاب النوع: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٥- وخطاب العين: ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة: ٣٣].

٦- وخطاب المدح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٧٢].

٧- وخطاب الذم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التحريم: ٧].

٨- وخطاب الكرامة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الممتحنة: ١٢].

٩- وخطاب التودد: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

١٠- وخطاب الجمع بلفظ الواحد: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ﴾ [الانفطار: ٦].

١١- وخطاب الواحد بلفظ الجمع: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [النحل: ١٢٦].

١٢- وخطاب الواحد بلفظ الاثنين: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤].

١٣- وخطاب الاثنين بلفظ الواحد: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩].

١٤- وخطاب العين والمراد به الغير: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤].

١٥- وخطاب التلون، وهو ثلاثة أوجه:

أحدهما: أن يخاطب ثم يخبر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والثاني: أن يخبر ثم يخاطب: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢].

والثالث: أن يخاطب عيناً ثم يصرف الخطاب إلى الغير: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٨، ٩].

وهذا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو فانهما قرءآ بالياء.

★ ★ ★

فصل
في ذكر أمثال القرآن

في القرآن ثلاثة وأربعون مثلاً:

في البقرة: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴿١٧﴾﴾، ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ ﴿١٩﴾﴾، ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً ﴿٢٦﴾﴾، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١٧١﴾﴾، ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٦١﴾﴾، ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴿٢٦٤﴾﴾، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴿٢٦٥﴾﴾، ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴿٢٦٦﴾﴾، ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ ﴿٢٧٥﴾﴾.

وفي آل عمران: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴿١٠٣﴾﴾، ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

وفي الأنعام: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ﴿٧١﴾﴾.

وفي الأعراف: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴿١٧٦﴾﴾.

وفي يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٤﴾﴾.

وفي هود: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي الرعد: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ ﴿١٤﴾﴾، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿١٧﴾﴾، ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴿٣٥﴾﴾.

وفي إبراهيم: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴿١٨﴾﴾، ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴿٢٤﴾﴾، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴿٢٦﴾﴾.

وفي النحل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴿٧٥﴾﴾، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴿٧٦﴾﴾، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴿١١٢﴾﴾.

وفي الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴿٣٢﴾﴾، ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٤٥﴾﴾.

وفي الحج: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴿٣١﴾﴾، ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وفي النور: ﴿مَثَلُ نُورِهِ ﴿٣٥﴾﴾، ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ﴿٤١﴾﴾.

وفي الروم: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

وفي يس: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴿٧٨﴾﴾.

وفي الزمر: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا ﴿٢٩﴾﴾.

وفي سورة محمد ﷺ: ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴿٢٠﴾﴾، ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴿١٥﴾﴾.

وفي الفتح: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ ﴿٢٩﴾﴾.

وفي الحشر: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿١٥﴾﴾، ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ﴿١٦﴾﴾.

وفي الجمعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴿٥﴾﴾.

وفي التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١٠﴾﴾، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴿١١﴾﴾.

وكم من كلمة تدور على الألسن مثلا، جاء في القرآن بألخص منها وأحسن. فمن ذلك:

قولهم: القتل أنفى للقتل:

مذكور في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقولهم: ليس المخبر كالمعاين:

مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقولهم: ما تزرع تحصد:

مذكور في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقولهم: للحيطان آذان:

مذكور في قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقولهم: الحمية رأس الدواء:

مذكور في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

وقولهم: احذر شر من أحسنت إليه:

مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقولهم: من جهل شيئاً عاداه:

مذكور في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

وقولهم: خير الأمور أوساطها:

مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقولهم: من أعان ظالماً سلطه الله عليه:

مذكور في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج: ٤].

وقولهم: لما أنضج رمّد(١):

مذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ [النجم: ٣٤].

وقولهم: لا تلد الحية إلاحية:

مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧].

★ ★ ★

فصول في عيون المتشابه

فصل

في الحروف المبدلات

في البقرة: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴿٢٩﴾﴾، وفي حم السجدة(٢): ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴿١٢﴾﴾.

في البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ ﴿٣٥﴾﴾، وفي الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ ﴿١٩﴾﴾.

في البقرة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴿٥٧﴾﴾، وفي الأعراف: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ﴿١٦٠﴾﴾.

في البقرة: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴿١٢٠﴾﴾، وفي الرعد: ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) ذكر ابن الأثير في «النهاية»: (٢/٢٦٢)، هذا المثل هكذا: شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد. قال: أي ألقاه في الرماد. وهو مثل يضرب للذي يصنع المعروف ثم يفسده بالمنة أو يقطعه.

(٢) (حم السجدة): أي (فصلت) الآية ١٢.

في البقرة: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ ﴿١٢٥﴾﴾، وفي الحج[1]: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

في البقرة: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴿١٣٦﴾﴾، وفي آل عمران: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴿٨٤﴾﴾.

في البقرة: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ﴿١٧٠﴾﴾، وفي المائدة: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴿١٠٤﴾﴾.

في آل عمران: ﴿لِّكَيْلا تَحْزَنُوا ﴿١٥٣﴾﴾، وفي الحديد: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا ﴿٢٣﴾﴾.

في النساء: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١﴾﴾، وفي الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١٨٩﴾﴾.

في النساء: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا ﴿١٤٩﴾﴾، وفي الأحزاب: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا ﴿٥٤﴾﴾.

في الأنعام: ﴿مِّنْ إِمْلاقٍ ﴿١٥١﴾﴾، وفي بني إسرائيل[2]: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴿٣١﴾﴾.

في الأعراف: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾، وفي طه: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٤٧﴾﴾.

في الأعراف: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾، وفي الشعراء: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

في التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا ﴿٣٢﴾﴾، وفي الصف: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ﴿٨﴾﴾.

---

(١) في المطبوع: (الحجر). والصواب (الحج): آية ٢٦، وهي على الصواب في المخطوط.

(٢) أي: سورة الإسراء.

في يونس: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴿٩٠﴾﴾، وفي طه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴿٧٨﴾﴾.

في هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴿٨٢﴾﴾، وفي الحجر: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴿٧٤﴾﴾.

في الحجر: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴿١١﴾﴾، وفي الزخرف: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ ﴿٧﴾﴾.

في الحجر: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴿١٢﴾﴾، وفي الشعراء: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴿٢٠٠﴾﴾.

في الكهف: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴿٣٦﴾﴾، وفي حم السجدة[1]: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ ﴿٥٠﴾﴾.

في الكهف: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴿٥٧﴾﴾، وفي السجدة: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴿٢٢﴾﴾.

في طه: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴿٥٣﴾﴾، وفي الزخرف: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴿١٠﴾﴾.

في الأنبياء: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾، وفي الصافات: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

في الأنبياء: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴿٩٣﴾﴾، وفي المؤمنون: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴿٥٣﴾﴾.

في النمل: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ ﴿٨٧﴾﴾، وفي الزمر: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) (حم السجدة). أي: (سورة فصلت): الآية ٥٠.

(٢) (عسق). أي: (سورة الشورى): الآية ٣٦.

في القصص: ﴿وما أوتيتم ﴿٦٠﴾﴾، وفي عسق[2]: ﴿فما أوتيتم ﴿٣٦﴾﴾.

في العنكبوت: ﴿ولقد تركنا منها آية ﴿٣٥﴾﴾، وفي القمر: ﴿ولقد تركناها آية ﴿١٥﴾﴾.

في حم السجدة[1]: ﴿ثُمَّ كفرتم به ﴿٥٢﴾﴾، وفي الأحقاف: ﴿وكفرتم به ﴿١٠﴾﴾.

في المدثر: ﴿كلاَّ إنَّهُ تذكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾، وفي عبس: ﴿كلاَّ إنَّها تذكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾.

* * *

فصل

في الحروف الزوائد والنواقص

في البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِه ﴿٢٣﴾﴾، وفي يونس: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِه ﴿٣٨﴾﴾.

في البقرة: ﴿إلاَّ إبْلِيس أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٣٤﴾﴾، وفي ص: ﴿إلاَّ إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴿٧٤﴾﴾.

في البقرة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴿٣٨﴾﴾، وفي طه: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴿١٢٣﴾﴾.

في البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم ﴿٤٩﴾﴾، وفي الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم ﴿١٤١﴾﴾.

في البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴿٤٩﴾﴾، وفي إبراهيم: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴿٦﴾﴾.

في البقرة: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴿٥٨﴾﴾، وفي الأعراف: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ ﴿١٦١﴾﴾.

في البقرة: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾، وفي الأعراف: ﴿سَنَزِيدُ

(١) (حم السجدة). أي: (سورة فصلت): الآية ٥٢.

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

في البقرة: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً ﴿٥٩﴾ ﴾، وفي الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً ﴿١٦٢﴾ ﴾.

في البقرة: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾، وفي النساء: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

في البقرة: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾، وفي آل عمران: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

في البقرة: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴿١٩٣﴾ ﴾، وفي الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

في آل عمران: ﴿مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿٩٩﴾ ﴾، وفي الأعراف: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

في آل عمران: ﴿إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ ﴿١٢٦﴾ ﴾، وفي الأنفال: ﴿إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ ﴿١٠﴾ ﴾.

في النساء: ﴿فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٢٢﴾ ﴾، وفي بني إسرائيل: ﴿فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

في الأنعام: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴿٨١﴾ ﴾، وفي باقي القرآن: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥١].

في الأنعام: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴿٥٠﴾ ﴾، وفي هود: ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

في الأعراف[1]: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴿١١٠﴾ ﴾، وفي الشعراء: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

في الأعراف: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾، وفي الشعراء: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

---

(١) في المطبوع: (الأحزاب)، والتصحيح موافق لما في المخطوط.

في الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا ﴿١١٦﴾﴾، وفي طه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿٦٦﴾﴾.

في الأعراف: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ ﴿١٥٠﴾﴾، وفي طه: ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ ﴿٩٤﴾﴾.

في التوبة: ﴿وَلا تَضُرُّوهُ ﴿٣٩﴾﴾، وفي هود: ﴿وَلا تَضُرُّونَهُ ﴿٥٧﴾﴾.

في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴿٧٧﴾﴾، وفي العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴿٣٣﴾﴾.

في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴿٢٢﴾﴾، وفي القصص: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴿١٤﴾﴾.

في النحل: ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿٧٠﴾﴾، وفي الحج: ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿٥﴾﴾.

في النحل: ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾، وفي العنكبوت: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

في النحل: ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾، وفي النمل: ﴿وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

في الحج: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴿٢٢﴾﴾، وفي الم السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴿٢٠﴾﴾.

في الحج: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴿٦٢﴾﴾، وفي لقمان: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴿٣٠﴾﴾.

في الشعراء: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾، وفي الصافات: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

في النمل: ﴿وَمَن شَكَرَ ﴿٤٠﴾﴾، وفي لقمان: ﴿وَمَن يَشْكُرْ ﴿١٢﴾﴾.

في القصص: ﴿وَيَقْدِرُ ﴿٨٢﴾﴾، وفي العنكبوت: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ ﴿٦٢﴾﴾.

في النازعات: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ ﴿٣٥﴾﴾، وفي الفجر: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ ﴿٢٣﴾﴾.

فصل
في المقدم والمؤخر

في البقرة: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴿٥٨﴾﴾، وفي الأعراف: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴿١٦١﴾﴾.

في البقرة: ﴿وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ ﴿٦٢﴾﴾، وفي الحج: ﴿وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

في البقرة: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾، وفي الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴿٧١﴾﴾، وفي آل عمران: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴿٧٣﴾﴾.

في البقرة: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾، وفي الحج: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

في البقرة ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴿١٧٣﴾﴾، وفي باقي القرآن: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣].

في البقرة: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴿٢٦٤﴾﴾، وفي إبراهيم: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴿١٨﴾﴾.

في آل عمران: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴿١٢٦﴾﴾، وفي الأنفال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴿١٠﴾﴾.

في النساء: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴿١٣٥﴾﴾، وفي المائدة: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴿٨﴾﴾.

في الأنعام: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٠٢﴾﴾، وفي حم المؤمن[١]: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر: ٦٢].

---

(١) (حم المؤمن). أي: (سورة غافر): الآية ٦٢.

في الأنعام: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴿١٥١﴾﴾، وفي بني إسرائيل: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

في النحل: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴿١٤﴾﴾، وفي فاطر: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴿١٢﴾﴾.

في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿٤١﴾﴾، وفي الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ ﴿٥٤﴾﴾.

في بني إسرائيل: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿٩٦﴾﴾، وفي العنكبوت: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴿٥٢﴾﴾.

في المؤمنون: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ ﴿٨٣﴾﴾، وفي النمل: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴿٦٨﴾﴾.

في القصص: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴿٢٠﴾﴾، وفي يس: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

★ ★ ★

أبواب منتخبة من الوجوه والنظائر

باب أو

تكون بمعنى التخيير: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وتكون بمعنى الواو: ﴿أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وتكون بمعنى بل: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ﴿إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

وتكون للإبهام: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩]، ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

باب أدنى

تكون بمعنى أقدر: ﴿وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ [المائدة: ١٠٨].

وتكون بمعنى أقرب: ﴿مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: ٢١]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

وتكون بمعنى أقل: ﴿وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: ٧].

وتكون بمعنى أدون: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ [البقرة: ٦١].

◻ باب الإنزال ◻

تكون بمعنى الحط من علو: ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [الشورى: ٢٨].

وتكون بمعنى الخلق: ﴿أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [يونس: ٥٩]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥].

◻ باب الأرض ◻

★ **الأرض:**

تذكر ويراد بها أرض الأردن: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

ويراد بها القبر: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

ويراد بها أرض مكة: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

ويراد بها أرض المدينة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ [النساء: ٩٧].

ويراد بها أرض الإسلام: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣].

ويراد بها أرض التيه: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

ويراد بها أرض الشام: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ويراد بها الأرضون السبع: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ٦].

ويراد بها أرض مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

ويراد بها أرض الحجر: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ويراد بها القلب: ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ويراد بها أرض الغرب[1]: ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤][1].

---

(١) في المطبوع والمخطوط: ﴿مُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، وهذا الوجه غير ظاهر، ولا توجد آية مطابقة لما ذكر، وفي المخطوط: «المغرب» بدل «الغرب». وكذا ذكر محقق «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» للمصنف: (ص ١٧٠)، ولكن الآية عنده بلفظ: ﴿مُفْسِدُونَ﴾ (الكهف: آية ٩٤)، والتصحيح منه.

ويراد بها الجنة: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويراد بها أرض الروم: ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ [الروم: ٣].

ويراد بها أرض بني قريظة: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ويراد بها أرض فارس: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ويراد بها أرض القيامة: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ﴾ [الزمر: ٦٩].

❑ باب الأمر ❑

★الأمر:

يذكر ويراد به قتل بني قريظة وجلاء النضير: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ويراد به النصر: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ويراد به استدعاء الفعل: ﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ﴾ [النساء: ٥٨].

ويراد به الخصب: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ [المائدة: ٥٢].

ويراد به الذنب: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة: ٩٥].

ويراد به المشورة: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

ويراد به قتل كفار مكة: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٤].

ويراد به فتح مكة: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

ويراد به الحذر: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠].

ويراد به القضاء: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

ويراد به القول: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٦٦].

ويراد به الغرق: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣].

ويراد به العذاب: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

ويراد به الشأن: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

ويراد به القيامة: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].

باب الإنسان

★**الإنسان:**

يذكر ويراد به أبو حذيفة بن عبدالله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ﴾ [يونس: ١٢].

ويراد به عتبة بن ربيعة: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩].

ويراد به النضر بن الحارث: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١].

ويراد به أُبي بن خلف: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ﴾ [مريم: ٦٧].

ويراد به آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

ويراد به سعد بن أبي وقاص: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا﴾ [لقمان: ١٤].

ويراد به عياش بن أبي ربيعة: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ﴾ [العنكبوت: ٨].

ويراد به أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ويراد به عقبة بن أبي معيط: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٩].

ويراد به بنو آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ﴾ [ق: ١٦].

ويراد به برصيصا[١]: ﴿إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦].

ويراد به الأخنس بن شريق: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

---

(١) برصيصا: عابد كان من بني إسرائيل ثم انتكس. انظر «النذير العريان لتحذير المرضى والمعالجين بالرقى والقرآن»: (ص ٢٥١-٢٥٩).

ويراد به عدي بن أبي ربيعة: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣].

ويراد به أمية بن خلف: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ [الفجر: ١٥].

ويراد به الحارث بن عمرو: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

ويراد به الأسود بن عبدالأسد: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦].

ويراد به كلدة بن أسيد: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ﴾ [الانفطار: ٦].

ويراد به الوليد بن المغيرة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويراد به أبو طالب بن عبدالمطلب: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

ويراد به عتبة بن أبي لهب: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤].

ويراد به قرط بن عبدالله: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

ويراد به أبو جهل: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [العلق: ٦].

ويراد به أبو لهب: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

ويراد به الكافر: ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ٣].

باب الباء

★ الباء:

تكون بمعنى اللام: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وبمعنى عند: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وبمعنى في: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وبمعنى بعد: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وبمعنى على: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

وتكون صلة: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء: ٤٣].

وبمعنى المصاحبة: ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٦١].

وبمعنى إلى: ﴿ما سبقكم بها﴾ [الأعراف: ٨٠].

وبمعنى السبب: ﴿والذين هم به مشركون﴾ [النحل: ١٠٠]. أي: من أجله.

وبمعنى عن: ﴿فاسأل به خبيراً﴾ [الفرقان: ٥٩].

وبمعنى مع: ﴿فتولى بركنه﴾ [الذاريات: ٣٩]. أي: مع جنده.

وبمعنى من: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾ [الإنسان: ٦].

□ باب الحق □

* **الحق:**

يأتي بمعنى الجرم: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ [البقرة: ٦١].

وبمعنى البيان: ﴿الآن جئت بالحق﴾ [البقرة: ٧١].

وبمعنى المال: ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وبمعنى القرآن: ﴿بل كذبوا بالحق﴾ [ق: ٥].

وبمعنى الصدق: ﴿قوله الحق﴾ [الأنعام: ٧٣].

وبمعنى العدل: ﴿بيننا وبين قومنا بالحق﴾ [الأعراف: ٨٩].

وبمعنى الإسلام: ﴿ليحق الحق﴾ [الأنفال: ٨].

وبمعنى المنجز: ﴿وعداً عليه حقاً﴾ [التوبة: ١١١].

وبمعنى الحاجة: ﴿ما لنا في بناتك من حق﴾ [هود: ٧٩].

وبمعنى لا إله إلا الله: ﴿له دعوة الحق﴾ [الرعد: ١٤].

ويراد به الله عز وجل: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم﴾ [المؤمنون: ٧١].

وبمعنى التوحيد: ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وبمعنى الحظ: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ [المعارج: ٢٤].

◘ باب الخير ◘

★ الخير:

يذكر ويراد به القرآن: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ويراد به الأنفع: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

ويراد به المال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

ويراد به ضد الشر: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ويراد به الإصلاح: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ويراد به الولد الصالح: ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ويراد به العافية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ [الأنعام: ١٧].

ويكون بمعنى النافع: ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وبمعنى الإيمان: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٢٣].

وبمعنى رخص الأسعار: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤].

وبمعنى النوافل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وبمعنى الأجر: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦].

وبمعنى الأفضل: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وبمعنى العفة: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

وبمعنى الصلاح: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣].

وبمعنى الطعام: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وبمعنى الظفر: ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وبمعنى الخيل: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢].

وبمعنى القوة: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ [الدخان: ٣٧].

وبمعنى حسن الأدب: ﴿لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

وبمعنى حب الدنيا: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

باب الدين

★ **الدين:**

يذكر ويراد به الجزاء: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

ويراد به الإسلام: ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

ويراد به العدل[1]: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ويراد به الطاعة: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩].

ويراد به التوحيد: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ويراد به الحكم: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

ويراد به الحد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

ويراد به الحساب: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

ويراد به العبادة: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦].

ويراد به الملة: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

باب الذكر

★ **الذكر:**

يذكر ويراد به ذكر اللسان: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ويراد به الحفظ: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣].

ويراد به الطاعة: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [البقرة: ١٥٢].

ويراد به الصلوات الخمس: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

---

(١) العدل: كذا في المخطوط، وقد تحرفت في المطبوع إلى (العذاب).

ويراد به ذكر القلب: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ويراد به البيان: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩].

ويراد به الخير: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣].

ويراد به التوحيد: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: ١٢٤].

ويراد به القرآن: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

ويراد به الشرف: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ويراد به العيب: ﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

ويراد به صلاة العصر: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢].

ويراد به صلاة الجمعة: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

باب الروح

★ الروح:

يذكر ويراد به الأمر: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ويراد به جبريل: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧].

ويراد به الريح: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

ويراد به روح الحيوان: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ويراد به الحياة: ﴿فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]. على قراءة من ضم.

باب الصلاة

★ الصلاة:

تذكر ويراد بها الصلوات الخمس: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣].

ويراد به بها صلاة العصر: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

ويراد بها صلاة الجنازة: ﴿ولا تصل على أحد منهم﴾ [التوبة: ٨٤].

ويراد بها الدعاء: ﴿وصل عليهم﴾ [التوبة: ١٠٣].

ويراد بها الدِّين: ﴿أصلاتك تأمرك﴾ [هود: ٨٧].

ويراد بها القراءة: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ [الإسراء: ١١٠].

ويراد بها موضع الصلاة: ﴿وصلوات ومساجد﴾ [الحج: ٤٠].

ويراد بها المغفرة والاستغفار: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦]. فصلاة الله تعالى المغفرة، وصلاة الملائكة الاستغفار.

ويراد بها الجمعة: ﴿إذا نودي للصلاة﴾ [الجمعة: ٩].

باب عن

ترد صلة: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ [الأنفال: ١].

وتكون بمعنى الباء: ﴿بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ [هود: ٥٣].

وبمعنى من: ﴿يقبل التوبة عن عباده﴾ [التوبة: ١٠٤].

وبمعنى على: ﴿فإنما يبخل عن نفسه﴾ [محمد: ٣٨].

وبمعنى بعد: ﴿لتركبن طبقا عن طبق﴾ [الانشقاق: ١٩].

باب الفتنة

تذكر ويراد بها الشرك: ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ [البقرة: ١٩٣].

ويراد بها القتل: ﴿أن يفتنكم الذين كفروا﴾ [النساء: ١٠١].

ويراد بها المعذرة: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ [الأنعام: ٢٣].

ويراد بها الضلال: ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ [المائدة: ٤١].

ويراد بها القضاء: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ويراد بها الإثم: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

ويراد بها المرض: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾ [التوبة: ١٢٦].

ويراد بها العبرة: ﴿تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ [الممتحنة: ٥].

ويراد بها العقوبة: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣].

ويراد بها الاختبار: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣].

ويراد بها العذاب: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

ويراد بها الإحراق: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

ويراد بها الجنون: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦].

□ باب في □

تكون بمعنى الظرف: ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

وبمعنى نحو: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وبمعنى الباء: ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وبمعنى إلى: ﴿فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وبمعنى مع: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وبمعنى عند: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١].

وبمعنى عن: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

وبمعنى على: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

وبمعنى اللام: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨].

وبمعنى من: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [النمل: ٢٥].

باب القرية

تذكر ويراد بها أريحا[1]: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨].

ويراد بها دير هرقل: ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ويراد بها إيليا: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ويراد بها مصر: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

ويراد بها مكة: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾ [النحل: ١١٢].

ويراد بها مكة والطائف: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ويراد بها جميع القرى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: ٥٨].

ويراد بها قرية لوط: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

ويراد بها أنطاكية: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣].

باب كان

ترد بمعنى وجد: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وبمعنى الماضي: ﴿كَانَ حِلًّا﴾ [آل عمران: ٩٣].

وبمعنى ينبغي: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وصلة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

وبمعنى هو: ﴿مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

وبمعنى صار: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦].

---

(١) أريحا: بفتح الهمزة، وكسر الراء المهملة، وسكون الياء آخر الحروف، ثم الحاء المهملة والألف الممدودة. بلدة بفلسطين ولم ترد نصوص صحيحة تبين أن بعض أسماء البلاد هنا هي المقصودة بالآيات، ولعلها من الإسرائيليات.

▫ باب كلا ▫

هي في القرآن على وجهين:

أحدهما: بمعنى لا:

ومنه في مريم: ﴿اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا﴾ [مريم: ٧٨، ٧٩].

﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وفي المؤمنين: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وفي الشعراء: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا﴾ [الشعراء: ١٤، ١٥]، ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

وفي سبأ: ﴿أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا﴾ [سبأ: ٢٧].

وفي سأل سائل: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّا﴾ [المعارج: ١٤، ١٥]، ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا﴾ [المعارج: ٣٨، ٣٩].

وفي المدثر: ﴿أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا﴾ [المدثر: ١٥، ١٦]، ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا﴾ [المدثر: ٥٢، ٥٣].

وفي القيامة: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا﴾ [القيامة: ١٠، ١١].

وفي المطففين: ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا﴾ [المطففين: ١٣، ١٤].

وفي الفجر: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: ١٦، ١٧].

وفي الهمزة: ﴿أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا﴾ [الهمزة: ٣، ٤].

فهذه أربعة عشر موضعاً يحسن الوقوف عليها.

والثاني: بمعنى حقاً:

ومنه في المدثر: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢)﴾، ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤)﴾

وفي القيامة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾، ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦)﴾

وفي النبأ: ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

وفي عبس: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾، ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾﴾.

وفي الانفطار: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾﴾.

وفي المطففين: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ ﴿٧﴾﴾، ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ ﴿١٥﴾﴾، ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ ﴿١٨﴾﴾.

وفي الفجر: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾.

وفي العلق: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾﴾، ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴿١٥﴾﴾، ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ ﴿١٩﴾﴾.

وفي التكاثر: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

فهذه تسعة عشر موضعاً لا يحسن الوقف عليها.

وجملة ما في القرآن ثلاثة وثلاثون موضعاً هي هذه، وليس في النصف الأول منها شيء.

وقال ثعلب: لا يوقف على «كلا» في جميع القرآن.

▫ باب اللام ▫

اللام في القرآن على ضربين: مكسورة ومفتوحة.

فالمفتوحة: ترد بمعنى التوكيد: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ [هود: ٧٥].

وبمعنى القسم: ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ [هود: ٨].

وزائدة: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢].

والمكسورة: ترد بمعنى الملك: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [لقمان: ٢٦].

وبمعنى أن: ﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وبمعنى إلى: ﴿هدانا لهذا﴾ [الأعراف: ٤٣].

وبمعنى كي: ﴿ليجزي الذين آمنوا﴾ [يونس: ٤].

وبمعنى على: ﴿دعانا لجنبه﴾ [يونس: ١٢].

وصلة: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ [يوسف: ٤٣].

وبمعنى عند: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ [طه: ١٠٨].

وبمعنى الأمر: ﴿ليستأذنكم﴾ [النور: ٥٨].

وبمعنى العاقبة: ﴿ليكون لهم عدواً﴾ [القصص: ٨].

وبمعنى في: ﴿لأول الحشر﴾ [الحشر: ٢].

وبمعنى السبب والعلة: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ [الإنسان: ٩].

باب لولا

وهي في القرآن على وجهين:

أحدهما: امتناع الشيء لوجود غيره: وهو ثلاثون موضعاً:

في البقرة: ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴿٦٤﴾﴾، ﴿ولولا دفع الله الناس ﴿٢٥١﴾﴾.

وفي النساء: ﴿ولولا فضل الله عليكم ﴿٨٣﴾﴾، ﴿ولولا فضل الله عليك ﴿١١٣﴾﴾.

وفي الأنفال: ﴿لولا كتاب من الله سبق ﴿٦٨﴾﴾.

وفي يونس ﴿١٩﴾، وهود ﴿١١٠﴾، وطه ﴿١٢٩﴾، وفصلت ﴿٤٥﴾: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾.

وفي الشورى: ﴿ولولا كلمة سبقت ﴿١٤﴾﴾.

وفي يوسف: [﴿لولا أن رأى ﴿٢٤﴾﴾.

وفي بني إسرائيل: ﴿ولولا أن ثبتناك (٧٤)﴾][1].

وفي الحج: ﴿ولولا دفع الله الناس (٤٠)﴾.

وفي النور: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم (١٠)﴾، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم﴾، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى (٢١)﴾.

وفي الفرقان: ﴿لولا أن صبرنا عليها (٤٢)﴾، ﴿لولا دعاؤكم (٧٧)﴾.

وفي القصص: ﴿لولا أن ربطنا (١٠)﴾، ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة (٤٧)﴾، ﴿لولا أن من الله علينا (٨٢)﴾.

وفي العنكبوت: ﴿ولولا أجل مسمى (٥٣)﴾.

وفي سبأ: ﴿لولا أنتم (٣١)﴾.

وفي الصافات: ﴿ولولا نعمة ربي (٥٧)﴾، ﴿فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣)﴾.

وفي الشورى: ﴿ولولا كلمة الفصل (٢١)﴾.

وفي الزخرف: ﴿ولولا أن يكون الناس (٣٣)﴾.

وفي الفتح: ﴿ولولا رجال مؤمنون (٢٥)﴾.

وفي الحشر: ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء (٣)﴾.

وفي ن: ﴿لولا أن تداركه (٤٩)﴾ [القلم: ٤٩].

والوجه الثاني: بمعنى هلا. وهو أربعون موضعاً:

في البقرة: ﴿لولا يكلمنا الله (١١٨)﴾.

وفي النساء: ﴿لولا أخرتنا (٧٧)﴾.

وفي المائدة: ﴿لولا ينهاهم الربانيون (٦٣)﴾.

---

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من المطبوع، واستدركناه من المخطوط.

وفي الأنعام: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ (٨)﴾، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ (٣٧)﴾، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا (٤٣)﴾.

وفي الأعراف: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا (٢٠٣)﴾.

وفي يونس: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ (٢٠)﴾، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ (٩٨)﴾.

وفي هود: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ (١٢)﴾، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ (١١٦)﴾.

وفي الرعد: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ (٧)﴾.

وفي الكهف: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ [بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ (١٥)﴾، ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ (٣٩)﴾.

وفي طه: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ (١٣٣)﴾](1)، ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا (١٣٤)﴾.

وفي النور: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ (١٦)﴾.

وفي الفرقان: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ (٧)﴾، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ (٢١)﴾، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً (٣٢)﴾.

وفي النمل: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ (٤٦)﴾.

وفي القصص: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ﴾، ﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾.

وفي العنكبوت: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ (٥٠)﴾.

وفي فصلت: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (٤٤)﴾.

وفي الزخرف: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ (٣١)﴾، ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ (٥٣)﴾.

وفي الأحقاف: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا (٢٨)﴾

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من المطبوع، واستدركناه من المخطوط

وفي سورة محمد: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

وفي الواقعة: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾، ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾، ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ ﴿٨٦﴾﴾.

وفي المجادلة: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ ﴿٨﴾﴾.

وفي المنافقين: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي ﴿١٠﴾﴾.

وفي ن: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم: ٢٨].

باب من

تكون صلة: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وبمعنى التبعيض: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وبمعنى عن: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وبمعنى الباء: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ولبيان الجنس: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ [الكهف: ٣١].

وبمعنى على: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وبمعنى في: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

باب الواو

قال ابن فارس: لا تكون الواو زائدة أولاً، وقد تزاد ثانية، نحو: كوثر، وثالثة نحو: جدول، ورابعة نحو: قَرْنُوَة[1]، وهو نبت يدبغ به الأديم، وخامسه نحو: قَمَحْدُوَة[2].

---

(١) القرنوة: بالقاف والراء المهملة والنون، كَترقُوة وزنا، وهو عشب يدبغ به.

(٢) القَمَحْدُوَة: بفتح القاف والميم المفتوحة والحاء المهملة والساكنة والدال المهملة المضمومة والواو المفتوحة والتاء: أعلى القذال خلف الأذنين. والقذال: جماع مؤخر الرأس.

والواو في القرآن:

تكون بمعنى إذ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُم﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وبمعنى الجمع: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣].

وبمعنى القسم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٣].

وتكون مضمرة: ﴿لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ﴾ [التوبة: ٩٢]. المعنى: أتوك وقلت.

وصلة: ﴿إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤].

وبمعنى العطف: ﴿وَآبَاؤُنَا﴾ [المؤمنون: ٨٣].

باب الهدى

يكون بمعنى الثبات: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وبمعنى البيان: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

وبمعنى الرسول: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨].

وبمعنى السنة: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وبمعنى الإصلاح: ﴿لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

وبمعنى الدعاء: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وبمعنى القرآن: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [الإسراء: ٩٤].

وبمعنى الإيمان: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وبمعنى الإلهام: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وبمعنى التوحيد: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ﴾ [القصص: ٥٧].

وبمعنى التوراة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ [غافر: ٥٣].

* * *

الباب الثاني

في تصريف اللغة

وموافقة القرآن لها

في تصريف اللغة وموافقة القرآن لها

فصـل

لما كانت اللغة تنقسم قسمين:

أحدهما: الظاهر الذي لا يخفى على سامعيه، ولا يحتمل غير ظاهره.

والثاني: المشتمل على الكنايات والإشارات والتجوزات، وكان هذا القسم [الثاني][1] هو المستحلى عند العرب؛ وقد نزل القرآن بالقسمين ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله؛ فكأنه قال: عارضوه بأي القسمين شئتم. ولو نزله كله واضحاً لقالوا: هلا نزل بالقسم المستحلى عندنا؟ ومتى وقع في الكلام إشارة أو كناية أو استعارة أو تعريض أو تشبيه كان أحلى وأحسن.

قال امرؤ القيس:

وما ذرفت عينـاك إلا لتقدحـي   بسهميْك في أعشار قلب مقتّل

فشبه النظر بالسهم؛ فحلي هذا عند السامع.

وقال أيضاً:

فقلت لـه لمـا تمطى بجوزه[2]   وأردف أعجـازاً ونـاء بكلكـل

فجعل لليل صلباً وصدراً؛ على جهة التشبيه.

---

(١) الثاني: هذه الزيادة من (رؤوس القوارير) للمؤلف: (ص ١٦٧).

(٢) بجوزه: الجوز: وسط الشيء. والبيت لامرئ القيس. والمشهور: «لما تمطى بصلبه».

وقال الآخر:

من كُمَيْت[1] أجادها طابخاها لم تمت كلّ موتها في القدور

أراد بالطابخين: الليل والنهار. فنزل القرآن على عادة العرب في كلامهم.

فمن عاداتهم: التجوّز: وفي القرآن: ﴿**فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُم**﴾ [البقرة: ١٦]، ﴿**يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ**﴾ [الكهف: ٧٧].

ومن عاداتهم: الكناية: ﴿**وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا**﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿**أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ**﴾ [النساء: ٤٣].

وقد يكنون عن شيء ولم يَجرِ له ذكر: ﴿**حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ [ص: ٣٢].

وقد يصلون الكناية بالشيء وهي لغيره: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)**﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣].

ومن عاداتهم الاستعارة: ﴿**فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٥]، ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ**﴾ [الدخان: ٢٩].

ومن عاداتهم الحذف: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ**﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿**أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ**﴾ [الشعراء: ٦٣]، ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف: ٨٢].

ومن عاداتهم زيادة الكلمة: ﴿**فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ**﴾ [الأنفال: ١٢].

ويزيدون الحرف: ﴿**تَنبُتُ بِالدُّهْنِ**﴾ [المؤمنون: ٢٠].

ويُقدمون ويُؤخرون: ﴿**وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**﴾ [الكهف: ١].

ويذكرون عاماً ويُريدون به الخاص: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣]. يريد: نعيم بن مسعود.

---

(١) كُمَيْت: الخمر التي فيها سواد وحمرة.

وخاصاً يريدون به العام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

وواحداً يريدون به الجمع: ﴿هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ [الحجر: ٦٨]، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧].

وجمعاً يريدون به الواحد: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦].

وينسبون الفعل إلى اثنين وهو لأحدهما: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١]، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

وينسبون الفعل إلى أحد اثنين وهو لهما: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١].

وينسبون الفعل إلى جماعة وهو لواحد: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ [البقرة: ٧٢].

ويأتون بالفعل بلفظ الماضي وهو مستقبل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].

ويأتون بلفظ المستقبل وهو ماض: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩١].

ويأتون بلفظ فاعل في معنى مفعول: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ﴾ [هود: ٤٣]، ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١].

ويأتون بلفظ مفعول بمعنى فاعل: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾ [مريم: ٦١]، ﴿حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ [الإسراء: ٤٥]، ﴿يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً﴾ [الإسراء: ١٠١].

ويأتون بفعّلت في التكثير: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وفي التقليل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ [الأنعام: ٣٨].

ويضمرون الأشياء: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]. أي: من له.

ويضمرون الأفعال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣]. أي: فضربوه.

ويضمرون الحروف: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ [طه: ٢١].

ومن عاداتهم: تكرير الكلام: وفي القرآن: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣، ٧٧].

وقد يريدون تكرير الكلمة، ويكرهون إعادة اللفظ. فيغيرون بعض الحروف، وذلك يسمى الإتباع. فيقولون: أَسوان أتوان، أي: حزين. وشيء تافه نافه. وإنه لَثقْفٌ لَقْفٌ[١]. وجائِعٌ نائِعٌ[٢]. وحِلٌّ[٣] وبِلٌّ. وحيَّاكَ الله وبيَّاكَ[٤]. وحقير نقير. وعين جَذْرة بَذْرة[٥]. أي: عظيمة. ونَضْر مِضْر[٦]. وسَمْجٌ لَمْج[٧]. وسِّغ ليِّغ[٨]. وشكِسٌ لَكِسٌ[٩]، وشيطان ليطان[١٠]، وتفرقوا: شَذَرَ مَذَرَ، وشغر بغر[١١]. ويوم عك لك: إذا كان حاراً. وعطشان نطشان[١٢]. وعِفْريت نِفْريت. وكَثِيرٌ بَثِيرٌ. وكَزٌّ لَزٌّ[١٣]، وكن إن[١٤]، وحارٌّ جارٌّ

(١) ثَقْفٌ لقْفٌ: حاذق خفيف فطن.

(٢) نائع: متمايل جوعاً.

(٣) حلٌّ: بتشديد الكلمتين: يقال للشفاء، وللمباح.

(٤) وبيَّاك: بتشديد الكلمتين أيضاً. تحية ودعاء بالتملك والمكانة.

(٥) بَذْرة: بالباء الموحدة. أي تبدر بالنظر، أو تامة كالبدر: عظيمة.

(٦) نضر مضَر: غضاً طريّا. والذي في المخطوط: (خضر مضر) وكلاهما وارد.

(٧) سمْجٌ لَمْج: قبيح.

(٨) سيِّغ ليِّغ: سهل المدخل.

(٩) شكِسٌ لَكِسٌ: عسر قليل الانقياد.

(١٠) ليطان: ملعون لصوق للشر، أو هو إتباع.

(١١) تفرقوا: شذر مذر، وشغر بغر: أي في كل وجه.

(١٢) نطشان: بالنون والطاء: قلق.

(١٣) كزٌّ لزٌّ: قبيح.

(١٤) (كن إن). لم نقف على هذا المثال ولا على معناه.

يار. وقبيح لقيح شقيح. وثقة تقة نقة. وهو أشق أمق حبق: للطويل. وحسن بسن قسن. وفعلت ذلك على رَغْمه ودَغْمه وشَغْمه. ومررت بهم أجمعين أكتعين أبصعين.

★ ★ ★

فصل

وقد تأتي بكلمة إلى جانب كلمة كأنها معها، وهي غير متصلة بها.

وفي القرآن: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [الأعراف: ١١٠]. هذا قول الملأ. فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠]،

ومثله: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. فقال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

ومثله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] انتهى قول بلقيس. فقال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

ومثله: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]. انتهى قول الكفار. فقالت الملائكة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

★ ★ ★

فصل

وقد تجمع العرب شيئين في كلام؛ فيُرَدُّ كل واحد منهما إلى ما يليق به.

وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

والمعنى: يقول المؤمنون: متى نصر الله؟ فيقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب.

ومثله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]، فالسكون بالليل، وابتغاء الفضل بالنهار.

ومثله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، فالتعزير والتوقير للرسول، والتسبيح لله عز وجل.

★ ★ ★

فصـــل

وقد يحتاج بعض الكلام إلى بيان؛ فيبينونه متصلا بالكلام تارة، ومنفصلا أخرى. وجاء القرآن على ذلك:

فمن المتصل بيانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤].

وأما المنفصل: فتارة يكون في السورة كقوله في براءة: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]. بيانه فيها عند قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤].

وتارة يكون في غير السورة، كقوله في البقرة: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴿٤٠﴾﴾. بيانه في المائدة: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴿١٢﴾﴾.

وفي سورة النساء: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾﴾. بيانه في الحديد: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴿١٣﴾﴾.

وفي الأعراف: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾. بيانه في تبارك: ﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٩].

وفي الأعراف: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴿٣٧﴾﴾. بيان النصيب في الزمر: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴿٦٠﴾﴾.

وفي الأعراف: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴿١٣٧﴾﴾. بيانه في القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴿٥﴾﴾.

وفي براءة: ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. بيانها في مريم: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴿٤٧﴾﴾.

وفي يونس: ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿٧١﴾﴾. بيانها في نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾.

وفي يونس: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿٦٤﴾﴾. بيانه في حم السجدة: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

وفي إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾. بيانه في النحل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

وفي إبراهيم: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴿٤٥﴾﴾. بيانه في العنكبوت: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴿٤٠﴾﴾.

وفي النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴿١١٨﴾﴾. بيانه في الأنعام: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴿١٤٦﴾﴾.

وفي بني إسرائيل: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١]. بيانه في الأنفال: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٣٢﴾﴾.

وفي بني إسرائيل: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].
بيانه في الحجر: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وفي مريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.
بيانه في بني إسرائيل: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ [الإسراء: ٦٤].

وفي طه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴿٤٤﴾﴾. بيانه في النازعات: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

وفي طه: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾. بيانه في الأعراف: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴿١٤٢﴾﴾.

وفي النمل: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾. بيان خصومتهم في الأعراف: ﴿أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴿٧٥﴾﴾.

وفي الأحزاب: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿٢٢﴾﴾. بيان الوعد في آل عمران: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴿١٤٢﴾﴾.

وفي الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴿٧٥﴾﴾. بيانه في القمر: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

وفي الصافات: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴿٣١﴾﴾. بيانه في ص: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴿٨٥﴾﴾.

وفي الصافات: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴿١٧١﴾﴾. بيانه في المجادلة: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴿٢١﴾﴾.

وفي المؤمن: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١]. بيانه في البقرة: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

وفي المؤمن: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾. بيانه في الأعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٥٠﴾﴾.

وفي المجادلة: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴿١٨﴾﴾. بيانه في الأنعام: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وفي ن: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨]. بيانه في الأنبياء: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ ﴿٨٧﴾﴾.

★ ★ ★

فصل

وقد تذكر العرب جواب الكلام مقارناً له، وقد تذكره بعيداً عنه. وعلى هذا ورد القرآن.

فأما المقارن من الجواب:

فقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وأما البعيد: فتارة يكون في السورة:

كقوله في الفرقان: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴿٧﴾﴾. جوابه فيها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴿٢٠﴾﴾.

وتارة يكون في غير السورة:

كقوله تعالى في الأنفال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴿٣١﴾﴾. جوابه في بني إسرائيل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴿٨٨﴾﴾.

وفي الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴿٤٣﴾﴾. جوابه في يس: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾.

وفي الحجر: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾. جوابه في ن: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

وفي بني إسرائيل: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴿٩٢﴾﴾. جوابه في سبأ: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٩﴾﴾.

وفي الفرقان: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴿٦٠﴾﴾. جوابه في الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾.

وفي ص: ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴿٦﴾﴾. جوابه في حم السجدة: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

وفي المؤمن: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾. جوابه في هود: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

وفي الزخرف: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾. جوابه في القصص: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴿٦٨﴾﴾.

وفي الدخان: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ ﴿١٢﴾﴾. جوابه في المؤمنين: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴿٧٥﴾﴾.

وفي القمر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾. جوابه في الصافات: ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وفي الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴿٣٣﴾﴾. جوابه في الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾.

فصـــل

واعلم أن لغة العرب واسعة، ولهم التصرف الكثير؛ فتراهم يتصرفون في اللفظة الواحدة بالحركات، فيجعلون لكل حركة معنى؛ كالحِمْل والحَمْل[١]، والرُّوح والرَّوْح[٢]، وتارة بإعجام، كالنضح والنضخ[٣]، والقبضة والقبصة[٤]، والمضمضة والمصمصة[٥].

وتارة يقلبون حرفاً من كلمة؛ ولا يتغير عندهم معناها، كقوله: صاعقة وصاقعة، وجبذ وجذب، وما أطيبه وأيطبه، وربض ورضب، وأنبض في القوس وأنضب، ولعمري ورعملي، واضمحل وامضحل، وعميق ومعيق، وسبسب وبسبس[٦]، ولبكت الشيء وبلكته، وأسير مكلّب ومكبل، وسحاب مكفهر ومكرهف، وناقة ضمرز وضرزم: إذا كانت مسنة، وطريق طامس وطاسم، قفا الأثر وقاف الأثر، وقاع البعير الناقة وقعاها، وقوس عطل وعلط: لا وتر عليها، وجارية قَتين وَقِنيت: قليلة الدرّ، وشرخ الشباب وشخره: أوله، ولحم خنز وخزن، وعاث يعيث وعثى يعثى: إذا أفسد، وتنح عن لقم الطريق[٧] ولمق الطريق، وبطيخ وطبيخ، وماء سلسال ولسلاس

---

(١) (كالحِمل والحمَل): بكسر الحاء في اللفظ الأول وفتحها في الثاني، وهو بالكسر: ما يحمل عموماً، وبالفتح: ما يحمل في البطن.

(٢) (الرُّوح والرَّوح): بضم الراء في اللفظ الأول وفتحها في الثاني. وهي بالضم: ما به قوام النفس. وبالفتح: الراحة والرحمة والنسيم.

(٣) (النضح والنضخ): الرشّ، والنضح بالحاء المهملة أقل من النضخ بالخاء المعجمة.

(٤) (القبضة والقبصة): بالضاد المعجمة: في الكفّ، وبالصاد المهملة: في الأصابع.

(٥) (المضمضة والمصمصة): المضمضة بالمعجمتين: ملء الفم، وبالمهملتين: بطرف الشفاه.

(٦) السبسب والبسبس: القفْر الخالي.

(٧) لقم الطريق: معظمه.

ومسلسل ومُلسْلَس: إذا كان صافياً، ودقم فاه بالحجر ودمقه: إذا ضربه، وفثأتُ القدر وثفأتها: إذا سكّنت غليانها. وكبكبت الشيء وبكبكته: إذا طرحت بعضه على بعض.

★ ★ ★

فصل

ومن سعة اللغة وحسن تصرّفها؛ أن العرب تضع للشيء الواحد أسماء من غير تغيير يعتريه، فيقولون: السيف والمهند والصارم.

ويغيرون الاسم بتغيير يعتري، فيقولون لمن نزل بالرُّكِي(١) يملأ الدلو: مايح، وللمستقي من أعلاها: ماتح؛ فالتاء المعجمة من فوق لمن فوق، والياء المعجمة من تحت لمن تحت.

وتضع العرب للشيء الواحد أسماء تختلف باختلاف محالِّه، فيقولون لمن انحسر الشعر من جانبي جبهته: أنزع، فإذا زاد قليلاً قالوا: أجلح، فإذا بلغ الانحسار نصف رأسه قالوا: أجلى وأجله، فإذا زاد قالوا: أصلع، فإذا ذهب الشعر كله قالوا: أحصّ.

والصلع عندهم ذهاب الشعر، والقرع ذهاب البشرة.

ويقولون: شفة الإنسان. ويسمونها من ذوات الخف: المِشْفر، ومن ذوات الظلف: المقمة، ومن ذوات الحافر: الجحفلة، ومن السباع: الخَطْم، ومن ذوات الجناح غير الصائد: المِنْقار، ومن الصائد: المِنْسَر، ومن الخنزير: الفِنْطيسة.

ويقولون: صدر الإنسان. ويسمونه من البعير: الكرْكِرَة، ومن الأسد: الزَّوْر، ومن الشاة: القَصّ، ومن الطائر: الجُؤْجُؤ، ومن

(١) الرُّكي: جمع: رَكِيّة: وهي البئر.

الجرادة: الجَوْشَن.

والثدي: للمرأة، وللرجل: ثُنْدُوة. وهو من ذوات الخف: الخلْف، ومن ذوات الظلف: الضرع، ومن ذوات الحافر والسباع: الطَّبي.

والظفر: للإنسان. وهو من ذوات الخف: المنسم، ومن ذوات الظلف: الظلف، ومن ذوات الحافر: الحافر، ومن السباع والصائد من الطير: المخلب، ومن الطير غير الصائد والكلاب ونحوها: البُرْثُن. ويجوز البرثن في السباع كلها.

والمعدة: للإنسان. بمنزلة الكِرْش للأنعام، والحَوْصلة للطائر.

★ ★ ★

فصل

وتفرّق العرب في الشهوات؛ فيقولون: جائع في الخبز، قَرِم إلى اللحم، عطشان في الماء، عيمان إلى اللبن، قَرِد إلى التمر، جَعِم إلى الفاكهة، شَبِق إلى النكاح.

ويقولون: البيض للطائر، والمكْن للضباب، والمَازِن للنمل، والسِرْو للجراد، والصؤاب للقمل.

ويفرقون في المنازل؛ فإن كان من مَدَر، قالوا: بيت، وإن كان من وبر، قالوا: بِجَاد، وإن كان من صوف؛ قالوا: خِبَاء، وإن كان من الشَعَر، قالوا: فُسْطاط، وإن كان من غزل، قالوا: خيمة، وإن كان من جلود، قالوا: قِشْع.

ويفرقون في الأوطان. فيقولون: وطن الإنسان، وعَطَن البعير، وعَرِين الأسد، ووِجَار الذئب والضبع، وكِنَاس الظبي، وعُشّ الطائر،

وقرية النمل، وكَوْر الزنابير، ونافقاء اليربوع.

ويقولون لما يضعه الطائر على الشجر: وكْر، فإن كان على جبل أو جدار هو: وكْن، وإذا كان في كن فهو: عُشّ، وإذا كان على وجه الأرض فهو: أُفْحوُص. والأُدْحِيُّ: للنعام خاصة.

ويقولون: عدا الإنسان، وأحضر الفرس، وأرقل البعير، وعسل الذئب، ومزع الظبي، وزف النعام.

ويقولون: طفر الإنسان، وضبر الفرس، ووثب البعير، وقفز العصفور، وطمر البرغوث.

ويفرقون في أسماء الأولاد؛ فيقولون لولد كل سبع: جرو[1]، ولولد كل ذي ريش: فَرْخ، ولولد كل وحشية: طِفْل، ولولد الفرس: مُهْر، وفِلْو. ولولد الحمار: جَحْش، وَعفْو. ولولد البقرة: عجْل، ولولد الأسد: شبْل، ولولد الظبية: خشْف، ولولد الفيل: دَغْفل، ولولد الناقة: حُوَار، ولولد الثعلب: هجرس، ولولد الضب: حسْل، ولولد الأرنب: خرْنَق، ولولد النعام: رَأْل، ولولد الدُّب: دَيسم، ولولد الخنزير: خِنَّوْص[2]، ولولد اليربوع والفأرة: دَرْص، ولولد الحية: حريش[3].

ويفرقون في الضرب؛ فيقولون للضرب بالراح على مقدم الرأس: صقع، وعلى القفا: صفع، وعلى الوجه: صك، وعلى الخد ببسط

(١) (جرْو). مثلثة الجيم، أي: تفتح وتضم وتكسر: ولد الكلب والسباع.

(٢) خِنَّوْص: بكسر الخاء، وفتح النون المشددة، وسكون الواو، جمعه خنانيص.

(٣) (حريش): كذا في المطبوع. والذي في فقه اللغة للثعالبي ص (٩٥): «حِرْبِش». ولكن اللسان والقاموس على أن الحربش: الأفعى، أو الكبيرة منها.

الكف: لطْم، وبقبضها: لكْم، وبكلتا اليدين: لدْم، وعلى الذقن والحنك: وهْز، وعلى الجنب: وخْز، وعلى الصدر والبطن بالكف: وكْز، وبالركبة: زبْن، وبالرجل: ركْل.

وكل ضارب بمؤخره من الحشرات كلها كالعقارب: تلسع، وكل ضارب منها بفيه: يلدغ.

ويفرقون في الكشف عن الشيء من البدن؛ فيقولون: حسر عن رأسه، وسفر عن وجهه، وافترّ عن نابه، وكشّر عن أسنانه، وأبدى عن ذراعيه، وكشف عن ساقيه، وهتك عن عورته.

ويفرقون في الجماعات؛ فيقولون: موكب من الفرسان، وكبكبة من الرجال، وجَوْقة من الغلمان، ولَمَّة من النساء، ورعيل من الخيل، وصِرْمة من الإبل، وقطيع من الغنم، وسِرْب من الظباء، وعرْجَلة من السباع، وعِصابة من الطير، ورِجْل من الجراد، وخَشْرَم من النحل.

ويفرقون في الامتلاء؛ فيقولون: بحر طام، ونهر طافح، وعين ثرّة، وإناء مُفْعَم، ومجلس غاصٌّ بأهله.

ويفرقون في اسم الشيء اللين؛ فيقولون: ثوب لين، ورمح لَدْن، ولحم رَخْص، وريح رُخاء، وفِرَاش وَثِير، وأرض دَمِثَة.

ويفرقون في تغير الطعام وغيره، فيقولون: أرْوَح اللحم، وأَسِنَ الماء، وخَنِزَ الطعام، وسَنِخَ السمْن، وزَنِخَ الدهن، وقَنِمَ الجوز، ودَخِنَ الشراب[١]، وصَدِئَ الحديد، ونَغِلَ الأديم[٢].

---

(١) دَخِن الطعام أو الشراب: أصابه دخان فأخذ ريحه.

(٢) نغِلَ الأديم: فسد في الدباغ.

ويقولون: يدي من اللحم: غَمِرَة، ومن الشحم: زَهِمَة، ومن البيْض: زَهِكَة، ومن الحديد: سَهِكَة، ومن السمك: صَمِرة، ومن اللبن والزبدة: شترة، ومن الثريد: مردة، ومن الزيت: قنمه، ومن الدهن: زنخة، ومن الخل: خمطة، ومن العسل: لزقة، ومن الفاكهة: لزجة، ومن الزعفران: ردغة، ومن الطين: ودغة، ومن العجين: ودخة، ومن الطيب: عبقة، ومن الدم: ضرجة، وسطلة، وسلطة، ومن الوحل: لثقة، ومن الماء: بللة، ومن الحمأة: ثئطة، ومن البرد: صردة، ومن الأشنان: قضضة، ومن المداد: وجدة، ومن البزر والنفط: نمشة ونشمة، ومن البول: قتمة، ومن العذرة: طفسة، ومن الوسخ: درنة، ومن العمل: مجلة.

ويفرقون في الوسخ؛ فإذا كان في العين، قالوا: رَمَص، فإذا جف، قالوا: غمص، فإذا كان في الأسنان، قالوا: حفر، فإذا كان في الأذن فهو: أُف، وإذا كان في الأظفار فهو: تُف، وإذا كان في الرأس، قالوا: حزاز. وهو في باقي البدن: درن.

ويفرقون في الرياح: فإذا وقعت الريح بين ريحين فهي: نكباء، فإذا وقعت بين الجنوب والصبا فهي الجربياء، فإذا هبت من جهات مختلفة فهي: المتناوحة، فإذا جاءت بنفس ضعيف فهي: النسيم، فإذا كانت شديدة فهي: العاصف، فإذا قويت حتى قلعت الخيام فهي: الهَجُوم، فإذا حركت الأشجار تحريكاً شديداً وقلعتها فهي: الزَعْزَع، فإذا جاءت بالحصباء فهي: الحاصب، فإذا هبت من الأرض كالعمود نحو السماء فهي: الإعصار، فإذا جاءت بالغبرة

فهي: الهبوة، فإذا كانت باردة فهي: الحَرْجف والصَرْصر، فإذا كان مع بردها ندى فهي: البليل، فإذا كانت حارة فهي: السَّموم، فإذا لم تلقح ولم تحمل مطراً فهي: العقيم.

ويفرقون في المطر؛ فأوله: رَشّ، ثم طش، ثم طل، ورذاذ، ثم نضخ، ثم هطل وتهتان، ثم وابل وجود. فإذا أحيى الأرض بعد موتها فهو: الحياء. فإذا جاء عقيب المحْل أو عند الحاجة فهو: الغيث، فإذا كان عاماً فهو: الجَدَاء، وإذا روى كل شيء فهو: الجود، فإذا كان كثير القطر فهو: الهطل والتهتان، فإذا كان ضخم القطر شديد الوقع فهو: الوبل.

ويقولون: هجهجتُ بالسبع، وشايعت بالإبل، ونعقت بالغنم، وسأسأت بالحمار، وهأهأت بالإبل: إذا دعوتها للعلف، وجأجأت بها: إذا دعوتها للشرب. وأشليت الكلب: دعوته، وآسدته[1]: أرسلته.

ويفرقون في الأصوات: فيقولون: رغا البعير، وجرجر، وهدر، وقبقب. وأطت الناقة، وصهل الفرس، وحمحم. ونهم الفيل، ونهق الحمار، وسحل. وشحج البغل، وخارت البقرة، وجأرت. وثاجت النعجة، وثغت الشاة، ويعرت. وبغم الظبي، ونزب. ووعوع الذئب، وضبخ الثعلب، وضغت الأرنب، وعوى الكلب، ونبح. وصأت النسور، وضأت الفأرة، وفحّت الأفعى، ونعق الغراب، ونَعَب. وزقا الديك، وسقع. وصفر النسر، وهدر الحمام، وهدل. وغرّد المكّاء، وقبع الخنزير، ونقت العقرب، وانقضت الضفادع، ونقّت أيضاً، وعزفت الجن.

---

(١) في القاموس: آسد الكلب وأوسده وأسّده: أغراه.

فصـــل

وتقول العرب في الأمر[1]: وهن، وفي الثوب: وهى، وفي الحساب: غلت، وفي غيره: غلط، وفي الطعام: بشم، وفي الماء: بغر، وحلا الشيء في فمي، وحلي في عيني.

★ ★ ★

فصـــل

المراهق من الغلمان: بمنزلة المُعْصِر من الجواري، والحَزَوَّر من الصبيان: بمنزلة الكاعب، والكهل من الرجال: بمنزلة النَّصَف من النساء، والقارِح من الخيل: بمنزلة البازِل من الإبل، والعِجْل من البقر. والشادِن من الظباء: كالناهض من الفِراخ، والبكْر من الإبل: بمنزلة الفتى، والقَلُوص: بمنزلة الجارية، والجمل: بمنزلة الرجل، والناقة: بمنزلة المرأة، والبعير: بمنزلة الإنسان.

والغرز للجمل: كالركاب للفرس، والغُدّة للبعير: كالطاعون للإنسان، والهالة من القمر: كالدارة من الشمس، والبصيرة في القلب: كالبصر في العين، والأسباط في بني إسحاق: كالقبائل في بني إسماعيل، وأرداف الملوك في الجاهلية: كالوزراء في الإسلام، والأقيال لحمير: كالبطارق للروم، والقواد للعرب.

★ ★ ★

(١) في المخطوط: (الأعظم).

فصل

وللعرب خاص وعام: فالبغض عام، والفرك بين الزوجين خاص. والنظر إلى الأشياء عام، والشيم إلى البرق خاص. الصراخ عام، والناعية على الميت خاص. الذَّنَب للحيوان والبهائم عام، والذُّنَابَى للفرس خاص. السيْر عام، والسُّرى بالليل خاص. الهرب عام، والإباق للعبيد خاص. الرائحة عام، والقتار للشواء خاص.



فصل

ومن جملة المسلم للعرب: أنهم لا يقولون: «مائدة» إلا إذا كان عليها طعام؛ وإلا فهي «خوان». ولا للعظم «عَرْق» إلا ما دام عليه لحم. ولا «كأس» إلا إذا كان فيه شراب؛ وإلا فهي زجاجة. ولا «كوز» إلا إذا كانت له عُرْوة؛ وإلا فهو كوب. ولا «رِضَاب» إلا إذا كان في الفم؛ وإلا فهو بُصاق. ولا «أريكة» إلا للسرير إذا كان عليه قُبَّة؛ فإن لم يكن عليه قبة فهو سرير. ولا «رِيطة» إلا إذا كانت لِفْقتين؛ وإلا فهي مُلاَءَة. ولا «خِدْر» إلا إذا كان فيه امرأة؛ وإلا فهو سِتْر. ولا للمرأة «ظعينة» إلا إذا كانت في الهودج. ولا «قلم» إلا إذا كان مبريًا؛ وإلا فهو أنبوب. ولا «عِهْن» إلا إذا كان مصبوغاً؛ وإلا فهو صوف. ولا «وقود» إلا إذا اتقدت فيه النار؛ وإلا فهو حطب. ولا «رَكِيّة» إلا إذا كان فيها ماء؛ وإلا فهي بئر. ولا للإبل «راوية» إلا ما دام عليها الماء. ولا للدلو «سَجْل» إلا ما

دام فيها الماء. ولا «ذَنُوب» إلا ما دامت ملأى. ولا «نَفَق» إلا إذا كان له منفذ؛ وإلا فهو سِرْب. ولا لسرير «نعْش» إلا ما دام عليه الميت. ولا للخاتم «خاتم» إلا إذا كان عليه فص. ولا «رُمْح» إلا إذا كان له زُجّ. وسنان؛ وإلا فهو أنبوب، وقناة. ولا «لطيمة» إلا للإبل التي تحمل الطيب والبز خاصة. ولا «حَمُولة» إلا للتي تحمل الأمتعة خاصة. ولا «بَدَنَة» إلى للتي تُجعل للنحر. ولا «ركْب» إلا لركبان الإبل. ولا «هَضْبة» إلا إذا كانت حمراء. ولا يقال «غيث» إلا إذا كان في إبّانه؛ وإلا فهو مطر. ولا يقال «عُشّ» حتى يكون عيدانا مجموعة؛ فإذا كان نقْبا في جبل أو حائط: فهو وكر ووكن.

* * *

الباب الثالث

في علوم الحديث

في علوم الحديث

فصل
في ذكر نبينا محمد ﷺ

◻ ذكر نسبه ﷺ:

هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان[1] بن أد بن أدد بن زيد بن يقدر بن يقدم بن الهميسع بن النبت بن قيذار بن إسماعيل بن تارخ بن ناحور بن سارغ بن أرغوة بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يزد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم.

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

◻ ذكر أسمائه ﷺ:

هو محمد، وأحمد، والماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفي، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم، والشاهد، والبشير، والنذير، والضحوك، والقتال، والمتوكل، والفاتح، والخاتم، والمصطفى، والرسول، والنبي، والأمي، والقُثَم.

---

(١) ما فوق عدنان فيه اختلاف كثير من كتاب لآخر. وقال البغوي في شرح السنة: (١٣/ ١٩٣): «ولا يصح النسب فوق عدنان».

فالعاقب آخر الأنبياء، والمقفي تبع الأنبياء، والضحوك صفته في التوراة؛ لأنه كان طيب النفس فكِهًا، والقُثَم من القثْم؛ وهو الإعطاء[1].

ذكر عمومته ﷺ:

الحارث، والزبير، وأبو طالب، وحمزة، وأبو لهب، والغيْداق، والمقوم، وضرار، والعباس، وقثم، وحجل: واسمه المغيرة.

ذكر عماته ﷺ:

أم حكيم: وهي البيضاء، وبرة، وعاتكة، وصفية، وأروى، وأميمة. وأسلمت صفية، واختلف في عاتكة، وأميمة.

ذكر زوجاته ﷺ:

تزوج خديجة، ثم سودة، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم أم سلمة، ثم جويرية، ثم زينب بنت جحش، ثم زينب بنت خزيمة، ثم أم حبيبة، ثم صفية، ثم ميمونة. فماتت خديجة وزينب بنت خزيمة في حياته، وتوفي عن التسع البواقي.

ذكر أولاده ﷺ:

القاسم، وعبدالله: وهو الطيب، والطاهر، وإبراهيم، وفاطمة وزينب، ورقية، وأم كلثوم.

ذكر مواليه ﷺ:

أسلم: ويكنى أبا رافع، أبو رافع. آخر: والد البهي، أحمر،

---

(١) قُثَم: كزُفَر. معدول عن قاثم. وهو كثير العطاء، والجموع للخير والعيال. وفي المخطوط: (القيم) وهو خطأ.

آنسة. أسامة، أفلح، ثوبان، ذكوان، رافع، رباح، زيد بن حارثة، سلمان، سالم، سليم، سابق، سعيد، شقران: واسمه صالح، ضميرة، عبيدالله، عبيد، فضالة، كيسان، مهران: وهو سفينة. وقيل اسمه سفينة، وقيل رومان، وقيل عبس. مدعم، نافع، نفيع - وهو أبو بكرة. نبيه، واقد، وردان، هشام، يسار، أبو أثيلة، أبو الحمراء، أبو ضميرة، أبو عبيد، أبو مويهبة، أبو واقد، أبو لبابة، أبو لقيط، أبو هند، سابور.

ذكر مؤذنيه ﷺ:

بلال، وسعد، وابن أم مكتوم، وأبو محذورة.

ذكر كتابه ﷺ:

أبو بكر، عمر، عثمان، علي، أبّي، زيد، معاوية، حنظلة، خالد بن سعيد، أبان بن سعيد، العلاء بن الحضرمي، وكان المداوم على الكتابة: زيد ومعاوية.

ذكر نقباء الأنصار:

أسعد بن زرارة، أسيد بن حضير، البراء بن معرور، رافع بن مالك، سعد بن خيثمة، سعد بن الربيع، عبدالله بن رواحة، عبدالله ابن عمرو بن حزام، عبادة بن الصامت، سعد بن عبادة، المنذر ابن عمرو، أبو الهيثم بن التيهان، ونقب النبي ﷺ على النقباء أسعداً.

▫ تسمية من جمع القرآن حفظاً على عهد رسول الله ﷺ :

عثمان بن عفان، أُبيّ، معاذ بن جبل، أبو الدرداء، زيد بن ثابت، أبو زيد الأنصاري. قال ابن سيرين: وتميم الداري. وقال القرظي: وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب.

▫ تسمية من كان يفتي على عهد رسول الله ﷺ :

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبدالرحمن بن عوف، وابن مسعود، وأُبيّ، ومعاذ، وعمار، وحذيفة، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو موسى، وسلمان.

▫ تسمية من تأخر موته من الصحابة:

آخر من مات من أهل العقبة: جابر بن عبدالله بن عمرو. ومن أهل بدر: أبو اليسر. ومن المهاجرين: سعد بن أبي وقاص؛ وهو آخر العشرة موتاً. وآخر من مات بمكة من الصحابة: ابن عمر، وبالمدينة: سهل بن سعد بن معاذ، وبالكوفة: عبدالله بن أبي أوفى، وبالبصرة: أنس بن مالك، وبمصر: عبدالله بن الحارث بن جزء، وبالشام: عبدالله بن بسر، وبخراسان: بريدة. وآخر الناظرين إلى رسول الله ﷺ موتاً: أبو الطفيل عامر بن واثلة.

▫ تسمية فقهاء المدينة السبعة :

سعيد بن المسيب، والقاسم، وأبو بكر بن عبدالرحمن، وخارجة، وعبيد الله بن عبدالله، وعروة، وسليمان بن يسار.

منتخب من ذكر الأوائل

أول ما خلق الله: القلم. أول جبل وضع في الأرض: أبو قبيس. أول مسجد وضع في الأرض: المسجد الحرام. أول ولد آدم: قابيل. أول من خط وخاط: إدريس. أول من اختتن وضاف: إبراهيم. أول من ركب الخيل وتكلم العربية: إسماعيل. أول من عمل القراطيس: يوسف. أول من سرد الدروع، وقال: أما بعد: داود. أول من صبغ بالسواد: فرعون. أول من دخل الحمام، وعمل الصابون: سليمان. أول من طبخ الآجر: هامان.

★ ★ ★

فصل

أول من سيب السوائب: عمرو بن لحي. أول من سن الدية مائة من الإبل: عبدالمطلب. أول من قطع في السرقة في الجاهلية، وقضى بالقسامة، وخلع نعليه عند دخول الكعبة: الوليد بن المغيرة. أول من قضى في الخنثى من حيث يبول: عامر بن الظرب. أول عربي قسم للذكر مثل حظ الأنثيين: عامر بن جشم.

★ ★ ★

فصل

أول ما نزل من القرآن: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق: ١]. أول آية نزلت في القرآن في القتال: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ**﴾ [الحج: ٣٩]. أول من أسلم من الرجال: أبو بكر، ومن الصبيان: علي، ومن الموالي: زيد، ومن النساء: خديجة، ومن الأنصار: جابر بن عبدالله

ابن رئاب. أول من هاجر إلى الحبشة: حاطب بن عمرو، وإلى المدينة: مصعب بن عمير، ومن النساء: أم كلثوم بنت عقبة[١]. أول من بايع ليلة العقبة: أسعد بن زرارة. أول من بايع بيعة الرضوان: أبو سنان الأسدي. أول من أذن: بلال. أول من بنى مسجداً في الإسلام: عمار. أول من سل سيفاً في الإسلام: الزبير. أول من عدا به فرسه في سبيل الله: عبدالله بن جحش؛ وهو أول من دعا: يا أمير المؤمنين. أول شهيد في الإسلام: سُمية.

* * *

فصل

أول ظِهار كان في الإسلام: ظهار أوس بن أوس بن الصامت من المجادِلَة[٢]. أول خلع كان في الإسلام: خلع حبيبة بنت سهل من ثابت بن قيس. أول لعان كان في الإسلام: لعان هلال بن أمية مع زوجته. أول مرجوم كان في الإسلام: ماعز. أول من سن الصلاة عند القتل: خبيب. أول من أوصى بثلث ماله: البراء بن معرور. أول من دُفن بالبقيع: عثمان بن مظعون.

* * *

فصل

أول من جمع القرآن: أبو بكر. أول من قص: تميم[٣]. أول من وضع النحو: أبو الأسود[٤]. أول من نقط المصحف: يحيى بن يعمر.

---

(١) في المطبوع: (عتبة)، وفي المخطوط: (عقبة) وهو الصواب.

(٢) المجادلة: خولة بنت ثعلبة.

(٣) (تميم): هو الداري. (٤) (أبو الأسود): هو الدؤلي.

فصل

أول ما يرفع من الناس: الخشوع. أول ما تفقدون من دينكم: الأمانة. أول الآيات: طلوع الشمس من مغربها. أول من تنشق عنه الأرض: نبينا ﷺ، وهو أول من يقرع باب الجنة، وأول شافع، وأول مشفع. أول من يكسى: إبراهيم. أول ما يحاسب العبد به: الصلاة. أول أمة تدخل الجنة: أمة نبينا محمد ﷺ.

* * *

منتخب في ذكر المنسوبين إلى غير آبائهم

فمن المنسوبين إلى أمهاتهم: بلال ابن حمامة، واسم أبيه: رباح. ابن أم مكتوم، واسم أبيه: عمرو. بشير ابن الخصاصية، واسم أبيه: معبد. الحارث ابن البرصاء، واسم أبيه: مالك. حفاف ابن ندبة، واسم أبيه عمير. سعد ابن خيثمة، واسم أبيه: بحير. شرحبيل ابن حسنة، واسم أبيه: عبدالله. عبدالله ابن بحينة، واسم أبيه: مالك. مالك ابن نميلة، واسم أبيه: ثابت. معاذ ومعوذ ابنا عفراء، واسم أبيهما: الحارث. يعلي ابن سيابة، واسم أبيه مرة. يعلي ابن منية، واسم أبيه أمية. وهؤلاء كلهم صحابة.

ومن العلماء بعدهم: إسماعيل ابن علية، واسم أبيه: إبراهيم. منصور ابن صفية، واسم أبيه: عبدالرحمن. محمد ابن عائشة، واسم أبيه: حفص. إبراهيم ابن هراسة، واسم أبيه: سلمة. محمد ابن عثمة، واسم أبيه: خالد.

* * *

فصل

في ذكر أسماء تساوى فيها الرجال والنساء

فمن ذلك ما تساوى فيه الاسم والنسب: أمية بن أبي الصلت قال فيه النبي ﷺ: «كاد أمية يسلم»[١]. أمية بنت أبي الصلت؛ روى حديثها ابن إسحاق.

أمية بن عبدالله؛ حدث عن ابن عمر. أمية بنت عبدالله؛ تروي عن عائشة.

عمارة بن حمزة؛ من ولد عكرمة. عمارة بنت حمزة؛ وهي التي اختصم فيها علي وجعفر وزيد.

فضالة بن الفضل؛ حدث عن أبي بكر بن عياش. فضالة بنت الفضل؛ روى عنها عبدالرحمن بن جبلة.

طلحة بن أبي سعيد المصري؛ روى عن القاسم بن محمد. طلة بنت أبي سعيد؛ روى عنها ابن أبي جبلة أيضاً.

هند بن المهلب؛ روى عنه محمد بن الزبرقان. هند بنت المهلب؛ حدثت عن أبيها.

هبة بن أحمد؛ شيخنا. هبة بنت أحمد، حدثت عن أحمد بن محمود.

★ ★ ★

فصل

ومن ذلك ما يتشابه به في الخط ويتباين في اللفظ مع تساوي اسم الأب: بسرة بنت صفوان، صحابية، يسرة بن صفوان، حدث عن إبراهيم بن سعد.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: (٢٢٥٥).

حمزة بن عبدالله؛ جماعة. جمرة بنت عبدالله صحابية.

خيثمة بن عبدالرحمن، روى عن ابن عمر. حنتمة بنت عبدالرحمن، أخت أبي بكر بن عبدالرحمن الفقيه.

* * *

فصل

ومن الأسماء التي تساوى فيها الرجال والنساء دون أنسابهم: أسماء بن حارثة، وأسماء بن رباب: صحابيان، أسماء بنت أبي بكر، وأسماء بنت عميس: صحابيتان. بركة أم أيمن: مولاة رسول الله، بركة أم عطاء بن أبي رباح، ومن الرجال: بركة بن الوليد؛ روى عن ابن عباس، وبركة بن نشيط؛ روى عن عثمان ابن أبي شيبة. بريدة بن الحصيب: صحابي، بريدة بنت بشر: صحابية. جويرية ابن مسهر؛ يروى عن علي، جويرية بن بشير؛ يروي عن الحسن. جويرية بن أسماء؛ عن نافع، جويرية بنت زياد، جويرية بنت علقمة. حميضة بن رقيم؛ صحابي، حميضة بن الشمردل؛ تابعي، حميضة ابن قيس؛ شاعر. ومن النساء: حميضة بنت ياسر، حميضة بنت أبي بكر. الرباب بنت النعمان؛ عمة سعد بن معاذ، الرباب زوجة الحسين بن علي. وفي الرجال تابعي يقال له: رباب؛ سمع من ابن عباس. زيد في الرجال كثير، وزيد بنت مالك بن عميت. عصيمة؛ حليف للأنصار من بني أسد، عصيمة؛ حليف لهم من أشجع: كلاهما شهدا بدراً. ومن النساء: عصيمة بنت حبار، عصيمة بنت أبي الأفلح: مبايعتان. علية بن زيد صحابي، ومن النساء: علية بنت شريح

أم السائب بن أخت نمر، وعلية بنت المهدي. عميرة بن يثربي؛ قاضي البصرة لعمر بن الخطاب، عميرة بن سعد؛ يروي عن علي رضي الله عنه، عميرة بن زياد؛ عن ابن مسعود. ومن النساء: عميرة بنت سهل، عميرة بنت ظهير، عميرة بنت ثابت: صحابيات.

* * *

فصل

ومما يقع الإشكال فيه: إسحاق الأزرق، وإسحاق ابن الأزرق: فالأول مصري، روى عنه الليث بن سعد. والثاني يروي عن الثوري.

عياش بن الأزرق، وعباس الأزرق: فالأول بالشين المعجمة، روى عنه جعفر الفريابي. والثاني بالسين المهملة، روى عنه حماد[1].

هاشم بن البريد، وهاشم البريد. فالأول كوفي، حدث عن أبي إسحاق السبيعي. والثاني بصري، روى عنه عبدالصمد بن عبدالوارث.

* * *

منتخب من الأسماء المفردة

أحمد بن عجيان، أثال، أثان، أرطبان، أسفع، أيقع[2]، أفلت، أكيل، أخيل، بحبح، يسمين[3]، بلهط، بلبج، بيحرة، ثهلان، جاحل، جيب، جحدل[4]، خنفر[5]، خرباق، ديسم، رعيان،

(١) (روى عنه حماد) كذا في المطبوع، وفي المخطوط: (روى عن الحمادين). وترجمته في «تهذيب الكمال»: (٣١٢٦)، ولم يذكر حماد ولا الحمادان في ترجمته.

(٢) أيقع: ايفع. خ ل.

(٣) يسمين: كذا في المطبوع، ولعله: «ياسمين». والذي في المخطوط: «سمين».

(٤) جحدل: جحذب. خ ل.

(٥) خنفر: جيفر. خ ل.

زنيح، ركيح، زبيد، سرق، سياك، شبيب، شتير[١]، شنيف[٢]، شويس، شييم، صحار، صمصم[٣]، ضريك، طيسلة، عتريس، عذافر، عرزب، عرعرة، عسعس، عباق[٤]، فصافص، فنج، قحذم، قريع، كركرة، كهدل، لبى، لبطة، لمازة، مراجم، مشرح، معقس، مقلاص، مليل، هلقام، المنقع، منجل، ياسم، نبتل[٥]، نسطاس، نوسجان، وقدان، هبيب، هجنع، هداج، هرماس، هصان، يحنّس[٦]، يعفر، هيطان.

★ ★ ★

منتخب من مشتبه الأسماء

أحمد؛ كثير، وأحمد بن عجيان: شهد فتح مصر، أنس؛ كثير، وأَتَش، جد محمد بن الحسن بن أتش الصنعاني، بشر؛ كثير، وبسر بن أبي أرطاة: صحابي، ونشر: هو محمد بن نشر الكوفي. روى عن ابن الحنفية، ويسر أبو اليسر: صحابي، ويسر بن أنس، متأخر، ونسر، جد يحيى بن أبي بكير قاضي كرمان، بيان؛ كثير، وبنان بن محمد الزاهد، وبنّان بن يعقوب، وبتان: هو سعيد بن بتان الأيلي، يزيد، كثير، وبريد بن أصرم: يروي عن علي، وتَزيد ابن جشم، في نسب الأنصار، وبرند: هو عرعرة بن البرند، حماد، كثير، وجماد بن أيوب، روى عن حماد بن أبي سليمان،

---

(١) شتير: سنيد خ ل.
(٢) شنيف: خ ل.
(٣) صمصم: ضيم. خ ل.
(٤) عباق: عقاف. خ ل.
(٥) نبتل: تبيل. خ ل.
(٦) يحنّس: بتشديد النون.

جَرير؛ كثير، وجُرير[١]: هو عبدالله بن جرير، وحريز بن عثمان، وحرير أم الحرير: تروي عن طلحة بن مالك، وجربز بن صدقة الجربز: يروي عن شعبة، جماز: هو الهيثم بن جماز، وحبيب ابن حماز، ونعيم بن خمار، وعياض بن حمار، وحماز: يروي عن ابن مسعود، خباب: صحابي، وجباب بن المنذر: صحابي، وجناب بن الخشخاش: يروي عن أبي كلدة، وجباب بن صالح، وحتات بن يحيى، حَبيب؛ كثير، حُبيب[٢]: صحابي، وخبيب صحابي، وجبيب بن النعمان بن يحيى، وجيب أخو حمزة الزيات، خنيس ابن حذافة: صحابي، وهب بن حنبش: صحابي، حبيش بن خلد: صحابي، حبيس بن عايذ: مصري، نعيم؛ كثير: يغنم بن سالم: يروي عن أنس.

* * *

فصل في مشتبه النسبة

الحسن البصري، طلحة بن عمرو النصري، الحسين بن الحسن النصري. سفيان الثوري، محمد بن الصلت التوزي، محمد بن عمرو البوري، أبو الحسين النوري. أبو بكر الخياط، فطر بن خليفة الحناط، مسلم الخياط، وقد جمع «مسلم» هذه الصفات الثلاث.

الخزاز؛ جماعة، وعبدالله بن عون الخزاز، وعيسى بن يونس الحزاز ، ويحيى بن الجزار، أبو عمر الشيباني، أيوب بن سويد

---

(١) وجُرير: هذا مصغر والذي قبله مكبر.

(٢) حُبيب: هذا مصغر وما قبله مكبر.

السيباني، الفضل بن موسى السيناني. فرقد السبخي[1]، سليمان بن معبد السنجي، أبو بكر السبحي، بدر الشيحي. عامر الشَّعبي، معاوية بن حفص الشَّعبي، زكريا بن عيسى الشغبي، حذيفة بن اليمان العبسي، عمار بن ياسر العنسي، صعق بن حزن العيسى. وتقع النسبة في المحدثين إلى هذه الألفاظ الثلاثة. قال الحسن ابن سفيان النسوي: كلما ورد في الحديث عبسي فهو كوفي، وعنسي فهو بصري، وعيسى فهو مصري. إبراهيم بن يزيد الخُوزي، محمد بن يزيد الحوزي، محمد بن يزداد الجوري. عبدالرحمن بن علي الجوزي.

* * *

حديث

روى أبو قلابة عن أنس عن النبي ﷺ: «**إن الله تعالى وضع عن المسافر شطر الصلاة، وعن الحامل والمرضع**»، يعني الصيام[2]. أنس هذا هو ابن مالك القشيري.

* * *

أحاديث

روى عطاء عن أبي هريرة قال: «**في كل صلاة قراءة؛ فما أسمعنا رسول الله ﷺ أسمعناكم، وما أخفى علينا أخفينا عليكم**»[3].

---

(١) السبخي: فرقد السبخي بفتح المهملة والباء الموحدة وبخاء معجمة صدوق عابد لكنه لين الحديث كثير الخطأ. من الحاشية.

(٢) رواه أحمد: (٤/٣٤٧)، (٥/٢٩)، وأبو داود، في الصوم: (٢٤٠٨)، والترمذي، في الصوم: (٧١٥)، والنسائي: (٤/ ١٨٠، ١٩٠)، وابن ماجه: في الصيام (١٦٦٧)، وغيرهم.

(٣) البخاري في الأذان: (٧٧٢)، ومسلم في الصلاة: (٣٩٦)، وغيرهما.

وروى عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمع حب هؤلاء الأربعة إلا في قلب مؤمن: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي**»[(١)].

وروى عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**»[(٢)].

وروى عطاء عن أبي هريرة؛ «**أن النبي ﷺ سجد في اقرأ باسم ربك**»[(٣)].

وروى عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مضى ثلث الليل يقول الله: ألا داع يجاب**»[(٤)].

عطاء الأول: هو ابن أبي رباح، والثاني: الخراساني، والثالث: ابن يسار، والرابع: ابن ميناء، والخامس: مولي أمُ صُبيَّة[(٤)].

★ ★ ★

أحاديث

روت عمرة عن عائشة قالت: «**لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء بعده لمنعهن المسجد كما مُنع نساء بني إسرائيل**»[(٥)].

وروت عمرة أنها دخلت مع أمها على عائشة فسألتها، ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في الفرار من الطاعون؟ قالت: سمعته

---

(١) عبد بن حميد: (١٤٦٤)، وأحمد في فضائل الصحابة: (١/٤٢٧)، والخطيب: (١٤/ ٣٣٢)، وأبو نعيم: (٥/٢٠٣).

(٢) مسلم في صلاة المسافرين: (٧١٠)، وغيره.

(٣) مسلم في المساجد: (٥٧٨)، وأصحابِ السنن.

(٤) النسائي في الكبرى: (١٠٣١٩). وقد تحرفت: «صبية» إلى: «حبيبة».

(٥) البخاري في الأذان: (٨٦٩)، ومسلم في الصلاة: (٤٤٥)، وغيرهما.

يقول: «**كالفرار من الزحف**»(١).

وروت عمرة قالت: خرجت مع عائشة سنة قتل عثمان إلى مكة، فمررنا بالمدينة، ورأينا المصحف الذي قتل وهو في حجره، فكانت أول قطرة قطرت على هذه الآية ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة: ١٣٧] قالت عمرة: «**فما مات منهم رجلا سوياً**»(٢).

وروت عمرة عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ «**ينهى عن الوصال**»(٣).

عمرة الأولى هي: بنت عبدالرحمن الأنصارية، والثانية: بنت قيس العدوية، والثالثة: بنت أرطاة، والرابعة: يقال لها الطاخية.

★ ★ ★

أحاديث

روى حماد عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ سمع في النخل صوتاً، فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: يؤبرون النخل: فذكر الحديث(٤).

وروى حماد عن ثابت عن أنس قال: رأى رسول الله ﷺ على عبدالرحمن صُفرة، فقال: «**ما هذا؟**» قال: تزوجت. قال: «**أولم**»(٥).

---

(١) أحمد في مسنده: (٦/ ٨٢، ٢٥٥).

(٢) حديث عائشة: ورد في «فضائل عثمان» لابن حنبل: (١٣٣)، ط ماجد عسيري، ورواه عبدالله بن أحمد في زوائده على الفضائل: (٨١٧)، وفي زوائده على الزهد: (ص ١٢٧-١٢٨)، وأبو نعيم في فضائل الصحابة: (٨١٧). قال ابن كثير في البداية (٧/ ١٨٦): «قد ثبت من غير وجه ..».

(٣) رواه الطيالسي في مسنده: (١٥٧٩).

(٤) مسلم في الفضائل: ٢٣٦٣).

(٥) البخاري في النكاح: (٥١٥٥)، ومسلم في النكاح: (١٤٢٧) من طريق حماد بن زيد. ولكنه ورد أيضاً من طريق حماد بن سلمة. انظر المسند الجامع: (٧٢٨).

وروى حماد عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر»[١].

حماد الأول: ابن سلمة، والثاني: ابن زيد، والثالث: الأبح.

واعلم أن مثل هذه الأسماء المشتبهة: إذا لم يصرح في الحديث ببيانها لم يُفرِّق بينها إلا الناقد المجوِّد، وفي الفرق بينها فائدة عظيمة، وهي أن بعض الرواة ثقة، ومشبهه في الاسم يكون ضعيفاً؛ فيطلب الفرق لذلك.

مثاله: أن يروي قتادة عن عكرمة، وهو يروي عن عكرمة مولى ابن عباس؛ وذاك ثقة، وعن عكرمة بن خالد؛ وهو ضعيف.

وكذا قول وكيع: حدثنا النضر عن عكرمة؛ وهو يروي عن النضر ابن عربي؛ وهو ثقة، وعن النضر بن عبدالرحمن؛ وهو ضعيف.

ومثله: قول حفص بن غياث: عن أشعث عن الحسن، وهو يروي عن أشعث بن عبدالملك؛ وهو ثقة، وعن أشعث بن سوار؛ وهو ضعيف.

* * *

منتخب من المتفق والمفترق

أنس بن مالك: خمس، اثنان من الصحابة: أبو حمزة الأنصاري، وأبو أمية الكعبي، والثالث: أبو مالك الفقيه، والرابع: كوفي، والخامس: حمصي.

---

(١) أحمد في مسنده: (٣/ ١٣٠، ١٤٣)، والترمذي في الأمثال: (٢٨٦٩). وقال: «حسن غريب من هذا الوجه».

أسامة بن زيد: ستة؛ أحدهم: مولى النبي ﷺ، والثاني: تنوخي، والثالث: ليثي، والرابع: كلبي، والخامس: شيرازي، والسادس: مولى لعمر.

أحمد بن جعفر بن حمدان: أربعة في طبقة واحدة؛ أحدهم: دِينَوَرِي، والثاني: طرسوسي، والثالث: قطيعي، والرابع: سقطي.

جابر بن عبدالله: سبعة؛ أحدهم: ابن عمرو، والثاني: ابن رئاب. صحابيان، والثالث: سلمي، والرابع: محاربي، والخامس: غطفاني، والسادس مصري، والسابع: بصري.

الخليل بن أحمد: خمسة؛ ثلاثة بصريون، والرابع أصبهاني، والخامس سجزي.

سعيد بن المسيب: ستة؛ أحدهم مروزي، والثاني خراساني، والثالث بخاري، والرابع جوهري، والباقيان من أهل بغداد.

عمر بن الخطاب: سبعة؛ أحدهم أمير المؤمنين، والثاني كوفي، والثالث بصري، والرابع إسكندراني، والخامس سجستاني، والسادس راسبي، والسابع عنبري.

عثمان بن عفان: اثنان؛ أحدهما أمير المؤمنين، والثاني سجزي.

علي بن أبي طالب: ثمانية؛ أحدهم أمير المؤمنين، والثاني بصري، والثالث جرجاني، والرابع استراباذي، والخامس تنوخي، والسادس بكراباذي، والسابع بغدادي، والثامن يقال له الدهان.

عمران بن حصين: أربعة؛ أحدهم صحابي، والثاني ضبي، والثالث بصري، والرابع أصبهاني.

فضيل بن عياض: اثنان؛ أحدهما مصري، والثاني مكي.

يحيى بن معاذ: ثلاثة؛ أحدهم نيسابوري، والثاني رازي، والثالث تستري.

يوسف بن أسباط: ثلاثة؛ أحدهم كوفي، والثاني حمصي، والثالث سلمي.

★ ★ ★

الباب الرابع

في ذكر عيون التواريخ

في ذكر عيون التواريخ

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلق الله تعالى التربة: يوم السبت، وخلق الجبال فيها: يوم الأحد، وخلق الشجر فيها: يوم الإثنين، وخلق المكروه: يوم الثلاثاء، وخلق النور: يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب: يوم الخميس، وخلق آدم: يوم الجمعة بعد العصر**»(١).

قال علماء التاريخ: الأرض كلها على صخرة، والصخرة على منكبي ملك، والملك على الحوت، والحوت على الماء، والماء على متن الريح.

فصل

أقاليم الأرض سبعة: فالإقليم الأول: الهند، والثاني: إقليم الحجاز، والثالث: إقليم مصر، الرابع: إقليم بابل، والخامس: إقليم الروم والشام، والسادس: بلاد الترك، والسابع: بلاد الصين.

وأوسط الأقاليم إقليم بابل، وهو أعمرها، وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذي هو سرة الدنيا. وبغداد في وسط هذا الإقليم، فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله؛ فسلموا من شقرة الروم، وسواد الحبش، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين. وكما اعتدلوا في الخلقة؛ لطفوا في الفطنة.

---

(١) مسلم في صفات المنافقين: (٢٧٨٩).

فصل

قال علماء التواريخ: جميع ما عرف في الأرض من الجبال: مائة وثمانية وتسعون؛ من أعجبها جبل سرنديب، وطوله مائتان ونيف وستون ميلا، وفيه أثر قدم آدم حين أهبط، وعليه سنا البرق: لا يذهب شتاءً ولا صيفاً. وحوله ياقوت، وفي واديه الماس الذي يقطع الصخور، ويثقب اللؤلؤ. وفيه العود والفلفل. ودابة المسك، ودابة الزباد، وجبل الروم الذي فيه السد: طوله سبعمائة فرسخ، وينتهي إلى البحر المظلم.

★ ★ ★

فصل

قالوا: في الأرض سبعمائة معدن، ولا ينعقد الملح إلا في السبخ، ولا الجص إلا في الرمل والحصى، والبحر الأعظم محيط بالدنيا، والبحار تستمدّ منه.

★ ★ ★

فصل

قالوا: وعاش آدم ألف سنة، وولدت له حواء أربعين ولداً؛ في كل بطن ذكر وأنثى. فأولهم قابيل، وتوأمته قليما. ولم يمت آدم حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين ألفاً، وانقرض نسلهم غير نسل شيث. ثم انقرض النسل،وبقي أولاد نوح. وهم: سام، وحام، ويافث. فسام أبو العرب، وحام أبو الزنج، ويافث أبو الروم والترك، ويأجوج ومأجوج نوع من الترك.

فصل في تسمية الحواريين

شمعون الصفا، وشمعون القناني، ويعقوب بن زندي، ويعقوب ابن حلقي، وقولوس، ومارقوس، وأندرواس، وبرثملا، ويوحنا، ولوقا، وتوما، ومتّى.

★ ★ ★

فصل

كان أول ملوك الفرس: دارا؛ ملك نحوا من مائتي سنة، ثم ملك بعده خمسة وعشرون، منهم امرأتان. وكان آخر القوم: يزدجرد؛ هلك في زمان عثمان. وكان مُلْكهم خمسمائة سنة وكسراً.

وكان أظرفهم ولاية: ذو الأكتاف؛ فإنه لا يعرف من ملك وهو في بطن أمه غيره؛ لأن أباه كان قد مات ولا ولد له؛ وإنما كان هذا حملا. فقال: المنجمون: هذا الحمل يملك الأرض. فوضع التاج على بطن الأم، وكتب منه إلى الآفاق وهو جنين، وسمي سابوراً، وإنما لقب بذي الأكتاف لأنه حين ملك كان ينزع أكتاف مخالفيه. وهو الذي بنى الإيوان، وبنى نيسابور وسجستان والسوس. وما زال الملك ينتقل بعده فيهم حتى ملك آنشروان. وكان أحزمهم. وكان له اثنا عشر ألف امرأة وجارية، وخمسون ألف دابة، وألف فيل إلا واحداً. وفي زمانه ولد نبينا ﷺ، ومات لثمان سنين مضت من مولد نبينا ﷺ. ولما دخل المسلمون المدائن أحرقوا ستر باب الإيوان، فأخرجوا منه ألف ألف مثقال ذهباً.

فصل

[عجائب]

أربعة تناسلوا رأوا رسول الله ﷺ: أبو قحافة، وابنه أبو بكر، وابنه عبدالرحمن، وابنه محمد. ويكنى أبا عتيق.

أربعة أخوة كان بين كل واحد منهم وواحد عشر سنين، أولاد أبي طالب: طالب، وعقيل، وجعفر، وعلي. فكان طالب أسنّ من عقيل بعشر سنين، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين، وجعفر أسن من علي بعشر. ولا يعرف أخوان تباعدا في السن مثل موسى ابن عبيدة الربذي وأخيه عبدالله بن عبيدة. فإن عبدالله أسن من موسى بثمانين سنة.

ومن العجائب: ثلاث أخوة ولدوا في سنة واحدة، وقتلوا في سنة واحدة، وكانت أعمارهم ثماني وأربعين سنة: يزيد، وزياد، ومدرك: بنو المهلب بن أبي صفرة.

ومن العجائب: أربعة أنفس رزق كل واحد منهم مائة ولد: أنس بن مالك، وعبدالله بن عمر الليثي، وخليفة السعدي، وجعفر ابن سليمان الهاشمي.

ومن العجائب: ثلاثة بنو أعمام كلهم كانوا في زمان واحد: كل واحد منهم اسمه علي، ولهم ثلاثة أولاد: كل واحد منهم اسمه محمد. والآباء والأبناء علماء أشراف. وهم علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، وعلي بن عبدالله بن عباس، وعلي بن عبدالله بن جعفر.

ومن العجائب: أنه في ليلة السبت لأربع عشرة بقين من ربيع الأول سنة تسعين ومائة: مات الهادي، واستخلف الرشيد، وولد المأمون.

ومن العجائب: أنه سلم على الرشيد بالخلافة: عمه سليمان ابن المنصور، وعم أبيه المهدي، وهو العباس بن محمد، وعم جده المنصور، وهو عبدالصمد بن علي. وقال له عبدالصمد يوماً: يا أمير المؤمنين. هذا مجلس فيه أمير المؤمنين، وعم أمير المؤمنين، وعم عم أمير المؤمنين، وعم عم عمه.

وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد، والعباس عم سليمان، وعبدالصمد عم العباس.

ومن العجائب: أن عبدالصمد حج بالناس سنة خمسين ومائة، وقد حج قبله يزيد بن معاوية سنة خمسين. وهما في النسب إلى عبد مناف سواء؛ لأن يزيد هو ابن معاوية بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وعبدالصمد بن علي بن عبدالله ابن العباس بن عبدالمطلب بن هشام بن عبد مناف.

★ ★ ★

فصل

وقد سلم على المتوكل بالخلافة ثمانية؛ كلهم ابن خليفة: المنتصر ابنه، ومحمد بن الواثق، وأحمد بن المعتصم، وموسى بن المأمون، وعبدالله بن الأمين، وأبو أحمد بن الرشيد، وأبو العباس ابن الهادي، والمنصور بن المهدي.

فصل

وقد ولي الخلافة: أخوان، وثلاثة، وأربعة: فأما الأخوان: فالسفاح والمنصور، والهادي والرشيد، والواثق والمتوكل ابنا المعتصم، والمسترشد والمقتفى. وأما الثلاثة: فالأمين، والمأمون، والمعتصم بنو الرشيد. والمكتفي، والمقتدر، والقاهر بنو المعتضد. والراضي، والمتقي، والمطيع بنو المقتدر. وأما الأربعة: فلم يكونوا إلا بني عبدالملك.

* * *

فصل

ومن العجائب المتعلقة بالنساء: من ذلك أن امرأة شهد لها بدراً سبعة بنين مسلمين؛ وهي عفراء بنت عبيد: تزوجها الحارث ابن رفاعة، فولدت له معاذا ومعوذاً. ثم تزوجها بكير فولدت له إياساً وخالداً وعاقلاً وعامراً. ثم رجعت إلى الحارث فولدت له عوفاً، فشهدوا كلهم بدراً. ويخرج من هذا جواب المسائل: هل تعرفون أربعة أخوة لأب وأم شهدوا بدراً مسلمين؟

ومن هذا الجنس: امرأة كان لها أربعة أخوة وعمّان شهدوا بدراً: فأخوان وعم مع رسول الله ﷺ، وأخوان وعم مع المشركين. وهي هند بنت عتبة بن ربيعة، فالأخوان المسلمان: أبو حذيفة بن عتبة ومصعب بن عمير، والعم المسلم معمر بن الحارث. والأخوان المشركان الوليد بن عتبة، وأبو عزيز، والعم المشرك شيبة بن ربيعة.

ومن العجائب: أن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان له أربع بنات: عبدة، وعائشة، وأم سعيد، ورقية؛ تزوجهن أربعة من الخلفاء. تزوج عبدة الوليد بن عبدالملك، وعائشة: سليمان، وأم سعيد: يزيد بن عبدالملك، ورقية: هشام.

وكان لهذا الرجل - أعني عبدالله بن عمرو - ولد اسمه محمد؛ كان يقال له الديباج لحسنه. وكان لمحمد بنت اسمها حفصة؛ لا يعرف امرأة ولدها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير والحسين وابن عمر سواها.

أما ولادة رسول الله ﷺ لها فإن أم أبيها محمد فاطمة بنت الحسين بن علي، وأم الحسين فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ومن طريق الحسين بن علي ولادته لها وولادة علي لها.

وأما ولادة أبي بكر لها: فإن أمها خديجة بنت عثمان بن عروة ابن الزبير، وأم عروة أسماء بنت أبي بكر الصديق، ومن طريق عروة ولدها الزبير.

وأما ولادة عمر لها فإن أم جدها عبدالله زينب بنت عبدالله بن عمر بن الخطاب. فمن هذه الطريق ولادة عمر لها.

وأما ولادة عثمان لها: فمن طريق أبيها.

وأما ولادة طلحة: فإن جدتها من قبل أبيها هي أم إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله.

ومن العجائب: امرأة ولدت خليفتين. وهن ثلاث: الأولى: ولادة بنت العباس العبسية: تزوجها عبدالملك بن مروان، فولدت له الوليد

وسليمان فوليا الخلافة. والثانية: شاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد تزوجها الوليد بن عبدالملك، فولدت له يزيد وإبراهيم فوليا الخلافة. والثالثة: الخيزران، ولدت للمهدي الهادي والرشيد.

★ ★ ★

فصل

في الجدوب وعموم الموت

أجدبت الأرض في سنة ثماني عشرة، فكانت الريح تسفي تراباً كالرماد. فسمي عام الرمادة. وجعلت الوحوش تأوي إلى الإنس؛ فآلى عمر ألا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما حتى يحيى الناس، واستسقى بالعباس؛ فسقوا. وفيها كان طاعون عمواس؛ مات فيه أبو عبيدة ومعاذ وأنس.

وفي سنة أربع وستين وقع طاعون بالبصرة. وماتت أم أميرهم فما وجدوا من يحملها.

وفي سنة ست وتسعين كان طاعون الجارف، هلك في ثلاثة أيام سبعون ألفاً، ومات فيه لأنس ثمانون ولداً، وكان يموت أهل الدار فيطيّن الباب عليهم.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة مات أول يوم في الطاعون سبعون ألفاً، وفي الثاني نيف وسبعون ألفاً، وفي اليوم الثالث خمد الناس.

وفي سنة تسع عشرة وثلاث مائة كثر الموت، وكان يدفن في القبر الواحد جماعة.

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ذبح الأطفال، وأكلت الجيف،

وبيع العقار برغفان، واشتري لمُعزّ الدولة كُرّ[١] دقيقٍ بعشرين ألف درهم.

وفي سنة أربعة وأربعين وثلاثمائة عمت الأمراض البلاد؛ فكان يموت أهل الدار كلهم.

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة أصاب أهل البصرة حر؛ فكانوا يتساقطون موتى في الطرقات.

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة عم القحط؛ فأكلت الميتة، وبلغ المكوك من بزر البقلة سبع دنانير، والسفرجلة والرمانة ديناراً، والخيارة واللينوفرة ديناراً. وورد الخبر من مصر بأن ثلاثة من اللصوص نقبوا داراً فوُجِدوا عند الصباح موتى، أحدهم على باب النقب، والثاني على رأس الدرجة، والثالث على الثياب المكوّرة.

وفي السنة التي تليها وقع وباء، فكان تحفر زُبْية[٢] لعشرين وثلاثين فيلقون فيها. وتاب الناس كلهم، وأراقوا الخمور، ولزموا المساجد.

وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة وقع الوباء، وبلغ الرطل من التمر الهندي أربعة دنانير.

وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة اشتد الجوع والوباء بمصر؛ حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وبيع اللوز والسكر بوزن الدراهم، والبيضة بعشرة قراريط. وخرج وزير صاحب مصر إليه فنزل عن

---

(١) كُرّ: الكر مكيال لأهل العراق؛ سعته ستون قفيزا، والقفيز: ثمانية مكاكيك، والمكوك: صاع ونصف.

(٢) زُبْية: بالضم. الرابية. وحفيرة الأسد.

بغلته، فأخذها ثلاثة فأكلوها، فصلبوا؛ فأصبح الناس لا يرون إلا عظامهم تحت خشبهم، وقد أُكلوا.

وفي سنة أربعة وستين وأربعمائة وقع الموت في الدواب؛ حتى إن راعياً قام إلى الغنم وقت الصباح ليسوقها فوجدها كلها موتى.

★ ★ ★

فصل

في الزلازل والآيات

زلزلت الأرض على عهد عمر في سنة عشرين، ودامت الزلازل في سنة أربع وتسعين: أربعين يوماً، ووقعت الأبنية الشاهقة، وتهدمت أنطاكية.

وفي سنة أربع وعشرين ومائتين زلزلت فرغانة فمات فيها خمسة عشر ألفاً.

وفي السنة التي تليها رجفت الأهواز، وتصدعت الجبال، وهرب أهل البلد إلى البحر والسفن، ودامت ستة عشر يوماً.

وفي السنة التي تليها مطر أهل تيما مطراً وبرداً كالبيض؛ فقتل بها ثلاثمائة وسبعين إنساناً، وسمع في ذلك صوت يقول: ارحم عبادك؛ اعف عن عبادك. ونظروا إلى أثر قدم طولها ذراع بلا أصابع، وعرضها شبر، ومن الخطوة إلى الخطوة خمسة أذرع أو ست؛ فاتبعوا الصوت، فجعلوا يسمعون صوتاً ولا يرون شخصاً.

وفي سنة ثلاث ومائتين رجفت دمشق رجفة؛ حتى انقضت منها البيوت، وسقطت على من فيها، فمات خلق كثير. وانكفأت

قرية في الغوطة على أهلها. فلم ينج منهم إلا رجل واحد. وزلزلت أنطاكية فمات منها عشرون ألفاً.

وفي السنة التي تليها هبت ريح شديدة لم يُعهد مثلها، فاتصلت نيفاً وخمسين يوماً، وشملت بغداد والبصرة والكوفة وواسط وعبادان والأهواز. ثم ذهبت إلى همدان فأحرقت الزرع. ثم ذهبت إلى الموصل فمنعت الناس من السعي؛ فتعطلت الأسواق. وزلزلت هراة فوقعت الدُّور.

وفي سنة ثمان وثلاثين وجّه طاهر بن عبدالله إلى «المتوكل». حجراً سقط بناحية طبرستان وزنه ثمانمائة وأربعون درهماً؛ أبيض فيه صدع، وذكروا أنه سُمع لسقوطه هدة أربع فراسخ في مثلها. وأنه ساخ في الأرض خمسة أذرع.

وفي سنة أربعين ومائتين خرجت ريح من بلاد الترك، فمرت بمرو، فقتلت خلقاً كثيراً بالزكام، ثم صارت إلى نيسابور، وإلى الري، ثم إلى همذان وحلوان، ثم إلى العراق؛ فأصاب أهل بغداد وسرّ من رأى حُمّى وسُعال وزكام. وجاءت كتب من المغرب أن ثلاث عشرة قرية من قرى القيروان خسف بها فلم ينج من أهلها إلا اثنان وأربعون رجلاً سود الوجوه، فأتوا القيروان، فأخرجهم أهلها، وقالوا: أنتم مسخوط عليكم. فبنى لهم العامل حظيرة خارج المدينة فنزلوها.

وفي سنة إحدى وأربعين ماجت النجوم في السماء، وجعلت تتطاير شرقاً وغرباً كالجراد من قبل غروب الشمس إلى الفجر.

ولم يكن مثل هذا إلا عند ظهور رسول الله ﷺ .

وفي السنة التي تليها رجمت قرية يقال لها السويدا ناحية مصر . بخمسة أحجار، فوقع حجر منها على خيمة أعرابي فاحترقت، ووزن منها حجر فكان فيه عشرة أرطال. وزلزلت الري وجرجان وطبرستان ونيسابور وأصبهان وقم وقاشان كلها في وقت واحد. وزلزلت الدامغان فهلك من أهلها خمسة وعشرون ألفاً. وتقطعت جبال، ودنا بعضها من بعض، وسمع للسماء والأرض أصوات عالية؛ فهلك من أهلها خمسة وعشرون ألفا.

وسار جبل باليمن عليه مزارع حتى أتى مزارع قوم آخرين.

ووقع طائر أبيض دون الرَّخَمَة وفوق الغُراب على دُلْبة[(١)] بحلب. لسبع مضين من رمضان، فصاح: يا معشر الناس. اتقوا الله. الله. الله . . حتى صاح أربعين صوتاً، ثم طار. وجاء من الغد فصاح أربعين صوتاً ثم طار. فكتب صاحب البريد بذلك، وأشهد خمسمائة إنسان سمعوه.

ومات رجل في بعض كور الأهواز فسقط طائر أبيض على جنازته، فصاح بالفارسية والخوزية: إن الله قد غفر لهذا الميت ولمن شهده.

وفي سنة خمس وأربعين ومائتين زلزلت أنطاكية، فسقط منها ألف وخمسمائة دار، ووقع من سُورها نيِّف وتسعون بُرْجاً، وسمع أهلُها أصواتاً هائلة من كوى المنازل. وسمع أهل تنِّيس صيحة

---

(١) الدُّلْبة: كغُرفة: شجرة.

هائلة دامت فمات منها خلق كثير. وذهبت جيلة[١] بأهلها.

وفي سنة خمس وثلاثين[٢] ومائتين مطرت قرية حجارة بيضاء وسوداء.

وفي سنة ثمان وثمانين زلزلت دُنْبُل[٣] في الليل. فأصبحوا ولم يبق من المدينة إلا اليسير؛ فأخرج من تحت الهدم خمسون ومائة ألف ميت.

وفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة عدل الحاج عن الجادة خوفاً من العرب؛ فرأوا في البرية صور الناس من حجارة، ورأوا امرأة قائمة على تنور وهي من حجارة، والخبز الذي في التنور من حجارة.

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة هبت ريح بفم الصلح[٤]، شُبِّهت بالتنّين. خرقت دجلة، حتى ذكر أنها بانت أرضها، وأهلكت خلقاً كثيراً، واحتملت زورقاً منحدراً، وفيه دواب؛ فطرحته في أرض جَوْخَى[٤].

وفي سنة عشرين وأربعمائة جاء برد هائل، ووقعت بَرَدَة، حزرت بمائة وخمسين رطلا، فكانت كالثور النائم[٦].

وفي سنة أربعة وثلاثين زلزلت تبريز؛ فهدم سورها وقلعتها، وهلك تحت الهدم خمسون ألفاً.

---

(١) جيلة: حصن باليمن. (٢) في المخطوط: «وثمانين».

(٢) دُنْبُل: كقنفذ: أكراد حول الموصل. فأراد موضعهم.

(٣) بفم الصلح: نهر عند واسط.

(٤) جَوْخَى: قرية من عمل واسط.

(٥) النائم: القائم. خ ل.

وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة كانت بأذربيجان زلازل، انقطعت منها الحيطان. فحكى من يُعتمد على قوله أنه كان قاعداً في إيوان، فانفرج حتى رأى السماء من وسطه، ثم عاد.

وفي سنة ستين وأربعمائة كانت زلزلة بفلسطين هلك فيها خمسة عشر ألفاً، وانشقت صخرة بيت المقدس، ثم عادت فالتأمت، وغاب البحر مسيرة يوم. فساخ في الأرض، فدخل الناس يلتقطون، فرجع عليهم، فأهلك خلقاً كثيراً منهم.

وفي سنة اثنتين وستين خسف بأيْلة[1].

وفي سنة ست وخمسمائة سُمع ببغداد صوت هدّة عظيمة في أقطار بغداد في الجانبين. قال شيخنا أبو بكر بن عبدالباقي: أنا سمعتها، فظننت حائطاً قد وقع، ولم يُعلم ما ذاك! ولم يكن في السماء غيم، فيقال: رعد.

وفي سنة سبع وقعت زلزلة بناحية الشام؛ فوقع من سور الرُّهاَ[2] ثلاثة عشر بُرجا، وخسف بسميساط[3]، وقلب بنصف القلعة.

وفي سنة إحدى عشرة زلزلت الأرض ببغداد: يوم عرفة. فكانت الحيطان تمر وتجيء.

وفي سنة خمس عشرة وقع الثلج ببغداد؛ فامتلأت منه الشوارع والدروب، ولم يُسمع قبله بمثله.

---

(١) أيلة: بلد بين ينبع ومصر، بجوار العقبة، وهي المعروفة حالياً باسم: «إيلات».

(٢) الرها: بلد بنواحي الشام.

(٣) سميساط: بلد على الفرات.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة كانت زلزلة بِجَنْزة[1]، أتت على مائتي ألف وثلاثين ألفاً فأهلكتهم، وكانت في مقدار عشرة فراسخ في مثلها.

وفي السنة التي تليها خسف بجنزة، وصار مكان البلد ماء أسود، وقدم التجار من أهلها فلزموا المقابر يبكون على أهليهم. وزلزلت حلوان؛ فتقطع الجبل، وهلك خلق كثير.

وفي سنة اثنين وخمسين وخمسمائة كانت زلازل بالشام في ثلاثة عشر بلداً من بلاد الإسلام؛ فمنها ما هلك كله، ومنها ما هلك بعضه.

★ ★ ★

(١) بجنزة: جنزة بفتح الجيم، وسكون النون، والزاء المعجمة، بلدة عظيمة بإيران.

الباب الخامس

في ذكر المواعظ

وهذا الباب ينقسم قسمين:

القسم الأول: يختص بذكر القصص.

القسم الثاني: فيه المواعظ والإشارات مطلقا.

◘ القسم الأول ◘

وهو المختص بذكر القصص: وفيه ست وعشرون قصة.

الفصل الأول
في قصة آدم عليه السلام

اعلموا أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام آخر الخلق؛ لأنه مهد الدار قبل الساكن، وأقام عذره قبل الزلل؛ بقوله: ﴿فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٠] فظنت الملائكة أن تفضيله بنفسه؛ فضنّت بالفضل عليه. فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فقوبلوا بلفظ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٣٠] فلما صوره ألقاه كاللَّقَى[1] على الباب، فلما عاين إبليسُ تلك الصُّورة؛ بات من الهمِّ في سَوْرة[2]. فلما نُفخ فيه الروح؛ بات الحاسدُ ينوح. ثم نُودي في نادي الملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] فتطهروا من غدير: ﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] وغودر الغادر نجساً بكبرياء: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٧٦] ثم حام العدو حول حمَى المحمي؛ فلولا سابق القدر؛ ما قدر عليه. فلما نزل إلى الأرض خدّ خد[3] الفرح؛ بدمع الترح، حتى أقلق الوجود. فجاء جبريل، فقال: ما هذا الجهْد؟ فصاح لسانُ الوجْد:

---

(١) اللَّقَى: ما طُرح. أي الشيء الملقى، أو المنبوذ.

(٢) سَوْرة: سورة الهم: حدّته.

(٣) (خدّ خد). الأولى: حَفَر، الثانية: الموضع من الوجه على جانبي الأنف.

للخفاجي:

ما رحلت العِيس[١] عن أرضكم فـرأت عينـاى شيئاً حسنـا
هـل لنـا نحوكـم مـن عـودة؟ ومـن التعليـل قولـي: هل لنـا؟

يا آدم، لا تجزع من كأس خطأ كان سببَ كَيْسك[٢]، فلقد استخرج منك داء العُجْب، وألبسك رداء النُّسك: «لو لم تذنبوا..»[٣].

للمتنبي:

لعـل عتْبَـك محمـودٌ عواقبه فربما صحّت الأجسامُ بالعللِ

لا تحزن لقولي لك: (اهبط منها)[٤] فلك خلقتها. ولكن اخرج منها إلى مزرعة المجاهدة، وسُق من دمعك ساقية لشجرة ندمك، فإذا عاد العود أخضر؛ فعد.

للبحتري:

إن جـرى بيننـا وبينـك عتـبٌ أو تناءتْ منَّـا ومنـك الديـارُ
فالغليلُ الـذي عهـدتَ مقيـمٌ والدمـوعُ الّتـي شهـدتَ غِـزَارُ

ما زالت زلة الأكلة تُعاده؛ حتى استولى داؤه على أولاده. فنمت هينمة[٥] الملائكة، بعبارة نَظر العاقبة؛ فنشروا مطوي: ﴿أَتَجْعَلُ﴾ [البقرة: ٣٠] وقرعوا بعصي الدعاوى ظهور العصاة، فقيل لهم: لو كنتم بين أفاعي الهوى وعقارب اللذات لبات سليمكم سليما[٦].

(١) (العيسُ): الإبل.
(٢) الكيْس: خلاف الحمق.
(٣) جزء من حديث رواه مسلم في التوبة: برقم (٢٧٤٩).
(٤) إشارة إلى قوله: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ (البقرة: ٣٨).
(٥) (هينمة): الهينمة: الصوت الخفي.
(٦) سليمكم: من السلامة. وسليما: لديغا.

فأبوا للجراءة إلا جرّ جرير[١] الدعاوى، وحدثوا أنفسهم بالتقى بالتقاوى.

فقيل: نقِّبوا عن خيار نقبائكم، وانتقوا من ملك الملكوت. [فمروا][٢] فماروا؛ فما رأوا لمثلها مثل «هاروت وماروت». فأبى لسفر البلاء بالبلية، فما نزلا حتى نزلا من مقام العصمة، فنزلا منزل الدعاوى، فركبا مركب البشرية.

فمرت على المرءين امرأة يقال لها: «الزهرة» بيدها مزهر[٣] زهرة الشهوة، فغنّت الغانيةُ بغُنّة أغنّ، فرنت قيان الهوى، فهوى الصوتُ في صوب قلب قلبيْهما، فقلبهما عن تقوى التقويم، فانهار بناء عزم هاروت، ومار[٤] همّ حزم ماروت، فأراداها على الردى؛ فراوداها! وما قتل الهوى نفسا فوداها[٥]. فبسطت [لهما] نِطْع[٦] التنطع على تَخْت[٧] التخيير؛ إما أن تشركا، وإما أن تقتلا، وإما أن تشربا. فظنا سهولة الأمر في الخمر، وما فطنا.

فلما امتدّ ساعدُ الخلاف فسقى فِسقًا؛ فدخلا سكك السكر، فزلا في مزالق الزنا، فرآهما مع الشخصية شخص؛ فشخصا إليه، فقتلاه. ففشت فتنتهما في فئة الملائكة، فاتخذوا لتلك الواردة؛ ورداً من تضرع: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥][٨].

---

(١) جرير: على وزن أمير، وهو الحبل.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة في المخطوط.

(٣) مِزْهر: العود الذي يضرب به، وهو من الملاهي وآلات الطرب.

(٤) مَار: تحرّك واضطرب. (٥) وداها: دفع ديتها.

(٦) نطْع: بفتح النون وكسرها وسكون الطاء: بساط من الأديم.

(٧) تَخت: صندوق أو وعاء تصان فيه الثياب، وقد تطلق على السرير.

(٨) قصة «هاروت وماروت» مع «الزهرة» قصة منكرة، وردت بها روايات واهية، ترجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل. وانظر «الموضوعات» للمصنف: (١/ ١٨٦)، و «اللآلي المصنوعة» للسيوطي: (١/ ٨٢).

الفصل الثاني
في ذكر بناء الكعبة

لما علا كعب الكعبة على سائر البِقاع بِقاع العلم؛ أبرزتها كفُّ الإيجاد كالكاعب[١]؛ قبل وجود الأرض. وكان آدم أَول من ساس الأساس. ثم بيْت للبيت البيات[٢]، فحلّ ما حلّ أزرارَ حُللِ الحُلَل.

فلما هاجر الخليل بهاجر وابنها؛ أوضع[٣] بهما فوضعهما هنالك، وتولى راضيا بمن تولاه يوم ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. فقالت هاجر: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. فرجعت متوكئة على مِنْسأة[٤] التوكل على من لا ينسى. فجعلت تشرب ما معها من ماءٍ، وترضع لبنها ابنها.

فلما نفدا[٥]: جعل إسماعيل يتلوى على رمض رمضان الصوم. فانطلقت لتبذل الجهود في مأمور ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، فصعدت بأقدام الصفا على الصفا. فلما أطلت الطلة[٦] على الطلل، توكفت طل[٧] روح ينقع الغُلّة. ثم جدت فجدت الجدد[٨] بالجد هابطة. فلما طَرف طِرْفُ سيْرِها طرَف

---

(١) الكاعب: الجارية التي نهد ثديها.

(٢) البيات: الوقيعة من الليل.

(٣) أوضع: أسرع السير.

(٤) منسأة: عصا. وسميت منسأة لأن الدابة تُنسأ بها، أي تُزجر وتُساق.

(٥) فلما نفدا: أي الماء واللبن.

(٦) الطلة: الزوجة.

(٧) الطل: المطر الخفيف.

(٨) ثم جدت فجدت الجدَدَ بالجد: أي سعت واجتهدت فقطع الطريق بالاجتهاد.

طَرَف[1] الوادي؛ رفعت طَرْف دِرْعها، ثم وسّعت خطاها وسعت للجهد بجهد ذرْعها[2]. ثم أتت المرأة «المروة»، وعادت إلى «الصفا» سبعا. فلذلك أمر المكلّفُ أن يسعى؛ لأنه أثر قدمٍ مقْدام؛ لتصيب الأقدامُ نصيباً من مواطئ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فسمعت صوتاً من صوْب[3]، فنزل الملك ليزيل النازلة، فهيّأ نُزُلَ النزيه، فزمزم ماء زمزم، ونَزَا نزُواً[4] لأنز[5] نزّاً. فحصحص[6] الماء في صحصح[7] الحصى؛ فامتدت كفُّ الحرص فلفقت كالحوض. فقيل لها: ليس هذا الماء من كِيس كسْبك. فما هذا المذق[8] من حرص فعلك؟! «ولو تركت زمزم لكانت عيناً معينا»[9]. فمرّت رُفْقةٌ من جُرْهم[10]، جرّهم[11] سؤال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فأقاموا. واشتاق «الخليلُ» إلى ابنه؛ فاستاق راحلةَ الرحيل، فاشترط لسانُ غيْرةِ «سارة» أن لا تزل عن مكانة: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧] فقدمت زوجة إسماعيل إليه

(١) طرف. الطرف بالكسر: الفرس الكريمة، وبالفتح: العين، وبفتح الطاء والراء: الجانب.

(٢) الذرع: الطاقة. والدرع: القميص.

(٣) صوْب. الصوب: الانصباب.

(٤) نزا نزْواً: وثب وطفر.

(٥) نزاً: بدا قليلاً، وتحلّب من الأرض

(٦) فحصحص: ظهر.

(٧) صحصح: الصحصح: الأرض المستوية.

(٨) المذق: الخلط.

(٩) معيناً: المعين: الظاهر الذي يجري على وجه الأرض. وهذا جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري: (٣٣٦٤).

(١٠) جُرْهم: قبيلة. (١١) جرّهم: سحبهم.

المقام، فقام، فقدّت فيه قدمُه، وغابت رِجْل الرجلِ، فحولته إلى يساره، فسرت فيها[١] اليسرى؛ فهيتا[٢] دليل الإرشاد بالقاصدين: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

فلما أُمرا ببناء البيت؛ حار من لا يعلم مراد الآمر، فإذا سحابةٌ تسحبُ ذيلَ الدليل، قد قدّها المهندس القدري على قَدْر البيت، فوقفت فنادت: يا إبراهيم. علِّم على ظِلّي. فلما علّم كما عُلِّم؛ هبّت فذهبت؛ فُسُرَّ[٣] بما فُسِّر[٤] له من مُشْكَلِ الشكل. فذلك سِرٌّ[٥]: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ [الحج: ٢٦] فجعلا مكان استراحة البناء المعنى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧] فلما فرغا: فغرا[٦] فم السؤال؛ يرتشفان ضرع الضراعة: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨].

فلما شرفت الكعبة بإضافة ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] قصدها فوجُ الفيل؛ فَفِيلَ[٧] مُرادُهم. لما باتوا على ما بيّتوا؛ أقبل الطيرُ الذي رمى كالغمام، فكانت قطراته للحصاد؛ لا للبذر. فأصبح لزرع الأجساد كالمنجل الهاشم؛ ليكون معجزاً لظهور نبيٍّ بني هاشم. فأمسوا في بيْدرِ الدياس[٨] ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

* * *

(١) «فيه» كذا في المخطوط، والذي في المطبوع: «إليه».
(٢) فهيتا: قال: هيت.
(٣) فُسُرَّ: من السرور.
(٤) فَسَّر: من التفسير.
(٥) سِرٌّ: خلاف العلن.
(٦) فغرا: فتحا.
(٧) ففيل: خاب.
(٨) بيدر الدياس: الموضع الذي تدرس فيه الزروع وتُداس.

الفصل الثالث
في قصة نوح عليه السلام

لما عمّ أَهلَ الأرض العمى: عمّا خُلقوا له؛ بُعث «نوح» بجلاء أبصار البصائر، فمكث يداويهم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] فكُلُّهم أبصر، ولكن عن المحجّة تعامى. فَلاَح للاَّحي عدمُ فلاحِهِم؛ فولاّهم الصلا[1] يأسا من صلاحهم. وبعث شكاية الأذى: في مسطور: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١] فأذنَ مُؤذِّنُ الطردِ: على بابِ دارِ إهدارِ دمائِهم: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

فقام نوح في محراب: ﴿لا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦] فأتته رسالة ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ونادى بريدُ الإعلام بالغضب: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي﴾ [المؤمنون: ٢٧] فلما أن هال كثيب الإمهال، وانقطع سِلْك التأخير: غربت شمس الانتظار؛ فادلهمت عُقَابُ[2] العقَاب[3].

فلما انسدلت الظلمة، وفات النور: ﴿فَارَ التَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧] فقيل: يا نوح؛ قد حان حينُ الحيْن[4]، فاحمل ﴿فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] فتخلّفَ خَلْفَ[5] نوحٍ خَلْفٌ[6] من ولده، فمدّ يَد الحنوِّ ليأخذ بيده ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]. فأجاب

---

(١) الصلا: وسط الظهر: أي أعرض عنهم.
(٢) عُقَابُ: كل ما علا.
(٣) العقَاب: العذاب.
(٤) الحَيْن: الهلاك.
(٥) خَلْف: وراء.
(٦) خَلْفٌ: بسكون اللام: الولد الذميم.

عن ضمير خائضٍ في مساءِ المساوي: ﴿سَآوِي﴾ [هود: ٤٣].

فردَّ عليه لسانُ الوعيد: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ [هود: ٤٣].

فلما انتُقِم من العصاة بما يكفي، كفّت كفُّ النجاةِ كفّةَ الأرضِ بقَسْرٍ: ﴿ابْلَعِي﴾ [هود: ٤٤] وقُلِع جِذْع جَزَعِ السماء في وَكْفِ دمعها بُظفْرِ: ﴿أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤] ونوديت نجوة الجوديّ: جُودي بإنجاء غرقى السير. وزُوِّدَ الهالكون في سفر الطرد زاد ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ [هود: ٤٤].

* * *

الفصل الرابع
في قصة عاد

لما تجبر قوم عاد: في ظِل ظُلل ضلالهم، حين أملى الأملُ وطولُ البقاء، وزوى ذكر زوالهم. ومروا في مشارع عذاب الملاهي: ناسين مر عذابها. رافلين في حلل الغفلة بالأمنية عن المنية وآدابها. أقبل «هود» يهديهم، ويناديهم في ناديهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٥٠] فبرزوا في عتو ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فسحب سحابُ العذاب. ذيلَ الأدبارِ؛ بإقباله إلى قبالتهم. فظنوه لما اعترض عارض مطر؛ فتهادوا تباشير البشارة، بتهادي بشارة: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فصاح بلبل البلبال فبلبل ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤] فكان كلما دنا وترامى؛ ترى ما كان كأن لم يكن. فحنظلت شجرات مشاجرتهم هوداً، فجنى[1] مَنْ جنى مِنْ جنا ما جنى[2] في مغنى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٦] فراحت ريحُ الدَّبور؛ لكي تسم الأدبار بكي الأدبار، فعجوا[3] منها عجيج الأدبر[4]، فلم تزل تكوي تكوينهم بميسم العدم، وتلوي تلوينهم إلى حياض دم الندم، وتكفأ عليهم الرمال؛ فتكفي تكفينهم. وتبرزهم إلى البراز عن صون حصون كن يقينا يقينهم[5]. فإذا أصبحت أخذت تنزع في قوس:

---

(١) فجنى: من جنى الثمر.
(٢) جنى: من الجناية.
(٣) عج: صاح.
(٤) الأدبر: في المخطوط: الأدبار.
(٥) كن يقينا يقينهم: كذا في المطبوع. والذي في المخطوط دون كلمة «كن» وبلا نقط. ولعل الصواب: «كِنّ يقيهم» أي: يمنعهم.

﴿تَنزِعُ النَّاس﴾ [القمر: ٢٠]، وإذا أمست: أوقعت عريضهم في عرض: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، فما بَرِحت بارحَهم(٦) عن بَراحِهم: حتى برّحت بهم. ولا أقلعت حتى قلَعت قلوعَ(٧) قلاعهم. فدامت عليهم آفة وداء، لا تقبل فداء: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، فحسوا ما أذاقتهم من سوء ما نسوا. ونُسفوا في قفر ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ [هود: ٦٠]. إلى يَمّ: ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ [هود: ٦٠]. فلو عبرتَ في معبر الاعتبار؛ لترى ما آل إليه مآلهم؛ لرأيت التوى(١): كيف التْوى عليهم، وكفَّ النوى: كيف نوى الدنّو إليهم. فانظر إلى عواقب الخلاف، فإنه شافٍ كاف.

★ ★ ★

(١) بارحَهم: الريح الحارة.

(٢) قلوعَ: جمع قلع، وهو الشراع.

(٣) التوى: الهلاك.

الفصل الخامس
في قصة ثمود

لما أعرضت ثمودُ عن كلِّ فعلٍ صالح؛ بُعث إليهم للإصلاح «صالح». فتعنّتَ عليه ناقهُ أهوائهم بطلب ناقة، فخرجت من صخرة صماء تقبقب[١]، ثم فصل عنها فصيل يرغو، فأرتعت حول نهى نهيهم عنها، في حمى حماية: ﴿وَلا تَمَسُّوهَا﴾ [الأعراف: ٧٣]، فاحتاجت إلى الماء - وهو قليل عندهم - فقال حاكم الوحي: ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. فكانت يوم وردها: تقضي دين الماء؛ بماء درّها. فاجتمعوا في حِلَّة الحيلة، على شاطئ غدير الغدر. فدار قدار[٢] حول عطن[٣]: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] فصاب عليهم صيب صاب[٤] صاع صاعقة العذاب الهون. فحين دنا، ودندن[٥]، دمغهم دمار، فدمدم، فأصبحت المنازل؛ لهول ذلك النازل: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

* * *

(١) تقبقب: تصوت.

(٢) قدار: اسم عاقر الناقة.

(٣) عطن: مناخ.

(٤) صاب: كذا في المطبوع والمخطوط. ولعل الصواب: «صبّ».

(٥) دندن: في المطبوع: (ديدن).

الفصل السادس
في قصة الخليل عليه السلام

كانت الكهنة قد حذّرت «نمرود» وُجُودَ مُحاربٍ غالب؛ ففرق بين الرجال والنساء، فحُمل به: على رغم أنف اجتهاده. فلما خاض المخاضُ في خصمٍ أم إبراهيم؛ جعلت بين خِيف الخوف وحيِّز التحيّز: تهيم. فوضعته في نهر قد يبس، وسترته بالحلفاء ليلتبس. وكانت تختلف لرضاعه، وقد سبقها رضاع: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١].

فلما بلغ سبع سنين: رأى قومه في هزل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ [الزخرف: ٢٢]. فجادلهم[١] فجدّ لهم[٢] فجدلَهم[٣]، وأبرز نور الهدى في حجة: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فقابله نمرود بسهى السهو في ظلام: ﴿أَنَا أُحْيِي﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فألقاه كاللقا[٤]، على عَجَزِ العجزْ، بآفات: ﴿فَأْتِ بِهَا ... فَبُهِتَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم دخل دار الفراغ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ [الصافات: ٩٣]. فجردوه من بُرْدِ[٥] بَرْدِ[٦] العدلِ إلى حرِّ: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. فبنوا لسفح

---

(١) فجادلهم: من المجادلة.
(٢) فجدّ لهم: من الجد خلاف اللعب.
(٣) فجدّلهم: غلبهم في الجدل.
(٤) اللقا: الشيء الملقى، والمطروح، والمنبوذ.
(٥) بُرْد: بالضم: الثوب.
(٦) بَرْد: بالفتح: خلاف الحر.

دمه: بنيانا إلى سفح جبل، فاحتطبوا له على عَجَل العَجَل، فوضعوه في كفة المنجنيق، فاعترضه جبريل في عرض الطريق، فناداه وهو يهوي في ذلك الفلا: ألك حاجة؟ قال: «أما إليك فلا»[1]، فسبق بريد الوحي إلى النار بلسان التفهيم: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

★ ★ ★

(١) لم نقف لهذه الرواية على إسناد، وقد ذكرها ابن كثير في تفسيره عند الآية (٦٨) وما بعدها من سورة الأنبياء. وقال: «وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا».

الفصل السابع
في قصة الذبيح عليه السلام

لما ابتلي الخليل بالنمرود فسلّم[١]، وبالنار فسلِم[٢]؛ امتد ساعد البلاء إلى الولد المساعد، فظهرت عند المشاورة: نجابة: ﴿**افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾ [**الصافات**: ١٠٢]. وآب يوصي الأب: اشدد رباطي؛ ليمتنع ظاهري من التزلزل، كما سكن قلبي مسكن السكون. واكفف ثيابك عن دمي؛ لئلا يصبغها عندمي[٣]، فتحزن لرؤيته أمي. واقرأ السلام عليها مني. فقال: نعم العون أنت يا بني. ثم أمرّ السكين على مَرِيء[٤] المرء؛ فما مرت. غير أن حسرات الفراق للعيش أمرّت. فطعن بها في الحلق مرات؛ فنبت[٥]. لكن حَبّ حُبِّ الرضا في حبّة القلب نبت[٦].

يا إبراهيم: من عادة السكين أن تقطع، ومن عادة الصبي أن يجزع! فلما نسخَ الذبيحُ نُسخة الصبر؛ ومحا سطورَ الجزَع: قلبنا عادة الحديد؛ فما مر ولا قطع. وليس المراد من الابتلاء أن نعذب، ولكنا نبتلي لنهذّب.

أين المعتبرون بقصتهما، في غصتهما؟ لقد حصحص الأجر

---

(١) فسلّم: من التسليم.

(٢) فسلِم: من السلامة.

(٣) العندم: دم الأخوين أو البقم: صبغ أحمر.

(٤) مَرِيء: كأمير: مجرى الطعام والشراب عند الحلقوم.

(٥) فنبت: كلّت ولم تذبح.

(٦) نبت: من النبات. أي نما.

في حصتهما، لما جعلا الطاعة إلى الرضا سُلَّما[١]، سُلَّ ما يؤذي فسلما. وكلما كلما[٢] حاجب كلم كل[٣] ما به تذبحان، فصد ما به صدما. بينا هما على تل: ﴿وَتَلَّهُ﴾ [الصافات: ١٠٣]. جاء بشير: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ [الصافات: ١٠٥]؛ فارتد أعمى الحزن بصيراً، بقميص: ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾ [الصافات: ١٠٧].

ليس العجب أمر الخليل بذبح ولده؛ وإنما العجب مباشرة الذبح بيده. ولولا استغراق حب الآمر؛ لما هان مثل هذا المأمور.

* * *

(١) سُلَّما: مرقى.
(٢) كلم: جرح.
(٣) كل: لم يقطع.

الفصل الثامن
في قصة ذي القرنين

قطع ذو القرنين الأرض وأقطعها، فمر سالكا ما فت[١] سبسبه فتى ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٥]. فشمر مشمراً ما تلفّت. حتي لُفّت شملة جمع شمله بالشمس في عين حمئة. فلما أفرغ غرْب الغرب على غارب[٢] الغربة مشى نحو المشارق. ولم يزل يحوز الكنوز. ويجوز[٣] إلى قتل من يجوز. إلى أن طلعت طلائعه الطُّلْعة[٤] على مطلع الشمس، فأبرز نير عدله المُشرق في المَشرق، ثم رأى باقي عرضه في دمه: مقدار مقدرته كالدّين؛ فسلك بين السدين. فلما حشى حشا الجبلين بالزبر[٥]؛ ولج المفسدون قسر[٦] قصرهم؛ على مضض: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ [الكهف: ٩٧].

عجباً له: كم اقتنى من أصْقع[٧] وأقْنف[٨]، وكم أسْعف[٩] بأغْشى[١٠] وأسْعف[١١]. وكم لطى له[١٢] من لطيم[١٣] وأخْيف[١٤]،

---

(١) ما فت: قطع، والسبسب: المفازة، أو الأرض المستوية البعيدة.

(٢) الغرْب: الدلو العظيمة. والغارب: الكاهل.

(٣) يجوز: يمضي.

(٤) الطُّلَعة: كهمزة. المتطلعة كثيراً.

(٥) قسر: في المخطوط: «قصر».

(٦) حشى حشا الجبلين بالزبر: ملأ جوفهما بقطع الحديد.

(٧) أصْقع: الفرس الأبيض المقدم.

(٨) أقْنف: الفرس الأبيض المؤخر.

(٩) أسْعف: ساعد.

(١٠) بأغْشى: الأغشى: الفرس الأبيض الوجه.

(١١) أسْعف: الفرس الأبيض الناصية.

(١٢) لطى له: أخذ له قبل الانتظار.

(١٣) لطيم: الفرس الأبيض.

(١٤) أخْيف: الفرس الأزرق العينين.

وكم سعى به من أكْسع[١]، وقفز به من أقفز، ومشى به في محجة المشرق مُحجَّل، وطرق به طريق المغرب مُغرِب. كم صحبه من سايف ونابل وسالح. كم تبعه من مدجج ورام ورامح. كم تقدم في مقدمته من مقنع مُقَنَّع[٢]. وشاكٍ في السلاح كافر[٣]؛ غير شاكٍّ في الصلاح ولا كافر. فما درأ عنه الإدّ[٤] المودي له مود، ولا داري عن داره الدوائر دارع، ولا رد عنه وَرْدٌ ولا كُمَيْت[٥]. إذ ورد عليه ما تركه كَمَيْت[٦]، ولا فرّ به من منيته سابق ولا سُكَيْت[٧]، فكأنه إذا مات ما تحرك على حارك[٨] فرس، ولا شاك شاكلته[٩] بشوكة عقب، بل مرّ كأنه لم يكن، وذلّ للموت وقبلها لم يهن.

فتلمّح آخر الدنيا إن كنت تدري، وانظر في أي بحر إلى الهلاك تجري. وأَصْغِ لخطاب الخطوب، وافهم ما يجري. وكن على أُهبة فهذي الركاب تسري.

للشريف الرضي:

أوما ما رأيت وقائع الدهرِ ... أفلا تسيء الظنَّ بالعمرِ

بينا الفتى كالطودِ تمنعه ... هضباته والعضْبُ ذي الأثر

---

(١) أكْسع: الفرس الأبيض طرف الرجل.

(٢) مُقَنَّع: كمعظم، من عليه بيضة الحديد.

(٣) كافر: مغطى بالسلاح.

(٤) الإدّ: الداهية.

(٥) وَرْد: الورد من الخَيل بين الكميت والأشقر، والكميت: الذي خالط حمرته سواد.

(٦) كَمَيْت: الكاف فيه للتشبيه.

(٧) سكيت: ككُميت، ويُشدّد: المتأخر من الخيل.

(٨) حارك: أعلى الكاهل، ومنبت أدنى العرف إلى ظهر الفرس، الذي يأخذ به من يركبه.

(٩) شاكلته: خاصرته.

يأبـى الدنيّـة فـي عشيرتـه ... ويجاذب الأيدي علـى الفخـر
وإذا أشـار إلـى قبائلـه ... حُشدت عليـه بأوجـه غُـرّ
زل الزمـانُ بـوطء أخمصه ... ومـواطئ الأقـدام للعثـر
نـزع الإبـاء وكـان شِمْلتـه ... وأقـر إقـراراً علـى صَعَـر(١)
صـدْعُ الـردى أعيى تلاحمـه ... من ألحم الصدفيـن بالقطـر
جرّ الجياد على الوجى(٢) ومضى ... أَمَمَاً يـدقُّ السهـلَ بالوعـر
حتى الْتقـى بالشمس مغمـدة ... فـي قعـر منقطـعٍ مـن البحـر
ثـم انثنـتْ كـفُّ المنـون بـه ... كالضغث بين النـابِ والظُفْـر
لـم تَشْتجـر عنـه الرمـاحُ ولا ... ردَّ القضـاء بمالـه الدَّثـر
جمـع الجنـود وراءه فكأنمـا ... لاقتـه وهـو مُضيَّـع الظهـر
وبنى الحصـون مُمتّعـا فكأنمـا ... أمسـى بمضيعـة ولا يـدري
وبرى المعابل(٣) للعدى فكأنما ... لحِمَامـه كـان الـذي يبـري
أودى ومـا أودت مناقبـه ... ومـن الرجـال معمـر الذكّـر
إن التوقـي فضـل معجـزة ... فـدع القضـاء يقـدّ أو يفـري
يحمـي المطاعـم للبقـاء وذي ... الآجال ملؤ فروجهـا تحـري
لو كـان حفْظُ النفـس ينفعهـا ... كـان الطبيـبُ أحـقّ بالعمـر
الـداءُ داءٌ لا دواءَ لـه ... سيّـان مـا يوبـي ومـا يمـري

★ ★ ★

(١) صَعَر: الصعر: إمالة الخد كبْرا، وقد يكون خلقة، والذي في المخطوط: (صُغر) من الصغار والذلة، وهو كذلك في ديوانه.
(٢) الوجى: الحفا، أو أشدّ منه.
(٣) المعابل: النصول.

الفصل التاسع
في قصة قوم لوط

لما تهاوى قومُ لوطٍ في هوّة أهوائهم، وتنادوْا في جهاتِ جهلهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]. بُعثت الأملاكُ، لانْتزاعِ مِلاك الحياة من أيديهم، فنزلوا من منزل لوطٍ منزلَ النزيل(١)، وهم في أفسح بيْتٍ بُني من الكرم، غير أنَّ حارسَ حذره ينادي: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧]. فخاف من قومه أذاهم، فإذا هم: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ [هود: ٧٨]. فأخذ يدافع؛ تارة بمشورة: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: ٧٨]، وتارة بتقاة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٧٨]، وتارة بسؤال: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ [هود: ٧٨]، وتارة بتوبيخ: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. فلما كلَّ كلُّ سلاحه، وأعْيته جهاتُ جهاده؛ أنّ(٢) برمز: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ﴾ [هود: ٨٠]، فحجهم جبريل بحجاب: ﴿فَطَمَسْنَا﴾ [القمر: ٣٧]، وانْتاشه(٣) من أسرْ الغمِّ بلفظ: ﴿فَأَسْرِ﴾ [هود: ٨١].

فلما علم أن الملأ ملائكة، تشوّق إلى تعجيل التعذيب؛ فنادت عواطف الحلم: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. فسار بأهله على أعجاز نجائب النجاة، إلا عجوزَ العجْزِ عن عِرْفان المُعْجزِ، فإنها لحقت بالعَجَزَة.

فلما لاح مصباحُ الصباح؛ احتمل جبريل قرى(٤) من جنى

---

(١) النزيل: الضيف.

(٢) أنّ: من الأنين.

(٣) وانْتاشه: أخرجه.

(٤) قرى: جمع قرية.

على قرا[١] جناحه، فلم ينكسر في وقت رَفْعهم إناء، ولم يُرَق في صَعُود[٢] صُعُودِهم ماء. فلما سمع أهل السماء نباحَ كلابهم؛ أسرعت كف القِلى بهم. في انقلابهم.

فتفكّروا بالقلب: كيف جُوزوا على قَلْب الحكمة بالقَلْب.

ثم بعث إليهم سحاب: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ [هود: ٨٢] فاستقل لهم سدٌّ سدَّ جُرْمُهُ الأفق: على وِفْقِ جُرْمهم، فشطا بالشصائص[٣]، واحزأل[٤] ثم آل[٥] إليهم، فاكفهرت بالغضبِ أرجاؤُه، وحوّمت[٦] بالسخط أرحاؤه، وابذعرّت[٧] فعرت بوارقه، وارتتقت في جو الجوى جُوَبه[٨]، واستقلت على قلل قلاقل الردى أردافه، فارتجز بأرجوزة الرجز. قبل أن يهمي فهمهم، ثم دوى بأدواء في دوّ دَوَرَانه فأظلم، وركد كيده، فلم تكد قلوعه تقلع حتى قلعهم حَيْنه[٩] حين أثجم[١٠]. فما أرك[١١] ولا دث[١٢] ولا بغش[١٣]. بل قطقط[١٤] فأفرط، وعم عميمه حين أغمط[١٥]، فتقاطر على قطرهم من قطرة قطر الحجارة، وبغتهم في غرة غرتهم بالغرور: حين شن الغاره.

تالله لقد ضكضك[١٦] العذاب، فضعضعهم، فتضعضعوا. وانقض

---

(١) قرا: الظهر.

(٢) صَعُود: العقبة الشاقة.

(٣) فشصا بالشصائص: ارتفع بالنوق القليلة.

(٤) واحزأل: علا.

(٥) ثم آل: أسرع.

(٦) وحوّمت: استدامت.

(٧) وابذعرّت: تفرقت.

(٨) جوبه: فجواته. جمع جَوْبة.

(٩) حَيْنه: الحَيْن: الهلاك.

(١٠) أثجم: دام.

(١١) أرك: أركت السماء: مطرت ضعيفاً.

(١٢) الدث: المطر الضعيف.

(١٣) البغش: أضعف المطر.

(١٤) قطقط: عظم تتابعه.

(١٥) أغمط: دام ولازم.

(١٦) ضكضك: ضاق وضغط.

بقضه وقضيضه، فقضقض عظام عظامهم، وقطعها، فتقطعوا. وسار بهم على طِرفسان[١] عقاب العقاب، إلى عوطب[٢] العطب، فاهرمّعوا[٣]. وكانوا في كِنّ صافي الصفاة، فمروا إلى مر الملق[٤]، فافرنقعوا[٥]. وهمس هَمَيْسعهم[٦] وهل لمثلهم الا الوهل والوهى[٧]، ولات حين مناص فادرنْقعوا[٨]، وبرقط[٩] المخرنشم[١٠] بعد أن بهنس[١١]، وبلطط[١٢] فبلطح[١٣]، وحزن المبرنشق[١٤] بعد أن زهزق[١٥]، فبلسم[١٦] وكلح، فأجيل على ذلك الجيل سَجْلُ السِّجيل، فما بَرَح حتى بّرح، ودار هاتف العبرة، على دارس دارهم ينادي: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥].

فليحذر العازمون على طروق طريقهم. من وعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. قبل غَصَصِ الجَرَضِ[١٧] وألَم الحرَضِ[١٨]، عند حلول المرض، حين يُعتقل اللسان، ويتحيّر الإنسان، وتسيل الأجفان، ويزول العرفان، وتُنشر الأكفان، فيا عجباً. كيف ألفى لذة العيش الفاني الفان؟ وقد مر؛ فأمرَّ كل ما كان ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

---

(١) طرفسان: بكسر الطاء الظالمة.
(٢) عوطب: الداهية.
(٣) فاهرمّعوا: بتشديد الميم: خفوا عاجلين.
(٤) الملق: لقم الطريق: وسطه ومعظمه.
(٥) فافرنقعوا: تنحوا وانكشفوا.
(٦) هميسعهم: الهميسع القوي الذي لا يُصرع.
(٧) الوهل والوهى: الفزع والضعف.
(٨) فادرنْقعوا: فرّوا من الشديدة نزلت بهم.
(٩) برقط: خطا متقاربا.
(١٠) المخرنشم: المتعاظم.
(١١) بهنس: تثاقل.
(١٢) بلطط: أعيى.
(١٣) فبلطح: ضرب بنفسه الأرض.
(١٤) المبرنشق: الفرح.
(١٥) زهزق: ضحك.
(١٦) فبلسم: سكت عن فزع.
(١٧) الجرَض: الريق.
(١٨) الحرَض: الفساد في البدن والعقل.

الفصل العاشر
في قصة يوسف عليه السلام

لما تمكن الحسد من قلوب أخوة يوسف: أُري المظلوم ما للظالم، في مرآة: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤]. فتلطفوا بخداع: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ [يوسف: ١١]. وشوقوا يوسف إلى رياض ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]. فلما أصحروا[1] أظهروا المقت له، ورموا بسهم العدوان مَقْتَله، فنسخ نهارَ رِفْقهم به: ليلُ انتهارهم له. فصاح يهودا في بقايا شفق الشفقة، وإغباش غيابة[2] الحب: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ[2] الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]. لما ألقوه. وقالوا: هلك، جاء مَلَكٌ، مِن عند من مَلَكَ، يقول: ستبلغُ أملك ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ [يوسف: ١٥]. فعادوا عمن عادوا، كالأعشى: ﴿عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]. ولطخوا قميصه الصحيح ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]. فلاحت علامة سلامة القميص؛ كي يظهر كيدهم. فقال حاكم الفراسة: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ [يوسف: ١٨].

فلما ورد وارد السيارة، باعوا الصدَفة ولم يتلمحوا الدرّة. واعجبا لقمرٍ قُومِر به[3].

فلما وصل إلى مصر، تفرس فيه العزيز، فأجلسه على إعزاز: ﴿أَكْرِمِي﴾ [يوسف: ٢١]. فشغف قلب سيدته وفرى؛ فـ: ﴿رَاوَدَتْهُ﴾ [يوسف: ٢٣]. فسار بأقدام الطبع، في فلاة غفلات: ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ

---

(١) أصحروا: برزوا إلى الصحراء.

(٢) غيابة: كل ما أظلك. وغيابة الجب: قعره.

(٣) قُومر به: من القمار، وهو الرهان.

بِها﴾ [يوسف: ٢٤]. رد ﴿لَوْلا أن رَّأَى﴾ [يوسف: ٢٤]. فانقد قوى الفرار وما استبقى؛ فـ ﴿اسْتَبَقَا﴾ [يوسف: ٢٥]. فانبسطت يد العدوان وامتدّت ﴿وَقَدَّت﴾ [يوسف: ٢٥].

فلما بانت حُجته في إبان: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [يوسف: ٢٦]. أخذت تزكي[1] مصراة[2] الإصرار. بيمين يمين ﴿ولَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾ [يوسف: ٣٢]. فاختارت درة فهمه: صَدَفَة الحبس، لجهل الناقد: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣].

فلما ضاق قفص الحصر على بلبل الطبع؛ ترنم بصوت: ﴿اذْكُرْنِي﴾ [يوسف: ٤٢]. فعوقب بإيثاق باب: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ﴾ [يوسف: ٤٢]. فلما آن أوان الفرج خرج إلى المُلك.

هذا ويعقوب مفترش فراش الأسى على حَزَن[3] الحُزْن، لا يستلذ نوماً ولا سِنَة[4]، ثمانين سَنة، حتى نحل البدن، وذهب البصر:

لم يبق لي بعدكم رسمٌ ولا طللُ
إلا وللشوقِ في حافاته عملُ
إذا شممتُ نسيماً من بلادكم
فقدتُ عقلي كأنّي شاربٌ ثَمِلُ

---

(١) تزكي: تربي خ ل.
(٢) مصراة: الشاة المحفلة.
(٣) حزن: خلاف السهل.
(٤) سنة: أوائل النعاس.

فلما عمَّ عامُ القحط أرضَ كنعان؛ خرج إخوته لطلب الميرة[١].
فدخلوا عليه في ظلام ظلمهم، فرآهم المظلوم بعين: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ [يوسف: ١٥]، وخفي عليهم نعمة ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩]، فأقبل عليهم سائلاً، وأقبل الدمع سايلا، وتقلقلَ تقلقلِ الواجد؛ ليسمع أخبار الوالد:

إيـــهِ أحاديث نعمـان وساكنـه
إن الحديث عن الأحبـاب أسمارُ
أُفتّش الريحَ عنكم كلمـا نفحت
من نحو أرضكـم نكبـاءُ معطـار

فقالوا: جئنا من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له يعقوب، وهو يقرأ عليك السلام. فلما سمع رسالة أبيه؛ انتفض طائر الوجد لذكر الحبيب:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من مِنًى
فهيَّج أحزان الفـؤاد ومـا يـدري

فردّ السلامَ قلبُه قبل لسانه، وشغله وكف[٢] شانه عن شأنه[٣].
وقال مقولة إبدائه، بعبارة صُعَدَائه[٤]:

خذي نفسي يا ريحُ من جانب الحمى
فلاقي بـه ليـلا نسيم رُبَى نجـد

---

(١) الميرة: جلب الطعام.
(٢) وكف: قطر.
(٣) شانه: دموعه. عن شأنه: عن أمره.
(٤) الصُعداء: النفس الطويل.

فـإن بـذاك الجـو حبـاً عهدتـه

وبالرغم مني أن يطول به عهدي

ثم إنه طلب أخاه، فاحتالوا بحجة: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣]، فلما حملوا حال بينهم وبينه بحيلة: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ [يوسف: ٧٠]، فلما دخل وقتُ التُّهمة: ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [يوسف: ٧٠]، فعادوا إلى أبيهم بشجىً على شجن، وقَرْحٍ على جُرْحٍ، وعَقْرٍ[1] على عقر في عقر. فقام وقد تقوّش وعسى[2] على باب: ﴿عَسَى﴾ [يوسف: ٨٣]، ثم بعثه لطف: ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ [الزمر: ٥٣][3]، على أن بعثهم برسالة: ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ [يوسف: ٨٧].

فلما رجعوا دخلوا من قفر الفقر، فاستلقوا في ساحة الضر، ينادون على غليل عليل الذل: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨].

تالله لقد جُوزيت أيد مدّها تغشْرُم[4]: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ [يوسف: ٢٠]، أن مُدّت في طريق ذُلٍّ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]. فلما عرفوه اعترفوا، فمحى ما اقترفوا، بكف: ﴿لا تَثْرِيبَ﴾ [يوسف: ٩٢].

فرفع من موائد تلك الفوائد؛ نصيب الوالد: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾ [يوسف: ٩٣]، فهبت نسايم الفرح، فتوغلت في خياشيم مريض كالفرْخ، من فُرَجِ[5] الفَرَجِ؛ فخرَّ رُكام الزكام عن منخر الضر،

---

(١) العَقْر: الجرْح.

(٢) عسى: كبر.

(٣) الذي في سورة يوسف، الآية (٨٧): ﴿لا تيأسوا﴾.

(٤) تغشْرُم: التغشرم: الجرأة.

(٥) فُرَجِ: جمع فرجة.

فنادى مُدْنِفُ الوجْد: ﴿إِنِّي لأَجِدُ﴾ [يوسف: ٩٤]:

نشدتـك الله يـا نسيـمُ ... مـا فعلت بعدنـا الرسـومُ
هل استهلّت بهـا الغوادي ... وَنمّقت رَوْضَهـا الغيـومُ
وهل بها من عهدت فيهـا ... بـعدُ علـى حـالهِ مقيـم
عَلّلَ بروح الوصـال صَبّاً ... أنفاسُه للجـوى سمـوم
وعُـدْ فسلِّم علـى أُنـاسٍ ... ما أنـا من بعدهـم سليم
واشْرح لهم حالَ مُستهامٍ ... أنت بأشواقــه عليــم
وقُل: غريبٌ ثـوى بأرضٍ ... في غيرهـا قلبُـه يهيـم
يُكابد الشوق حيـن يمسي ... وتعتري قلبَــه الهمـوم
أحبابَنَا تنقضـي الليالـي ... وما انْقضتْ تلكم الكلوم
ذاك اللديغُ الذي عهدتـمْ ... بَعْـدُ علـى حالـه سقيـم
أصبح من فقدكم وحيـداً ... فـلا خليـلٌ ولا حميـم
لم يجر ذكـر الفـراق إلا ... حنّ كما حنّت الرزوم[1]

فلما كشف يعقوب فِدَام[2] الوجْد؛ بكف: ﴿إِنِّي لأَجِدُ﴾ [يوسف: ٩٤] أحدقت به عواذل: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ [يوسف: ٨٥]، تالله لو وجدوا ما وجد؛ ما أنكروا ما عرف.

للمهيار:

هـل لكمـا مـن علـمٍ ... بالطــارق الملـمِّ
سَرى علـى الدياجـي ... سُـرى أخيـه النجـم

---

(١) الرزوم: الناقة التي حنت لولدها.

(٢) فِدَام: غطاء يشد على فم القربة ونحوها.

يشقُّ نجداً عرْضا   من شخْصه بسهم
فنوّر الليل وليست   من ليالي التم
خذ يا نسيم عني   تحيتي ولثمي
وَهَنِّهم بوجْدهم   من الكرى وعُدْمي
قالوا: هجرت أرضهم   أهجرها برغمي
قد وصلت إلى الحشا   رسلكم بالسقم
فلم تدع واسطة   بين دمي ولحمي
عج كي ترى رسوماً   ثلاثة في رسم
سوّى[1] النحول بيننا   تعرفنا بالوهم
خط هلال ليلة   ودارهم وجسمي

* * *

---

(١) سوّى: جعلنا سواء.

الفصل الحادي عشر
في قصة أيوب عليه السلام

جُمع لأيوب بين كثرة المال، وحسن الأعمال؛ فملأ مدْحُه بالوفاقِ الآفاق، فأثارت تلك الآثارُ: حسداً من إبليس قد تقادم، منذ آدم. فقال: يا رب إن سلطتني عليه: ألقيتُهُ في الفتنة؛ فألقيته في الفئة المفتونين. فقيل: قد سلطناك على ما لَه من مال. فمال إلى جميع عفاريته، ففرّقهم في تمزيق ماله، وتولى هو رمي بيته على بنيه. ثم أتى في صورة معلّمهم يُعلمه؛ فرأى ذلك لا يؤلمه.

أنصت العدوّ؛ ليسمع عربدة السكْر. فإذا أيوبُ يتلو آياتِ الشكر. فصاح بلسان حسده: سلطني على جسده. فسلطه؛ وقد سبقه الصبر. فتقطّع الجسم وداد[1]، وما تقطع رسم الوداد.

فأخرجه أهل قريته - لَقَرحِ قَرْحَه - إلى قرْواح[2] كناسة، فرموه كسيراً كالكسرة. وكساءُ كساده عندهم: أعلى عندنا من أغلى كِسْوة كسرى. فلم يزل ما نزل به حتى بدا حجاب بطنه، وكان يصر عظامه ومعاه[3] معاً.

للمهيار:

ما اختصّ منّي السقامُ جارحةً	كلُّ جهاتي أغراضُ مُنْتبلِ
إذا لحاظي لجسمي امتعضت	من الضنا قال قلبي: احتمل

(١) داد: ظهر فيه الدود.

(٢) قرْواح: البارز تحت السماء.

(٣) معاه: أمعاءه.

فدام هذا البلاء عليه سنين، وفدام[١] الصمت عن الشكوى على فيه[٢] تبين. ولم يبق غير اللسان للذكر، والقلب المفكر. فلو أصغى إلى نطق حاله سمعٌ فهْم، أو سأله عن وجْده ربُّ قلب؛ لسمع من الذماء[٣] ألذّ ما يُناجى به الحق.

للشريف الرضي:

محا بعدكم تلك العيونَ بكاؤُها
وغـال بكـم تلك الأضالـع غولُها

فمـن ناظـرٍ لـم تبـق إلا دموعـه
ومن مهجـة لـم يبـق إلا غليلُهـا

دعــوا لــي قلبـاً بالغـرام أذُيبـه
عليكم وعينـا في الطلـول أُجيلهـا

فلما كع[٤] إبليس؛ لقي زوجته في صورة متطبب[٥]. فقال: عندي دواؤه، بشرط أن يقول بشفتيه: شفيتني. فجاءت تدب. وقد أنساها طولا البلاء تدبر المعنى. فأخبرت من قد خبّر عدْو العدوّ. فغضب المؤدِّبُ على تلميذٍ ما يقوم بطولِ الصحبة؛ فحلف: لئن شفي؛ ليجلدنها مائة.

فبينا المرء يكابد المرّ؛ مر به صديقان له، فقالا: لو علم الله

---

(١) الفدام: الغطاء يشد على فم القربة.

(٢) فيه: فمه.

(٣) الذماء: بقية النفس.

(٤) كع: جبن وضعف.

(٥) متطبب: من يمارس مهنة الطب

من هذا خيراً؛ ما بلغ به هذا الأمر. فما شدّ على سمعه أشدّ من ذلك؛ فخر على عتبة: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، واستغاث بلفظ ﴿مَسَّنِيَ﴾ [ص: ٤١]، وصاح بإدلال: «لو أقسم»[1] فجاء جبريل برسالة: ﴿ارْكُضْ﴾ [ص: ٤٢].

وليس العجب لو ركض جبريل؛ إنما العجب أن يركض العليل. فركضت خيل النعم عند ركضته فردت ما غار [من] الماء وما أُغير عليه من نعمته؛ فنسي بنسيم العافية: ما ألمّ من ألَم، وردت يد المنة: كل ما مرّ منه وذهب، وكان نثار الرضا على واديه، بعد أن جرى وادي جُرادى[2]، من ذهب.

وأقبلت زوجته، وعليه يمين ضربها. وما كان يحسُن في مقابلة صبرها. فأقبل لسان الوحي، يتلو فتوى الرحمة، ويراعي ما سبق من مراعاة «رحمة»[3]: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤].

تالله ما ضره ما أكل من جسده الدود؛ لما اختال في ثوب مودود، وأصبح مصطحباً شراب السرور، من جود الجود. فرنّت قِيانُ الفرَحِ، إذ غنّت ألسنةُ المدح؛ لا بعود. وفاح عبير الثناء؛ فزاد نشره على كل عود: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤].

★ ★ ★

---

(١) إشارة إلى حديث: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». رواه البخاري في الصلح: (٢٧٠٣)، ومسلم في القسامة: (١٦٧٥).

(٢) جُرادى: كفرادى. موضع، والذي في البخاري في الغسل (٣٧٩): «فخرّ عليه جرادٌ من ذهب».

(٣) رحمة: يقال إن هذا اسم زوجة أيوب.

الفصل الثاني عشر
في قصة شعيب عليه السلام

لما رأى «شعيب» شُعَبَ شِعَابِ قومه: قد امتلأت بالجور؛ صعد منبر التذكير بالإنعام، ولكن بين الأنعام؛ فخوفهم من قحم قحل[1] القحط في إشارة: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]، فتلقوه باستهزاء: ﴿أَصَلَاتُكَ﴾ [هود: ٨٧]، ومدوا نحوه باع النخوة ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وتعللوا بحجة: ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ [هود: ٩١]، وانتهوا إلى عتوّ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا﴾ [الشعراء: ١٨٧].

فلما اسمهر[2] ظلام ظُلْمهم؛ اسحنكك[3] ليلُ إدبارهم، واسلنطَح[4] نهارُ هلاكِهم؛ فحقحق[5] إليهم: ما حقّ عليهم من محقهم؛ فأظل[6] على ظُلَل ضلالهم ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، فارتجّت أرجاءُ بيوتهم: برجِّ الرجفة، وشدّت عليهم شدّة الحرّ؛ فهربوا إلى البرّ. فإذا سحابة تسحب ذيل بُرْد البَرْد؛ فتنادوا: هلموا إلى راحة الروح.

فلما تم اجتماعهم في قصر الحصْر، وظنوا أنها من حر وقْتهم وَقَتْهم؛ نزلت بهم نار، فأحرقتهم. فساروا إلى جهنم في أسر إدبارهم،

---

(١) قحل: يبس.

(٢) اسمهر: تنكر.

(٣) اسحنككَ: اشتد ظلاما.

(٤) واسلنطَح: وقع على وجهه.

(٥) فحقحق: جد في السير.

(٦) «فأظل»: في المطبوع: «فأضل» والتصحيح من المخطوط.

وسار بعد بُعْدِهم في أدبارهم: نذير التحذير من تبذيرهم، ودعا بهم[(١)] في عقاب عقابهم: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: ٩٥].

فليحذر العصاة مثل أفعى أفعالهم، وليتق أعمى البصيرة: شبه أعمالهم، وليَخَفِ المطففون من أخذ التطفيف في مكيالهم، وليسمعوا نذير العبرة؛ فقد أوحي إليهم بشرح أعمالهم.

★ ★ ★

(١) ودعا بهم: في المطبوع: «عابهم» والتصحيح من المخطوط.

الفصل الثالث عشر
في ذكر بداية موسى عليه السلام

كانت الكهنةُ قد أخبرت فرعونَ بوجود موسى؛ فأطلق الموسى في ذبح الأطفال. فلما اتُّهمت أمُّ موسى بالوضع؛ أوضعَ الحرسُ[1] إلى بيتها بالطلب؛ فأدركها عند العلم الدَّهش[2]؛ فألقته في التنّورِ إلقاء الحطب. فلما عادت، فرأته قد سلم؛ شاهدت في ضمن ما صنعت أثر: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]. فكانت سلامته من النار: نقْداً لأَجَل احتمل لأجله وعْدا، لنجاة يوم اليّم.

لما سعت بتابوته إلى البحر؛ ارتعشت يد التسليم؛ فامسكها. فصاح شجاع الشجاعة بمل فيه: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ [طه: ٣٩] فيه. فصدرت بعد إلقائه، بصدر قد لوى به لواعجُ الاشتياق، لا يعلم قدر ما به؛ إلا من قد رمي به. فتلقاها بالبشر بشير: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ﴾ [القصص: ٧].

فلم تزل أمواج اليم تيمم به مسالك القدر، إلى أن خبت[3] به خيل النيل. فشرعت في تناوله مشرعة[4] دار فرعون، فألقته في برية: ﴿فَالْتَقَطَهُ﴾ [القصص: ٨] فلما فتحوا التابوت: أسفر عن مسافرٍ على نَجيبِ النجابة، قد جعل زاده في مزود: ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ [طه: ٣٩] ووشح قلادة الحب؛ قد رصعت بِدُرٍّ: ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ [طه: ٣٩] فقام

---

(١) أوضع الحرس: عدوا مسرعين.

(٢) الدهش: الدهشة والتحيّر.

(٣) خبت: سارت الخبب.

(٤) المشرعة: مورد الشاربة.

فرعون على أقدام الإقدام على قتله؛ فخرجت آسية من كمين أتباعه، تنطق عن لسان: ﴿سَبَقَتْ لَهُم﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وتنادي في مخدع خديعة الحرب: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]. وتجمع في كلامها ما هو فردٌ في لغةِ الغدْر: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ [القصص: ٩].

فلم يزل فرعون في إغباش غرور يذبح؛ حتى طلع غرر صبح: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: ٥]. فلما قصَّ شوقُ أمّه جناحَ صبْرها؛ قالت لأخته: ﴿قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ [القصص: ١١]. في حريم ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ [القصص: ١٢]. فدنت فدندنت[1] حول حلّة الحيلة، بحوْل: ﴿هَلْ أَدُلُّكُم﴾ [القصص: ١٢]. فلما حفظت باب المكر، بحارس: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ [القصص: ١٢]. دخل طُفَيلي الوجد من باب: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

فجاءت بأمها يؤُمّها دليلُ الطرب؛ فكادت إذ حضرت تحضر[2] في ميدان: ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ [القصص: ١٠]. فكبحها لجام: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا﴾ [القصص: ١٠]. فخافت لسان جهرها لما خافت، فسُلَّ من أيديهم إلى سلم تسليمها. فقر في حجر: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣]، وترنمت بلابل الوصال؛ فأخرست بلابل الفراق.

فرُبِّي موسى في رُبى[3] فرعون، ونمى بين نمارقه، إلى أن آن أوان مُشاجرته؛ فجرى القدرُ بقتلِ القبْطي؛ ليكون سبباً في سر سير: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ [القصص: ٢٢]. فعسى على أرجاء رجاء: ﴿عَسَىٰ

(١) فدندنت: تكلمت بصوت ضعيف.

(٢) تحضر: تسرع.

(٣) ربى: جمع ربوة.

رَبِّي﴾ [القصص: ٢٢]. فتزود مزود: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ [القصص: ٢٣]. فتجمع شمل الصهْر بواسطة: ﴿ إِنَّ أَبِي﴾ [القصص: ٢٥]. فبقي ضمان الوفاء إلى أمانة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩]. فتلمّح معنى: ﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [القصص: ٢٩]. فيبدو في بادية الحيرة أنيس: ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ [القصص: ٢٩]. فترامى كف الطمع إلى مرامي: ﴿لَعَلِّي آتِيكُم﴾ [القصص: ٢٩]. فأطل على طلل الطلب بأقدام[1]: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ [القصص: ٣٠]. فتلقط ثمار التكلم من غير كلفة: ﴿وَهُزِّي﴾ [مريم: ٢٥]. تساقط من جنى جنات التجلي: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠].

★ ★ ★

(١) بأقدام: في المطبوع: «أقدام» والتصحيح من المخطوط.

الفصل الرابع عشر
في تكليم الله عز وجل موسى عليه السلام

لما خرج موسى بأهله من مدينة مدين، انطلق طلق الطلق بزوجته، فما زال يكادح المقادح[1]: فلم تُورِ[2]؛ لأن «عروس نار الطور» لما همت بالتجلي، نوديت النيران بلسان الغيرة من المشاركة: «غضى» . فقام على أقدام التحيّر[3]، فهتف به أنيس ﴿آنَسَ﴾ [القصص: ٢٩] فأنس:

يا حار إن الركب قد حاروا فاذهب تحسّس لمن النارُ
تبدو وتخبو: إن خبت وقفوا وإن أضاءت لهم ساروا

فشمّر موسى عن ساق القصد، وساق. فلما أتى النادي ﴿نُودِي﴾ [القصص: ٣٠]. فحين ذاق لذة التكليم: جَرح قلبَه نصلُ الشوق، فلم يداوه إلا طبيب: ﴿وَوَاعَدْنَا﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ليالينا بذي الأثلات عُودي
ليُورِق في ربُى الأثلاث عودي
فإن نسيم ذاك الشيخ أذكى
لدي من انتشاقي نَشْرُ عُود
وإن حديثكم في القلب أحلى
وأطيبُ نغْمةً من صوتِ عُود

---

(١) المقادح: ما يقدح بها النار.

(٢) تور: تتقد.

(٢) «التحير»: في المطبوع: «التحيرة»، والتصحيح من المخطوط.

فبُعث في حرب فرعون، فلم يزل مشغولا بالجهاد، إلى أن قبر القتيل في لحْد اليّم. فطلب قومُه كتابا يضبط شاردهم، ويردّ نادّهم؛ فأمره الله أن يصوم ثلاثين ليلة: نهاره وليله. فأمسك على مَسْكِ[1] الإمساك، بكفّ الكفّ في الوصال؛ فدام فدامُ[2] فيه[3] فيه، عن مطمع المطعم، فقيّد فقيَد قوتِ الوقت، فصار في فيء ذكر الوعد.

فما انقضت الليالي حتى أنقضت ظهر البصر، فقام لترائي هلال الوفاء بالأمر، فلاح في مطلع فلاح القصد، فبادر يسعى على أقدام الحب، إلى زيارة ربْع الحب. فكاد يُقلقه قلقلة الوجْد؛ فوجد الهواء متغير الريح في عَرْصة الفم، فصاح به فصيحُ لسانِ الحزْم، من وراء رأي العزم: يا موسى غير أثر الأزْم[4]. فتناول مضغة من النبات فمضغها. فقيل له: أيها الصائم عن أمرنا، لم أفطرت برأيك؟ فقال: وجدت لفمي خلوفا[5]، وما أردت بفعلي خلافا. فقيل: أما علمت أن فور فورة الخلوف، من قدر الإمساك: أطيب عندنا من فارة فأرة المسك[6]؟ إنا لننظر إلى قصد الفاعل، لا إلى صورة الفعل. الدم نجس مجتنب؛ لكنه في حق الشهيد شهي **«زملوهم بكلومهم ودمائهم»**[7].

---

(١) مَسْكَ: جلد.
(٢) الفدام: غطاء يُشدّ على فم القربة ونحوها.
(٣) فيه: فمه.
(٤) الأزْم: الإمساك، يعني: الصوم.
(٥) خلوفا: تغير ريح الفم بالصوم.
(٦) فارة: ما ينضح من الجلد، وفأرة المسك: وعاء المسك.
(٧) رواه أحمد: (٥/ ٤٣١)، والنسائي بنحوه في الجنائز: (٤/ ٧٨)، وفي الجهاد: (٦/ ٢٩).

فرجع موسى عاكفاً على معتكف كف كفه ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وأُحضر حظيرة القدس، فنسي الإنْس، بما آنس من الأُنْس.

فكلُّ شيءٍ رآه ظنّه قَدَحاً وكلُّ شخصٍ رآه ظنه الساقي

فلما دارت في دائرة الحب: كؤوس القرْب، وسمع النداء وسط النادي بلا واسطة، وسيط[1] له من وسيط أقداح المنى؛ في المناجاة بلا وسيط: طاب له شراب الوصال، من أوطاب[2] الخطاب، في أواني سماع الكلام. فناداه توقُ شَوْقه:

أوانٍ[3] أنتَ في هذا الأوانِ عن الراح المُروَّق في الأواني
رأى على الغور وميضاً، فاشتاق ما أجلبَ البرْق لدمْع الآماق[4]

فصاح لسانُ الوجد: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فردَّ شاردُ شَحَذَان[5] الشوق على الطوى[6]. بطوق: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] إلا أن جزع الفطامُ سكّن شَعَلُه[7] بتَعلَّة: ﴿وَلَكِنِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فلما تجلى جل جلاله للجبل مرّ[8]. فخر موسى في بحر الصعق فرَقاً فرقي فَرَقُه[9] ذروة: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ما انبسط موسى بقوله: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] إلا ببسط: «سلني ولو مِلْح عجينك»، ولو تركه مع رعيه الغنم في شِعْب «شُعيْب»؛ لما

---

(١) وسيط: مزج.
(٢) أوطاب: جمع وطب، وهو السقاء، أو الثدي العظيم.
(٣) أوان: من الونَى، وهو التعب والفترة.
(٤) الآماق: مجاري الدمع من العين.
(٥) شَحَذَان: بالتحريك. الجائع، والخفيف في سعيه.
(٦) الطوى: الجوع.
(٧) شعَلُه: التهابه.
(٨) مرّ: تحرك.
(٩) فَرَقُه: خوفه.

جال في ظنه ذلك الطمع. ولكنه استدعاه بالنداء، وآنسه بالتقريب، وباسطه بالتكليم.

فلمّا عايــنَ «الحيـرَةَ»[1] حـــادي جملـــي حـــارا

كان موسى يطوف في بني إسرائيل، ويقول: «من يُحمّلني رسالة إلى ربي؟» ما كان مراده إلا أن يطول الحديث مع الحبيب.

فقلت له: ردّ الحديث الذي انقضى
وذكْراكِ من ذاك الحديثِ أُريدُ

يجـدد تذكـارُ الحديثِ موّدتي
فذكرك عندي والحديث جديد

أناشـده ألا أعـــاد حديثــه
كأني بطيءُ الفهـمِ حين يُعيـد

مات موسى قتيل شوق: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلما جاز عليه نبينا ﷺ ليلة المعراج: ردده في الصلوات؛ ليسعد برؤية من قد رأى.

وإني لأتي أرضكم لا لحاجة
لعلي أراكم أو أرى من يراكم

ـــ . ـــ . ـــ

إن تشق عينـي فطالما سعـدت
عيـن رسـولي وفـاز بالنظـرِ

---

(١) الحيرة: موضع.

وكلما جاءني الرسول لهم

رددت شوقا في طرفه نظري

تظهر في طرفه محاسنهم

قد أثّرت فيه أحسن الأثر

خُذ مقلتي يا رسولُ عاريةً

فانظر بها واحتكم على بصري

* * *

الفصل الخامس عشر
في قصة الخضر عليه السلام

لما علا شرفُ الكليمِ بالتكليم كلَّ شَرَف؛ قال له قومه: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. ولم يقل: فيما أعلم؛ فابتلي فيما أخبر به وأعلم. فقام بين يدي الخضر: كما يقوم بين يدي السليم الأعلم[(١)]. فابتدأ بسؤال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: ٦٦]. فتلقاه برد: ﴿لَن﴾ [الكهف: ٦٧]. وكم أنّ موسى من: لن.

أمر قومه بالإيمان فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٥٥]. وقعوا في التيه فقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ [البقرة: ٦١]. نُدبوا إلى الجهاد فصاحوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾ [المائدة: ٢٢]. طرق باب: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فرده حجاب: ﴿لَن﴾ [الأعراف: ١٤٣]. دنا إلى الخضر للتعلم: فلفظه بلفظ: ﴿لَن﴾ [الكهف: ٦٧].

ثم زاده من زاد الرد. بكف: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ [الكهف: ٦٨]. فلما سامحه على نوبة السفينة، وواجهه بالعتاب في كرّة الغلام: أراق ماء الصحبة في جدال الجدار ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

ثم فَسّر له سِرّ المشكل، فجعل يشرح القصص فصلا فصلا، بمقول قائل يقول فصْلا. وكلما ذكّره أصلا أصلى[(٢)]. لم يبق لموسى عينٌ تراه أصلا. وكلما سل من حر العتاب نصلا؛ صاح لسان حال موسى: كم نصلى؟ فألقى تفسير الأمور على الكليم

(١) الأعلم: مشقوق الشفة العليا.

(٢) أصلى: أحرق.

وأملى. والقدر يقول: أهو أعلم أم لا؟ فعلم موسى ويوشع أي عبد أما[1]، منذ ابتدأ بالشرح بـ ﴿أَمَّا﴾ [الكهف: ٧٩].

ثم أخذ لسان العتاب يذكر منسيًّ موسى: أتنكر خرق سفينة. لظاهر إفساد تضمن ضمنه صلاح ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. أو تنكر إتلاف شخص دنّي لإبقاء دين شخصين؟ أو كرهت إقامة الجدار لشح أهل القرية بالقِرى؟ أفأردت من الأصفياء معاملة البخلاء بالبخل؟ أما تلمحت سر: «صِلْ من قطعك».

لقد أنكرت ما جرى لك مثلُه؛ حذرت يوم السفينة من الغرق، فصحت بإنكار: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ [الكهف: ٧١]. أنسيت يوم: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]. أنكرت قتل نفس بغير نفس. أنسيت يوم: ﴿فَوَكَزَهُ﴾ [القصص: ١٥]. نهيت عن عمل بلا أجر. أنسيت يوم: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤].

فلما بان البيان: خرج الخضر من باب دار الدعوى، وأخرج يده من ملك التصرف، وأحال الحال على الغير: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

وهذه القصة قد حرضت على جمع رحْلِ الرحيل في طلب العلم، وعلمت كيفية الأدب: في كف كف الاعتراض على العالم، وصاح فصيح نصيحها بذي اللب: دع دعواك، فعلى دعوى الكليم لِيم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

★ ★ ★

---

(٢) أما: قصدا.

الفصل السادس عشر
في قصة بلعام وموسى

أيها المتعبِّد: خَفْ من الفتن ولا تأمن، كم قد أُخذ آمنٌ من مأمن. إنه لم ينج من غطامط[١] بحر الفتن الأعظم، حافظ الاسم الأعظم. بل عام[٢] «بلعام» بعد أن رفل في حلل النِّعم كالنَّعم، غافلا يتعامى عن المنعم. وكانت بنية نية تعب تعبده: على رمل الرياء، فجرت تحتها أنهار التجربة، فانْهار بنيانها فتخرب. كان على دينار دينه: وَرَقَةُ رِقّة، فأعجبَ نَضَرُه[٣] نواظر الناظرين. فلما حكّه المنتقدُ على حَجَر الحجر؛ افتضح بين أهل الحِجى. وكان ظاهره لَثِقًا[٤] بالتُّقى، وباطنُه باطيةً[٥] لخمرِ الهوى؛ فلقد خبأ الخبائث في طيٍّ الطوّيات. فلما أراد المقدِّر: تنبيه جاره على جوره؛ تقدم إلى القدر بهتك ستره، فأتاه وهو في عُقْر[٦] عَقَار[٧] الهوى، يعاقرُ عُقار[٨] الريا[٩]، وقد رفعت له عَقِيرَتَها[١٠] عاقرُ الفهم إلى أن عُقِرَ بِعَقْر قلبِه، فعاد عقيراً. فدَعّه القدرُ إلى صفٍّ صفصف[١١] الدعوى، وأرسل عليه -لإصراره- صَرْصَرَ[١٢] العُجْب، فمزّقت

---

(١) غطامط: بحر غطامط. عظيم الأمواج.
(٢) عام: سبح.
(٣) نَضَرُه: بالتحريك: الحسن.
(٤) لَثِقًا: مبتلا.
(٥) الباطية: إناء الخمر.
(٦) عُقْر: وسط المكان.
(٧) الهوى: الضيعة.
(٨) عُقار: خمر.
(٩) الريا: الرياء.
(١٠) عَقِيرَتَها: صوتها.
(١١) صفصف: الموضع الذي لا نبات فيه.
(١٢) صَرْصَرَ: الريح الصرصر: الشديدة الصوت أو البرد.

جلبابَ التعبّد، فصيّره عَصْفُها عَصفْاً[1]؛ فانكشف عَوَارُ[2] عوْرته؛ فعوى؛ فإذا به كلب عقور.

وقصّة إقصائه: أن القدر ساق الكليم إلى محاربة فُسّاقِ بلدته، فقالوا له: اشحذ موسى[3] الدعاء على «موسى». فمجّ فوه مجمجة التمنّع، فخوّفوهُ بنحْتِ خشبة، فخشّته[4] خشْيةُ الخلْق، فخرج حتى أتى على أتان[5]. فلما قفا، وقفت؛ ليقف سير عزمه. فَضَرِي بضربها، حتى أضرّ بها. فقامت في المحجة، تتكلم بالحجة عليه: لم تضربني؟ وهذه نار تمنع الماشية المشي. فرجع إلى ملكهم، فأخبره خبره. وما نقل المقيتُ[6] المقصود ولا خبره.

فألجا الملك صُلْب عزمه إلى أمْرٍ صَلْب[7]: إما الدعاء عليهم وإما الصلْب. فخرج، فأتبعه الشيطان. فما كان إلا أن بلغ المكان ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين﴾ [الأعراف: ١٧٥].

تالله ما عدا عليه العدوّ إلا بعد أن تولّى عنه الولي. فلا تظنن أن الشيطان غلب، وإنما العاصم أعرض. وإن شككت؛ فاسمع هاتف القدر، مخبراً عن عزة القادر: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

* * *

(١) عَصْفاً: زرعا كل حبه وبقى تبنه.
(٢) عوار: العوار: العيْب.
(٣) الموسى: ما يستحدّ به.
(٤) فخشّته: دخلته.
(٥) أتان: أنثى الحمار.
(٦) المقيتُ: الممقوت.
(٧) أمرِ صلْب: كذا في المطبوع، والذي في المخطوط: «أن طلب».

الفصل السابع عشر
في قصة قارون

كان «قارونُ» غايةً في فقهه وفهمه، وكان في النسب إلى «موسى» ابن عمه. فلما فاضت الدنيا عليه فاضت نفس[1] علمه، وكانت مقاليدُ خزائنِ خزاياه[2] وقْرَ[3] ستّين بغْلا، غير أن الذي فاته بما ناله أعلى وأغلى. سحب ذيل: ﴿فَبَغَىٰ﴾ [القصص: ٧٦] فقام قومُه قوْمةَ بزَجْرٍ: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ [القصص: ٧٦] وألقوا إليه نصائح: ﴿وَابْتَغِ .. وَلَا تَنسَ .. وَأَحْسِن .. وَلَا تَبْغِ﴾ [القصص: ٧٧].

فركب يوماً - في وقت اقتداره - في أربعة آلاف مقاتل، وسمُّ الهوى يعمل في المقاتل. وركب معه في معمعته[4] ثلاثمائة جارية، وقد أنساه سفهُ الأمل: أن سفينَةَ الأجل جارية. فلما غلا وعلا: حط إلى حضيض: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ [القصص: ٨١] فقال الجاهلون: إنما بادر موسى بادرته؛ لأخذ بدْرة بيْدره[5]. فقال حاكم الغيب؛ لإزالة الريب: ﴿وَبِدَارِهِ﴾ [القصص: ٨١] فقال موسى: يا أرضُ خذيه. فاستخذت[6] لأمره، فسرت بِسَريرِه. فناشده قارونُ بالرَّحِم، فما

---

(١) فاضت النفس: خرجت الروح.

(٢) خزاياه: خباياه. خ.ل.

(٣) وقر: حِمْل.

(٤) معمعته: الجلبة والتحزب.

(٥) البيْدر: مكان الكدس الذي يجمع فيه الطعام ليداس.

(٦) فاستخذت: استرخت. وخذا البعير: أسرع.

رُحم. فأخذته لتقدمه[١]، حتى غيّبت قدمه. فما زال يردد القول، حتى غاب الغبيّ الغنيّ. وإنه ليُخْسَفُ به كل يوم قَدْر قامة. فلا تظنن أن دَمَ الجزاءِ قدْ رَقا[٢] دمَهْ.

إن الدنيا إذا طلعت على الطغام تُطغي، وإذا بُغي نكاحُها على العفافِ تَبْغي. ثم إنها تقصدُ هُلْكَ مُحِبِّها وتبغي، وكم عذلت في فتكها بالفتى الفتي، وتلغي. أما درّ درُّها[٣]، فَغرّت؟ فلما فَرَغَتْ: فَغَرَتْ[٤] فاها، فرغتْ[٥] للظعن[٦]. أما سحبت قرون قارون - مع أقرانه - إلى القِران في قرن؟ أما كفكفت بكفِّها: كفَّ مكفوف محبها؛ فأرتْك فنَّ ما يكون فيك في كفن؟ تالله لقد لقي الغبيُّ الغنيُّ غِبَّ غباوته[٧]، فلما انْجلي غيْهُب غَيْمِه: رأى الغُبْن والغَبَن[٨]. نعوذ بالله من الخذلان.

* * *

(١) لتقدمه: في المخطوط: «بقدمه».

(٢) رقا: من رقأ الدم: سكن وانقطع.

(٣) درّ درُّه: زكى عمله. ودرت الناقة لبنها: أدرته.

(٤) فَغَرَتْ: فتحت.

(٥) فرغتْ: صاحت.

(٦) الظعن: السير والارتحال.

(٧) غباوته: في المطبوع: (غبواته) والتصحيح من المخطوط. والغب: عاقبة الشيء.

(٨) الغُبن: الخديعة، والغَبن: الضعف.

الفصل الثامن عشر
في قصة داود عليه السلام

لما حُلّي داودُ حِلْية النبوة، ولقن فضل[1] فصْلِ الخطاب؛ أطربَ شدْوُ[2] شُكْرِه سمعَ القبول، فمنحه إقطاع: ﴿يا جبالُ أوّبي معَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] فأعجبته سلامة العصمة؛ فتجهّز للإجهاز على جرحى الزَلَل، فرماهم بسهم: لا تغفر للخطائين. والقدرُ قد أترع له - مما سيعضُّ له الأناملَ - مِلْءَ الإناء. فابْتلي بالذنب، حتى نكّس رأس الرياسة على عتبة الذلّ، ودبّ إلى داود المعاصي دبيب الدَّبا[3] من حيث ما دبّر.

رماه سهم القضاء في درع ليالي الفتن؛ فقضى عليه. فما قدر الدارعُ على ردِّه بدرْع: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١].

وإذا رامي المقادير رمى فدروعُ المرْءِ أعوانُ النِّصال

ظن لِقوّةِ لَقْوَةِ[4] عِصْمته؛ لقاء قِرْن الهوى. فلاحت له في حمى دعواه حمامة من ذهب، فذهب يصيدها، فوقع في عين شَرَك عينه[5]. للمهيار:

ظنَّ غداةَ الخيفِ أن قد سلما لما رمى سهماً وما أجرى دما

---

(١) فضل: في المطبوع: (فصل) والتصحيح من المخطوط.

(٢) شدْو: الشدو: الغناء.

(٣) الدبا: الجراد، وقيل: صغار الجراد والنمل.

(٤) اللّقْوَة: أنثى العقاب السريعة الخفيفة. والعقاب: طائر معروف.

(٥) تنبيه: القصة المشار إليها من الإسرائيليات الباطلة، والتي لا تليق بعصمة الأنبياء عليهم السلام. وليت المؤلف - رحمه الله - ما أشار إليها.

فعـاد يستقـري حشـاه فـإذا فـؤاده مـن بينهـا قـد عَدِمـا
لم يـدر من أين أُصيب قلبـُهُ وإنما الرامي درى كيف رمـى

طاف على بابه طبيب الألطاف، فأراد استخراج النصل من باطن الشغاف، فجثا على عتبة عتابه، بأعتوبة: ﴿خَصْمَانِ﴾ [ص: ٢٢] فقضى على نفسه في صريح: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ [ص: ٢٤].

فبينا هو يلاحظ لفظ القضية: ألمْعا، معاً: معاني المعاصي. ففطن. فَفَتَّ بالفتى الفاتن. فتَنُ فُتياه ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: ٢٤] فنزل عن مركب العز، إلى مس مسجد الذل. وافترش فراش من قد أسا[١]، في دار الأسى. وخَلَع خُلَع الفرحِ لجلبابِ الحزن. وزَرَّ زرَّ «ذُرْمَانِقَة»[٢] الخوف على شعار القلق. فأسْكَتَ الحمائِمَ بنوْحه، وشغلها عن صدْحها بصوْته. فبالغ حريقُ الندمِ في سويداءِ قلبه، وأقلق الأفئدة: بشجيٍّ شجنه، ومات خلق كثير من الخلق: بترنم شجوه وصوته، وشربَ عِرْقُ[٣] العشْبِ من عَيْنِ عَيْنه، وحشى سبْعةَ فُرُشٍ رماداً، ثم رمى داء الحشا؛ بعد أن فَرَشَها فُرُشَها[٤].

وكان يقول في مناجاته: إلهى خرجت أسأل أطباء عبادك: أن يُداووا لي جُرْحَ خطيئتي؛ فكلهم عليك يدلني. إلهي امددُ عيني بالدموع، وضعفي بالقوة؛ حتى أبلغ رضاك عني.

---

(١) أسا: أساء.

(٢) زُرْمَانقة: بضم الزاء المعجمة: جبة من صوف، معرب: «أُشتر بانة» أي: متاع الجمال.

(٣) العِرق: أصل كل شيء.

(٤) فرشها: في المخطوط: «فرْشا».

يا من تجنّب صبري في تجنّبهِ

هب لي من الدمعِ ما أبكي عليك بهِ

حتى متى زفراتي في تصاعدها

إلى الممات ودمعي في تصوّبه

ولـي فـؤاد إذا لـجّ الغـرامُ به

هـام اشتياقـا إلـى لُقْيَـا مُعذِّبه

ما زال يغسلُ العيْنَ منْ عَيْنِ العَيْنِ. ولسان العتاب يقول: يا بعد اللقا. وكلما رفع قُصّة غُصّة(1): جاء الجواب بزيادة الجوى. وهو يستغيث وينادي؛ حتى أقلق الحاضر والبادي:

إن شفيعـي إليـك منـيّ ... دموعُ عيني وحسنُ ظنّي

فبالـذي قادنـي ذليـلا ... إليـك إلا عفـوت عنـي

* * *

(1) قصة غصة: القصة: الخرقة البيضاء. والغصة: ما اعترض في الحلق.

الفصل التاسع عشر
في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس

ركب سليمانُ يوماً مركبَ الريح، فراحت بوادره على وادي النمل، فندّت نملة، فنادت أخواتها بنداء: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨] ثم قامت. فأقامت لعدْله عُذْرَ: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فحملته أريحيةُ سُكْرِ الشكرِ على طربٍ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ [النمل: ١٩].

وذلك أنها بلفظة: ﴿يَا﴾ نادت: ﴿أَيُّهَا﴾ نبّهت ﴿النَّمْلُ﴾ عيّنت ﴿ادْخُلُوا﴾ أمرت ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾ نصّت ﴿لا يَحْطِمَنَّكُم﴾ حذّرت ﴿سُلَيْمَانُ﴾ خصّت ﴿وَجُنُودُهُ﴾ عمّت ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ عَذَرَتْ.

فلما فصل طالوتُ مُلْكِه بالجنود عن وادي النمل؛ وقع في مفازة لا يرى فيها على ماء علما. فجاشَ جأشُ[1] الجيش - لفقرهم في القفر إلى الماء - ألمَا. وكان الهدهدُ يدلُّهم على الماء، فغاب. فتوعده بلفظ: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١] فجاء ببهت ذكي: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢] فحمّله كتابا، فألقاه من قاره. بمنقاره[2].

فرأت اليقظى - بيقظان فهمها - كتابا مختوماً، وأمراً محتوما، وكلاماً عجيباً، وحاملا غريباً. فصادها[3] العقل والفهم، فصاداها. فاستشارت قومَها. فأومؤا إلى الحرب بلفظ: ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ [النمل: ٣٣] فعلمت أن مَنْ جُنْدُه الطيرُ لا يُقاوَم. وبعثت ما يُفرّقُ به بين الدعوة والدعوى ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥].

---

(١) جأشُ: الجأش: القلب والصدر.

(٢) من قاره بمنقارة: كذا في المطبوع. والذي في المخطوط: «من قارة منقاره».

(٣) فصادها: اعترضها.

واعجبا للذهب: إذا ذهب سهمُه لا يخطي. وللرشا[1]: إذا رشت مزالقَ أقدامِ العقولِ لا تبطي.

لا يغرّنكَ من المر ء إزازٌ رَقَعَه
وقميصٌ فوق كعب الساق منه رَفَعَه
وجبينٌ لاح فيه أثرٌ قد خلعه
أره الدرهَم تعرفْ غيَّه أم وَرَعَه

فلما بَدَتْ هوادي هدّيتها؛ صاح سليمانُ بعزّ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦] فلما صح عندها ما يدعو إليه وثبت؛ وثبت على أقدام الطلب، وهيأت مراكب القصْد، ورحلت في هجير شمس الهدى: على نجائب الهجرة.

فلما سمع سليمانُ برحيلها، أراد تقوية دليلها؛ فنادى في نادي عفاريته، مستعرضاً جند بطشها: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨] فلما جيء به، ستره بقرام[2]: ﴿نَكِّرُوا﴾ [النمل: ٤١] ثم ابتلاها؛ ليرى ذكاها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢] ثم صرح بلفظ: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤] فشُبِّه لها؛ لضعفها عن لطافة كأسِ ساقِيها؛ فكشفت عن سَاقَيْها.

فلما وصلت وسلّمت: أسلَمتْ فَسَلِمتْ. وحلت قبل أن حلَّت نطاقَ النُطْق، فنثرت خرزات نظامه على نظم العذر: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

---

(١) للرشا: جمع رشوة.

(٢) بقِرام: القرام: بكسر القاف: الستر الرقيق، وقيل: المنقوش.

الفصل العشرون
في قصة مريم وعيسى عليهما السلام

كانت أم مريم «حنّة» قد حنّت إلى ولد، فكبر عليها امتناعه. واستولى الكِبَرُ. فرأت يوماً طائراً يغذو فَرْخاً، فَرحاً؛ فرجا أملها اليؤوس فَرَجًا فَرَجاً؛ فسألت عند هذه القضية وَلَديْها: ولداً. فلما علمت بالحمل: أكسبها السرورُ وَلَهاً[1]. فوهبته بلسان النذر: لمن وهبه لها. فقال القدرُ: يا مَلكَ التصوير. صوِّر الحمل أُنثى؛ ليبيَن أثرُ الكرمِ في قبول الناقص.

فلما وضعتها[2]: وضعتها[3] بأنامل الانكسار عن سرير السرور. فأنَّ لسانُ التلهّف لما ألقى على الفائت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] فجبر كسْرها جابرٌ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ [آل عمران: ٣٧] وساق عنانَ اللطْفِ إلى ساق زَرْعها، فربا في رُبى: ﴿وَأَنْبَتَهَا﴾ [آل عمران: ٣٧] فانطلقت بها الأُمُّ تَؤُمّ بيتَ المقدس، فَلبِسَ القومُ لأَمَهُم[4] في حرب: ﴿يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤] فثبت قلم زكريا إذْ وَثَبَت الأقلام؛ فكَفَتَها[5] وكَفَلَها. فأراه «المسبِّبُ» غناها عن «السببِ» بآية: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] فرباها من ربَّها[6]؛ فنشأت لا ترى إلا ربَّها.

---

(١) (ولَها). الولهُ: الحزن، أو ذهاب العقل حزنا، والحيرة، والخوف.

(٢) وضعتها: ولدتها.

(٣) وضعتها: حطتها.

(٤) لأمَهُم: جمع: لأمة. وهي الدرع.

(٥) فكَفَتَها: ضمها.

(٦) ربَّها: رباها.

فانتبذت يوماً من أهلها، فأقبل نحو ذلك البَرى البرّي[١] بريد: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ [مريم: ١٧] فتحصّنت الحَصَانُ بحصْن: ﴿إِنِّي أَعُوذُ﴾ [مريم: ١٨] فانْزوى إلى زاوية: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]، وأخبرها بالتحفة في لفظ: ﴿لِيَهَبَ﴾[٢] [مريم: ١٩]. فأقيمت في مهب ريح الروح، فتنفست الكلمة من كمين الأمر، فنفخ جبريل في جنب جيب الدِّرْع، فمرّت المرأةُ حاملاً في الوقت. فلما علمت: ألمت لِما[٣] حمل عليها الحمل، فأخرجها الحياءُ الحيُّ عن الحي.

فلما فاجأها وقتُ الوضع، فأجاءها المخاض إلى الجذع. تحيّرت من وجودِ ولد: وما فجرت؛ فجرت عين الدمع. فصاح لسانُ الخفَرِ[٤] بلفظ الندب: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣] فأجابها الملك، عن أمر من ملك: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [مريم: ٢٤]، وأُجري لها في أواني الأوان سَرِي[٥]، كما وهب لها من الغلمان سَرِيّ[٦]، فسرّى[٧] عن سِرِّها وجود الظهور، وأنس الظاهر[٨]؛ فَسُرَّا[٩].

---

(١) البرى: التراب، والبرّي: نسبة إلى البر.

(٢) (ليهب) هذه قراءة أبي عمرو وورش عن نافع، وقرأها الجمهور: «لأهب».

(٣) لما: في المطبوع «بما» والتصحيح من المخطوط.

(٤) الخَفَرُ: شدّة الحياء.

(٥) سَرِي: نهر.

(٦) سَرِيّ: ذو مروءة وشرف.

(٧) فسرّى: بالتشديد. ألقى وكشف.

(٨) الظهور . . الظاهر: لعلهما (بالطاء) بدل (الظاء).

(٩) فَسُرَّا: من السرور. أي: ابتهجا. يعني مريم وابنها.

وأُريت آية تدلُّ على مَنْ قدّر القَدْرَةَ في مقام: ﴿وَهُزِّي﴾ [مريم: ٢٥] فهزت جذم[1] جِذْعٍ مائِلٍ مثل الحطب، فتساقط عليها في الحال: رطب الرطب.

فأخذها الجوى في إعداد الجواب؛ فقيل لها: كلي كل الكل إلى من له الكل. كنت بمعزل من وجود الولد؛ فكوني بمعزل من إقامة العذر. فالذي تولى إيجاده: يقيم عذر العذرا. لا تعجبي من وجود حمل سافر عن أرض القدرة؛ فلم يصلح أن ينزل إلا بمنزل أركانه على عُمُد: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران: ٤٢].

فلما سكتت وسكنت، بعد أن قعدت وقامت، أقامت أيام النفاس، فانقضت وفاتت ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم: ٢٧]، فنادوا من أندية التوبيخ؛ إذا ما شاهدوا قط أختها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم: ٢٨] فأضجروا مريضاً قد ضني من أنين: ﴿أَنَّىٰ﴾ [مريم: ٢٠] على فراش: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ﴾ [مريم: ٢٣].

فلما شارت[2] أريْ[3] الرأي: أشارت إليه؛ فأخذت ألسنة تعجبهم: تعج بهم ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾ [مريم: ٢٩] فكأنها قالت لهم: أنا طريق، وهذا مر بي. والمسافرُ يُسأل عن الطريقِ، لا الطريقُ عن المسافر.

فقام عيسى يمخض أوطاب الخطاب: على منبر الخطابة، فأبرز

---

(١) جذم: الجذم: الأصل.

(٢) شارت: اجتنت.

(٣) أري: عسل.

بالمخض محض إبريز الإقرار: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وأومى إلى وجوده من غير أب، في إشارة: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢]، وكانت واسطة عقده: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ [الصف: ٦].

فلما تمَّ له سنُّ الشباب: جلس على باب المعجزة، يعطي العافية العافية[1]، ويبرئ الأكمة والأبرص. فربما ألفى ببابه خمسين ألفاً: يؤُمّونه في كل يوم.

ولقد فرك الدنيا، فطلقها أي تطليق. وأبغضها، ولا كبغض الرافضيّ الصدّيق[2]. فغزاها بجند الزهد، بين مُسْرَجٍ ومُلْجم. وفتك بها كما فتك بالتقي[3]: ابنُ ملجم. ما التفت إليها قط وجهُ عزْمه، ولا صافحها يوماً كفُّ قلبه، ولا غازلها يوماً لسانُ فكره.

فلم يعرف حقيقة ما حوى: سوى الحواريين، فشمّروا عن ساق العزائم، في سوقِ بُدْنِ[4] الأبدان إلى «منى» المُنى، تحن بلفظ: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، وكتبوا في عقد العقائد: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢].

ثم إن اليهود اجتمعوا في بيت: ﴿وَمَكَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٤] فزلزل عليهم بيد: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] فدخل عيسى خوخةً[5]، فدخل خلفه ذو دَخَل[6]، فألقي عليه شبهه، فحاق بالمرء مرُّ مراده، وصاح فيه حاكم القدر: «جوّد مراقيها»[7].

---

(١) العافية: الصحة والسلامة، والثانية: الدارسة الذاهبة.

(٢) الصديق: أبو بكر رضي الله عنه.

(٣) التقي: علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) البدن: ما يهدى للكعبة.

(٥) خوخة: الخوخة: الكوة.

(٦) دَخَل: غدْر.

(٧) جوّد مراقيها: أي أحسن درجاتها، يقال ذلك للمصلوب المستحقّ للصلب.

الفصل الحادي والعشرون
في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام

لما قام زكريا عليه السلام بإقامة الإقامة لمريم: رأى وكيلَ الغيب يسبقه بالإنفاذ على يد القدرة في كِن: ﴿كُن﴾ [يس: ٨٢]، وكان إذا خرج ثم جاء فاجأ ثمَّ الثمار قد نمت! فكم قد ألفى ألفافَ الفاكهة الفائقةِ لا في حينها! فتلمح بعين زَرْقاء[١] الفهْم، فرأى نفقةَ الجارية جارية، وكيسُ الأسبابِ على ختْمه؛ فصاح لسانُ الدهش: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] فأحالت الحال على المسبِّب: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧] فنبّهت هذه الآيةُ راقدَ طَمعِه، بعد أن طالَ وسَنُهُ سبعين سنة. فسنَّ على سُنَّة[٢] وجهه: ماء رجاء[٣] ما أسن مما لم يتسنّه[٤]، وقام الدرْدَحُ[٥] بعد أن تقعوس[٦] وتسعسع[٧]، وعسى[٨]، على باب «عسى»[٩]: في محراب: ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: ٣٨] فسرَى بِسرِّه سرّاً؛ لئلا ينسب إلى فَنّ من أفن[١٠]، وكتب قصة: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩] وشكا ما شيك به، مما حلَّ مِنْ حلِّ التركيب وشيكا، في كلماتٍ هن: ﴿وَهَنَ

---

(١) «زرقاء»: إشارة إلى «زرقاء اليمامة» التي يقال: أنها كانت ترى على مسيرة ثلاثة أيام.

(٢) سنة وجهه: حُرّ وجهه.

(٣) رجاء: الرجاء: ضد اليأس.

(٤) يتسنّه: لم يتغير.

(٥) الدردحُ: الشيخ العجوز.

(٦) تقعوس: كبر.

(٧) تسعسع: هرم وفني.

(٨) عسى: كبر.

(٩) عسى: للترجي.

(١٠) أفن: ضعف الرأي والعقل.

﴿الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] فلما أورد في قصته ما يريد؛ حملها بريدُ الرجاء، إلى مَنْ عوّد العُودَ[١] العَوْدَ[٢]؛ فكشف الجوى في الجواب.

لله دره. خدم حتى شاب، ثم طلب نائباً على الباب، فأصبح ميْتُ أملهِ بوجودِ «يحيى» يحيى. فمشى لمشاهدةِ وجهِ القُدْرة، وقد حال بينهما سفرُ العادات، إلى أن لفظ بلفظ: ﴿أَنَّىٰ﴾ [مريم: ٨] وهتف به هاتف: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] فسأل عَلَماً[٣]، على ما يَعلمُ به وجودَ الحملْ؛ لحملِ نفسهِ على الشكر. فوُعِدَ بِسجْنِ اللسانِ، مع سلامة الإنسان؛ إلا عن ذكرِ الرحمن؛ ليكون حجَ نُطْقه «مفرداً»[٤].

فلما وُلد له يحيى؛ لم يبلغ مبلغ يافع، إلا وهو ولد نافع. كانت صَبَا[٥] الصِّبا تَميلُ بالصبيان، ولا تهزه. فإذا قالوا له: هلم بنا فلنلعب. قال: إنما خلقنا للتعب لا للعب.

فقطّ[٦] له القدرُ قِطّاً[٧] من عِصام العصمة. ما قُطَّ قَطّ لأحد، فما خطا إلى خطأ ولا همّ، ولقد رمى الدنيا عن يد التمسك،

---

(١) العُود: بضم العين.

(٢) العَوْدَ: بفتح العين: الرجوع.

(٣) علماً: آية وعلامة.

(٤) مفردا: الإفراد بالحج غير التمتع والقران.

(٥) صبَا: ريح الصَّبا.

(٦) قط: قطع.

(٧) قطا: نصيباً.

وعلا عن فضولها على قُلَلِ[1] التقلّل. فكان عيش عيشه[2] العشب، واقتنع بِمُسُوك[3] الحيوان عن السِّبِّ[4] والشَّفِّ[5] والمشبْرَق[6]. وشغله عن رقْش نَقْش القشيب[7] والدِّمَقْس[8]. ما لفَّ مما لُفّق.

ولقد دوّى في دوٍّ[9] فؤآده غيمُ الغمّ، فغدا الغَدَقُ يدق[10]، إلى أن فاض قَلِيبُ[11] قَلْبِه. فانقلبت عيناهُ بقلبٍ كالعيون حتى فَرَت[12]، فحفرت في أخدود الخدود مجرى. ولم يزل مِعْولُ دمعه يحفرُ رِكْيَةَ خدِّه، حتى بدت فيه: أضراس فيه.

يا عجباً من بكاءٍ من ما عصى ولا همّ، وضحكِ من كتابهُ بالذنوب قد ادلْهمّ.

فلما قارب الوفاةَ وفات العدوَّ وسلم[13] من آفاتِ النقلِ، في المواطن المخصوصة بِوَحْشِ الوَحْشة؛ فتخلّص فيها من أسد البلاء، كما حمي من ذئب الذنب: ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

★ ★ ★

---

(١) قُلل: جمع قُلّة. وقلة الجبل أعلى موضع فيه.

(٢) عيشه: حياته.

(٣) بمسوك: جمع مَسْك وهو الجد.

(٤) السِّبّ: العمامة.

(٥) والشَّفّ: الثوب الرقيق.

(٦) المشبرق: الثوب الكتان، أو الثوب المتخرّق.

(٧) القشيب: الجديد النظيف.

(٨) الدمقس: الديباج.

(٩) الدو: الفلاة.

(١٠) الغدق: الماء الكثير. يدق: يقطر.

(١١) قليب: القليب: البئر.

(١٢) فرت: شقّت وقطعت.

(١٣) وسلم: في المطبوع: «علم» والتصحيح من المخطوط.

الفصل الثاني والعشرون
في قصة أهل الكهف

كان رَقْمُ[١]: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قد علا على كهف قلوب أهل الكهف، فلما نصب ملكهُم شَرَكَ الشِّرْكِ: بأن لهم خيط الفخ؛ ففروا. وخرجوا من ضيق حصْر الحبْس. إلى الفضاء، فضاء[٢] لهم. فما راعهم في الطريق: إلا راعٍ وافقهم، فرافقهم كلبه، فأخذوا في ضربه؛ لكونهم ليسوا من ضَرْبه[٣]. فصاح لسانه حاله: لا تطردوني لمباينتي جنسكم؛ فإن معبودكم ليس من جنسكم. أنا في قبضة إيثاركم أسير[٤]: أسيرُ إن سرتم، وأحرس إن نمتم.

فلما دخلوا دار ضيافة العزلة؛ اضطجعوا على راحة الراحة من أرباب الكفر. فغلب النومُ القومَ ﴿ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، وكانت الشمس تحولُ عن حِلّتهم؛ لحراسة حُلّتهم[٥]، من بلاءِ بلى. وأعينُهم مفتوحة؛ لئلا تذوبَ بأطباقِ الإطباق. ويدُ اللطف تقلّب أجسادَهم لتسلم من أفَنِ عفَن.

وجرت الحالُ في كلبهم على ما جرت بهم، فكأنه في شَرَكِ

---

(١) رقم: الرقم في الثوب ضرب مخطط من الوشي أو الخز أو البرود.

(٢) فضاء: أضاء وظهر.

(٣) ضرْبه: الضرب: المثل والنظير، والصنف من الشيء.

(٤) أسير: مأسور.

(٥) الحِلّة: موضع الحلول والإقامة. والحُلّة: الثوب المعروف.

نومهم قد صِيد ﴿بِالْوَصِيدِ﴾[١] [الكهف: ١٨].

فخرج الملكُ بجمٍّ جَمْعه في طِلابهم[٢]؛ فإذا بهم. فسد الباب - وما وعى - على وِعاءِ مسك. فما ضاع[٣] حتى ضاعَ الملكُ في بيد[٤] الهُلْك.

فانْساب راعٍ إلى سَبْسبِهم[٥]، ففتح باب الكهف؛ ليحوز الغُنْم[٦]، فهب الهواء؛ فهب الراقد. فترنم أحدهم بلفظ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩] فأجابه الآخر: ﴿يَوْمًا﴾ [الكهف: ١٩] ثم رأى بقية الشمس نقية؛ فاتقى بالورعِ ورطات[٧] الكذب، فعاد يتبع أوب: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

فلما قفلوا من سفرِ النومِ إلى ديار العادة: زاد تقاضي الطبع بالزاد. فخرج رئيسُهم في ثوب مُتنكِّر، فضلّت معرفتُه المعاهدَ؛ فأقبل يتَهمُ اليقظة، فمد إلى بائِع الطعام باعه[٨]، فما باعه[٩]. وظن أنه قد وجد كنزاً. ولقد وجد كنز: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

فحمله القوُم إلى الوالي. فقال: إنه لمالي، فمالكم ومالي؟

---

(١) بالوصيد: الوصيد: الباب.

(٢) طلابهم: طلبهم والبحث عنهم.

(٣) ضاع: فاح.

(٤) بيد: جمع بيداء، وهي الفلاة.

(٥) السبسب: المفازة.

(٦) الغنم: الغنيمة.

(٧) ورطات: في المخطوط: «ورطة».

(٨) باعه: الباع قدر مد اليدين. والمراد هنا بسط يده بالمال.

(٩) باعه: باع له.

كنا فتيةً أُكْرهنا على فتنة، فخرجنا عشيّةَ أمس، فنمنا في باطن كهف. فلما انتبهنا: خرجتُ لأبتاع للأتباع: قُوتَ الوقْت.

فسار القومُ معه في عسْكرِ التعجّب. فسمع إخوانُه جلبَةَ الخيْل، في حلبة الطلب. فتجاوبوا بأصوات التوديع، وقاموا إلى صلاة مودع.

فدخل «تمليخا»[1] فقصّ عليهم نبأهم. فعادوا إلى مواضع المضاجع، فوافتهم الوفاة، وفات لقاؤُهم، وسَدَلَتْ عليهم حجابُ الرعبِ: كفَّ: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ﴾ [الكهف: ١٨].

إخواني: ليس العجبُ من نائمٍ لم يعرف قدْرَ ما مرّ من يومه؛ وإنما العجبُ من نائمٍ في يقظة عُمُرِه:

أمـا والله لـو عـرفَ الأنـامُ ... لما خُلقوا لما غفلـوا وناموا
لقد خُلقـوا لمـا لـو أبصرتـه ... عيونُ قلوبهم ساحُوا وهاموا
مماتٌ ثـم قبـرٌ ثـم حشـرٌ ... وتوبيخٌ وأهـوالٌ عِظَـام
لِيوْمِ الحشْرِ قد خُلقتْ رجالٌ ... فصلّـوا من مخافتـه وصامـوا
ونحـنُ إذا أُمِـرنـا أو نُهينـا ... كأهـلِ الكهـفِ أيقـاظٌ نِيـامُ

* * *

(١) تمليخا: يقال إنه اسم الذي خرج من أهل الكهف.

الفصل الثالث والعشرون
في بداية أمر نبينا ورضاعه ﷺ

خُلق نبينا ﷺ: من أرضى الأرض أرضاً، وأصفى الأوصاف وصفاً. وصِينَ آباؤه من زلل الزنا، إلى أن صَدَفت بتلك الدرّة صدَفُةُ آمنة. فوثبت لرضاعه ثُويبة، ثم قضت باقي الدْين حليمة. فقام نباتُه مستعلجاً[١] على سُوقِه[٢]، مستعجلاً قيام سوقه[٣]. فنشأ في حِجر الكمال كما نشأ[٤]، فشاء من شاء منشأه[٥].

قدمت حليمةُ، والجدبُ عامٌّ في العام، فعُرِض على المرضعات، فأبيْن لليُتْم. فراحت به حليمةُ إلى حلّتها، فثاب لبنُها ولبنُ راحلتها، فباتوا لبركة روائه رِوَاءً[٦]، وهبّ على مَبَاركهم: نسيمُ نسْمة مُباركة. فلما ظعنت الظعائنُ: أتت أتانُها تؤمُّ أمامَ الركبْ. فلما حلّوا حللهم[٧]. كانت الرعاءُ[٨] تسرحُ: فيُعفّرها سِرْحَانُ الجدْب. وراعي حليمة يعيد الغَنَم بالغُنْم.

فبينا الصبي مع الصبيان؛ هبت صَبَا الجبر بجبريل، فجاءه فجأة. فشقّ عن القلب، ثم شقّه، وما شقّ عليه. فعلق بيده من

---

(١) مستعلجاً: غليظاً. (٢) سُوقِه: أعواده.

(٣) سوقه: السوق: ما يباع فيه ويشترى.

(٤) نشأ: نشاء.

(٥) في المطبوع: (فشاى من شاى منشا) والمثبت من المخطوط.

(٦) الأتان: أنثى الحمار.

(٧) حللهم: كذا بالمخطوط والمطبوع. ولعلها: «حلتهم» أي المكان الذي يحلون فيه.

(٨) الرعاء: الرعاة.

باطية باطنه عَلَقة(١). فقال: هذا حظ الشيطان، وقد قطعنا علَقه(٢). ثم أعاد قلبَه، بعد أن قلبه، وما به قَلَبَة(٣). فبقي أثر المخيط في صدره باقي عمره؛ لإظهار سورة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١].

فلما بلغ ستّ سنين: ألوى الموتُ بالوالدة، فجدّ في كفالته الجدُّ. ثم طلب الموتُ عبدَالمطلب: فما أبى الطالب، ولا اشتغل بأوصابِه(٤) حتى أوصى به أبا طالب.

فخرج به وقد زانه كالتاج تاجراً، فتيمم باليتيم منزل تيماء، فرآه بحيراء(٥) ببحرته(٦)، فقرأ سمات النبوة، من شمائل: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ [البقرة: ١٤٦] فَشَامَ بَرْق(٧) فضْله، فلاَح من شِيمة شَامته. فقال لعمه: احفظ هذه الشامة من شَامت.

وما زال نَشْرُه يضُوع(٨) ولاَ يضيع، إلى أن تمخّضت حاملُ النّبوة في إبّانِ التمام، وآثر الطلقُ طلاَق الخلْق؛ فتحرى غار حراء(٩) للفراغ، فراغ إليه الملك، فأغَار(١٠) حبلَ الوِصال في ذلك الغار، فأفاض عليه حُلّة: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١] فأفاض إلى حلة: «زمّلوني» فسكّنت خديجةُ غُلّته، بِعلّة: «إنك لتصل الرحم».

---

(١) عَلَقة: كشجرة، القطعة من الدم الجامد. (٢) علق: جمع علَقة.

(٣) قَلَبَة: كشجرة، داء. يقال ما به قلبة.

(٤) الأوصاب: الأوجاع والأمراض.

(٥) بحيراء: اسم الراهب الذي لقى النبي بسفر الشام.

(٦) ببحرته: البحرة البلدة.

(٧) شام البرق: لاحظه، ونظر إليه: أين يقصد؟ وأين يمطر؟

(٨) نشره يضوع: طيب ريحه يفوح.

(٩) حراء: جبل كان النبي ﷺ يتعبد به قبل البعثة.

(١٠) فأغار: أحكم الفتل.

ثم انطلقت به إلى ورقة[١]، فقرأ من ورقة سيماه نَقْشَ فَضْله؛ فتيقظ لفهم أمره إذْ ناموا. فقال: هذا الناموسُ الذي أنزل على موسى.

ولقد عرفه الأحبارُ في الكنائس، والرهبانُ في الصوامع، وأنذر به الرئي[٢]، وأخبر به التابع[٣]. فكانت تسلّم عليه قبل النبوة الأحجار، وتُبشّره بما أولاهُ مولاهُ الأشجار.

وكان خاتم النبّوة بين كتفيه، وسرايا الرعبِ: تترك «كسرى» كالكِسْرة بين يديه. أُلبس إهاب الهيبة، وتُوّج تاج السيادة، وضُمّخ بأذكى خَلُوقٍ أزكى الأخلاق. وأُحلّ دارَ المداراة[٤]، وأُجلس على صفْحة الصفح، ولَقَمَ لَقَمَ[٥] لقمانَ الحكيم، ووُضعت له أكواب التواضع، وأُديرت عليه كؤوس الكيس؛ متضمنة حلاوة الحلم، ختامُها مسْك النّسك. وأعطي لقطع مفازة الدنيا جود الجود، ونُووِلَ قلم العزّ؛ فوقّع على صحائفِ الكدّ: «**كلُّ عملٍ ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٦].

كان يعودُ المريض، ويجيبُ دعوةَ المملوك، ويجلس على الأرض، ويلبس الخشنَ، ويأكل البشِعَ، ويبيت الليالي طاويا، يتقلب في قفر[٧] الفقر، ولسان الحال يناديه: يا محمد، نحن نضنُّ بك عن الدنيا، لا بِها عنك.

---

(١) ورقة: ورقة بن نوفل أحد المتالهين من العرب.

(٢) الرئي: الجني الذي يرى فيحب.

(٣) التابع: الجني الذي يتبع الإنسان.

(٤) المداراة: في المطبوع (المدراة)، والتصحيح من المخطوط.

(٥) لقم لقم: لقم لقمه: سدّ معظم طريقه.

(٦) البخاري في الصلح: (٢٦٩٧)، وعلقه في البيوع والاعتصام، ومسلم في الأقضية: (١٧١٨).

(٧) قَفْر: صحراء.

ولقد شارك الأنبياء في فضائلهم وزاد؛ أين سطوة: ﴿لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦] من حلم: (اهد قومي)؟ أين انشقاق البحر؟ من انشقاق القمر؟ أين انفجار الحجر؟ من نبع الماء من بين الأصابع؟ أين التكليم عند الطور؟ من قاب قوسين؟ أين تسبيح الجبال في أماكنها؟ من تقديس الحصى في الكف؟ أين علو سليمان بالريح؟ من ليلة المعراج؟ أين إحياء عيسى الأموات؟ من تكليم الذراع؟

كل الأنبياء ذهبت معجزاتهم بموتهم، ومعجزة نبينا الأكبر؛ قائمة على منار: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] تنادي: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

ولقد أعرب عن تقدُّمه من تقدَّمه: «آدم ومن دونه تحت لوائي»[(١)] «لو كان موسى وعيسى حيين ما وسعهما إلا اتباعي»[(٢)]. فإذا نزل عيسى صلى مأموماً؛ لئلا يدنس بغبار الشبهة وجه: «لا نبي بعدي»[(٣)] فهو أول الناس خروجاً إذا بُعثوا، وخطيبُ الخلائق إذا وفدوا، ومبشر القوم إذا يئسوا.

الأنبياء قد سكتوا لنطقه، والأملاك قد اعترفوا بحقّه، والجنة والنار تحت أمره، والخُزّان داخلون في دائرة حكمه، وكلام غيره قبل قوله لا ينفع، وجواب الحبيب له: «قل تسمع».

فسُبحانَ مَنْ فضّ له من الفضائل ما فضّله، وكساه من حُلل الفخرِ ما جمّله. جمع الله بيننا وبينه في جنته، وأحيانا على كتابه وسنته.

---

(١) أحمد: (١/ ٢٨١، ٢٩٥)، وانظر مجمع الزوائد: (١٠/ ٣٧٣).

(٢) أحمد: (٣/ ٣٨٧) بنحوه.

(٣) البخاري في فضائل الصحابة: (٣٧٠٦)، ومسلم في فضائل الصحابة: (٢٤٠٤).

الفصل الرابع والعشرون

قصة الغار والصديق

لما أغارت قريشُ خيلَ الحيلِ على الرسول: خرج إلى غار. لو دخله غيرُه: كان غررا[١]. فغربت قريش بالطلب، فنبتت شجرة - لم تكن قَبْل - قِبَل الباب، فأظلّت المطلوب، وأضلّت الطالب. وجاءت عنكبوت[٢] فسدت: فسدّت باب الطلب، فحالت وجه الغار: فحاكت[٣] ثوب نسجها. فحاكت[٤] ستراً. ثم حمى اللطف الحمى: بحمامتين، فما كان إلا أن سكنتا من الغار فماً، فما بان المستتر. فاتخذتا عُشّا، فغشّى ما غشّى من غشاء العشا: على أبصار المقتفين؛ فصاروا كالأعشى. فراغ الأعداء نحو تلك الناحية، فرأوا دليل فراغ الغارِ الغار[٥]؛ فعادوا عمّن عادوا[٦]، عوداً بحتا بلا بخت[٧].

فقال الصديق عن حَرِّ الوجد: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[٨].

---

(١) غررا: الغرر: التعرض للهلاك.

(٢) ابن سعد: (١/٢٢٨-٢٢٩)، والعقيلي: (٣/٤٢٢)، وأبو نعيم في الدلائل: (٢/٣٥٥)، والبيهقي في الدلائل: (٢/٤٨١-٤٨٢)، وغيرهم. وهي قصة لا تثبت. انظر «تبصرة أولي الأحلام من قصص فيها كلام»: (٢/١٨-٢٠). وننبه كذلك إلى أن الروايات في الحمامتين لا تثبت.

(٣) فحاكت: نسجت. (٤) فحاكت: شابهت.

(٥) الغارِ: الغار الأول الموضع، والثاني: الخادع.

(٦) عادوا: الأولى رجعوا، والثانية من العداوة.

(٧) بخت: حظ ونصيب.

(٨) البخاري في مناقب الأنصار: (٣٩٢٢)، ومسلم في فضائل الصحابة: (٣٢٨١).

فلما رحلا لحقهما سراقة، فسرقت الأرض قوائم فرسه، فلما رأى أرضا صلدا قد فرست الفرس؛ فرست[1] إلى بطنها ببطنها؛ أُشربت نفسه علم اليقين بظنها، فأخذ يعرض المال: على من قد ردّ مفاتيح الكنوز. ويقدم الزاد إلى شبعان: «أبيت عند ربي»[2]. فجازا على خيمة أم معبد؛ فأصحّتْ شاتُها، وأصبحت تشهد. فوصلا إلى يثرب على نجائب السلامة، وفات الخيرُ مكة، وفاءت المدينةُ بالكرامة.

★ ★ ★

(١) فرست: الأولى: افترست، والثانية رسبت ونزلت وغاصت.

(٢) البخاري في الصوم: (١٩٦٥)، ومسلم في الصيام: (١١٠٣).

الفصل الخامس والعشرون
في قصة أهل بدر

لما بادر بدرُ الشريعة[١] بالخروج إلى «بدر» رأى في أصحابه قلّة[٢]. فارْتقى قُلّة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فقام «المقدادُ» عن قَوْمِه قَوْمة؛ لحقِّ متابعة المبايعة. فقال: لو سرت إلى برك الغماد لتابعناك. فما لبث الرسول أن صار يطلب بالخطاب الأنصار. ففطن لسعادته «سعد بن معاذ» فقال: لو خُضت البحر لخضنا[٣].

فرأى المصطفى في الأعداء العَدد والعُدد، والتفت إلى المسلمين فوجد إذ ما وجد[٤]. فاستقبل قبلة الطلب، واقتضى كريماً ما مَاطَل، فانتدب مدد العون بلا عون، فأقبلت سحابةٌ تسحُب ذْيل النصر، فسمع المشركون منها: حمحمة الخيل؛ فحموا. وانقلبت قلوبهم من يحمومها حمما[٥].

فنزلت الملائكة مع الألفين؛ جبريل في ألفين، وميكائيل في ألفين. وأسرى إسرافيل في ألف مُرْدٍ مُردِفين. فعدلوا كالغمائِم،

---

(١) بدر الشريعة: الرسول ﷺ.

(٢) قلة: قلة الجبل رأسه وأعلى موضع فيه.

(٣) خبر المقداد: رواه البخاري (٤٩٥٢). وخبر سعد بن معاذ: رواه مسلم (١٧٧٩). وقد رواه مطولاً: الطبري في تفسيره (٩/١٨٦)، وفي تاريخه: (٢/٢٧)، وابن سعد (٢/١٤)، وابن هشام (٣/١٦٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٢). وانظر مجمع الزوائد: (٦/٧٣).

(٤) وجد: الأولى من الوجد أي الحزن، والثانية من الوجود.

(٥) حمما: الذي في المطبوع «حما» والتصحيح من المخطوط.

قد سدلوا العمائِم.

وأرسلت قريش رائداً، فعاد بتأثير ﴿سَأُلْقِي﴾ [الأنفال: ١٢] فحذر القوم العزل سهام العزائم؛ فأثّر عَتبه في «عُتبة»، وكاد يشيب خوفا «شيبة»، وأحكم حِزامَ الحزْمِ: «حكيمُ بن حزام»، وأبي للجهل «أبو جهل»:

فلزّهمُ الطرادُ إلى قتالٍ ... أحدُّ سلاحهم فيه الفرارُ

مضوا متسابقي الأعضاء فيه ... لأرجلهم بأرؤسهم عثار

فلما قلبوا إلى القليب، قام الرسول على رأس الرس[1] ينادي الرؤساء حين رُسّوا[2] بلسان: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ [الروم: ٤٧] عن جواب: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ [الأنفال: ١٩] لتصديق: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] في مضمون: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ [المطففين: ٣٦]: «**يا فلان ويا فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً**»[3].

* * *

(١) الرس: القليب.

(٢) رسوا: رسوا ودسوا ودفنوا واحد.

(٣) البخاري في المغازي: (٣٩٧٦)، ومسلم في الجنة: (٢٨٧٤).

ذكر من شهد بدراً على الحروف

حرف الألف

أبي بن كعب، أبي بن ثابت، أوس بن ثابت، أوس بن خولي، أوس بن الصامت، أسعد بن يزيد، أنس بن معاذ، الأرقم، أربد، أسيرة[١]، أنسة، إياس.

حرف الباء

بشير بن البراء، بشير بن سعيد، بلال، بحاث، بسبس.

حرف التاء

تميم بن يعار، تميم مولى خراش، تميم مولى بني غنم.

حرف الثاء

ثابت بن أقرم، ثابت بن ثعلبة، ثابت بن خالد، ثابت بن عمرو، ثابت بن هزّال، ثعلبة بن حاطب، ثعلبة بن عمرو، ثعلبة بن عنمة، ثقيف.

حرف الجيم

جابر بن خالد، جابر بن عبدالله بن رئاب، جبار، جبير، جبر.

حرف الحاء

الحارث بن أنس، الحارث بن أوس، الحارث بن خزمة، الحارث ابن ظالم[٢]، الحارث بن قيس، الحارث بن النعمان، حارثة بن

---

(١) أسيرة: لعله: أُسَيْر: ابن عمرو الخزرجي. انظر البداية والنهاية: (٥/ ٢١٤).

(٢) ظالم: كذا في المطبوع، وفي البداية والنهاية: «الصمة».

الحمير، حارثة بن سراقة، حارثة بن النعمان بن رافع، حارثة بن النعمان ابن نفيع، حاطب بن أبي بلتعة، حاطب بن عمرو، الحباب، حبيب، حرام، حريث، حصين، حمزة.

حرف الخاء

خالد بن البكير، خالد بن زيد، خالد بن قيس، خلاد بن رافع، خلاد بن سويد، خلاد بن عمرو، خليد، خباب بن الأرث، خباب مولى عتبة، خبيب بن يساف، خارجة، خليفة، خنيس، خولي.

حرف الدال

ليس فيه أحد.

حرف الذال

ذكوان، ذو الشمالين.

حرف الراء

رافع بن الحارث، رافع بن عُنْجُدة، رافع بن المعلى، رفاعة بن رافع، رفاعة بن عبدالمنذر، رفاعة بن عمرو، الربيع، ربيعة، ربعي، رخيلة.

حرف الزاي

زيد بن أسلم، زيد بن حارثة، زيد بن الخطاب، زيد بن سهل، زيد بن وديعة، زياد بن كعب، زياد بن لبيد، الزبير.

حرف السين

سعد بن خولة، سعد بن الربيع، سعد بن سهل، سعد بن عثمان، سعد بن مالك، سعد بن معاذ، سعد القاري، سعيد بن قيس، سهل

ابن حنيف، سهيل بن رافع، سهيل بن عتيك، سهل بن عدي، سهل بن قيس، سهيل بن بيضاء، سليم بن الحارث، سليم بن عمرو، سليم بن قيس، سليم بن ملحان، سليم أبو كبشة، سلمة بن أسلم، سلمة بن ثابت، سلمة بن سلامة، سالم بن عمير، سالم مولى أبي حذيفة، سراقة بن عمرو، سراقة بن كعب، سماك بن خرشة، سماك بن سعد، سنان بن صيفي، سنان بن أبي سنان، سويبط، سواد ابن رزين، سواد بن غرية، السائب، سبيع، سفيان، سليط، سويط.

حرف الشين

شجاع، شماس.

حرف الصاد

صالح، صفوان.

حرف الضاد

ضمرة، الضحاك.

حرف الطاء

الطفيل بن الحارث، الطفيل بن مالك، الطفيل بن النعمان.

حرف الظاء

ليس فيه أحد.

حرف العين

عبدالله أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب،

عبدالله بن مسعود، عبدالله أبو سلمة، عبدالله بن أنيس، عبدالله بن ثعلبة، عبدالله بن جبير، عبدالله بن جحش، عبدالله بن الجد، عبدالله ابن الربيع، عبدالله بن رواحة، عبدالله بن زيد، عبدالله بن سراقة، عبدالله بن سلمة، عبدالله بن سهل، عبدالله بن سهيل، عبدالله بن طارق، عبدالله بن عبيدالله بن أبي عبدالله بن عبد مناف، عبدالله بن عبس، عبدالله بن عرفطة، عبدالله بن عمرو، عبدالله بن عمير، عبدالله بن قيس بن خلدة، عبدالله بن قيس بن صخر، عبدالله بن مخرمة، عبدالله بن مظعون، عبدالله بن النعمان، عبدالرحمن بن جبر، عبدالرحمن بن عبدالله، عبدالرحمن بن عوف، عبيد بن أوس، عبيد بن زيد، عبيد ابن أبي عبيد، عبيدة بن الحارث، عباد بن بشر، عباد بن قيس، عباد بن الخشخاش، عبد ربه، عتبة بن أبي ربيعة، عتبة بن زيد، عتبة بن غزوان، عتبة بن عبدالله، عقبة بن عامر، عقبة بن وهب ابن ربيعة، عقبة بن وهب بن كلدة، عمر بن إياس، عمرو بن ثعلبة، عمرو بن سراقة، عمرو بن طلق، عمر بن معاذ، عمر بن أبي سرح، عمير بن الحارث، عمير بن الحمام، عمير بن عامر، عامر بن عوف، عمير بن مالك، عمير بن معبد، عمار، عمارة، عامر بن أمية، عامر بن البكير، عامر بن الجراح، عامر بن ربيعة، عامر بن سلمة، عامر بن فهيرة، عامر بن مخلد، عاصم بن ثابت، عاصم بن العكير[1]، عامر بن قيس، عصيمة الأشجعي، عصيمة الأنصاري، عوف بن أثاثة، عوف بن عفراء، عاقل، عائذ،

---

(١) في البداية والنهاية (٥/ ٢٣٢): «عاقل بن البكير».

عبس، عدي، عنترة، عويم، عياض، عثمان بن مظعون.

حرف الغين

غنام.

حرف الفاء

الفاكه، وفروة.

حرف القاف

قيس بن أبي صعصعة، قيس بن عمرو، قيس بن محصن، قيس بن مخلد، قتادة، قدامة، قطبة.

حرف الكاف

كعب بن حمار[٢]، كعب بن زيد، كعب بن عمرو، كناز.

حرف اللام

ليس فيه أحد.

حرف الميم

مالك بن التيهان، مالك بن ثابت، مالك بن الدخشم، مالك ابن ربيعة، مالك بن عمرو أبو حبة، مالك بن عمرو أخو ثقيف، مالك بن عمرو بن خيثمة، مالك بن قدامة، مالك بن مسعود، مسعود بن خلدة، مسعود بن الربيع، مسعود بن سعد الحارثي، مسعود بن سعد الزرقي، معاذ بن جبل، معاذ بن عفراء، معاذ بن

---

(١) حمار: ويقال: جمّار. ويقال: حمان. البداية والنهاية: (٥/ ٢٤١).

ماعص، المنذر بن عمرو، المنذر بن قدامة، المنذر بن محمد، معتب بن حمراء، معتب بن عبدة، معتب بن قشير، معبد بن عبادة، معبد بن قيس، محرز بن عامر، محرز بن نضلة، معوذ بن عفراء، معوذ بن عمرو، مبشر، المحذر، محمد بن مسلمة، مدلاج، مرثد، مصعب، معقل، معمر، معن، المقداد، مليل، مهجع.

حرف النون

النعمان بن ثابت، النعمان بن سنان، النعمان بن عمرو، النعمان ابن عبد عمرو، النعمان بن عصر، النعمان بن مالك، النعمان بن أبي خزمة، نصر، نوفل.

حرف الواو

وهب بن سعد، وهب بن محصن، وافد، وديعة، وذقة.

حرف الهاء

هانئ، هشام، هلال.

حرف الياء

يزيد بن الحارث، يزيد بن رقيش، يزيد بن عامر، يزيد بن المزين، يزيد بن المنذر.

وممن يعرف بكنيته ولا يعرف باسمه

أبو الحمراء، أبو خزيمة، أبو سبرة، أبو مليل.

- • - • -

وامتنع من شهود بدر ثمانية؛ لأعذار، فضرب لهم رسول الله ﷺ سهامهم وأجورهم؛ فكانوا كمن شهدها: عثمان، وطلحة، وسعيد، والحارث بن حاطب، والحارث بن الصمة، وخوّات، وعاصم بن عدي، وأبو لبابة. فهؤلاء البدريون بجملتهم، حشرنا الله في زمرتهم.

* * *

الفصل السادس والعشرون
في تزويج علي بفاطمة عليهما السلام

كان للنبي ﷺ بنات؛ فضلتهن فاطمة. وزوجات؛ سبقتهن عائشة. وذلك أن اختيار القدر: لا يحابي في التساوي: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

لما نهض علي لخطبتها، طرق بأنامل رجائه باب الخطبة، فمشى إليه الآذن بالإذن على عجل العجل. فنقد صدق الرغبة: قبل نقد الصداق. فعقد العقد على «دِرْع»؛ لينبه على «جهاد الهوى»، وجهزّت بالإجهاز على عدو الزهد. ولم يرض لها جهاز الدنيا؛ لموافقة البضعة التي هي منه.

فحلاها الرسول بحلية: «**فاطمة بضعة مني**»[1] وعقد لها عقداً خرزات نظامه: «**إن الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك**»[2]. وبعث بين يديها وصائف[3]: «**غضوا أبصاركم**»[4]، ونصب لها سدة: «**ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء الأمة**»[5]. وأدخلها على الزوج في حلل الحالية[6]، عليها قناع القناعة، تسعى في فضاء الفضائل، إلى خلوة الخلة، حتى أُجلست على منصة النص. فأمر الله تعالى ليلة

---

(١) البخاري في فضائل الصحابة: (٣٧٢٩)، ومسلم في فضائل الصحابة: (٢٤٤٩).

(٢) الطبراني في الكبير: (١٨٢)، (٢٢/١٠٤)، وفي إسناده حسين بن زيد: منكر الحديث.

(٣) وصائف: جمع وصيفة، وهي الخادمة.

(٤) أحمد: (٥/٣٢٣). وانظر: مجمع الزوائد: (٤/١٤٥، ٢١٨).

(٥) البخاري في الاستئذان: (٦٢٨٥، ٦٢٨٦)، ومسلم في فضائل الصحابة: (٢٤٥٠).

(٦) حلل الحالية: كذا في المطبوع. والذي في المخطوط: «حلة الحال الحالية».

عرسها: شجرَ الجنان، فحملت حللا وحليا، فنثرته على الملائكة. وليس المراد بذلك الملك؛ ولكن ليعلم رضى الملك.

يا عجباً، نثرت الحلل لأجل من فراشه جلد كبش. هلاّ حلت له منها حلة؟ كلا. مركب الملك أحلى من أن يُحلّى. فدخل عليها الرسول، فاستدعى بإناء من ماء، فدعا فيه بالبركة، ثم رش على حبيبين بلا غش[١]. فلما طاب لعلي ذلك الوقت. سأل الرسول سؤال سكران من شراب الوصل: يا رسول الله أنا أحب إليك أم هي؟ ففصل الحاكم بين خصوم الحب، فقال: هي أحب إلي منك، وأنت أعز علي منها[٢].

فلما حازت بما حازت قناطر الفضل: صين وجه الكمال، بخال[٣] الخلل في العيش، فأقوى على الأقوى: قفر الفقر. فصيح بفصيح خطاب الشرع؛ يا علي. قم لكسب قُوت الوقت. فخرج يسعى على أرض الرضا، بين أعلام الصبر. فبات يسقي نخلا إلى الفجر، بشيء من الشعير على وجه الأجر.

فلما جاء به وأصلح للأكل قام سائل على باب البذل، فنادى: يا أهل نادي الندى والفضل؛ أطعمونا أطعمكم الله من الفضل.

فثارت رياح الارتياح للإيثار، فأثارت سحاباً يقطر من قطرته قطر جود الجود. فسال سيله بقدر وادي الود.

---

(١) الطبراني في الكبير: (١١٥٣)، والبزار: (١٤٠٧)، وانظر مجمع الزوائد: (٩/ ٢٠٩).

(٢) الطبراني بمعناه في الكبير: (١١٠٦٣).

(٣) الخال: الشامة.

لما تروّت بالماء أشجار الأنس؛ صدحت على ورَقها ورق القدس، فأغنى[1] عن غرائب صدح المدح: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨] ثم أخبر الحق عن مضمون القصد: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] فلو رأيت القوم يوم القيامة، في ظل: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ١١]، وقد اكْتست أجسادٌ - وكُسِت بكساء الضنك - غضارة العيش، على حلل الخفض. واستراحت أيد تفرق أيْدها من طحن الرحا ونزع الدلو، براحة: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ [الإنسان: ١٣] هذا من حصاد بذر النذر.

ولقد عجب العلماء من شرح هذا الأجر، واستظرفوا عدم ذكر الحور في هذا الذكر، فبقوا متحيرين في حير الفكر، فنودوا من بطنان وادي الفضل؛ بأن ذلك لفضل فضل زهراء الإنس: غِيَر عليها من ذِكْر الغير. وإنما آثرا على الطفلين؛ لأنهما غصنان من شجرة: «أبيت يطعمني ربي»[2] وبعض من جملة: «هي بضعة مني»[3] وفرخ البط سابح، وذكاة الجنين كذكاة أمه.

★ ★ ★

(١) فأغنى: في المطبوع: «وأغنى» والتصحيح من المخطوط.
(٢) البخاري في الصوم: (١٩٦٥)، ومسلم في الصيام: (١١٠٣).
(٣) مرّ تخريجه قريباً.

القسم الثاني

من المواعظ

وهو المشتمل على المواعظ والإرشارات مطلقا، وهو مائة فصل.

الفصل الأول

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]. يذكر فيه التوحيد: أول: ليس له مبدأ، آخر: جل عن منتهى، ظاهر: بالدليل، باطن: بالحجاب، يثبته العقل، ولا يدركه الحس.

كل مخلوق محصور، بحد مأسور، في سور قطر، والخالق بائن مباين، يعرف بعدم مألوف التعريف، ارتفعت لعدم الشُّبه الشُّبه. إنما يقع الإشكال، في وصف من له أشكال، وإنما تضرب الأمثال، لمن له أمثال. فأما من لم يزل ولا يزال، فما للحسّ معه مجال.

عظمته عظمت عن نيل كف الخيال. كيف يقال له: كيف؟ والكيف في حقه محال. أنىّ تتخايله الأوهام، وهي صنعه؟ كيف تحده العقول، وهي فعله؟ كيف تحويه الأماكن، وهي وضعه؟ انقطع سير الفكر، وقف سلوك الذهن، بطلت إشارة الوهم، عجز لطف الوصف، عَشيت عينُ العقل، خرس لسان الحس. لا طَوْر للقدم، في طُور القِدَم. عزّ المرقى؛ فيئس المرتقي. بحر لا يتمكن منه غائص. ليل لا يبين للعين فيه كوكب.

مرامٌ شطّ مرمى العقلِ فيه فدُون مداه بِيدٌ لا تبيد

جادة التسليم سليمة. وادي النقل بلا نقْع. انْزِلْ عن علّو غلّو التشبيه، ولا تعل قُلل أباطيل التعطيل؛ فالوادي بين جبلين: المشبه متلوث بفْرث التجسيم، والمعطل نجس بدم الجحود، ونصيب المحق لبنٌ خالص: هو التنزيه.

تخمّر في نفوس الكفار: حبُّ الأصنام؛ فجاء محمد. فمحا ذلك بالتوحيد. وتخمر في قلوب المشبهة: حبُّ صورةٍ وشكل، فجئتُ فمحوتها بالتنزيه. والعلماء ورثة الأنبياء.

ما عرفه من كيّفه، ولا وحّده من مثّله، ولا عبده من شبهه. المشبه أعشى، والمعطل أعمى، فما ينزه عنه فم، فيما يجب نفيه بثم. جل وجوب وجوده عن رجم «لعل»، سبق الزمان فلا يقال: كان[1] إذ، تمجّد في وحدانيته عن زحام «مع»، تفرد الإنشاء فلا يستفهم عن الصانع بمن، أبرز عرايس المخلوقات من كِنّ كُن، بث الحلم فلم يعارض بلم، تعالى عن بعضية من، وتقدس عن ظرفيه في، وتنزه عن شبه كأن، وتعظم عن نقص لو أن، وعز عن عيب إلا أن، وسما كماله عن تدارك لكن، إن وقف ذهنٌ بوصفه؛ صاح العزُّ: جُز، إن سار فكر نحوه؛ قالت الهيبة: عُد، إن قعد اللسانُ عن ذكره؛ قال القلب: قم، إن تجبر متكبر؛ قال القهر: شم[2]، إن سأل محتاج؛ قال الإنعام: رش[3]، إن تعرّض

---

(١) (فلا يقال كان): هذا الإطلاق فيه نظر. فقد جاء ذلك في القرآن والحديث كثيراً.

(٢) شم: من شام السيف: أغمده.

(٣) رش: من راش الصديق: أطعمه، وسقاه، وكساه، وأصلح حاله.

فقير؛ قال الوفر: فر، إن سكت مذنب حياء؛ قال الحلم: قل، إن بعد ذو خطأ؛ نادى اللطف: أُبْ. نثر عجائب النعم، وقال للكل: خذ.

من بيان عظمته: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ١٥]، من أثر قسْره: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ﴾ [الإسراء: ٤٤]، توقيع أمره: ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، واقع زجره: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ [النحل: ٩٠]، ينادى على باب عزته: ﴿لا يُسْأَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، يصاح على محجة حجته: ﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٨٤]، ينذر جاسوس علمه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧]، يقول جهبذ طَوْله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٨]، يترنّم مُنشد فضله: ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ [الزمر: ٥٣].

سبحان من أقام من كل موجود: دليلا على عزته، ونصب علم الهدى: على باب حجته. الأكوان كلها تنطق بالدليل على وحدانيته، وكل موافق ومخالف: يمشي تحت مشيئته. إن رفعتَ بصَر الفكر؛ ترى دائرة الفلك في قبضته، وتُبصر شمس النهار وبدر الدجى: يجريان في بحر قدرته، والكواكب قد اصطفت كالمواكب: على مناكب تسخير سطوته. فمنها رجوم للشياطين ترميهم؛ فترميهم عن حمى حمايته، ومنها سطور في المهامه[1]: يقرؤها المسافر في سِفْر[2] سَفْرته. وإن خفضت البصر؛ رأيت الأرض ممسكة بحكمة حكمته، كل قطر منها محروس بأطواده عن حركته،

---

(١) المهامه: الفلوات.

(٢) سِفْر: كتاب.

فإذا ضجت عطاشها؛ ثار السحاب من بركة بركته. ونفخ في صور الرعد؛ لإحياء صور النبات من حفرته. فيبدو نوْرُ[١] النورِ يهتزّ طرباً بخُزَامى[٢] رحمته. فإذا استوى على سوقه؛ زادت في سوقه نُعامى نعمته، ويفتق يد الإيجاد - بأنامل القدرة - أكمام النبات عن صنعة صبغته، فيرفل في حُليّ حُلل الحال الحالية إلى معبر عبرته. وتصدح الوُرْق على الوَرَق[٣]؛ كل بتبليغ لغته، والأشجار معتنقة ومفترقة؛ على مقدار إرادته ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]. هذا بعض صنعته: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

نظر بعين الاختيار إلى آدم؛ فحظى بسجود ملائكته. وإلى ابنه شيث؛ فأقامه في منزلته. وإلى إدريس؛ فاحتال بإلْهامه على جنته، وإلى نوح. فنجا من الغرق بسفينته، وإلى هود؛ فعاد على عاد شؤم مخالفته. وإلى صالح؛ فتمخضت صخرة بناقته. وإلى إبراهيم؛ فتبختر في حُلّة خلّته. وإلى إسماعيل؛ فأعان الخليل في بناء كعبته. وإلى إسحاق؛ فافْتكّه بالفداء من ضجعته[٤]. وإلى لوط؛ فنجاه وأهله من عشيرته. وإلى شعيب؛ فأعطاه الفصاحة في خطبته، وإلى يعقوب؛ فرد حبيبه مع حبيبته[٥]، وإلى يوسف؛ فأراه البرهان في همته. وإلى موسى؛ فخطر في ثوب مكالمته.

---

(١) نور: زهر.

(٢) خُزَامى: نبت زهره طيب الرائحة.

(٣) الورْق: جمع ورقاء، وهي الحمامة، والورق: الشجر.

(٤) الذي افتك بالفداء هو إسماعيل لا إسحاق.

(٥) حبيبه: يوسف، حبيبته: عينه.

وإلى إلياس؛ فاليأس للناس من حالته. وإلى داود؛ فالآن الحديد له على حدِّته، وإلى سليمان؛ فراحت الريحُ في مملكته. وإلى أيوب؛ فيا طوبى لركضته. وإلى يونس؛ فسمع نداَه في ظلمته. وإلى زكريا؛ فقرن سؤاله ببشارته. وإلى يحيى؛ فتلمح حصير الحصور[١] على سدّة سيادته. وإلى عيسى؛ فكم أقام ميْتاً من حفرته. وإلى محمد؛ فخصّه ليلة المعراج برؤيته[٢].

وأعرض عن إبليس؛ فخزي ببعده ولعنته. وعن قابيل؛ فقلب قلبه إلى معصيته. وعن نمرود؛ فقال: أنا أحيي الموتى ببلاهته. وعن فرعون؛ فادّعى الربوبية على جرأته. وعن هامان؛ فأين رأيه يوم اليم في وزارته؟ وعن قارون؛ فخرج على قومه في زينته. وعن بلعام؛ فهلك بل عام في بحر شقوته. وعن برصيصا؛ فلم تنفعه سابق عبادته. وعن أبي جهل؛ فشقي مع سعادة أمه وابنه وابنته.

هكذا جرى تقديره؛ من يوم: «لا أبالي»[٣] في قسمته: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

★ ★ ★

---

(١) الحصير: ما ينسج ليفرش، والحصور: الذي لا يأتي النساء.

(٢) الخلاف في هذه المسألة معروف. والصحيح أنه ﷺ رأى نورا.

(٣) أحمد في مسنده: (١٧٦/٤، ١٧٧)، (٦٨/٥) من حديث رجل، (٢٣٩/٥) من حديث معاذ.

الفصل الثاني

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾

نذكر فيه فضل نبينا محمد ﷺ

لم يزل ذكر نبينا ﷺ منشوراً وهو في طي العدم، توسل به آدم[1]، وأُخذ له ميثاق الأنبياء على تصديقه.

في بعض درسه: علم إدريس. في ضمن وجده: حزن يعقوب. في سر جده: صبر أيوب. في طي خوفه: بكاء داود. بعض غنى نفسه: يزيد على ملك سليمان. عبر بغير خلٍّ خِلاَل خُلَّةِ الخليل، ونال تكليم موسى، واسترجح له النظر عند قاب قوسين. فهو جملة الجمال، وكل الكمال، وواسطة العقد، وزينة الدهر.

يزيد على الأنبياء زيادة الشمس على البدر، والبحر على القطر. فهو صدرهم، وبدرهم، وعليه يدور أمرهم. قطب فلكهم، عين كتيبتهم، واسطة قلادتهم، نقش فصِّهم، بيت قصيدتهم، حاتمهم، خاتمهم.

شمسُ ضُحاها هلالُ ليلتها ... دُرُّ تقاصيرها[2] زَبَرْجَدُها

لما رأى تخليط قريش في دعوى الشرك؛ فر في بادية الهرب، فتحرى «غار حراء» في الفرار للفراغ، فراغ إليه. فجاء مزاحم: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١] يا راهب الصمت تكلم. قال لسان العجز البشري:

---

(١) توسل آدم بالنبي ﷺ: فيه نظر، ولا يثبت ذلك. والحديث رواه الحاكم: (٢/ ٦١٥) وقال: «صحيح الإسناد». وتعقبه الذهبي بقوله: «بل موضوع».

(٢) تقاصيرها: التقاصير: القلائد.

لست بقارئ. فَحُمَّ لمَا حَمَّ[١]؛ فزمزم بلفظ: «زملوني»[٢] فصاح الملك: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] يا أطيب ثمار: ﴿كُن﴾ [يس: ٨٢] يا محمولا عليه ثِقَل قُل[٣]: ﴿قُمِ﴾ [المزمل: ٢].

لما بعث الملكُ المَلَك إلى نبينا برسالة: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]. فتر الوحي بعدها مدة، مدّت قوس الشوق؛ فرمت الكَبْدآء «الكبدَ» بِكَبَد أعجز المكابدة[٤]. فكان يهمُّ لِما يَلْقى بإلقاء نفسه من ذروة الجبل، فإذا بدا له جبريل؛ بدا له[٥].

ثم رُميت الشياطين عند مبعثه. بأسهم الشهب، عن قوس: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨]. فمروا إلى المغارب، ومشوا إلى المشارق؛ ليقطعوا سبسب السبب، فجرت ريحُ التوفيق بمراكب بعضهم إلى تهامة، فصادفوه[٦] في الصلاة، فصاد فوه[٧] قلوبَ القوم، فصاحت ألسنة الوجد: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

تحرّكت لتعظيمه السواكن: فحنّ إليه الجذعُ، وسبّح الحصى، وتزلزل الجبل، وتكلم الذئب.

---

(١) فحم لما حم: أي أصابته الحمى لما وقع.

(٢) البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان: (١٦٠).

(٣) لعل المراد بعض الآيات التي تبدأ بـ ﴿قل﴾ مثل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

(٤) الكَبْداء: القوس يملأ الكف مقبضها. الكَبَد: الشدة، المكابدة: المقاساة والمعاناة.

(٥) مسألة هم النبي ﷺ بإلقاء نفسه فيها نظر. وإن كانت في صحيح البخاري؛ لأنها ليست على شرطه، وإنما هي من بلاغات الزهري. وانظر: تهذيب سيرة ابن كثير: (ص ٩٩، ١٠٢).

(٦) فصادفوه: من المصادفة.

(٧) فصاد فوه: اصطاد فمه. والمقصود: سماعهم ما كان يقرأ من القرآن، وتأثرهم به.

«كلٌ كَنَى عن شَوقِه بِلُغاته»

فمرضت قريش بداء الحسد، فقالوا: مجنون!!!

يا محمد، هذا نقش يرقانهم لا لون وجهك[(١)].

لما أخذ في سفر ﴿أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١]. فنقل إلى المسجد الأقصى، برز إليه عبّاد الأنبياء من صوامعهم، فاقتدوا بصلاة راهب الوجود. ثم خرج فعرج؛ فعرضت عليه الجنة والنار، حتى عرف الطبيبُ عقاقير الأودية قبل تركيب الأدوية.

يالها من ليلة: فُلّ فيها غربُ حدٍّ سيف: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. ظنت الملائكة أن الآيات تختص بالسماء؛ فإذا آية الأرض قد علت. أقبلت رُؤساءُ الأملاكِ تُحيي الرئيس الأكبر، فرأى في القوم ملكا: نصفه من ثلج، ونصفه من نار. فعجب لاجتماع الضدين. فقيل: لا تعجب، فعندك أعجب منه: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا»[(٢)].

كان جبريلُ دليل البادية، فلما وصل إلى مفازة ليس فيها عَلَمٌ يعرفه، علم ابنُ أجود[(٣)]: أن الصدق أجود. فقال: «**ها أنت وربك**»[(٤)].

فإذا قامت القيامة: فموسى صاحبه، وعيسى حاجبه، والخليل في عسكره، وآدم ينادي بلسان حاله: يا ولد صورتي، ويا والد معناي.

---

(١) هذا مثل يضرب للذي يرمي غيره بمرض نفسه. فكأنه يقول: إن وجوههم الصفر من مرض اليرقان انطبعت بمرآة وجهك الصافي؛ فاتهموا وجهك بالصفرة، وإنما تلك صفرة وجوههم. يعني هم المجانين لا أنت.

(٢) قال القاري في الأسرار المرفوعة (٣٨٧): «لا أصل له في المرفوع، وإنما يؤثر عن بعض السلف. كذا في المقاصد. لكن قال السيوطي: أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن ثابت البناني» وانظر الزهد: (ص ٢٣٨-٢٣٩).

(٣) ابن أجود: دليل خريت ماهر. وأرد بابن أجود جبريل عليه السلام.

(٤) جزء من حديث الإسراء والمعراج في بعض الروايات عن لسان جبريل.

ما صعد من بحور الأكوان: أشرف من دُرّة نبينا ﷺ؛ طرّة غُرّته: أحسن من جمال يوسف، لعاب فِيه: أشفى من البرء، شمس شرعه: لا يدركها كسوف ناسخ، قمر دينه: لا يدخل في محاق. كل الأنبياء - في القيامة - تقول: نفسي نفسي، وهو يقول: أمتي أمتي. فإذا سجد؛ قيل: ارفع رأسك، وقل تسمع. كم بين ذلِّ محبٍ وإدلال محبوب. الحيوانات تذل في طلب القوت، والفيلة تتملق حتى تأكل.

يا من هو في جملة جنود هذا الشجاع، أيحسن بك كل يوم هزيمة؟ لولا جِدّ أصحابه في جهادهم، وشجاعتهم في صفوف قتالهم؛ لافتضح المتأخرون. فالحمد لله على اليزل[1]. كانوا بالليل رهباناً، وبالنهار فرساناً. قطع الرسول طمع من طمع في لحاقهم بحسام: **«ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**[2]، وكيف تنال مرتبة السابق[3] بشيء وقر في صدره؟ أو منقبة المهيب[4] والعدو يفرق من ظله؟ أو مقام الوقور[5] فالملائكة تستحي منه؟ أو فضيلة مزاحم النفس[6] في منزلة: **«كهارون من موسى»**.

يئس والله الكهول؛ من مقارنة سيدي كهول أهل الجنة[7].

---

(١) اليزل: في الحاشية اليزل الحرس، والذي في المخطوط (الترك)؟! أو (النزك)؟!.

(٢) البخاري في فضائل الصحابة: (٣٦٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة: (٢٥٤١).

(٣) السابق: أراد أبا بكر.

(٤) المهيب: أراد عمر.

(٥) الوقور: أراد عثمان.

(٦) مزاحم النفس: أراد علياً.

(٧) سيدا كهول أهل الجنة: أبو بكر وعمر.

كما لم تطمع الشباب؛ في مزاحمة سيدي شباب أهل الجنة[1].

متى التهبت في صحابة الأنبياء عزيمةٌ كحُمْرة جَمْرة حمزة؟ أو علا على العلا علي كعلاء علي؟ لقد فاز بلقب الصدق: طلحة الجود، كما سعد بالفضل وحواري: الزبير. وسما بصلاة النبي ﷺ خلفه: ابن عوف، كما قرت بلفظ: «فداك أبي وأمي» عين سعد، ونجا بالشهادة له بالجنة: سعيد، كما عز ابن الجراح بلقب الأمين، ولم يذكر باسمه بالقرآن: غير زيد. وأين في الموالي: مثل سالم وسلمان؟ ومن في الزهاد: كمصعب وابن مظعون؟ وانه لمسعود: عبدالله بن مسعود. وطوبى ثم طوبى لخباب وصهيب. ويا شرف المؤذنين بصوت بلال. ويكفي فخراً: «كوني برداً لعمار»[2]. وأي بيت يشبه بيت أبي أيوب؟ ومن زين القُرّاء إلا أبي بن كعب؟ ومن في النقباء كابن زرارة وابن الربيع؟ وأنَّى للفقهاء مثل معاذ؟ ومن له زهد كزهد أبي ذر؟ والفخر لبني هاشم بالعباس. وكفى للبصراء قائداً: ابن أم مكتوم، وإنه لقدوة المؤثرين: أبو الدحداح، ومن في قوام الليل مثل تميم؟ ومن صبر على القتل صبر خبيب؟

كلهم أخيار، وجميعهم أبرار؛ ولا مثل صاحب الغار[3]، وأين نظير فتّاح الأمصار[4]؟ ومن يشبه قتيل الدار[5]؟ ولقد افتقروا

---

(١) سيدا شباب أهل الجنة: أراد الحسن والحسين.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) صاحب الغار: أبو بكر.

(٤) فتّاح الأمصار: عمر بن الخطاب.

(٥) قتيل الدار: عثمان بن عفان.

إلى المجاهد بذي الفقار[١]. بحب هؤلاء تُرجى الجنة وتُتقى النار.

إن الله تعالى لما حلى محمداً حلية التنزه؛ خلع عليه خُلْعةً هي «الإسلام»، وأعطاه منشوراً هو «القرآن»، ولواء هو النصر، فأبو بكر صدق النبوة، وعمر أظهر الرسالة، وعثمان جمع المنشور، وعلي حمل السيف.

لما جلا الرسول عروس الإسلام؛ لم يكن بد من نثار: نثر عمرُ نصفَ ماله، فرمى أبو بكر بالكل، فقام عثمان يجهز جيش العسرة بوليمة العرس، فعلم عليٌّ حال الغيْرة؛ فبتّ طلاق الضرّة. ثم رأى بعض جهاز الدنيا المطلقة عنده - وهو الخاتم - فسلّم[٢] وما سلّم.

خطّـوا وأقلامهم خطّيـةٌ[٣] سلب
فهـم على الخيـل أُميّـون كُتّـابُ
إن أحسنوا كَلِماً واخْلوْلقوا ذمماً
واخْشَوْشنوا شِيما فالقـوُم أعرابُ

★ ★ ★

---

(١) المجاهد بذي الفقار: علي بن أبي طالب.

(٢) فسلّم: يعني سلّم الخاتم للسائل في ركوعه ولم يسلّم من صلاته. وهي القصة التي وردت روايات أنها نزلت بها: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]. ولكن في ثبوت ذلك نظر. وانظر تفسير الطبري: (١٠/ ٤٢٤-٤٢٦) وتعليق الشيخ شاكر عليه.

(٣) خطية: الرماح الخطية معروفة.

الفصل الثالث

في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾

لما تكامل بناء البيت؛ أرسل الله تعالى إلى خليله: أدِّ رسالة ﴿وأَذِّن﴾ [الحج: ٢٧] فعلا على أبي قُبَيْس[1]، ونادى في جميع الوجوه: إن ربكم قد بنى لكم بيتاً فحجوه. فأجاب من جرى القدر بحجه: «لبيك اللهم لبيك» فكان ذلك اليومُ أخا ليوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

لمـَّا رأيتُ مناديهـم أَلَـمَّ بنـا
شددُت مئـزْر إحـرامـي ولبّيْتُ
وقلتُ للنفس جدي الآن واجتهدي
وساعديني فهـذا مـا تمنّيـتُ
لو جئتكم زائراً أسعى على بصري
لم أقض حقاً وأيُّ الحقِّ أدّيتُ

قطع القومُ بيدَ السفرِ ﴿بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧] فوافقهم الرِكابُ: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧].

دع المطايا تَنسّم الجنوبا   إن لهـا لنبـأً عجيبـا
حنينُها وما اشتكت لغوبا   يشهدُ أنْ قد فارقت حبيبا
مـا حُمِّلت إلا فتىً كئيبـا   يُسِرُّ ممـا أعلنت نصيبـا
لو غادر الشوقُ لنا قلوبـا   إذن لآثرنـا بهـن النيبـا
إن الغريبَ يُسعدُ الغريبـا

---

(١) قُبَيس: جبل بمكة.

واعجبا من حنين النوق؛ كأنها قد علمت وَجْد الركّاب: تارة تَجِدُّ في السير، وتارة تتوقف، وتارة تذل وتطأطئ الأعناق، وتارة تمرح. كأنها قد استعارت أحوال العارفين.

اذْكُراها في سُراها ما عراها
فغدت تنفخُ شوقا في براها[1]

تقطع البر وتنسى ما جنى
سيرها والسير أمرٌ قد براها[2]

كلما ظنت «مِنىً» قد قَرُبت
وتدانت دارُها طارَ كَرَاها[3]

أسعِداها يا خليليَّ على
ما دعاها في الهوى أو فدعاها[4]

ذكِّرا ما زال من عهد الصبى
خليَّاها والصبا فهو رضاها

غنِّها يا أيها الحادي لها
بالحمى أو بالنقا وانظر سُرَاها

نحِّ عنها السوطَ يكفي شوقُها
قد رأت في نفسها ما قد كفاها

باعها الوجد بكثبان النقى
عجبا إذْ باعها كيف اشتراها

---

(١) البرى: التراب.
(٢) براها: أضناها وهزلها.
(٣) الكرى: النعاس.
(٤) فدعاها: اتركاها.

أتراها علمت من حملت؟

ليتها قد عرفت من في ذُرَاها[١]

أنت إن لاحت لك الأعلامُ قِفْ

فهي المقصود لا شيء سواها

قف على الوادي وسل عن كبدي

كبدي واكبدي ماذا دهاها

يا رفيقيّ اهديانى دارهم

ودِّعاني ودَعاني وثراها

أنا مقتولٌ بسهمٍ غَرْبٍ[٢]

قوسه «خِيفُ مِنىً» أو مأزِماها[٣]

حرم الصيد على من حجّه

فانظرا لي مهجتي من قد رماها

اكتبا في لوح قبري عشتما:

«مهجة ماتت وما نالت مناها»

أُمر المُحْرِمون بالتعرّي؛ ليدخلوا بزيِّ الفقراء؛ فيبين أثر: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ [سبأ: ٣٧].

من أعلم السائِق العنيف بهم	بأن روحي تُساق معْ إبله
وأن دمعي يروي ركائِبهم	ولا دمٌ في انسكاب منهمله

(١) ذراها: الذُرى جمع ذروة.

(٢) سهم غَرْب: لا يُدرى راميه.

(٣) المأزِمان: مضيق بين مكة ومنى، وآخر بين جمع وعرفة.

تالله لقد جمعوا الخير: ليلة جمع، ونالوا المُنى: إذ دخلوا «منى».

لله درّ «منى» وما جَمعَت ... وبُكا الأحبّة ليلة النفْرِ

ثم اغتدوا فرقاً هنا وهنا ... يتلاحظون بأعين الذكر

ما للمضاجع لا تلائمني ... وكأن قلبي ليس في صدري

حج جعفر الصادق، فأراد أن يلبي، فتغير وجهه، فقيل: مالك يا ابن رسول الله؟ فقال: أريد أن ألبي، فأخاف أن أسمع غير الجواب.

وقف مطرف وبكْر[1]، فقال مطرف: اللهم لا تردهم من أجلي. وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أني فيهم.

وقام الفضيل بعرفة، فشغله البُكاء عن الدعاء، فلما كادت الشمس تغرب قال: واسوءتاه منك وإن عفوتَ.

وقف بعض الخائفين على قدم الإطراق والحياء، فقيل له: لم لا تدعو؟ فقال: ثَمّ وحشة. قيل: فهذا يوم العفو عن الذنوب؛ فبسط يده، فوقع ميتاً.

وانزل الوادي بأيمنه ... إنه بالدمع ملآنُ

وارم بالطرف العقيقَ[2] فَلِي ... ثَمَّ أوطارٌ وأوطان

وانشد القلب المشوق عسى ... يُرجع المفقودَ نُشدان

وابك عني ما استطعت إذا ... ما بدا للطرف نُعْمَان[3]

واقره عني السلام فسُكّان ... قلبي فيه سكانُ

لا تزدني يا عذول جوى ... أنا بالأشواق سكران

---

(١) مطرف: هو ابن عبدالله بن الشخير، وبكر: هو ابن عبدالله المزني.

(٢) العقيق: موضع بالطائف، وموضع بالمدينة.

(٣) نعمان: واد وراء عرفة، وواد بالتنعيم.

حج الشبلي، فلما رأى مكة قال:

أبطحاء مكة هذا الذي أراه عيانا وهذا أنا؟!

ثم غشي عليه، فلما أفاق قال:

هذه دارهم وأنت محبٌ ما بقاء الدموع في الآماق

حج قوم من العباد. فيهم عابدة، فجعلت تقول: أين بيتُ ربي؟ أين بيت ربي؟ فيقولون: الآن ترينه:

إذا دنت المنازل زاد شوقي ولا سِيمَا إذا بدت[1] الخيام

فلما لاح البيت، قالوا: هذا بيت ربك. فخرجت تشتد وتقول: بيت ربي، بيت ربي. حتى وضعت جبهتها على البيت، فما رُفعت إلا ميتة.

هاتيك دارهم وهذا ماؤهم

فاحْبس وَرِدْ وشَرِقْتَ إن لم تسقني

أودعُت إقرارَكَ يوم: ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الحجر الأسود، وأمرتك بالحج؛ لتستحي بالتذكير من نقض العهد. الحجر صندوق أسرار المواثيق، مُستملٍ لما أمْلى المُعَاهِد، مشتملٌ على حفظ العهد؛ فاستلم المستملي المشتمل؛ ليعلم أن إقرارك لا عن إكراه. لا تنس عهدي فإني لا أنساك.

فلا تحسبوا أني نسيتُ ودادَكم

فإني وإن طال المدى لستُ أنساكم

حفظنا وضيّعتم وداداً وحرمةً

فلا كان مَنْ في هجْرنا اليوم أغراكم

---

(١) بدت: في المطبوع: «دنت».

كم شخص أشخصه الوجدُ إلى الحج، فكاد نُشَابة المواثيق قبل تقبيله تقتله. فلما قضى الناسك المناسك، ورجع؛ بقي سهم الشوق إليه في قلبي «مِنَى» المُنى.

يكـادُ يُمسِكـه عرفـان راحتــه ... رُكْن الحطيم إذا ما جاء يستلم

إخواني. ذكر تلك الأماكن: يعمل في القلب قبل السمعِ، كأنها قد خلقت من طين الطبع. لِسَلَع[١] سلْعٍ لَسْعٌ؛ ليس لعسلٍ لعْس[٢].

للمهيار:

هل مُجاب يدعو مُبدّد أوطا ... ري بجمـع يـردّ أيـام جمْـعِ

أو أميـن القـوى أُحمله همـاً ... ثقيـلاً يحطّــه دون سلْــع

فافرجا لي عن نفحة من صباه ... طال مَدّي لها الصليف[٣] ورفعي

إن ذاك النسيم يجري على أرض ... ثراهـا فـي الريح رقيـة لسع

كم زفيـر علمتْ منـه حمام ... الدوح ما كان من حنين وسجع

واخجل المتخلف، وأسف المُسَوِّف. أين حسرات البُعد؟ أين لدغات الوجد؟ للخفاجي:

أتظن الـورْق فـي الأيـك تُغنّـي ... إنها تُضمر حزنـا مثـل حـزني

لا أراك الله نجــداً بعدهـــا ... أيهـا الحـادي بنـا إن لـم تُجبني

هل تبارينـي إلـى بثِّ الجـوى ... في ديار الحيِّ نشوى ذاتُ غُصُنْ

هب لهــا السبـق ولكـن زادنـا ... أننـا نبكـي عليهـا وتغنّـي

(١) السلع الأول بتحريك اللام شجر له شوك. والثاني بسكونها موضع عند المدينة.

(٢) لعس: موضع.

(٣) الصليف: للعنق صليفان على جانبيها، والصليفان: عودان يعترضان على الغبيط، تشدّ بهما المحامل.

يا زمانَ الخيف[١] هل من عـودة   يسمحُ الدهرُ بهـا مـن بعـد ضنٍّ
أرضينـا بثنيّـات اللّـوى   عـن زَرُود يالهـا صفقـة غبـن
سلْ أراكَ الجـزْع هل مـرت بـه   مُزنـةٌ روَّت ثـراه غيـر جفنـي
وأحاديث الغضـا هـل علمـت   أنها تملـك قلبـي قبـل أذْنـي

يا عجباً لمن يقطع المفاوز ليرى البيت؛ فيشاهد آثار الأنبياء: كيف لا يقطع نفسه عن هواه؟ ليصل إلى قلبه؟ فيرى آثار: «ويسعني»[٢]. لمحمد بن أحمد الشيرازي:

إليـك قصـدي لا للبيـت والأثـرِ
ولا طوافـي بأركـانٍ ولا حجـرِ
صفاء دمعي الصفا لي حين أعبره
وزمزمي دمعة تجري من البصر
عرفانكم عرَفاتي إذ «منى» مِننٌ
وموقفي وقفة في الخوف والحذر
وفيك سعيي وتعميري ومزدلفي
والهديُ جسمي الذي يُغني عن الجُزُر
ومسجد الخيف خوفي من تباعدكم
ومشعري ومقامي دونكم خطري
زادي رجائي لكم والشوقُ راحلتي
والماءُ من عبراتي والهوى سفري

---

(١) الخيف: موضع في «منى» وبه سمي «مسجد الخيف».

(٢) إشارة إلى الأثر: ما وسعني أرضي ولا سمائي، ويسعني قلب عبدي المؤمن» قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار: (٢٥٩٩): «لم أر له أصلا».

الفصل الرابع

إخواني. قد نمى إليكم أمرُ من نما، وسامى وصال الوسام وسما، وافتخر بالنسب والنشب[١] وانتمى؛ كيف بارزه من أبرزه عن الحمى، فبات بعد الريّ يشكو الظما. وقد رأيتم ما جرى، فانتظروا مثل ما.

لابن المعتز:

يا نفسُ ويحك طال ما أبصرتِ موعظةً وما
نفعتك فاخْشي وانتهي وعليكِ بالتقوى كما
فعل الأناس الصالحون وبادري فلربمّا
سلم المبادر واحذري يا نفس من «سوف» فما
خُدع الشقيُّ بمثلها إياكِ منها كلما
ناجت مكايدها ضمير ك إنما هي إنما
خطرت وكم قتلت وأهلكت النفوس وقلما
تغني أمانيها إذا حضر الردى فكأنما
لم يحي من لاقى منيّته فيا عجباً أما
في ذاك معتبرٌ ولا شاف يُبصِّر مِنْ عَمى
يا ذا المنى يا ذا المنى عِشْ ماً بدا لك ثم ما

ياسكران الهوى: أما آن الصحو؟ يا ساطر أقبح الخلاف: أما حان المحو؟ أين الراحلون كانوا بالأمس؟ صحّت حُجّة الموت؛

(١) النشب: المال الأصيل من ناطق وصامت.

فبطلت حجة النفس، واعتقلهم حاكمُ البِلى على دَيْنِ الرمْس[١]، وكفَّ أكُفَّ الحسِّ بعد تصرف آلة الخمس، واستوعر عليهم الحصر، واستطال الحبس، وأصبحت منازلهم ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

يا قليل اللبث، خلِّ العبثْ. كم حَدَثَ جَدَثٌ[٢] في حَدَثْ؟ يا مُوقناً بالرحيل وما اكترث. اقْبل نُصحي، ورُمَّ الشعث[٣].

إذا نِلتَ من دُنياك خيراً ففُزْ به
فإنّ لجمعِ الدهرِ من صرفه شتا[٤]
فكم منْ مُشَتٍّ لم يصيف بأهله
وآخر لم يُدركه صيفٌ إذا شَتّى[٥]

انْتهبْ نِثَارَ الخير في مكان الإمكان؛ قبل أن تدخل في خبر «كان». قبل مُعاينة الهول المخوف الفظيع، وتلهّفِ المجدبِ على زمان الربيع. إنما أهلُ هذه الدار «سَفْرٌ»[٦]: لا يحلّون عقدَ الركابِ إلا في غيرها. فاعجبوا لدارٍ قد أدبرت: والنفوس عليها والهة. ولأخرى قد أقبلت: والقلوب عنها غافلة.

والله لو كانت الدنيا بأجمعها   تبقى علينا ويأتي رزقُها رَغَدَا
ما كان من حقِّ حُر أن يذلَّ لها   فكيف وهي متاعٌ يضمحلُّ غدا

---

(١) الرمْس: الدفن، والقبر.
(٢) جدث: قبر.
(٣) رُمّ الشعث: أصلح الأمر المنتشر والمتفرق.
(٤) شتا: تفرقا وتشتتا.
(٥) شتى: قضى فصل الشتاء.
(٦) سَفْر: ذوو سفر، مسافرون.

يا مُكرَّماً بحِلْيةِ الإيمان بعد حُلَّة الإيجاد؛ وهو يُخْلقُها[1] في مخالفة الخالق. كم من نعمة نعمة، في ترف ترف؛ وما يخفُّ عليك ذكرُ شُكْر. يا عبد السوء. ما تساوي قدر قدرتك. «لا كانت دابة لا تعمل بعلفها» إلى متى يخدعك المنى، ويغرّك الأمل؟ ويحك. افتح عينك. متى رأيت العقل يؤثر الفاني على الباقي؛ فاعلم أنه قد مُسخ. ما زالت الدنيا مُرّة في العبرة؛ ولكن قد مرض ذوقك. لسان قلبك: في عقلة غفلة، وسمع فهمك: مسدودٌ عن الفِطْنة بِقُطْنة، وبصر بصيرتك: محجوبٌ بعشا عمى، ومزاج تقواك: منحرفٌ عن الصحة. وأما نبض الهوى: فشديد الخفقان.

سارت أخلاطُ الأملِ في أعضاءِ الكسل؛ فتثبطت عن البدار. وقد صارت المفاصلُ في منافذ الفهوم سدداً، وما يَسهُل عليك شُرْبُ مُسَهِّل.

ويحك. اجتنب حلواء الشره؛ فإنها سبب حمى الروح. خلِّ خلَّ البُخْل؛ فإنه يؤذي عصب المروءة. إن عُوجِلت أمراضُك. فعولجت؛ وإلا مُلِكت فأهْلِكت. لو احتميت عن أخلاط الخطايا: لم تحتج إلى طبيب. من ركب ظهر التفريط: نزل به دار الندامة.

ألم تسمع أن داود كان قد أعطي نِعْمة نَغْمة: كان يقف لها الماء فلا يسير، والطيرُ وقوفَ الأسير، فامتدت يد الغفلة، فقدت قميص العصمة، فأثر زلله حتى في التلاوة[2]. أعرض المعمار عن

---

(١) يخلقها: يُبليها.

(٢) سبق التنبيه إلى أن ما قيل عن معصية داود وقصة زوجة أوريا: لا تثبت، وإنما هي من الإسرائيليات التي تتعارض مع عصمة الأنبياء.

المراعاة، فتشعّب منزل الصفا، وانقطعت جامكية العسكر[1]؛ فتفرقت جنود: ﴿أَوِّبِي﴾ [سبأ: ١٠] كان يُؤتى بالإناء ناقصاً، فيتمّه بالدموع.

للمهبار:

مالي شرِقْت بماء ذي الأثل ... هل كَدَّر الوُرَّادُ من قبلي
أم بَانَ سكانٌ فأملح لي ... ما كُنتُ قبل البَيْن أستحلي
ما ابيض لي في الدار بعدهم ... يومٌ وهل دارٌ بلا أهل
رحلوا بأيامي الرقاق على ... آثارهم وبعيشي السهل

كان عيش عيشه خضرا، فأحالت الحالَ سَنَةُ الهجر، فكأنّ أيام الوصال كانت سنة. وكاد يقطع الرجا باليأس؛ لولا التقاء الخضر وموسى وإلياس[2].

أرَقي قد رقّ لي من أرقي ... ورثى لي قلقي من قلقي
وبكائي من بكائي قد بكا ... وتشكت حُرَقي من حُرَقي

كان داود إذا أراد النياحة: نادي مناديه في أندية المحزونين. فيجتمعون في مآتم الندوب، فتزداد الحُرَقُ بالتعاون.

للعباس بن الأحنف:

يا بعيد الدار عن وطنه ... مفرداً يبكي على شجنِه
كلما جدّ النحيبُ به ... زادت الأسقامُ في بدنه
ولقد زاد الفؤاد شجىً ... هاتفٌ يبكي على فننه
شاقه ما شاقني فبكى ... كلُّنا يبكي على سكنه

(١) جامكية العسكر: كلمة دخيلة، ومعناها الجراية الراتبة التي تجري لهم.
(٢) (وإلياس). في المطبوع: «باليأس» والتصحيح من المخطوط.

يا مذنبين: مصيبتنا في التفريط واحدة «وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ» يا مترافقين في سفر الطرْد: انزلوا للنياحة في ساحة. اندبوا طيب أوطان الوصل، واستغيثوا من هجير الهجر؛ لعل الغمَّ ينقلبُ غمامةً تُظلُّ لفْح الكرْب.

للمصنف:

أيـن فـؤادي أذابُـه البُعْدُ	وأين قلبي أمـا صحا بـعـدُ
حـدا بذكـر العقيـق سائِقـه	فطـار شوقـاً بِلُبِّـه الوجدُ
جسم ببغـداد ليس تصحبـه	روح وروح يضمهـا نجـدُ
يالفؤاد ما يستريح مـن الكر	ب لـه كـل لحظـة وقْـدُ
آه لعيش قـد كنت أصحبـه	لـو كـان يومـاً لفائـت ودُّ
أروح فـي حبكـم ووَا قلقي	وهكـذا أشتكـي إذا أغـدو
كل زماني جزر عن الوصـل	أشكوه فهـلاّ تناوبَ المـدُّ
يا سعدُ زدني جوىً بذكرهم	يا سعدُ قل لي فُديت يا سعدُ
بلغهـم مـا أُجِنُّ مـن حرقٍ	وقـل وحدث ببعض ما يـدو
وقل: رأيتُ الأسير فـي قـلقٍ	وقـال: لـي حرمةٌ ولي عهـد
ثـم فسلم والأمـر أمرهــم	يقـول مولـىً ويصمتُ العبـد

* * *

الفصل الخامس

أيتها النفس. تدبري أمرك وتأملي، ومثلي بين ما يفنى ولا تعجلي. لقد ضللت طريق الهدى؛ فقفي واسألي. وآثرت وهنا؛ ما يورّث وهنا لا تفعلي. يا غمرة من الشقاءِ ما أراها تنجلي. أتبع الهوى؛ والهوى عليّ وليس لي. أريد حياة نفسي، ونفسي تريد مقتلي. يا جسداً قد بَلي بما قد بُلي[1].

نخطو وما خطْونا إلا إلى الأجل
وننقضي وكأنّ العمَر لم يطُلِ
والعيشُ يؤذننا بالموت أوّلهُ
ونحن نرغبُ في الأيام والدول
يأتي الحمام فينسى المرء مُنْيته
وأعضلُ الداء ما يلهي عن الأمل
ترخي النوائبُ عن أعمارنا طرفاً
ونستقرُّ وقد أمسكن بالطِوّلَ[2]
لا تحسب العيشَ ذا طول فتتبعه
ياً قُرْبَ ما بين عُنْق المرء والكَفَلِ[3]
سلّى عن العيش أنّا لا ندوم له
وهوّنَ الموتَ ما نلقى من العِلل

---

(١) بَلي: من البِلى، بُلي: من البلاء.

(٢) الطول: حبل يشد به قائمة الدابة.

(٣) الكفل: العجز، أو الردْف، أو القطَن.

لنا بما ينقضي من عمرنا شغل
وكلنا عَلِقُ الأحشاء بالغزل
ونستلذُّ الأماني وهي مُرْدية
كشارب السم ممزوجا مع العسل

إخواني. أوقدوا أدهانَ الأذهانِ في ليلِ الفكر. صابروا سني الجدْب لعام الخصب: تعصروا. فمن أدلج في غياهب ليل العلى، على نجائب الصبر: صبّح منزل السرور في السر[1]. ومن نام على فراش الكسل: سال به سيل التمادي إلى وادي الأسف. الرجولية: قوة معجونة في طين الطبع، والأنوثية: رخاوة. ولد السبع: عزيز الهمة، وابن الذئب: غدار. وكل إلى طبعه عائد.

الجد كله حركة، والكسل كله سكون. إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة - حين يخرج من البيضة - فعلّقه بمنقاره؛ فإن تحرك فديك، وإلا فدجاجة.

فُتُورك عن السعي في طلب الفضائل: دليلٌ على تأنيث العزم. يا من قد بلغ أربعين سَنَة، وكل عمره نومٌ وسَنَة. يا متعباً في جمع المال بدنه، ثم لا يدري لمن قد خزنه؟ أعلِمْ: هذه النفس الممتحنة، أنها بكسبها مرتهنة. ألا يعتبر المغرور بمن قد دفنه؟ كم رأى جباراً فارق مسكنه؟ ثم سكن مسكن مسكنة[2].

يا راحلين بالإقامة، يا هالكين بالسلامة: أين من أخذ صفو

(١) السر: النعمة.

(٢) مسكنة: المسكنة: المذلة.

ما أنتم في كدره؟ أما وعظكم في سيره بسيره؟ بلى. قد حمل بريدُ الإنذار أخبارهم، وأراكم تصفّحُ الآثارِ آثارَهم:

وحدثتك الليالي أن شِيمتَها
تفريقُ ما جمّعته فاسمع الخبرا

وكن على حذر منها فقد نصحت
وانظر إليها تر الآياتِ والعِبَرا

فهل رأيت جديداً لم يُعدْ خَلَقاً
وهل سمعت بصفو لم يعد كدرا

حبال الدنيا خيال تغُرُّ الغِرَّ. المتمسك بها يلعبُ بلعاب الشمس. الدنيا كالمرأة الفاجرة: لا تثبت مع زوج؛ فلذلك عنّت طُلاّبَها.

ميزت بين جمالها وفعالها
فإذا الملاحةُ بالقباحةِ لا تفي

حلفت لنا ألا تخونَ عهودَها
فكأنما حلفتْ لنا ألا تفي

محبة الدنيا محنة عيونها بابلية[1]، كم تفتح باب بلية؟ ولا حِيَلٌ كحيلةٍ من عينٍ كحيلة. كم أفردت من أرفدت؟ كم أخمدت من أخدمت؟ كم فلّلت من ألّفت؟ كم أفقرت من أرفقت؟ كم فارقت من رافقت؟ كم قطعت من أقطعت؟ فِعْلُها في التكدير كله هكذا. فإن آثرت الصفا: فما في الزهد أذى، وإن أردت القذى: فالْقَ ذا.

---

(١) (بابلية). منسوبة إلى بابل، وبها أنزل السحر على الملكين.

للمهيار:

تعجب من صبري على ألوانها ... في وصلها طوراً وفي هجرانها
ورهــاء مــن كلفهــا وثيقــة ... كلفهــا مــا ليس مــن أديانهــا
تسلـط البلـوى علـى عشاقهـا ... تسلـط الحنـث علـى أيمانهـا
الود في القلب ودعوى وُدّهـا ... لا يتعـدى طرفـي لسانهـا
فكلمـا أعطتك فـي محبـة ... زيـادة فاقطـع علـى نقصانهـا
وقفـت أسترجـع يـوم بيْنهـا ... قلباً شعاعـا طاح فـي إظعانهـا
ولم يكـن منـي إلا ضـلّة[1] ... نُشْدان شيء وهـو في ضمانها

يا من إذا أصبح: طلب بالمعاش الشهوات، وإذا أمسى: انقلب إلى فراش الغفلات. أين أنت من أقوام نصبوا الآخرة نصب أعينهم فنصبوا[2]؟ فوفر النصبُ نصيبهم: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

قال بعض السلف: لقيت رجلا في برية، فقلت: من أين؟ فقال: من عند قوم: ﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. قلت: وإلى أين؟ قال: إلى قوم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

بنفسي من غداة نأيتُ عنهم ... تركتُ القلبَ عندهم رهينا
أما لك أيها القلبُ اعتبـارٌ ... بما فعل الهوى بالعاشقينا

ملأوا مراكب القلوب متاعاً؛ لا ينفق إلا على الملك، فلما هبت

(١) ضَلّة: الضلة ضد الهدى.
(٢) فنصبوا: تعبوا.

رياح الدجى؛ دفعت المراكب.

لأبي إسحاق الغزي:

إذا الصَّبا سَحَبَتْ أذيالها سَحَراً

على العقيق وقرّت في رُبى إضَم[١]

وحرشت بين بان الجزع ظالمة

وشيحه وجرت في الضال والسلم[٢]

تنفّس الوجد وارتاح المشوقُ وعاش

الروحُ بالروح بعد الأخذ بالكَظَم[٣]

يا سُوقَ الأكل: أين أربابُ الصيام؟ يا فُرش النوم: أين حرّاس الظلام؟! درست والله المعالم، ووقعت الخيام. قف بنا على الأطلال نخصّها بالسلام.

للمهيار:

أين سكانك لا أين هم أحجازاً سلوكها أم شآما

قد وقفنا بعدهم في ربعهم فنهبناه استلاماً والتزاما

أترى أي طريقٍ سلكوا؟ أترى أي شِعْبٍ أخذوا؟

حمامةَ الواديين ما الخبرُ أعرسوا بالفرات أم عبروا

ما وصل القوم إلى المنزل: إلا بعد طول السّرى[٤]، ما نالوا حلاوة الراحة: إلا بعد مرارة التعب.

---

(١) إضم: جبل، والوادي الذي فيه المدينة النبوية، ما كان من أسفله يسمى إضما.

(٢) الضال: السدر البري، وشجر آخر، والسلْم: شجر.

(٣) الكظم: الحلق أو الفم أو مخرج النفس.

(٤) السرى: السير ليلاً.

لصردر:

لـو قرب الدرُّ على جُلاّبـه[١] ما لجج[٢] الغائص في طلابه
ولو أقـام لازمـاً أصدافـه لم تكن التيجـان فـي حسابـه
ما لـؤلـؤ البحـر ولا مرجانـه إلا وراء الهـول مـن عبابـه
من يعشق العلياء يلق عندهـا مـا لقي المحب من أحبابـه

ما حظي «الدينارُ» بنقش اسم الملك: حتى صَبَّرت سبيكتُه على التردد إلى النار، فنفت عنها كل كدر. ثم صبرت على تقطيعها دنانير. ثم صبرت على ضربها على السِّكة[٣]. فحينئذ ظهر عليها رقم النقش: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

كـم أحمـل في هـواك ذُلاً وَعَنَا[٤]
كم أصبر فيـك تحت سقـم وضنا
لا تطردنـي فليس لـى عنـك غنى
خُـذْ[٥] نفسـي إذا أردت الثمنـا

من طلب الأنفَس: هجر الألذّ، من اهتم بالجوهر: نسي العرض. «يا صفراء يا بيضاء غُرّي غَيري»[٦].

(١) جلابه: الذي يجلبونه.
(٢) لجج: غاص في اللجة.
(٣) السِّكة: حديدة منقوشة يضرب عليها الدراهم.
(٤) عنا: عناء.
(٥) خذ: في المطبوع: هذا، والتصحيح من المخطوط.
(٦) هذا القول لعلي بن أبي طالب ﷺ: رواه أحمد في فضائل الصحابة (٨٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٨١).

من أجل هواكم عشقت العشقا قلبي كَلِفٌ ودمعتي ما ترقا
في حبكم يهون ما قد ألقى ما يحصلَ بالنعيم من لا يشقى

يا معشر التائبين ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] مكابدة البادية تهون: عند ذكر «مِنى» المضحى؛ في بوادي[1] الجوع والمعشى - بوادي[2] السهر - إلى أن تلوح بوادي[3] القبول. إن ونت[4] في السير ركائبكم؛ فأقيموا حُداة العزم: تُدلج.

البين يا أيدي المطايا البينا
لا تتشكي[5] شوطك البطينا
يا حادييها من نميرِ عامرِ
خُذاً بها عن حاجرٍ يمينا
حلاً على وادي الغضى نسوعها[6]
وأرخيا برامة[7] الوضينا[8]
رِدَا بها ماء العذيب علَّهُ
يشفي ويطفي داءها الدفينا
واستخبرا بالجَزْع[9] أنفاس الصَّبا:
أين استقلّ الجيرةُ الغادونا

---

(١) بوادي: جمع بادية. وهي الصحراء. (٢) بوادي: أي في وادي.

(٣) بوادي: جمع بادية، وهي العلامة الظاهرة.

(٤) ونت: ضعفت وفترت.

(٥) تتشكي: في المخطوط: «تبشكي» والابتشاك: السوْق السريع.

(٦) النسوع: جمع نسع، وهو سير من جلد.

(٧) رامة: موضع. قيل بالعقيق، وقيل في طريق البصرة إلى مكة، وقيل إنه من ديار بني عامر.

(٨) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور وشعر، أو لا يكون إلا من جلد.

(٩) الجزع: موضع.

يا مطرودا عن صحبة الصالحين: امش في أعراض الركْب[١]، وناشد حادي القوم؛ لعله يتوقف لك.

يا حادي العيس أصخ لمُدْنفٍ — متيّـمٍ[٢] لـجّ بـه الغـرامُ
إذا وقفتَ في ثنيات اللـوى — ولاحـت الـديـارُ والخيـام
وافترّتِ الرياضُ عن أزهارها — عُقَيْب ما قـد رحـل الغمـام
وهبّت الريـح فهب شيحُهـا — وانتبه الحـوْذان والثُّمَـام[٣]
فقـف قليـلاً نتـزود نظـرة — تحيى بها الأرواح والسـلام

* * *

(١) أعراض الركب: جوانبه.
(٢) المُدْنف: المتيم: الذي أثقله المرض والعشق.
(٣) الشيحُ والحوْذان والثمام: نباتات معروفة.

الفصل السادس

اخواني: انتبهوا من رَقَدات الأغمار، وانتهبوا لحظاتِ الأعمار، وقاطعوا الكسل: فقد قطع الأعذار، واسمعوا زواجر الزمن: فما دَاجى الدُّجى[١]، ولقد بَهَر النهار[٢]. وخذوا بالحزم: فقد شفَى[٣] تلَفَ من رضي بشفا جُرُفٍ هار.

للشريف الرضي:

تفـوز بنـا المنون وتستبـدُّ ... ويأخذنـا الزمـانُ ولا يـردُّ
وأنظر ماضياً في إثـر مـاضٍ ... لقـد أيقنـتُ أن الأمـر جـدُّ
رويـداً بالفـرار مـن المنايـا ... فليس يفوتها الساري المُجَدُّ
فأين ملوكنـا الماضون قدْماً ... أعـدوا للنـوائب واستعـدوا
أعارهم الزمـانُ نعيـم عيشٍ ... فيا سُرعان ما استُلِبوا ورُدُّوا
همُ فَرَطٌ[٤] لنا في كـل يـوم ... نمدّهـم وإن لـم يستمـدوا

العمر يسيرٌ، وهو يسير. فأقصروا عن التقصير في القصير. أما دِرَاكُ دِرَاكِ قبل امتناع الفكاك؟ حذار حذار، قبل قدوم القرار. أما يحرّك سَوْق الرهب سُوق[٥] الهرب؟ أما يحث التعليم على الدأب الأدب؟ أليس الزمان يُعيِر ثم يُغيِر؟ وهب أنه وهب؛ أما

(١) داجى الدجى: دارى الظلام: من المداراة.

(٢) بهر النهار: ظهر ضوءُه وغلب.

(٣) شفى: لعلها «أشفى» بمعنى أشرف واقترب ودنا.

(٤) الفَرَط: الذي يتقدم القوم لإصلاح الحوض والدلاء.

(٥) سَوق: من السياقة، وسُوق: جمع ساق.

ضَرَبَ الدهرُ فاستحَال الضربُ[١]؟ مر العُمْر، والغَمْر[٢] مشغول عما ذهب بالذهب. كم فارق من رافق؟ فسلا من سلا[٣] بالسلب: أين الفهم؟ فقد المعنَّى المعنَى وعجَّ العجب.

أين الثمرة؟ أيتها [الشجرة؟ جاب الرغْبُ][٤] في الغرب، وحالت غمائِم الهوى بينكم وبين شمس الهدى، وغدا ما في يومكم ينسيكم غدا، حتى كأن الرحيل: «حديث خرافة»، أو كأنّ الزاد: يفضُل عن المسافة. أيها الشيوخ: آن الحصاد. أيها الكهول: قربُ الجِداد. أيها الشباب: كم جرَد الزرعَ جراد.

يا إبن[٥] آدم لا تغـرررك عافيـة — عليـك شاملـة فالعمـر معـدودُ

ما أنت إلا كزرع عنـد خُضرتـه — بكل شيء من الآفـات مقصود

فإن سلمت من الآفات أجمعها — فأنت عند كمال الأمر محصود

واعجباً. يتأمل الحيوانُ البهيمُ العواقب، وأنت لا ترى إلا الحاضر. ما تكاد تهتم بمؤنة الشتاء: حتى يقوى البرد، ولا بمؤنة الصيف: حتى يشتد الحر. ومن هذه صفته في أمور الدنيا ﴿**فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلا**﴾ [الإسراء: ٧٢].

هذا الطائر: إذا علم أن الأنثى قد حملت، أخذ ينقل العيدان.

---

(١) الضَرْبُ: المثْل.

(٢) الغمر: من لَم يجرّب الأمور.

(٣) فسلا من سلا: من السلو من السلوان، أي ما ينسي الحزن. ويحتمل أن: «فسلا» من السؤال.

(٤) ما بين المعكوفين: من المخطوط، وليس في المطبوع.

(٥) (يا إبن). لو قال: «أبنيّ» لكان أفضل؛ هروباً من ضرورة الشعر بقطع الهمزة. ثم وجدت في المخطوط: فيا ابن آدم» وبذلك يستقيم الوزن، وتنتفي الضرورة.

لبناء العش قبل الوضع. أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر؟ فهلا بعثت لك فراش تقوى ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

هذا اليربوع: لا يتخذ بيتاً إلا في موضع طيب مرتفع؛ ليسلم من سيل أو حافر. ثم لا يجعله إلا عند أكمة أو صخرة؛ لئلا يضلّ عنه إذا عاد إليه. ثم يجعل له أبواباً، ويرقق بعضها؛ فإذا أتي من باب: دفع برأسه ما رقّ وخرج.

اسمع. يا من قد ضيّق على نفسه الخناق في فعل المعاصي، فما أبقى لعذر موضعا. يا مقهوراً بغلبة النفس: صُلْ عليها بسوط العزم؛ فإنها إن علمتْ جِدّك: استأسرت لك. امنعها ملذوذ مباحها؛ ليقع الصلح على ترك الحرام. فإذا ضجّت لطلب المباح ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤].

الدنيا والشيطان: خارجيان، خارجان عليك، خارجان عنك، فالنفس عدو مباطن. ومن آداب الجهاد: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣] ليس من بارز بالمحاربة كَمَنْ كَمَنَ. ما دامت النفس حية تسعى: فهي حية تسعى. أقلُّ فعلٍ لها: تمزيق العمر بكف التبذير، كالخرقاء وجدت صوفاً.

اخْلُ بها في بيت الفكر ساعة، وانظر هل هي معك أو عليك؟ نادها بلسان التذكرة: يا نفس ذهب عرش «بلقيس»، وبلي جمال «شيرين»، وتمزق فرش «بوران»، وبقى نسك «رابعة». يا نفس صابري عطش الهجير: يحصل الصوم. وتحزمي تحزم الأجير: فإنما هو يوم.

جد في الجد قـد تـولى العمـر كم ذا التفريط قد تدانـى الأمـرُ
أقبـل فعسى يُقبـل مـنك العـذرُ كم تبني كم تنقضُ كم ذا الغدر

يا هذا. ذرات الوجودِ تستدعيكَ إلى المُوجِد، ورسائِلُ العتابِ على انقطاعك متصلة. فما هذا التوقف؟

كم كم ذا الهجر وافتراق الأحباب
هل بعد البعد للذي غـاب إيـاب
كم قد خطّت إليكـم الكفّ كتاب
من حُلو[1] العتب ثم ما جاء جواب

يا هذا. دبر دينك كما دبرت دنياك. لو علق بثوبك مسمار: رجعت إلى وراء، لتخلصه. هذا مسمارُ الإضرارِ قد تشبّث بقلبك؛ فلو عدت إلى الندم خطوتين تخلّصت.

هيهات. صبيُّ الغفلة كلما حُرِّك نام.

يا مجنون الهوى: إما مارستان[2] العزلة، وقيد الحمية، ومعالجة سلاسل التقوى، ومرافقة بشر ومعروف[3]، وإلا فمارستان جهنم، في أنكال العقوبة، وصحبة إبليس. لابد من حزم عزم، يؤخذ فيه بالجزم؛ لِينتصرَ من عائثِ الشره: سلطانُ الأزْم[4].

من رقّ لبكاء الطفل: لم يقدر على فطامه. كل يوم تحضر المجلس، يقف لك الشيطان على الباب، فإذا خرجت كما دخلت.

(١) من حلو: في المطبوع: «خلوا» والتصحيح من المخطوط.
(٢) مارستان: المارستان: المشفى أو المصحّة.
(٣) بشر ومعروف: أراد بشر الحافي، ومعروف الكرخي.
(٣) الأزْم: الإمساك عن الطعام، وأن لا تدخل طعاماً على طعام، أو الحمية.

قال: فَدَيْتُ من لا يُفلح. واأسفى كم تطلب الخضر؟ وما ترى إلا اليأس[١]. ويحك اعرف قد ما ضاع منك، وابك بكاء من يدري قيمة الفائِت، وصِحْ في السَّحر:

إن كان عهود وصلكم قد درست
فالـروح إلى سواكم ما أنِست
أغصـان هواكـم بقلبـي غُرِسـت
منـوا بلقائكـم وإلا يبسـت

لو استنشقتَ ريحَ الأسحار؛ لأفاق قلبك المخمور. لو تخايلت قرب الأحبابِ؛ أقمت المآتم على بُعدك.

مـا أشوقني إلى نسيم الرنْـدِ
يشفي سقمي إذا أتـى مـن نجـد
والشيـح فإنـه مثيـر الوجـد
شوقي شوقي له ووجدي وجدي

كان بعض السلف يقول في مناجاته: إلهي. إنما أبكي؛ لأنك لما قسمت الأقسام: جعلت التفريط حظي، فأنا أبكي على بختي.

قد كنت من قبل النوى مـمـا ألاقـي جزعـا
تركتمونـي بعدكـم أشرب دمعـي جرعـا

إخواني. تعالوا نُرِق دمع تأسّفنا، على قبح تخلفنا. ونبعث مع قاصدي الحبيب: رسالة محصر[٢]؛ لعلنا نفوز بأجر المصاب،

---

(١) اليأس: كذا في المطبوع. وفي المخطوط تحتمل أن تقرأ: (إلياس). ولعل الأقرب للصواب هو: «اليابس» أو «إلياس».

(٢) محصر: ممنوع من السفر.

إن لم يرجع المفقود.

يا أرباب القلوب الضائعة ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].

هــذي معالمهـم ومـا ... لي منذ بانَ القومُ عهـدُ

واهــاً لعيشٍ بالحمـى ... لو كان لـي يومـاً يُــردُّ

ويلــي أحظّــي كــلّه ... مِن حُبِّكم هجـرٌ وصـدُّ

* * *

الفصل السابع

إخواني: ذهبت الأيام، وكتبت الآثام، وإنما ينفع الملامُ: متيقظاً، والسلام.

وعظتنا بمرها الأيام ... وأرتنا مصيرَنا الأرجامُ[١]

ودعتنا المنونُ في سِنَةِ الغفلة ... هبوا واستيقظوا يا نيام

ليت شعري ما يتقي المرء والرامي ... له الموت والخطوب سهام

منهل واحد شرائعه شتى ... عليه للواردين ازدحام

نتحاماه ما استطعنا وتحدو ... نا إليه الشهورُ والأعوام

وإذا راعنا فقيد نسينا ... ه تناسي ما راعهن السوام

أوقوفاً على غرورٍ وقد زلّت ... بمن كان قبلنا الأقدام

ووراء المصير في هذه الأجدا ... ث دار يكون فيها المقام

يا من صحيفته بالذنوب: قد خفَت، وموازينه لكثرة العيوب: قد خفّت. يا مستوطنا والمزعجات قد ذفت[٢]، لا تغترر بأغصان المنى وإن أورقت ورفت، فكأنك بها قد صُوِّحت وجفّت. أما رأيت أكفاً عن مطالبها قد كُفّت؟ أما شاهدت عرائِس الأجساد إلى الألحاد زُفّت؟ أما عاينت سطور الأجسام في كتاب الأرجام[٣] قد أُدرجت ولُفّت؟ أما أبصرت قبور القوم في رقاع بقاع القاع قد صفت؟

(١) الأرجام: القبور. جمع رَجَم.

(٢) قد ذفت: أسرعت وأجهزت.

(٣) الأرجام: جمع رَجَم، وهو القبر.

مَنْ عَرْف تصرُّفَ الأيام؛ لم يغفل الاستعداد. إن قُرب المنية ليضحك من بُعد الأمنية. ما جرى عبدٌ في عَنانِ أمله؛ إلا عثر في الطريق بأجله.

إخواني: خلقنا نتقلب في ستة أسفار، إلى أن يستقر بنا المنزل: السفر الأول: سفر السلالة من الطين، والثاني: سفر النطفة من الصلب، والثالث: من البطون إلى الدنيا، والرابع: من الدنيا إلى القبور، والخامس: من القبور إلى العرض، والسادس: إلى منزل الإقامة. فقد قطعنا نصف الطريق، وما بعد أصعب.

إخواني: السنون مراحل، والشهور فراسخ، والأيام أميال، والأنفاس خطوات، والطاعات رؤوس أموال، والمعاصي قُطّاع الطريق، والربح الجنة، والخسران النار.

لهذا الخطب: شمر المتقون عن سُوق[1] الجد، في سوق المعاملة. كلما رأوا مراكب الحياة تُخطف في بحر العمر؛ شغلهم هول ما هم فيه عن التنزه في عجائب البحر. فما كان إلا قليل حتى قدموا من السفر، فاعتنقتهم الراحةُ في طريق التلقي، فدخلوا بلد الوصل، وقد حازوا ربح الدهر.

للمهيار:

زمُّوا المطايا[2] فدمعُ العينِ منطلقٌ
والقلب عانٍ[3] وراء الخوف مأسورُ

---

(١) سوق: جمع ساق.

(٢) المطايا: جمع مطية، وهي ما يركب من الدواب.

(٣) عان: أسير.

فلم يهبهب[١] بأولى الزجر سائقهم

حتى تشابك مهتوكٌ ومستور

فغلسوا من زرود وجه يومهم

وحطهم لظلال البان تهجير

وضمنوا الليل سلعاً إذ رأوه وقد

غنت على قُنَّتي[٢] سلْع العصافير

أملهم أقصر من فِتْر[٣]، منازلهم أقفر من قبر، نومهم أعز من الوفاء، السهر عندهم أحلى من رقدة الفجر، أخبارهم أرقُّ من نسيم السحَر، آماقهم بالدموع الدائمة دامية، والهموم على الجوانح جوانح، لأنفسهم أنفاسٌ منْ مثْلها يهيجُ البهيج، روض رياضتهم مطلول الخمائل، يُحَدِّثُ ريّا ريَّه عنهم، فالرائحة رائجة بالخير.

للمهيار:

يا سائِق الأظعان إن مع الصَّبا ... خبراً لو انّك للصَّبا تتوقفُ

هبّت بعارفة تسوق من الحمى ... أرجا بريّا أهله يتعرّف

خذ حديث القوم جملة، واقنع بالعنوان. كواكب هممهم - في بروج عزائمهم - سيارة: ليس فيها زُحَل. ناموا في الدجى على مهاد القلق، فلما جن الليل: جنّ الحذر، فاستيقظت عينٌ: ما تهنأت بطعم الرقاد.

كفى سائقاً بالشوق بين الأضالع ... لهيبُ اشتياقٍ ثم فيضُ مدامعِ

---

(١) يهبهب: الهبهبة الزجر والحث على السير.

(٢) قنتي: القنة: الجبل، والجبل الصغير.

(٣) فِتر: الفتر ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة.

فركبوا عِيسَ[١] القصد، وركبوا الجادة. فلما غنّت الحداة؛ رنّت الفلاة، فأعربت أبياتُ الشِّعر عن أبياتِ الشَّعر، فعصفت رياحُ الزفرات من قلبِ المشُوق؛ فانقلع شكرَ الدمع. فلو رأيتَ وَكْفَ شؤونهم[٢]؛ قلت: قد انقطع شريان الغمام. هذا: يعاتب نفسه على التقصير، وهذا. يتفكر في هول المصير، وهذا. يخاف من ناقد بصير. منازل تعبدهم متناوحة، وفي كل بيت منهم نائحة، تائبهم أبكى من متمم[٣]، ومُحبهم أتيم من مرقش[٤]، ومشتاقهم أقلق من قيس[٥]، وكلهم قد بات بليل النابغة[٦].

□ «التائب» يقول: أنا المقر على نفسي بالخيانة، أنا الشاهد عليها بالجناية.

اعـف عنـي وأقلني عثراتـي ... يـا عتـادي لملمـات الزمـنْ
لا تعاقبنـي فقـد عاقبنـي ... ندم أقلـق روحـي فـي البـدن
لا تطيّـر وسنـاً عـن مقلتـي ... أنت أهديت لها حلو الوسن[٧]
يـا حبيبي بلسـان العربـي ... ولسـان الفارسي يا دوست من

□ و«المتعبد» يبكي على الفتور؛ بكاء الثكلى بين القبور، ويندب زمان الوصال، ويتأسف على تغيّر الحال.

---

(١) العيس: الإبل.
(٢) وكف شؤونهم: قطْر مجاري الدمع.
(٣) متمم: هو متمم بن نويرة، وكان كثير البكاء على أخيه مالك.
(٤) مرقش: شاعر معروف.
(٥) قيس: هو ابن الملوح العامري.
(٦) النابغة: الشاعر المعروف.
(٧) الوسن: النعاس.

قد كان لي مشْربٌ يصفو برؤيتكم

فكدرته يد الأيام حين صفا

◘ و«الخائف» ينادي: ليت شعري. ما الذي أسقطني من عينك؟.

أقلت: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

لأيـةَ علَّةٍ ولأيِّ حالِ صرمت حبال وصلك عن حبالي

وعوّضتَ البعَادَ من التداني ومرّ الهجر من حُلْوِ الوصال

فإن أكُ قد جنيتُ عليكَ ذنباً ولم أشعر بقولٍ أو فِعال

فعاقبني عليه بأي شيء أردتَ سوى الصدود فما أبالي

◘ و«صريع المحبة» يستغيث وينادي، حتى أقلق الحاضر والبادي:

تحمّل أصحابي ولم يجدو وجدي

وللناس أشجانٌ ولي شجنٌ وحدي

أحبكم ما دمت حيا وإن أمت

فوا كبدي من ذا يحبكم بعدي

◘ و «قتيل الشوق» يتعلق بما يرى، ويتشبث بما يسمع. يرتاح إلى السهر؛ ومقصوده غيره. وإلى الشجر؛ ومغنيه طيره.

للمهيار:

أيا بانة الغور عطفا سقيت[1]

وإن كنت أكني وأعني سواكِ

أحبك من أجل من تعلمين

لو انّي أراه كما قد أراك

(١) في المطبوع: «شفيت» والتصحيح من المخطوط.

ذكرت ويا لهفي هل نسيت
لبالي أسمرها في ذراك
كفى الوجد أني إذا ما استرحت
إلى اسمك عميته بالأراك
إذا الصدُّ أرضاكِ فهو الوصالُ
فأنّى فعلتِ فأهلا بذاك

* * *

الفصل الثامن

الشهوات تغرُّ وتعرّ[١]، وتُمِرُّ عيشَ العواقبِ وتمرُّ[٢]، وتبكي عين الندم أضعاف ما تسر. ألا يَقظٌ؟ ألا حِذرٌ؟ ألا حُرٌّ؟

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا
فجائعه تبقى ولذاتُه تفنى
إذا أمكنت فيه مسرّةٌ ساعةَ
تولتْ كمرِّ الطرف واستخلفتْ حُزْناً
إلى تبعاتٍ في المعاد وموقف
نودُّ لديه أننا لم نكن كُنّا
حصلنا على هم وإثمٍ وحسرة
وفاتَ الذي كنا نَلَذُّ به عنا
كأن الذي كنا نُسرُّ بكونه
إذا حققته النفسُ لفظٌ بلا معنى

إن المواعظ قد أفصحت وأعربت؛ غير أن الزخارف للواحظ[٣] قد أدهشت وأعجبت. وإنما تُقطع مراحلُ الجد بالعزم والصبر، ونظر اللبيب المجدِّ إلى آخر الأمر.

أو ليس الصحيح: بِعُرْضِ عَارِضِ الأسقامَ والأوصاب؟ أو ما

(١) تغرُّ وتعرّ: الكلمة الأولى: بالغين المعجمة من الغرور. والثانية بالمهملة من العر وهي الإصابة بمكروه.

(٢) تُمِرُّ ، وتمرُّ. الأولى من المرارة: والثانية: من المرور.

(٣) اللواحظ: العيون.

المسرور بالعَرَضِ كالغرضِ لسهامِ المصاب؟ أو ما يكفي من الزواجر: كفُّ كفٍّ الأحداثِ مبسوطَ الأمل؟ أما يشفي من البيان: عيانُ الأعيان في الأجداثِ خالين بالعمل؟ أين من فاق قمم الشرف؛ فعزل وولى؟ أما ذاق ألم المنصرف؟ فنزل وولى؟ أين من نشأ في عُلى ونُهى ونَدى؟ سُلب ولم يشأ: حلى ولهى وجدى. أين المسرور بشهوات نفسه: حَزِن؟ أين المغرور بلذات نفسه: غُبِن؟

فيـا آملا أن يخلـد الدهـر كله
سل الدهر عن عادٍ وعن أختها إرم
إذ ما رأيت الشيء يبليه عمره
ويفنيه أن يبقى ففي دائـه عقـم
يروح ويغدو وهو من موت غبطة
وموت فناء بين فكين من جلم[1]
تحد لنا أيدي الزمان شفاره
ونرتع في أكلائـه رتعـة النعـم
نُراع إذا ما الموتُ صاح فنرعوي
وإن لم يصح يوما براتعنا خضم
ألا إن بالأبصار عن عِبْرة عمى
ألا إن بالأسماع عن عظةٍ صمم
سيُكشفُ عن قلب الغبيِّ غطاؤه
إذا حتفُه يوما على صدره جثم

(١) الجلم: المقصّ الذي يُجزّ به.

يا معتقداً دار القُلْعة[١] قَلْعة: أما تراها تميدُ بسكانها؟ والشاهد ما يشاهد عواطف الحوادث: تنسف جبال المقتنى، ومعاول الزمان: تهدم مشيد المبتنى. وكلما ارتفع كثيب أمل، وهال[٢]؛ انهال. يا مهلكا نفسه التي لا قيمة لها، لأجل دنيا لا وقع[٣] لها: إلى كم هذا الحرص وما تنال غير المقدور؟ أما رأيت مرزوقا لا يتعب؟ ومتعبا لا يرزق؟ هذا «موسى» في تقلقل: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وما أُري، و«محمد» يُزعجُ عن منامه، وما طلب.

«قضاها لغيري وابتلاني بحبها»

واعجبا يَطلب موسى التجلي، فيمنع ويرزق الجبل.

أراكَ الحمى قل لي: بأي وسيلةٍ — توسّلتَ حتى قبّلتك ثغورها

لقد أنضى الحرص مطيةَ عمرك، وما وصلت بلد الأمل. لو قنعت الذبابة بطرف ظرف العسل؛ ما تلفت. لو عرفت قيمة نفسها رخصت أو غلت؛ ما أوغلت[٤]. شقائِق اللذة: تروق بصر الحس، وسن العواقب: تضحك من المغرور.

يا دنيَّ الهمة. أعجبتك خضرة على مزبلة، فكيف لو رأيت فردوس الملك؟. قنعت بخسائِس الحشائش؛ والرياض معشبة بين يديك. تقدم بالرياضة خطوات، وقد صلت.

---

(١) القُلْعة. قَلْعة: الأولى: بضم القاف التي يقلع عنها ويتحول. والثانية: بفتحها الحصن.

(٢) هال: صار هائلا.

(٣) وقع: دفع. خ. ل.

(٤) أوغلت: تغلغلت.

الغـور يـا ركابنـا الغــور إذن　　　إن صدق الرائـد في هذا الخبر
وإن حننت للحمـى وروضـه　　　فبالغَضَا ماءٌ وروضـاتٌ أُخَـر

الهمم تتفاوت في جميع الحيوانات؛ العنكبوت: من حين يولد ينسج لنفسه بيتا، ولا يقبل منّة الأم. والحية: تطلب ما حفره غيرها؛ إذ طبعها الظلم. الغراب: يتبع الجيف. والأسد: لا يأكل البائت.

الكلب: ينضنض[1] لترمى له لقمة. والفيل: يتملّق حتى يأكل. للصيد كلاب، وللمدبغة كلاب.

أين الأنفة؟ النحل يغضب؛ فيترضى من لجاج. والخنفساء: تُطرد فتعود. الاختبار: يظهر جواهر الرجال.

بعثت بلقيس إلى سليمان هدية؛ لتسبر بها قدر همته. فإن رأتها قاصرة؛ علمت أنها لا تصلح للمعاشرة. وإن رأتها عالية، تطلب ما هو أعلى؛ تيقنت أنه يصلح.

يا هذا. الدنيا هدية بلقيس. فهل تقبلها؟ أو تطلب ما هو أنفس؟ ويحك: أحسن ما في الدنيا قبيح؛ لأنه يشغل عما هو أحسن منه.

أترى لو ابتليناك بترك عظيم: كيف كنت تفعل؟ إنما رددناك عن دنس، ومنعناك من كدر، ثم ما علمت أن الثواب على قدر المشقة. ويحك إن الأرباح الكثيرة، في الأسفار البعيدة.

الصبر والهوى: ضرتان. فاختر أحسن الضرتين؛ فما يمكن الجمع. من دام به الخُمار[2] في ديار الهوى؛ لم يفتح عينيه إلا

(١) ينضنض: يستقطر المعروف.

(٢) الخُمار: أذى الخمر وما اختلط من سكرها.

في منازل البلى. من غرق بنهر المعلى؛ طفا تحت البلد.

واعجبا. أعدم نظر العقل بمرة؟ أو بعينه رمد؟ لو قيل لك: ارم ثوبك على هَدَفِ مَرْمَى؛ لم تفعل إشفاقا عليه. وهذا دينك في عُرْضِ عَرَضِك[1]، قد تمزق من نبل الهوى. لو قيل: زد في النفقة؛ خفت على المال. وقد حِفْت[2] في إنفاق العمر: على معشوق البطالة. رميت «يوسف» قلبك في جُبِّ الهوى؛ وجئت على قميص الأمانة بدم كذب. ويحك. كلما أوغلت في الهوى. زاد التعرقل. ويحك. ما يساوي النصاب المسروق قطع اليد.

مجلسنا بحرٌ، والفكر غواصٌ يستخرج الدرَّ. ومراكب القلوب تسير إلى بلد الوصل، وأنت تقف على الساحل ﴿**وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيه**﴾ [النحل: ١٤] إن قعر جهنم لبعيد؛ ولكن همتك أسفل منه. خَنَقَنا دخانُ التخويف؛ افتحوا للرواح[3]:

إلى كم عتـاب يسـدُّ الفضـا سلام عليكم مضى ما مضى

★ ★ ★

(١) المعنى أنه يخاطر بدينه ويقدمه لأجل الأغراض الدنيوية.

(٢) حفت: جُرت.

(٣) للرواح: الرواح: الراحة.

الفصل التاسع

الزمان أنصح المؤدبين، وأفصح المؤذنين. فانتبهوا بإيقاظه، واعتبروا بألفاظه

فكم هذا التصامم والتعامي
وكم هذا التغافل والتواني
لو انَّا قد فهمنا عن خراب
الديار مقالها لم يبن بان
ويجني العيشُ كلَّ أذى ويُهوى
فيا للعيش يُعشقُ وهو جان
فلله الأُلَى درجوا جميعاً
وزادهم النجاء من الهوان
وما علقوا من الدنيا بشيء
سوى بُلَغٍ بأطراف البنان
ولما أن رضوا شعث النواصي
حُلىً وَهَبُوا التصنّع للغواني

لله در العارفين بزمانهم، إذ باعوا ما شانهم بإصلاح شأنهم. ما أقل ما تعبوا، وما أيسر ما نصبوا، ما زالوا حتى نالوا ما طلبوا. شمّروا عن سُوقِ الجد في سوق العزائم، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم، وجادوا مخلصين؛ فربحوا: إذ خسر «حاتم»[1]. وصحبوا منزل النجاة؛ وأنت في اللهو نائِم. متى تسلك طريقهم

(١) (حاتم): هو الطائي المشهور بالكرم.

يا ذا المآثم؟ متى تندب الذنوب ندب المآتم؟ يا رجالا ما بانت رجوليتهم إلا بالعمائِم. يا إخوان الأمل. قد بقي القليل وتفنى المواسم. أين أنت من القوم؟ ما قاعدٌ كقائم.

للمهيار:

صَحبَ الله راكبين إلى العز   طريقا من المخافة وعرا

شربوا الموت في الكريهة حلواً   خوف أن يشربوا من الضيم مرا

أنف القومُ من مزاحمةِ الخلقِ: في سوقِ الهوى. وقوي كرب شوقهم؛ فلم يحتملوا حصر الدنيا، فخرجوا إلى فضاء العز في صحراء التقوى. وضربوا مخيّم الجدّ في ساحة الهدى. وتخيروا شواطئ أنهار الصدق؛ فشرعوا فيها مشارع البكا. وانفردوا بقلقهم؛ فساعدهم رِيمُ[1] الفلا. وترنمت بلابل بلبالهم في ظلام الدُّجى. فلو رأيت حزينهم لطلبِ الرضا، على جمر الغضا. فيا محبوساً عنهم في سجن الحرص والمنى. إن خرجت يوماً من سجنك؛ لترويح شجنك من غم البلوى؛ عرِّج بذاك الوادي.

للشريف الرضي:

عارضا بي ركب الحجاز أسائله

متى عهده بأيام سلْعِ

واستملاّ[2] حديث من سكن الخيف

ولا تكتباه إلا بدمعي

(١) (ريم): الريم الظبي الخالص البياض.

(٢) استملا: استمليا.

فاتني أن أرى الديار بطرفي
فلعلي أعي[1] الديار بسمعي
كلما سُلّ من فؤادي سهمٌ
عاد سهم لهم مضيض الوقع
من معيد أيام جمْع على ما
كان منها وأين أيام جمْع
طالباً بالعراق ينشد هيهات
زماناً أضلّه بالجزْع[2]

يا مُعوَّقا عنهم بكثرة الحوادث، خلص الماء من ضيق الأنابيب، وانظر كيف يسرع؟ إلى متى تألف عُشَّ الصِّبا؟ سافر مع الرجال. لو عبرت بطن النجف[3]؛ لاستنشقت ريح الحجاز. حدِّث نفسك بأرض نجد؛ يهن عليها عبور العقبة. ذكِّرها قرب «مِنَى». وقد درجت المدْرج[4].

للمهيار:

من بمنى وأين جيران[5] منى
كانت ثلاثا لا تكون أربعا
سلبتموني كبداً صحيحة
أمس فردُّوها عليَّ قِطَعا

(١) أعي: أرى. خ. ل.
(٢) الجزْع: قرية عن يمين الطائف، وأخرى عن شمالها.
(٣) النجف: البلد المعروف بالعراق.
(٤) درجت المدرج: مشيت المسلك.
(٥) جيران: أيام. خ. ل.

عدمت صبري فجزعت بعدكم

ثـم ذهلـت فعدمت الجزعـا

ارتجعـوا لــي ليــلة بحاجــر

إن تـم فـي الفائِت أن يرتجعـا

وغفـلة سرقتهــا مــن زمنــي

بلعلع[1] سقـى الغمـامُ لعلعــا

يا صبيان التوبة: هلالكم خفي، فدوموا على المعاملة يصر بدراً. لابد من ضيف ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: ١٥٥] الطبعُ يحنُّ إلى المألوف، والولد يطلب ما يشتهي، والزوجة تروم سعة النفقة، والورع يختم كيس التصرف. ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١١].

أيدي صبيان التوبة في أفواههم بعد طعم الرضا، بيْنا ليلُ زللهم قد عسعس؛ إذ صبح يوم توبتهم قد تنفس. فكلما احترقت قلوبهم بالخوف؛ تعرضوا بنسمات الرجاء للعفو.

لا عـدا الـروح من تهامـة أنفـا سـاً إذا استروحت تمنيتُ نجداً

ياصبيان التوبة: طبيبكم متلطف؛ تارة بالتشويق، وتارة بالتخويف. هذه الطير: إذا انشق بيضها عن الفراخ؛ علم الأب والأم: أن حوصلة الفرخ لا تحتمل الغذاء؛ فينفخان الريح في حلقه؛ لتتسع الحوصلة. ثم يعلمان: أن الحوصلة تفتقر إلى دبغ وتقوية؛ فيأكلان من

(١) لعلع: موضع.

صاروج الحيطان[1] «وهو شيء فيه ملوحة كالسبخ» ثم يُزِقّانه إياه. فإذا اشتدت الحوصلة: زقياه الحب. فإذا علما أنه قد أطاق اللقط: منعاه بعض المنع؛ فإذا جاع لقط. فإذا رأياه قد استقل باللقط: ضرباه بالأجنحة إذا سألهما الزق.

فتأملوا: تدبيري لكم في المواعظ. الطفل لا يصبر عن الرضاع ساعة، فإذا صار رجلاً: صبر عن الطعام يومين. إنما تقع الكلفة بقدر الطاقة. لما كان الطائِر يحتاج أن يزق فرخه؛ لم يحمل عليه إلا تدبير بيضتين. ولما كانت الدجاجة تحضن ولا تزق؛ كان بيضها أكثر. ولما كانت الضبة لا تحضن ولا تزق؛ صارت تبيض ستين بيضة، وتحفر لهن، وتترك التراب عليهن. وبعد أيام تنبشهن فيخرجن. كلما قوي الحاملُ زيد في الحِمْل.

في أول مقام يقول: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفي أوسطه: «**بعيني ما يتحمل المتحملون**» وفي المقام الأعلى: «**كذب من ادعى محبتي؛ فإذا جنه الليل نام عني**». كان أبو سليمان الداراني يبكي حتى نبت العشب من دمعه. وكان عطاء السلمي يبكي حتى لا يقدر أن يبكي.

يا منفدا ماء الجفون ... وكنت أنفقه عليه
إن لم تكن عيني فأنت ... أعزُّ من نظرتُ إليه

كانوا إذا ضيّق الخوفُ عليهم الخناق؛ نفسوه بالرجاء. فكان

---

(١) صاروج الحيطان: هو النورة وأخلاطها، أو هو ما يعرف بالجير الحيّ الذي يستخدم في تجصيص الحيطان.

أبو سليمان يقول: إلهي إن طالبتني بذنوبي: طالبتك بكرمك، وإن أسكنتني النار بين أعدائك: لأخبرنهم أني كنت أحبك. وكان يحيى بن معاذ يقول: إن قال لي يوم القيامة: عبدي ما غرك بي؟ قلت: إلهي برّك بي.

تجاسرتُ فكاشفتُكَ ... لمّا غَلَبَ الصبرُ

فإن عنفني الناسُ ... ففي وجهك لي عذر

لأن البدر محتاجٌ ... إلى وجهك يا بدر

* * *

الفصل العاشر

إخواني: الدنيا غرارة غدارة، خداعة مكارة، تُظن مقيمة وهي سيارة، ومصالحة وقد شنت الغارة.

نحِّ نفساً عن القبيح وصُنْها
وتوقَّ الدنيا ولا تأمنها

لا تثق بالدنُو فما أبقت الدنيا
لحي وديعة لم تخنها

إنما جئتها لتستقبل الموت
وأُسكنتها لتخرج عنها

ستُخلي الدنيا ومالك إلا
ما تبلغت أو تزودت منها

وسيبقى الحديثُ بعدك فانظر
خير أحدوثة تكون فكنها

كأنك بالموت وقد خطف، ثم عاد إلى الباقي وعطف. انتبه لنفسك يا ابن النُّطَف. فقد حاذى الرامي الهدف، إلى كم تسير في سَرَف؟ ليت هذا العزم وقف. تؤخر الصلاة، ثم تسبقها كالبرق إذا خطف. أتجمع سوء كيلة مع حشف؟ الجسد أتى، والقلبُ انصرف. يا من باع الدر واشترى الخزف. ابسط بساط الحزن على رماد الأسف. عليك حافظ وضابط. ليس بناسٍ ولا غالط، يكتب الألفاظ السواقط. وأنت في ليل الظلام خابط. يا من شاب إلى كم تغالط؟ أنت ما مضى ويحكي العارض

ما للعيون قد أخلفت أنواؤها؟ وكثر نظرها إلى الحرام؛ فقل بكاؤها. ما للقلوب المريضة قد عز شفاؤها؟ سأكتب ضمان الآمال. وأين وفاؤها؟

آه. لأمراض نفوسٍ قد يئس طبيبها، ولأصوات مواعظٍ قد خرس مجيبها. هبت والله دبور الذنوب؛ فتركت الأجسامَ بلا قلوب. أين الفهم والتأمل؟ إن لم يكن جميلٌ: فليكن تجمُّل.

إخواني: قد دنا الترحّل، لابد وشيكا من التحوّل. رقيبكم يا غافلين: لا يغفل. أتذكرون الذنوب بلا تململ؟ يا من يَعِدُ بالتوبة كم تمطل؟ يا ملازما للهوى كم تعدل؟ المعاصي سم، والقليل منه يقتل. يا هذا الدنيا وراءك، والأخرى أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة. إنما يعجب بالدنيا من لا فهم له؛ كما أن أضغاث الأحلام تسرُّ النائم. لُعَبُ الخيالِ يحسبها الطفلُ حقيقة؛ فأما العقلُ فيعلمُ ما وراء الستر.

رأيت خيال الظل أكبر عِبْرةٍ
لمن هو في علم الحقيقة راق
شخوصٌ وأشباحٌ تمرُّ وتنقضي
جميعاً وتفنى والمحرِّك باق

كم أتلفت الدنيا بيَدِ حبها في بيدٍ[1] طلبها. كم ساع سعى إليها سعي الرخ[2]؛ ردته منكوسا ردّ الفرازين[3].

---

(١) بيد: البيد: جمع بادية.

(٢) الرخ: طائر كبير قوي الانقضاض. وقطعة من قطع الشطرنج.

(٣) الفرازين: جمع فِرزان، وفرزان الشطرنج معرّب فَرزين. وهو الوزير الذي يسير في كل اتجاه.

الدنيا: نهر طالوت، والفضائل تنادي: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] فإذا قامت الفاقة - مقام ابن أم مكتوم[١] - أبيحت لها رخصة: ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. فأما أهل الغفلة: فارتووا، فلما قامت حرب الهوى؛ ثبطتهم البطنة، فنادوا بألسنة العجز: ﴿لا طَاقَةَ لَنَا﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وأقبل مضمر الجدّ؛ فحاز قصب السبق.

كل الشر في الشره، واللذة خناق من عسل، من تبصّر تصبّر، الحزم مطية النجح، الطمع مركب التلف، التواني أبو الفقر، البطالة أم الخسران، التفريط أخو الندم، الكسل ابن عم الحسرة، ما يحصل برد العيش إلا بحر التعب، ما العز إلا تحت ثوب الكد، على قدر الاجتهاد تعلو الرتب.

لما صابر النضو[٢] مشقة السير، معرضا عن أعراض المطاعم؛ زين بالجلال يوم العيد. ولما تكاسلت البخاتي[٣]، ميلا إلى كثرة العلف؛ وقع ببختها الذبح.

سابق الطير مكرم، والديك الحاذق بالصياح مطلق.

إذا صبّ في القنديل ماء، ثم صب عليه زيت؛ صعد الزيت فوق الماء. فيقول الماء: أنا ربيت شجرتك، فأين الأدب؟ لم ترتفع علي؟ فيقول الزيت: أنت في رضراض الأنهار تجري على

---

(١) مقام ابن أم مكتوم: يعني مقام الأعمى المضطر، فله الأخذ بالرخصة.

(٢) النضو: المضمر المهزول من الإبل ونحوها.

(٣) البخاتي: نوع من الإبل الخراسانية.

طريق السلامة، وأنا صبرت على العصر، وطحن الرحا. وبالصبر يرتفع القدر. فيقول الماء: إلا أني أنا الأصل. فيقول الزيت: استر عيْبك. فإنك لو قارنت المصباح انطفى.

يا بعيداً عن المجاهدة: قد اقتسم الرعيلُ الأولُ النفلَ. أما ترى أسلاب الهوى: كيف يبيعها أربابها في سوق الافتخار بالنض[(١)]؟ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

يا من قد انحرف عن جادتهم: كم أحركك بسوط الشوق، في شوط السوق. سهم عزمك بلا ريش؛ إنما يقع وقت الرمي بين يديك. يا مخنث العزيمة. أقل ما أبقى في الرقعة، البيذق، فلما نهض تفرزن[(٢)].

رأى بعض الحكماء، برذونا يُسقى عليه، فقال: لو هملج هذا لرُكب. متى همّت أقدامُ العزِّ بالسلوك: اندفع من بين يديها ما يسد القواطع. ومتى هاب الغائِض موج البحر: لم يطمح له في نيل الدر. يا من عُقِد عزمُه بأنشوطة[(٣)]، والهوى يمدها للحل. إن عرفت من عزيمتك الثبوت في صف المجاهدة؛ وإلا فاحذر هتكة الهزيمة.

كاد ذو البجادين[(٤)] يتيماً. فلما عمَّه الفقر كفله عمُّه، فنازعته

---

(١) بالنض: النضّ: القليل.

(٢) تفزرن: يعني إذا انفرد البيذق في رقعة الشطرنج وارتقى يكون فرزانا.

(٣) الأنشوطة: عقدة سهلة الحلّ.

(٤) ذو البجادين: هو عبدالله بن عبد نهم الصحابي ﵁. وانظر: حلية الأولياء: (١/ ١٢١)، وشعب الإيمان للبيهقي: (٥٨١).

النفس إلى الإسلام، فهمّ بالنهوض، فإذا بقية المرض مانعة؛ فقعد على انتظار العم، فانتهى المرض، فصارت الهمة عزيمة، فنفذ الصبر، فناداه صدق الوجد.

للمهيار:

إلى كم حبسها تشكو المضيقا أثِرْها ربما وجدْت طريقا

أجِلْها تطلب القصوى ودعها سُدى يرمي الغروب بها الشروقا

أتعقلها وتقنع بالهوْينا تكون إذن بذلّتها خليقا

ولم يشفق على حسبٍ غلامٌ يكون على ركائبه شفيقا

فقال: يا عم. كيف أنتظر سلامتك بإسلامك؟ وما أرى زَمِنَ[1] زمنك ينشط. فقال: والله لئن أسلمت؛ لأنتزعن كل ما أعطيتك. فصاح لسان الشوق: نظرة من محمد: أحب إليّ من الدنيا وما فيها. هذا مذهب المحبين إجماعاً من غير خلاف.

ولو قيل للمجنون: ليلى ووصلها تريد أم الدنيا وما في خباياها

لقال: ترابٌ من غبارِ نعالها ألذُّ إلى نفسي وأشفى لبلواها

فلما تجرد لطلب الثواب، جرده العم من الثياب، فناولته الأم بجاداً[2]، فقطعه لسفر الوصل، فائتزر وارتدى، وغدا في هيئة: «رب أشعث أغبر»[3].

سنة الأحباب واحدة فإذا أحببت فاستنن

---

(١) زَمِنَ: الزمن: المريض المقعد من عاهة.

(٢) بجاداً: ككتاب: كساء مخطط.

(٣) مسلم، في البر والصلة: (٢٦٢٢).

فنادى صائح الجهاد في جيش العسرة، فتبع ساقة الأحباب على ساق. والمحب لا يرى طول الطريق، إنما يتلمح المقصد.

ألا أبلغ الله الحمى من يريده وبلّغ أكناف الحمى من يريدها

فحمل جلدة فوق جلده[1]، إلى أن نزل منزل التلف، فنزل الرسول في حفرته، يمهد له اللحد؛ لمأمور: «إذا رأيت لي طالباً، فكن له خادماً» وجعل يقول: «**اللهم، إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه**» فصاح ابن مسعود: ليتني كنت صاحب الحفرة[2].

كذاك الفخر يا همم الرجال تعالي فانظري كيف التعالي

★ ★ ★

---

(١) كذا في المطبوع. وفي المخطوط: «فحمل جلده فوق الجلد».

(٢) رواه البزار: (٢٧٣٦). قال الهيثمي في المجمع: (٩/ ٣٧٠): «رواه البزار عن شيخه: عباد بن أحمد العزرمي، وهو متروك».

الفصل الحادي عشر

أيتها النفس: أقلعي عن الجناح[١]، وتوبي. وراجعي إلى الصلاح، وأوبي. أيتها النفس، قد شان شاني عيوبي. أيتها الجاهلة تكفيني ذنوبي.

يا ويح نفسي من تتابع حوْبتي[٢]
لو قد دعاني للحساب حسيبي
فاستيقظي يا نفس ويحك واحذري
حـذراً يهيّـج عبرتـي ونحيبـي
واستدركي ما فات منك وسابقي
سطوات مـوت للنفـوس طلُـوب
وابكي بكـاء المستغيث وأعولـي
إعـوال عـانٍ فـي الوثـاق غريـب
هـذا الشبـاب قـد اعتللت بلهـوه
أفليـس ذا يا نفـس حيـن مشيبـي
هـذا النهـار يكـرُّ ويحـك دائبـاً
يجري بصرف حوادثٍ وخطـوب
هـذا رقيـبٌ ليـس عنـي غافـلا
يُحصي علـي ولـو غفلـتُ ذنوبـي
أو ليـس مـن جهـل بأنـي نائـم
نـوم السفيـه ومـا ينـام رقيبي

---

(١) الجناح: الإثم.

(٢) حوبتي: الحوْبة: الإثم.

آه لنفسي: تركت يقينها، وتبعت آمالها. مالها جهلت ما عليها وما لها؟ أما ضربت العبرُ بأخذ أمثالها أمثالَها؟ من لها إذا نازلها الموتُ فغالها؟ وأخذ منها ما أنالها[١]؟ وقد أنى لها. ليتها تفقدت أمورها، أو شهدت أحوالها، تحضر المجلس بنية، فإذا قامت بدا لها، ويحها لو ترى أجزاء مما لها لهالها[٢].

لابن المعتز:

وكم دهي المــرء مـن نفسـه ... فــلا تـؤكلـن بأنيـابهـا

وإن مكّنت فرصة في العـدو ... فـلا تبـد فعلـك إلا بهـا

قال أبو يزيد[٣]: رأيت الحق في المنام، فقلت: يارب كيف أجدك؟ قال. فارق نفسك وتعال.

جاء رجل إلى أبي علي الدقاق، فقال: قد قطعت إليك مسافة. فقال: ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة؛ وقد حصل لك مقصودك.

لو عرفت منك نفسك التحقيق؛ لسارت معك في أصعب مضيق. لكنها أَلِفتْ التفْاتك، فلما طلبت قهرها: فاتك. هلا شددت الحيازم[٤]، وقمت قيام حازم، وفعلت فعل عازم، وقطعت على أمرٍ جازم. تقصد الخير، ولكن ما تلازم.

ويعـرف أخـلاَقَ الجبـانِ جـوادُهُ

فيجهـده كــراً ويرهبــه ذعـــرا

---

(١) أنالها: أعطاها. (٢) لهالها: من الهول.

(٣) أبو يزيد: هو البسطامي.

(٤) الحيازم: جمع حيزوم، الصدر، أو الصدر وما حوله.

ومن يَحْلُ تِطْلابُ المعالي بصدره
يجد حُلْو ما يُعطاه من غيرها مُرّا

حريم العزم الصادق حرام على المتردد. متى تحزّم العزم هَزَم. لو رأيت صاحب العزم وقد سرى حين رقدت السراحين[١]، بهمة تحلّ فوق الفرقد[٢]: فلنفسه نفاسة، ولأنفه أنفة. سهم الشهم مُفُوَّق[٣] فوق عرضة الغرض.

كان الفضيل[٤] ميتاً بالذنوب، وابن أدهم[٥] مقتولاً بالكبر، والسبتي[٦] هالكاً بالملك، والجنيد من جيد الجند. فنُفخ في صور المواعظ؛ فدبّت أرواحُ الهدى في موتى الهوى، فانشقّت عنهم قبورُ الغفلة، وصاح إسرافيل الاعتبار: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣].

إنما سمع الفضيل آية؛ فذلت نفسه لها واستكانت. وهي: ﴿كانت﴾[٧] إنما زُجر «ابن ادهم» بكلمة، كَلَمَتْ قلبَه فانْقلب. هاتِف عاتبه ولام، أخرجه من بلْخ إلى الشام.

---

(١) السراحين: جمع سرحان. وهو الذئب، والأسد.
(٢) الفرقد: النجم الذي يُهتدى به، وهما فرقدان
(٣) مفوق: أي له فُوق، وهو موضع الوتر من السهم.
(٤) الفضيل: ابن عياض.
(٥) ابن أدهم: إبراهيم.
(٦) السبتي هو أحمد ابن الخليفة هارون الرشيد. ولقب بذلك لأنه كان ينقطع للعبادة يوم السبت. وانظر «نزهة الألباب في الألقاب»: (٢/ ٢٩٦)، و «صفة الصفوة»: (٢/ ٣٠٩).
(٧) لعلها: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢]. أو: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ..﴾ [الأنبياء: ١١].

كانت عقدة قلوبهم بأنشوطة[١]، ومسد[٢] قلبك كله عقد.

لاحت للقوم جادة السلوك فـ ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] هيهات منك غُبار ذاك الموكب. ركبوا سفين العزم، فهبّت لهم رياحُ العوْن، فقطعوا بالعلم لجج الجهل، فوصلوا إلى إقليم أرض الفهم، فأُرسلوا على ساحل بلد الوصل.

إذا استصلح القدرُ أرضَ قلب؛ قلّبها بمحراث الخوف، وبذر فيها حَبَّ المحبة، وأدار لها دولاب[٣] العين، وأقام ناطور[٤] المراقبة، فتربى زرع التقى على سوقه. أصفهم لمن؟ أصفهم عند من؟ أنثُر الدرَّ على دِمَن[٥]؟!

بلغ سلامي بالغوير جيرةً ... قلبي وإن حالوا إليهم تائقُ

فارقتُهم كرها وليت أنني ... للروح من دونهم مفارق

ولستُ أنساهم وإن تقطّعت ... بالبعد فيما بيننا علائِق

يا نفس. عند ذكر الصالحين: تبكين، وعند شرح جدهم: تأنين، وإذا تصورت طيب عيشهم: تحنّين، فإذا عرفت قيامهم بالخدمة، تنكّبين[٦].

للمهيار:

أمن خفوق البرق ترزمينا[٧] ... حني فما أمنعك الحنينا

---

(١) الأنشوطة: عقدة يسهل حلها، مثل عقدة التكة.

(٢) مسد: حبل من ليف.

(٣) الدولاب: الساقية.

(٤) الناطور: حارس الكرْم والنخل.

(٥) دمن: الدمن: البعْرُ ونحوه.

(٦) تنكّبين: تعدلين وتنصرفين.

(٧) ترزمينا: من: أرزمت الناقة، أي: حنّت على ولدها.

سيري يمينا وسراك شامة فضلة ما تلفتينا
نعم تشاقين وأشتاق له ونُعلن الوجد وتكتمينا
فأين منا اليوم أو منك الهوى وأين نجْد والمغوّرينا

لما اشتغل القوم بإصلاح قلوبهم، أعرضوا عن إصلاح أبدانهم. عري «أويس»(١) حتى جلس في قوْصرة(٢). وقدم «بشر»(٣) من عبادان وهو متشح بحصير.

للسموأل:

إذا المرءُ لم يدنسْ من اللؤمِ عِرْضه
فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل

كان «أويس» يلتقط النوى، فيبيعه بما يفطر عليه، فإذا أصاب حشفة، ادخرها لإفطاره. ويجمع الخرق من المزابل، فيغسلها في الفرات؛ ويرقعها ليستر عورته. ويفر من الناس فلا يجالسهم، فقالوا: مجنون.

لا تَصِحُّ المحبة، حتى يمحى الاسم المعروف، باسم متجدد. فإن اسم «قيس» نُسي، وعُرف بالمجنون.

لولا جنوني فيك ما قعد العواذل لي وقاموا
أو لي يلوم العاذلون وليس لي قلبٌ يُلام

---

(١) أويس: هو القرني.
(٢) قوصرة: وعاء للتمر.
(٣) بشر: هو الحافي.

بنى أهل أويس له بيتا على باب دارهم، فكانت تأتي عليه السنون لا يرون له وجها. وكان إذا خرج يمشي، ضرب الصبيان عقبيه بالحجارة حتى تدمي، وهو ساكت. ولسان حاله يقول:

ولقيت في حبِّك ما لم يلقه ... في حبِّ ليلى قيسُها المجنونُ

لكنني لم أتبعْ وحْشَ الفلا ... كفعال قيسٍ والجنونُ فنون

لقى بعض الجند «إبراهيم بن أدهم» في البرية، فقال له: أين العمران؟ فأومى بيده إلى المقابر. فضربه فشجّ رأسه. فقيل له: هذا ابن أدهم، فرجع يعتذر إليه. فقال له إبراهيم: الرأس الذي يحتاج إلى اعتذارك تركته ببلخ.

عزِّي ذُلي وصحتي في سقمي

يا قوم رضيت بالهوى سفك دمي

عذالي كفوا فمنْ ملامي ألمي

من بات على وعد اللقا لم ينم

مر رجل بابن أدهم وهو ينظر كرما[1]، فقال: ناولني من هذا العنب. فقال: ما أذن لي صاحبه. فقلب السوط وضرب رأسه. فجعل يطأطئ رأسه، ويقول: اضرب رأساً طالما عصى الله.

من أجلك قد جعلت خدّي أرضا

للشامت والحسود حتى ترضى

مولاي إلى متى بهذا أحظى

عمري يفنى وحاجتي ما تقضى

---

(١) ينظر كرماً: أي يحرس أشجار عنب. يقال: ينطر وينظر بالطاء والظاء.

لـو قطعني الغـرام إرْبـاً إرْبـاً

ما ازددت على الملام إلا حبّاً

لا زلت بكم أسيرَ وجـدٍ صبّا

حتى أقضي على هواكـم نَحْبـا

كان ابن أدهم يستغيث من كرب وجده، ويبول الدم من كثرة خوفه، فطلب يوماً سكوناً من قلقه. فقال: يا رب إن كنت وهبت لأحد من المحبين لك ما يستريح به، فهب لي. فقيل له في نومه: وهل يسكن محب بغير حبيبه؟

الجسم يذيبـه الأسـى والسهـد

والقلب ينوبه الجوى والكمد

هم قد وجدوا وهكذا وجدوا

ما جُنَّ بهم مثل جنوني أحد

شوق وجوى ونـار وجـد تقـد

ما لي جلَد ضعفت ما لي جلد

* * *

الفصل الثاني عشر

عجباً لذاكر الموت، كيف يلهو؟ ولخائف الفوت، وهو يسهو، ولمتيقن حلول البلى، ثم يزهو، وإذا ذكرت له الآخرة، مرّ يلغو.

لأبي العتاهية:

إني أرقت وذكر الموت أرقني

فقلت للدمع: أسعدني فأسعدني

إن لم أُبكِّ لنفسي مشعراً حزنا

قبل الممات ولم آسف لها فمن

يا من يموت ولم تحزنه موتته

ومن يموت فما أولاه بالحزن

لمن أثمِّرُ أموالي وأجمعها

لمن أروح لمن أغدو لمن لمن

لمن سيرفع بي نعشي ويتركني

في حفرتي تَرِب الخدين والذقن

يا غافلا عن الموت، وقد لدغه، أخذ قرينه؛ فقتله ودمغه. تأمّل صنع الدهر بالرأس إذ صبغه. بأي حديث ترعوي؟ أو بأي لغة؟ كم رأيت مغروراً قبلك؟ كم شاهدت منقولاً مثلك؟ من أباد أقرانك؟ ومن أهلك أهلك[1]؟

لقد نادى الموت وقال: ما أنا بالذي إذ سئل أقال. أنا الذي إذا مال على القوي أمال. أخذتم أماني يا أهل الأماني والآمال؟

---

(١) أهلك: الأولى: من الهلاك، والثانية: الأهل.

أين من كان في روح وسعة؟ نقلته إلى مكان ما وسعه. أين من كان يُخاف لبأسه؟ انظروا ماذا عوّضته من لباسه. أين من كان على نسائه شديد الغيرة؟ أما رحل عنهن، فاخترن غيره؟ أين من كان يسري آمناً في سَرْبه؟ أما قيل للتلف: خذه وسِرْ بِه؟ أما عاقبةُ الأُلفة فُرْقة؟ أما آخر جرعة اللذة شرقة؟ أما ختام الفرح قلقٌ وحُرَقة؟ أما زاد ذي المال إلى القبر خِرْقة؟

أعر سمعك الأصوت، فهل تسمع إلا: فلان[1] مات؟ أجل بصرك في الفلوات، فهل ترى إلا القبور الدارسات؟

قوّض الموتُ طودْ عزِّهم الشا ... مخ قسْرا والدهرُ ذو حدثان

واستردَّ الذي أعار ولألأ ... يام ظَهْراَ خشونةٍ وليان

وإذا صاح صائِح الموت في قو ... م غدوا كل واحد مِن مكان

يا ساكنا مسكن من قد أُزعج، يا شاربا فضلة من شرق، تصحو في المجلس ساعة من خمار الهوى، ثم تُسلّيكُ حُميّا الكأس[2]. هيهات ليس في البرق اللامع مستمتعٌ لمن يخوض الظُلمة. كم أعطف عِطْفك[3] بلجام العظة إلى عطفة اليقظة؛ فإذا انقضى المجلس عاد الطبع ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ [الحج: ٩].

«وتأبى الطباعُ على الناقل»

يا من قد لجج في لجة الهوى. قارب الساحل في قارب[4].

(١) فلان: في المطبوع: «فلانا» والتصحيح من المخطوط.

(٢) حُمَّيا الكأس: شدتها وإسكارها، وأخذها بالرأس.

(٣) العطف: الرقبة.

(٤) قارب: الزورق الذي يُركب في الماء.

دنا رحيل الرفقة، وما اشتريت للمسير قوت ليلة. كلما جد اللعب، فتر النشاط في الجد. صحح نقدة عملك، فقد انقرضت أيام الأسبوع. جود غزل عزمك، فلربما لم تُسامَح وقت الوزن. صابر غبش العيش، فقد دنا فجر الأجر. انتبه لاغتنام عمرك، فكم يعيش الحيوان؟

مد بحر القدرة، فجرى بمراكب الصور، فرست على ساحل إقليم الدنيا، فعاملت في موسم الحياة مدة الجزر، ثم عاد المد فرد إلى برزخ الترب، فقذف محاسن الأبنية في حفر اللحود. وسيأتي طوفان البعث عن قرب. فاحذر أن تدفع دونك: سفينةُ النجاة. فتستغيث وقت الفوت، ولا عاصم.

كأنك بك في قبرك على فراش الندم، وإنه والله لأخشن من الجندل. فازرع في ربيع حياتك، قبل جدوبة أرض شخصك، وادخر من وقت قدرتك، لزمان عجزك، واعتبر رحلك قبل رحيلك، مخافة الفقر في القفر إلى لازم الأخذ ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ**﴾ [الزمر: ٥٦].

يا هذا. مثّل لنفسك صرعة الموت. وما قد عزمت أن تفعل حينئذ وقت الأسر؛ فافعله وقت الإطلاق.

لقيس بن ذريح:

أتبكي على «لُبنى» وأنت تركتها
فكنت كآتٍ حتْفه وهو طائع
فيا قلبُ خبِّرني إذا شطّتِ النوى
بلبنى وبانت عنك ما أنت صانع

كأنك بحرب التلف، قد قامت على ساق، وانهزمت جيوش الأمل، وإذا بملك الموت قد بارز الروح، يجتذبها بخطاطيف الشدائد، من تيار أوتار العروق. وقد أُوثقَ كتافُ الذبيح، وحار البصرُ لشدّة الهول، وملائكة الرحمة عن اليمين، قد فتحوا أبواب الجنة. وملائكة العذاب عن الشمال، قد فتحوا أبواب النار. وجميع المخلوقات تستوكف[1] الخبر. والكون كله قد قام على صيحة؛ إما أن يقال: سعد فلان، أو شقي فلان. فحينئذ تتجلى أبصار ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١].

ويحك، تهيأ لتلك الساعة، حصِّل زاداً قبل العوز.

للصمة القشيري:

تمتّع من شَميمِ عَرارِ نجدٍ   فما بعدَ العشيّةِ من عَرارِ

واأسفاه، من حياة على غرور، وموت على غفلة، ومنقلب إلى حسرة، ووقوف يوم الحساب بلا حجة.

يا هذا، مثل نفسك في زاوية من زوايا جهنم، وأنت تبكي أبداً، وأبوابها مغلقة، وسقوفها مطبقة، وهي سوداء مظلمة؛ لا رفيق تأنس به، ولا صديق تشكو إليه، ولا نوم يريح، ولا نَفَس.

قال كعب: إن أهل النار ليأكلون أيديهم إلى المناكب؛ من الندامة على تفريطهم، وما يشعرون بذلك.

يا مطروداً عن الباب، لو كاتبتنا بدمع الأسف؛ لعفونا عن كل ما سلف.

(١) تستوكف: تستطلع وتستقطر.

ولو أنهم عند كشف القناع   وحل العقود ونقض العهود
وخلعهم لعذار الحياء   ولبسهم لبرود الصدود
أناخوا بأبوابنا ساعة   وأجروا مدامعهم في الخدود
لعدنا سراعا إلى وصلهم   وقلنا: قلوب المحبين عودي

* * *

الفصل الثالث عشر

كم أخرج الموت نفساً من دارها، لم يُدارها. وكم أنزل أجساداً بجارها[١]؟ لم يجارها. وكم نقل ذاتاً ذات خطأ بأوزارها. وكم أجرى عيونا كالعيون، بَعْد بُعْد مزارها

يا مغرماً بوصال عيش ناعم ... ستُصدّ عنه طائعاً أو كارها

إن المنية تزعج الأحرار عن ... أوطانهم والطير عن أوكارها

إخواني، قد حام الحِمامُ حولَ حِماكم، وصاح بكم إذ خلا النادي وناداكم. وأوْلاكم من النصح حقكم؛ فما أحقكم بالتدبر وأولاكم. وهو عازم على اقتناصكم، وما المقصود سواكم. كم أخلى الموت داراً فدارا. أما استلب كسرى بن دارا؟ أداري لما أخذ دارا؟ أما ترك العامر قفارا؟ أما أذاق الغصص المرة مراراً؟ لقد جال يميناً ويساراً. فما حابى فقرا ولا يسارا.

يا هذا، مطايا العمر قد أعنقت[٢]، وأنت في مسامرة الأمل. معاول الساعات تهدم حائط الأجل. فرائِس المهج في مضابث[٣] أُسْد المنايا. أسنّة القنا مشرعة ولا درع. عقارب الخدع دائمة اللسع؛ غير أن خَدَرَان الغفلة يمنع الإحساس بسريان السم.

آه من مثاقف[٤] ما ينتهي عن القتل. الناس في الدنيا ككيزان الدولاب؛ فالشاب: مثل الممتلئ، والكهل: قد فرغ بعضه، والشيخ؛

---

(١) بجارها: كذا في المطبوع والمخطوط.

(٢) أعنقت: الإعناق: سرعة السير.

(٣) مضابث: كمخالب وزنا ومعنى.

(٤) مثاقف: الثَّقفُ: الحاذق.

لم يبق فيه شيء.

الشاب المتقي في مقام: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، والكهل المنحط في مرتبة: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، والشيخ في حيز: «**تجدني عند المنكسرة قلوبهم**».

يا من قد انطوى بُرْد شبابه، وخُبِّئت خُلعُ تلفه، وبلغت سفينته ساحل سفره. قف على ثنية الوداع.

«فلم تبق إلا ساعةٌ تُغنّم»

لو فتحت عين اليقظة لرأيت حيطان العمر قد تهدمت؛ فبكيت على خراب دار الأجل. صاح ديك الإيقاظ، في سحر ليل العبر، فما تيقظت؛ فستنتبه إذا نعق غراب البين، بين البين.

ومشتّتُ العزماتِ يُنفق عُمْره حيران لا ظَفرٌ ولا إخفاق

لا في الشباب وافقت، ولا في الكهولة رافقت، ولا في الشيب أفقت، ولا من العتاب أشفقت. فكأنك ما آمنت بالمعاد؛ ولا صدقت.

يا مقيما على الهوى، وليس بمستقيم. يا مبذراً في بضاعة العمر، متى يؤنس منك رشد؟ يا أكمه البصر، لا حيلة فيه لعيسى. يا طويل الرقاد؛ ولا نوم أهل الكهف. كيف يفلح من هو والكسل كندْماني جذيمة[1]؟ الدنيا مضمار سباق، وليل سُرى، وطلب الراحة تحنث[2].

---

(١) جذيمة: ابن مالك بن فهم القضاعي، ملك الحيرة وغيرها في الجاهلية، وهو ثالث ملوك الدولة التنوخية. وله أخبار مشهورة.

(٢) تحنث: الميل من الحق إلى الباطل، والوقوع في الإثم.

فلا تحسبوا أن المعالي رخيصة

ولا أن إدراك العُلى هينٌ سهلُ

فما كل من يسعى إلى المجد ناله

ولا كل من يهوى العلا نفسه تعلو

من تذكّر حلاوة العاقبة؛ نسي مرارة الصبر. الرجولية بالهمة لا بالصورة. نزولُ هِمَّةِ الكسّاح[1] حطّه في بئر الأنجاس. قنديل الفكر، في محراب قلبك مظلم؛ فاطلب له زيت خلوة، وفتيلة عزم. بينك وبين المتقين جبل الهوى، نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطْوِ فضل منزلٍ تلحق. لو علوت نشز الجد؛ بانت بانة الوادي.

للمهيار:

إن كنت ممن يطلع الوادي فسل بين البيوت عن فؤادي ما فعل

عـزّ هـواك فـأذلّ جلَـدي والحب ما رقّ لـه الجلْدُ وذل

أيـن ليالينا على الخيف وهـل يـردُّ عيشاً فائتـا قولُك هـل

يا مقيداً بقيود الطرد، ألق نفسك في الدجى على باب الذل، وقل: إلهي، كم لك سواي، ومالي سواك؛ فبفقري إليك وغناك عني، إلاّ عفوت عني.

أيا منعما لـم يـزل محسنـا برى جسدي سخطُك الدائـمُ

إلـى النحـر مني مضمومـةٌ يـداي كمـا يفعـل النـادمُ

يـزلّ الحليـمُ ويكبـو الجوادُ وينبـو عـن الضربـة الصارمُ

يا هذا، ليس في المياه ما يقلع آثار الذنب، من ثوب القلب؛

(١) الكسّاح: الكناس، أو الذي يكسح المراحيض.

إلا الدموع. فإن نضبت ولم يزل الأثر؛ فعليك بالاغتراف من بحر الاعتراف.

ودّعتُ قلبي حين ودّعتُهم ... وقلت: يا قلبي عليك السلام

وصحْتُ بالنوم: انصرف راشدا ... فإن عيني بعدهم لا تنام

احضر نادي المتهجدين، ونادهم: طوبى لكم، وجدتم قلوبكم؛ فارحموا من لا يجد.

إذا وصلتم إلى وادي العقيق سلوا ... عن حالِ منقطعٍ أودى به السهرُ

وفتشوا عن فؤادٍ هائمٍ قلقٍ ... قد ضاع مني فلا عينٌ ولا أثر

أنجع الوسائِل: الذل، وأبلغ الأسباب في العفو: البكاء. والعي[1] عن ترتيب العذر: بلاغة المنكسر.

يا من أشكو إليه ما يعلمه ... والدمع يذيع كلَّ ما أكتمه

هذا المسكين من ترى يرحمه ... قد هان عليه كل ما يؤلمه

بالجسم من السقام ما يُحْرِضه[2] ... والقلب يذوب من جوى يمرضه

ما قد حكم الإله مَنْ ينقضه ... قد أعوزني الصبر فمن يُقرضه

* * *

(١) العي: الحصر في المنطق، وعدم القدرة على البيان.

(٢) يحرضه: يفسده ويتلفه.

الفصل الرابع عشر

لقد خوّفنا الموتُ بمن أخذ منّا، ونعلم هجومه علينا؛ وقد أمِنّا! ما أذكرتنا المواعظ مآلنا؟ فما لنا ما لنا[1]؟

لا ترقـدن لعينـك السـهر ... وانظـر إلى ما تصنـع العبـرْ
انظـر إلـى عبـر مصرّفـة ... ما دام يمكـن طرفك النظـر
فإذا جهلت ولم تجد أحداً ... فسـل الزمـان فعنـده الخبـر
فـإذا نظـرت تريـد معتبـراً ... فانظـر إليـك ففيـك مُعتبـر
أنـت الـذي تنعـاه خلقتـهُ ... ينعاه منـه الشعـر والبشـر
يـا مـن يؤمـل أنـت منتظـرٌ ... أمـلا يطـولُ ولسـتَ تُنتظـر
ماذا تقول وأنت في غصص ... ماذا تقـول وفوقـك المـدر
ماذا تقول وقد لحقتْ بمـا ... يجري عليه الريح والمطـر
كـم قد عَفَتْ عينٌ لهـا أثـر ... درست ويدرس بعدها الأثر

يا من يشيّع ببدنه الميْت؛ فأما قلبه ففي البيت؛ أتخلي بين المودود والدود؟ وتعود إلى المعاصي حين تعود؟ هلا أجلت بالبال ذكر البالي؟ وقلت للنفس الجاهلة: هذا لي؟

من زار القبور: والقلب غافل، وسعى بين الأجداث: والفكر ذاهل، وشغله عن الاعتبار: لهو شاغل؛ فهو قتيل قد أسكره القاتل.

ومـا أعطى الصبابة ما استحقّتْ ... عليـه ولا قضـى حـقَّ المنـازل

(١) لنّا: من اللين.

مُلاحظها بعينٍ غيرِ عَبْرى وزائِرها بجسمٍ غيرِ ناحل

شيع الحسن جنازة، فجلس على شفير القبر، فقال: إن أمراً هذا آخره؛ لحقيق أن يُزهد في أوله. وإن أمراً هذا أوله؛ لحقيق أن يخاف آخره.

إخواني، كيف الأمنُ وهذا الفاروق[1] يقول: لو أن لي طلاع[2] الأرض ذهباً وفضة لافتديت بها؟ كيف الأمنُ من هول ما أمامي قبل أن أعلم الخبر؟

لما طعن عمر قال لابنه: ضع خدي على التراب، فوضعه، فبكا حتى لصق الطين بعينيه. وجعل يقول: ويلي وويل أمي، إن لم يرحمني ربي.

ودخل عليه كعب[3]. وكان قد قال له: إنك ميت إلى ثلاثة أيام - فلما رآه أنشد:

وواعدني كعبٌ ثلاثا بعدّها ولا شك أن القول ما قاله كعبُ
وما بي حذار الموت إني لميتٌ ولكن حذار الذنب يتبعه الذنبُ

واعجبا من خوف عمر مع كماله، وأمنك مع نقصانك. قيل لابن عباس: أي رجل كان عمر؟ فقال: كان كالطائر الحذر الذي كأن له بكل طريق شَرَكا.

يا مسدود الفهم بكثرة الشواغل. أحضر قلبك لحظة للعظة.

---

(١) الفاروق: عمر رضي الله عنه.

(٢) طلاع: طلاع الشي: ملؤه.

(٣) كعب: هو كعب الأحبار.

يا جامداً على وضع طبعه، تحرك إلى قطر التذكرة. يا عبد الطمع، طالع ديار الأحرار. ما أطول غشية غفلتك. فلمن نحدث؟ قلبك في غلاف غفلة، وفطنتك في غشاوة غَباوة، وحبْل عزمك الجديد حديد. لو خرج عقلك من سلطان هواك؛ عادت الدولة عادلة. لو صح مزاج فطرتك؛ حلا طعم النصح في فمك. المفروض عندك مرفوض، وكلام النصيح صوت الريح.

يا تلميذ الهوى، اخرج من وصف التبعية. يا مقيد الوجود في فناء الفَناء. قامت قيامة الملامة وما تسمع. لقد صحل[1] صوت النصيح، ولكن صلخ[2] صماخ السمع مانع.

ياهذا، لو وقف مرضك رجونا لك البرء؛ لكن المرض يزيد، وقوة العزم تضعف.

متى يلتقي الألآف والعيسُ كلما   تصعّدُ من واد هبطن إلى واد

يا مقبلا على المعاصي أدبرت. ويحك إذا خرجت من يديك فمن تُحصّل؟ كم تعد بالتوبة ولا تفي؟ ويحك، إن اللذة بالعقوبة لا تفي. ضمانك عقيم، ووعدك عاقر. إذا أقمت بناء توبة؛ اكتريت ألف نقاض. ويحك لا تفعل؛ فإنه ما سحب أحد ذيل الهوى إلا وتعثر. اكتب قصة الندم، بمداد الدمع؛ وفي الحال تصل.

سألتْ ودمعُ العينِ سائل   ودعتْ وداعي البين شاغل

فأجاب دمعي وهو في   صفة الأسى سحبان وائل[3]

(١) صحل: بح.

(٢) صلخ: صمم.

(٣) سحبان وائل: يضرب به المثل في الفصاحة.

أعرضت عنك فمن تروم ... وبِنْتُ منك فمن تُواصل
لم يبق من سنن الهوى ... إلا الوقوف على المنازل

يا مشرداً عن الأوطان: إلى متى ترضى بالتمردك[1]؟ للقطاة أُفحوص، ولابن آوى مأوى. منذ خمسين سنة تجدّفُ في العبور إلى ساحل التوبة، وما تلحق الشط. قوة الأمل، عقدة في وجه منشار الجد. الرياء عيب في رئة الإيمان؛ يسلّ[2] المرض إلى السل. شدة الحرص على الفاني سدة في كبد اليقين. ومن صبر على مرارة الدواء عُوفي.

السقم على الجسم له ترداد ... والصبر يقلّ والهوى يزداد
ما أبعد شُقّتي ومالي زاد ... ما أكثر بهرجي ومالي نَقّاد

يا أرباب الدنس، يا أوساخ الذنوب ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] لا تقنعوا بصب ماء التوبة على الظاهر، بلّوا الشعر، وأنقوا البشرة. ما لم تسبح بدمع عينيك؛ لم تأت بسنّة الغسل.

فلو داواك كلُّ طبيب داءٍ ... بغير كلام ليلى ما شفاكا

أبلغ المراهم لجراح الذنوب: الندم، وأوطأ فراش المعتذر: القلق، وأسرع الأوقات إجابة: السحر. فاطرد عن عينيك لذة النوم، وناد في نادي الأسى مع القوم:

يا من بسهامه لقلبي جرحا ... صل مشتاقا بغيركم ما فرحا
ما ناح له مُطوّق أو صدحا ... إلا شرب الدمع وعاف القدحا

---

(١) بالتمردك: التصاغر. مأخوذ من مردك العجمية أي رجل صغير، والذي في المخطوط: «بأليم الذل».

(٢) يسل: أي يوصله إلى السلال، وهو المرض المعروف بالسل.

يا نائماً طول الليل، ما تحس برد السحر؟ لقد نم النسيم على الزهر، ودلّت أغاريد الحمام على دنو الفجر. صاح الديك فلم تنتبه، وأعاد فلم تُفق؛ فقوّى ضرب الجناحين لطماً على غفلتك.

صفّق إما ارتياحة لسنا الفجر ... وإما علـى الدجـا أسفـا

—.—.—

يـا مطـولا بالقيـام ... مستلـذاً بالمنـام
قُـم فقـد فاتـك يـا ... مغبون أرباح الكـرام
وخلو دونك بالمـو ... لى وفـازوا بالمـرام
وكـذا تسبقك القـو ... م إلـى دار السـلام

* * *

الفصل الخامس عشر

إخواني؛ الدنيا دار الآفات. الإثم بقي، والالتذاذ فات. بينا نرى فيها الغصن خضراً متمايلا؛ أصبح ذابلا ذا بلى[١].

يـا أيهـذا الـذي قـد غـره الأمـلُ	ودون ما يأمـل التنغيص والأجـلُ
ألا تــرى أنمــا الدنيــا وزينتهــا	كمنزل الركب حلّوا ثمت ارتحلوا
حتوفهـا رصـدٌ وعيشهـا نكـدٌ	وصفوهـا كـدرٌ وملكهـا دول
تظـل تُفـزع بالـروعـات ساكنـها	فمـا يسـوغ لـه عيـش ولا جذل
كأنـه للمنايـا والـردى غـرضٌ	تظـل فيـه سهـام الدهـر تنتضـل
والنفس هاربـة والمـوت يتبعهـا	وكـل عثـرة رِجـلٍ عندهـا جـلـل
والمـرء يسعـى بما يسعى لوارثـه	والقبر وارث ما يسعى لـه الرجـل

إخواني: البسوا للدنيا جُنّة الهجر، واسمعوا فيها من مواعظ الزجر، واحسبوها يوماً صمتموه للأجر، وصابروا ليل البلى فما أسرع إتيان الفجر. فلا تبيعوا اليقين بالظن، فحرام بيع المجر[٢].

لقد أبصرت عيون الفطن - في نهار المشيب - سُبل الرحيل، وسمعت آذان الفكر، - بقعقة الصلب الصليب - أذان التخويل.

لله در أقوام: بادروا أيامهم، وحاذروا آثامهم، جعلوا الصوم طعامهم، والصمت كلامهم. فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى، والقلوب في رياض الملكوت ترعى، قاموا لخوف القيامة بالأوامر، ووقفوا

---

(١) بِلى: فناء وتغير، يقال: بلي الثوب: خلق.

(٢) المجر: أن يشتري ما في بطن الناقة من حمل، وهو من بيوع الغرر المحرمة.

أنفسهم على الخير، ما توقفوا كالموامر[1]. هجروا بالصيام لذيذ الهوى في الهواجر. وصمت اللسان، كأنه مقطوع في الحناجر بالخناجر. وجرى الدمع واصباً، حتى قد محا المحاجر. متى تطرق طريقهم قبل طروق الطوارق؟ هذا ذئب السقام قد عوى للعوائق. يا من أعماله فيما خلا للخلائق. كم داراك الطبيب؟ وكما رقا بالرقائِق؟.
أين من ربا في الربى، ونما بين النمارق؟ أبرزهم حادي الموت لما حدا من الحدائِق، وأمال مستقيمهم فالتوى. فهل من هذا التوى[2] أنت واثق؟.

ويحك إن الدنيا سراب مخلَف، فإن وجد شراب أعطش. ازدهت فدهت؛ على أنها تُذمّ وتَضمّ. كم عقدت لمحبها عقد عهد، فلما حلَت عنده حلّت. إنها لعجوز، وهي في عينك كالقمر. وقد قمر[3] هواها قلبك. فما أبقى منه إلا قلب «قمر»[4]؟

للشريف الرضي:

شرت الفؤاد رخيصة أعلاقه ومضى يعضّ بنانه المغبونُ

أفنيت عمرك في طلبها؛ وما حصل بيدك منها إلا ما حصل بيد «قيس» من «ليلى».

صحا كل عذري الغرام عن الهوى

وأنت على حكم الصبابة نازل

---

(١) (ما توقفوا كالموامر): في المخطوط: «وبانوا كالموامر»؟!. والمؤامر: الذي يستشير غيره.
(٢) التوى: الهلاك. (٣) قَمَرَ: خدع.
(٤) قلب «قمر»: يعني «رمق».

ولِّ الدنيا ظهرك؛ تنص[١] الآخرة لك نقابها. تعر عن الدنيا؛ تعز. وخذ قدر البلغة، وجز؛ تفز. إلى متى زنبيل حرصك على كاهل همتك؟ وأنت تسعى في مزابل طمعك، تحش[٢] وقود الحطام لنار هواك، وقد أقمت موقداً من الشره لا يفتر. أما علمت أنه كلما ترقىّ دخان أتون الهوى في برابخ[٣] الحس؛ سود وجه القلب؟ أنت في جمع الحطام، نظير الزبال، وفي فعل الخير، غلام الخَبَّال.

عالم الهمم مختلف الأجناس؛ هذا الشفنين[٤] لا يقرب غير زوجته أبداً، فإن ماتت لم يتزوج أبداً. وكذلك الأنثى. ه الدجاجة مع أي ديك كان.

كلامي يدور حول ستور سمعك، وموانع الهوى تحجبه أن لا يصل. فلو قد وصل إلى القلب أثر.

عضتْ رجُلاً حيّة، فلم يعلم أنها حية، فلم يتغير؛ فلما أخبر أنها حية مات. لأنه حين أخبر انفتحت مسامه، فوصل السم إلى القلب.

يا أطروش الهوى، صاحب من يسمع. يا أعمى البصيرة، امش مع من يبصر. تشبه بالصالحين؛ تُعدُّ في الجملة. هذا الطاووس يحب البساتين؛ فهو يوافق الأشجار: إذا ألقت ورقها ألقى ريشه، فإذا اكتست اكتسى.

---

(١) تنص: ترفع، والذي في المخطوط: (تُسفر لك نقابها).

(٢) تحش: تجمع على النار وقوداً.

(٣) برابخ: جمع بربخ، والبربخ في الأصل منفذ الماء ومجراه، وهو ما يُعرف بالبالوعة.

(٤) الشفنين: اليمام، الطائر المعروف.

لو سرت في حزب المتقين خطوات؛ لعرفوا لك حق الصحبة.

يا من كان لهم رفيقا؛ فأصبح لا يعرف لهم طريقاً. اطلب اليوم أخبارهم، واتبع في السلوك آثارهم، فإن وقعت ببعضهم؛ حملك إلى أرضهم.

للمصنف:

في شغل عن الرقاد شاغل ... من هاجه البرق بسفح عاقل[1]

يا صاحبي هذي رياح ربعهم ... قد أخبرت شمائل الشمائل

نسيمهم سحيري الريح فما ... تشبهه روائِح الأصائل

ما للصبا مولعة بذي الصبا ... أو الصبا فوق الغرام القاتل

ما للهوى العذري في ديارنا ... أين العذيب من قصور بابل

لا تطلبوا ثأراً بنا يا قومنا ... دماؤنا في أذرع الرواحل

لله در العيش في ظلالهم ... ولّى وكم أشار في المفاصل

واطربي إذا رأيت أرضهم ... هذا وفيها دُمِّيت مقاتلي

يا طرة الشيح سُقيت أدمعي ... ولا ابتُليتِ في الهوى بما بلي

ميلك عن زهو وميلي عن أسى ... ما طرب المخمور مثل الثاكل

يا من قد كثر تردده إلى المجلس، ولم تزل قسوة قلبه؛ لا تضجر، فللدوام أثر. جالس البكائين؛ يتعد إليك حزنهم، فتأثير الصبحة لا يخفى. أما ترى دود البقل أخضر؟

يا من يشاهد ما يجري على الخائفين ولا ينزعج. أقل الأقسام أن تبكي رحمة لهم. إذا رأيت الثكلى تتقلقل فلابد من رحمة الجنس.

---

(١) عاقل: في المخطوط: «بابل».

للميهار:

ولما وقفنا في الديار تشابهت   جسوم بَرَاهُنّ البِلى وطلول
فباكِ بداء بين جنبيه عارف   وباك بما جر الفراق جهول

كان العاصي[١] قتيل عشق الدنيا، فكشف له بالمخوفات نقاب المحبوبة؛ فسلا. ثم جليت عليه بالمشوقات محاسن الآخرة. فمال الجِيد إلى الجيِّد.

ألفيتها وللحدا تغريد   برامة إن ذكرت زرودُ
ولاح برقٌ بثنيات الحمى   تَشِيمُه للأعينِ الرعود
فمالت الأعناق منها طربا   كما يميل الناشد المنشود
هيهات يخفي ما به متيمٌ   دموعه بوجده شهود

أتدرون ما أوجب اصفرار هذا التائب؟ ومن أي شراب سكر هذا الشارب؟ وأيِ كتاب أقدم هذا الغائب؟

كلما زاد كربه   في هوى من يحبه
طار نحو الحبيب من   شدة الشوق قلبه
دَنِفٌ كاد ينقضي   بيد البين نحبه
خبِّرونا عن العقيق   متى سار ركبه

* * *

(١) العاصي: في المطبوع: «العاصمي» والتصحيح من المخطوط.

الفصل السادس عشر

يا من نسبه مُعَرَّقٌ في الموتى، وقد وعظوه وإن لم يسمع صوتاً؛ أدرك أمرك، فما تأمن فوتاً.

لأبي نواس:

ألا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريقِ
فقل لغريب الدار: إنك راحل ... إلي منزل نائي المحل سحيق
وما تعدم الدنيا الدنية أهلَها ... شواظَ حريقٍ أو دخانَ حريق
تُجرِّع فيها هالكا فقد هالك ... وتُشجي فريقاً منهم بفريق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها ... قراراً فما دنياك غير طريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت ... له عن عدوّ في ثياب صديق
عليك بدار لا يزال ظلالها ... ولا يتأذى أهلها بمضيق
فما يبلغ الراضي رضاه ببُلْغة ... ولا ينفع الصادي صداه بريق

يا راقداً: وقد أوذن بالرحيل، يا مشيد البنيان في مدارج السيول، بادر العمل قبل انقضاء العمر، لا تنس من يعدّ الأنفاس للقائك.

وما هي إلا ليلةٌ ثم يومُها
ويومٌ إلى يومٍ وشهرٌ إلى شهرِ
مطايا يُقرّبن الجديد إلى البلَى
ويُدنين أشلاءَ الصحيح إلى القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره
ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر

واعجبا، أما تعلم ما أمامك؟ فتهيأ للرحيل، وأصلح خيامك. وتأهب للردى، واقْطع قَطْعَ المُدَى[١] مدامك[٢]. واجتهد أن ينشرَ الإخلاص في المحلٍّ الأعلى أعلامَك. وأحضر قلبك وسمعك. وإن ملا[٣] من لامك. وإياك والفتور؛ فإني أرى الدواء دوامك. اطلب ما شئت بالعزم، وأنا زعيم لك بالظفر. من عزم على أمرٍ هيّأ آلاته. لما كان شُغْل الغراب الندبَ على الأحباب؛ لَبِس السوادَ قبل النوْح.

أَنفَتْ شُقَّةُ المهامـه أن تُقْـ طـع إلا بالشـدِّ والترحـالِ
وأبي المجدُ أن يُنال بغيـر الـ جـد فلتنتبه عقـول الرجـالِ

إذا وقعت عزيمةُ الإنابة في قلب من ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. قلعت قواعد الهوى من مُسَنَّاة[٤] الأمل.

ركب ابن أدهم يوماً للصيد. وقد نُصب له فخ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ [يونس: ٩]. حَوْله حَبّ: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]. فصِيدَ قبل أن يَصيد. سمع هاتفاً يقول: (ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت). فكانت تلك العظة «شربة» نقضت قُولِنْج[٥] الهوى.

---

(١) المُدَى: السكاكين.

(٢) مدامك: المدام: الخمر.

(٣) (ملا) كذا في المخطوط والمطبوع.

(٤) مُسَنَّاة: المسناة: العَرِمَ كما في القاموس. والعرم: سد يعترض به الوادي، أو هو الأحباس تبنى في الأودية.

(٥) القُولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح.

ياله من سهم، ألقاهُ عن قَرَبُوسه[١] وبوسه[٢].

كان راقد الفهم، في ليل الغفلة، مشغولاً بأحلام المنى، فصيح به: قم. فقام. فقيل له: سر. فاستقام.

للشريف الرضي:

رأى على الغور وميضا فاشتاق ما أجلب البرق لماء الآماق

وعظه خطيب اليقظة، فوصلت ملامته إلى سمع الأنفة، فنهضت حميّة الرجولية. يا ابن أدهم: مبارزة الصيد أول مراتب الشجاعة. أفترضى أن تستأسر لثعلب الهوى؟ يا ابن أدهم. قتلك حب الدنيا؛ فثُر لأخذِ الثأر. إن كانت لك عزيمة - يا ابن أدهم - فهذا الكميت[٣]، وهذا الأدهم[٤]. فصادف التحريضُ: حريضاً[٥]؛ فنهض.

للشريف الرضي:

ذكّرتُماني طلب الفضائل أيقظتما مني غير غافل

قُوما فقد مللت من إقامتي والبيضُ أولى بي من المعاقل

شُنّا بي الغارات كل ليلة وعوِّداني طرف العوامل

إن كان لابدّ من الموت فَمُتْ تحت ظلال الأسَلِ[٦] الذوابل

هتف به متقاضي الشوق: يا ابن أدهم؛ دخلت شهور الحج.

---

(١) القرَبُوس: حنْو السرج، وهما قربوسان.

(٢) (بوسه): لعلها من البوْس، أي التقبيل. أو من البؤس، أي سوء الحال.

(٣) الكميت: هو من الخيل ما خالط حُمرته قنوء.

(٤) الأدهم: هو من الخيل الأسود.

(٥) الحريض: الساقط الذي لا يقدر على النهوض.

(٦) الأسل: الرماح والنّبل.

فما قعودك ببلخ؟ فرحل الراحلة وراح. لاحت له نار الهدى؛ فصاح في جنود الهوى: ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ [طه: ١٠] فتجلى له أنيس «تجدني»[1] فغاب عن وجوده، فلما أفاق من صعقة وجده - وقد دُكّ طُورُ نفسه. صاح لسان الإنابة: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

رويداً أيها الحادي سُقيتَ الرائِح الغادي

فتلك الدار قد لاحت وهذا الربع والوادي

فلما خرج عن ديار الغفلة، أومأت اليقظة إلى البطالة:

لابن المعتز:

سلامٌ على اللذات واللهو والصِّبى

سلام وداعٍ لا سلام قُدومِ

يا ابن أدهم، لو عدت إلى قصرك فعبدت فيه، قال العزم: كلا؛ ليس للمبتوتة[2] نفقة ولا سكنى.

أحنُّ إلى الرمل اليماني صبابة

وهذا لعمري لو رضيت كثيبُ

ولو أن ما بي بالحصى فلق الحصى

وبالريح لم يسمع لهن هبوب

أمرضه التخم؛ فاستلذ طعم الجوع، وحمّل جِلْدَه - على ضعف جِلْده - خشونة الصوف.

---

(١) تجدني: إشارة إلى الأثر: «تجدني عند المنكسرة قلوبهم»، ولم نقف له على إسناد. وقال في الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية: ص ٦٣ (١٦٥): أخرجه الغزال».

(٢) للمبتوتة: المبتوتة: المطلقة طلاقاً باتاً.

حملتم جبال الحب فوقي وإنني

لأعجز عن حمل القميص وأضعف

لاح له جمال الآخرة؛ فتثبتت في النظر عين اليقين، فتمكن الحب من حَبّةِ القلب، فقام يسعى في جمع المهر، من كسب الفقر. طال عليه انتظار اللقا؛ فصار ناطور[1] البساتين. تقاضته المحبةُ باقي دينْها؛ فسلّم الروح في الغربة.

هذا ثمنُ الوصْل، فتأخّرْ يا مفلس.

دون المعالي مرتقىً شاهقٌ فطِرْ إلى ذروته أو قَعِ

من لم يخض غمرتها لم يشد قواعد المجد ولم يرفع

كان إبراهيم[2]، إسكندري الهمة[3]، فاحتقر قصر «بلْخ» في جنب ما أمّل، فانتخب سوابق العزم، وسار في جند الجد، حتى قطع ظلمات الطبع، وبلغ إلى مطلع شمس لا تغرب. شكا إليه صفاءُ القلب - من «يأجوج» وساوسِ النفس؛ فاستغاث بحامي المسكن. فقيل له: شِدْ سَدّ العزم. فاستظهر بعد الزُبَر، بالقِطْر. ثم انفرد من جند جوارحه؛ فوقع بعين الحياة في السر، فعاش بالتوفيق أبد الدهر.

إما تقومون كذا أو فاقعدوا ما كل من رام السماء يصعد

نام على الهون الذليل ودرى جفن العزيز لمن بات يسهد

---

(١) الناطور: حارس الكرم والنخيل.

(٢) إبراهيم: ابن أدهم.

(٣) إسكندري الهمة: نسبة إلى الإسكندر المقدوني، وهو في زعم البعض: ذو القرنين. وفي هذا نظر؛ لأن الإسكندر المقدوني كان كافراً.

أخفّهم سعيا إلى سؤدده　　أحقهم بأن يقال سيد

عن تعب أُورِدَ ساقٌ أولا　　ومسحت غُرّة سبّاق يد

لو شرف الإنسان وهو وادعٌ　　لقطع الصمصام[1] وهو مغمد

* * *

(١) الصمصام: السيف الذي لا ينثني.

الفصل السابع عشر

الدنيا دار المحن، ودائرة الفتن، ساكنها بلا وطن، واللبيب قد فطن.

للمصنف:

من مال إلى الدنيا وصبَا　　قد أمعن في الفاني طلبَا

خُذ ما يبقى كيلا تشقى　　واتبع حقا ودَعِ اللعبا

وذر الدنيا فلكم قتلت　　مكراً بسهام هوىً وصبا

برّتْ ورعتْ فإذا اجتمعتْ　　خدعتْ حتى قطعتْ إرْبا

يا عاشقها كم قد نَصبتْ　　لهلاكك فاحْذرها سببا

يا آمنها كم قد سلبت　　ولداً براً أماً وأبا

أفأين الجارُ أما قد جار　　فجارته حتى ذهبا

أم أين الترِّبُ[1] أما تربت　　خداه أما سكن التربا

كم خدّت خداً في الأخدود　　وقدّت قداً منتصبا

كم ثغرٍ ملتثَمٍ ثلمت　　قد كان لراشفه ضربا[2]

فسقته المرّ لدى جَدَث　　وكذاك الدهرُ إذا ضربا

وأتت قصراً يحوي نصراً　　فغدا وقصاراه خربا

ومليكا عمّت هيبته　　أضحى في الحفرة مغتربا

عرّج بالدار على الآثار　　وسل طللا أمسى شجبا

يُنبيك بأنهم رحلوا　　وثوى من بعدهم الغُربا

بينا الإنسان يُرى رأسا　　فهوى رأسا فغدا ذَنَبا

---

(٢) الترب: النظير في المولد والسنّ.

(٣) ضربا: العسل الأبيض.

فتأمّلْ عاقبة الدنيا … فلعلك تصبح مجتنبا
وتدبّر ما صنعت فلقد … أبدت بصنائعها عجبا
ينساك الأهل إذا رجعوا … عن قبرك لا تسمع كذبا
تركوك أسيراً إذ ذهبوا … بتراب ضريحك محتجبا
وغدوا فرحين بما أخذوا … وغدوت بإثمك محتقبا[١]
وترى أعمالك قد حضرت … فتنكّس رأسك مكتئبا
فكر في الذنب وما احتقبت … كفاك عليك وما اكتسبا
كم بِتَّ على ذنبٍ فرحاً … وغدوت على ذنب طربا
وعلمت بأن الله يرى … فأسأت ولم تحسن أدبا
فأعدّ الزاد فما سفرٌ … كالموت ترى فيه نصبا
وأفق والعمر به رَمَقٌ … فكأن قد فات وقد ذهبا

يا كثير الدرن والدنس، يا من كلما قيل: «أقبل» انتكس. يا من أُمر بترك ما يفنى لما يبقى؛ فعكس. جاء الأجل، وحديث الأمل هوس. يا مؤثراً على الصواب عين الغلط. يا جارياً في أمره على أقبح نمط. يا مضيعاً وقته المغتنم المتلقط. أي شيء بقي بعد الشمط؟[٢]. أتنسى ما سلف لك وفرط؟ وأبوك بزلة واحدة هبط؟

ما عندك من التوبة خبر، ولا لها فيك أثر. تتوب من الذنب، فإذا بدا لك، بدا لك[٣].

---

(١) محتقبا: مرتهنا.

(٢) الشمط: اختلاط بياض الرأس مع السواد.

(٣) بدا: الأولى: ظهر وعرض لك، والثانية: تغيّر رأيك.

من علم أن عندنا حسن المآب: آب. من خاف الجزاء بما في الكتاب؛ تاب. من حذر أليم العذاب؛ ذاب. من سار في طريق الإيجاب؛ انجاب[1]. من ذكر فعل الموت بالأب والجد؛ جد. من تفكر في مرارة الكأس؛ كاس[2]. ويحك. دع محبة الدنيا؛ فعابر السبيل لا يتوطّن.

واعجبا، تضيع منك حبة فتبكي. وقد ضاع عمرك، وأنت تضحك. تستوفي مكيال هواك، وتطفف في كيل صلاتك ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: ٩٥]. تقف ببدنك في الحراب، ووجهك ملتفت للجراب. ما يصلح مثلك في الحرْب. أنت تفضح صفَّ الجهاد. ما تحسن الزردية[3] على مخنّث.

خمسين سنة في مكتب التعليم. وما حذقت «أباجاد»[4] غدا تُوبّخ؛ وقت عرض ألواح: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: ٣٧]. بضاعتك أيامُ عمرك، وقد انتهبها قُطّاع الطريق، ورجعت إلى بيت الأسف. بأعدال[5] فارغة. فانظر، لعله تخلف فيها شيء تعامل به. فبقية عمر المؤمن لا قيمة له[6].

سُقْياً لزماننا الذي كـان لنا — وافقري أبعـد ذا الفقر غنَى
ما أسـرع ما تولع البين بنا — واقرب منيتي وما نلت منى

---

(١) انجاب: أقلع.

(٢) كاس: تعقّل.

(٣) الزردية: الدرع.

(٤) أباجاد: حروف الأبجدية: أبجد هوّز . . إلخ.

(٥) أعدال: جمع عدل. وهو الغبيط أو الحقيبة التي توضع فيها الأمتعة على البعير.

(٦) لا قيمة له: يعني لا تعدله قيمة.

كان فضالة بن صيفي كثير البكاء، فدخل عليه رجل وهو يبكي، فقال لزوجته: ما شأنه؟ قالت: زعم أنه يريد سفراً بعيداً، وماله زاد.

يا هذا. الآخرة دار، سكانها الأخلاق الجميلة؛ فصادقوا اليوم سكانها، لتنزلوا عليهم يوم القدوم؛ فإن من قدم إلى بلد لا صديق له به نزل بالعراء.

يا هذا. فني العمر في خدمة البدن، وحوائج القلب كلها واقفة. انهض إلى التلافي، قبل التلف. الكَلَف[1] يُداوى قبل أن يصير بَهَقا، والبهق[2] يلاطف قبل أن يعود بَرَصا[3]. أما سمعت في بداية الزلل: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وفي وسطه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، وفي آخره: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. أتبكي على معاصيك والإصرار يضحك؟ أتخادع التوبة؟ وإنما تمكر بدينك؟!

رأيتُ النـاسَ خداعـاً إلـى جانـب خَـدّاعِ
يعيشون[4] مـع الذئـب ويبكـون مـع الراعـي

ويحك. حصِّل كبريت عزيمة؛ قبل أن تقدح نار توبة. وقبل نزول الحرب تملأ الكمائن. ويحك، لا تطمع أن تخرج إلى فضاء قلبك، حتى تتخلص من ربقات نفسك. كيف لا يفتقر إلى

(١) الكَلَف: سواد في صفرة في الجلد.

(٢) البهق: بياض رقيق ظاهر البشرة وقد يسوّد.

(٣) البرص: بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد مزاج.

(٤) يعيشون: كذا في المطبوع، وفي المخطوط: «يعيثون».

الرياضة لإزالة الكدر، من أول غذائه: دم الطمث؟ ابك على ظلام قلبك يضيء. إذا بكت السحاب إلى الربى تنسمت.

يا هذا، تسمع بالكيميا، وما رأيته صح قط. اجمع عقاقير التوبة في بوتقة العزم، وأوقد تحتها نار الأسى على ما سلف. فإن تصعّد منها نَفَسُ أسف؛ صار «نحاسُ» نحوسك «ذهبَ» سعادة.

أترى في بستاننا اليوم ثمراً قد توجّه صلاحه؟ كأني أشمّ ريح كبد محترقة. أي قلب قد لفحته نار الوجد ففاح نسيمه؟ أحسن منظوم في سلك الاعتذار: خرز الذل. أحلى نطق يلج سمع القبول: الاستغفار. أطرب كلام يحرك قلب الرحمة: التملق.

يا من بصدودهم لقلبي جرحوا

وازداد بي الغرام لما نزحوا

ما جدت بهم وهم بهجري سمحوا

هذا المطروح كم ترى يُطْرَحُ

قال عبدالله بن مرزوق لغلامه عند الموت: احملني فاطرحني على تلك المزبلة؛ لعلي أموت عليها، فيرى ذلي، فيرحمني.

عودوا وتعطفوا على قلب كئيب

لو شُقّ لبان فيه حزن ووجيب

يُدعى للموت في هواكم فيجيب

من أمل مثل فضلكم كيف يخيب

المذنب يأوي إلى الذل والبكا؛ كما يأوي الطفل إلى الأبوين. بكى أبوكم آدم على تفريطه؛ حتى جرت الأودية من دموعه. كان

كلما ذكر الجنة: قلق، وكلما رأى الملائكة تصعد: يحترق. تذكرّ المعاهد فحنّ

والذي بالبين والبعد بلاني ما جرى ذكر الحمى إلا شجاني
حبذا أهل الحمى من ساكن شفّني الشوقُ إليهم وبراني
كلما رُمْتُ سلواً عنهم جذب الشوقُ إليهم بعناني
أحسدُ الطيرَ إذا طارت إلى أرضهم أو أقلعت للطيران
أتمنى أنني أصحبها نحوهم لو أنني أعُطى الأماني
لا تزيدوني غراماً بعدكم حلّ بي من بعدكم ما قد كفاني
ذهب العمر ولم أحظ بكم وتقضّى في تمنّيكم زماني
يا خليليَّ احفظا عهدي الذي كنتما قبل النوى عاهدتماني
واذكراني مثل ذكري لكما فمن الإنصاف أن لا تنسياني
وسلا من أنا أهواه على أي جُرْمٍ صدّ عنّي وجفاني

* * *

الفصل الثامن عشر

أيها المشغول باللذات الفانيات: متى تستعد لملمات الممات؟ متى تستدرك هفوات الهفوات؟ أتطمع - مع حب الوسادات - في لحاق السادات؟ وأنّى تجعلك مثلهم؟ أنّى وهيهات.

يا مدمنَ اللذاتِ ناسٍ غدرَها ... اذكر تهجّم هادم اللّذاتِ

احذر مكائده فهنّ كوامنٌ ... في كرِّك الأنفاس واللحظاتِ

تمضي حلاوة ما احتقبت وبعده ... تبقى عليك مرارةُ التبعاتِ

يا حسرة العاصين يوم معادهم ... ولو انّهم سيقوا إلى الجناتِ

لو لم يكن إلا الحياء من الذي ... ستر الذنوب لأكثروا الحسرات

يا عظيم الجرأة، يا كثير الانبساط. ما تخاف عواقب هذا الإفراط؟ يا مؤثر الفاني على الباقي؛ غلطة لا كالأغلاط. ألك صبر يقاوم ألم السياط؟ ألك قدم يصلح للمشي على الصراط؟ أيعجبك لباس الصحة؟ كلا، وثوب البلا يخاط. داء المنون، داء أعيى على بقراط. كم رحل الموت على غارب اغتراب. كم ألحق تِرْبا بالأتراب في سفر التراب. إنما الموت مخرنبق[1] ليقول، ومجرمز[2] ليغول.

وكم من فتى يمسي ويصبح آمناً

وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري

يا شدة الوجل، عند حضور الأجل. يا حسرة الفوت، عند حضور الموت، يا خجلة العاصين، يا أسف المقصرين.

(١) مخرنبق: ساكت. وفي المثل: «مخرنبق لينباع» أي ساكت لداهية.

(٢) مجرمز: منقبض من: (اجْرمزّ) بتشديد الزاي. أي: انقبض.

للحلاج[١]:

إلى حتفي سعى قدمي أرى قدمي أراق دمي

فما أنفك من ندم وهان دمي فها ندمي

استَلِبْ زمانَك، يا مسلوب، وغالب الهوى، يا مغلوب. وحاسب نفسك، فالعمر محسوب. وامح قبيحك؛ فالقبيح مكتوب. واعجباً لنائم؛ وهو مطلوب، ولضاحك؛ وعليه ذنوب.

ألا ذكّراني قبل أن يأتي الموتُ

ويُبنى لجثماني بدار البلى بيتُ

وعرّفني ربي طريقَ سلامتي

وبصّرني لكنني قد تعاميت

وقالوا: مشيب الرأس يحدو إلى البلى

فقلت: أراني قد قربت فأدنيت

أين الدموع السواجم؛ قبل المنايا الهواجم؟ أين القلق الدائم؛ للذنوب القدائِم؟ أترى أثّرت الملاوم؟ في هذه الأقاوم[٢]؟ أيها القاعد والموت قائم. أنائم أنت عن حديثنا أم متناوم؟ لابد - والله - من ضربة لازم؛ تقرع لها سن نادم. لابد من موجِ هولٍ متلاطم؛ ينادي فيه نوحُ الأسى: ﴿لا عَاصِمَ﴾ [هود: ٤٣]. لابد من سقم السالم؛ ينسى فيه: «يا أم سالم»

---

(١) الحلاج: الحسين بن منصور: معروف، وهو الذي قتل في الزندقة، وقد كانت له مخرقات. وله شعر رائق. والشعر الجيد يتمثّل به. ولا ينظر من أين خرج.

(٢) الأقاوم: الأقوام.

يا من سينأى عن بنيه كما نأى عنه أبوه

مثِّل لنفسك قولهم: جاء اليقين فوجهوه

وتحلَّلوا من ظلمه قبل الممات وحلِّلوه

يا مؤخراً توبته بمطْل التسويف ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [المرسلات: ١٢].

كنت تقول: إذا شبتُ تبتُ.

«فهذي شهورُ الصيف عنّا قد انقضت»

قدّر أن الموت لا يأتي إلا بغتة[1]. أليس مرض الموت يبغت؟ ويحك قد نفد السليط[2]؛ فاستدرك ذُبالة المصباح[3]. في كل يوم تضع قاعدة إنابة؛ ولكن ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]. كم تعزم على طاعة وتوبة. يا «ليلى» الهوى ما تبصر «توبة». تبيت من العزم في شعار «أويس»[4] فإذا أصبحت: أخذت طريق «قيس»[5] تنقض عرى العزائم عروة عروة. كل صريع في الهوى: رفيق «عروة»[6]. كم تدفن كثيراً من الأعزة؟ وما يرجع «كُثَيِّر» عن حب «عزة».

جنونُك مجنونٌ ولست بواجد طبيباً يداوي من جنون جنون

خُلق قلبُك صافياً في الأصل، وإنما كدّرته الخطايا. وفي الخلوة يركد الكدر. تلمّح سبب هذا التكدير، فما يخفى الحال

(١) لا يأتي بغتة: في المطبوع: «لا يأتي إلا بغتة» والتصحيح من المخطوط.

(٢) السليط: الزيت والدهن.

(٣) ذبالة المصباح: فتيله.

(٤) أويس: هو القرني.

(٥) قيس: هو المجنون. مجنون بني عامر، صاحب «ليلى».

(٦) عروة: هو عروة بن حزام العذري، صاحب «عفراء».

على مُتلمِّح. كنت مقيما في دار الإنابة: نظيفاً، فسافرت في الهوى؛ فعلاك وسخ. أفلا تحنّ إلى النظافة؟ ألا يحرك البدويَّ ذِكْرُ نجْد؟

طال مرضك، واليوم بُحْرَان[1]. أتدرى ما البحران؟ تجتمع القوة والمرض فيختصمان، فإن غلبته جاءت العافية، وإن غلبها فالهلاك. هذه ساعةُ بُحرانِك، والعقل يقاوم الهوى؛ فانظر من يغلب؟

واعجباً كيف يستأسر أسدٌ لثعلب؟ يا مستهانا في خدمة النفس. اخرج إلى ديار القلب تعزّ.

«الفيلة» في الهند عوامل؛ تنقل رجال القوم وتخدمهم. فإذا خرجت إلى من يعرف قدرها: أكرمت.

«العود» في بلاده خشب، فإذا سوفر به إلى طلب الطيب، أعز.

«تفاح أصبهان» في بلده فاكهة، فإذا جيء به إلى العراق: دل على الطباع اللطيفة بريحه.

«الفهد» في الصحراء بهيمة؛ فإذا وقع بيد من يعرفه، غضب فيترضى.

«البازي» في البرية طائر، فإذا صيد، فسريره: كف الملك.

يا مختار الكون، وما يعرف قدر نفسه. أما أسجدت الملائكة بالأمس لك؟ وجعلتهم اليوم في خدمتك؟ لما تكبر عليك إبليس - وقد عبدني سنين - طردته. أفتصافيه على خلافي؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) بُحْران: «مولّد» وبحران المرض: انتكاسه فجأة.

أنا القائل قبل وجود أبيك للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] اطلعوا من خوخات تعبدكم، فانظروا ما أصنع؟ أخذت قبضة من تراب، فصببت عليها قطرات من ماء ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]. قال التراب والماء: وأي قدر لنا؟ فنزل دار تواضعهما عزيز: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. فانضم صدف بحر البدن على دُرِّ القلب، فانعقد، فصلح عرشاً لصفة: «ويسعنى».

خلا المثقف، بالطفل داخل البيت، فسطر في لوح سره العلم ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وأخرجه يوم التخيير، وقد حذق المكتوب ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]. ثم قيل له: لا يحتمل موضع الخلع، وجود ذر البذر؛ فاخرج إلى عالم الطبع. أكلتِ يا دودة القز؛ فاذهبي إلى الغزل، وتشاغلي بالنسج.

فنزل إلى دار المجاهدة؛ فظهر من ثمرة شجرته: صبر الخليل، وثبوت الذبيح، وجهاد يوسف، وكمال محمد ﷺ. ثم جاء الأولياء في هذه الدولة؛ فخجلت عند زهدهم الرهبة. لا بل سبقوا تعبد الملائكة. قال سري[1]: ما فاتني ورد قط؛ فقدرت على إعادته؛ وذاك أن الزمان الذي يُقْضى فيه فيه[2] وظيفة أخرى.

مالي شغل سواه مالي شغلُ ... ما يصرف عن هواه قلبي عذلُ
ما أصنع إن جفا وخاب الأمل ... منّي بدلٌ ومنه مالي بدلُ

---

(١) سري: هو السقطي. الزاهد المعروف.

(٢) يُقْضى فيه فيه: في المطبوع: «مضى فيه» والتصحيح من المخطوط.

كانت «رابعة[١] العابدة» تقوم من أول الليل، وتقول:

قام المحبُّ إلى المؤمَّلِ قومةً كاد الفؤاد من السرور يطير

فإذا انقضى الليل صاحت: واحرباه، واسلباه.

ذهب الظلامُ بأُنسه وبإلفه ليت الظلامُ بأنسه يتجددُ

دخلوا على «زجلة العابدة» فكلموها في الرفق بنفسها، فقالت: والله لأصلين لله، ما أقلتني جوارحي، ولأصومن له أيام حياتي، ولأبكين ما حملت الماء عيناي.

لا أقبل نصحكم فخلوا عذلي ما أعذب في الغرام طعم القتلِ

إن طُلّ دمي فكم محب مثلي قد ضُرّجَ باللحاظِ لا بالنبل

أين أنت والأحباب؟! كم بين القشور واللباب؟!

لصردر:

هل مُدْلجٍ[٢] عنده من مُبْكرٍ[٣] خبر

وكيف يعلم حال الرائح الغادي

يا معجباً بتعبده؛ تأمل فضائل السابقين، وقد هدرت شقاشق[٤] كبرك. النظرُ في سِيَرِهم: قَرظٌ[٥] يجفف عفن الرعونة.

مضى والله أهلُ المعاني، وتخلف أربابُ الدعاوي.

هاتيك ربوعهم وفيها كانوا بانوا عنها فليتهم ما بانوا

ناديت وفي حشاشتي نيران: يا قومُ متى تحوّل السكان

---

(١) رابعة: في المخطوط: «ريحانة». (٢) مدلج: السائر آخر الليل.

(٣) مبكر: السائر في البكور.

(٤) هدرت الشقاشق: هو أن يخرج البعير غُدّة من فمه إذا هاج وغضب.

(٥) قَرَظٌ: ورق السلم يدبغ به الأديم.

الفصل التاسع عشر

عجباً لراحل مات؛ وما تزود للرِحْلةْ. ولمسافر ماج؛ وما جمع للسفر رَحْلهْ. ولمنتقل إلى قبره؛ لم يتأهب للنقلةْ. ولمفرط في أمره؛ لم يستشر عقلهْ.

لصردر:

لا مريةَ في الردى ولا جدلُ	العُمْر دينٌ قضاؤه الأجلُ
للمرء في حتف نفسه شغلٌ	فما تريد السيوف والأسَل[1]
يفري الدجى والضحى بأسلحة	سيّان فيها الدروع والحُلل
كأسٌ أُديرت على لذاذتها	عدل فيها الذعاف[2] والعسل
كلٌ إلى غاية يصبرُ ولا	تمييز إلا الإسراع والمهل
والناس ركب يهون حثّهم	ولا يُسرُّون أنهم نُزل
وسوف تُطوى مسافةٌ ذَمَلَت[3]	بقاطعيها ركائبٌ ذلل
كيف يعدّ الدنيا له وطناً	من هو عنها ينأى وينتقل
نسخو بأعمارنا ونبخل با	لمال فتبّ السخاء والبخل
أضاع راقي الداء العضال كما	ضُيِّع في سمعِ عاشقٍ عذلٌ[4]
ولو نجا الهائب الجبان من الـ	موت نجا في إقدامه البطل
ما أسلموا هذه النفوس إلى الـ	أجداث إلا إذا ضاقت الحيل

(٥) الأسل: الرماح والنبْل.

(١) الذعاف: السم.

(٢) ذملت: سارت سيرا ليّنا ما كان، أو فوق العَنَق.

(٣) العذل: اللوم.

ضرورة ذلت القروم[١] لها وقد تقود المصاعب الجُدُلُ[٢]
ومن حذر تبوّأ الكُدية[٣] الضبُّ وأوفى الشواهقَ الوعْل[٤]
يقاد في عزه الخبعثنة[٥] الضا ري ويدهى في ذله الجعل
وهل يردّ الأحبابَ إن ظعنوا على محب أن يُندبَ الطلل

إخواني، مرّ الأقرانُ على مدرجة، وخيول الرحيل للباقين مُسْرَجة. سار القوم إلى القبور هملجة، وباتت الأرواح من الأشباح مستخرجة. إلى كم هذا التسويف والمجمجة؟ بضائعكم كلها بهرجة. وطريقكم صعبة عوسجة[٦]. وستعرفون الخبر وقت الحشرجة.

يا من قد ساخ في الأوساخ. إلى كم تُملي؟ تعبتْ النُسّاخ. يا من ضيع الشباب، وما يسمع العتاب، وقد شاخ. بادر صبابة القوى، فاستدرك باقي الطَّبَاخ[٧]. وتأهب للرحيل، فما هذه الدنيا بمناخ. كم بات مزمار في بيت؛ فأصبح فيه الصراخ.

أين من حصّن الحصون واحترس؟ وعمر الحدائق وغرس؟ ونصب سرير الكبر وجلس؟ وظن بقاء النفس؟ فخاب الظن في نفس؟ نازله الموت، فلما أنزله عن ظهر الفرسِ، فُرِس[٨]. ووجه

---

(١) القروم: جمع قرم، وهو السيد.

(٢) الجدل: جمع جديل، وهو الزمام أو الحبل المجدول من أدم أو شعر.

(٣) الكُديَة: بضم الكاف: المكان الصلب بين الحجارة والطين.

(٤) الوعْل: تيْس الجبل.

(٥) الخبعثنة: الأسد.

(٦) عوسجة: شوك.

(٧) الطباخ: كسحاب، وقد يُضم: الإحكام والقوة.

(٨) فُرِس: مات.

وجهه إلى ديار البلى؛ فانطمس. وتركه في ظلام ظلمه بين العيب والدنس. فالعاقل من بادر الندامة؛ فإن السلامة خلس.

لابن المعتز:

ألا من قلبٍ في الهوى غير مُنته
وفي الغي مطواع وفي الرشدُ مكرهِ
أُشــاوره فــي توبـةٍ فيقـول: لا
فإن قلت: تأتي فتنة قال: أين هي

سابقةُ القدر، قضت لقوم، بدليل: ﴿سَبَقَتْ لَهُم﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وعلى قوم، بدليل: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]. تلقيحُ: ﴿سَبَقَتْ﴾. نورّ قلوبَ الجن: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، وخذلان: ﴿غَلَبَت﴾. أعمى بصائر قريش فقالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

إذا هُزّت صوارمُ القدر؛ تقلقلت رقاب المقربين. غضب على قوم؛ فلم تنفعهم الحسنات، ورضي عن قوم: فلم تضرهم السيئات. ما نفعت عبادة إبليس، ولا ضرّ عناد السحرة.

هبت عواصف الأقدار، في بيداء الأكوان، فنقلت الوجود، وعم الخبر، فلما ركدت الريح، إذا «أبو طالب» غريق في لجة الهلاك، و «سلمان» على ساحل السلامة، و «الوليد بين المغيرة» يقدم قومه في التيه، و «صهيب» قد قدم بقافلة الروم، و «أبو جهل» في رقدة المخالفة، و «بلال» ينادي: الصلاة خير من النوم.

لما قُضيت، في القدم، سلامة سلمان؛ أقبل يناظر أباه[1]، في دين قد أباه[1]. فلم يعرف أبوه جوابا، إلا القيد. وهذا الجواب

(١) أباه: الأولى: والده، والثانية: رفضه.

المرذول، قديم من يوم: ﴿حَرِّقُوه﴾ [الأنبياء: ٦٨]. فنزل به ضيف: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. فنال بإكرامه، مرتبة: «سلمان منا»[١].

سمع أن ركبا على نية السفر؛ فسرق نفسه من حِرْز أبيه، ولا قطع. فوقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء. فلما أحسّ الرهبان بانقطاع دولتهم، سلموا إليه أعلام الإعلام على علامات نبينا، وقالوا: إن زمنه قد أظل، فاحذر أن تضل. وإنه يخرج بأرض العرب، ثم يهاجر إلى أرض بين حَرَّتين.

فلو رأيتموه قد فلى الفلا[٢] والدليل شوقه. وخلى الوطن خلاء، يزعجه توقه.

لأبي العلاء المعري:

وأبغضت فيك النخل والنخـل يانـع

وأعجبني من حبك الطلح والضال[٣]

وأهوى لجرّاك[٤] السماوة والغضا[٥]

ولـو أن ضيفيـه وُشَـاةٌ وعُـذّالُ

رحل مع رفقة لم يرفقوا؛ فشروه بثمن بخس، فابتاعه يهودي بالمدينة. فلما رأى الحرتين؛ توقد حرُّ شوقه. وما علم المنزل بوجد النازل.

(١) الطبراني في الكبير: (٦٠٤٠) من حديث عمرو بن عوف. وفي إسناده كثير بن عبدالله، وأبو يعلى: (٦٧٧٢) من حديث علي. وفي إسناده سعد بن طريف، وجعفر بن سليمان، وانظر مجمع الزوائد: (٦/ ١٣٠)، (٩/ ١١٧، ١١٨).

(٢) فلى الفلا: سافر، وقطع الفلاة.

(٣) الطلح والضال: نوعان من الشجر.

(٤) لجراك: لأجلك.

(٥) السماوة والغضا: موضعان.

للمتنبي:

أيدري الربـع أي دم أراقـا وأي قلوب هذا الركب شاقا

لنـا ولأهـله أبــداً قلــوب تلاقي فـي جسـوم ما تلاقى

فبينا هو يكابد ساعات الانتظار، قدم البشير بقدوم البشير، وسلمان في رأس نخلة. فكاد القلق يلقيه؛ لولا أن الحزم أمسكه، كما جرى يوم: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ [القصص: ١٠]. ثم عجل النزول؛ ليلقى ركب السيارة.

خليلي من نجد قفا بي على الربى

فقد هب من تلك الرسـوم نسيـم

فصاح به المالك: مالك ولهذا؟ انصرف إلى شغلك. فأجاب لسان وجده:

«كيف انصرافي ولي في داركم شغل»

فأخذ يضربه. فأخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش:

خليلي لا والله ما أنا منكما إذا عَلَمٌ من آل ليلى بدا ليا

فلما لقي الرسول؛ عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل. فوافق ووافق[1].

يا محمد؛ أنت تريد أبا طالب، ونحن نريد سلمان.

أبو طالب إذا سئل عن اسمه، قال: عبد مناف، وإذا انتسب افتخر بالآباء، وإذا ذكرت الأموال عدّ الإبل.

وسلمان إذا سئل عن اسمه، قال: عبدالله، وعن نسبه، قال:

---

(١) ووافق: في المخطوط: «فرافق».

ابن الإسلام، وعن لباسه، قال: التواضع، وعن طعامه، قال: الجوع، وعن شرابه. قال: الدموع، وعن وساده، قال: السهر. وعن فخره، قال: «سلمان منا»، وعن قصده، قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

للشبلي:

إن بيتاً أنت ساكنه ... غيرُ محتاجٍ إلى السرج

وعليلا أنت زائره ... قد أتاه الله بالفرج

وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتي الناس بالحجج

★ ★ ★

الفصل العشرون

يا من يمشي على ظهور الحفر، ويرى السابقين إلى بيوت المدر، لو أصغى سمعك للنذير؛ سَمِعَ العبر. كفى بالموت واعظاً يا عمر.

لأبي العتاهية:

وعظتك أجداثٌ صُمُت ونعتك أزمنة خفت

وتكلمت عن أعظم تبلى وعن صور شتت

وأرتك قبرك في القبور وأنت حيٌّ لم تمت

يا سادرا في سكر سروره، يا سادلا ثوب غروره: كأنك بك، قد اقتعدت[1] غارب[2] الغربة، واستبدلت بالأثواب التربة. سيَقْسِمُ مالك من لا يحمدك، وستقدم على من لا يعذرك. غدا يرجع الحبيان عنك؛ حبيبك من أهلك، يقسم حبيبك من مالك. وأنت في قفر الفقر إلى ما أسلفت، تبكي على ما خلّفت، بين أناس كلهم أسير الفَرَق[3]، وجميعهم على مهاد القلق.

محلة سَفْرٍ[4] كان آخر زادهم

إليه متاع من حنوط ومن خِرَق

إلى منزلٍ سوّى البلى بين أهله

فلم تستبن فيه الملوك من السوق[5]

---

(١) اقتعدت: اتخذته مقعدا.

(٢) الغارب: الكاهل، أو ما بين السنام والعنق.

(٣) الفرق: الخوف.

(٤) سفر: مسافرون.

(٥) السوق: السوقة، والعامة.

إلى متى تبقى بدائك؟ أهذا الذي تفعله برأيك؟! لقد حل فَناؤُك بِفِنائك. وأخبر انتقاض بنائك بنأيك. وإن وراءك طالبا لا تفوته، وقد نُصب لك علمٌ لا تجوزه. فما أسرع ما يدركك الطالب، وما أعجل ما تبلغ العلم.

إخواني، هذا الموتُ غَدَا[1]، يقول: الرحيل غداً[2]. كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصور بالصور؟ فأسمع العظام البالية تحت المدر؛ فاجتمعت من بطون السباع، وحواصل الطير، فقامت تبكي على فوات الخير. وسار الخلائق كلهم حفاة عراة، كل منهم مشغول بما عراه. وقد رُجّت الأرض، وبُست الجبال، وذهلت العقول، وشاب الأطفال.

أيا نفس حقك أن تجزعي	ويـا عيـن إيــاك أن تهجعي
ويا أذني إن دعـاك الهوى	فإيــاك إيــاك أن تسمعـي
وبالله يا جفنَ عيني القريح	ضرّج بفيض الدمــا أدمعي
ويا كـل جارحـة لـي عليك	حفيظ فابكي ونوحـي معـي
يسير بنا الدهـر مـن موضع	ترحّـل عنـه إلـى موضـع
إلى حيث لا العين فيه ترى	ولا الأذن إن خاطبوها تعي
فيـا ويلتنا من طريـق هنـاك	طويلٍ بعيـدِ المـدى مُسْبـع

ياأهل الذنوب والخطايا، ألكم صبر على العقوبة؟ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١٥]. إذا شاهدَتْ من اشترى لذة ساعة بعذاب سنين ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]. من أراد أن ينجو منها؛ فليتب

(١) غدا: الأولى: أصبح، والثانية: اليوم التالي.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٣، ٤].

كيف أمن العصاة؟ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. كيف نسوا غب الزلل؟ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

إخواني، مثّلوا أهل الجنة ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥]، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، ومعهم توقيع: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: ٦٢]. فلما وصلوا إلى الجنان ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وبدأهم الخزنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وبشروهم بالبقاء الدائم: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقرأت الأملاك - من سجلّ الإملاك - مبلغ الثمن: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، وجميع المرادات داخلة في إقطاع: ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]، وقد استرجح في الميزان ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وأتم التمام: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وهـذا السـرور بتلك الكـرب　　وهـذا النعيـم بـذاك التعب

ويحك. ميز بعقلك وحسك بين الدارين، وأحضر الذنب والعقاب والْمح العاقبتين. هذا الحيوان البهيمي ينظر في العواقب.

هذا الإيَّل[1] يأكل الحيات، فيشتد عطشه، فيحوم حول الماء ولا يشرب؛ لعلمه أن الماء ينفذ السموم إلى أماكن لا يبلغها الطعام. ومن عادته أنه يسقط قرنه كل سنة - وهو سلاحه - فيختفي إلى أن ينبت.

هذه الحية، تختفي طول الشتاء بالأرض، فتخرج وقد عشي

(١) الإيّل: الوعل، أو تيس الجبل.

بصرها، فتحكه بأصول الرازايانج؛ لأنه يزل العشا.

هذا الفهد، إذا سمن علم أنه مطلوب، وشحمه يمنعه من الهرب، فهو يستر نفسه إلى أن ينحلّ الشحم.

هذه النملة تدخر في الصيف للشتاء؛ فإذا خافت عفن الحب، أخرجته إلى الهواء؛ فإذا حذرت أن ينبت، نقرت موضع القطمير[(١)].

أسمعت يا مقطوع الحيلة؟ متى تدخر من صيف قوتك إلى شتاء عجزك؟

هذه السمكة إذا حبستها الشبكة؛ جمزت بكل قوتها، لتقطع الحابس. لو نهضت بقوة العزم؛ لانخرقت شبكة الهوى.

إذا مد النهر، اغتنمت ذلك المد الزنابير، فبنت منه بيوتاً؛ لأنه لا يصلح لها غيره. مدّ بحرُ الشباب وما بنيت بيت جد. فحدثني ما الذي تصنع في القحل؛ إن فاتك زمن المد؟ فمدُّ اليد للسؤال حيلة المفلس.

يا محصراً عن الوصول، لا يجزئِه الهدي. يا منقطعاً في الطريق عن جملة الوفد. تحامل إلى بعض خيم أهل الوصل، وأشهد على وصيتك ذوي عدل. وناد في النادي بصوت الذل:

إذا ما وصلتم سالمين فبلّغوا تحيةَ مَنْ قد ظنّ أن لا يرى نجداً

وابسط في الدجى يد الطلب؛ فأطيب ما أكل الرجل من كسب يده. وقل بلسان التملق:

أحبابنا أنا ذاكم العبد الذي راعيتموه ناشئاً ووليدا

حالت به الأحوال بعد فراقكم فرمى بأسرته وجاء فريدا

---

(١) القطمير: الشق في الحبة والنواة.

إذا جلست في ظلام الليل، بين يدي سيدك، فاستعمل أخلاق الأطفال؛ فإذا الطفل إذا طلب من أبيه شيئاً فلم يعطه، بكى عليه.

بَلَغ المُنى مَن حلّ في وادي مِنى
غيري فإني ما بلغت مرادي
وبكيت من ألم الفراق وشقوتي
فبكى الحجيجُ بأسره والوادي

يا من قد نزلت به بلية الطرد، تروّح إلى حديث المناجاة؛ وإن لم تُسمع منك. وابعث رسائل الأحزان، مع رياح الأسحار، ولو لم تصل.

يا نسيم الشمال بلّغ خطابي
واشف مني الجوى بحمل الجواب
طُفْ بساحاتِ ذلك الربع واحمل
ذرة من تراب ذاك الجناب
قل لمولاي: يا منى الروح والقلب
ومن فيه ذِلتي وانتحابي
كنت أخشى الوشاة فيك ولكن
جفوة الحب لم تكن في حسابي

* * *

الفصل الحادي والعشرون

يا ساعياً لنفسه في المهالك، دنا الرحيل، ونضو[١] النقلة بارك. متى تذكر وحشتك بعد إيناسك؟ متى تقتدي من ناسك[٢] بناسك[٣]؟ كأنك بك: قد خرجت عن أهلك وولدك، وانفردت عن عَددك وعُددك، وقتلك سيف الندم، ولم يَدِك[٤]، ورحلت ولم يحصل بيدك، إلا عض يدك.

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى
ولم تر في الباقين ما يصنع الدهرُ
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم
محاها مجال الريح بعدك والقطر
على ذاك مروا أجمعون وهكذا
يمرّون حتى يستردّهم الحشر
فحتّام لا تصحو وقد قَرُبَ المدى
وحتّام لا ينجاب عن قلبك السُكْر
بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا
وتذكر قولي حين لا ينفع الذكر

يا من يذنب ولا يتوب، كم قد كتبت عليك ذنوب. خل الأمل الكذوب، فرُبَّ شروقٍ بلا غروب.

---

(١) نضو: النضو: المهزول من الإبل وغيرها.

(٢) ناسك: أهلك. (٣) بناسك: بعابد.

(٤) ولم يَدِك: لم يؤد ديتك.

وآأسفى. أين القلوب؟ تفرقت بالهوى في شعوب. ندعوك إلى صلاحك ولا تؤوب. واعجبا. الناس ضروب.

متى تنتبه لخلاصك أيها الناعس؟ متى تطلب الأخرى يا من على الدنيا ينافس؟ متى تذكر وحدتك إذا انفردت عن مؤانس؟ يا من قلبه قد قسا، وجفنه ناعس، يامن تحدثه الأماني: دع هذه الوساوس. أين الجبابرة الأكاسرة الشجعان الفوارس؟ أين الأُسْد الضواري والظباء الكوانس؟ أين من اعتاد سعة القصور: حبس من القبور، في أضيق المحابس؟ أين الرافل في أثوابه، عري في قرابه عن الملابس؟ أين الغافل في أمله عن أجله، سلبه كف المخالس؟ أين حارس المال؟ أخذ المحروس وقتل الحارس.

يا مضمراً حب الدنيا، إضمار الجمل الحقود. نبعث منقاش اللوم؛ وما يصل إلى شظايا المحبة. الدنيا جيفةٌ قد أراحت[١]، ومزكوم الغفلة ما يدري. سوقٌ فيها ضجيج الهوى، فمن يسمع صحيح[٢] المواعظ؟

علمتني بهجرها الصبرَ عنها   فهي مشكورة على التقبيح

إذا أردت دواء حبها فأول ما في الشربة صبر. انفرد في صومعة الزهد، واحفر خندق الحذر، وأقم حارس الورع، ولا تطّلع من خوخة مسامحة؛ فإن البغي في الفتى صنَّاع[٣].

---

(١) أراحت: أنتنت وظهرت رائحتها.

(٢) صحيح: هذه الزيادة من المخطوط.

(٣) صناع: حاذق ماهر.

لصردر:

النجاء النجاء من أرض نجد قبل أن يعلق الفؤاد بوجد
كم خليٍّ غدا إليه وأمسى وهو يهذي[١] بعلوة وبهند

حصِّن حصْن التقى بسور القناعة؛ فإنّ لصّ الحرص يطلب ثلمة. غريمُ الطبع متقاضٍ مُلِحّ، والشره شرك، وخُمار[٢] المنى داء قاتل. بينا الحرص يمد وتر الأمل؛ انقطع. هل العيش إلا كأس مشوبة بالكدر؟ ثم رسوبها الموت ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال محمد بن واسع: لو رأيتم رجلا في الجنة يبكي، أما كنتم تعجبون؟ قالوا: بلى. قال: فأعجب منه في الدنيا: رجل يضحك ولا يدري إلام يصير؟

ضحك بعض الصالحين يوما ثم انتبه لنفسه، فقال: تضحكين وما جزت العقبة؟ والله لا ضحكت بعدها، حتى أعلم بماذا تقع الواقعة.

يا نسيم الشمال بالله بلِّغ ما يقول المُتيّم المستهامُ
قل لأحبابنا: فداكم محبٌ ليس يسلو[٣] ومُقْلةٌ لا تنام
كلُّ عيشٍ ولذةٍ وسرورٍ قبل لقياكم عليَّ حرام

فرّغ القوم قلوبهم من الشواغل؛ فضُربت فيها سرادقاتُ المحبوب. فأقاموا العيون تحرس تارة، وترش الأرض أخرى.

---

(١) يهذي: في المطبوع: «يهوى» والتصحيح من المخطوط.

(٢) خمار: أذى الخمر وما خالط سكرها.

(٣) يسلو: يتسلى عن العشق وينساه.

هيهات، هان سهر الحراس؛ لمّا علموا أن أصواتهم بِسمْعِ الملك.

لابن المعتز:

أيها المالك الذي سهري فيه كطعم الرقاد بل هو أحلى

غرضي ما يريده بي حبيبي لو سقاني مُهْلا لما قُلتُ: مَهْلا

لست أدري أطال ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى

إن للعاشقين في قِصَرِ الليل وفي طوله عن النوم شغلا

لو تفرّغتُ لاستطالةِ ليلي أو لرعي النجوم كنت مُخلاّ

وغرام الفؤاد مُذْ غبتَ عنه لم يَحُلْ عن هواك حاشى وكلاّ

إن نطقوا فبذكره، وإن تحركوا فبأمره، وإن فرحوا فلقربه، وإن ترحوا[1] فلعتبه.

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت إلا وأنت مُنى قلبي ووسواسي

ولا جلستُ إلى قوم أحدثهم إلا وأنت حديثي بين جُلاّسي

ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ إلا رأيت خيالا منك في الكاس

أقواتهم ذكرى الحبيب، وأوقاتهم بالمناجاة تطيب. لا يصبرون عنه لحظة، ولا يتكلمون في غير رضاه بلفظة.

حياتي منك في روح الوصال وصبري عنك من طلب المحال

وكيف الصبر عنك وأيُّ صبرٍ لعطشان عن الماء الزلال

إذا لعب الرجالُ بكل شيءٍ رأيت الحبَّ يلعبُ بالرجال

كم تدرس[2] أخبارهم؛ وما تدرس[2]. لئن طواهم الفناء؛ لقد

---

(١) ترحوا: من الترح. أي الحزن.

(٢) تدرس: الأولى من الدراسة والمذاكرة، والثانية من الاندراس.

نشرهم الثناء. لو سمعتهم في الدجا يعجون، لو رأيتهم في الأسحار يضجون. لولا نسائِم الرجاء كانوا ينضجون.

مالـي عن وصلك اصطبارُ	إليـك مـن هجـرك الفـرارُ
أصبحـت ظمـآن ذا جفـون	ميـاه أخلافهـا غـزار
أروم كتمـان مـا ألاقـي	وبالأماقـي لـه اشتهـار
ومـن نسيـم الصبـا إذا ما	هبّـت علـى أرضكـم أغـار
آه لذكـري ديـار سلمـى	لا أجـدبت تلكـم الديـار
لهفـي لعيـش بهـا تولّـى	نظيـر أيامـه النضـار[1]
إذ أعيـن الدهـر راقـدات	وفـي غصـون الهـوى ثمـار

* * *

---

(١) النضار: الذهب أو الفضة.

الفصل الثاني والعشرون

أيها الحاطب على أَزْره[1] وزراً وآثاما. تنبه ترى الدنيا - أحلى ما كانت - أحلاما. كم نكسّ الموتُ فيها أعلاما؟ أعلى ما[2]. كم أذل بقهره أقواماً؟ أقوى ما[3]. لا كان «مفتاح» أمسى له الموت ختاماً.

من على هذه الديار أقاما	أو صفا ملبس عليه فداما
عُجْ[4] بنا نندب الذين تولوا	باقتياد المنون عاما فعاما
تركوا كل ذروة من أشمٍّ	يحسر الطرف ثم حلوا الرغاما
يا لحا الله مُهْمِلاً حَسبَ الدهرَ	نـؤومَ الجفـونِ عنه فناما
هل لنا بالغين كل مراد	غير ما يملأ الضلوع طعاماً
وإذا أعوز[5] الحلال فشلَّ الله	كفًا جرت إليها حراما

التبعات تبقى، واللذات تمرّ. وغِبُّ الأَرْيِ[6]، وإن حلا فهو مُرّ. وكأن قد عوى في دار العوافي، ذئبُ الضر. وما يلهي شيء من الدنيا ويسر؛ إلا يؤذي ويضر. وقد بانت عيوبها، فليس فيها ما يغر، وإنما يعشقها الجهول، ويأنف منها الحر:

تذلّ الرجال لأطماعها	كذل العبيد لأربابها
ولا تجنين ثمار المنى	فتجني الهوان بأعقابها

---

(١) أزره: الأزر الظهر.

(٢) أعلى ما: أراد أعلى ما تكون.

(٣) أقوى ما: أراد أقوى ما تكون.

(٤) عُجْ: مِل.

(٥) أعوز: قلّ وشحَّ.

(٦) الأري: العسل. والغب: العاقبة.

إخواني، ربما أورد الطمعُ، ولم يُصِدر. كم شارب شَرِق قبل الري. من أخطأته سهام المنية؛ قيده عقال الهرم. ألا يتيقّظ العاقل بأضرابه؟ ألا ينتبه الغافل بأوصابه؟ أيسلم والرامي تحت ثيابه؟ يا مريضاً أتعب الأطباء ما به. كأنك بالدنيا التي تقول: مرحباً. قد حلّت الحبى[1]. وتفرقت تفرق أيدي سبا.

ويحك أخوك من عذلك[2]، لا من عذرك. صديقك من صدَقك لا من صدّقك.

ويحك، من يُطريك يطغيك، وما لا يعنيك يعنيك. تتوب صباحاً، فإذا أمسيت تحول وتعول[3]. وتقول؛ غير أنك تنقض ما تقول. وتتلون دائماً كما تتلون الغول.

يا عبد الهوى، إن دعا: أمنّت، وإن ادّعى: آمنت. كم قال لك الهوى، وسمعت: «أنا مكار»؛ وتبعت. والله لقد أفتك[4] أضعاف ما أفدتك. ولقد أعذر من أنذر. وما قصّر من بصّر.

لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابها؛ لجأوا إلى حصن الزهد، كما يأوي الصيد المذعور إلى الحرم. لاح لهم حَبُّ المشتهى، فلما مدوا إليه أيدي التناول؛ بان لأبصار البصائر خيط الفخ؛ فطاروا بأجنحة الحذر، وصوّتوا إلى الرعيل الثاني: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

---

(١) الحبى: من الاحتباء، وهو الاشتمال بالثوب ونحوه.

(٢) عذلك: لامك على التقصير.

(٣) تعول: تجور وتميل.

(٤) أفتك: أي أضعت منك.

جمعوا الرحْل قبل الرحيل، وشمروا في سواء السبيل. فالناس في الغفلات؛ وهم في قطع الفلاة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]. لو رأيت مطايا[١] أجسامهم، وقد أذابها السُّرى، فهي تحنُّ، مما تُجنُّ[٢]، فتبكي الحداة[٣].

للمصنف:

حنّت فأذكت لوعتي حنينا ... أشكو من البين وتشكو البينا
قد عاث في أشخاصها طول السُّرى ... بقدر ما عاث الفراق فينا
فخلِّها تمشي الهوينا طال ما ... أضحت تباري الريح في البرينا[٤]
وكيف لا نأوي لها وهي التي ... بها قطعنا السهل والحزونا
إن كن لم يفصحن بالشكوى لنا ... فهنّ بالإرزام[٥] يشتكينا
قد أقرحتْ بما تحِنُّ كبدي ... إن الحزين يُسعد الحزينا
وقد تياسرت[٦] بهن جائراً ... عن الحمى فاعْدل بها يمينا
يقول صحبي: أترى آثارهم ... نعم ولكن لا أرى القطينا[٧]
لو لم تجد ربوعهم كوجدنا ... للبين لم تبل كما بلينا
أكلما لاح لعيني بارقٌ ... بكت فأبدت سِريّ المصونا
لا تأخذوا قلبي بذنب مقلتي ... وعذّبوا الخائن لا الأمينا

---

(١) مطايا: في المخطوط: «مطاياهم».

(٢) تجن: تستر وتحوي.

(٣) الحداة: جمع حادٍ، وهو الذي يسوق الإبل.

(٤) البرينا: الظاهر أنّ معناها: البرية. أي: الصحراء.

(٥) الإرزام: من: أرزمت الناقة. إذا حنّت على ولدها.

(٦) تياسرت: ذهبت يساراً.

(٧) القطين: أهل الدار وسكّانها.

دارت قلوب القوم في دائرة الخوف: دوران الكرة تحت الصولجان، فهاموا في فلوات القلق؛ فمن خائِف مُستجير، ومن واجدٍ يقول، ومن سكرانٍ يبثّ.

إذاً لعب الرجالُ بكلِّ شيء رأيت الحبَّ يلعبُ بالرجال

طالت عليهم بادية الرياضة، ثم بدت بعدها الرياض، فاستوطنوا «فِرْدوس الأُنْس» في قُلّة «طُورِ» الطلب.

شِقينا في الهوى زمناً فلما تلاقينا كأنّا ما شَقِينا
سخطنا عندما جنت الليالي فما زالت بِنا حتى رَضينا
فمن لم يَحي بعد الموت يوماً فإنا بعدما مِتْنا حيينا

وقفتُ على قبر بعض الصالحين؛ فقلت: يا فلان، بماذا نلت تردد الأقدام إليك؟ فقال: أقدمتُ على ردِّ الهوى بلا تردد؛ فترددت إلي الأقدام. كان عطر إخلاصي خالصاً؛ فعبِقَ نَشْره بالأرواح.

للمهيار:

جرت مع الرسم لي محاورة فهمتُ منها ما قاله الرسم
هل لك بالنازلين أرض «منى» يا علم الشوق بعدنا علم

أدلج القوم طول الليل في السُّرى، وخافوا عوز الماء؛ فتمموا المزاد بالبكاء.

سلوا غير طرفي إن سألتم عن الكرى فما لجفون العاشقين منام

سكن الخوف قلوبهم فأذابَها؛ فإذا بِها في محلّة الأمن. نحلوا المعرفة فتحلوا، فَعُمر قصرُ القلبِ للملك. وقنعت الحواشي في القاع بالخيم.

وكم ناحل بين تلك الخيام تحسبه بعض أطنابها[1]

يا هذا، سرادق المحبة لا يضرب إلا في قاعٍ فارغٍ نَزِه[2] «فرغ قلبك من غيري؛ أسكنه».

للشريف الرضي:

تركوا الدار فلما نزلوا القلب أقاموا
يا خليليّ اسقياني ومن الوجد مدام
وصفا لي قلعة الركب ولليل مقام
ومنى أين منى مني لقد شطّ المرام
هل على جمْعٍ نزول وعلى الخيف خيام

بحقٌّ لأبدانِ المحبين تذوب، ولسماء أعينهم، تهمي وتصوب. لو حملوا جبال الأرض، مع كر الكروب؛ كان ذلك قليلا في حب المحبوب.

لابن المعتز:

رأى خضوعي فصدَّ عني فازددت ذلا فزاد تيها[3]
قلت له خاليا وعيني قد أحرق الدمعُ ما يليها:
هل لي في الحب من شبيه قال: وأبصرتَ لي شبيها

★ ★ ★

(١) الأطناب: جمع طُنُب: وهو حبل طويل يشد به سرادق البيت، أو الوتد.
(٢) نزه: نزيه أو منزه.
(٣) تيها: من التِّيه. وهو الكبر.

الفصل الثالث والعشرون

إخواني. شمروا عن سُوق[(١)] الدأب في سوق[(١)] الأدب. واعتبروا بالراحلين، وسلوا السلب؛ قبل أن يفوت الغرضُ بالمرضِ - إن عَرَض - فكأنكم بمبسوط الأمل قد انقبض، وبمشيد المنى قد انتقض.

يا ساكن الدنيا تأهّب ... وانتظر يوم الفراق
وأعدّ زادا للرحيل ... فسوف يُحدى بالرفاق
وابك الذنوبَ بأدمعٍ ... تنهلُّ من سُحُب المآق
يا من أضاع زمانه ... أرَضِيتَ ما يفنى بباق

أين عزائم الرجال؟ أين صرائم[(٢)] الأبطال؟ تُدعى وتَتوانى؟! هذا محال.

أشتاقُكم ويحولُ العزمُ دونكم ... فأدعي بُعْدَكم عني وأعتذرُ
وأشتكي خطراً بيني وبينكم ... وآية الشوق أن يُستصغر الخطر

إن هممت فبادر، وإن عزمت فثابر. واعلم أنه لا يُدرك المَفَاخر من رضى بالصفّ الآخر. قال عمر بن عبدالعزيز: خلقت لي نفس توّاقة[(٣)]، لم تزل تتوق إلى الإمارة. فلما نِلْتها؛ تاقت إلى الخلافة. فلما نلتها؛ تاقت إلى الجنة.

---

(١) سوق: الأولى: جمع ساق. والثانية: السوق المعروف.

(٢) صرائم: جمع صريمة. وهي العزيمة.

(٣) توّاقة: تشتاق إلى الأعلى.

لأبي فراس:

بدوت[١] وأهلي حاضرون لأنني ... أرى أن داراً لست من أهلها قَفْرُ
وما حاجتي في المال أبغي وفوره ... إذا لم يفر عرضي فلا وفر الوفر
وقال أصيْحابي: الفرار أو الردى ... فقلت: هما أمران أحلاهما مُر
سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم ... وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدر
ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به ... وما كان يغلو التبر لو نفق الصبر
ونحن أناسٌ لا توسّطَ عندنا ... لنا الصدرُ دون العالمين أو القبر
تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ... ومن خَطَب الحسناء لم يُغله المهر

ابتُليت الهممُ العالية بعشق الفضائل. شجر المكاره يثمر المكارم. متى لاحت الفريسةُ قذفت الغابةُ السبع. إذا استقام للجواد الشوط لم يُحوِج[٢] راكبه إلى السوط. من ضرب يوم الوغى وجه الهوى بسهم؛ ضرب مع الشجعان يوم القسمة بسهم. من اشتغل بالعمارة استغل الخراج. إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، ثم ردفه قمر العزيمة؛ ﴿أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

يا طالباً للدعة: أخطأت الطريق. علة الراحة التعب. وإن لم تكن أسدا في العزم، ولا غزالا في السبق؛ فلا تتثعلب.

يا هذا، الجد جناح النجاة، وكَسَلُك مُزْمِن. من كدَّ كد العبيد؛ تنعم تنعم الأحرار. من امتطى راحلة الشوق؛ لم يشقّ عليه بُعْد السفر.

على قدْر أهل العزمِ تأتي العزائم ... وتأتي على قدْر الكرام المكارمُ

(١) بدوت: من البدوْ إلى البادية، عكس الحضَر.
(٢) يحوج: يلجئ.

يا هذا. ركائب الرحيل قد أنيخت بالجناب؛ ولم تتحرّج. وناقد البائع قائم على الباب؛ ونقْدك بهْرج. كيف يلحق السابقين، كسلانٌ أعرج؟! لو تنقلت على عيْطموسِ[1] العزْم، وهوْجاءِ[2] الطلب، وعيْسجور[3] القصد، وجعلباة[4] السير، ومشمعلّة[5] الجد، ووصلت الديجور بالضحى[6]؛ لانقطعت الديمومة[7] القَذَفُ[8]. ولكنك استوطأت مهادَ الكسل. وإبرُ النحلِ دون العسل.

قيل لبعض أهل الرياضة: كيف غلبت نفسك؟ فقال: قمت في صف حربها بسلاح الجد؛ فخرج «مَرْحب»[9] الهوى يدافع، فعلاه «علي» العزم بصارم الحزم. فلم تمض ساعة حتى مُلكت «خيبر».

وقيل لآخر: كيف قدرت على هواك؟ فقال: خدعته حتى أسرته، واستلبت عوده فكسرته، وقيدته بقيد العزلة، وحفرت له مطمور الخمول، في بيت التواضع، وضربته بسياط الجوع.

فلان، يا فلان. ألك في مجاهدة النفس نِية؟ أم النية نَية[10]؟

---

(١) عيْطموس: التامة الخلق من الإبل.

(٢) هوْجاءِ: المسرعة من الإبل.

(٣) عيْسجور: الصلبة من النوق.

(٤) جعلباة: الطويلة من النوق في عجرفة.

(٥) مشمعلة: النشيطة من النوق.

(٦) وصلت الديجور بالضحى: أي وصلت الليل بالنهار في السير.

(٧) الديمومة: الفلاة الواسعة.

(٨) القذف: البعيدة النائية.

(٩) مرحب: هو اليهودي الذي بارزه علي ﷺ وقتله يوم «خيبر».

(١٠) نية: نيّئة. طريّة.

أتعبتني وأنت أنت. يا خنشليلا[١] في كل دردبيس[٢]. إلى متى تجول في طلب هُجُول[٣]؟ ما نفشت[٤] غنمُ العيونِ بالنواظر، في زروع الوجوه النواضر؛ إلا وأغُير على السرْح. من تعرض للعنقفير[٥]. لقي الأمرِّين[٦]. المتعرض للنبلة أبْله. ما عزّ «يوسف» إلا بترك ما ذل به «ماعز»[٧]. لو ركد كدر دهن الذهن؛ سمت ذُبالة المصباح.

إخواني. إلى متى سكر عن المقصود؟ ألا صحْو ساعة؟ أريقوا قرقف[٨] الهوى؛ قبل هجوم صاحب الشرطة. اكسروا الظرف[٩] ظَرْفا[١٠]؛ ليعلم حسن قصدكم للتوبة. وليشغلكم ذكر صوت النأي عن صوت الناي، والفكر في خراب المغاني عن لغات الأغاني. فكم من شاب، ما شاب، وكم من راج، راج[١١] له أن خاب. ما أسرع افتراق الصاحبْين؛ إذا صاح بين.

«فمفترق جاران دارهما قبر[١٢]»

---

(١) خنشليلا: الخنشليل: السريع الماضي في الأمور.

(٢) دردبيس: الدردبيس: الداهية.

(٣) هُجُول: جمع هجْل. وهو المفازة الواسعة.

(٤) نفشت: رعت ليلا.

(٥) للعنقفير: العنقفير الداهية.

(٦) الأمرِّين: بكسر الراء للشر والأمر العظيم.

(٧) ماعز: ابن مالك الأسلمي المرجوم في الزنا ﷺ.

(٨) قرقف: خمر.

(٩) الظروف: جمع ظرف، وهو الوعاء.

(١٠) ظَرْفا: كياسة.

(١١) راج: حصل وتهيأ.

(١٢) قبر: كذا في المخطوط. وفي المطبوع: «عمر».

مثل أهل الدنيا في غفلتهم وطول آمالهم، كمثل الحاجِّ نزلوا منزلا؛ فقام أقوام يقطعون الصخور، ويبنون البيوت. فقال المتيقظون: ويحكم، ما هذا البله؟ الرحيل بعد ساعة.

لو علم الوَرْدُ[1] قصر عمره؛ ما تبسَّم. بينما هو ينشر بز ريحه في شمال[2] البكور؛ بزه[3] الناطور؛ فإذا به في زجاجة الزور[4]. فانتبه أنت، ولا تغترر بزور. نسيم الدجى: يفتح مستغلق الجسد، ويصحي السكران، وخوف سموم النهار: يعيد «اللينوفر» إلى الماء. اسمع. يا من لا يحركه تشويق، ولا يزعجه تخويف:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة

تزوج صلة بن أشيم، فأدخله ابن أخيه الحمام، ثم أُدخل إلى المرأة، وقد طُيِّب. فقام يصلي. فمد الصلاة إلى الفجر. فعاتبه ابن أخيه. فقال: إنك أدخلتني أمس بيتا؛ ذكرتني به النار. ثم أدخلتني بيتا؛ ذكرتني به الجنة. فما زال فكري فيهما حتى أصبحت.

كفى حزنا أن لا أُعاين بقعةً ... من الأرض إلا ازددت شوقاً إليكُمُ

وإني متى ما طاب لي خفض عيشة ... تذكرت أياما مضت لي لديكم

مر بعض الفقراء بامرأة فأعجبته، فتزوجها. فلما دخل البيت نزعوا خُلقانه، وألبسوه ثيابا جددا. فلما جن عليه الليل: طلب قلبه فلم يجده، فصاح: خلقاني. فأخذها ورجع.

---

(١) الوَرْد: الزهر المعروف.

(٢) شَمال: ريح الشمال. (٣) بزه: نزعه.

(٤) الزور: مجلس الغناء، وهذا وجه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]. انظر: تفسير الطبري: (١٩/ ٤٨-٤٩)، ولسان العرب: (٤/ ٣٣٧).

للشريف الرضي:

ما ساعفتني الليالي بعد بُعْدهم إلا ذكرت ليالينا بذي سلم

ولا استجدّ فؤادي في الزمان هوى إلا ذكرت هوى أيامنا القدم

لا تطلبن لي الأبدال بعدهم فإن قلبي لا يرضى بغيرهم

* * *

الفصل الرابع والعشرون

يا طويل الأمل في قصير الأجل. أما رأيت مستلباً وما كمل؟ أتؤخر الإنابة، وتعجل الزلل؟

يا من يعد غداً لتوبته ... أعلى يقينٍ من بلوغ غدِ
المرء في زلل على أمل ... ومنّية الإنسان بالرصد
أيام عمرك كلها عدد ... ولعل يومَك آخرُ العدد

يا أخي، التوبة التوبة، قبل أن تصل إليك النوبة. الإنابة الإنابة، قبل أن يغلق باب الإجابة. الإفاقة الإفاقة، فيا قرب وقت الفاقة. إنما الدنيا سوق للتجر[1]، ومجلس وعظ للزجر، وليل صيف قريب الفجر. المكْنة مُزنة صيف، الفُرصْة زوْرة طيف، الصحة رقدة ضيف، الغرة نقدة زيف، الدنيا معشوقة، وكيف؟! البدار البدار، فالوقت سيف.

يا غافلا عن مصيره، يا واقفاً في تقصيره. سبقك أهل العزائم، وأنت في اليقظة نائم. قف على الباب وقوف نادم. ونكّس رأس الذل، وقل: أنا ظالم. وناد في الأسحار: مذنب وواجم[2]. وتشبه بالقوم - وان لم تكن منهم - وزاحم. وابعث بريح الزفرات، سحابَ دمعٍ ساجم[3].

قم في الدجا نادبا، وقف على الباب تائباً، واستدرك من العُمر

---

(١) للتجر: للتجارة.
(٢) واجم: من الوجوم، وهو الإطراق لشدة الحزن.
(٣) ساجم: يقطر ويسيل.

ذاهباً، ودع اللهو والهوى جانباً، وإذا لاح الغرور رأى راهباً، وطلق الدنيا إن كنت للأخرى طالبا.

«ولكن بلا قلب إلى أين أذهب»

يا من قد ضاع قلبه؛ اطلبه في مظان إنشاد الضُّلاَّل. الضائع إنما يُنشد في المجامع؛ فاطلب قلبك في مجالس الذكر، أو بين أهل المقابر. وربما دخلت بيت الفكر فرأيته؛ فأي موضع غلب على ظنك وجوده؛ فلا تقصر في البحث عنه.

هذه النسور والرَّخَم[١] - على كثافة طبعها - إذا رأت جيشاً تبعته؛ لما ترجو من قتالٍ يُوجب قتلى، وأخداج حامل[٢]. أفما ترجو أنت في المجلس إجابة دعوة أو حضور قلب؟

يا نائما طول الليل؛ سارت الرفقة. رحل القوم كلهم، وما انتبهت من الرقدة. ويحك أتدري ما صنعت بنفسك؟ دخلت دار الهوى، فقامرت بعمرك. كنت أمس قلب: «أمس»، فتراك تصحيف: «ترى»[٣].

لاحت لك العاجلة، فهِمْتَ[٤]. كأنك ما فهمت. فلما تبدّلت، تبلّدت. أخبرني عن تخليطك، فالطبيب لا يُكْذَب. سجيتك تعلمني؛ فاسمْع أحدِّثك:

استكثرت من برودات الغفلة؛ فقعد نشاط العزم. فلو قاومتها

---

(١) الرخم: طائر. مفرده: رَخَمة.

(٢) أخداج حامل: السقط.

(٣) ترى: يريد كنت «سما» وهو مقلوب: «أمس»، فصرت: «ثرى». أي: تراب، وهو تصحيف: «ترى».

(٤) هِمْت: أي هِمت على وجهك.

بحرارات الحذر؛ لقام المقعد. أما تعلم أن مطاعم المطامع، تولد سدداً في كبد الجد؟ المحنة العظمى: موافقة الهوى من غير تدبر. أنت ترى ما تشتهي، فتُضرب الحدّ.

يا أسيراً في قبضة الغفلة، يا صريعاً في سكرة المهلة. أما يخطر بقلبك، خطر أمرك؟ ويحك قد وهن العظم العظيم، وما شابت همة الأمل. أخلق[1] بُرْدُ الحياة؛ وما انكفّت كفُّ البطالة. قُرّبت نُوق الرحيل؛ وما في المزاد زاد. قُدّمت معابر العبور؛ وأنت تلهو على الساحل. أكثر العمر قد مر؛ وأنت تتغلغل في تضييع الغابر. أترجح الفاني على الباقي؟ تثبت، ففي الميزان عين. إن حركك حظٌ من حظ؛ فالْحَظ الحظَّ الأحظّ. والله لو شغلك نيل الجنة عن الحق لحظةٍ؛ كان في تدبيرك وكس.

ويحك، أنا بُدُّك[2] اللازم؛ فالزم بُدَّك. خاصمت عنك قبل وجودك ﴿إِنِّي أَعْلَم﴾ [البقرة: ٣٠]، واعتذرت عنك في زلل: ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولقنتك العذر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ [الانفطار: ٦]، وواصلتك برسائل: «هل من سائل»[3].

إذا لم يكن بيني وبينك مُرسلٌ ... فريحُ الصَّبا مني إليك رسولُ

كان بعض الأغنياء كثير الشكر، فطال عليه الأمد، فبطر وعصى؛ فما زالت نعمته، ولا تغيرت حالته. فقال: يارب تبدلت طاعتي،

---

(١) أخلق: صار خلقا باليا.

(٢) البُدّ: النصيب من كل شيء.

(٣) هذا جزء من حديث النزول: «ينزل ربنا ..» رواه البخاري في التهجد: (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين: (٧٥٨).

وما تغيرت نعمتي. فهتف به هاتف: يا هذا، لأيام الوصال عندنا حرمة حفظناها وضيعتها.

للمهيار:

سل بسلْع ساكنا كان وكنا ليت شعري ما الذي ألهاك عنا

أهــوى أحـدثتــه أم كاشــح دب أم ذنب سرى أم تتجنى

تـاب رجل ممن كان قبلكم، ثـم نقض؛ فهتف به هاتف فـي الليل:

سأترك ما بيني وبينك واقفاً فإن عدت عدنا والوداد سليمُ

تُواصلُ قوماً لا وفاء لعهدهم وتترك مثلي والحفَاظُ قديم

يا ناقضي العهود، انظروا لمن عاهدتم؟ تلافوا خرْق الخطأ، قبل أن يتسع.

عــودوا إلـى العهــد عــودوا فالهجــرُ صعــبٌ شديــدُ

تَذَكـرّونــا فمــا عهــ دنــا لـديكـم بعيــد

هــل يرجــع «البــانُ» يومــا وهـــل تعـــود «زرود»

يا هذا، أقبل علينا؛ تر من إقبالنا عليك العجب. احفظ الله، يحفظك. اطلب الله، تجده أمامك. من كان لنا عينا على قلبه؛ أجرينا له جامكية[1] أمين.

أنت على البعد همومي إذا غبت أشجانــي علــى القــرب

لا أتبع الطرف إلى غيركم عينـي لكـم عيـن علـى قلبـي

يا هذا، حفْرُ النهرِ إليك، وإجراء الماء ليس عليك. احفر ساقية:

---

(١) جامكية: كلمة أعجمية، معناها: الجراية والعطية الراتبة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [البقرة: ١٥٢] إلى جنب بحر: ﴿أَذْكُرْكُم﴾ [البقرة: ١٥٢]. فإذا بالغ فيها مِعْول الكدّ؛ فاضت عليك مياه البحر. «فبي يسمع وبي يبصر»[1].

ألق بذْر الفكر في أرض الخلوة، وسق إليه ساقية من ماء الفكر؛ لعلها تنبت لك شجرة: «أنا جليس من ذكرني».

للشريف الرضي:

يُرنّحني إليك الشوق حتى	أميل من اليمين إلى الشمال
كما مال المعاقر عاودته	حُمَيّا الكأس حالا بعد حال
ويأخذني لذكراك ارتياح	كما نشط الأسير من العقال
وأيسر ما ألاقي أن هماً	يغصصني بذا الماء الزلال

هبت رياح الخوف، فقلقلت قلوب الخائفين؛ فلم تترك ثمرة دمع في فنن[2] جفن. إذا نزل «آب»[3] في القلب؛ سكن «آذار»[3] في العين.

لا تبلني بجفاً يزيد خضوعي	يكفيك أن النار بين ضلوعي
وحياة سقمي في هواك فإنه	قسم الهوى وحق فيض دموعي[4]
لأوكِّلنّ عليك عيني بالبكا	ولأعشقن عليك طول هلوعي

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الرقاق: (٦٥٠٢).

(٢) فنن: غصن.

(٣) آب: إشارة إلى الصيف وحرارته، وآذار: إشارة إلى الربيع واعتداله.

(٤) حبذا لو نزه المؤلف كتابه عن مثل هذه الأبيات المنكرة. فقد جاء في الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه أبو داود في الأيمان: (٣٢٦١)، والترمذي في النذور: (١٥٣٥)، وأحمد: (١/٤٧)، (٢/٣٤، ٨٧، ١٢٥).

كانت مع هشام بن حسان جارية في الدار، فكانت تقول: أي ذنب عمل هذا؟ من قتل هذا؟ فتراه الليل كله يبكي؟!

تركـت الفـؤاد عليـلا يُعــاد وشرّدت نومـي فمـالي رُقــاد

كان فتح الموصلي يبكي الدموع، ثم يبكي الدم. فقيل له: على ماذا بكيت الدم؟ فقال: خوفاً على الدموع؛ أن تكون ما صحّت لي.

يـا لفـؤاد وامـقٍ مـا يصحـو قد طال لعظم مـا عنـاه الشرح

والعيـن لهـا دم ودمـع سـح ذا يكتب شجوه وهذا يمحو

* * *

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [البقرة: ١٥٢] إلى جنب بحر: ﴿أَذْكُرْكُم﴾ [البقرة: ١٥٢]. فإذا بالغ فيها مِعْول الكدّ؛ فاضت عليك مياه البحر. «فبي يسمع وبي يبصر»(١).

ألق بذْر الفكر في أرض الخلوة، وسق إليه ساقية من ماء الفكر؛ لعلها تنبت لك شجرة: «أنا جليس من ذكرني».

للشريف الرضي:

يُرنّحني إليك الشوق حتى ... أميل من اليمين إلى الشمال

كما مال المعاقر عاودته ... حُمَيّا الكأس حالا بعد حال

ويأخذني لذكراك ارتياح ... كما نشط الأسير من العقال

وأيسر ما ألاقي أن هماً ... يغصصني بذا الماء الزلال

هبت رياح الخوف، فقلقلت قلوب الخائفين؛ فلم تترك ثمرة دمع في فنن(٢) جفن. إذا نزل «آب»(٣) في القلب؛ سكن «آذار»(٣) في العين.

لا تبلني بجفاً يزيد خضوعي ... يكفيك أن النار بين ضلوعي

وحياة سقمي في هواك فإنه ... قسم الهوى ووحق فيض دموعي(٤)

لأوكّلنّ عليك عيني بالبكا ... ولأعشقن عليك طول هلوعي

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الرقاق: (٦٥٠٢).

(٢) فنن: غصن.

(٣) آب: إشارة إلى الصيف وحرارته، وآذار: إشارة إلى الربيع واعتداله.

(٤) حبذا لو نزه المؤلف كتابه عن مثل هذه الأبيات المنكرة. فقد جاء في الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه أبو داود في الأيمان: (٣٢٦١)، والترمذي في النذور: (١٥٣٥)، وأحمد: (٤٧/١)، (٣٤/٢، ٨٧، ١٢٥).

كانت مع هشام بن حسان جارية في الدار، فكانت تقول: أي ذنب عمل هذا؟ من قتل هذا؟ فتراه الليل كله يبكي؟!

تركت الفؤاد عليلا يُعاد وشرّدت نومي فمالي رُقاد

كان فتح الموصلي يبكي الدموع، ثم يبكي الدم. فقيل له: على ماذا بكيت الدم؟ فقال: خوفاً على الدموع؛ أن تكون ما صحّت لي.

يا لفؤاد وامقٍ ما يصحو قد طال لعظم ما عناه الشرح
والعين لها دم ودمع سح ذا يكتب شجوه وهذا يمحو

* * *

الفصل الخامس والعشرون

يا من يعظه الدهر؛ ولا يقبل. وينذره القهر بمن يرحل. ويضم العيب إلى الشيب؛ وبئس ما يفعل. كن كيف شئت؛ فإنما تُجازى بما تعمل.

دعني فإنّ غريم العقل لازمني[١] وذا زمانك فامرح فيه لا زمني
ولّى الشباب بما أحببتُ من مِنَحٍ والشيب جاء بما أبغضتُ من محن
فما كرهتُ ثُوَى[٢] عندي وعنّفي وما حرصتُ عليه حين عنّ فني[٣]

يا جائراً، كلما قيل: أقسط، قَسَط[٤]. يا نازلا فسطاط الهوى على شاطئ الشطط. يا مُمْهَلا لا مُهْمَلا، ما عند الموت غلط. كم سلب وضيعا وشريفا؛ سلبا عنيفا وخبط. أما مضغ الأرواح؟ فلما طال المضغ استرط[٥]. أما يكفي نذيرهم؟ بلى قد خَوّفَ الفَرَط[٦]. تالله ما يبالي حَمام الحِمام، أي حبٍّ لقط. أما خطّ الشيبُ خطّ النهي عن الخطأ لما وخط[٧]؟ أما آذن الشباب بالذهاب؟ فماذا بعد الشمط[٨]؟

---

(١) لازمني: التزمني، من الملازمة.
(٢) ثوى: أقام.
(٣) عنّ: ظهر واعترض وتوفر. فني: من الفناء والذهاب.
(٤) أقسط: اعدل. قسط: جار وظلم.
(٥) استرط: ابتلع.
(٦) الفرط: من يتقدم القوم ليصلح البئر، ويعدّ الدلاء.
(٧) وخط الشيب: انتشر وفشا، أو استوى السواد والبياض.
(٨) الشمط: اختلاط السواد والبياض في الرأس.

ما إن يطيب لذي الرعاية للأ يـــام لا لعـب ولا لهــو
إذ كان يطرب في مسرّته فيموت من أجزائه جزو[1]

يا مدعوا إلى نجاته، وهو يتوانى. ما هذا الفتور؛ والرحيل قد تدانى؟ يا مقبلا على هفواته، لا يألو بهتانا. كأنك بالدمع يجري عند الموت تهتانا. وشُغْلُ التلف قد أوقد من شُعَل الأسف، نيرانا. وأنت تبكي تفريطك، حتى لقد أقرحت أجفانا. والعمل الصالح ينادي من كان أجفانا: احذر زلل قدمك، وخف حلول ندمك، واغتنم وجودك قبل عدمك، واقبل نُصْحي، ولا تخاطر بدمك.

إذا مـــا نهـــاك امـــرؤ ناصح عن الفاحشات انْزجِرْ وانتـهِ
وإمـا علـوتَ إلـى رتبـــة فكـن حـذرا بعـدها أن تهي
وإمّا تـرى مُهجـة فـي الثـرىً فـلا تغتـرر بالمنـى أنت هـي

خاصم نفسك، عند حاكم عقلك؛ لا عند قاضي هواك؛ فحاكم العقل يُدين، وقاضي الهوى يجور.

كان أحد السلف، إذا قهر نفسه بترك شهوة: أقبل يهتز اهتزاز الرامي إذا قرطس[2]. لما عرف القوم قدر الحياة؛ أماتوا فيها الهوى؛ فعاشوا. انتهبوا بأَكُفِّ الجدّ من الزمن، ما نثره زمن البطالة.

وركْب سروْا والليلُ ملق رُوَاقه[2] على كلِّ مغبرِّ الطوالع قاتمِ
حدوا عزماتٍ ضاقت الأرضُ بينها فصار سُرَاهم في ظهور العزائم

---

(١) حزو: جزء.

(٢) قرطس: أصاب القرطاس الذي يوضع للرامي.

(٣) رواقه: بساطه.

تُريهم نجومُ الليل ما يبتغونه　　على عاتق الشِّعرى[١] وهام النعائم[٢]

إذا طربوا[٣] في معْرك الجد قصّفوا　　رماح العطايا في صدور المكارم

هان عليهم طول الطريق؛ لعلمهم أين المقصد. وحَلَت لهم مرارات البلاء؛ حبا لعواقب السلامة. فيا بشراهم يوم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

قف بالديار فهذه آثارهم　　نبكي الأحبة حسرة وتشوّقا

كم قد وقفت بها أُسائل مخبرا　　عن أهلها أو صادقا أو مشفقا

فأجابني داعي الهوى في رسمها:　　فارقتَ مَن تهوى فعزّ المُلْتقى

يا ربوعَ الأحباب، أين سُكانك؟ يا مواطنَ الألباب، أين قُطّانك؟ يا جواهر الآداب، أين خزانك؟

للمهيار:

يطربني للمنازل اليوم ما　　أسأر[٤] عندي أيامها القدم

وتُطبيني[٥] على فصاحة شكواي　　إليها ربوعها العجم

عليّ يا دارُ جهد عيني وما　　علي عارٌ أن تبخل الديم

لك الرضا من جِمام أدمعها　　أو دمها إن سَقَى ثراك دم

أما وعهد الغادين عنك وأ　　شجانٍ بواقٍ لي فيك بعدهم

وما أطال المنى وأعرض من　　عيشٍ كأنّ اختلاسه حلم

(١) الشعرى: الشعرى العبور والشعرى الغميصاء: أختا سهيل.

(٢) النعائم: من منازل القمر.

(٣) في الديوان: «طردوا».

(٤) أسأر: أبقى.

(٥) تطبيني: تدعوني وتستميلني.

هل هو إلا أن قيل: جُنّ بهم ... نعم على كل حالة نعم
بتنا وأطواقنا يد ويد ... ورُسْلُ أشواقنا فم وفم

يا هذا، تنزه في أخبار المحبين، إن لم تكن منهم. إن أهل الكوفة يخرجون للتفرج على الحاج. اقعد على جانب وادي السحر؛ لعل إبل القوم تمر بك.

خذني على قطن يمينا ... فعسى أُريك به القطينا
مِنّي تعلمتْ الحمامُ ... النوحَ والإبلُ الحنينا

واآسف المتقاعد عنهم. واحسرة البعيد منهم.

سلوا عن فؤادي ساكني ذلك الوادي ... فقد مر مجتازاً على يمنة الوادي
مضى يطلب الأحباب والقوم قد سروا ... فضلّ ومروا مسرعين مع الحادي
فها أنا أبكيهم وأبكيه بعدهم ... وتطلبهم عيني مع الرائح الغادي

واحاجتنا إلى رؤية القوم، ويا شدة إيثارهم البعد عنا. إن رأينا شخصاً: فأعلمتنا الفراسة أنه منهم؛ كانت همته الهرب منا. وما ذاك إلا للتباين بين أفعالنا وأعمالهم، فلنبك على هذه الحال.

عجبت لما رأتني ... أندب الربع المحيلا
واقفا في الدار أبكي ... لا أرى إلا الطلولا
كيف نبكي لأناس ... لا يملون الذميلا(١)
كلما قلت: اطمأنت ... دارهم صاحوا: الرحيلا

كان بعض الصالحين يتستر بإظهار الجنون، فتبعه مريد، فقال له: والله ما أبرح حتى تكلمني بشيء ينفعني، فإني قد عرفتُ

(١) الذميل: السير اللين ما كان. أو فوق العَنَق.

تسترك. فسجد وجعل يقول في سجوده: «اللهم سترك» فمات.

أسميك «سُعدى» في نسيبي تارة
وآونة «أسما» وآونة «لُبنى»

حذاراً من الواشين أن يسمعوا بنا
وإلا فمن «سعدي» لديك ومن «لبنى»

★ ★ ★

الفصل السادس والعشرون

يا مخدوعاً قد فتن، يا مغروراً قد غُبن، من لك إذا سُوي عليك اللبن؟ في بيت قط ما سكن؟ سلْبُ الرفيقِ نذيرٌ؛ والعاقل فطن.

أنت في دار شتات فتأهّب اشتاتك
واجعل الدنيا كيومٍ صُمْته عن شهواتك
وليكن فطرك عنـ ـد الله في يوم وفاتك

إياك والدنيا، فإن حب الدنيا مبتوت. واقنع منها باليسير، فما يعز القوت. «ياقوت» الندم، يغنى عن الياقوت. احذر منها، فإنها أسحر من هاروت وماروت. ليس للماء في قبضة ممسك ثبوت ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

أين من جمع المال، وملأ التخوت؟ تساوى تحت اللحود، السادات والتحوت. ما نفعه أن جال في البأس «جالوت». ولا ردّ عنه أن طال القوم «طالوت». ولا منع أصحابه حلول التابوت. لقد أخرج الموت من قعر اليمِّ الحوت. قل للذين تديّروا[1]: تدبروا، أين البيوت؟ جوزوا على الذين جوزوا[2]، فقد وعظ الخفوت[3]. كم مسئول عن عذره في قبره مبهوت. لقد أنطق الوعظُ الصخورَ الصُموت. أما يكفي زجرا أنك تموت. بادر عُمْراً في كل يوم يفوت. قل: أنا تائب، إلى كم سكوت؟

---

(١) تديروا: اتخذوا الديار. والذي في المخطوط: «قل للذين يريدون البيوت».

(٢) جوزوا: مروا. والثانية من الجزاء.

(٣) الخفوت: السكون والسكوت.

قد تعوّدتْ منك النفسُ في المجلس: النطق بالتوبة؛ فهي تسخو بالكلام؛ لعلمها أنه على غير أصل. ولو تيقنتْ صدق عزمك؛ لتوقفتْ عن القول.

هذا العصفور إذا كان على حائط فصِحْت به لم يبرح. فإذا أهويت إلى الأرض كأنك تناول حجرا، يلمح يدك فإن رآها فارغة لم ينفر. فإذا وضعت يدك على حجر رأى الجد ففر.

يا هذا، قولك: «أنا تائب» من غير عزم، نفخ في غير ضرم. بيض التراب لا يخرج منه فرخ.

إخواني، العمر أنفاس تسير؛ بل تطير. الأمل منام: لا ترى فيه إلا الأحلام. هذا سيف الموت قد دنا، فإن ضرب قدَّنا[1]. هذا الرحيل، ولا زاد عندنا. انتبهوا من رقاد الغفلة، تيقظوا من نوم العطلة، عرِّجوا عن طريق البطالة، ابعدوا عن ديار الوحشة.

الفترة: حيْض الطباع، ووقوع العزيمة: رؤية النقاء[2]. فحينئذ يتوجه الخطاب، بالتوجه إلى محراب الجد. أول منازل الآخرة القبر؛ فمن مات، فقد حط رحل السفر، وسائر الورى سائر. من كان في سجن التقى فالموتُ يُطلقه. ومن كان هائماً في بوادي الهوى، فالموت له حبس يوثقه.

موت المتعبدين؛ عتق لهم من استرقاق الكد، ورفق بهم من تعب المجاهدة. وموت العصاة: سباء يرقّون به[3] لطول العذاب.

(١) قدّنا: قطعنا.

(٢) النقاء: الطهر من الحيض.

(٣) سباء يرقّون به: أي سبي يصيرون به رقيقا.

من كان واثقاً بالسلامة من جناية؛ فرح بفك باب السجن. لما تَوعّد فرعونُ السحرة بالصلب؛ أنساهم أملُ لقاء الحبيب مرارةَ الوعيد: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُون﴾ [الشعراء: ٥٠]. يا فرعون، غاية ما تفعل أن تحرق الجسم. والركب قد سرَى ﴿لا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠]. من لاحت له «مِنى» نسي تعب المدرج[1].

للمهيار:

متى رفُعت لهــا بالغُــور نــارُ وقــرَّ بـذي الأراك لها قــرارُ

فكـــل دمٍ أراق السيــرُ منهــا بحكم الشوق مطلولٌ جَبَار[2]

لابد للمحبوب من اختبار المحب ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [محمد: ٣١]. أسلم أبو جندل بن سهيل؛ فقيّدة أبوه. فلما نزل رسول الله ﷺ الحديبية؛ خرج أبو جندل يرسُف في قيده، فدخل في الصحابة. فقال سهيل: هذا أول من أقاضيك عليه. فاستغاث أبو جندل: يا معشر المسلمين. أردّ إلى المشركين، فيفتنوني عن ديني؟ فقال الرسول: لابد من الوفاء. فرُدّ إليهم. فقدمه يسعى نحوهم، وقلبه يجّهز جيوش الحيل في الخلاص.

للمهيار:

أنذرتني أم سعد أنَّ سعدا دونها ينهد[3] لـي بالشر نهـدا

وعلـى ما صفحـواً أو نقمــوا ما أرى لي منك يا ظبية بُدّاً

لما أسلم مصعب بن عمير، حبسه أهله، فأفلت إلى الحبشة.

---

(١) المدرج: المسلك.

(٢) جَبار: هدر.

(٣) ينهد: ينهض.

ثم قدم مكة، فدخل على رسول الله ﷺ، فأرسلت إليه أمه: يا يا عاق أتدخل بلداً أنا فيه ولا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ. فأردت حبسه. فقال: والله لئن حبستني، لأحرصن على قتل من يتعرض لي. فتركته.

وعاذليـن لحوْبي[١] فـي مودتكـم
يا ليتهم وجـدوا مثل الـذي أجـدُ
لما أطالـوا عتابـي فيك قلت لهم:
لا تُفرطوا بعض هذا اللوم واقتصدوا

جَمَعَ حبسُ التعذيبِ بين بلال وعمار؛ مصادرين على بذل الدين. فزوّروا نطق عمار على خط قلبه، فلم يعرفوا التزوير[٢]. وأصر بلال على دعوى الإفلاس؛ فسلموه إلى صبيانهم في حديده[٣] يصهرونه في حرِّ مكة، ويضعون على صدره وقت الرمضاء صخرة. ولسان محبته يقول:

بعينيك ما يلقى الفـؤاد ومـا لقـي
وللشوق مـا لـم يبق مني وما بقي

واعجباً، أيلامُ ذو حسٍ على عشق يوسف[٤]؟ قدم الطفيل بن

---

(١) حوبي: الحوبة: رقة الفؤاد، والهمّ، والحاجة، والحالة.

(٢) المقصود أنه نطق باللسان، ولكن القلب مطمئن بالإيمان.

(٣) في حديده: في قيوده.

(٤) هذه العبارة يمكن أن تمرّ بسلام إذا اتسعت الأفهام. أما إذا وقفنا عند الشكل وما قد يساء فهمه منها من قبل البعض؛ فيمكن أن نقول: إن الأمر ليس على إطلاقه فمن تعرض للبلاء فوقع فيه فهو ملوم. وبعد الوقوع: إذا لم يجاهد نفسه للتخلص من ذلك البلاء فهو ملوم أيضاً.

عمرو الدوسي مكة، فقالت له قريش: لا تدن من محمد، فإنا نخاف أن يفتنك؛ فسد أذنيه بقطنتين. ثم تفكر، فقال: والله ما يخفى عليّ الحسن من القبيح. فانطلق، فسمع من رسول الله ﷺ؛ فأسلم.

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه

ولكن من يبصر جفونك يعشق

قطعت قريش لحم «خبيب» ثم حملوه إلى الجذْع ليُصلب. فقالوا: أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي. وأن محمداً شيك بشوكة. ثم نادى: وامحمداه.

إن في الأسر لصبّاً دمعه في الخدِّ صب

هو بالروم مقيمٌ وله بالشام قلب

لما بعث معاذ إلى اليمن، خرج الرسول يودّعه، ودموع معاذ ترش طريق الوداع.

ولما تزايلنا من الجزع[1] وانتأى مُشرِّق ركب مُصْعِد عنْ مُغرْبِ

تبينت أن لا دار من بعد عالج[2] تسرُّ وأن لاً خُلَّةً بعد زينب

كانت الدنيا بمثلهم عسلا؛ فتعلقمت بمثلكم. خلت الديار من الأحباب. فلما فرغت؛ رُدِمَ الباب.

للنابغة:

وقفت فيها أصيلا[1] كي أسائلها

أعيت جوابا وما بالربْع من أحدِ

(١, ٢) الجزع وعالج: موضعان.

(٣) أصيلا: ساعة الأصيل.

أضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا

أخنى عليها[١] الذي أخنى على لُبَد[٢]

حِنّ ببعض أنديتهم، ونادبها[٣]، وابك فقد الأحباب، وناد بها.

للبحتري:

إذا جُزْت بالغورِ اليمانيّ مُغربا وحاذتك صحراءُ «الشواجر» يا سعدُ

فنادِ ديــارِ العامريـة باللوى: سقت ربْعك الأنواءُ ما فعلت هند

* * *

---

(١) أخنى عليها: أهلكها.

(٢) لُبَد: آخر النسور السبع التي كانت للقمان على ما تحكي القصة.

(٣) نادبها: من الندب، وهو البكاء على الميت.

الفصل السابع والعشرون

إن الدنيا مذ أبانت[١] محبَّها. أبانتْ[١] حالهَا. لقد رَوَتْ ما روتْ[٢]، ووَارتْ فأرَتْ مآلها. لقد عرفَ إدبارها من قد ألفَ إقبالها. وما اطمأنت أرضُها؛ إلا وزلزلت زلزالها.

قل لمن فاخر بالدنيا وحامى: قتلتْ قبلك ساماً ثم حاما[٣]

ندفنُ الخِلَّ وما في دفننا بعده شكٌّ ولكن نتعامى

إن قُدّامك يوماً لو به هُدِّدتْ شمسُ الضحى عادت ظلاما

فانتبه من رقْدة اللهو وقُم وانْفِ عن عين تماديك المناما

صاحِ صِحْ بالقبر يخبرك بما قد حوى واقرأ على القوم السلاما

فالعظيم القدر لو شاهدته لم تجد في قبره إلا العظاما

تالله، لقد ركض الموت، فأسرع في الركض. وبث الجنود، وطبق الأرض. ما حمل على كتيبة إلا وفضّ. ولا صاح بجيش إلا جاش وارفضّ. ولا لوّحَ إلى طائرٍ في البرج، إلا انقضّ. إذا تكلمت قوسه بالنبض، أسكنت النبض[٤]. بينا الحياة تعرب بالرفع، جعل الشكل الخفض.

أين مصون الحصون، أزعج عنها؟ أين مقصور القصور، أخرج منها؟ نقله هادم اللذات نقلا سريعاً، ومقله[٥] في بحار الآفات

---

(١) أبانت: الأولى: أبعدت، والثانية: أظهرت.

(٢) روْت: الأولى: حكت، والثانية: من الري.

(٣) سام وحام: أبناء نوح عليه السلام.

(٤) النبض: الأولى: نبض القوس، والثانية: نبض القلب.

(٥) مقله: المقْل: الغمْس.

مقلا فظيعا. وفرق بينه بالبين وبين بنيه. وطرقه بطارق النقض؛ فانقضّ ما كان يبنيه. لقد ولّى ولاءُ ذي وُدٍّ ينفعه، وبان فبان لباني الدنيا مصرعه. هجره والله من هاجر إليه، ونسيه نسيبه؛ وقد كان يحنو عليه. فلا صديقه صدقه في مودته، ولا رفيقه أرفقه في شدته، حلوا والله بالبلاء في البلى. وودعهم من أودعهم ثَمّ، ثُمّ قلى. وانفردوا في الأخدود بين وحش الفلا. وسألوا الإقالة، فقيل: أما هذا، فلا.

لو نطق الموتى بعد دفنهم؛ لندموا على غيِّهم وأفَنِهم. ولقالوا: رحلنا عن ظلم شرورنا إلى ظلم قبورنا. وخلونا عن الأخلاّء بترابِنا. في آفاتٍ لا تُرى بنا. أفترى مُحِبُّنا إذْ ظَعنَّا؛ بمن اعتاضَ عنّا؟!

وهذا مصيرك بعد قليل. فتأهب يا مقيُم للتحويل. يا سليما يظن أنه سليم[1]. جوارحك جوارحك[2]. سور تقواك كثير الثلم، وأعداؤك قد أحاطوا بالبلد. ويحك، قبل الرمي تُراش السهام. وبين العجز والتواني؛ ينتج التوى[3].

يا قالي[4] القائل للنصائِح؛ أداؤك داؤك. كيف تجتمع همتك مع غوغاء المنى، وضوضاء الشهوات؟ كيف تتصرف في مصالحك والشواغل للشوى غل[5]؟ كم صادفت الهوى فصدفت[6]؟ لقد خدع

---

(١) سليم: الأولى: اللديغ. والثانية: السالم من الآفات.

(٢) جوارحك: الأولى: بمعنى الأعضاء، والثانية بمعنى: الآلات الجارحة.

(٣) التوى: الهلاك. من: توِي: هلك، وتوى المال: هلك وضاع.

(٤) قالي: من القلا، وهو البغض والكراهية والهجر.

(٥) الشواغل: الأولى: جمع شاغلة، والثانية مركبة من (الشوى)، وهي اليدان والرجلان والأطراف، ومن (الغل) بضم الغين: القيد المعروف.

(٦) فصدفت: ملْت.

قلبك الهوي، فاسترق[1] فاسترقّ. أضرُّ ما عليك سوء تدبيرك.

آه، للابس شعار الطرد، وما يشعر به. واأسفا لمضروب، ما يحس ضرب السوط. عجباً، لمن أصيب بعقله، وعقله معه. يا معثر الأقدام مع إشراق الشمس! يا فارغ البيت من القوت في أيام الحصاد!!!

أملـي من أملـي مـا ينقضي ... وغرامي مـن غرامـي قاتلـي

كلمـا أفنيتُ عامـاً فاسـداً ... جـاء عـام مثله مـن قابـل

كلمـا أمّلتُ يومـاً صالحـاً ... عرض المقدور لـي فـي أملـي

وأرى الأيـام لا تُدني الـذي ... أرتجي منك وتُدنـي أجلـي

يا جَرحى الذنوب، قد عرفتم المراهم. اخرجوا من قَصْر «مِصْر» الهوى؛ وقد لاحت مدينة «مدين». اطلبوا بئر الشرب، وإِن صدّ الرعاء؛ فلعل حضور «موسى» يتفق. متى استقامت لكم جادة البكاء؛ فلا تعرجوا عنها.

كان عمر بن عبدالعزيز وفتح الموصلي يبكيان الدم!!!

قولوا لسكان الحمى: ... تبـدّلَ الدمـعُ دمـا

وكـلُّ شهْـد بعدكـم ... قـد صار مُرّاً علْقما

إذا تكاثفت كثبانٌ الذنوب، في بوادي القلوب؛ نسفها نسْفَ أسفٍ في نفس.

يا أهل الزلل: قوُّوا نفس أنفسكم؛ فقد جمع قسر القهر بين الناقص والتام. لقد تاب الله على المؤمنين ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ

(١) استرق: الأولى من الاستراق. والثانية من الاسترقاق.

خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

لستُ وإن أعرضتم أياسُ مِنْ أن تعطفوا
فلا برى[1] وجدي بكم ولا أفاق الشغف
وصبر «يعقوب» معي حتى يُردَّ «يوسف»

يا من كان له وقتٌ طيب، وقلبٌ حسن، فاستحال خلّه خمراً، ابك على ما فقدت في بيت الأسف.

لعل انحدار الدمعِ يُعقب راحةً من الوجد أو يطفي نجي البلابل

ما أحسن ما كنتَ، فتغيرتْ. ما أجود جادتك. فكيف تعثرت؟

وكنا جميعا قبل أن يظهر الهوى بأنعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنا بطون الهوى مقلوبة لظهور

البكاء على الفائِت: معول الحزين.

لأبي تمام:

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد
لعمري قد اخْلقتم جدّة البكا علي وجددتم به خَلِقَ الوجد

يا معاشر المطرودين عن صحبة أهل الدين:

تعالوا نُقمْ مأتما للفراق وندب إخواننا الظاعنينا

هلموا، نُرِق دمع تأسّفنا، على قبح تخلّفنا. ونبعث مع الواصلين رسالة مُحْصَر؛ لعلنا نحظى بأجر المصيبة. أنجع المراهم لجراحات الذنوب: البكاء. هتكة الدمع ستر على الذنب.

---

(١) برى: برأ.

قد كنت أصون دمعتي في الآماق

سترًا للحب وهو ما ليس يطاق

حتى صاح الوجد عن صحيح الأشواق

ما حيلة من بلي بهجرٍ وفراق

كان محمد بن المنكدر كثير البكاء، فسئل عن ذلك. فقال: آية من القرآن أبكتني: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]. كيف لا تذهب العيون من البكاء؛ وما تدري ما قد أعدّ لها؟

سبقت السعادة لمحمد ﷺ قبل كونه، ومضت الشقاوة لأبي جهل قبل وجوده. وخوف العارفين من سوابق الأقدار؛ قلقل الأرواح. هيبة: ﴿لا يُسْأَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] مع تحكم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]: قوى قلق العلماء.

أترى سألوا لما رحلوا ... ماذا فعلوا؟ أم من قتلوا

أحليف النوم. أقِلّ اللوم ... فعندي اليوم بهم شغل

أدنى جزعي لم يبق معي ... قلبٌ فيعي منذ احتملوا

جلدي سلبوا جسدي نهبوا ... كمدي وهبوا كبدي تبلوا[1]

لما ذرفتْ عيني وقفتْ ... أتُرى عرفتْ ما بي الإبل

ولحا اللاحي وهو الصاحي ... وهُمُ راحي[2] وأنا الثمِل

* * *

(١) تبلوا: أسقموا.

(٢) راحي: الراح: الخمر.

الفصل الثامن والعشرون

تيقظ لنفسك، يا هذا، وانتبه، وأحضر عقلك، وميز ما يشتبه. أما هذا منزلك اليوم؟ وغدا لست به.

إذا ما انْجلى الرأي فاحكم بـه ... ولا تحكمـن بمـا يشتبـه
ونبـه فـؤادك مـن رقـدة ... فـإن الموفـق مـن ينتبـه
وإن كنتُ لـم أنتبـه بالـذي ... وعظتُ بـه فانتبـه أنت بـه

لقد أمكنت الفرصة أيها العاجز. ولقد زال القاطع، وارتفع الحاجز. أين الهمم العالية؟ وأين النحايز[1]؟ أما تخاف هادم اللذات والمنى الناجز؟ أما اعوجاج القناة؛ دليل على الغامز؟ أما الطريق طويلة، وفيها المفاوز؟ أما القبور قنطرة العبور؟ فمن المجاوز؟ أما يكفي في التنغيص حمل الجنايز؟ أما العدو محارب؟ فهل من مبارز؟ أما الأمن بعيد، والهلك ناجز؟ والقنا مشرع، والطعن واخز؟ تالله تطلب الشجاعة من بين العجائِز. وتروم إصلاح فَارِكٍ[2] وتقويم ناشز. إن لم يكن سبق «الصدِّيق» فلتكن توبة «ماعز»[3].

ما هذه الغفلة، والبلى مصيرك؟ وكم هذا التواني؟ فلقد أودى تقصيرك. أما صاح بك في سلب صاحبك: نذيرك؟ أفلا تتأهب؟ لقد ساء تدبيرك.

أُبْ يا شاردَ الطبع من سفر الهوى، وأذب جامد الدمع بنيران

---

(١) النحايز: جمع نحيزة. وهي الطبيعة.

(٢) فارك: مبغض.

(٣) ماعز: الأسلمي رضي الله عنه وهو الذي جاء معترفاً بذنبه، وطلب تطهيره منه؛ فرجم.

الأسى؛ لعل شفيعَ الاعتراف يسألُ في أسيرِ الاقتراف.

نقِّ عينيك عن عيوبك، وخلص ذَنوبك[١] من بحر ذُنوبك. وصن صندوق فمك بقُفْل صمتك. واطو طيلسان لسانك عن بذلة نطقك. واغضض عينك عن عيبك؛ حفظاً لدينك. واكفف كفك مكتفياً بما كفك. وابن منبر التذكير - لواعظ القلب - في ساحة الصدر. وناد في شجعان العزائم، ورهبان الفكر: هلموا إلى عقد مجلس الذكر. واحذر عين العدو أن يوقع تشتيت الهمم في جمع العزم.

فإن رماك القدر: بسهم الفتور، عن قوس الحكمة، من يد: «لكل عامل فترة»[٢] فاتق بجُنّة الاعتذار. فإن ألقى كرة قلبك، إلى صولجان التقليب، في بيداء: «المؤمن مفتن»[٣]؛ فجُلْ في ميدان الذل. فإن دبَّ ذئب الهوى، فعاث في مزرعة التقى؛ فأقم ناطور القلق. فإن أفلت «دجّال» الطبع، فأقام «صليب» الزلل، وأطلق «خنزير» الشره؛ فالجأ إلى «حرم» التوبة، واستغث بـ «عيسى» العون[٤]؛ لعله ينزل من سماء الألطاف؛ فيهلك الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب.

اجلس ليلة على مائدة السحَر، وذق طعام المناجاة؛ تُنسيك

---

(١) ذنوبك: الذَنوب: الدلو.

(٢) نسبه الهيثمي في المجمع: (٢/ ٢٥٩) للبزار من حديث ابن عباس بمعناه. وقال: «رجاله رجال الصحيح»، ونسبه للطبراني في الكبير من حديث جعدة بن هبيرة، وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) الطبراني في الكبير: (١٠٦٦٦)، (١٢٤٥٧) مختصرا، (١١٨١٠) مطولاً. قال الهيثمي في المجمع: (١٠/ ٢٠١): «أحد أسانيد الكبير رجاله ثقات».

(٤) المقصود: أن يطلب من الله أن يعجّل بنزول «عيسى» ليكون الخلاص على يديه.

كل لذة. أرواح الأسحار لا يستنشقها مزكوم غفلة. إنها لتأتي بألطاف الحبيب، ثم تعودُ فيْحاء، تطلب رسالة. فمن لم يكتب كتابا، فماذا يبعث؟ لو وقفت على جادة التهجد ليلة؛ لرأيت ركبْ الأحباب. لو سرت في أعراض القوم، لحرك قلبك صوت الحداة. أقبلت رياحُ الأسحار، فاحتشمتْ تقبيل أقدامهم؛ فحرّكْت أذيال أثوابهم.

للشريف الرضي:

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا — على الكثيب فضول الريط واللمم

يشي بنا الطيب أحيانا وآونة — يضيئنا البرق مجتازاً على أضم

تولّع الطلّ بُرْدَيْنا وقد نسمت — رويحة الفجر بين الضال والسلم

حديث القوم مع الدجى يطول. يسيحون في فلوات خلواته، يندبون أطلال الحب، ويرتاحون إلى تنسمه؛ لشدة الطرب.

وإني لأستنشي[1] الشمال إذا جرت — حنينا إلى أُلاّف قلبي وأحبابي

وأهدي مع الريح الجنوب إليهم — سلامي وشكوى طول حزني وأوصابي

واعجباً، الرسائِل تُحمل في الأسحار، لا يدري بها الفلك. والأجوبة تَرِدُ إلى الأسرار، لا يعلمها الملك.

يا حبذا رند العقيق وبانه — سُقي العقيق وأهله وزمانه

راقت خمائله ورقّ نسيمه — وصفت على حصبائه غدرانه

وشكت تباريح الصبابة وُرْقُه — وتمايلت بيد الصَّبا أفنانه

يا مفردا في حُسنه صِلْ مُفردا — في حزنه لعبت به أشجانه

صباً إذا ذكر العقيق وأهله — صابت مدامعه وجُنّ جَنانه

---

(١) أستنشي: أشمّ.

اجتمع المحبون، في مساجد التعبد، أول الليل؛ فرماهم الوجد، في آخره، على قوارع الطرق.

مشوا إلى الراح مشى الرخّ وانصرفوا والراح تمشي بهم مشي الفرازين

أرواح أزعجها الحب، وأقلقها الخوف. سبحان من أمسكها باللطف.

قوم إذا هُجروا من بعد ما وُصلوا ماتوا وإن عاد من يهوونه بُعثوا

ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتْيَة الكهف لا يدرون كم لبثوا

والله لو حلف العشاق أنهم موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا

مجلسنا بحر، يرده الفيل والعصفور. [يأخذ كل منهم على قدر حوْصلته: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] أطيار البلاغة قد خرجت من بُرْج القلب، فأظهرت صناعتها في الجو بالقلب، ثم وقعت على غُصْن اللسان، تستريح إلى التغريد][1]، فأين الطروب؟

سحائب التفهيم، قد هطلت بودق البيان. أفتراها اخضرّت رياض الأذهان؟. نحن في روضة: طعامنا فيها الخشوع، وشرابنا فيها الدموع، ونَقلُنا[2] هذا الكلام المطبوع. نداوي أمراضًا أعجزت بختيشوع، ونُرقّي الهاوي، ونَرقي الملسوع، فليته كان كل يوم، لا كل أسبوع.

لصردر:

يا صِحابي وأين مني صَحْبي فتنتهم عيونُ ذاك السِّربِ

كلماتٌ أسماؤهن استعارات[3] وما هن غير طعنٍ وضربِ

---

(١) ما بين المعكوفين أغلبه ساقط من المطبوع، وقد استدركناه من المخطوط.

(٢) نقلنا: النَّقَل: ما يُنتقل به على الشراب. وقد يُضمّ، أو ضمّه خطأ. قاله في القاموس.

(٢) (استعارات): في المخطوط: «إشارات».

أرنـي ميتـة تطيـب بهـا النفس وقتــلا يلـــذ غيــر الحــب
لا تـزل بـي عـن العقيـق ففيـه وطــري إن قضيتــه ونحبــي
لا رعيت السوام إن قلت للصحبة خفــي عنــه وللعيس هبــي

وحدي أتكلم، وجدي يتألم. ألا مريد يتعلم؟ ألا دموع تتسلم؟

لابن المعلم:

هـو الحمـى ومغانيـه معانيــه فاحبس وعان بليلى ما تعانيـه
ما في الصحاب أخو وجْد تُطارحه حديث نجد ولا صبٌّ تجاريـه
إليك عن كـل قلب في أماكنـه ساه وعـن كـل دمـع في مآقيـه
يوهي قوى جلدي من لا أبوح به ويستبيح دمــي مــن لا أسمّيه
يبلى فما في لساني ما يعاتبه ضعفا بلى في فؤادي ما يداريه

* * *

الفصل التاسع والعشرون

إخواني، تفكروا في مصارع الذين سبقوا، وتدبروا مصيرهم، أين انطلقوا؟ واعلموا أن القوم انقسموا وافترقوا؛ قوم منهم سعدوا، ومنهم قوم شقوا.

والمرء مثل هلال عند طلعته ... يبدو ضئيلا لطيفاً ثم يتسقُ
يزداد حتى إذا ما تم أعقبه ... كر الجديدين نقصا ثم ينمحق
كان الشباب رداءً قد بهجت به ... فقد تطاير منه للبلى خِرَق
وبات منشمراً يحدو المشيبُ به ... كالليل ينهض في أعجازه الفلق
عجبتُ والدهرُ لا تفنى عجائبه ... للراكنين إلى الدنيا وقد صُدقوا
وطال ما نُغّصوا بالفجع ضاحية ... وطال بالفجع والتنغيص ما طُرقوا
دار تغرُّ بها الآمال مهلكة ... وذو التجارب فيها خائف فَرِق
يا للرجال لمخدوعٍ بزخرفها ... بعد البيان ومغرور بها يثق
أقول والنفس تدعوني لباطلها: ... أين الملوك ملوك الناس والسوق
أين الذين إلى لذّاتها ركنوا ... قد كان فيها لهم عيش ومرتفق
أمست مساكنهم قفرا مُعطلة ... كأنهم لم يكونوا قبلها خُلقوا
يا أهل لذّات دارٍ لا بقاء لها ... إن اغترارا بظل زائل حمق

أين من كان في سرور وغبطة؟ أين من بسط اليد في بسيط البسطة؟ لقد أوقعهم الموت في أصعب خُطة. جسروا على المعاصي؛ فانقلبت على الجيم النقطة[1]. بينا هم في الخطأ: خطا إليهم صاحب

(١) الجيم من كلمة: «جسروا» تنقلب النقطة فتصبح: «خسروا».

الشرطة. هذا دأب الزمان: فإن صفا فغلطة[١].

كم تخوّن الموت منا إخوانا؟ وكم قرن في الأجداث أقرانا؟ كم مترف أبدله الموت ديدانا؟ وهذا أمر إلينا قد تدانى. كم مُعِدّ عوداً[٢] لِعيده، صارت ثيابه أكفانا؟ وما شاهدنا مصرعها وما كفانا. كم مسرور بقصره: عُوّض من قبره أعطانا[٣]؟ أفترانا، هذا «الأمن» من أعطانا؟

فنمنا وصرف الدهر ليس بنائم

خُزمنا لـه قسـرا بغيـر خزائم

من سعى إلى شهواته مستعجلا؛ تعثّر بحسك الأسف. تلمُّحُ العواقب قبل الفعل أمانٌ من الندم. قد عرفتم عقابيل «قابيل». وعلمتم حُسن سرابيل «هابيل».

الشري[٤] يوجد في أعقابه ضَرَبٌ[٥]

خيـر مـن الأري[٦] فـي أعقابـه لسع

الهوى مطمورة ضيقة، في حبس وعر.

ومنذ خُلِق الهوى خُلِقُ الهوانُ

لا يتصرف الهوى إلاّ بربْع قلبٍ فارغٍ من العلم. الجهل

---

(١) تنبيه: نسبة الخطأ والذم للزمان والدهر: تعبير فيه نظر - وإن جرى عليه الشعراء والأدباء-؛ لأن الفاعل حقيقة هو الله.

(٢) عودا: العود: معروف، من آلات اللهو والطرب. ومهما علا رنين العود، واهتزّت الأفخاذ والنهود، ورقصت القرود، ونام الجنود وهم يحرسون الحدود؛ فقل سلام على اليهود. وويل للعرب من شر قد اقترب. والحديث ذو شجون، والجنون فنون.

(٣) الأعطان: مبارك الإبل.

(٤) الشري: الحنظل.

(٥) ضَرَب: العسل.

(٦) الأري: العسل.

خندق يحول بين الطالب والمطلوب، والعلم يدل على القنطرة. كتابة العلم - في ليل الجهل - تفتقر إلى مصباح فطنة، ودهن الذهن غال. ما قدر لص قط، على فَطِن. ومتى نام حارس الفكر؛ انتبه لص الهوى.

من ثبت قلبه في حرب الشهوات لم يتزلزل قدمه. أول ما ينهزم من المهزوم عقله. ما دمت في حرب العدو؛ فلا تبال بالجراح، فإنه قد يصاب الشجاع. إنما المهادنة دليل الذل.

تأثيرات الذنوب على مقاديرها؛ وقعت غلطة من «يوسف»[١] فقدّ القميص، وقويت زلة «آدم» فخرج عريانا من الثياب.

أين عزيمة توبة ماعز؟ لا عزيمة «توبة»[٢]. أين همّ «أويس»[٣] لا غم «قيس»[٤]. ما لم يكن لك محرك من باطنك فالخلق[٥] تضرب في حديد بارد.

لصردر:

ظللتُ أكـرّ عليـه الرُّقـى وتأبـى عريكتـه أن تلينـا

ويحك، من زم جوارحه، ولازم الباب؛ كان على رجاء

---

(١) الكلام على «همّ يوسف» عليه السلام يطول. وانظر: (تبديد الأوهام: في بيان ما همّ به يوسف عليه السلام) لعلي بن مطاوع آل عقيل.

(٢) توبة: أراد به توبة الحميري صاحب ليلى الأخيلية.

(٣) أويس: هو القرني.

(٤) قيس: أراد قيس بن الملوح صاحب ليلى العامرية.

(٥) الخلق: الخليقة والناس.

الوصول. فكيف بمن لا زمّ ولا لازم؟

طوبى للزهاد، لقد مروا في المطلق[١]. من يرافقني إلى ديار القوم؟ ما أجوز على البلدان، إنما أمضي على السماوة[٢]. وهذه خيام «ليلى» فأين «ابن الملوح»؟!

هذي منازلهم وما لي بَعد بُعد القوم خُبْرُ

ويلي أحظّي كله من دونه صدٌّ وهجرُ

كان «سري»[٣]، يدافع أول الليل؛ فإذا جَنَّ. أخذ في البكاء إلى الفجر.

أقطع ليلي وجيش وجدي من عن شمالي وعن يميني

تالله لو عادني رسولٌ لعاد عن مدنف حزين

ما حيلتي فيك غير أني أسرق من زفرتي أنيني

ذلوا له ليرضى؛ فإذا رأيتهم قلت: «مرضى».

لصردر:

مرضٌ بقلبٍ ما يُعادُ وقتيلُ حبٍ ما يُقادُ

يا آخر العشاق ما أبصرت أولهم يُذاد

يقضي المتيّم منهمُ نحْباً ولو رُدّوا لعادوا

يأنسون في الدجى بالظلام، ويطربون بنوْح الحمام. مرضى الأبدان من طول الغرام، أصحاء القلوب مع السقام. إذا ذكرتَ حبيبهم؛ رأيت المستهام قد هام.

(١) المطلق: كذا في المطبوع. وفي المخطوط: «الطلْق». والطلق: الحلال. والليلة الطلق: التي لا حرّ فيها ولا قرّ.

(٢) السماوة: موضع بين الكوفة والشام، وليست من العواصم.

(٣) سري: هو السقطي، الزاهد المعروف.

للمهيار:

وأنت إن كنت رفيقاً فأعد ذكر الحمى أطيب ما غنينا

أعد فمن آية سكان الحمى وذكرهم أن يُذهب الشجونا

شجواً كشجوي يا حمام ساعدي إن الحزين يسعد الحزينا

كم من دموع ردّها صوب دم تخلّج البرق على يَبْرينا

قال الشبلي: لقيت جارية حبشية. فقلت: من أين؟ فقالت: من عند الحبيب. قلت: وإلى أين؟ قالت: إلى الحبيب. قلت: ما الذي تريدين من الحبيب؟ قالت: الحبيب. قلت: فكم تذكرين الحبيب؟ فقالت: ما يسكن لساني عن ذكراه، حتى ألقاه.

وحرمة الود[1] مالي عنكُمُ عِوَضُ وليس لي في سواكم بعدكم غرضُ

ومن حديثي بكم قالوا: به مرض فقلت: لا زال عنّي ذلك المرض

رأى «معروف» في المنام، كأنه تحت العرش. فقال الله عز وجل: ملائكتي، من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم، هذا معروف، قد سكر[2] من حبك فلا يفيق إلا بلقائك.

فداو سقما بجسم أنت متلفه وابْرد غراماً بقلب أنت مضرمهُ

ولا تكلني على بعد الديار إلى صبري الضعيف فصبري أنت تعلمه

تلق قلبي فقد أرسلته فرقا إلى لقائك والأشواق تقدمه

★ ★ ★

(١) سبق التنبيه على أنه لا يجوز الحلف بغير الله، لأن «من حلف بغير الله فقد أشرك».

(٢) سكر: في المطبوع: «سكن» والتصحيح من المخطوط.

الفصل الثلاثون

إخواني، البدار البدار، والحذار الحذار، والجد الجد، فالخصم معد، والقصم[١] مُجِّد.

مكرُ الزمان[٢] علينا غير مأمون ... فلا تظنن أمراً غير مظنون
بل المخُوفُ علينا مكرُ أنفسنا ... ذات المنى دون مكر البيض والجون[٣]
إن الليالي والأيام قد كشفت ... من مكرها كل مستور ومكنون
وحدثتنا بأنّا من فرائسها ... نواطقا بفصيح غير ملحون
واستشهدت من مضى منا فأنبأنا ... عن ذاك كلُّ لقى[٤] منا ومدفون
وأم سوء إذا ما رام مرتضع ... أخلافها[٥] صُدَّ عنها صد مزبون[٦]
ونحن في ذاك نُصْفيها مودّتنا ... تباً لكل سفيه الرأي مغبون
نشكو إلى الله جهلا قد أضرّ بنا ... بل ليس جهلا ولكن علم مفتون
أغوى الهوى كلَّ ذي عقل فلست ترى ... إلا صحيحاً له أفعال مجنون
حتى متى نشتري دنيا بآخرة ... سفاهةً ونبيع الفوْق بالدون
نبني المعاقل والأعداء كامنة ... فيها بكل طرير[٧] الحد مسنون
ونجمع المال نرجو أن يخلّدنا ... وقد أبى قبلنا تخليدَ قارون
نظلُّ نستنفق الأعمار طيبة ... عنها النفوس ولا نسخو بماعون[٨]
وما تأخّر حيٌ بعد ميّته ... إلا تأخر نقدٍ بعد عُرْبون

(١) القصم: الكسر.
(٢) لو قال: «مكر الإله» لكان أولى؛ لأن الفاعل حقيقة هو الله. أو يقول: «كرُّ الزمان».
(٣) البيض والجون: الأيام والليالي.
(٤) لِقَى: اللقى: ما طُرح.
(٥) أخلافها: حلمات الثدي.
(٦) مزبون: مدفوع
(٧) طرير: مُحدّد.
(٨) الماعون: العون والمساعدة.

يا من إذا دعي إلى نفعه، نبا ونشز. يا جامعاً لغيره ما جمع وكنز. يا متثبطاً في الخير، فإذا لاح الشرُّ جمز[١]. كأنك بالألم وقد ألمّ، فنكى ونكز[٢]. وكدَّ التَّبَارُ الروح[٣] بالتباريح، واشتد العلز[٤]. وأخذ النفْسَ النفَسُ، فاضطرها وحفز. ودارت في فَلَكِ الفْوت؛ فإذا ملك الموت قد برز. فسماك بالمقبور، وبالمثبور قد نبز. فتأهب؛ فالسعيد منا: من تأهب للخير وانتهز.

لقد علت سنك وانتهيت، وما انتبهت ولا انتهيت، أتعبت ألف رائِض، ولم تؤدّ الفرائِض. كم ضيعت عمراً طويلا؛ حملت فيه وزراً ثقيلاً. كم نصب لك الموت دليلاً؛ إذ ساق العزيز ذليلاً. لقد حمل إلى القبور، جيلا جيلا. ونادى في الباقين: رحيلا رحيلا. لكن الهوى أعاد الطرف كليلا. وما كان الذي رأيت قليلا.

يا مرضا عجيبا. كم أتعبت طبيباً؟ لقد تنوّع ضروبا؛ فأخذ كلُّ عضوٍ نصيباً. إلام يبقى الغصن رطيبا؟ من يَرُدُّ بُرْدَ الصِّبى قشيبا؟ لقد أمسى الموت قريبا، وستبصر يوماً غريباً.

عجبا لك؛ لا الدهر يعظك، ولا الحوادث تنذرك. والساعات تُعدّ عليك، والأنفاس تعد منك. وأحب أمريك إليك؛ أعودهما بالضرر عليك.

يا هذا، من جَلاَ عين بصيرته من قذى الهوى، جلّى على

---

(١) جمز: عدا ووثب.

(٢) نكز: نكس.

(٣) التَّبَارُ: الهلاك، من تبر: هلك.

(٤) العلز: القلق والهلع والخفة التي تصيب المريض.

بصره عرائس الهدى. الصِّوَرُ تُزاحم المعاني؛ فمن حلّها حلّ بمغنى المعنى. فتعلّم حلّها بالتدريج.

كل ذرة من الكون، تخبر بلغة بليغة عن حكمة الفاطر؛ غير أنه لا يفهم نطق الجوامد إلا العقل. نظرُ الأبصار اليوم إلى الصانع بواسطة المصنوع: تدريج إلى رفع الوسائِط غداً.

يا محبوسا في سجن غفلته، اخرج من ديار إدبارك، واعبر في معبر اعتبارك. قف على بعض بقاع قاع؛ ترى كيف نمت خضرة حضرته بأسرار الخالق إذا تمّت.

تلمّح أصناف النبات، في ثبات الثبات، قد برزت في عيد الربيع، تميس طرباً بالريّ. تأمل مختلف الألوان في الغصن الواحد؛ فإن صباغ القدرة صَنَاع[1]. اسمع غناء الوُرْق، على عيدان[2] العيدان؛ لعل مقاطع السجوع توجب رجوع المقاطع.

ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني

غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

الحمائم نوائح المشتاقين. قد رضيت من خُلَعِهم بجريان الدموع.

ناحت سحراً حمامة في غُصْنِ قد جرّعها الفراق كأس الحزن

تبكي شجنا تلقنته مني ما يبك باك إلا ويروي عني

واعجباً. متى يثمر لك وجود الثمر: معرفةً المنعم؟ كم تنضج الثمار وتتناولها؛ وثمرة عرفانك بعد فجة؟ ليس حظك من النبات

(١) صَناع: الصناع التي تتقن العمل.

(٢) عيدان: الأولى جمع عود آلة الغناء. والثانية: كذلك، الغصن.

إلا الأكل. أين التدبّر لعجيب الصنعة والصنع؟ يا مؤثراً ضنك الحس على فضاء العقل. كيف تبيع صفاء التأمّل بكدر الإهمال.

من العجب أن ندعوك إلى تلمّح العبر في الغير؛ وأنت ما تبصر نفسك. تدبر فطرة قطرة من ماء، صبت على إيقاد نار الشهوة؛ كيف ظهرت فيها عن حركات اللذة؛ رقومُ نقوشٍ عقدتها يُد القدرة؛ كما تظهر الصورة في ثوب السقلاطوني[1] عن حركات الشد؟

تأمل نطفة مغموسة في دم الحيض[2]، ونقّاش القدرة يشقُّ سمعها وبصرها من غير مساس. كيف تربّى في حرز مصون عن مشعب؟ بينا هي ترفل في ثوب نطفة: اكتست رداء علقة، ثم اكتست صفة مضغة، ثم انقسمت إلى عظم ولحم. فاستترت من يد الأذى؛ بوقاية جلد. ثم خرجت في سربال الكمال، تسحب مطارف الطرائف. فبينا هي في صورة طفل درجت درجة الصبي، فتدرجت إلى النطق، وتشبثت بذيل الفهم.

فكم من صوتٍ بين أرجلِ النقْل من تحريك جلاجل العبر، في خلاخل الفكر، كلما رنَّتْ غَنَّت ألسُن الهدى في مغاني المعاني؟ وكيف يسمع أطروش الغفلة؟!

---

(١) الثوب السقلاطوني: منسوب إلى سقلاطون بلد بالروم.

(٢) هذا الكلام من المصنف - رحمه الله - على قدر علمه. وإلا فالمعروف الآن أن النطفة ليست مطموسة في دم الحيض. وإنما ينتج دم الحيض إذا لم تجد البويضة الأنثوية الحيوان المنوي، وبالتالي لا يحدث التلقيح. وانظر فتح الباري: (١١/ ٤٨٩) في شرح الحديث (٦٥٩٤). حيث رد على القول بأن الولد إنما يتكون من دم الحيض. فقال: «وأحاديث الباب تبطل ذلك».

هذا بعض وصف الظاهر، فكيف لو فهمت معنى الباطن؟ الآدمي كتاب مسطور، وشخصه رقٌّ منشور؛ قلبه بيت معمور، همه سقف مرفوع، علمه بحر مسجور.

من ينتفع بإسماعكم[1] بعدي؟ وما تحسن الأيام تكتب ما أملي.

★ ★ ★

---

(١) بإسماعكم: كذا في المطبوع. والذي في المخطوط: «باسم علم».

الفصل الحادي والثلاثون

يا جامعا المال لغيره، تاركا للتزود في سيره: أتحظى بشرٍّ كسبك، ويحصل سواك بخيره؟

سابقَ إلى مالك وُرّاثه ما المرء في الدنيا بلبّاثِ

كم صامت يخنق أكياسه قد صاح في ميزان ميراث

أين جامع الدنيا؛ طرحها واطّرح؟ أين اللاهي بها؛ حزن بعد أن فرح؟ جال في صف الحرب عنها، فاغتِيلَ وجُرِح. وظن الأمر سهلا، فإذا الرجل قد ذبح، بينا هو في لذاته يغتبق[1] ويصطبح[2]؛ برّح به أمرٌ مرٌ حلَّ، فما برح. نزل والله لحداً ضيقاً، فما ينفسح. وصمت تحت الثرى؛ فكأنه لم ينطق ولم يصح. وكتب على قبره: ما أخّر خَسِرَ، وما قدّم ربح. وعُدِلَ إلى قصره بعد الدفن، فافتُتح. وأصبحت كباش الورّاث، في ماله تنتطح. يا معرضا عن الهدى، والأمر مُتّضح. أو ما حالك كهذا الحال الذي شُرِح؟ كأنك بك في ضيق خناقك، تبكي على قبيح أخلاقك، وخيل الدموع تجري في حلبات آماقك، وقد تحيّرتَ عند التفافِ ساقك بساقك. وأُسِرتْ لا بقيدٍ عن حركات إطلاقك، وناداك تفريطك: هذا بعض استحقاقك.

لا تكـذبـن فإنـني لك ناصح لا تكذبنهْ

فاعمل لنفسك ما استطعـ ـت فإنهـا نـار وجنـه

---

(١) يغتبق: الغبوق: ما يشرب بالعشي.

(٢) يصطبح: الصبوح: ما يشرب في الصبح.

إخواني، كم من حريص قد جمع المال جمع الثريا[١]؛ فرقته الأقدار تفريق بنات نعش[٢]، يا ذا اللب، حدثني عنك: أتنفق العمر الشريف في طلب الفاني الرذيل؟ ويحك، إن الهوى مِرْعادٌ مِبْراق، بلا مطر. الدنيا لا تساوي نقل أقدامك في طلبها. أرأيت غزالا يعدو خلف كلب؟.

الدنيا مجاز، والأخرى وطن، والأوطار في الأوطان أطوار. إيثار ما يفنى على ما يبقى: برسام[٣] حاد.

يا أبناء الدنيا إنها مذمومة في كل شريعة؛ والولد عند الفقهاء يتبع الأم.

يا من هو في حديثها: أنطق من «سحبان»، وفي انتقاد الدنانير، أنسب من «دغفل»، فإذا ذكرت الآخرة، فأبله من «باقل». حيلتك في تحصيلها: أدق من الشعر. وأنت في تدبيرها، أصنع من النحل. وعين حرصك عليها: أبصر من العقاب. وبطن أملك: أعطش من الرمل. وفم شرهك: أشرب من الهيم[٤]. تجمع فيها الدر جمع الذر[٥]. يا رفيقاً في البله لدود القز. واعجباً، ما انتفعت بموهبة العقل.

كَدُودٌ[٦] كـدُودِ القـزِّ ينسج دائماً

ويهلك غماً وسط مـا هـو ناسجه

---

(١) الثريا: النجم؛ لكثرة كواكبه مع ضيق المحلّ.

(٢) بنات نعش: نعش الكبرى سبعة كواكب: أربعة منها نعش، وثلاث بنات. وكذا الصغرى.

(٣) برسام: علّة يكون معها هذيان.

(٤) الهيم: الإبل العطاش التي أصيبت بداء الهيم فهي تشرب ولا ترتوي.

(٥) الذر: النمل.

(٦) كدود: من الكد والتعب.

ويحك، إن سرورها أقتل من السم. وإن شرورها أكثر من النمل. إنها في قلبك أعز من النفس. وستصير عند الموت أهون من الأرض. حرصك بعد الشيب أحر من الجمر. أَبَقِيَ عُمُرٌ يا أبرد من الثلج؟ يا من هو عن نجاته أنوم من فهد: ضيعت عمراً أنفس من الدر.

أنت في الشر أجرى من جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج. تسعى إلى العاجل، سعي رخّ. وتمشي في الآجل، مشي فرزان. الزكاة عليك أثقل من أُحد. والصلاة عندك كنقل صخر على ظهر. وطريق المسجد - في حسبان كَسلِك - كفرسخي دير كعب. صدرك عند حديث الدنيا، أوسع من البَحر. ووقت العبادة، أضيق من تسعين[1]. معاصيك أشهر من الشمس. وتوبتك أخفى من السهى[2]. إن عرضت خطيئة، وثبت وثوب النمر. فإذا لاحت طاعة؛ رُغت روغان الثعلب. تقدم على الظلم إقدام السبع، وتخطف الأمانة اختطاف الحدأة.

يا أظلم من الجلَنْدي[3]. ما تأمنك غزلان الحرم. يا كنعان الأمل. يا نمروذ الحيل. يا نعمان الزلل. أنت في حب المال: شبه الحباحب[4]. وفي تبذير العمر رفيق «حاتم»[5]. تمشي في الأمل على طريق «أشعب». وستندم ندامة «الكسعي».

---

(١) تسعين: في علم عقود العدد: عدّ التسعين أن تجعل الأنمل السبابة في أصل الإبهام.

(٢) السهى: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

(٣) الجلندي: الفاجر.

(٤) الحباحب: ذباب يطير بالليل له شعاع كالسراج.

(٥) حاتم: الطائي.

يا عذري[١] الهوى في حب الدنيا. يا كوفي الفقه في تحصيلها. يا بصري الزهد في طلب الآخرة. إنما يُتعب في تعليم البازي؛ ليصيد ماله قدر. ولمَّا تعلَّم بازي فكرك؛ أرسلته على الجيف. ويحك، تفكر قبل سلوك طريق الهوى في كثرة المعاثر والصدمات. أوما المكروهات في طي المحبوبات كوامن؟ يا مطلقاً نفسه في محظور شهواتها: اذكر الغمْس في الرمْس. يا ذا البال الناعم فوق الأرض: اذكر الناعم البالي تحتها.

أتلفَّق والزمان يفرق؟ أتؤلف والحدثان يمزق؟ أتصفي والدهر يُرنِّق؟ أتؤمل والموت معوق؟ ويحك إن القاصد قاصم، وما للعاصي عاصم. أنت في أرباب الذنوب غريق، وفي رُوم الهوى بَطْريق[٢]؛ فاحذر عقاب الأكابر. يا قليل الخبرة بالطريق؛ اطلب رفقة. إذا لم تعرف القبلة بالعلامات؛ ففي المساجد محاريب. إذا رأيت قطار التائبين فعلّق عليه.

أهل الغرام تجمعوا   فاليوم يـوم عتابنا
نعـق الغـراب ببيننا   فغرابُنا أغـرى بنـا
إن الذيـن نحبّهـم   قـد وُكلّوا بعذابنا
قوامو بنا بحياتكم[١]   نمضـي إلـى أحبابنـا
قوم إذا ظفـروا بنـا   جـادوا بعتـق رقابنـا

(١) عذري: نسبة إلى بني عُذرة. ومنهم: عروة بن حزام.
(٢) البطريق: القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل.
(٣) سبق التنبيه إلى أن لا يجوز الحلف بغير الله.

من مشى إلي؛ هرولت إليه. دعوناك بالوسائط، فلم تحضر. فأتى المرسِلُ: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»[١] النظر[٢]: مُتشابه، والذوق: مُحكم.

ولما رأيت الحب قد مدّ جسره ... ونودي بالعشاق: قوموا بنا فاسروا[٣]

خرجت مع الأحباب كيما أحوزه ... فصادفني الحرمان وانقطع الجسر

ومالت بنا الأمواج من كل جانب ... ونادى منادي الحب: قد غرق الصبر

★ ★ ★

(١) جزء من حديث: رواه البخاري في التهجد: (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين: (٧٥٨).

(٢) النظر: كذا في المطبوع. وفي المخطوط: «النطق».

(٣) فاسروا: الإسراء سير الليل.

الفصل الثاني والثلاثون

يا هذا. لو عاينت قِصَرَ أجلك؛ لزهدت في طول أملك. وليقتلنك ندمك؛ إن زلّت بك قدمك

للمتنبئ:

إلى كم ذا التواني في التواني ... وكم هذا التمادي في التمادي

وما ماضي الشباب بمستردٍّ ... ولا يوم يمر بمستعاد

متى لحظت بياض الشيب عيني ... فقد وجدته منها في السواد

متى ما ازددت من بعد التناهي ... فقد وقع انتقاصي في ازدياد

إلى متى تحرص على الدنيا وتنسى القدر؟ من الذي طلب ما لم يُقدّر فقدر؟ لقد آذاك إذ ذاك، النصَب. وأوقعك الحرص في شرك الشرك إذ نصب. أتحمل على نفسك فوق الجهد؟ ولو قنعت أراحك الزهد. فلماذا تحمل ما آذى ولمن؟ ومن ينفعك إن قتلت نفسك يا هذا ومن؟ تحمل على الهمِّ الهمَّ؛ لأمر لو قضي تم. أَحِرْصاً على الدنيا؟ لا كانت. أم شكّا في عيوبها؟ فقد بانت.

رأيت ظنوني بها كالسراب ... فأيقنت أن سرابي سرا بي

كم غرّت الدنيا فرخها؛ فعرّت. ثم ذبحته بمدية ما مرّت. إنها لتقتل صيادها، وتقتل أولادها.

عزيز على مهجتي غرني ... وسلم لي الوصل واستسلما

فلما تملكني واحتوى ... على مهجتي سل[1] ما سلما

والله لو كنت من رياشها أكسى من الكعبة؛ لم تخرج منها إلا

(١) سلّ: أخذ بخفة.

أعرى من الحجر الأسود.

قيل لراهب: ما الذي حبب إليك الخلوة؟ وطرد عنك الفترة؟ قال: وثبة الأكياس من فخِّ الدنيا.

وقيل لآخر: لم تخليت من الدنيا؟ فقال: خوفا والله من الآخرة أن تتخلى مني. من غرس في نفسه شرف الهمة، فنبتَ؛ نبتْ[1] عن الأقذار. ومن استقر ركن عزيمته وثبتَ؛ وثبتْ[2] نفسه عن الأكدار.

قـد انقضى العمـر وأنت في شغل

فاجسر على الأهوال إن كنت رجل

يا زَمِنَ الهمة[3]، يا مقعد العزيمة، يا عليل الفهم، يا بليد الذهن.

أما اشتقت مغنى الهوى حين طاب

ومنبت غصـن الصبى حيـن مـالا

أمـا آن مــن نــازح أن يحـنّ

وللوصـل مـن هاجـر أن يُـدالا

سار المُجدّون وتركوك، ونجا المخفون[4] وخلفوك. نادهم إن سمعوك، واستغث بهم إن رحموك.

أيها الراحلون من بطن خيف   وركاب النوى بهم ترامى

إن أتيتم وادي الأراك فاهدوا   لحبيبي تحيتـي والسلامـا

---

(١) نبت الأولى: نما، والثانية: بعدت.

(٢) وثبت الأولى: من الثبات، والثانية من الوثوب.

(٣) زمن: الزمن المصاب بعاهة.

(٤) المخفون: المتخففون من الدنيا.

وردوا ماء ناظري عوض الغدر ان[1] وارعوا بين الحشى[2] لا الخزامى[3]

واطلبوا لي قلبي وآيته أن تجد فيه مِنْ هواهم سهاما

يا من أبعدته الخطايا عنهم؛ ادْرج مرحلة الهوى، وقد وصلت. أنت تتعلل للكسل بالقدر فتقول: لو وفّقني. ولكسب الشهوات بالندب إلى الحركة: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]. أنت في طلب الدنيا: قدري. وفي طلب الدين: جبري. أيُّ مذهب وافق غرضك تمذهبت به. أو ليس في الإجماع: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]. جسدك عندنا، وقلبك في البيت. نحن في واد، وأنت في واد.

بكرت صبحا عواذله ورسيس الحب قاتله

هوى في واد ولسن به والهوى عنهن شاغله

يتمنين السلُّو له ومناه من يواصله

لابد والله من قلق وحُرْقة؛ إما في زاوية التعبد، أو في هاوية الطرد. إما أن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير، والشوق إلى لقاء الحبيب؛ وإلا فنار جهنم أشد حراً:

شجَاكَ الفراقُ فما تصنعُ أتصبرُ للبين أم تجزعُ

إذا كنت تبكي وهم جيرةٌ فماذا تقول إذا ودّعوا

القلق القلق، يا من سُلِبَ قلبه. والبكاء البكاء، يا من عَظُمَ ذنبه.

---

(١) الغدران: جمع غدير.

(٢) الحشى: من النبت ما يبس.

(٣) الخزامى: نبت طيب الرائحة.

كان الشبلي يقول في مناجاته: ليت شعري ما اسمي عندك. يا علاّم الغيوب؟ وما أنت صانع في ذنوبي. يا غفار الذنوب؟ وبم تختم عملي يا مقلب القلوب؟

وكان يصيح في جوف الليل: قرة عيني، وسرور قلبي. ما الذي أسقطني من عينك؟ أقلت: هذا فراق بيني وبينك؟

هجرانك قاتلي سريعا والهجر من الحبيب قاتل

إن كنت نسيتني فعندي شغل بك لا يزال شاغل

قلبي يهواك ليت شعري ما أنت بذا المحب فاعل

حقا قد قلت يا حبيبي قام على قولي الدلائل

شوقٌ وجوىً ونارُ وجْدٍ تذكي بعظائم البلابل

سائل دمعي فجفن عيني لا يبرح بالبكاء سائل

إن جن لي الليل يا حبيبي فجنة القلب في الرسائل

أبكي ما كان من وصال والحزن تهيجه المنازل

هذا خدي على ثراكمً لا أبرحه ولا أزايل

إن أنت طردتني فويْلي بعد الإعراض من أواصل

كلا والجود لي شفيع والجود مقدم الوسائل

★ ★ ★

الفصل الثالث والثلاثون

يا من بين يديه الأهوال والعجائب، وقِدْماً[١] نوى له الدهر النوائب. أما سهم المصائب كل يوم صائب؟ أحاضر، فتحمل من عتْبنا كَلاً[٢]؟ كلا. بل أنت غائب.

وكيف قرّتْ لأهل العلم أعينهم ... أو استلذوا لذيذ النوم أو هجعوا

والموتُ يُنذرهم جهراً علانية ... لو كان للقوم أسماعٌ لقد سمعوا

والنار ضاحية لابد موْردهم ... وليس يدرون من ينجو ومن يقع

قد أمست الطير والأنعام آمنة ... والنون في البحر لن يغتالها فزع

والآدمي بهذا الكسب مرتهن ... له رقيب على الأسرار يطلع

حتى يوافيه يوم الجمع منفرداً ... وخصمه الجِلْد والأبصار والسمع

إذ النبيون والأشهاد قائمة ... والجن والإنس والأملاك قد خشعوا

وطارت الصُّحُفُ في الأيدي منشّرة ... فيها السرائر والأخبار تطلع

فكيف سهوك والأنباء واقعة ... عما قليلٍ ولا تدري بما يقع

أفي الجنانِ وفوزٍ لا انقطاع له ... أم الجحيمِ فلا تُبقي ولا تدع

تهوي بساكنها طوراً وترفعهم ... إذا رجوا مخرجا من غمها قُمعوا

طال البكاء فلم يُرحم تضرعهم ... هيهات لا رقّة تُغني ولا جزع

لينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سال[١] قوم بها الرجعى فما رجعوا

يا من عمرهُ يُقدّر بالساعات، ويُعدّ بالأنفاس. يا خِلَّ الأمل،

---

(١) قدما: قديماً.

(٢) كلاً: الكلّ: الثقل.

(٣) سال: سأل.

خَلِّ أحاديث الوسواس. يا طويل الرقاد، إلى كم ذا النعاس؟ قد بقي القليل لا ريب، وهذا الشيب يقلع الأغراس. إن في المقابر عبراً. وما أدراك ما الإدراس[١]. تالله لو سكن اليقين القلب؛ لضربت أخماسا في أسداس. هل تجد لماضي العمر لذة؟ والباقي على القياس.

ما ذا التهوك في البوار؟ وجر الأذيال في الخسار؟ كأنك لم تسمع بجنة ولا نار.

لهيب حرصك ما يُطفى[٢]، وشرُّ شرَهِك ما يخفى. أترى هذا على ماذا؟ أليس لما إذا قِيل آذى[٣]؟ أنتَ في طلب الدنيا: أحير من ضب، تبيت في عشقها أسهر من صبّ. أين ما حلا في الفم؟ وحُلّي في العين؟ ذهب الكل، وأنت تدري إلى أين.

ما أصعب السباحة في غدير التمساح. ما أشق السير في الأرض المسبعة. إن المفروح به هو المحزون عليه؛ غير أن عين الهوى عمياء. طائر الطبع يرى الحبة لا الشرَك.

ضيّعتَ سُهادك بـ «سُعادك». رمتك إلى الهند «هند». صيَّرتْ نهارك ليلا «ليلى». ويحك، ربأت الظُّلم «ظُلَم». كم أراق الهوى دماً في دمن.

ويحك، دع «سلمى» وسل ما ينفعك. دعةٌ لمثلك تركُ «دَعْد» للنوى. وسعادة لك هجرة لسعاد[٤]. قطع الطمع من «خَضِر» الدنيا،

---

(١) الإدراس: من الدرْس، وهو المحو. (٢) يُطفى: يطفأ.

(٣) أليس لما إذا قيل آذى: الظاهر أن المعنى: أن الحامل على ما يحدث إذا صُرِّح به كان مما يتؤذى به.

(٤) هند وليلى وظلم وسلمى ودعد وسعاد: أسماء نساء تدور في شعر الغزل.

بموسى الياس[١]؛ تجمع للقلب: عزم الخضر وموسى وإلياس.

يا معشر الفقراء الصادقين، قد لبستم حُلّة الفقر، فتجملوا بحلية الكتمان. اصبروا على عطش الزهد، ولا تشربوا من مشربة منّ؛ فالحرة تجوع ولا تأكل بثديها. لا تسألوا سوى مولاكم، فسؤال العبد غير سيده تشنيعٌ عليه. إنْ الفقيرُ تركَ الدنيا أَنفةً؛ رآها قاطعا؛ فقاطع. جاز على جيفة مستحيلة، فسدّ مِنْخَر الظرف وأسرع. الأنف الأشم لا يشم رذيلة. بينا هو في قطع فيافي القناعة، وقع بكنز ما وجده «الإسكندر». فقلبُه أغنى من «قارون»، وبيته أفرغ من فؤاد «أم موسى».

كان إبراهيم بن أدهم يعطي عطاء الأغنياء، وهو فقير، ويستدين، ثم يؤثر به.

للشريف الرضي:

وهم ينفذون المـال في أول الغنـى
ويستأنفون الصبر فـي آخـر الصبـر

مغاوير في الجُلّى[٢] مغايير في الحمى
مفاريـج للغمـى مداريـك للوتـر

وتأخذهم فـي ساعـة الجـود هِـزّة
كما خايلَ المطراب عن نزوة الخمر

فتحسبهم فيهـا نَشَاوَى مـن الغنـى
وهن في جلابيب الخصاصة والفقر

---

(١) الياس: اليأس.

(٢) الجُلّى: الأمر العظيم. والمغاوير: جمع مغوار: كثير الغارات. والمغايير: جمع مغيار: الذي يغار على عرضه.

عظيم عليهم أن يمنّوا بلا يد

وهين عليهم أن يبيتوا بلا وفر

إذا نزل الحيَّ الغريبُ تقارعوا

عليه فلم يُدرَ المقلُّ من المثري

يميلون في شق الوفاء مع الردى

إذا كان محبوب البقاء مع الغدر

أحكم القوم العلم؛ فحكم عليهم بالعمل، فقاطعوا التسويف الذي يقطع أعمار الأغمار. وانتبهوا؛ فانتهبوا الليل والنهار. أخرجوا قوى العزائم إلى الأفعال. فلما قضوا ديون الجد؛ قضت علومهم، بالحذر من الرد. أقدامهم على أرض التعبد قد أَلِفتْ الصفون[1]. تعتمد على سنابك[2] الحذر. فإذا أثرّ عندها النصب؛ رواحت بين أرجل الرجاء. قلوبهم كالذهب ذهب غِشّه. أنفاسهم لا تخفى. نفوسهم تكاد تطفى. لون المحب غماز. دمع المشوق نمام.

أخفي كمدي ودمع عيني في الخد على هواك شاهد

فالجفن بلوعتي مقرٌّ للعاذل واللسان جاحد

اشتد الخوف يوما بإبراهيم بن أدهم؛ فسأل الراحة، فعوتب.

لو شئتَ داويتَ قلباً أنت مُسقمه

وفي يديك من البلوى سلامته

علامةٌ كُتبت في خدِّ عارفكم:

من كان مثلي فقد قامت قيامته

---

(١) الصفون: صفّ القدمين. (٢) السنابك: جمع سنبك، وهو طرف الحافر.

ضجّت الناقة لثقل الحمل. رأت عظامها قد فرغت[١]، ففغرت[٢] فم الشكوى، فرغت[٣].

يا حادي العيس قد براها[٤] حمل هموم لها عظام
رفقا بها إنها جلود ملصقات على عظام
أشواقها خلفها وشوقي خلاف أشواقها أمامي

تصادم في قلب العارف: جبل الخوف وجبل الحزن. فلما وصل إسكندر[٥] الفكر، عبّى زُبر الهموم، حتى إذا ساوى بين الصدفين، صاح بجنود الفهم: انفخوا. فاستغاث الواجد؛ لتراكم الكرب[٦].

أيا جبليْ نعمان بالله خلّيا نسيم الصَّبا يخلص إلي نسيمها
أجد روحها أو تشف مني حرارة على كبد لم يبق إلا صميمها
لأن الصَّبا ريح إذا ما تنسّمت على نفْسِ مكروبٍ تجلّت همومها

★ ★ ★

(١) فرغت: ضعفت ووهنت.
(٢) فغرت: فتحت.
(٣) فرغت: صوتت. وأحدثت رغاء.
(٤) براها: أضعفها وأنهكها.
(٥) سبق التنبيه إلى أن الرأي القائل بأن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني: فيه نظر.
(٦) الكرب: كذا في المطبوع. وفي المخطوط: «الكدر».

الفصل الرابع والثلاثون

إخواني، رحيلُ من رحل عنّا؛ نذيرٌ لنا عنّا. وما جرى على من تقدمنا؛ وعظ لنا.

للشريف الرضي:

ما أسرع الأيام في طيّنا ... تمضي علينا ثم تمضي بنا

في كل يوم أمل قد نأى ... مرامه عن أجلٍ قد دنا

أنذرنا الدهرُ وما نرعوي ... كأنما الدهر سوانا عنا[1]

تعاشياً[2] والموت في جدّه ... ما أوضح الأمر وما أبينا

والناس كالأجمال قد قرّبت ... تنتظر الحي لأن يظعنا

تدنو إلى العشب ومن خلفها ... مُقَامِرٌ يطردها بالقَنا

أين الألى شادوا مبانيهم ... تهدموا قبل انهدام البنا

لا مُعدم يحميه إعدامه ... ولا يقي نفس الغني الغنى

كيف دفاع المرء أحداثها ... فرداً وأقران الليالي ثنى

حطّ رجال وركبنا الذُرى ... وعقبة السير لمن بعدنا

والحازم الرأي الذي يغتدي ... مستقلعا ينذر مستوطنا

لا يأمن الدهر على غره ... وعز ليث الغاب أن يؤمنا

كم غارسٍ أمّل في غرْسه ... فأعجل المقدارُ أن يُجتنى

ما هذا التقصير في العمر القصير؟ ما هذا الزهو، يا من إلى

---

(١) عنى: قصد. والألف مقصورة؛ ولكن إملاء الشعر تجوز فيه المشاكلة.

(٢) تعاشياً: تعاميا.

البلى يصير؟ كم فرّق الموت ميرة أمير. كم أزار الألحاد من وزير. وسوى في القبور بين من هُجر وزِير[١]. أين الأبطال الذين خاطرهم خطير؟ طال ما اقتتلوا؛ حتى كسروا القنا على القناطير. تالله لقد أمسوا، حين[٢] أصبحت خيل الموت تعثى وتغير. ونزلوا لحداً كبيراً، غير كبير. ورأو كل منكر من منكر، وكل نكير من نكير. فهم مفترقون في القبور. فإذا اجتمعوا بنفخة الصور؛ عاد شراب الفراق قد أدير ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

يا غافلا، والموت يسعى في طلبه. يا مشغولا بلهوه، مفتونا بلعبه. يا مشتريا راحة تفنى، بطول تعبه. أما عللّت مريضاً، ورأيت كرب كربه؟ أما شيعت ملكا فرجعت إلى سلبه؟ أما تخلّى عن ماله، وتخلى بمكتسبه؟ أنفعه غلو عزه أو علوّ نسبه؟ لقد ناجاك قبره، وناداك أمره؛ فانتبه. ولقد ضره هواه؛ فلا تلهج أنت به. لا تغرنك السلامة، فمع الخواطئ سهم سائب.

نظر شاب إلى شيخ ضعيف الحركة: فقال: يا شيخ، من قيّدك؟ فقال: الذي خلفته يفتل قيدك.

من أخطأتـه سهامُ المـوتِ قيّـده
طـوُل السنين فلا لهـوٌ ولا غـزلُ
وضـاق مـن نفسه ما كـان مُتّسعا
حتى الرجاءُ وحتى العزمُ والأمل

---

(١) (وسوى في القبر بين من هجر وزير). هذه الفقرة فيها تكلف، وليست موجودة في المخطوط الذي بين أيدينا.

(٢) حين: في المطبوع: «حتى» والتصحيح من المخطوط.

الشباب باكورة الحياة، والشيب رداء الردى. إذا قرع المرء باب الكهولة؛ فقد استأذن على البلى. يا رهين الإثم على العقوبة، ليس لك من يستفكك، إلا التوبة. المنقطع في قيد، يتلقى الحاجَّ منكّس الرأس. رب خجلة تممت الناقص.

كان بعض الأشياخ، يقول: إلهي؛ من عادة الملوك: أنهم إذا كبر لهم مملوك أعتقوه. وقد كبرت؛ فأعتقني.

وقف أعجمي عند الكعبة، والناس يدعون وهو ساكت، ثم أخذ بلحيته فرفعها. وقال: يا خداه[1]. شيخ كبير.

لما أتونا والشيب شافعهم وقد توالى عليهم الخجل

قلنا لتلك الصحائف: انقلبي بيضاً فإن الشيوخ قد عقلوا

يا معاشر الشباب، انتهبوا القوى في التقوى. فلو قد حل المشيب؛ حل التركيب. إذا هلك أمير الشباب؛ وقع الشتات في العسكر. الشباب رياض، والشيب قاع قفر؛ فاستصحبوا الزاد قبل دخول الفلاة.

يا قومنا، الفوائد فوائِت. كفٌّ من تبذير يؤذي، فكيف ببيدر[2] من رعونة؟ إذا كانت القلوب عقما عن الفكر، واتفقت عِنّة الفهم؛ فلا وجه لنسل الفضائل. الخوف ذَكَر، والرجاء أنثى؛ ومخنث البطالة إلى الإناث أمْيل. من زرع بذر العمل، في أرجاء الرجاء، ولم تقع عليه شمس الحذر؛ جاءت ثماره فجة.

---

(١) يا خداه: يا الله (فارسية).

(١) بيدر: البيدر: الكُدْس، والموضع الذي يداس فيه الطعام.

الجاهل: ينام على فراش الأمن؛ فيثقل نومه، فتكثر أحلام أمانيه. والعالم: يضطجع على مهاد الخوف، وحارس اليقظة يوقظه.

من فهم معنى الوجود؛ علم عزة النجاة.

النفس طائر: قد أرسل من «عبادان» التعبد؛ محملا كتاب الأمانة إلى دار الملك. والعدو قد نصب له صنوف الأشراك[1]، يلوح في ضمنها الحب المحبوب. فإن تم كيده، فهو صيده. وإن خَبَر الخبر؛ عبر.

يا أطيار الفهوم. احذري مراعي الهموم؛ فثم عُقْبان[2] التلف. ومن نجا منها بعد المحاربة؛ أفلت مكسور الجناح.

واعجبا، لبلبل الفطنة، كيف اغترّ بفخِّ الفتنة؟!.

للشريف الرضي:

يا قلبُ كيف علقْتَ في أشراكهم
ولقد عهدتك تفلت الأشراكا
لا تشكون إليّ وجداً بعدها
هذا الذي جرّت عليك يداكا

من حدّق بصره، إلى طُرَفِ الدنيا، طَرَفَتْ عينَه. من أصغى إلى حديث الهوى؛ أورثه الصمم عن النصائح. خَسّت همّةُ فرعون؛ فاستعظم الحقير ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١].

يا دنيَّ النفس: حمارك ينهق من كف شعير يراه. الدنيا كلها

---

(١) الأشراك: جمع شرك.

(٢) عُقْبان: جمع عقاب؛ طائر معروف.

كجناح بعوضة؛ فما نسبة مصر إليها. صبي الفهم يشغله لون الصدفة. والمتيقِّظ يرى الدُرّة.

يا هذا، إذا لاحت لك شهوة؛ فقف متدبراً عواقبها؛ وقد بردت حرارة الهوى. فبين النجاة والهلاك صبر فَوَاق[1]. واعجباً. أنفقت المال المسروق، وبقي القطع.

أبكـي زلـلي وأشتكـي آثامـي

في سفك دمي تقدمت أقدامي

ما أبصرت إلا والبلا قدامي[2]

ما أسرع ما أصاب قلبي الرامي

ضر - والله - التخليطُ «آدم». ونفعت الحمية «يوسف»: ملك هواه؛ فملك «زليخا». أمرضها حبه؛ فأرادت تناول مقصودها في زمان الحمية؛ فصاح لسان طبه: ﴿**مَعَاذَ اللَّه**﴾ [**يوسف**: ٢٣] فخلطت في بُحْران[3] المرض ﴿**مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ**﴾ [**يوسف**: ٢٥]. فلما صح الذهن قالت: ﴿**الآنَ حَصْحَصَ الْحَق**﴾ [**يوسف**: ٥١].

لما نظر يوسف في عواقب الذنب، ونهاية الصبر؛ فكف الكف؛ اطلع بتعليم التأويل على عواقب الرؤيا.

---

(١) فواق: الفواق مقدار ما بين الحلبتيْن.

(٢) في المخطوط: «من يصرف دائي والهوى قدامي».

(٣) بحران: في المزهر (١/٢٤٦): قال المطرزي: قول الأطباء «بحران» مولد. وهو التغير الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادة.

دخل اليوم «موسى» وعظي، إلى مدينة «مدين» قلبك؛ فوجد فيها رجلين يقتتلان؛ القلب والهوى. فاستغاثه الذي من شيعته، وهو القلب، على الذي من عدوه، وهو الهوى، فوكزه موسى، فقضى عليه. فكان قتل الهوى، سببا للخروج من قصر مصر الغفلة، إلى شعب شعيب اليقظة. فالآن، يناديك، لسان المعاملة: هل لك في بلوغ غرضك. على أن تأجرني؟ فإن وفيت، انقلبتَ إلى لذّاتك مسروراً، واستُرجح لك التكليم على طُور الجنة. فإن صحبت فرعون الهوى؛ غرقت بعبورك يوم اليمّ.

★ ★ ★

الفصل الخامس والثلاثون

يا هذا. إنما خلقت الدنيا لتجوزها، لا لتحوزها. ولتعبرها، لا لتعمرها. فاقتل هواك المائِل إليها. واقبل نصحي: لا تعوِّل عليها.

لورقة بن نوفل:

لا شيء فيما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله ويُودى المال والولدُ
لم تُغْن عن هرْمزٍ يوماً خزائنه
والخلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له
والإنس والجن فيما بينها ترد
أين الملوك التي كانت نوافلها
من كل أوب إليها وافد يفد
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كذب
لابد من وِرْده يوماً كما وردوا

الدنيا مزرعة النوائب، ومَشْرعة[1] المصائب، ومفرقة المجامع، ومجرية المدامع. كم سلبت أقواماً، أقوى ما كانوا. وبانت أحلى ما كانت أحلاماً، فبانوا. ففكِّر في أهل القصور والممالك؛ كيف مُزّقوا بكف المهالك؟. ثم عد بالنظر في حالك؛ لعله يتجلى القلب

(١) مشرعة: المشرعة: مورد الشاربة.

الحالك. إن لذاتِ الدنيا لَفَوَارِكُ[١]. وإن موج بلائها لمتدارك. كم حج كعبتها قاصد؟ فقتلته قبل المناسك. كم علا ذروتها مغرور؟ فإذا به تحت السنابك[٢]. كم غرت غراً؛ فما استقر حتى صيد بناسك[٣]. خلِّها، واطلُبْ خلّة ذاتِ سرورٍ وسُرر وأرائك. تالله ما طِيب العيش إلا هنالك.

إخواني: ما قعودنا، وقد سار الركب؟ ما أرى النية، إلا نَيّة[٤]. يا مسافرين: من عَزَم تزوّد. يا راحلين بلا رواحل: وطنوا أنفسكم على الانقطاع. ليت المحترز نجا، فكيف المهمل؟. يا أقدام الصبر تحمّلي؛ فقد بقي القليل. تذكري حلاوة الدعة؛ يهن عليك مر السُّرى. قد علِمتْ أين المنزل؟ فاحْدُ لها تسير.

للمهيار:

تغـنّ بالجـرعـاء ياسائقهـا	فإن وَنَتْ شيئاً فرِدْها الأبرقا[٥]
واغن عن السياط في أرجوزة	بحاجر تـر السهـام المرقـا
واستقبل الريح الصبا بخطْمها	تجد سرى مـا وجـدت منتسقا
إن لهـا عنـد الحمى وأهـله	تعلّقـا مـن حبهـا وعلْقـا
وكـل مـا تزجـره حُداتـها[٦]	رعى الحمى ربُّ الغمام وسقى
حوامـلا منهـا همومـا ثقلت	وأنفسـا لـم تبـق إلا رمقـاً

(١) فوارك: جمع فاركة، أي المبغضة الكارهة.
(٢) السنابك: أطراف الحوافر.
(٣) بناسك: كذا في المخطوط. وفي المطبوع: «باشك».
(٤) نية: لينة ضعيفة.
(٥) الأبرقا: موضع.
(٦) حداتها: جمع حادٍ. وهو الذي يسوق الإبل.

تحملنـــا وإن عريـــن قصبـــا وإن دميـــن أذرعـــا وأسوقـــا
دام عليها الليل حتى أصبحت تحسب فجر ذاتِ عرقٍ شفقا
عرج على الوادي فقل عن كبدي ما شئت للبان الجوى والحرقا

الجنة ترضى منك بالزهد، والنار تندفع عن بترك الذنب، والمحبة لا تقع إلا بالروح.

إن سلطـــان حبـــه قال: لا أقبل الرشا[(١)]

ما سلك «الخليل» طريقا، أطيب من الفلاة التي دخلها، لما خرج من كفة المنجنيق. زيارة تسعى فيها أقدام الرضا، على أرض الشوق. شابهت ليلة: «فزجني في النور، وقال: ها أنت وربك»[(٢)].

زرناك شوقاً ولو أن النوى بسطت
فرش الفلا بيننا جمراً لزرناك

رآه جبريل، وقد ودع بلد العادة؛ فظن ضعف أقدام المتوكل، فعرض عليه زاد: «ألك حاجة؟» فرده بأنفة: «أما إليك فلا» قال: فسل مولاك. قال: علمه بحالي، يغنيني عن سؤالي[(٣)].

تملّكُوا فاحتكموا[(٤)] وصـار قلبـي لهـم
تصرفوا في ملكهم فـلا يُقـال ظلموا
إن وصلوا محبهم أو قطعوا فهـم[(٥)] هم

---

(١) الرشا: الرشوة.

(٢) جزء من حديث الإسراء والمعراج في بعض الروايات. انظر السيرة الحلبية: (٢/ ١٢٨).

(٣) هذه الرواية مشهورة، ولم نقف لها على إسناد.

(٤) فاحتكموا: كذا في المخطوط. وفي المطبوع: «واحتكموا».

(٥) فهم: كذا في المخطوط. وفي المطبوع: «لهم».

يا أرض سلْع أخبري وحدثيني عنهـــم
تبكيهـم أرض مِنــى وتشتكيهـم زمـــزم
يا ليت شعري إذ غدوا أأنجـدوا أم أتهمــوا
ما ضرّهم حين سروْا لـــو وقفـوا فسلّموا

أبدان المحبين عندكم، وقلوبهم عند الحبيب.

طرق طارق باب أبي يزيد[1]. فقال: هاهنا أبو يزيد؟ فصاح من داخل الدار: أبو يزيد يطلب أبا يزيد، فما يجده.

للمهيار:

وبجرْعاء الحمى قلبي فعج[2] بالحمى واقرأ على قلبي السلاما
وترحـل وتحــدث عجبــاً: إن قلبا سار عن جسم أقاما
قـل لجيـران الغضـا: آه على طيب عيش بالغضا لو كان داما
حمّلـوا ريـح الصبـا نَشْركـم قبل أن تحمل شيحاً وثماما
وابعثوا لي بالكـرى طيفكـم[3] إن أذنتـم لعيونـــي أن تنامـــا

بلغت بالقوم المحبة، إلى استحلاء البلاء؛ فوجدوا في التعذيب عذوبة؛ لعلمهم أنه مراد الحبيب.

أرضـاهُ أسخـط أم أرضى تلوّنــه
وكل ما يفعل المحبوب محبوب

ضني[4] «سويد بن شعبة»[5]، على فراشه، فكان يقول: والله

(١) أبو يزيد: هو البسطامي. (٢) عج: مل.
(٣) النشر: الريح الطيب. (٤) ضني: مرض مرضا مُخامرا كلما ظن برؤه انتكس.
(٥) سويد بن شعبة. انظرترجمته في صفة الصفوة: (٣/ ٤٢).

ما أحب أن الله نقصني منه قُلامة ظُفْر.

تعجبوا من تمني القلب مؤلمه　　　وما دروا أنه خِلْوٌ من الألم[١]

أمر الحجاج بصلب ماهان العابد[٢]. فرفع على خشبة، وهو يسبح ويهلل ويعقد بيده، حتى بلغ تسعا وعشرين. فبقي شهراً بعد موته، ويده على ذلك العقد مضمومة

لتحشرن عظامي بعد ما بليت　　　يوم الحساب وفيها حُبّكم عِلقُ

مروا على مجذوم قد مزّقه الجذام، فقالوا له: لو تداويت. فقال: لو قطعني إرْبا إرْبا؛ ما ازددت له إلا حبا.

إن كان جيران الغضى　　　رضوا بقتلي فرضا
والله لا كنت لما　　　يهوى الحبيب مبغضا
صرت لهم عبداً وما　　　للعبد أن يعترضا
هم قلّبوا قلبي من الش　　　وق على جمر الغضا
يا ليت أيام الحمى　　　يعود منها ما مضى
من لمريض لا يرى　　　إلا الطبيب الممرضا

كان الشبلي يقول: أحبّكَ الناسُ لنعمائك، وأنا أحبك لبلائك.

من لقتيل الحب لو　　　رد عليه القاتل
يجرحه النبل ويهوى　　　أن يعود النابل

قلّبهم الزهدُ في قَفْر الفقر، على أكُفّ الصبر؛ فقلع أوداج أغراضهم، بسكين المسكنة. والبلاء ينادي: أتصبرون؟ والعزم يجيب: لا ضير. سقاهم رحيق القرب؛ فأورثهم حريق الحب،

(١) خلو من الألم: في اللطائف (ص ٩١): «أحلى من العسل».
(٢) انظر ترجمته في صفة الصفوة: (٣/ ٧٤).

فغابوا بالسكر عن رؤية النفس؛ فعربدوا على رسْم الجسم، وهاموا في فلوات الوجْد، يستأنسون بالحمام والوحش.

يا مُنْيةَ القلب ما جيـدي بمنعطف

إلـى سواكـم ولا حبلـي بمنقـــاد

لولا المحبة ما استلمعت[1] بارقـة

ولا سألت حمام الدوْح إسعادي

ولا وقفـت علـى الـوادي أسائـله

بالدمع حتى رثى لي ساكن الوادي

★ ★ ★

(١) استلمعت: في المطبوع: «استعملت» والتصحيح من المخطوط.

الفصل السادس والثلاثون

أيها المغتر بالدنيا، كم خَدَعتْ؟ ما واصل وصْلها محبٌ، إلا قطعت. ولاناولت نوالا[١]. إلا ارتجعت. اختبأت مريرها[٢]، فلما اعتقلت أسيرها، جرعت[٣]. متى رأيتها قد توطنت؛ فاعلم أنها قد أزمعت.

يا محبَّ الدنيا الغرور اغترارا	راكباً في طلابها الأخطارا
يبتغي وصلها فتأبى عليه	وترى أنسه فتُبدي نفارا
خاب من يبتغي الوصال لديها	جارة لم تزل تسيء الجوارا
كم محب أرته أُنْساً فلما	حاول الزْور صيرته ازورارا
شِيبَ حلوُ اللذات منها بمرٍّ	إن حلَتْ مرة أمرّت مرارا
في اكتساب الحلال منها حساب	واكتسابُ الحرام يُصلي النارا
ولباغي الأوطار منها عناء	سوف يقضي وما قضى الأوطارا
كل لذاتها منغصة العيش	وأرباحها تعود خسارا
وليالي الهموم فيها طوال	وليالي السرور تمضي قِصارا
وكفى أنها تضن[٤] وإن جادت	بنزْر أفنت به الأعمارا
وإذا ما سقت خمور الأماني	صيَّرتْ بعدها المنايا خمارا

---

(١) النوال: العطاء.

(٢) المرير: الحبل المحكم الفتل.

(٣) جرعت: من جرع الحبل. وهو الجمع، والتواء في قوة من قوى الحبل أو الوتر ظاهرة على سائر القوى.

(٤) تضن: تبخل.

كم مليك مُسلّط ذلته ... بعد عز فما أطاق انتصارا
ونعيمٍ قد أعقبته ببؤسٍ ... ومغانٍ قد غادرتها قِفارا
أيها المستعير منها متاعاً ... عن قليلٍ تسترجع المستعارا
عدّ عن وصلِ من يُعيركَ ما ... يفنى ويبقى إثما ويُكسب عارا
قد أرتك الأمثال في سالف الد ... هر وما قد أرتك فيك اعتبارا
وجدير بالعذر من قدّم الإ ... عذار فيما جناه والإنذارا
فتعوّضْ منها بِخلّة صدق ... والتْمسْ غيرَ هذه الدار دارا
والبدار البدار بالعمل الصا ... لح ما دمت تستطيع البدارا

إلى متى في طلبها؟ إلى كم الاغترار بها؟ تدورُ البلادَ مُنشداً ضالّة المنى، وتلك ضالة لا توجد أبداً. فسيقتلك الحرص غريبا؛ ولكن لا في فيافي: «فيا طوبى للغرباء».

أظن هواها تاركي بمضَلّة ... من الأرض لا مالٌ لديَّ ولا أهلُ
ولا أحد أُفضي إليه وصيّتي ... ولا وارثٌ إلا المطية والرحل

أيها المتعب نفسه في جمع المال؛ عُقابُ[1] الوارثِ على مَرْقب الانتظار. أفهمت أم أشرح لك؟

العقاب: لا تعاني الصيد. وإنما تكون على موضع عال؛ فأي طائر صاد صيداً انقضت عليه؛ فإذا رآها هرب، وترك الصيد.

مالك تجمع مالك؛ وما لك منه ما تُخلّف؟ والزمان يشتتك للذهاب، وأنت للإذهاب تؤلف. المال إذا وصل إلى الكرام: عابر سبيل. وإكرام عابر السبيل تجهيزه للرحيل. جسم البخيل

(١) العُقاب: طائر معروف.

كله يعرق إلا اليد. كفه مكفوفة، ما ينفق منها خرزة.

تحلّى بأسماءِ الشهورِ فكفّهُ   جُمادى وما ضمّت عليه المُحرّم

يا فرعون الكبر، تفرح بمال سيُسلب منك، فتستعير كلمة: ﴿أَلَيْسَ لِي﴾ [الزخرف: ٥١] يا نمروذ الجهل، تشد أطناب[1] الحيل على الدنيا، في أرجل نسور الأمل. ثم ترمي نُشّاب[2] الأغراض[3]، إن وقف لك غرض. فتستغيث الأكوان من يدك: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

من فهم علم التوحيد تجرد للواحد، بقطْع العلائق. أما ترى كلمتي الشهادة مُجرّدة عن نقط؟ إذا أعرضت عن الدنيا، أقبلت إليك الآخرة. من ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

عقر «سليمانُ» الخيل ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ [ص: ٣٦]. لما عَقَدتْ الخنصرُ على التوحيد؛ مُيِّزتْ على باقي الأصابع بالخاتم.

يا أطفال التوبة، ما أنكر حنينكم إلى الرضاع. ولكن ذوقوا مطاعم الرجال؛ وقد نسيتم شرب اللبن. إذا تحصّنَ الهوى بقلعة الطبع؛ فانصبوا مجانيق العزائم؛ وقد انهدم السور.

أنتم تخرجون لقتل سبع ما آذاكم؛ ليقال عن أحدكم: ما أجلده. فكيف تتركون سبع الهوى، وقد أغار على سرح القلوب؟

إنما تتحف الملوك: بالباكورة. فافهموا يا صبيان التوبة. إذا أهديتم؛ فالرطب لا الحشف.

---

(١) أطناب: جمع طنب، وهو حبل طويل يشد به سرادق البيت، أو الوتد.

(٢) النشاب: النبل. المفرد: نُشّابة.

(٣) الأغراض: في المخطوط: «الاعتراض».

يا أطيار الشباب: إما «عبادان» التعبد، وإما استفراخ العلم؛ وإلا فالذبح. تريدون نيل الشهوات، وحصول المراتب؟! والجمع بين الأضداد لا يمكن

هواك نجد وهواي الشام وذا وذا يا «ميٌّ» لا يلتام

ما زلت أعالج مسمار الهوى في قلب العاصي. أميل به تارة إلى جانب التخويف، وتارة إلى ناحية التشويق. فلما ضعف التماسك[1] بإزعاجي له، اتسع عليه المجال، فجذبته. أنفتُ لصبي اللعب: من بيعِ جوهرِ العمرِ النفيس، بصدف الهوى[2]. فشددت عليه في الحَجْر؛ ليعلم بعد البلوغ: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

★ ★ ★

(١) التماسك: في المطبوع: «الماسك» والتصحيح من المخطوط.

(٢) الهوى: في المخطوط: «اللهو».

الفصل السابع والثلاثون

إخواني. جِدّوا فقد سُبقتم، واستعدوا فقد لُحقتم، وانظروا بماذا من الهوى علقتم؟ ولا تغفلوا عما له خلقتم. ذهبت الأيامُ، وما أطعتم. وكُتبت الآثام، وما أصغيتم. وكأنكم بالصادقين قد وصلوا، وانقطعتم. أهذا التوبيخ لغيركم؟ أو ما قد سمعتم؟

لصردر:

ما ضاع من أيامنا هل يُغرمُ ... هيهات والأزمان كيف تُقوّمُ

يومٌ بأرواح يُباع ويُشترى ... وأخوه ليس يسام فيه درهم

لي وقفة في الدار لا رجعت بما ... أهوى ولا يأسي عليها يقدم

وكفاك أني للنوائب عاتبٌ ... ولِصُمِّ أحجار الديار أكلم

ومن البلادة في الصبابة أنني ... مستخبرٌ عنهن من لا يفهم

وإذا البليغ شكا إليها بثّه[1] ... عبثا فما بال المطايا تزرم[2]

كُلٌّ كنى عن شوقه بلغاته ... ولربما أبكى الفصيحَ الأعجم

نرجو سلوكا في رسوم بينها الـ ... أغصان سكرى والحمام متيم

هذي تميل إذا تنسّمت الصَّبا ... والوُرْق تذكر إلفها فترنم

آه على زمان فات، وعلى قلب حي مات. كيف الطمع فيما مضى؟ هيهات.

«رُدّا علي ليالي التي سلف»

أين الزمان الذي بان؟ أتراه بان؟ أين القلب الصافي؟ كان وكان.

---

(١) البث: الحزن والهم.

(٢) ترزم: من الرّزَمة: صوت الصبي والناقة، وذلك إذا رئمت ولدها.

سُقْيا لمنزلة الحمى وكثيبها إذْ لا أرى زمناً كأزماني بها
ما أعرف اللذات إلا ذاكراً هيهات قد خلّفتُ أوقاتي بها

يا من كان له قلب؛ فانقلب. قيام السحر: يستوحش لك. صيام النهار؛ يسأل عنك. ليالي الوصال: تعاتبك

أيـن أيامـك والدهـرُ ربيـع والنـوى معزولـة والقرب وال

يا من كان قريبا فطُرد. يا من كان مشاهداً فحُجب. يا عزيزي، ما ألفت الشقاء، فكيف تصبر؟ أصعب الفقر ما كان بعد الغنى. وأوحش الذل ما كان بعد العز. وأشدهما على الكِبَر.

يا هذا، بِتْ ببيت الأحزان، من قبل البيات[١]. وثِبْ إلى المُثِيبِ[٢] وثبة ثبات. ولا تجاوز[٣] الجناب، ودر حول الدار. واستقبل قبلة التضرع، وقل في الأسحار:

قد قلق الحب وطال الكرى وأظلم الجو وضاق الفضـا
لا يعطش الـزرعُ الـذي نَبْتهُ بِصَوْبِ إنعامـك قـد روّضـا
إن كان لي ذنب تجرّمته فاستأنف العفوَ وهبْ ما مضى
لا تبـر عـوداً أنت ريّشتـهُ حاشى لباني المجد أن ينقضا
فكيف لا أبكي لإعراض من أعرض عني الدهر إذ أعرضا
قد كنت أرجوه لنيل المنى فاليوم لا أطلب إلا الرضا

يا من فقد قلبه، وعدم التحيّلَ في طلبه. تنفس من كرب الوجد. فبريد اللطف يحمل الملطفات: ريح الأسحار. ركابي: الرسائل.

---

(١) البيات: مجيء العذاب ليلا.

(٢) المُثيب: هو الله سبحانه وتعالى. (٣) تجاوز: في المخطوط: «تجانب».

ونسيم الفجر: ترجمان الجواب.

للمهيار:

فيا ريح الصبا اقترحي على الأحشاء واحتكمي
أراك نسمت تختبرين ما عهدي وما ذممي
فهذي في يدي كبدي وذا في وجنتيّ دمي
سلام كلما ذكرت ليالينا بذي سلم

إخواني، صعداء الأنفاس: واصلٌ لا يُمنع. لسان الدمع: أفصح من لسان الشكوى. شجو التائب يُطرب سمع الرضا. حزن النادم يسر قلب التعبد. قلق المسكين محبوب الرحمة. آسى[1] من أساء فرحُ العفو. بكاء المفرِّط يُضحك سنَّ القبول. دمع المحزون مخزون في خزانة الخاص. ريح نفس آسف، أطيب من ندّ ند[2]. قطرة من الدمع على الخد، أنفع من ألف مطرة على الأرض.

ضمّنت حالي قصةً ورفعتها فأتاني التوقيع يشرح حاله
فأتيت ديوان الهوى فلكثرة الـ عشاق لم يتهي[3] لي إيصاله
حتى إذا أوصلتها نظروا إلى شخص تبقى للعيون خياله
قلت: ارحموا هذا الفقير فإنه من حين هجركم تمزق حاله

يا دائرة الشقاء أين أوّلك؟ يا أرض التيه، متى آخرك.

يا «أيوب» البلاء، إلى كم على الكناسة؟ متى ينسخ الزمنُ زَمَنُ: ﴿ارْكُض﴾ [ص: ٤٢][4].

---

(١) آسى: واسى.

(٢) ند: الأولى: ما ندّ من الرائحة، والثانية: طيب معروف.

(٣) يتهي: يتهيأ.

(٤) في المخطوط: «متى يُسمح للزمن بزمن ﴿اركض﴾».

سمعتُ حمامةً هتفت بليل ... وقد حنت إلى إلف بعيد
فأزعجت القلوبَ وأقلقتها ... فما زلنا نقول لها: أعيدي
أرى ماءً وبي عطشٌ شديدٌ ... ولكن لا سبيل إلى الورود

تعلّقْ بالليل؛ فهو شفيع مشفع. تمسك بالبكاء؛ فهو رفيق صالح. ادْخُل في زمرة المتهجدين، على وجه التطفل، قل في فلوات الخلوات، بلسان التذلل:

يا راحم عبرة المسيء المحزون
دمعي مبذول وحزن قلبي مخزون
شوقي بسعى إليك والصبر حرون
من تهجره أنت ترى كيف يكون

أبواب الملوك، لا تطرق بالأيدي ولا بالحجارة. بل بنفس محتاج. للمهيار:

آه والشوق ما تأوهت منه ... لليال بالسفح لو عُدْن أخرى
قلِّبوا ذلك الرماد تصيبوا ... فيه قلبي إن لم تصيبوا الجمرا

يا هذا. إذا رأيت نفسك متخبطة؛ لا مع المحبين، ولا مع التائبين. فابسط رماد الأسف، واجلس مع رفيق اللهف، وابعث رسالة القلق، مع بريد الصعداء؛ لعله يأتي الجواب بكشف الجوى.

ولي زفراتٌ لو ظهرن قتلنني ... لشوق لُيَيْلاتي[1] التي قد ولّت
إذا قلت هذي زفرة اليوم قد مضت ... فمن لي بأخرى مثل تيك أظلت
حلفت لهم بالله ما أمٌّ واحدٍ ... إذا ذكرته آخر الليل أنّت

---

(١) لييلات: تصغير «ليلات»: جمع ليلة.

وما وجد أعرابية قذفت بها صروف النوى من حيث لم تك ظنت
تمنّت أحاليب الرِّعاء وخيمةً بنجد فلمْ يقدر لها ما تمنت
إذا ذكرت ماء العذيب وطيبه وبرد حصاه آخر الليل حنّت
لها أَنّةٌ وقت العشاء وأنة سحيراً فلولا أنّتاها لجُنّت
بأكثر مني لوعة غير أنني أجمجم أحشائي على ما أجنّت

نيران الخوف في قلوب التائبين، ما تخبو. وقلق المذنبين مما جنوا، لا يسكن. وضجيج المحبين في جيوش الشوق، ما يفتر.

واهاً لزماننا الذي كان صفا أبكي مرضي وليس لي منه شِفا
ذابت روحي وما أرى غير جفا هذا رمقي تسلّموه بوفا

★ ★ ★

إلى الفخذ، صار بمقداره. وسابعة تدفع ثفله.

أفيحسُن بعد تفرقة «الجامكية» على العسكر أن يثبوا في المخالفة للمنعم؟!

ثم انظر إلى هذا الهواء الذي قد ملئ به الفضاء؛ كيف تنتصب منه النفس إلى النفس؟ ثم هو للأصوات - من حيث المعنى - كالقرطاس: يُرقم فيه الحوائج، ثم يُمتحى فيعود نقيا. فأقوام يرقمون فيه الذكر والتسبيح، وآخرون يرقمون كل قبيح. وكم بين من يرقم تلاوة القرآن، وبين من يرقم أصوات العيدان؟

ثم تأمل آلات الأصوات. ترى الرئة كالزق، والحنجرة كالأنبوب. فإذا ظهر الصفْر، أخذ اللسان والشفتان في صناعته ألحاناً. فهو كالأصابع المختلفة على فم المزمار.

ثم تأمل الأرض، كيف مدها بساطاً؟ وأمسكها عن الاضطراب؛ لتصحّ السكنى. ثم يزلزلها في وقت؛ ليفطن الساكن بقدرة المزعج. وجعل فيها نوع رخاوة؛ لتقبل الحفر والزرع. ورفع جانب السماء؛ لينحدر الماء. وفرّق المياه بين الجزائر؛ ليرطب الهواء. وأودع المعادن كما تودع الحاجات في الخزائن. ولما بث الطير، صان عنها السنبل - لأنه قُوتك - بقشور صلبة قائمات كالإبر؛ لئلا تستفه فتموت بشْماء[1]؛ فيفوت الحطّان.

ثم تأمل الرمانة، كيف حشيت بالشحم بين الحب؟. ليكون غذاءً لها إلى وقت عوْد المثل. ثم جعل بين كل حشوتين لفافة؛

(١) بشماء: البشم: الامتلاء من الطعام.

لئلا تتصاكّ فيجري الماء. ثم جاء بالشمس، سراجا ومنضجاً للثمر، تجري لتعمر الأماكن، ثم تغيب ليسكن الحيوان.

ولما كانت الحوائجُ قد تعرِضُ بالليل؛ جعل في القمر خلفاً. ولم يجعل طلوعه في الليل دائماً؛ لئلا ينبسط الناس في أعمالهم، كانبساطهم بالنهار؛ فيؤذي الحريصَ كلالُه.

ولما قدّر غيبة القمر في بعض الليل؛ جعل أنوار الكواكب، كشعل النار في أيدي المقتبسين. ولما كانت حاجة الخلق إلى النار ضرورية؛ أنشأها وجعلها كالمخزون، تُستنهض وقت الحاجة، فتمسك بالمادة، قدر مراد الممسك.

ثم انظر إلى الطائر، لما كان يختلس قُوتَه؛ خوف اصطياده؛ صلب منقاره؛ لئلا ينسحج[1] من الالتقاط؛ لأن زمان الانتهاب لا يحتمل المضغ. وجعل له حوصلة، يجمع فيها الحب، ثم ينقله إلى القانصة في زمان الأمن. فإن كانت له أفراخ، أسهمهم من الحاصل في الحوصلة قبل النقل. فإن لم يكن له حنّة على أفراخه؛ أُغنوا عنه باستقلالهم، من حين انشقاق البيضة كالفراريج.

واعجبا كيف يُعصى مَنْ هذه نعمه؟ وكيف لا تموت النفس حباً لمن هذه حكمه؟ إن دنت هِمّتك؛ فخف من عقوبته. وإن علت قليلاً، فارغب في معاملته. وإن تناهت فتعلق بمحبته.

«على قدر أهل العزم تأتي العزائم»

إن قصرت همتك، فآثرت قطع الشوك؛ صحبك حمار. وإن

---

(١) ينسحج: يتقشر.

رضيت سياسة الدواب؛ رافقك بغل. وإن سددت بعض الثغور؛ أُعطيت فرساً. فإن كنت تحسن السباق؛ كان عربياً. فإن عزمت على الحج، ركبت جملاً. وإن شَمَخَت هِمّتك إلى المُلْك؛ فالفيلُ مركب الملوك.

رأيتُ عَلِيّاتِ الأمور منوطةً

بمستودعات في بطون الأساود[١]

ليس كلّ الخيل للسباق. ولا كلّ الطيور تحملُ الكُتب. من الناس من تشغله في الدنيا سوداء، ومنهم من لا يلهيه في الجنة قصر، ولا يسليه عن حبيبه نهر. قُوتُه في الدنيا: الذكر، وفي الآخرة: النظر.

يقول أناسٌ: لو تناسى وِصَالها — وواصل أخرى غيرها لسلاها[٢]

فلا نظرتْ عينٌ تلذّ بغيرها — ولا بقيت نفسٌ تُحبُّ سواها

★ ★ ★

(١) الأساود: جمع أسود، وهو الثعبان.

(٢) سلاها: السلو من العشق نسيانه.

الفصل التاسع والثلاثون

أيها الغافل في إقامته عن نُقْلته. الجاهل، وقد ملأ بما يملي بطن صحيفته. ألك زاد لسفرك على طول مسافته؟

خَفِ اللهَ وانظرْ في صحيفتك التي
حوتْ كلّ ما قدّمتهُ مِنْ فِعالكا
فقد خطّ فيها الكاتبان فأكثروا
ولم يبق إلا أن يقولا: فذالكا
ووالله ما تدري إذا ما لقيتها
أتوضع في يمناك أو في شمالكا
فلا تحسبنَّ المرءَ يبقى مخلّداً
فما الناس إلا هالك فابْكِ هالكا

يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة؛ مزق بيد الجد أثواب الفترة. وتأهب، فما تدري: السير عشاء أو بكرة؟ واعتبر بالقرباء؛ فالعِبْرة تبعث العَبْرة[1]. وتزود لسَفْرة ما مثلها سَفْرة[2]. واقنع باليسير؛ فالحساب عسيرٌ على الذرّة. وإياك والحرام، وانظر من أين الكسرة؟ قبل أن تَلْقى ساعةَ حسْرة، وتُلقى بعدها في ظُلمة حُفْرة.

لايغرنك الزمان بيسر ... وسرور ولا يرُعْكَ بعُسْرَهْ
إنّ مرّ الزمان يمحق عسر المرءِ ... في لحظةٍ ويُذهب يُسْره
وسواء إذا انقضى يوم كسرى ... في نعيم ويوم صاحب كِسْره[3]

---

(١) العبرة: الدمعة.
(٢) سفرة: السفرة المرة من السفر.
(٣) كسرة: الكسرة من الطعام.

أترى في عين العبرة رمد؟ أما تبصر انسلاخ الأمد؟ يا دائم المعاصي، ما غيّره الأبد. تصلي ولولا[١] التعود لم تكد. القلبُ غائبٌ، إنما جاء الجسد. الفكر يجول في طلب الدنيا من بلد إلى بلد. يا معرضاً عن بحر برِّنا. لا تقنع بالثمد[٢]. يا مقتول الهوى ولكن بلا قَوَد[٣]. بين الهوى والمنى ضاع الجلَد. أما يجول ذكر الموت في الخلَد؟ أرأيت أحداً من قبلك خلد؟ رب يوم معدودٍ وليس في العدد. إنما الروح عارية[٤] في هذا الجسد. هذا بحر الغرور يقذف بالزبد. كم ركبه جاهلٌ فغرِقَ قَبْلَ البَلد. هذا سهم المنون يفري حِلَقَ الزرَد[٥].

إخواني. دنا الصَباح. فقولوا لمن رقد: أين الوجُوه الصِّباحُ مرّتْ على جدَدَ[٦]؟ أين الظباء الملاح؛ اغتالها الأسد؟ هذا هو المصير. أما يرعوي أحد؟

قال عمر بن عبدالعزيز لأبي حازم: عظني. فقال: اضطجع. ثم اجعل الموت عند رأسك. ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة؛ فجدّ فيه الآن. وما تكره أن يكون فيك؛ فدعه الآن.

أيها الطالب للدنيا وما يجد. كيف تجد الآخرة؛ وما تطلب؟ ما مضى من الدنيا فحلم، وما بقي فأماني.

---

(١) ولولا: في المطبوع: «ولو» وفي المخطوط: «ولا». ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٢) الثمد: الماء القليل. (٣) القود: أن يقتل القاتل.
(٤) عارية: مستعارة وستستردّ.
(٥) الزرد: الدرع المزرودة.
(٦) جدد: الجدد الأرض الغليظة المستوية، وما استرقّ من الرمل.

سبعة يظلهم الله في ظله؛ منهم: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال. فقال: إني أخشى الله.

اسمع. يا من أجاب عجوزاً على مزبلة. ويحك. إنها سوداء؛ ولكن قد غلبت عليك.

عُرِضت على نبينا ﷺ بطحاء مكة ذهباً. فأبى. يا محمد، مِمن تعلمت هذه القناعة؟ قال لسان حاله: من عجلة أبي[1]. الحريص دائم السُّرى، وما يحمد الصباح[2]. من لا همة له سوى جمع الحطامِ معدودٌ في الحشرات.

يا أطيارَ القلوب، إلى كم في مزبلة الحبس؟ اكْسري بالعزم قفص الحصْر، واخرجي إلى فضاء صحراء القُدس. روحي خماصا من الهوى؛ تعودي بطانا من الهدى. بين أبي الحركة وأم القصد؛ ينتج ولد الظفر. لا يُنال الجسيم بالهوْينا[3]. حملُ النفس على حملِ المشاق مدْرجة إلى الشرف.

واعجباً. مِنَ توّقفِ الكُسالى والدرُّ يُنثر. أشهودٌ كغياب؟ أكانون في آب[4]؟ الحرب خصام قائم، وأنت غلام نائم. ادخل بسلامتك، لابس لأمْتك[5]. ليس في سلاح المحارب أحدّ من نَبْلةِ عزْم. أجرأ الليوث؛ أجرّها للصيود.

---

(١) يعني آدم عليه السلام.

(٢) وما يحمد الصباح: كذا في المطبوع. وفي المخطوط: «وما لا يحمد الصباح»، وكلاهما غير مستقيم.

(٣) الهوينا: اليسير السهل.

(٤) كانون: الموقد، والشهر المعروف، وآب الشهر المعروف، وفيه يشتد الحرّ.

(٥) اللأمة: الدرع.

ليس عزماً ما مرض العزم فيه ليس هما ما عاق عنه الظلام

طِرْ بجناح الجد، من وكر[١] الكسل، تابعا آثار الأحباب؛ تصل.

للشريف الرضي:

تلفّتُ حتى لم يبن من ديارهم

جنابٌ ولا من نارهن وقود

وإن التفات القلب من بعد طرفه

طوال الليالي نحوهم ليزيد

ولو قال لي الغادون: ما أنت مُشْتَه

غداة جَرَعْنَا[٢] الرمل؟ قلت: أعود

أأصبر والوعساء[٣] بيني وبينهم

وأعلامُ خبْت[٤] إنني لجليد

يا مخنث العزم، أين أنت؟ والطريق: سبيلٌ نَصب فيه «آدم»، وناح لأجله «نوح»، ورمي في النار «إبراهيم الخليل»، وأُضجع للذبح «إسماعيل»، وبيع «يوسف» بدراهم، وذهبت من البكاء عين «يعقوب»، ونُشر بالمنشار «زكريا»، وذبح الحصور «يحيى»، وضني[٥] بالبلاء «أيوب»، وزاد على المقدار بكاء «داود»، وتنغص في الملك عيش «سليمان»، وتحيّر بردِّ ﴿لَن﴾ [الأعراف: ١٤٣] «موسى»، وهام مع الوحوش «عيسى»، وعالج الفقر «محمد» ﷺ.

---

(١) الوكر: عش الطائر. (٢) جرعنا: قطعنا.

(٣) الوعساء: موضع.

(٤) خبت: موضع.

(٥) ضني: مرض مرضا مخامرا، كلما ظُن برؤه، نُكس.

فيا دارهم بالحزْن إنّ مَزَارَهـا قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ

أول قدم في الطريق؛ بذل الروح. هذه الجادة، فأين السالك؟ هذا قميص «يوسف»، فأين «يعقوب»؟ هذا «طور سيناء»، فأين «موسى»؟ يا جنيدُ احضرْ. يا «شبلي» اسمعْ:

بِدم المحبِّ يُباع وَصْلُهم فمـن الـذي يبتاعُ بالسعـرِ

* * *

الفصل الأربعون

إخواني، اعتبروا بالذين قطنوا[١] وخزنوا: كيف ظعنوا[٢] وحزنوا؟ وانظروا إلى آثارهم؛ تعلموا أنهم قد غُبِنوا. لاحت لهم لذات الدنيا؛ فاغتروا وفتنوا. فما انقشعتْ سحابُ المنى حتى ماتوا ودفنوا.

جمعوا فما أكلـوا الذي جمعـوا
وبنـوا مساكنهـم فمـا سكنـوا
فكأنهـم كانـوا بهـا ظُعُنـاً
لمّـا استراحـوا ساعـةً ظَعَنـوا

يا من قد امتطى بجهله مطا[٣] المطامع. لقد ملأ الوعظُ في الصباح والمساء المسامع. أين الذين بلغوا آمالهم؛ فما لهم من المنى منازع؟ ما زال الموت يدور، على بدور الدور، حتى طوى الطوالع[٤]. صار الجندلُ فِراشهم؛ بعد أن كان الحرير فيما مضي المضاجع. ولقوا - والله - البلا[٥] في تلك البلاقع.

قال شداد بن أوس: لو أن الميت نُشر، فأخبر أهل الدنيا بألم الموت؛ ما انتفعوا بعيش، ولا التذّوا بنوم.

وقال وهب بن منبه: لو أن ألم عرق من عروق الميت قسم

---

(١) قطنوا: سكنوا وأقاموا.

(٢) ظعنوا: ساروا وانتقلوا وسافروا.

(٣) مطا: ظهر.

(٤) الطوالع: جمع طالع، وهو الهلال.

(٥) البلا: البلاء.

على أهل الأرض؛ لوسعهم ألماً.

وكان عمر بن عبدالعزيز يجمع الفقهاء كل ليلة فيتذاكرون الموت والقيامة، ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال يحيى بن معاذ: لو ضُربت السماء والأرض، بالسياط التي ضرب بها ابن آدم؛ لانقادت خاشعة للموت والحساب والنار.

يا هذا، الشيب «أذان»، والموت «إقامة». ولست على «طهارة». العمر «صلاة»، والشيب «تسليم». يا من قد خيّم حبُّ الهوى في صحراء قلبه، اقلع الأطناب؛ فقد ضرب بوق الرحيل. أما تسمع صوت السوط في ظهور الإبل؟ أما ترى عجلة السلب وقصر العمر؟

شارف الركبُ بلد الإقامة؛ فاستحثَّ المطي. يا مشاهدة[1] ما تمت بُغيتها حتى وقع النهب فيها. استلبْ منك لَك قبلَ أن تُستلب الجملة. الأيام تسرع في تبذير مجموع صورتك، وأنت تسرع في تبذير معانيك[2].

يا شباب الجهل، يا كهول التفريط، يا شيوخ الغفلة، اجلسوا معنا ساعة في مأتم الأسف. يا سحائب الأجفان: أمطري على رباع الذنوب. يا ضيف الندم على الإسراف: اسكن شغف القلوب. يا أيام الشيب، إنما أنت بين داعٍ وَوَداع. فهل لماضٍ من الزمان ارتجاع؟

قفا ودّعا نجداً ومَنْ حلّ بالحمى
وقلّ لنجدٍ عندنا أن تُودعا

---

(١) في المخطوط: «يا ساهرة».

(٢) في المخطوط: «وأنت تشرع تدبر معاشك».

فلسـن عشيـات الحمـى برواجـع
عليك ولكـن خـلِّ عينيك تدمعـا
تلفّتُ نحـو الحـي حتـى وجدتني
وجعت من الإصغاء لِيْتا وأخدعا[١]
وأذكـرُ أيـام الحمـى ثـم أنثني
على كبدي من خشيـة أن تصدّعا

إخواني سكْرانُ الهوى بعيدُ الإفاقة. فلو تذكَّر إقامة الحد؛ طار السكر. من تحسى مرق الهوى احترقت شفتاه. من أكل من الظلم تمرة، أداها قوصرة[٢]. ويحك، اغسل العثْرة بعبْرة، وادفع الحوْبة بتوبة؛ ما دام في الوقت مهلة، وفي زمن السلامة فسحة، قبل أن تموت وتفوت، وتعلو بعد الخيل على تابوت. قيل أن ترى السمع والبصر كلاًّ. وتقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]. فيقال: كلا. قبل أن يصير[٣] دمع الأسى، من جفن من أسي[٤] منهلا[٥]، ويقال: هلا كان هذا قبل هذا؟ هلا؟

أتترك من تحب وأنت جـارُ ... وتطلبـه إذا بعُـدَ المـزارُ
وتبكـي بعـد نأيهـم اشتياقـا ... وتسأل في المنازل: أين ساروا
تركت سؤالهم وهم حضور ... وترجـو أن تخبِّـرك الديـار

(١) الليت: بكسر اللام: صفحة العنق. والأخدع: عرق في المحجمتين، وهو شعبة من الوريد.
(٢) قوصرة: القوصرة: وعاء التمر.
(٣) يصير: في المخطوط: «يعود»
(٤) أسي: حزن. أو لعلها «أسا»: أي: أساء.
(٥) منهلا: ساقطة من المطبوع، واستدركناها من المخطوط.

فنفسك لُـمْ ولا تَلُـم المطايـا ومُتْ كمداً فليس لك اعتـذار

يا من أجله يذوب. ذوبان الثلج في الحرّ، أينقشع غيمْ العمْر؛ لا عن هلال الهدى؟ أتؤثر الفاني المرذول؛ على النفيس الباقي؟

أرضينــــا بثنّيــاتِ اللــوى عن زرود يا لهــا صفقةُ غبْن

ما تخفى علامات الإدبار عليك؛ تُفتّش داّرك، فلا يُرى «سواك» للطهارة، بل؛ «ملاعق الأكل». ليس في البيت «مصحف» بل «تقويم» أينفع وجود التقويم؟! يا مهتما بالنظر في «الطالع»، طالع ما قد خُبّئ لك. كأنك بالموت قد طلع. وما طالعَ فكرُك عاقبة. اسمع حسابي حقاً، وما أرجم. ودع لكلماتي هذي، قول الهاذي «المنجم»:

إن ضُمّ الندمُ على التفريط، إلى العزيمة على الإنابة؛ فساعة سَعْد. وإن اجتمع في القلب حُبّ الدنيا، على إيثار الكسل، فَقَرانُ نحْس.

* * *

الفصل الحادي والأربعون

ما هذا الحب للدنيا والصَّبابة؟ وإنما يكفي منها صُبابة[١]. فقل للنفس الحريصة: لقد بِعتِ الأخرى رخيصة.

يا نفسُ ما الدهرُ إلا ما علمتِ فكم

ألستِ حدثتني أني أتوبُ فلمْ

إياكِ إياكِ من «سوف» فكم خدعت

وأهلكت أمما من قبلها وأمم

توبي يكن لك عند الله جاهُ تُقى

وقدّمي من فعال الصالحين قدم

يا راقداً والبلى حثّ المسير به

ألا فكنْ خائفاً لا تقعدن وقم

يا من أخذ الهوى بأزِمّته[٢]، وأمسك الردى بلُمّته[٣]. يا رهينَ ديونٍ تعلّقت في ذمته. هذا أوانُ جدّك إن كنت مجداً. هذا زمان استعدادك إن كنت مستعداً.

للشريف الرضي:

يا نفسُ قد عزّ المرادُ فخذي	إن كنت يوماً تأخذين أو ذري
نُهزةً[٤] مجدٍ كنت في طِلابها	لمثلها ينصف ساقي مئزري
عمر الفتى شبابه وإنما	آونة الشيب انقضاء العمر

---

(١) الصُبابة: القليل من الماء واللبن.

(٢) الأزمة: جمع زمام.

(٣) اللُّمة: الشعر المجاوز شحمة الأذن.

(٤) النهزة: الفرصة.

رُضْ مُهْرَ النفس، يتأتّ ركوبه. أمت زئبق الطبع، يمكن استعماله. تلمّح فجر الأجر؛ يَهُنْ ظلامُ التكليف. احذر حية الفم، فإنها بَتْراء. إذا خرجت من شفة غدرك لفظةُ سفه، فلا تلحقها بمثلها تلقحها؛ ونسل الخصام مذموم. أوثقْ سبْعَ غضبِك بسلسلة حلمك؛ فإنه إن أفلت أتلف. متى قمت بحدّة الغضب؛ انطفى مصباح الحلم. بحر الهوى إذا مدّ أغرق. وأخوف المنافذ من الغرق، فتحة البصر؛ فلا يشتغل زمان الزيادة، إلا بإحكام القورح[1].

والمرء ما دام ذا عين يقلبها

في أعين العين[2] موقوف على الخطر

يسرّ مُقْلَته ما ضرّ مهجتَه

لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضررِ

لو حضرت مع الأحباب، الباب؛ لسامح الناقدُ ببهرجك. رحلتْ رُفْقةُ: ﴿ **تَتَجَافَى** ﴾ [السجدة: ١٦] ومطرودُ النوم، في حبْس الرقاد؛ فما فكّ عنه السجّانُ قَيْدَ الكرى حتى استقرّ بالقومِ المنزل. فقام يتلمّح الآثار بباب الكوفة، والأحباب قد وصلوا إلى الكعبة.

لصردر:

من يطلع شرفاً[3] فيعلم لي   هل روّح الرعيان بالإبل

---

(١) القورح: كذا بالمطبوع والمخطوط؟!

(٢) العين: بقر الوحش. ويضرب به المثل في جمال العيون؛ لعظم سواد العين في سعة.

(٣) الشرف: المكان العالي.

أم قعقعت عُمُدُ الخيام أم ... ارتفعت قبابهم على البُزْل[1]
أم غرّدَ الحادي بقافيةٍ ... منها غُراب البيْنِ يستملي
فضلت دموعي من مدى حزني ... فبكيت من قتل الهوى قبلي
ما مرّ ذو شَجَنٍ يكتّمه ... إلا أقول: متيّمٌ مثلي

من أراد من العمال، أن يعرف قَدْرَه عند السلطان؛ فلينظر ماذا يُوليّه؟ الزهاد عين العارفين. الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج. وليس ما أعد للاستفراخ، كما هي للسباق. مر حدق بعين الفكر إلى مطلع الهدى؛ لاح له الهلال.

كم أداوي بصر بصيرتك؟ وما يتجلى[2]. ما أظن الضعف إلا في الوضع. ضعف عين الخفاش ليس برمد. وحِدّة ناظر الهدهد: خلْقة مصابيح القلوب الطاهرة، في أصل الفطرة «منيرة»، قبل الشرائِع ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ**﴾ [النور: ٣٥].

وحّدَ «قيس»[3]، وما رأى الرسول. وكفر ابن أُبيّ، وقد صلى معه. مع الضب ري يكفيه، ولا ماء. وكم عطشانٍ في الموجة! إذا سبق الإنعام في القِدَم، فذلك غنى الأبد. لما تقدم اختيار الطين المنهبط؛ صعد على النار المرتفعة؛ وكانت الغلبة لآدم في حرب إبليس. فاكتفت جهنم بما جرى؛ فسلمت يوم: «جز يا مؤمن».

سبق العلم بنبوة «موسى» وإيمان «آسية»؛ فسيق تابوبته إلى بيتها. فجاء طفل منفرد عن أم، إلى امرأة خالية عن ولد.

---

(١) البزل: جمع بازل وبزول: وهما الجمل والناقة؛ كلٌ في تاسع سنيه.

(٢) يتجلى: كذا في المطبوع، وفي المخطوط: «ينجلي».

(٣) قس: هو ابن ساعدة.

قرينــــان مرْتعُنـــا واحـــد

دخل الرسول ﷺ إلى بيت يهودي يعوده، فقال له: أسلم. فنظر المريض إلى أبيه. فقال له: أجب أبا القاسم. فأسلم. فكان ذلك قريباً من نسب: «سلمان منا»[1] فصاحت ألسنة المخالفين؛ ما لمحمد ولنا؟. والقدر يقول: مريضنا عندكم.

كيف انصرافي ولي في داركم شغل

لما عمّ نور النبوة، آفاق الدنيا[2]؛ رآه سلمان دون العم[3]. قويت ظلمات الشرك بمكة، فتخبطت قريش في الضلال، فلاح مصباح الفلاح، من سجف دار «الخيزران»[4] فإذا عمر على الباب. ولقد أنارت لإبليس شمس البيان. يوم: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]. غير أن النهار ليلٌ عند الأعشى. رجع الخفاش إلى عشه، فقال: أوقدوا المصباح؛ فقد جن الليل. فقالوا: الآن طلعت الشمس. فقال: ارحموا مَنْ طلوعُ الشمسِ عنده ليل.

فسبحان من أعطى ومنع، ولا يقال: لم صنع؟ سُلّم التوفيق قريب المراقي، وبئر الخذلان بلا قعر. ربما أدرك الوقفة[5] أهل مِصْر، وفاتت أهلَ نخْلة[6]. لابد من نفوذ القضاء؛ فاجنح للسلم.

---

(١) حديث «سلمان منا» مضى تخريجه: (ص ٢٩٦).

(٢) في المطبوع «الهدى» والتصحيح من المخطوط.

(٣) العم: هو أبو طالب.

(٤) دار الخيزران: هي دار الأرقم بن أبي الأرقم، وبها أسلم عمر ﷺ. انظر: «أخبار مكة للفاكهي»: (٣/ ٣٣٠).

(٥) الوقفة: وقفة يوم عرفة بعرفة.

(٦) نخلة: موضع على بُعد ليلةٍ من مكة.

[بيـن الحطيـم وزمـزم والحِجْر والحَجـر المقبـل
للعاشقيـن مـن الهـوى أبـدا مصارع ليس تجهـل][1]
كم بالمحصّب من عليلٍ هـوىً طريحٍ لا يُعـلل
وقتيـل بَيْـنٍ بيـنَ خيـفِ منـى وجمْـعٍ لـيس يعقـل
كيف تتقي نِبال القدر؛ والقلبُ بين أصبعين.

لا تغضبـن علـى قـوم تحبهـم
فليس ينجيك من أحبابك الغضب
ولا تخاصمهم يوماً إذا حكموا
إن القضاة إذا ما خوصموا غلبوا

كان إبليس كالبلدة العامرة، فوقعت فيها صاعقة الطرد، فهلك أهلها ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢].

من لـم يكـن للوصـال أهـلا فكـل إحسانـه ذنـوبُ

أُخذ كساءُ ترهّبه، فجعل جُلاً[2]، لكلب أصحاب الكهف، فأخذ المسكين في عداوة آدم. فكم بالغ واجتهد؟ وأبى الله أن يقع في البئر إلا من حفر. ويحك ما ذنب آدم؟ أنت الجاني على نفسك. ولكنه غيظُ الأسير على القِدّ[3].

لقي إبليس عمر بن الخطاب فصارعه، فصرعه عمر. فقال بلسان الحال: أنا مقتول بلسان الخذلان، قبل لقائك.

فإياك عني لا يكن بك ما بيا

---

(١) هذا البيتان ليسا في المطبوع.
(٢) الجُلّ: ما تلبسه الدابة لتصان به.
(٣) القد: السير يُقدّ من جلد غير مدبوغ.

يا عمر، أنت الذي كنت في زمان الخطاب، لا تعرف الباب.
وأنا الذي كنت في سدة السيادة، وأتباعي الملائكة. فوصل منشور:
﴿لا يُسْأَل﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فعزلني وولاّك. فكن على حذر من تحوّل الحال.

فإن الحسام الصقيل الذي قُتلتُ به في يد القاتل

لما تمكنّت معرفةُ عمر بتقليب القلوب؛ لعب القلق بقلبه، خوفاً من قلبه. فبادر بطرق[1] باب البريد؛ بالعزل والولاية. يا حذيفة، يا حذيفة، المحنة[2] العظمى: ارتباط أمرك، بمن لا يبالي بهلاكك. فكم قد أهلك قبلك مثلك. كم مشارف بسفينة عمله على شاطئ النجاة، ضربها خرق[3] الخذلان فغرقت. وما بقي للسلامة إلا باع أو ذراع. أي تصرف بقي لك في قلبك وهو بين إصبعين.

يا قلب إلام تُطالبني بلقا الأحباب وقد رحلوا
أرسلتُكَ في طلبي لهم لتعودَ فضعتَ وما حصلوا
سلّمْ واصبرْ واخضعْ لهمُ كم مثلك قبلك قد قُتلوا
ما أحسن ما علّقت به أماً لك منهم لو فعلوا

* * *

(١) بطرق: في المطبوع: «بطريق» والتصحيح من المخطوط.
(٢) المحنة: في المطبوع: «المحبة» والتصحيح من المخطوط.
(٣) ضربها خرق: كذا في المطبوع، وفي المخطوط: «خربها جرف».

الفصل الثاني والأربعون

يا من قد أسره الهوى، فما يستطيع فكاكا. أفق قبل الوهى. وها هو قد أدركك إدراكا. قبل أن لا ينفع البكاء الباكي، ولا التباكي من تباكى.

لأبي العتاهية:

بُليت وما تبلى ثياب صباكا
كفاك نذير الشيب فيك كفاكا
ألم تر أن الشيب قد قام ناعياً
مقام الشباب الغض ثم نعاكا
ولم تر يوماً مرّ إلا كأنه
بإهلاكه للهالكين عناكا
ألا أيها الفاني وقد حان حيْنه[1]
أتطمع أن تبقى فلست هناكا
تسمّع ودع من أفسد الغيُّ سمعَه
كأني بداع قد أتى فدعاكا
ورُبَّ أمانٍ للفتى نَصبتْ له
المنيةُ فيما بينهن شراكا
أراك وما تنفك تهدي جنازة
ويوشك أن تهدى هُديت كذاكا

(١) حينه: الحين: الهلاك.

ستمضي ويبقى ما تـراه كما ترى
وينساك مـن خلّفتـه هـو ذاكا
ألا ليت شعري كيف أنت إذا القوى
وَهَت وإذا الكربُ الشديد علاكا
تموت كما مات الذين نسيتهم
وتُنسى ويهوى الحي بعد هواكا
كأن خطوب الدهر لم تجر ساعة
عليك إذا الخطب الجليل أتاكا
ترى الأرض كم فيها رهون دفينة
غلقن فلـم يقبـل لهـن فكاكا

كم سكن قبلك في هذه الدار؟ فحام الموت حول حماهم ودار. ثم ناهضهم سريعاً وثار. كأنه وليٌ يطلب الثار. وقد خوفك بأخذ الصديق، وسلب الجار. ومن أنذر قبل هجومه؛ فما جار.

يا هذا العمر عمر قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل. وقد آن الآن أن يرحل النزيل. ما أرخص ما يباع عمرك، وما أغفلك عن الشرا. والله ما بيْعُ أخوة يوسف «يوسف» بثمن بخس؛ بأعجب من بيْعك نفسك، بمعصية ساعة.

متى ينتهي الفساد؟ متى يرعوي الفؤاد؟ يا مسافراً بلا زاد؛ لا راحلة ولا جواد. يا زارعاً قد آن الحصاد، يا طائراً بالموت يُصاد. يا بهرج البضاعة، أين الجياد؟ يا مصاب الذنوب، أين الحداد؟ لو عرفت المصاب؛ فَرَشْتَ الرماد. لو رأيتَ سواد السر؛ لبستَ

السواد. جسمك في واد، وأنت في واد. نُثِرَ الدُّر لديك؛ وما تنتقي. وقرّبت المراقي إليك؛ وما ترتقي. لقد ضيعت ما مضى، وشرعت في ما بقي. يا واقفاً في الماء الغمر، وما يُنْقي.

إن قلت: قُم قال: رجْلي ما تطاوعني

أو قلت: خذ قال: كفي ما تواتيني

واعجباً لنفاسة نفس، رفعت بسجود الملك لها، كيف نزلت بالخساسة؛ حتى زاحمت كلاب الشره، على مزابل الذل؟ هيهات، لن تفلح الأُسْد، إذا أنفقت[1] عليها الميتات الفسد. يا هذا جسدك كالناقة يحمل راكب القلب؛ فلا تجعل القلب مستخدماً في علف الراحلة.

تالله إن جوهر معناك، يتظلم من سوء فعلك؛ لأنك قد ألقيته في مزابل الذل. ماء حياتك في ساقية عمرك، قد اغدودق، فهو يسيل ضائعاً إلى مهاوي الهوى. وينسرب في أسراب البطالة. فقد امتلأت به خربات الجهل، ومزابل التفريط، وشربته أدغال الغفلات. ويحك، اردده إلى مزارع التقوى؛ لعله يحدق نور حديقة. إلى متى يمتد ليل الغفلة؟ متى تأتي تباشير الصباح؟!

هل الدهرُ يوماً بِوصلٍ يجودْ وأيامنا باللوى هل تعود

زمان تقضّى وعيشٌ مضى بنفسي والله تلك العهود

ألا قل لسكان وادي الحبيب: هنيئاً لكم في الجنان الخلود

أفيضوا علينا من الماء فيضاً فنحن عطاشى وأنت ورود

لما سبق الاختيار لأقوام في القِدَم؛ جذبوا، بعد الزلَق في

(١) أنفقت: في المخطوط: «اتفقت».

هِوَّة الهوى، إلى نجْوة النجاة.

يا عمر، كيف كانت حالك؟ قال: كنت مشغولا بهبل. فسمعت هتاف[1]: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]. فعرجت على المنادي، فإذا أنا في دار الخيزران.

يا فضيل، من أنت؟ قال: أُخذتُ مِنْ قطْعِ الطريق، فأخذتُ في قطع الطريق.

يا عتبة الغلام، من أنت؟ قال: كنت عبد الهوى، فحضرت مجلس عبدالواحد[2]، فصرتُ عبداً للواحد.

يا سبتي[3]، من أنت؟ قال: كنت ابن «الرشيد»، فعرض لي رأي رشيد، فإذا عزمي قد أخذ المر، ومر.

يا ابن أدهم، من أنت؟ قال: أخذني حُبه من منظرتي[3]. فصيرني ناظور البساتين.

يا رابعة، من أنت؟ قالت: كنت أضرب بالعود، فما سمع غيري.

بالله يا ريح الصبا مري على تلك الربا
وبلغي رسالة يفضها أهلُ قبا
«وَاحَرَبَا» وهل يردُّ فايتا «واحربا»

يا طفلا في حجر العادة، محصورا بقماط الهوى، مالك ومزاحمة

---

(١) هتاف: في المخطوط: «هاتف». (٢) عبدالواحد بن زياد.

(٢) السبتي: من ولد «هارون الرشيد». وقد مرّ التعريف به (ص ٢٥١).

(٣) المنظرة: ما نظرت إليه فأعجبك أو ساءك.

الرجال؟ تمسكت بالدنيا، تمسك المرضع بالظئر. والقوم ما أعاروها الطرف. ما لك والمحبة؟ وأنت أسير حبة. كم بينك وبينهم؟ وهل تدري أين هم؟

سلام على تلك المعاهد إنها
شريعة وردي أو مهبّ شمالي
ليالي لم نحذر حرُونَ قطيعة
ولم نمش إلا في سهول وصال
فقدْ صرت أرضى من سواكن أرضها
بِخُلّبِ برقٍ أو بطيف خيال

سار القوم ورجعت، ووصلوا وانقطعتَ، وذهبوا وبقيت، فإن لم تلحقهم شَقِيت.

لبس البياض بذات عرق معشرٌ ... ولبستُ من حزن ثياب حداد
وصلوا إلى عرفات يبغون الرضا ... وبقيتُ منكسراً ببطن الوادي
رفعوا أكفهم وضجوا بالدعا ... وضممت من كمدٍ يدي بفؤادي

يا من كلما استقام، عثر، يا من كلما قرب، أبعد. استسلم مُنكسراً من الجريمة، واستروح إلى دوام البكاء. وصح بصوت القلق، على باب دار الأسف. وقل:

ليس لي فيك حيلة ... غير صبري على القضا
وبكائي على الوصا ... ل الذي كان وانقضى
ليتني تبت توبة ... وقضي اللهُ ما قضى

★ ★ ★

الفصل الثالث والأربعون

يـا هـذا، من اجتهد وجدّ وجد. وليس من سهر كمن رقـد. والفضائل تحتاج إلى وثبة أسد:

للمهيار:

خاطـــرْ فإمـــا عيـــشة حـــرة
يرغدها العزُّ وإما الحِمـــام

زاحم على باب العلى واجتهد
لابـد أن تدخل بيـن الزحـــام

وارم بهـا الليـــل فمـا يسفـر
الصباح إلا عن نقاب الظلام

مَوارِقـــاً عـــن عقـــل أشطانها
مروق فُوق السهم عن قوس رام

ميـــز مـــن النـــاس ظهرهـــا
نفسك لا ميزة تحت الرخام[1]

من طلب الغايـة خطْـواً علـى
ظهر الهوْينا رام صعب المـرام

لقد رضيت الغُبْن والغَبَن[2]، وبعت عمرك بأقل ثمن، وأنفقت فيما يرديك الزمن، وفترت في الصحة، ولا فتور الزمِن[3]، يا مغروراً

(١) البيت في المخطوط: ومن مرّ في الناس على ظهرها اغتيل لا من مرّ تحت الرجام
(٢) الغبن والغبن: بالتسكين الخداع في البيع، وبالتحريك في الرأي.
(٢) الزمن: المصاب بعاهة.

بخضراء الدمن[1]. يا جامعاً مانعا، قل لي لمن؟. كيف ينالُ الفضائلَ مُستريحُ البدن؟ سِلَع المعالي غاليات الثمن. وإن ساومتها، فبزهد أويس، وفقه الحسن.

يا هذا، أوقد مصباح الفكر في بيت العلم؛ تلُح لك الأعلام. من سدّ ثغور الهوى بجند الجد، ملأ عين راحته من نوم الطمأنينة. من دقّ صراط ورعه عن الشبهات؛ عَرُضَ الصراطُ له يوم الجواز. لله در أقوام، تأملوا الوجود؛ ففهموا المقصود. فالناس في رقادهم، وهم في جمع زادهم. والخلائق في غرورهم، وعيونهم إلى قبورهم.

قال الإمام أحمد: لقد رأيت أقواماً صالحين؛ رأيت عبدالله ابن إدريس، وعليه جبة من لبود، قد أتت عليها سنون. رأيت أبا داود الحفري، وعليه جبة مخرقة، قد خرج منها القطن، وهو يصلي فيترجح من الجوع. ورأيت أيوب النجار، وقد خرج من كل ما يملكه. وكان في المسجد شاب مصفرّ، يقال له العوفي، يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي.

إذا ما الخيام لاحت لدى منى
فعــرِّج فإنــا بعدهـا بقليــلِ

ترانا لدى الأطناب صرعى من الهوى
نكفكف دمعــا لافْتقـاد خليل

وكــم أنّــةٍ أردفتُهــا بتنفّس
وكـم عبــرةٍ أتبعتها بعويــل

(١) خضراء الدمن: الدنيا.

قفوا وانظروا ذُلّي وعزّ معذّبي
تروا عجباً من قاتل وقتيل

عملت في قلوبهم معاول الحزن نبْعاً[١]، فانبطت[٢] من كل رَكِيةٍ[٣]، ركية ماء أسى. فجرى من طَرَفِ طَرْفَيْن[٤] ماء، فجرى وسَخاً[٥]، فغسل وسخا.

قد كنت أطوي على الوجد الضلوع ولا
أُبدي الهوى وأسوم القلب كتمانا
فخانني الصبر إذ ناديتُهُ وَوَفَتْ
لي الشئونُ[٦] فعاد السرُّ إعلانا
أُكتّم الوجدَ والعينان تُظهره
للحبُّ أعظم مما رُمْته شانا

قال أبو عمران الجوني: أرتنى أمي موضعا من الدار قد انحفر. فقالت: هذا موضع دموع أبيك. وكان حسان بن أبي سنان، يحضر مجلس مالك بن دينار، فيبكي حتى يبلّ ما بين يديه، ولا يُسمع له صوت. للمتنبي:

أجاد دمعي وما الداعي سوى طللٍ
دعا فلبّاهُ قبل الركبِ والإبلِ

---

(١) في المطبوع: «معا» والتصحيح من المخطوط.
(٢) انبطت: انشقت. ولعل الصواب: «فأنبطت» يعني خرج ماؤها.
(٣) الرَّكِيَّة: البئر.
(٤) الطرّف: العين. وفي القاموس: لا يثنى ولا يجمع. وقيل: أطراف.
(٥) سخا: جاد. والثانية مع الواو: الدَرَن. أي الوسخ.
(٦) الشئون: مجاري الدمع من العين.

ظللتُ بين أُصيحابي أكفكفه

فظلّ يسفح بين العُذْر والعَذْل

وما صبابةُ مشتاقٍ لـه أمـلٌ

من اللقـاء كمشتاق بـلا أمل

دموع المحبين غدران[1] في صحاري الشوق. من عادة القوم إلْفُ البراري، والجلوس إلى الشجر. فإن سمعوا هتاف الحمام؛ استغنوا عن نائِح.

شوقي إليك مجاوز وصْفي وظهور وجْدي دون ما أُخفي

ما دار ذكرٌ منك في خَلَدي إلا طرفـتُ بمدمعـي طَرْفـي

إذا تمكنت المحبة استحال السلو. تعلقت يد المحبة بتلابيب القلب، فلا يمكنه التخلّص؛ فيدور معها في دار المداراة.

ليكفكم ما فيكم من جوى نلقى

فمهْلاً بِنا مهْلاً وَرِفْقاً بنا رِفْقا

وحرمة وجدي[2] لا سلوْتُ هواكم

ولا رمت منه لا فِكاكا ولا عتقا

وهل للمحب قلب؟ هيهات، مزقته المحبة. براثن أُسود، في شَلْوٍ ضعيف، على شدة جذب، مع دوام التقليب.

إنَّ ترحّلت أو أقمت فعندي فيضُ دمعٍ يجري ووجدٌ مقيمُ

وفؤادي ذاك الفؤادُ المعنَّى وغرامي ذاك الغـرامُ القديـم

---

(١) غدران: جمع غدير.

(٢) سبق التنبيه إلى أنه لا يجوز الحلف بغير الله.

انكشف اليوم الستر؛ فافتضح العاصي والعارف.

لتوبة:

خليليَّ قـد عـمّ الأسى وتقاسمت

فُنون البلى عُشّاقَ ليلى[١] ودورها

وكنت إذا ما جئتُ ليلى تبرقعت

فقـد رابني منهـا الغـداة سفورها

وقع الحريقُ في زوايا المجلس؛ رشّوا عليه من مزاد الدمع. يا كثيفَ الطبع: بيضُ الحمامِ يَفْرَقُ من صوتِ الرعْد، ولا حسَّ له. أفميت أنت؛ وهذه الصواعق حولك؟

لو ترى العاشقين في مأتم الذلّ وقـد شُقّقت جيـوبُ الوصالِ

لعذرتَ الـذي بُلـي بفـراقٍ ورحمتَ المحبَّ في كل حالَ

هبّت اليوم نسمةٌ من أرضِ كنعان إلى مصر. غنّت حمامات اللوى في أرض نجد. تنفّس المشتاق فانقشع غيْمُ الهجر. سعى سمسار المواعظ في الصلح.

للغزي:

هبت لنا وبرود[٢] الليل أسمال[٣]

ريحٌ لها من جيوب الوصل أذيال

مرّت بسفح اللوى والشيحُ مُتّشح

بلؤلؤ الطلِّ والجرباء معطال[٤]

---

(١) ليلى: هي الأخيلية صاحبة توبة. (٢) برود: جمع بُرْد.

(٣) الأسمال: الثوب الخلق.

(٤) الجرباء: الجارية المليحة. معطال: ليس عليها حليّ.

مريضة في حواشي مِرْطها بلل
يُهدى لكلِّ مريضٍ منه إبلال
دع جمرةً لسويدا القلب محرقةً
يا لائمي ثم قل لي: كيف أحتال
حدّثتَ عن مُنحنى الوادي وساكنه
كرِّر حديثك لا حالت بك الحال[1]
وامزج بماء المنى ما قلت من خبرٍ
فإن أخبار ذاك الحي جِرْيال[2]

★ ★ ★

(١) حالت بك الحال: تغيرت وتحولت.

(٢) جريال: الجريال: الخمر، أو لونها.

الفصل الرابع والأربعون

إخواني. شحْمُ المنى هزال. وشراب الآمال سرابٌ وآل[١]. ولذات الدنيا منام وخيال. وحربها قتل بلا قتال.

والمرءُ يبليه في الدنيا ويُخلقه
حرصٌ طويلٌ وعمرٌ فيه تقصيرُ
يُطوّق النحر بالآمال كاذبة
ولهذم[٢] الموت دون الطوق مطرور[٣]
جذلان يبسم في أشراك ميتته
إن أفلت النابُ أردته الأظافير[٤]

تيقظ لنفسك، واذكر زوالك. ودع الأمل، ولو طوى الدنيا، وزوى[٥] لك. فكأنك بالموت قد حيرك وأبدى كلالك. ونسيك الحبيب؛ لأنه أرادك له لا لك. وخلوت تبكي خُلالك[٦] في زمان خلا لك. وشاهدت أمراً أفظعك وهالك. تود أن تفتديه بالدنيا لو أنها لك. فتنبه من رقاد الهوى؛ لما هو أولى لك. واحذر أن تكون أعمالُك، أعمى لك. وأفعالك كالأفعى لك.

لو كان لك باعث من نفسك؛ ما احتجت إلى مُحرّك من خارج.

---

(١) الآل: السراب، أو خاص بما في أول النهار.
(٢) اللهذم: القاطع من الأسنة.
(٣) مطرور: محدد السن.
(٤) الأظافير: جمع ظُفْر.
(٥) زوى: جمع.
(٦) خُلالك: الخليلة، والصداقة المختصة لا خلل فيها.

هذا الديك، يصيح في أوقات ملعومة من الليل لا تختلف، يؤدي وظائفها بباعث الطبع؛ وإن لم يكن في القرية ديك غيره. وأنت تؤخر وظائف صلواتك، وتنقص من واجبات عباداتك. فإن بكيت في المجلس؛ فلبكاء الجماعة. فإن خلوت، خلوت من مُحرّك. هيهات من لم يكن له من نفسه واعظ؛ لم تنفعه المواعظ. إذا لم يكن للدجاجة همة الحضن؛ لم تنفع تغطيتها بمنخل الحاضن. تصابر الشقاء لما تأمل من العواقب. والرعناء تكسر البيض قصداً.

الخصائص أوضاع. والسوابق خواص «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي».

المغناطيس يجذب الحديد بخاصية فيه. الظليم[1] يبتلع الحصا والحجارة؛ فيذيبها حرُّ قانصته حتى يجعلها كالماء الجاري. ولو طُبخ ذلك بالنار لم ينحلّ. ذَنَبُ الجرادة يشق الصخرة وليس بالقوي. إبرة العقرب تنفذ في الطشت. خرطوم البعوضة يغوص في جلد الجاموس. من تُعلّق عليه برادة الحديد لم يغطّ في نومه. إذا ترك الرصاص أو الزئبق في تنور سقط الخبز كله. فإن ترك الرصاص في قدر لم ينضج اللحم. إذا كان الزعفران في دار لم يدخلها وزغة. إذا دفن الحديد في الدقيق زال عنه الصدأ. إذا ترك سراج على شيء في نهر سكنت ضفادعه. إذا دفنت ذئبة في قرية لم تدخلها الذئاب. إذا نظر صاحب الثآليل إلى كوكب ينقضّ فمسح بيده حينئذ على ثآليله، ذهبت. إذا عسرت الولادة فصاحت

---

(١) الظليم: ذكر النعام.

بالمرأة بكرٌ: يا فلانة، أنا جارية عذراء وقد ولدت، وأنت لم تلدي؟ ولدت في الحال.

للنملة فضلٌ حسنٌ[١] في الشم؛ تدرك الأراييح البعيدة. لما شُق ختام نافجة[٢] النبوة، ملأت ريحها الأرض. فاستنشقها أهل العافية؛ فوصلت إلى خياشيم «سلمان» في فارس. و «صهيب» في الروم، و«بلال» في الحبشة. وكان «ابن أُبي» مزكوما؛ فما نفعه قرب الدار.

كم من نفسٍ دخلت مجلسي وهي حامل جنين الإصرار، فلما استنشقت ريح المواعظ، أسقطت. أيها التائب من حرّكك؛ وقد كان تحريك الجبل دون إزعاجك؟ ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [**النمل**: ٨٨] أتدرون هذا التائب لم انزعج؟ أما تجدون في نفسه حرّ وهج؟

صَبَا لنسيم الصَّبا إذ نَفَحْ	وأرّقه لمع برق لمحْ
وأذكره عيشَه بالحمى	وعهداً تقادم سربٌ سنح
فحنّ إلى السفح سفح العقيق	فسحّ له دمعه وانفسح
وكان كتوما لسرِّ الهوى	ولكن جرى دمعُه فافتضح
فدعه ينادي طلول الحمى	ويسأل «رامة»[٣] عمن نزح

يا غائباً عنا، وهو حاضر. أما لك ناظرٌ ناظر[٤]؟ أما دموع الوجد قد ملأت المحاجر؟ أفٍ لبدوي لا يطربه ذكر حاجر[٥].

---

(١) فضل حسن: كذا في المطبوع، وفي المخطوط: «فضلُ حِسّ».

(٢) النافجة: وعاء المسك.

(٣) رامة: موضع بالبادية.

(٤) ناظر ناظر: عين تُبصر.

(٥) حاجر: منزل للحاج بالبادية.

أقل أحوال الزَمِن[1]؛ أن يبكي إذا رأى المشاة. انظر إلى التائبين وحرقهم، والتفت إلى العارفين وقلقهم.

اسمع أنين العاشقين إن استطعتَ له سماعا

راح الحبيبُ فشيّعته مدامعٌ تجري سِراعا

لو كُلّف الجبلُ الأصمُّ فراقَ إلف ما استطاعا

كلما بكى الخائفون: أزعجوني. وكلما استغاث الواجدون، ألهفوني.

وإني لمجلوبٌ لي الشوق كلما

تنّفسَ باكٍ أو تألم ذو وجْد

تَعرّض رُسْل الشوق والركبُ هاجد

فيوقظني من بين نوامهم وحدي

يا صبيان التوبة، ارفقوا بمطايا أبدانكم؛ فقد ألفت الترف ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

هبّ لها من النسيم رائدُ فعادها من الغرام عائدُ

نوقٌ نفى عنها الحمى طِيبَ الكرى فهي كما شاء السرى سواهد

أنحلها تحت الدؤوب أيْنها[2] فمَارت[3] الأنساع[4] والقلائد

فلا تخالفها[5] إذا ما التفتت شوقا إلى بانِ الحمى يا قائد

---

(١) الزمن: المقعد.

(٢) الأين: الإعياء.

(٣) مارت: خلقت وبليت ونسلت.

(٤) الأنساع: جمع نسع، وهو سير منسوج تشد به الرحال.

(٥) تخالفها: تدير وجهها.

وقل لها: لعا[1] إذا ما عثرت فهي لحمل وجْدها تكابد
مذ حكم البين عليها لم تزل تبكي عليها البيدُ والفدافد

يا صبيان التوبة، للنفس حظ، وعليها حق ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩]. خذوا ما لها، واستوفوا ما عليها ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]. فإن رأيتم من النفوس فتورا، فاضربوهن بسوط الهجر ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٣٤]. على أني أوصي، صبيان التوبة بالرفق. وبعيدٌ، أن يقرّ خائف، أو يسمع العذل محب.

ليت شعري هل أرى في طريقي سعة تفسح كرب المضيق
قد رماني الحبُّ في لج بحرٍ فخذوا يا قوم كف الغريق
حلّ عندي حبكم في شغافي حلَّ مني كلَّ عقدٍ وثيق
عِفتُ دنياي اشتياقا إليكم[2] وتساوى خامها والدبيقي[3]
ورفضت الكل شغلا بوجدي فانجلى لي كلُّ معنىً دقيق
يا صديقي عندي اليوم شغل فالهُ عني واشتغل يا صديقي
بيد إن تذكر لي حب قلبي فأعد ذكرهم يا رفيقي
غصّني الشوق إليهم بريقي وَاحريقي في الهوى وَاحريقي

* * *

(١) لعا: كلمة تقال للتحزّن.

(٢) عفت دنياي اشتياقاً إليكم: في المخطوط «فتركت الدُّنا لشوقي إليكم».

(٣) الدبيقي: نسبةٌ إلى «دبيق»: بلدة قرب دمياط، كانت لها شهرةٌ قديماً في صناعة النسيج الدبيقي.

الفصل الخامس والأربعون

إخواني. البدار البدار. فما دارُ الدنيا بِدَار. إنما هي حَلْبة، لجريان الأعمار. وكم تبقى الفريسة بين النيوب والأظفار؟

ما دار دنيـا للمقيـم بـدار ... وبهـا النفوس فريسـة الأقـدار
ما بين ليـل عاكـف ونهـاره ... نفسـان مرتشفـان للأعمـار
طول الحياة فإذا مضى كقصيرها ... واليسـر للإنسـان كالإعسـار
والعيش يعقب بالمـرارة حلوه ... والصفو فيـه مخالـف الأكـدار
وكأنما تقضي بُنيّات الردى ... لفنائنا وطـراً مـن الأوطـار
ويروقنا زهـر الأمانـي نُضـرةً ... هـدمُ الأمانـي عـادة المقـدار
والمرء كالطيف اللطيف وعمره ... كالنـوم بين الفجـر والأسحـار
خَطْبٌ تضاءلت الخطوبُ لهوله ... أخطاره تعلـو علـى الأخطـار
نُلقي الصوارم والرمـاح لهوله ... ونلوذ من حـرب إلى استشعار
إن الذين بنوا مشيدا وانثنوا ... يسعون سعـي الفاتـك الجبـار
سُلبوا النضارة والنعيم فأصبحوا ... متوسديـن وسائـد الأحجـار
تركوا ديـارهم علـى أعدائهـم ... وتوسـدوا مَـدَراً بغيـر دثـار
خلط الحِمامُ قويَّهم بضعيفهم ... وغنيَّهم سـاوى بـذي الإقتـار
والدهـر يعجلنـا علـى آثارهـم ... لابد من صبح المجدِّ الساري
وتعاقبُ الملوين[1] فينـا ناثـرٌ ... بالكرِّ مـا نظمـا مـن الأعمـار

تالله، ما صح، من يطلبه مرضه. ولا سُرَّ، من سير وصل حل[2]

(١) الملوان: الليل والنهار.

(٢) سير وصل حل: كذا في المطبوع. وفي المخطوط: سيرحل.

غرضه. ولا استقام غصن يلويه كاسره. ولا طاب عيش الموت آخره. إن الطمع لعذاب، وحديث الأمل كذاب، وفي طريق الهوى عُقاب، وآخر المعاصي عِقاب. فلا يخدعنك ضياء ضباب، ولا يطمعنك شراب سراب. فمجيء الدنيا على الحقيقة ذهاب. وعمارة الفاني إن فهمت خراب. وفرح الغرور ثبورٌ واكتئاب. ودنوّ الشيب ينسخ ضياء الشباب.

وكلما نادى الأمل: ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]. صاح الأجل: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

يا تائِها في ظلمة ظلمه. يا موغلا في مفازة تيهه. يا باحثاً عن مُدْية حتفه. يا حافراً زبية[1] هلكه. يا معمقا مهواةَ مصرعه. بئس ما اخترت لأحبِّ الأنفُس إليك. ويحك، تطلب الجادة؛ ولست على الطريق. كم فغر الزمان بوعظه فما؛ فما سمعت: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]. كيف تطيب الدنيا؛ لمن لا يأمن الموت ساعة، ولا يتم له سرور يوم؟

إذا كان عمرك في إدبار، والموت في إقبال؛ فما أسرع الملتقى. لقد نَصبتْ لك أشراكُ الهلاكِ والأنفاسُ، أدقَّ الحبائل. يا ماشياً في ظلمة ليل الهوى: لو استضأت بمصابيح الفكر؛ فما تأمن من بئر بوار. الشهوات مبثوثة في طريق المتقين. وما يسلم من شرِّها شَرِه. الأولياء في حرم التقوى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. الدنيا مثل منام، والعيش فيها كالأحلام.

---

(١) الزبية: حفرة للأسد.

قيل لنوح عليه السلام: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار ذات بابين؛ دخلت من باب، وخرجت من باب.

فلما تفرّقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

يا ثقيل النوم، أما تنبهك المزعجات؟ الجنة فوقك تُزخرف. والنار تحتك تُوقد، والقبر إلى جانبك يُحفر، وربما يكون الكفن قد غُزل.

أيقظان أنت اليوم أم أنت حالم

يا حاضرا يرى التائبين؛ وهو في عدد الغائبين.

واقفٌ في الماء عطـ شانٌ ولكنْ ليس يُسقى

عاتب نفسك على هواها. فقد وهّاها[1]. قل لها: ادرجي درَجَ المدْرج؛ وقد لاحت منى. لا يوقفك في الطريق طاقةٌ من أم غيلان؛ فالخيط في المنزل مُهيّأٌ لك. تلمح عواقب الهوى؛ يهن عليك الترك. تفكر في حال يوسف: لو كان زل. من كان يكون؟ هل كانت إلا لذة لحظة، وحسرة الأبد؟ عبرت والله أجمال الصبر، سليمة من مكْس[2]. وبقيت مديحة: ﴿**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [**يوسف**: ٢٤].

يا هذا احسب صبر يومك. ساعة نومك؛ تحظ في غدك برغدك. البدار إلى الشهوات والندامة: فرسا رهان. والتواني عند التوبة والخيبة: رضيعا لبان.

واعجبا، غرّتك حبّةُ فخ، فحُصِّلْتَ وما حوصلت[1]. اليوم:

---

(١) وهاها: أضعفها. (٢) المكس: النقص والظلم.

(٣) حصلت: حُصل عليك. حوصلت: ملأت حوصلتك بالحب.

واطربا للكاس. وغدا: واحربا للإفلاس. آه من حلاوة لُقَمٍ: أورثت مرارةَ نِقَم. تأمّل العاقبة لا يحصل إلا لناقد بصير.

من تلمح إذا تلا: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وعرف قدر مدح: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

علم أنه لم يُبق في فيه شيئاً من مرارة البلى مرارة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ضجت الملائكة حين هموا بإلقائه في النار. فقالوا: ائذن لنا حتى نطفئ عنه. فقال تعالى: إن استغاث بكم فأغيثوه، وإلا فدعوه. فلما ألقي: عرض له جبريل، وهو يهوى في الهواء، فأراد أن ينظر: هل للهوى فيه أثر؟ فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك. فلا. فأقبل بمنشور: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧].

قالت لطيف خيال زارها ومضى: بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقال: خلفته لو مات من ظمأ وقلت: قف عن ورود الماء لم يرد

قالت: صدقت الوفا في الحب عادته يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

* * *

الفصل السادس والأربعون

يا مجتنباً من الهدى طريقاً واضحاً، افتح عين الفكر؛ تر العلم لائحاً. احذر بئر الغفلة؛ فكم غال سائحاً. وتوق بحر الجهل؛ فكم أغرق سابحاً.

يا غادياً في غفلة ورائحا … إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفا … يستنطقُ الله به الجوارحا
يا عجبا منك وأنت مبصرٌ … كيف تجنّبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرأ في غد … صحيفة قد حوت الفضائحا
وكيف ترضى أن تكون خاسراً … يوم يفوزُ من يكونُ رابحا

يا معدوماً في الأمس، فانياً في الغد، عاجزاً في الحال. من أنت حتى تغتر بسلامتك؟ وتنسى حتفك؟ وأملك بين يديك، وأجلك خلفك، وكتابك قد حوى تفريطك. كم نُهيت عن أمر؛ فما كفّك النهي أن تبسط كفَّك. يا من قد طال زلله وتعثيره: تفكّر في عمر قد مضى كثيره.

يا قلبا مشتتا قلّ نظيرُه. كم هذا الهوى؟ ولكم هوى أسيره؟ أيها القاعد عن أعالي المعالي: سبق الأبطال، والبطّال ما يبالي. ستعرف خبرك يوم عتابي وسؤالي. وستقول عند الحساب: مالي ومالي. أعمالك، إذا تصفّحتَ لهواك، لا لي. لو أثر فيك وعظي ومقالي؛ لكنت لحرّ الحسراتِ على حرِّ المقالي[1].

---

(١) المقالي: جمع مقلاة.

إلى أي حين أنت في زي مُحرمٍ
وحتى متى في شقوةٍ وإلى كم
فإلاّ تمتْ تحت السيوف مكرّما
تمُتْ وتقاسي الذلّ غير مكرم
فثِبْ واثقاً بالله وثْبة ماجدٍ
يروي الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

ويحك، إنما يكون الجهاد بين الأمثال؛ ولذلك منع من قتل النساء والصبيان. فأي قدر للدنيا؛ حتى يحتاج قلبك إلى محاربة لها؟ أما علمت أن شهواتها جِيف ملقاة. أفيحسن بِبَاشقِ[1] الملك، أن يطير عن كفِّه إلى ميتة؟

مهلا ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْك﴾ [الحجر: ٨٨، طه: ١٣١]، لو علمت أن لذة قهر الهوى أطيب من نيله؛ لما غلبك. أما ترى الهرة تتلاعب بالفأرة، ولا تقتلها؛ ليبين أثر اقتدارها؟ وربما تغافلت عنها، فتُمعُن الفأرة في الهرب، فتثب، فتدركها ولا تقتلها؛ إيثاراً للذة القهر على لذة الأكل.

مَنْ ذَبح حنجرة الطمع بخنجر اليأس؛ أعتق القلب من أسر الرق. من ردم خندق الحرص بسكر القناعة، ظفر بكيمياء السعادة. من تدرّع بدرع الصدق على بدن الصبر؛ هزم عسكر الباطل. من حصد عشب الذنوب بِمِنْجَلِ الورع؛ طالت[2] له روضة الاستقامة. من قَطَع فضولَ الكلام بشفرة الصمت؛ وجد عذوبة الراحة في

---

(١) الباشق: طائر يصاد به.

(٢) طالت: كذا في المخطوط، وفي المطبوع: «طالبت»، ولعل الصواب: «طابت».

القلب. من ركب مركب الحذر؛ مرت به رخاء الهدى إلي رجاء النجاة. من أرسى على ساحل الخوف؛ لاحت له بلاد الأمن.

ألا عزيمة عُمرية؟ ألا هجرة سلمانية؟ جاءت بمركب عمر جَنُوبُ المجانبة للحق إلى دار الخيزران، فلما فتح له الباب: انقلب شمالاً. مد يده لتناول خمر الفتْك؛ فاستحالت في الحال خلاً. جاء وكله كدر، فلما دنا من الصفا: صفا. كان ماء قلبه - لما جنى - مِلْحا آجنا؛ فلما تلقاه النذير بالعذاب: عَذُبَ.

يكون أجاجا دونكم فإذا انتهى — إليكم تلقّى طيبَكم فيطيبُ

سقم قلب «سلمان» من معاناة أمراض المجوس؛ فخرج إلى أودية الأدوية، فالتقطته يد ظالم، وما عرفت؛ فهان على «يوسف» البيع؛ ليلقى العزيز. فبينا هو في نخلة يخترفها[1]، قدم مُخبرٌ بقدوم الرسول، فنزل ليصعد، وصاح به: حدثني.

نزلوا جبال تهامة فلأجلهم — يهوى الفؤادُ تهامةً وجبالها

يا صاحبيّ قِفا عليّ بقدر ما — أسقي بِواَ كِف عبرتي أطلالها

واعجبا. أطلب الشجاعة من «حسان»[2]، وأسأل عن الهلال «ابن أم مكتوم»، وأتلوا سورة «يوسف» على «روبيل»[3]، وأستملي الفصاحة من «باقل»، وأنتظر الوفاء من «عرقوب»! لقد رجعت إذن بخُفَيّ حنين.

يا من نقده مردود، وعقله محلول. نيتك في الخير نيّة. لو

---

(١) يخترفها: الاختراف: جني الثمر.

(٢) ما قيل عن شجاعة حسان: فيه نظر. وانظر «حسان بن ثابت لم يكن جباناً».

(٣) روبيل: من إخوة يوسف عليه السلام.

أنضجتها نيرانُ خوفٍ أو شوقٍ؛ لانتفعت بها.

ولي قوادمُ لو أني جذبتُ بها — لأنهضتني ولكن أفرخي زغب

غمض عينيك على الدواء، يعمل. وافتحها لرؤية الهدى، تبصر. حَجَرُ المعصية تطحطح إناء القلب. وضبّة[1] التوبة شعاب[2]. يا من عزمه في الإنابة جزْرٌ بلا مدّ. وقفت سفينة نجاتك. ليل كسلك قد طبق آفاق التردد. وقد طلبت فيه أطيارُ الهمة أوكارَ الدعة. فلو قد طلعت شمس العزيمة، في نهار اليقظة؛ لانبثّ عالم النشاط في صحراء المجاهدة.

يا صبيان التوبة، تزوّدوا للبادية. تأهبّوا لحاجر. انعلوا الإبل قبل زَرُود. ولا تنسوا وقت تناول الزاد، جِمالكم.

بين العقيق والكثيب الفردِ

علاقة لي من هوى ووجد

سل هضبات الرمل من جزْع اللوى

يوم النوى عن قلقي ووجدي

واستخبر الأنجم عن صبابتي

بساكني نجد وأرض نجد

فمن مجيري أو بمن أستعدي

وليس عند عاذلي ما عندي

* * *

(١) الضبة: ما يصلح به الكسر في الآنية.

(٢) شعاب. تجمع وتُصلح.

الفصل السابع والأربعون

واعجبا، لنفس تُدعى إلى الهدى، فتأبى. ثم ترى خطأها بعين الهوى صوابا. كم أذهبت زمنا؟ وكم أفنت شبابا؟ وكم سودت في تبييض أغراضها كتاباً؟

أستغفر الله من نفس طغت وأبت
آبت إلى هذه الدنيا فما اتأبتْ[1]
جابت إلى الشيب أوقات الشباب فما
أجابت النصح لكن سيئا جلبت
خانت فخابت وما طابت ولاسعدت
وكم أرابت ورابت ثم ما رأبت[2]
ودأبهــا فــي أمــورٍ غيــر نافعــةٍ
ولو توافقً أمست للتقى دأبت
همّتْ بخيــرٍ فلــم تعــزمْ وريّثها
خطبٌ إذا هي في غير التقى رتبت
أما طريق المعالي فهي واضحة
لكلِّ طَرْف سرى عنه الكرى لحبت
والعاملون جميعاً عالمون بهاً
على ركائب عن معروفها نكبت

---

(١) اتأبت: ضعفت.

(٢) رأبت: من رأب الصدع: إصلاحه.

ألا يسائل أملاكَ الورى فَطِنٌ
علام جُمعت الأجنادُ واحتربت
إن الذي طلبْتهُ لا يدومُ لها
ولا مسرّة إن فازت بما طلبت
ألم يروا دول الماضين قبلهم
كانوا بأحسن ما كانوا بها ذهبت
لا تفرحوا بِهبات من زمانهم
ستستردُّ الليالي كل ما وهبت
لو أعلمت علمنا الغبراء ما ركدت
تحت الأنام أو الخضراء ما ثقبت
وأم دفر[1] إذا ميّزت حالتها
كأم صِل[2] إذا ما عضّت انقلبت
وكيف ترجو صلاحاً من خلائقها
وكلما الناسُ فيه من أذى جلبت

لله دار أقوام تأملوا غيبها، وما زالوا حتى رأوا عيبها. نزلوا من الدنيا منزلة الأضياف؛ أخذوا الزاد، وقالوا: ما زاد إسراف. وقفوا عند الهموم، والمؤمن وقاف. رموا فضول الدنيا من وراء قاف[3]. لو رأيتهم في الدجى: يراعون النجوم، وخيل الفكر قد قطعت حلبات الهموم. يشكون جرح الذنوب، ويبكون الكلوم.

---

(١) أم دفر: الداهية.
(٢) صل: الحية، أو الدقيقة الصفراء.
(٣) قاف: جبل.

أحرقتْ أحزانُهم أجسامَهم، وبقيت الرسوم. بلّغتهم البُلغ، ورمتك التخم في التخوم. سكروا من مناجاة الكريم، لا من بنات الكروم[١]، أصبحت عليهم آثار الحبيب، والطِّيبُ نموم. هذه سِلَع الأسحار، من يشتري؟ من يسوم؟ أين قلبك الغائب؟ قل لي: لمن نلوم؟ جسمك في أرض العراق، وقلبك في أرض الروم.

مُهْرُ الطبع ما رِيضَ. إهاب البشرية ما دبغ. في عين البصيرة عشا. عرائس الموجودات: ترفل في حُلل مختلفة الصنعة والصبغة والصيغة. تعبر بالمعتبر في معبر الاعتبار. فهل حظك حظها. من النضارة أن تحظى من النظر بحظ.

واعجبا لك. لو دخلت بيت ملك؛ لم تزل تتعجب من رقوش نقوشه. فارفع بصر التفكر، واخفض عين البصيرة. فهل أحسن من هذا الكون؟ تلمح مخيم السقف. كيف مُدّ بلا أطناب؟ ثم زخرف نقشه برقم النجوم. والهلال دُمْلوجٌ[٢] في عضد السماء. فإذا جن الليل: كحلت العيون بإثمد النوم، واجتلاها أهل: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦] فإذا جلي ركب الدجى، جلا ضوء الشمس على الأبصار رَمَد الظلام.

انظر إلى الأرض إذا تأيّمت[٣] من زوْج القطر؛ ووجدت[٤] لفقد إنفاقه. مسَّ الجدب. كيف تحدّ؛ في ثياب ﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]. طالما لازمت حفش الصبر، وسكنت مسكن المسكنة؛

---

(١) بنات الكروم: الخمور.

(٢) الدملوج: المِعْضَد.

(٣) تأيمت: صارت أيما، أي بلا زوج.

(٤) وجدت: من الموجدة. أي حزنت.

لولا ضجيج أطفال البذر. فإذا قوي فقر القفر؛ امتدت أكف الطلب، تستعطي زكاة السحاب. فهبت الجنوب من جناب اللطف؛ فسحبت ذيل النسيم على صحيح الصحارى؛ فتحركت جوامد الجلاميد، وانتبه وَسْنانُ العيدان؛ لقبول تلقيح اللواقح.

فإذا لبس الجوُّ مِطْرفه الأدكن، أرسل خيّالة القطْر شاهرة أسياف البرْق. وأنذر بالإقدام صوتُ الرعد. فقام فراش الهواء يرشّ خيش النسيم؛ فاستعار السحاب جفون العشاق، وأكف الأجواد. فامتلأت الأودية أنهاراً؛ كلما لمستها كف النسيم؛ حكى سلسالها سلاسل الفضة. فالشمس تسفر وتنتقب، والغمام يرش وينسكب. فانعقد بين الزوجين: عقد حُبّ الحبِّ.

فلا يزال السحاب يسقي ذر البذر بثدي الندى. وكلما احتاج إلى فضل قوت؛ كرّ الرك[١]، وشطّ الطش[٢]، ودقّ الودق[٣] فطمّ إلى أن فُطم الطفل.

فإذا وقعت شمس الشتاء في الطَّفْل[٤]، نشأ أطفال الزرع، فارتبع الربيع أوسط بلاد الزمان، فأعار الأرض أثواب الصِّبا، وروّح كربها بنسيم الصَّبا، فانتبهت عيون النور من سِنَة الكرى. فكم نهضت من الغروس «عروس»، بين يديها الأوراق كالوصائف، فصافحت ريحُها الخياشمَ، ومنظرُها الحدقَ. فكأن عينَ النرجس عين، وورقه ورق.

---

(١) الرك: المطر القليل، أو هو فوق الدث.

(٢) الطش: المطر الضعيف، وهو فوق الرذاذ.

(٣) الودق: المطر يقطر.

(٤) الطَّفل: الرخيص الناعم من كل شيء.

فالشقائِق: تحكي لون الخجل، والبهار: يصف حال الوجل، والنيلوفر: يغفي وينتبه، والأغصان: تعتنق وتفترق. وقد ضرب الربيعُ جلَّ ناره في جُلَّناره[1]. وبثت الأراييحُ أسرارها إلى النسيم؛ فنمّ. فاجتمع في عرس التواصل فنونُ القيان، فعلا كلُّ ذي فنٍ على فَنَن. فتطارحتْ الأطيارُ مناظراتِ السجوع. فأعرب كلٌّ بلغته عن شوقه إلى إلفه؛ فالحمام يهدر، والبلبل يخطب، والقمري يُرجّع، والمُكَّاءُ[2] يُغرد، والأغصان تتمايل. كلها تشكر الذي بيده عقدة النكاح. فحينئذ تجد خياشيمُ المشوقِ ضالّة وجْده.

لي بذات البان أشجانُ	جبذا من أجلها البانُ
حبّذا رياه يوقظه	من نسيم الفجر ريعان
حبذا وُرْق الحمام إذا	رنّحتها منه أغصان
داعياتٌ بالهديلِ لها	فيه أسجاع وألحان
أعجمياتٌ إذا نطقت	ليس إلا الشوق تبيان
كلما غنيني هزَجاً	هاجني للذكر أحزان
مال بي ميْل الغصون بها	طربي فالكل نشوان
يا حمامَ البانِ يجمعنا	وجْدنا إذ نحن جيران
يحن بالشكوى إليّ فما	بين أهل الحب كتمان
يتشاكى الواجدون جوىً	واحدا والوجدُ ألوان

---

(١) الجُلّنار: زهر الرمان.

(٢) المُكَّاءُ: طائر.

أنا مخلوس القرين[1] وأنـ ـتن أزواج وأقـــران
وبعيد الــدار عــن وطــن شاقــه للبــان أوطــان
آه من داء أُكاتمـــــه والهــوى ســـرٌّ وإعــلان
لا تزدني يا عذول جوىً أنا بالأشــواق سكـران

* * *

(١) مخلوس القرين: أخذ قريني، واختلس مني، وفارقني.

الفصل الثامن والأربعون

من علم أن هِبَاتِ الدنيا هبا؛ حُلّ منُ غلّ ذُلّ.

الدهر مستعجل يخب[١] فاخْتم وطينُ الكتابِ رطْبُ
إن الذي أنت فيه حلمٌ وسوف تنساه إذ تهبُّ
توقَّ مكرَ الزمانِ واحذر ولا تثق فالزمان خِبّ[٢]
جميع أفعاله غرورٌ وكل ما نحنُ فيه لعب
وليس يبقى عليه شيء يكرهه المرء أو يُحب
اسمع أحاديثَ مَنْ تقضّى يا من له ناظرٌ وقلب

الدنيا تعطي تفاريق، وتسترجع جملا. وترضع أفاويق[٣]، وتقطع عَجلا. يُواتي خيرُها إن وَاتى لمعا[٤]، ثم يأتي شرها حين يأتي دفعا. فترى العبراتِ عند فقْدها تُراق ولا ترقأ. والزفراتِ عند سلبّها تهدّ ولا تهدأ. ويحكم إن المفروحَ به من الدنيا هو المحزون عليه.

إخواني. ذُودوا هممكم عن مراعى المنى؛ فإنه يزيدها عجفاً[٥]. ولا تُولّوا الهوى على ميدان الأبدان ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، الهوى وثنٌ يُنصب في جاهلية

(١) يخبُّ: يسرع.

(٢) الخبّ: اللئيم. وقد سبق التنبيه إلى أنه لا يجوز سبّ الزمان.

(٣) الأفاويق: ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعة بعد ساعة.

(٤) اللمعة: الموضع لا يصيبه الماء في الوضوء أو الغسل. والبلغة من العيش.

(٥) عجفا: ضعفا وهزالا.

الشباب: فإن صحّ إسلام العزم؛ جعل أصنام الشهوات جُذاذاً.

يا معاشر الشباب، زِيدوا في سلاسل الهوى؛ فإن شيطان الهوى مارد. زِنُوا حلوى المشتهى بمرِّ العقاب؛ يبن لكم التفاوت. إلى متى يقودكم الهوى؟ إلى متى تستعبدكم الدنيا.

للشريف الرضى:

كم اصطبارٌ على ضيمٍ ومنقصة
وكم على الذل إقرارٌ وإذعانُ
ثوُروا لها ولتهن فيها نفوسُكم
إن المناقبَ للأرواح أثمان

إلى متى جمود الإناث؟ أين الحركة الرجولية؟

للمهيار:

قمْ فانْتشطْها حسبُها أن تُعقلا
ودع لها أيديها والأرجلا[1]
لا يطرح الـذي وراء ظهـره
إلا فتى ينضي[2] المطايا الذللا

الجد الجد؛ فالطريق طويلة. دَارِ[3] الناقةَ بذكر الدار. علّلها بصوت الحداة. فإذا لاح لها المنزل: فَشَوْقُها يَسُوقُها.

---

(١) في المخطوط فرق كبير حيث اقتطع جزء كبير، ثم ظهر في غيرموضعه، ولعل ذلك بسبب وضع ورقة في غير موضعها.

(٢) ينضي: يهزل.

(٣) دارِ: من المداراة.

للمهيار:

ارْخ لهـا زِمامَهـا والأنسعـا
وارم بها مـن العلى مـا شسعا
وارحل بها مغتربا عن العِدى
توطك من أرض العدى متسعا
يا رائد الظعـن بأكنـاف اللوى
بلِّغ سلامي إن وصلت لعلعـا
ماذا عليهم لو رثُوا لساهرٍ
لولا انتظار طيفهم مـا هجعـا

إخواني، انبعاث الجوارح في العمل؛ دليل على قوة العلم بالأجر. فإذا حصل تسليمُ النفوس في الجهاد إلى القتل؛ كان النهاية في كمال اليقين. فإذا وقعَ الفرحُ بأسباب التلف؛ دلّ على كمال المحبة. كما قال عبدالله بن جحش: اللهم سلّط علي غداً عدواً، يبقر بطني، ويجدع أنفي، فإذا لقيتك، قلت: هذا فيك، ومن أجلك. وطعن حرام بن ملحان، فنفذ فيه الرمح فقال: فزت ورب الكعبة.

لو رأيتهم والمعتركُ قد اعْتكر. وقد تقدموا في القُدْموس[١] فانبلج الأمر، وجاش جأش في أُفُرّة[٢]، فلم تيميز الهِلْقَام السَّرَعْرع[٣]

---

(١) القُدْموس: المَلكُ الضخم.

(٢) أُفُرّة: بضم الهمزة والفاء وتشديد الراء: الاختلاط.

(٣) السَّرَعْرع: أي الضخم الطويل.

من القَلَهْزَم الحنْزَقْرة[١]. وإذا الغضَنْفَر الدمَكْمَك[٢] والقَحْر العَلَنْدى[٣] والضُّبَاضِب الدلامر[٤]: كلهم في مقام إجْفيل[٥].

فلما انزعجت الطباع؛ تذكروا قبيح الجناية، فمدوا أيدي التسليم للودائع. فخضبت الدماءُ، محاسنَ وجوهٍ، طالما صبرت على برد الماء وقت الإسباغ. وحصدت مناجلُ السيوف، زروعَ رؤوس، طالما أطرقت في الأسحار. وعادت خيولهم خلية عنهم، فوطئتهم بعد السنا، تحت السنابك. واقتسم لحُومَهم، عقبانُ السماء، وسباعُ الأرض. فكم منْ رِجل رَجْلٍ طالما قامت فصلّت، فُصِلت. وكم من يد بالدعاء رُفعت، وَقعت. وكم من بطن حمل بالصيام ما شَقّ، شُقَّ. وكم من عين كانت تعين الحزين بالفيض، وقعت في منقار طائر.

هذا حديثُ الأجسام. فأما الأرواحُ، ففي دار السلام. والله ما كانت إلا غفوة، حتى أعطاهم العفوُّ عفْواً عفْوه. وكأنكم بأجسادهم التي تفرقت قد تلفّقت. وبالقبور التي جمعتهم، قد تشققت. وقد قاموا بالسلاح حول العرش، ينادون بلسان الحال: عن صاحبه حارينا، ولأجله قتلنا. وكلومهم يومئذ قد انفجرت، فَجَرَت؛ اللون لون الدم، والريح ريح المسك. فليعلم الأشهاد حينئذ أنهم الشهداء.

---

(١) الحنْزَقْرة: القصير الدميم.

(٢) الدَمَكْمَك: أي الأسد الشديد.

(٣) العَلَنْدى: أي الصلب الضخم.

(٤) الدلامر: أي القوي العظيم.

(٥) إجْفِيل: أي الجبان.

اسمع، يا من لا يحارب الهوى ولا ساعة. فلو فاتتك الغنائم وحدها؛ قَرُب الأمر. وإنما لقب «جبان» قبيح. أين أرباب العزائم القوية؟ امتلأت بالأبرار البرية. رحلوا عنها وفاتوا. ونحن متنا وهم ما ماتوا.

خَلِّ طرفي والبكا إن كنت خِلّي
فالحمى أقفر من جارٍ وأهل
والح من لم يدر ما طعمُ الأسى
أنا عن لوْمك في أشغل شغل
لم يدع وقْرُ[1] الهوى في مسمعي
واعتراضاتُ الهوى باباً لعذل
غير قلبي إن تأسىّ عاشق
للتأسي أو تسلّى للتسلي
أأثاف[2] ما ترى تشكو الصلا[3]
أم قلوب بين حصباء ورمل
هذه من بعدهم آثارهم
والتجافي عن بلى الأطلاب[4] يبلي
ما وقوفي في محل ساكن
في فؤادي أهلهُ لا في المحلّ

---

(١) الوقر: ثقل في الأذن، أو ذهاب السمع كله.

(٢) الأثافي: الحجارة التي تنصب لتوضع عليها القدر.

(٣) الصَّلا: حرّ النار.

(٤) الأطلاب: جمع طِلْب. يقال: طلب نساء. أي طالبهن. والذي في المخطوط: «والتجافي بيلا الأطلال يبلي».

يتمنى طيفكم صبٌّ لكم
مستهامٌ والمني جهدُ المقلّ
والذي يستجلبُ الطيفَ الكرى
من لعيني أن ترى النوم ومن لي
بعت حِلْمي طائعاً لا كارهاً
بسفاهي فاشتروا عِزّي بذلي
وانقضى أكثر عمري في القلى
جفوة منكم فرقوا للأقل
حملوني الخف من هجركم
وارحموا من ما له طاقة ثقل
عجبا لي ولقلب ضائع
بان عني بين بانات وأثْل
سل بقلبي عن خيام باللوى
تاه قلبي في حِماها ضلَّ عقلي
ذاتُ طوق مثلُ شجوي شجوها
غير أنْ ما شكْلُها في الحزن شكلي
أنا في النوْح اضطراراً مثلها
وهي في غير اضطرار فيه مثلي
حرّم الله على البان الصَّبا
وحماه[1] الغيث من طل ووبل

---

(١) حماه: منعه.

ما على السائق لـو حـل النَّقى

وأراح العِيس[1] من شدٍّ وحل

فعسى تدني المُنى مِنيٍّ مِنى

ولعلي أن أرى الخيف لعلي

★ ★ ★

---

(١) العيس: الإبل.

الفصل التاسع والأربعون

عجباً لراحل عن قليل، غافل عن زاد الرحيل، لا يعتبر بأخذ الجيل، وإنما هو تأخير وتعجيل. أين النزيل؟ أزُيل. أين القويم؟ أُميل. أين المطمئن؟ أُغْتيل.

إن الليالي لا تبقى على حـال   والناس ما بيـن آمـال وآجـال
كيف السـرور بإقبــال وآخـره   إذا تأملتـه مقلـوبُ إقبـال[1]

تيقظوا، فالأيام دائبة. وتحفظوا، فالسهام صائبة. واحذروا دنياكم فما هي مواتية. واذكروا أخراكم، فها هي آتية. أما رأيتم الدنيا قد أبانت خدعها ومكرها؛ إذ أبانت من جمعها، مُكْرَها؟ أين الارتياد للسلامة غدا؟ أين الاستعداد قبل الندامة أبدا؟ كأنكم بالمسير عن الربع: قد أزِف[2]. وبالكثير من الدمع: قد نزف. وبالمقيم قد أُبين مما ألف. وبالكريم قد أهين لما تلف.

يا طالب الدنيا دنا فراقهـا   تزويجها أسرع أم طلاقها
ودِينُ من يخطبها صداقها

عباد الله، من تعلق قلبه بالجنة؛ لا يصلح لنا. فكيف بمن يهوى دنيا ...

يهواكم الهنا صِرْفـاً فلمـا مزجتـم   بَعُدُتُـمْ بمقـدارِ التّفاتكـم عنّـا
وقلنا لكم لا تسكنوا القلب غيرنا   فأسكنتم الأغيـار مـا أنتـمُ منّـا

(١) مقلوب (اقبال): لا بقاء.

(٢) أزف: قرب.

السلطانُ لا يُزاحمُ في داره. «لا يسعني شيء، ويسعني قلب عبدي المؤمن».

غِبْتم عن العين القريحة فيكمُ وسكنتمُ في القلب دار مقام
وسلبتم جلدي التصبُّرَ عنكم فالصبرُ أوّلُ راحلٍ بسلام

خرج المريد الصادق، من ديار الهوى إلى بادية الطلب، فَجَنَّ عليه ليلُ التحيُّر؛ فجُنّ. فإذا نارُ القرى تلوح؛ إن حملت رِجْلُ الرَّجل.

للمهيار:

قد أبصرتْ حقاً مُناها في الحمى وظنُّها بحاجرٍ يقينا
فبُلِّغتْ أدعو لها وبُلِّغتْ وخانني من لم يقل: آمينا

كرب المحب بالنهار؛ يشتد لمزاحمة رقباء المخالطة. فبلبل بلباله، يتبلبل في قفص الكتم. فإذا هبت نسيم السحر؛ وجد روحُه روْحا يصل من قَصْرِ مِصْر المنى إلى أرض كنعان الأمل. فيقدم ركب الشوق، يتحسس النسيم من فُرَج الفَرَج، ولَهُ ولَه[1]. فنهض توْق[2] الشوق، فتكلّم قلمُ الشكوى، ورَقَمَ وصْفَ القوم. وحكى ما حاكى، وكنى عن ما كنى.

عاودَ القلبَ غرامُه وجفا الجفنَ منامُه
كلما قلتُ جوى الشوق خبا زاد اضطرامُه
أنا في أسرك والمأسور قد يُرعى ذِمامُه

---

(١) الوله: الحزن، أو ذهاب العقل حزنا.

(٢) التوْق: الاشتياق.

آه من عتبك في الليل إذا جَـنّ ظلامُـه
سيدي هائمك الحيران قـد زاد هُيامـه
هـو ميت غيـر أن لـم تَبْلَ في التُّـرْب عظامه
كنهاري منذ فارقتك ليلـي لا أنامـه

إذا اعتكر الليل، اعترك الهم. طال الدجى على الأبدان، وقصر على القلوب.

شكونا إلى أحبابنـا طـولَ ليلنـا فقالوا لنا: ما أقصر الليل عندنا

لو رأيت رواحل الأبدان، قد أنضاها[1] طول السهر وأضناها[2]. فلما هبت نجدية السحر؛ مدّت أعناقَ الشوق، فزال كلُّ الكلال.

لصردر:

تـزاورن عـن «أذرعات» يمينا نواشـز ليس يُطعـن البريـنا
كَلفْـنَ بنجـد كـأنّ الريـاضَ أخـذْنَ لنجـد عليهـا يمينـا
وأقسمْنَ يحمِلن إلا نحيلا إليـه ويُبلغـن إلا حزيـنا
ولمـا استمعن زفيـرَ المشُوقِ ونـوْحَ الحمامِ تركـن الحنينا
إذا جئتمـا بَانَـةَ الواديينِ فأرخوا النُّسوع وحلّوا الوضينا
فثـمّ علائـقُ مـن أجلهـا مُلاء[3] الدجى والضحى قد طُوينا
وقـد أنبأتهمْ ميـاهُ الجفـون بـأنّ بقلبـك داء دفينـا

دموع الخائفين، يحبسها بالنهار مراقبة الخلق، فإذا جن الليل، انفتح سكر الدموع ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] أرواح الأسحار

---

(١) أنضاها: هزلها.

(٢) أضناها: أتعبها.

(٣) الملاء: جمع ملاءة، وهي الريطة

أقوات الأرواح. رقّتْ فَرَقَتْ. حَرَّ جِدّ الوجْد، وبلّغتْ رسائلَ الحب. ومكروب الشوق؛ يرتاح للرياح.

يا نسيم الريح هل من وقفة
تطفئ الغُلّة أو تشفي الأُواما
كن رسولا بسلامٍ عائداً
نحو من أنفذ لي فيك السلاما
لم تُثِرْ شجْوي حماماتُ اللوى
بل غرامي علّم الشّجوَ الحماما

كانت «بردة» العابدة، تنادي في جوف الليل: غارت النجوم، ونامت العيون، وخلا كل حبيب بحبيبه. وقد خلوتُ بك يا خيرَ محبوب. أفتراك تعذبني؛ وحبك في قلبي؟ لا تفعل يا حبيباه.

إن شئت سألت دمع عيني عني
يخبرك بأنني أسير الحزن
منك الغفران والخطايا منّي
ظني حسنٌ فيك فحقق ظني

يا غافل القلب، ما هذا الكلام لك. ليس على الخراب خراج. لا يعرف البرَّ إلا سائح، ولا البحر إلا سابح، ولا الزناد إلا قادح.

ضمّنا يوم تنادوا للِّقا موقفٌ يعرفهُ من عشقا

لما عشقت اللبلابةُ الشجر؛ تقلقلت طلبا لاعتناق الرؤوس، ولثم الخدود. فقيل لها: مع الكثافة لا يمكن. فرضيت بالنحول.

فالتفّتْ، فالتقت.

حبيّ والوجدُ أورياني سقما

هذا جسمي يُعدُّ عظما عظما

دعني والشوق قد كفاني خصما

يا سهم البين قد أصبت المرمى

★ ★ ★

الفصل الخمسون

إخواني، من تفكر في ذنوبه بكى، ومن تلمح سيْرَ السابقين وانقطاعَه شكا. ولا أقلق القلب مثل الحزن ولا نكا.

عنـد قلبي علاقـةٌ مـا تقضّى

وجوىً كلما ذَوى[١] عاد غضا

وبكاء علـى المنـازل أبلتهـن

أيـدي الأيـام بسطـا وقبضـا

من معيد أيام ذي الأثْل أو مـا

قـل منهـا دينـا علي وقرضـا

سامحا بالقليل من عهد نجد

ربمـا أقنـع القليـلُ وأرضى

مُهْدياً لي من طيب أرواح نجد

ما يداوي نُكْسٍ[٢] العليل المُنضّى

إخواني، تفكروا في ذنب أبيكم، ونزوله بالزلل؛ ويكفيكم. رمز إلى آدم بأنك «عبد» في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨] لأن العبدَ ليس له إلا ما سدَّ الجوعة، وستر العورة. فجاء إبليس يُطمعه في الملك. فلما خرج إلى الطمع، خرج. نام في الجنة، فانتبه وقد خلقت له حوًّى[٣]. فقال: ما

---

(١) ذوى: ذبل.

(٢) نكس: النكس: عود المرض بعد النقه.

(٣) حوّى: حواء.

هذا؟ قيل: من يُرد النوم؛ يُخلق له ضجيع. كفى بالشوْقِ مُسهِراً.
فلما وقع في الزلل؛ طار النوم.

متى شُقَّ جيبُ الجنح بالبارقِ الومْضِ
وهبّتْ قبولٌ فالسلامُ على الغمْضِ

بالأمس: جبريل يسجدُ له. واليوم: يجرُّ بناصيته للإخراج.
ولسان حاله يستغيث:

حُداةَ العِيسِ رِفْقاً بالأسيرِ
لِيَغْنم نظرةً قبل المسيرِ
ويا بانَ الحِمى هل فيكَ ظِلٌّ
فعند حشاي مزدحم الزفير
ويا ريحَ الشَّمال بحق حبي[1]
وصدقي هل مررتِ على الغدير
وهل سحبت على شيح ورند
ذيولك يا مبلبلة الضمير

بكى على زِلتّه ثلاثمائة عام، حتى سالت الأودية من دموعه، اسمْع يا من يضحك عند المعاصي:

سلو بعدكم وادي الحمى ما أسَالَهُ
دمي ودموعي في هواكم أم القطْرُ
وهل ما أراه الموت أم حادث النوى
وهل هو شوقٌ في فؤادي أم الجمر

(١) سبق التنبيه مراراً إلى أن الحلف بغير الله لا يجوز.

كان يقول لولده: يا بني، طال والله حزني على دار أُخرجت منها. فلو رأيتها؛ زهقتْ نفسُك.

قـفْ فتلك الطـولُ وابْكها يـا رسولُ
واقْـرَ عنـي سلامي مَـنْ عليهـا نُـزول
رُبَّ سكـان دارٍ فـي فـؤادي حلـول
فاسْأل الـدار عنهم واستمع مـا تقـول
لـي وللبيـن فيهـم شرحُ حـالٍ يطـول
قـد كفانـي غرامي لا تـزد يـا عـذول
لست أدري إذا مـا لمُتني مـا أقـول
خلّفونـي مُعنّـىً والمعنّـى حمـول

قيل له: ردْ إقطاعنا. فحل الإقطاع بجناية لقمة. فلما غسل آدمُ جَنابةَ الجناية؛ رد الإقطاع عليه. لولا لُطْف ﴿فَتَلَقَّىٰ﴾ [البقرة: ٣٧] لقتله الأسف.

من لي من لي بوصلِ حبٍ نازحْ
لو بيع بمهجتي لكنت الرابحْ
صالحْ مَنْ عاش بالأماني صالحْ
سامح في النقد يا حبيبي سامح

يا من جرى عليه ما جرى على أبيه، اسلك طريقه من البكاء.

خَلِّ دمعَ العين ينهملُ بان من تهواه فاحتملوا
كلُّ دمعٍ صانه كَلَفٌ فهو يوم البيْن مُبتذل

اكتب قصة الندم، بمداد الدموع، وابعثها مع ريح الزفرات.

لعل الجوابَ يصلُ برفْعِ الجوى.

كيف لا أبكي على عيشٍ مضى بِعتُ عمري بحقير الثمنِ
كيف أرجو البُرْءَ منْ داءِ الهوى وطبيبي في الهوى أمرضني

انتبه لنفسك. يا من كلما تحرّك تعرقل. فيك جوهرية السّباق؛ ولكن تحتاج إلى رائض. قلبك محبوسٌ في سجن طبعك، مقيدٌ بقيود جهلك. فإذا ترنّم حاد؛ تنفّسَ مُشتاقٌ إلى الوطن. فالْبس لأْمة عزّمك، وسر بجند جِدّك؛ لعلك تُخلّص هذا المسلِمَ من أيدي الفراعنة.

أبالغور تَشتاقُ تلكَ النجوَدا رميَت بقلبكَ مرمىً بعيداً
فؤاد أسير ولا يُفتدى وجفنٌ قتيلُ البكا ليس يُودى

لك الحديث يا معرض، أنت المراد يا غافل. يا مستلذا برد العيش؛ تذكّر حُرْقة الفرقة. يا من يُسلمه موكّلان إلى موكّلين: ما لانبساطك وجْه. إنما تملي عليها رسالة إلى ربك. وما أراك تملُّ قُبْحَ ما تُمِل. يا جامد العين اليوم، غداً تدنو الشمس إلى الرؤوس، فتفتح أفواه مسام العروق، فتبكي كلُّ شعرة بعين عروقها. يبرز «يوسف» الهيبة، فيقدّ قميص الكون.

نفخُ الريح اليوم: يحرك الشجر، ونفخ الصور غداً: يعمل في الصور. ريح الدنيا: بين مثيرٍ ولاقح، تثير دفائن النبات، وتلقح الأشجار، وتثير دفائن الأعمار. وريح الأخرى: تلقح الأشباح للأرواح؛ لقراءة دفاتر الأعمال.

أين الذين نصبوا الآخرة بين أعينهم؛ فنصبوا؟ وندبوا أنفسهم،

لمحو السيئات، وندبوا؟ كان داود الطائي ينادي بالليل: همك عطّل علي الهموم، وحالف بيني وبين السهاد. وشوقي إلى النظر إليك حال بيني وبين اللذات. فأنا في سجنك، أيها الكريم، مطلوب.

يا مالك مهجتي ووالي ديني

كم ينشرني الهوى وكم يطويني

هجرانك مع محبتي يضنيني

هل تدركني بنظرة تُحييني

إذا جَنّ الغاسق؛ جُنّ العاشق.

طال ليلي دون صحبي سهرت عيني وناموا

كانوا يتراسلون بالمواعظ؛ لتقع المساعدة على اليقظة، كصياح الحارس بالحارس: يا نيام السحور.

للمصنف:

عرِّجوا بالرفاق نحو الركْب وقفوا وقفةً لأنشُدَ قلبي

وخذوا لي من النقيب لَمَاظاً[1] أورِدُوا بي إلى العذيب وحسبي

فهبوب الرياح من أرض نجد قوت روحي وحبذا من مهبِّ

يا نسيم الصَّبا ترنّم على الدوْح بصوت يشجي وإن طار لُبي

من معيد أيامنا بِلِوَى الجزْع وهيهات أين مني صحبي

★ ★ ★

(١) لَماظا: يقال: شربه لَماظاً: ذاقه بطرف لسانه.

الفصل الحادي والخمسون

أين اللاهون بالمزاح؟ زاحوا. أين شاربوا الراح؟ راحوا. ويك ويك يا صاح، صاحوا. لقد ندبوا في قبورهم على الونى[١]، وناحوا.

يا أيها الواقف بالقبورِ بين أناسٍ غُيَّبٍ حضورِ
قد سكنوا في جَدَثٍ معمورِ بين الثرى وجندلِ الصخور
ينتظرون صيحةً النشور إنك عن حظّك في غرور

أين أرباب المناصب؟ أبادهم الموت المناصب. أين المتجبر الغاصب؟ أذله عذاب واصب. لُفّت والله الأكفان كالعصائب على تلك العصائب. وحلت بهم آفات المصائب؛ إذ حلّ بَلبّاتهم[٢] سهمٌ صائب. فيا من يأمن هذه النوائب، أحاضر أنت أم غائب؟ كم عاص بات في ذنوبه، يتقلب على فراش عيوبه؛ مزمار ومِزْهر، ومُسْكر ومُنكر. فجأه الموت فُجاءة، فأنساه ولده ونساءه، وجلب مساؤه ما ساءه. فنقل إلى اللحد ذميماً. ولقى من غِبِّ[٣] المعاصي أمراً عظيماً.

بَيْنا تراه غادياً رائحاً في نِعَمٍ غاديةٍ رائحةْ
إذا بيومٍ طالحٍ مُخرجٍ من خبئه آماله الصالحه
كم سالمٍ صحته موته وقائلٍ: عهدي به البارحة

(١) الونى: الضعف والفتور.
(٢) اللَّبة: موضع القلادة من الصدر.
(٣) غب: الغب: عاقبة الشيء.

أمسى وأمست عنده قَيْنَة[1] فأصبحتْ تندُبـهُ نائحـه
فكن من الدنيا على صيحة وأيُّنا ليست بـه صائحه
من كانت الدنيا به بَرّةً فإنها يومـا لـه ذابحه

واعجباً، لمن رأى هلاك جنسه، ولم يتأهب لنفسه.

قال البازي للديك: ليس على الأرض أقل وفاءً منك. أخذك أهلك بيضة فحضنوك، فلما خرجت، جعلوا مهدك حجورهم، ومائدتك أكفهم. حتى إذا كبرت، صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا، وصحت. وأنا أُخذت مسناً من الجبال، فعلموني ثم أرسلوني، فجئتُ بصيدي إليهم. فقال له الديك: إنك لم تر بازيا مشويا في سفود. وكم رأيت في سفود من ديك؟

إخواني الزهد في الدنيا زُبْد مَحْض مَحْضِ الفكر، حظُّ الحريص على الدنيا في الحضيض، والقَنوعُ في أعلى الذرى. سائقُ الحرص يضربُ ظهرَ الحريصِ بعصا التحريض؛ فلو قد عصى الهوى، كفت العصا. كلُّ ما زاد على القوت فهو مستخدِمُ الكاسب.

يا موغلا في طلب الدنيا، الحسابُ حبْس. فإن صحّ لك الجواب، تعوقت بمقدار التصحيح. وإن لم يصح فمطمورة جهنم. ويحك، طالع دستور عملك، تر كل فعلك عليك. من وقف على صراط التقوى، وبيده ميزان المحاسبة، ومحكُّ الورع، يستعرض أعمال النفس، ويردّ البهْرَجَ إلى كِيرِ[2] التوبة؛ سلم من ردِّ الناقدِ

---

(١) قينة: مغنية.

(٢) الكير: زق ينفخ فيه الحداد.

يومَ التقبيض. ويحك، سلطان الشباب قد تولى، وأمير الضعف قد تولى[١]. ومِعْولُ الكِبَر يُعرقِبُ حيطانَ دارِ الأجل.

«وحسبك داءً أن تصحَّ وتسلما»

قف على ثنية الوداع، نادباً قبل الرحيل على ديار الألفة.

يا منزلا لم تبل أطلاله حاشى لأطلالك أن تبلى
والعشق أولى ما بكاه الفتى لابد للمحزون أن يسلى
لم أبك أطلالك لكنني بكيت عيشي فيك إذْ ولّى

كان ثابت البناني. يَستوحِشُ لفقد التعبُّد بعد موته، فيقول: يا رب، إن كنتَ أذنتَ لأحدٍ أن يُصلي في قبره، فأْذن لي.

وكان يزيد الرقاشي يقول في بكائه: يا يزيد من يبكي بعدك عنك؟ من يترضّى ربَّك لك؟

أحبكم ما دمتُ حياً وإن أمُتْ فواكبدي مَنْ ذَا يُحبكم بعدي

لما علم المحبون أن الموت يقطع التعبدات؛ كرهوه لتدوم الخدمة. جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام ليقبضه، فلطم عينه. فإذا قامت القيامة، بادر إلى العرش. طالت غيبته، فاستعجل استعجال مشوق. كانوا يحبون أماكن الذكر، ومواطن الخلوة. والمؤمن ألوف. للمعاهد عهد عند المحب لا ينساه: **«اسكن حراء»**[٢].

احْبَسا الركبَ بوادي سلم فبذاك المنحنى طُلَّ دمي
وانْشُدا قلبي في سُكّانه فمن السكان أشكو ألمي

---

(١) تولى: الأولى: ولى وذهب، والثانية: صار صاحب الولاية.

(٢) مسلم، في فضائل الصحابة: (٢٤١٧).

أخذوا قلبي وأبقوا جسدي فوجدي بعده كالعدم
صِلْ مُحبًّا جفنُهُ لم ينمِ وَابلائي إن خصمي حكمي

واعجبا للمحب يستر ذكر الحبيب بذكر المنازل. وما يخفى مقصوده على السامع. «أحد جبل يحبنا ونحبه»[١].

ألا سقّني كاساتِ دمعي وغنني بذكر سُلَيْمى والرباب وتنعم
وإياك واسم العامرية إنني أغار عليها من فم المتكلم

رياح الأسحار، تحمل الرسائل، وترد الجواب.

للخفاجي:

أفي نجدٍ تُحاورك القبول[٢] أظنُّ الريحَ تفهم ما نقولُ
تغنّت في رحال الركب حتى تشابهت الذوائبُ والذيول
صحبنا في ديارهم صباها بنا وبها التنفس والنحول
وأمطرنا سحاب الدمع حتى حسبنا أنها مُهجٌ تسيل
وعُجنا[٣] ذاهلين فما علمنا أنحن السائلون أم الطلول

ديار الأحباب: درياق هموم المحبين

على أنني منها استفدت غرامي

كان «قيس» إذا رحلت «ليلى». تعلل بالآثار، واستشفى بالدمن، واستنشق الصبا، وشام برق[٤] بني عامر.

---

(١) البخاري، في الزكاة: (١٤٨٢).

(٢) القبول: ريح الصبا؛ لأنها تقابل الدبور.

(٣) عجنا: رجعنا.

(٤) شام البرق: نظر إليه؛ أين يقصد؟ وأين يمطر.

أقتـلُ أدواءِ الرجـالِ الوجـدُ   وقٍّ نجـداً فالغـرامُ نجـدُ
حيث الريـاض والنسيم أُنُف[1]   ودنـف مـا يستفيـق بعـد
إن الصَّبا إذا جَرَتْ قادحةٌ   نـار الغـرام ففؤادي الزنْـد
تعدي المحبين الصبـا كأنمـا   لهـا على أهـل الغـرام حقـد
لا تَتلـقّ نفحـةً نجديـةً   هـزلاً فهـزلُ النفحـات جـد
دع الصَّبا فِعْل الهواء كالهوى   سيـّان منـه قصـره والمـد
ما كبـدي بعـدك إلا جـذوة   لهـا بترجيـع الحنيـن وقـْد
يسترها الجِلْـد ولولا أدمعي   مـا كان قـط ستـر نـار جلـد
كيف ببرئي والطبيب مُمرِضي   يصدُّ والداءُ العضالُ الصد
النار قلبي والسموم نفسي   والماء طرفي والتـراب الخـد
قد كدت أخفى عن عيون عُذّلي   كـذا وجـود العاشقين فقـد

* * *

---

(١) الروض الأُنُف: الذي لم يرع.

الفصل الثاني والخمسون

العزلة: حمية البدن، والمناجاة: قوت القلب، ومن أنس بمولاه؛ استوحش من سواه.

يا منتهى وحشتي وأُنسي   كن لي إن لم أكن لنفسي
أوهمني في غدٍ نجاتي   حِلْمك عن سيئات أمسي

خلق القلب طاهراً في الأصل، فلما خالطته شهواتُ الحسِ تكَدَّر: وفي العزلة يرسب الكدر. الحيوان المميز على ثلاثة أقسام: فالملائكة، خلقت من صفاء لا كدر فيه. والشياطين، من كدر لا صفاء فيه. والبشري، مركب من الضدين. فالعجب أن تقوى عنده التقوى. تقديس الملائكة، يدور على ألسنة لا تشتاق بالطبع إلى الفضول. سِبَحُ[1] تسبيحهم، عقود ما نظمتها كلف التكليف. ثمرات زروعهم نشأت لا عن تعب. سقاها سيح العصمة؛ فكثر في زكوات تعبدهم قدْرُ الواجب ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

كانت أقدامُ تعبّدهم سليمة، فاستبطئوا سيْرَ زَمْنَى[2] الهوى. فقيل: «إذا رأيتم أهل البلاء، فسلوا الله العافية».

واعجبا من منحدر في سُفُن التعبد، يستبطئ مصاعداً في الشمال. سمعوا بيوسف الهوى، وما رأوه؛ فأخذوا يلومون زليخا الطبع، من حبس عتب: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ [يوسف: ٣٠]. فلما قالت الدنيا

---

(١) سبح: مسابح: جمع مسبحة.

(٢) زمنى: جمع زمن، وهو المقعد من عاهة.

يوم هارت وماروت: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١] قطّعوا أكف الصبر. وصاح في تلك المواقف، مواقف: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

إن للحـــرب رجالاً خلقـــوا

ألهم أنين المذنبين؟ أو خلوف الصائمين؟ أو حرقة المحبين؟ أما عب بحر الأمانة؟ يوم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] توقفت الملائكة على الساحل، ونهضت عزيمة الآدمي، لسلوك سبيل الخطر. بلى، لأقدام المحب إقدام.

يغلبني شوقي فأطوي السرى ولم يزل ذو الشـوق مغلوبـا

لا نحتاج أن نناظر الملائكة بالأنبياء. بل نقول: هاتوا لنا مثل عمر. كل الصحابة هاجروا سراً، وعمر هاجر جهراً. وقال للمشركين قبل خروجه: ها أنا على عزم الهجرة، فمن أراد أن يلقاني، فليلقني في بطن هذا الوادي.

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي

مذ عزم عمر على طلاق الهوى. أحدّ[1] أهلَه عن زينة الدنيا.

وعزمـة بعثتهـا هِمّـة زحـل

من تحتها بمكان التارب من زحل

لما ولي عمر بن عبدالعزيز، خيّر النساء. فقال: من شاءت فلتُقِم، ومن شاءت فلتذهب. فإنه قد جاء أمر شغلني عنكن.

لمهيار:

أُقْسِـم[2] بالعفـّة لا تيّمـه

ظبيٌ رنـــا أو غصنٌ تأودا

---

(١) أحدّ: من الحداد. (٢) سبق التنبيه مراراً على أن القسم بغير الله لا يجوز.

وكلما قيل له: قف تسترح

جُزتَ المدى قال: وهل نِلتُ المدى

للعزائم رجال، ليسوا في ثيابنا، وُطّنوا على الموت؛ فحصلت الحياة.

إذا ما جررتُ الرمحَ لم يثنني أبٌ

مُلِحٌّ ولا أمٌ تصيحُ ورائي

وشيّعني قلبٌ إذا ما أمرته

أطاع بعزمٍ لا يروغُ ورائي

يا مختار القدر، اعرف قدر قدرتك، فإنما خلقت الأكوان كلها لأجلك. يا خزانة الودائع، يا وعاء البدائع، يا من غُذي بلبان البر، وقُلِّبَ بأيدي الأيادي. يا زرعاً تهمي عليه سحب الألطاف، كل الأشياء شجرة، وأنت الثمرة. وصور، وأنت المعنى. وصدف، وأنت الدر. ومخضة، وأنت الزُبْد. مكتوبُ اختيارِنا لك واضحُ الخطّ؛ غير أن استخراجك ضعيف. متى رمت طلبي؛ فاطلبني عندك.

ساكنٌ في القلب يعمُرُهُ لستُ أنساهُ فأذكُرُهُ

غاب عن سمعي وعن بصري فسويدا القلب تُبصره

ويحك، لو عرفت قدر نفسك؛ ما أهنتها بالمعاصي. إنما أبعدنا إبليس لأجلك؛ لأنه لم يسجد لك. فالعجب منك، كيف صالحته وهجرتنا؟!

رعى اللهُ من نهوى وإن كان ما رَعى

حفظنا لـه الـودَّ القديمَ فضيّعا

وواصلتَ قوماً كنتُ أنهاكَ عنهمُ

وحقِّك[1] ما أبقيت للصُلْحِ موضعا

يا جوهرةً بمضيعة، يا لقُطة تُداس، كم في السموات من ملك يسبح ما لهم مرتبة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦]، لا يعرفون طعم طعام. وما لهم مقام: «**ولخلوف**»[2] أنين المذنبين عندنا: أوْفَى من تسبيحهم. سبحان من اختارك على الكل، وجادل عنك الملائكة قبل وجودك: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ**﴾ [البقرة: ٣٠]. خلق سبعة أبحر، واستقرض منك دَمْعة. له ملك السموات والأرض، واستقرض منك حبّة.

المـاءُ عنـدك مبـذولٌ لوارده

وليس يرويك إلا مدمع الباكي

كانت الأمتعة المثمنة، واللآلئ النفيسة تباع بمصر: فلا ينظر إليها يوسف. فإذا جاءت أجمال صوف من كنعان؛ لم تُحلّ إلا بين يديه. «لا تسأل عن عبادي غيري».

للخفاجي:

لاحَ وعقـد الليـل مسلـوبُ ... بـرق بنـار الشوق مشبـوبُ

أسألـه عنكـم وفـي طيِّـه ... سطرٌ مـن الأحبـاب مكتوب

لو كان في قلبك محبة؛ لبان أثرها على جسدك «عجب ربنا

---

(١) هذا حلف بغير الله.

(٢) البخاري في الصوم: (١٩٠٤)، ومسلم في الصيام: (١١٥١).

من رجل ثار عن وطائه ولحافه إلى صلاته»[1]، تلمح معنى «ثار» ولم يقل: «قام»؛ لأن القيام قد يقع بفتور. فأما الثوران فلا يكون إلا بإسراع؛ حذراً من فائت.

إذا هزّنا الشوق اضطربنا لهزّه
على شعب الرحْلِ اضطرابَ الأراقم
فمن صبوات تستقيم بمائل
ومن أرْيحياتٍ تهبّ بنائم

إخواني. من ناقره الوجد؛ نافره النوم. قال سفيان الثوري: بتُّ عند الحجاج بن الفرافضة، إحدى عشرة ليلة، فما أكل وما شرب ولا نام.

أسأل عيني: كيف طعم الكرى
عُلالةً[2] وهو سؤال محال
وكيف بالنوم على الهجر لي
والنوم من شرط ليالي الوصال

★ ★ ★

(١) رواه أحمد: (١/٤١٦). وقال الهيثمي في المجمع (٢/٢٥٥): «رواه أحمد، وأبو يعلى، والطبراني في الكبير، وإسناده حسن».
(٢) العلالة: ما يُتعلل به.

الفصل الثالث والخمسون

يا طويل الأمل في قصير الأجل. يا كثير الزلل في يسير العمل. خَلا لَك الزمان، وما سددت الخلل. أفما عندك وَجَل من هجوم الأجل؟

تجهز إلى الأجداث ويحك والرمس

جهازاً من التقوى لأطولِ ما حبسِ

فإنك لا تدري إذا كنت مصبحاً

بأحسن ما ترجو لعلك لا تمسي

سأُتعبُ نفسي أو أصادف راحة

فإن هوانَ النفس أكرمُ للنفس

وأزهدُ في الدنيا فإن مقيمها

كظاعنها ما أشبه اليوم بالأمس

يا معشر الأصحاء، اغتنموا نعمتي السلامة والإمهال. واحذروا خديعتي المنى والآمال. قد جربتم على النفس تبذيرها في بضاعة العمر؛ فانتبهوا لانتهاب الباقي: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

الدنيا حلم، والموت يقظة. ويوم الحساب تفسير الأضغاث. أيام معدودة، وسيفنى العدد. وطريق صعبة على قلّة العُدد. وقد سار الركب، ولاح الجدد[1]. أترى تظن أن تبقى على الأبد؟ أما يعتبر بالوالد الولد؟ أين المتحرك في الهواء؟ همد. أين اضطرام

---

(١) الجدد: الطريق الواضح.

تلك النار؟ خمد. أين ماء الأعراض الجاري؟ جمد. تساوى في الممات الثعلب والأسد. وشارك الوهي بين الحديد والمسد. وجمع التلف عنقاء مغرب والصرد. واستقام قياسُ النقض للكّل واطّرد. أفلا ينتبه مِن رقدته مَن قد رقد؟

يا شاربين من منهل الهوى، شرب الهيم. يا جاعلين نهار الهدى كالليل البهيم. يا مقيمين على الدنس، وليس فيهم مقيم. يا سالمين من أمراض البدن، وكلهم سليم. أتعمرون ربوع النقم برتوع النعم؟! وتستبدلون بالقرآن. محرمات النغم؟! وقد توطنتم ناسين تُرُوح النزوح[1]. فلم تذكروا الممات حتي تَرُوح الروح. تالله ليعودن المستوطن في أهله غريباً، والمغتبط بفرحه مغيظاً كئيباً ﴿إِنَّهُمْ يرَوْنَهُ بعِيداً ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٦، ٧].

أين أرباب البيض والسمر، والمراكب الصفر[2] والحمر، والقباب[3] والقب الضمر؟ ما زالوا يفعلون فعل الغَمْر، إلى أن تقضّى جميعُ العمر. يا من عمره قد رحل وولّى، كأنك بك تندم وتتقلّى، والسمع والبصر للموت قد كلاّ، ويد التناول للتوبة شلا[4]. والعين تجري وَابِلاً لا طّلا، وعصافير الندم قد أنضجها القلا، وأنت تستغيث: ﴿رَبِّ ارْجِعُون﴾ [المؤمنون: ٩٩]. فيقال: ﴿كَلا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ألا كان هذا، قبل هذا؟! ألا يا ثقيل النوم، يا بطيء

---

(١) تروح: أحزان.

(٢) الصفر: في المخطوط: «الشقر».

(٣) والقباب: ليست في المخطوط. والقبب: ضمور الخصر.

(٤) شلا: شلاء.

اليقظة، يا عديم الفهم، أما ينبهك الأذان؟ أما تزعجك الحداة؟ أتُرى نخاطب عجما؟ أو نكلم صما؟ كم نُريك عيب الدنيا؟ ولكن عين الهوى عوراء. كم نكشف للبصر: قصر العمر؟ ولكن حَدَقَة الأمل حولاء.

ليس في الدنـيا سرور إنما الدنيـا غـرور
ومآتيـم إذا فكـر ت فيهـا وقبـور

يا من شاب، وما تاب، ولا أصلح. يا معرضا إلى ما يؤذي عن الأصلح. ليت شعري بعد الشباب، بماذا تفرح؟ ما أشنع الخطايا في الصِّبا، وهي في الشيب أقبح. إذا نزل الشيب، ولم يزل العيب؛ فبعيدٌ أن يبرح.

للبحتري:

وإذا تكامـل للفتـى مـن عمـره
خمسون وهو إلى التُّقى لا يجنحُ
عكفتْ عليه المخزيات فمالـه
متأخـرٌ عنهـا ولا متزحـزح
وإذا رأى الشيطـان غُـرّةَ وجهـه
حيّى وقـال: فديتُ مـن لا يُفلـح

إخواني، فتشوا أحمال الأعمال قبل الرحيل ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ [الحشر: ١٨]. يا مطلقي النواظر في محرم المنظور ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] لا يغرّنكم إمهال العصاة ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥] يا من عاهدناه من يوم ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لا تحلن

عقد العهد بأنامل الزلل؛ فما يليقُ بشرفِ قدْرك «**خيانة**»

بحرمة الود[١] الذي بيننا لا تُفسـد الأول بالآخـر

اذكر ملازمة المطالبة بالوفاء، في أضيق خناق. يا منكر ويا نكير، انزلا إلى الخارج من بساتين الأرواح، فانظرا: هل استصحب وردة من اليقين أو شوكة من الشك؟

قفوا سائلوا بَانَ العقيق: هل الهوى

على ما عهدنـا فيـه أم حـال حالـه

استنكها فمه، الذي قال به: ﴿بلى﴾ . يوم: ﴿أَلَسْتُ﴾ . هل غيّر طِيبَه طولُ رقادِ الغفلة؟ هل أنجاسُ زلله مما يدخل قليلُها تحت العفو؟ هل ثمد[٢] معرفته، في قليب[٣] قلبه، يبلغ قلتين[٤]؟ أنا مقيم له على الوفاء في كل حال. فانظر إلى حاله هل حال؟

لقيس المجنون:

ألا حبّـذا نجـد وطيب ترابـه

وأرواحـه إن كان نجد على العهد

ألا ليت شعري عن عُويْرِضَتي قبا

بطول الليالي هل تغيّرتا بعدي

وعن علويـات الريـاح إذا جـرت

بريح الخزامى هل تهبّ على نجد

المعرفة: غرس في القلب، والتذكار ماء. ومتى جفّت المياه

(١) حلف بغير الله.

(٢) الثمد: الماء القليل.

(٣) القليب: البئر.

(٤) حال: تغيّر وتحوّل.

عن الغروس؛ جفت شجرات ﴿أَلَسْتُ﴾. تُسقى من مياه: «**هل من سائل**»[١].

إذا مرضنا أتيناكم نزوركُمُ ... وتُذنبونَ فنأتيكم فنعتذرُ

العقل ما ينسى، إنما الحس مغفل. سبب النسيان أمراض من التخليط في مطاعم الهوى، عقدت بخاراً في هام الفهم. فإذا عالجها طبيب الرياضة؟ تحللت. فذكر ما نسي من عهد: ﴿أَلَسْتُ﴾.

قيل لذي النون: أين أنت من يوم: ﴿أَلَسْتُ﴾؟ قال: كأنه في أذني.

للمهيار:

سل أبرَقَ الحنّان واحبسْ به ... أين ليالينا على الأبرقِ

وكيف بانات بسقط اللوى ... ما لم يجدها الدمع لم تورق

هل حملت لا حملت بعدنا ... عنك الصبا عَرْفا لمستنشق

يا سائق الأظعان رفقا وإن ... لم يغن قولي للعسوف ارفق

لولا زفيري خلف أجمالهم ... وحرّ أنفاسي لم تنشق

سميت لي نجداً على بعدها ... يا ولَهَ المشئم بالمعرق

* * *

---

(١) جزء من حديث النزول، وقد سبق تخريجه (ص ٣٦١).

الفصل الرابع والخمسون

أيها القائم على سُوقِ الشهوات في سوق[١] الشبهات، ناسياً سَوْقَ الملمات إلى ساقي الممات. إلى كم مع الخطأ بالخطوات إلى الخطيئات؟ كم عاينت حيا فارق حيا؟ وكفاً كُفّت بالكِفَات؟

للشريف الرضي:

ما أقل اعتبارنا بالزمان … وأشد اغترارنا بالأماني

وقفاتٌ على غرورٍ وإقدا … مٌ على مَزْلقٍ من الحدثان

في حروبٍ من الردى وكأنا … اليوم في هدنةٍ مع الأزمان

وكفانا مذكرا بالمنايا … علمنا أننا من الحيوان

كلّ يوم رزيّة في فلانٍ … ووقوعٌ من الردى بفلان

قل لهذي الهوامل[٢]: استوثقي … للسير واستبدلي عن الأعطان

واستقيمي قد ضمك اللقَم النهج[٣] … وغنّى وراءك الحاديان

كم مَحيد عن الطريقِ وقد صرَّحَ … خَلْجُ البُرى وجذبُ العنان

هل مُجيرٌ بذابلٍ أو حسامٍ … أو معينٌ بساعدٍ أو بنان

قد مررنا على الديار خشوعاً … ورأينا البنا فأين الباني

أين رب السدير والحيرة البيضاء … أم أين صاحب الإيوان

والسيوف الحداد من آل بدر … والقنا الصم من بني الديان

ليس يبقى على الزمان جريء … في إباء وعاجزٌ في هوان

---

(١) سوق الأولى: جمع ساق. والثانية: السوق الذي للبيع والشراء.

(٢) الهوامل: الإبل المتروكة سُدى.

(٣) اللَّقَم النهْج: الطريق المستقيم.

يا عاصيا بالأمس، أين الالتذاذ؟ يا مطالبا بالجُرْم، أين المعاذ؟ يا مستمسكا بالدنيا؛ وحبلهاجذاذ. ما راعت من راعت من المحبين ولا الشذاذ. بل ساوت في الهلاك بين الفقير وكسرى بن قباذ. تخلَّص من أسرها؛ قبل أن يعز الإنقاذ. وقبل أن تجري دموعُ الأسى، بين وَبْلٍ ورذاذ. إذا نبذوك في القبر وانتبذوا، أي نبذ وأي انتباذ. فتذكّر ضمةً ما نجا منها سعد بن معاذ. ألا يلين القلب؟ أصخر أم فولاذ؟ تدعي العجز عن الطاعة، وفي المعاصي أستاذ. وتؤثر ما يفنى على ما يبقى، وأنت ابن بغداذ.

يا مستلباً عن أهله وماله، يا خالياً في القبر بأعماله. ليته خلاك، ما منه تخليت. ليته ولي عنك، إثم ما عنه تولّيت. واأسفا من حالة، حيلتها «ليت».

وكل غِنىً يتيه به غَنيٌّ
فمرتجعٌ بموت أو زوال
وهب جدي زوى لي الأرض طراً
أليس الموت يطوي ما زوى لي

إذا اخضرّ الربيع، ناح الهزار، وندب القمري. وأنت تعتقده غناء. إنما هو بكاء على انتظار التكدير. لا يغرنك صفو العيش؛ فالرسوب في أسفل الكاس. من لم يسمع كلام الصامت، ولم يسمع عبارة الجامد، فليس بفطن. قال أحمد بن أبي الحواري: رأيت شابا قد انحدر عن مقبرة، فقلت: من أين؟ فقال: من هذه القافلة النازلة. قلت: وإلى أين؟ قال: أتزود لألحقها. قلت: فأي

شيء قالوا لك؟ وأي شيء قلت لهم؟ قال[1] قالت: متى ترحلون؟ فقالوا: حتى تقدمون.

وكم من عبرة أصبحت فيها ... يلين لها الحديد وأنت قاس

إلى كم والمعاد إلى قريب ... تذكر بالمعاد وأنت ناس

ويحك. تلمّح عاقبتك بعين عقلك، فإنها سليمة من رمد. العقل مُحتَسِبٌ: إذا وقع بميزان الهوى كسر العلاقة.

يا صبيان التوبة، قد عرفتم شرور أعطان الهوى؛ فرحلتم طالبين ريف التقى. فحثوا مطايا الجد ﴿**وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ**﴾ [**الحجر**: ٦٥]. كلما شَرُفَ المطلوبُ طالت طريقه: الهرة تحمل خمسين يوماً، والخنزيرة أربعة أشهر، والخف والحافرة سنة، فأما الفيل فسبع سنين. عموم الشجر يحمل في عامه، والصنوبر بعد ثلاثين سنة. شرفُ النسل يُوجب القلّة: الشاة تلد واحداً أو اثنين. والخنزيرة تلد عشرين، وأم الصقر مِقْلاةٌ[2] نَزُور.

يا هذا، ينبغي أن تكون همّتك على قدرك. ولك قدر عظيم لو عرفته. إنما خُلقت الداران لأجلك؛ أما الدنيا فلتتزود، وأما الأخرى فلتتوطن. أفتراك تعرف مكانة: ﴿**فَاذْكُرُونِي**﴾ [**البقرة**: ١٥٢]، أو قيمة: ﴿**يُحِبُّهُمْ**﴾ [**المائدة**: ٥٤]، أو مرتبة: «وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً»

تشاغلتم عنا بصحبة غيرنا

---

(١) قال: زيادة من المخطوط.

(٢) هذا شطر من بيت مشهور وهو:

بغاث الطير أكثرها فراخاً ... وأم الصقر مقلاة نزور

والمقلاة النذور: القليلة الولد.

إذا صعدت الملائكة عن مجلس الذكر، قال الحق: أين كنتم؟ يقولون: عند عباد لك، يسبحونك ويمجدونك، فيقول: ما الذي طلبوا؟ ومما استعاذوا؟[(١)].

يا من يُسائل عني القادمين إذا

ما كنت بي هكذا صباً فكيف أنا

يا من كان في رفقة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦]، فصار اليوم في حزب أهل النوم.

للشريف الرضى:

يا ديارَ الأحباب كيف تغيرت ويا عهدُ ما الذي أبلاكا

هل تولى الذين عهدي بهم فيك على عهدهم وأين أولاكا

الذميل الذميل[(٢)] يا ركب إني لَضَمِينٌ أن لا تخيب سراكا

يا هذا، لا تجزع من ذنب جرى؛ فرب زلة أورثت تقويماً «لو لم تذنبوا»[(٣)].

من لم يذق مرارة الفراق لم يدر ما حلاوة التلاقي

ما لم يقع سهم في مقتل؛ فالعلاج سهل. انحناء القوس ركوع لا اعوجاج. كانت صحبة آدم للحق: أصلية، وتعبد إبليس: تكّلفا، والعرق نزاع ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، وإنما يُعالج الرمد لا الأكمه.

---

(١) جزء من حديث طويل. رواه البخاري في الدعوات: (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء: (٢٦٨٩).

(٢) الذميل: السير اللين ما كان، أو فوق العَنَق.

(٣) جزء من حديث سبق تخريجه.

تأملوا خسّة همة إبليس إذ رضي بعد القرب من السدّة بالْتقاط القمامة ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨]، إنه ليهجم على ساحة الصدر، فيأخذ في حديث الوسوسة؛ فيصيح به حراس الإيمان، من شرفات قصر: «ويسعني» فيرجع بقلب الخناس.

فضائل بني آدم خفيت على الملائكة يوم: ﴿أَنْبِئْهُم﴾ [البقرة: ٣٣]. فكيف يعرفها إبليس؟. صعد إلى السماء منا؛ إدريس وعيسى، وجال في مجالهم محمد. ونزل منهم: هاروت وماروت. وتديّر[١] عندنا إبليس. لو علم المتدير ما قد خُبِّئَ له من البلايا؛ ما سأل الإنظار[٢]. كلما غلب صاحب معصية، وجلس يَقْسِمُ في تقواه؛ صدرت عن التائب نُشَّابة[٣] ندم. فوقعت في صدر إبليس.

أَطمُّ ما على إبليس، مجلسي. ما من مجلس أعقده إلا ويقلق، لما يرى من النفع. واليوم يغشى عليه. ويله، ما علم أن الجنة إقطاعنا، وإنما أخرجنا عنها مسافرين. كُتُب دِيارنا تصل إلينا، ورسائلنا تصل إليهم. ويا قُرْبَ اللقا.

كان فتح بن شخرف يقول: قد طال شوقي إليكَ، فعجِّل قدومي عليكَ.

للمهيار:

تمـدّ بالآذان والمناخـر ... لحاجـر أنَّـى لها بحاجـر
أرض بها السائغ من شرابها ... وشوقها المكنون في الضمائر
سارت يمينا والغرام شامة ... ياسر[٤] بها يا ابن الحداة ياسر

(١) تديّر: ترأس. يقال لمن رأس أصحابه: رأس الدّيْر.
(٢) الإنظار: الإمهال. (٣) النُشّابة: النَّبْلة. (٤) ياسر: خذ يسارا.

□ الفصل الخامس والخمسون □

يا من شاب وما تاب، أمُوقنٌ أنت أم مُرتاب؟ من آمن بالسؤال؛ أعدّ الجواب.

فخذ للسير أُهبته وبادر وجوّد جمْعَ رَحْلِك للذهاب
فقد جدّ الرحيل وأنت ممن يسير على مقدمة الركاب

أما أنذرك بياضُ الشَّمَط أما يُبكيك قُبْحُ ما منك فَرَط؟ إلى متى تجري في الهوى على نمط؟ إلى متى تضيّع وقتاً مثله يُلتقط؟ لقد أحاطت بك المنون، وها أنت في الوسط. واستل التلف سيفه عليك، سريعاً واخترط. يا من يهفو وينسى، والملَك قد ضبط. يا منفقاً نعم المولى على العصيان، ما هذا الشطط. امح باعترافك، قبح اقترافك؛ وقد انكشط. وقم في الدجى، والليل قد سجى، فَرُبَّ عفوٍ هَبَط. قد نصحتك بما أسمعتك، وقد أوقعتك على النقط.

يا مغموراً بالنعيم، معدوم الشكر. كلما ألطفنا بك؛ قابلتنا بالمخالفة. إنه لأعجب من ترك الشكر: إنفاق النعم في مخالفة المنعم. هذا عود العنب: يكون يابساً طول السنة، فإذا جاء الربيع: دبّ فيه الماء، فاخضرّ، وخرج الحصرم[1]. فاذا اعتصر الناس منه ما يحتاجون إليه طول السنة، قُلِبَ في ليلةٍ خلاً. فبانقلابه يوجب للعقل الدهش من صنع صانعه، وقدرة خالقه.

(١) الحصرم: الثمر قبل النضج، وأول العنب ما دام أخضر.

فينبغي أن يفرغ العقل للتفكر. فيأخذ الجاهل العنب، فيجعله خمراً؛ فيغطي به العقال الذي ينبغي أن يَحْسِرَ عن رأسه قناع الغفلة! ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]. ويحك، قد أطعمتك إياه: حصرماً وعنبا، وزبيباً وخلا؛ فدع الخامس لي. فقد سمعت في كلامي: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١].

أيها الضال في بادية الهوى، احذر من بئر بوار، وليس في كل وقتٍ تتفق سيّارة. ليل الصبا مُرْخى السَّدفة[١]، وبخار الأماني يعقد دواخن الكسل. فانهض عن حِفْشِ الكسل[٢]، واستنطق ألسُنَ الحكم: من موضوعات المصنوعات؛ يُمل عليك كل ما في دستوره.

يا مقتولا، ماله طالب ثأر، بريد الموت مطلق الأعنة في طلبك، وما يخفيك حصن. ثوب حياتك منسوج من طاقات أنفاسك، والأنفاس تسلب. ذرات ذاتك، وحركات الزمان، قوية في النسج الضعيف. فيا سرعة التمزيق. آن الرحيل وما في مزادتك قطرة ماء، ولا في مزود عملك قبضة زاد. وقد أحلت ناقتك على ما تلقى من العشب. والجدب عام في العام. ويحك، عش ولا تغتر.

يا رابطاً مُناه بخيط الأمل؛ إنه ضعيف الفتل. صيّاد التلف. قد بثّ الصقور، وأرسل العقبان، ونصب الأشراك، وقطع الجوادَّ، فكيف السلامة؟ تهيأ لصرعة الموت. وأشد منها فلت[٣] القلب.

---

(١) السدفة: الظلمة، وسترة تكون بالباب.

(٢) الحفْش: البيت الصغير جدا، والسَّفَط، وأسقاط الآنية.

(٣) فَلَت: انفلات. والذي في المخطوط: «قلب». أي انقلابه به وتغيّره.

فليت شعري إلى ماذا يؤول الأمر:

للحارثي:

فوالله ما أدري أيغلبني الهوى

إذا جَدّ جدّ البين أم أنا غالبه

فإن أستطع أغلب وإن يغلب الهوى

فمثل الذي لاقيت يُغلب صاحبه

آه من تأوّه حينئذ لا ينفع، ومن عيون صارت كالعيون مما تدمع.

للمهيار:

ولما خلا التوديع مما حذرته ولـم يبـق إلا نظـرة تُتَغَنَّمُ

بكيت على الوادي فحرّمتُ ماءه وكيف يحـلُّ المـاءُ أكثرُه دم

نُقْلةٌ إلى غير مسكن. وسفرٌ من غير تزود. وقدوم إلى بلد ربح بلا بضاعة.

ولمـا تيقّنا النـوى لـم يَـدعْ لنـا

مسيلُ غروبِ الدمع جَفْناً ولا خدّاً

فلا صفوةٌ إلا وقـد بُدّلت قذىً

ولا راحـةٌ إلا وقـد قُلّبت كـدّاً

فوالله ما أدري وقد كنت داريا

أغوّرت الأظعان أم طلبت نجدا

ياالساعة الموت ما أشدها. تتمنى أن لو لم تكن عندها. وأعظم المحن ما يكون بعدها.

ولـم أنس موقفنـا للـوادع | وقد حان ممن أحـب الرحيـل
ولم يبق لي دمعة في الشؤون | إلا غَدتْ فـوق خـدي تسيل
فـقال نصيحٌ مـن القـوم لـي | وقـد كـاد يأتـي علـيّ الغليل
تـأنَّ بدمعـك لا تُفْنـه | فبيـن يديـك بكـاءٌ طويـل

تقسمّ الصالحون عند الموت: فمنهم من صابر هجير الخوف حتى قضى نحبه، كعمر. كان يقول عند الرحيل: الويل لعمر إن لم يُغفر له. ومنهم من أقلقه عطش الحذر، فيبرده بماء الرجاء، كبلال. كانت زوجته تقول: واحرباه. وهو يصيح: واطرباه. غداً نلقى الأحبة: محمداً وحزبه. علم بلال أن الإمام لا ينسى المؤذّن؛ فمزج كرب الموت براحة الرجاء في اللقاء.

بشّرهـا دليلُهـا وقـالا | غدا ترينَ الطلْحَ والجبالا

قال سليمان التيمي لابنه عند الموت: اقرأ عليّ أحاديث الرُّخَصِ؛ لألقى الله وأنا حسن الظن به.

إلى متى تتعب الرواحل؟ لابد من مناخ.

رِفْقاً بها يا أيها الزاجرُ | قد لاح سلْعٌ ودنا حاجر
فخلِّها تخلعُ أرْسَانَها[1] | على الرُّبى لا راعهَا ذاعر
واذكر أحاديث ليالي مِنى | لا عُدِمَ المذكورُ والذاكر

كان «أبو عبيدة الخواص» يستغيث في الأسواق، وينادي: واشوقاه، إلى من يراني ولا أراه.

جاء بها قالصةَ عن ساقِ | تحنّ والحنّـة للمشتاقِ
ما أولع الحنين بالنياق | تذكّري رمل النَّقى واشتاقي

(١) الأرسان: جمع رَسَن: وهو الحبل.

الفصل السادس والخمسون

يا من أيام عمره في حياته: معدودة، وجسمه بعد مماته: مع دودة.

رأيتك في النقصان منذ أنت في المهد
تقرّبكَ الساعاتُ من ساعة اللحدِ
ستضحك سنٌّ بعد عينٍ تعصّرتْ
عليك وإن قالت: بكيتُ من الوجْد
أتطمح أن يشجى لفقدك فاقدٌ
لعلّ سرورَ الفاقدين مع الفقد

يا من عُمره يمضي بالساعة والساعة، يا كثيرَ التفريطِ في قليل البضاعة. يا شديدَ الإسراف. يا قويَّ الإضاعة. كأنك بك عن قليل: تُرمى جوف قاعة. مسلوباً لباسَ القدرة وبأسَ الاستطاعة. وجاء منكر ونكير في أفظع الفظاعة. كأنهما أخوان في الفظاظة من لُبان الرضاعة. وأمسيتَ تجني ثمارَ هذي الزراعة. وتمنيت لو قدرت على لحظة لطاعة. وقلت: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]. ومالك كلمة مطاعة. يا متخلّفاً عن أقرانه، قد آن أن تلحق الجماعة.

يا ساهيا لاهيا عما يُراد به ... آن الرحيل وما قدّمتَ من زادِ
ترجو البقاء صحيحاً سالماً أبدا ... هيهات أنت غدا فيمن غدا غاد[1]

مركب الحياة تجري في بحر البدن، بِرُخاءِ الأنفاس. ولابد

(١) الغادي: الذاهب.

من عاصف قاصف، تفككه، وتُغرق الركاب.

حُكْم المنيَّةِ في البَرِيَّة جاري ... ما هـذه الدنيـا بـدار قـرارِ

جُبلتْ على كَدَر وأنت تُريدها ... صفواً من الأقـذاء والأكـدار

فاقضوا مآربكـم عجالاً إنمـا ... أعماركـم سفـرٌ من الأسفـار

يا لقم الآجال، يا أشباه الدجال، أما تسمعون صريف أنياب الصروف؟ كم غافل وأكفانُه عند القصّار، ولَبِنُ قبره قد ضُرِب. يا سخنة عينٍ قرّت بالغرور، يا خراب قلبٍ عمر بالمنى. العمر زاد في بادية؛ يؤخذ منه ولا يطرح فيه. يا من عمره يذوب ذوبان الثلج، توانيك أبرد. كان بعض من يبيع الثلج ينادي عليه: ارحموا من يذوب رأس ماله.

يا مؤخرا توبته حتى شاب؛ خرج[1] وقت الاختيار، يا ابن السبعين. لقد أمهل المتقاضي. البدار البدار. فنقّاضُ البدن قد عرْقَبَ[2] الأساس.

ولم يبق من أيام جمْع إلى منى ... إلى موقف التجمير غير أماني

بادر التوبة من هفواتك، قبل فواتك. فالمنايا بالنفوس فَواتِك. أعجب خلائق[3] الخلائق محسن في شبابه، فلما لاح الفجر: فجر. آه، لموسم فَاتَك. لقد ملأ الأكياسُ الأكياس[4]. رَجَلَتْ الرباحةُ[5].

---

(١) (خرج). هذه الزيادة من المخطوط.

(٢) عرقب: خرّب. من عرقبة الفرس إذا ضرب عرقوبه، وهو عصب غليظ فوق العقب.

(٣) خلائق: جمع خليقة، وهي الطبيعة، والخلائق الثانية: الخلق.

(٤) الأكياس: الأولى جمع كيّس. والثانية: جمع كِيس.

(٥) في المخطوط: (ملأ أكياس الأكياس رحلة الرّباحة).

فالْحقهم في المنزل.

وكم وقفتُ وأصحابي بمنزلة يبيتُ يقظانُها ولهان وهلانا

فهاجَنا حين حيّانا النسيم بماً سقناه يوم النقى بالجزْع أحيانا

نبكي وتسعدنا كُومُ(١) المطي فهل نحن المشوقون فيها أم مطايانا

فلا ومن فطر الأشياء ما وجدت كوجْدِنا العِيسُ بل رَقّتْ لبلوانا

يا هذا. عقلك يحثك على التوبة، وهواك يمنع، والحرب بينهما. فلو جهّزتَ جيشَ عزْمٍ؛ فرّ العدو. تنوي قيام الليل، فتنام. وتحضر المجلس، فلا تبكي. ثم تقول: ما السبب؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. عصيتَ بالنهار؛ فنمت بالليل. أكلتَ الحرام؛ فأظلم قلبك. فلما فُتح بابُ الوصول للمقبولين؛ طُردت.

ويحك. فِكْرُ القلب في المباحات يُحدث له ظلمة. فكيف في تدبير الحرام؟ إذا غيّر المسكُ الماءَ؛ منع التوضؤ. فكيف بالنجاسة؟ متى تُفيق من خُمار الهوى؟ متى تنتبه من رُقاد الغفلة؟

يا قلبُ ما أطول هـذا الغـرام يوم نوى(٢) الحي ويـوم المقام

متى تفيق اليـوم مـن لوعـةٍ وأنت نشـوانُ بغيـر المـدام(٣)

أين أنت من أقوام، كُشفْت عن أبصار بصائرهم، أغطيةُ الجهل؟ فلاحت لهم الجـادّةُ؛ فجدّوا في السلوك. كـان مسروق يصلي حتى تتـورم قدمـاه؛ فتقعد امرأتـه تبكي مما تـراه يصنع بنفسه.

---

(١) كوم: الكُومُ: القطعة من الإبل.

(٢) النوى: الفراق والبعاد.

(٣) المدام: الخمر.

أُمسي وأُصبح من تذكاركم قلقا
يرثى لي المشفقانُ الأهلُ والولدُ
قد خدّد الدمعُ خدي من تذكّركم
واعتادني المضنيانُ الشوقُ والكمدُ
وغاب عن مُقلتي نومي فنافرها
وخانني المسعدانُ الصبرُ والجلدُ
لا غرو للدمع أن تجري غوار به[1]
وتحته والخافقان القلب والكبد
كأنما مهجتي نِضْوٌ[2] ببلقعة
يعتاده الضاريان الذئب والأسد
لم يبق إلا خفي الروح من جسدي
فداؤك الباقيان الروح والجسد

يا هذا، أول الطريق سهل، ثم يأتي الحزَن، في البداءة: إنفاق البدن، وفي التوسط إنفاق النفس. فإذا نزل ضيف المحبة، تناول القلب؛ فأملق المنفق. قلقُ القوم بلا سكون. انزعاجهم بلا ثبات. خلقت جفونهم على جفاء النوم. فلو سمعت ضجيجهم في دياجي الليل.

من لقلبٍ يألفُ الفكرا ... ولعين لا تذوق كرى
ولصبٍ بالغرامِ قضى ... ما قضى من حبّكم وطَرا

(١) الغوارب: جمع غارب، وهو الكاهل، أو ما بين السنام والعنق.
(٢) النضو: المهزول من الإبل وغيرها.

أُحْصِرَ القومُ في سبيل المحبة؛ فأقعدتهم عن كل مطلوب ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

رأيتُ الحبَّ نيراناً تلظّـى قلوبُ العاشقينِ لها وَقُودُ

فلو كانت إذا احترقت تفانت ولكن كلما نَضجَتْ تعود

لاحت نارُ «ليلى» ليلا؛ فنهض المجنون، فَخَبَتْ؛ فضَلّ؛ فضَجّ.

رُدُّوا الفؤاد كما عهدتُ إلى الحشى

والمقلتْين إلى الكرى ثم اهجـروا

★ ★ ★

الفصل السابع والخمسون

إخواني ،قد كَفّت الكفّاتُ[1] في العبر، ووعظ من عبر من غبر. وقد فهم الفطن الأمر وخبر، وما عند الغافل من هذا خبر.

يا أيها الناس أين أولكم ... أما أتاكم للذاهبين خبرْ
اعتبروا فالمقدمون خلوا ... وكلهم للمؤخرين عِير
تعبر بالمصر عابراً فإذا ... سألتَ عمّن تودّ قيل عَبر
اصبر على العسر في الزمان فكم ... عسرٍ ويسرٍ أتاك ثُمّتَ مرّ
والصبر أولى بكل من صحب ... العيشَ ومن جرّب الزمانَ صبر
يرفع شأنَ الكرام فعلهم ... والفعلُ إن خالفَ الجميلَ حذر
كادت شخوصٌ في الأرض بالية ... تنطق حقا إذ المقال غدر
بالأمس كنا في الأنام فأما ... اليوم في تُرْبنا فنحن مدر

ابك على نفسك، قبل أن يُبكى عليك. وتفكر في سهم قد صُوّبَ إليك. وإذا رأيت جنازة، فاحسبها أنت. وإذا عاينت قبراً فتوهمه قبرك. وَعُدّ باقي الحياة ربحا.

لمتمم بن نويرة:

لقد لامني عند القبور على البكا
رفيقي لتذرافِ الدموعِ السوافكِ
فقال: أتبكي كلَّ قبرٍ رأيته
لقبرٍ ثوى بين اللّوى فالدكاك

---

(١) الكفات: جمع كِفة: من الميزان. بكسر الكاف، وبفتح. وكفت الكفاف: رجحت. ويجوز أن يكون الكِفات: الموت والدفن.

فقلت له: إن الشجا يبعثُ الشجا

فدعني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ[(١)]

يا بعيد التيقظ، والموت منه قريب. يا من هو عما قليل في القبور غريب. يا راكبا عجز الهوى، وفي يده جنيبٍ[(٢)]. يا ماراً على وجهه قل لي: متى تُنيب؟ ألا تأخذ قبل الفوت بعض النصيب؟ ألا تتزود ليومٍ شره شر عصيب؟ ألا تخرج عن وادي الجدب إلى الربْعِ الخصيب؟ أحاضر أنت؟ قل لي، ما أكثر ما تغيب. ألا مريضٌ لبيبٌ يقبل رأي الطبيب؟ إن الرحيل بلا عدة فجٍ[(٣)]. فكيف به على بُعْدِ الفج؟ أحرِمْ عن الحرام؛ وقدِّرْ أنه حجّ. واسكب دموع الأسى، واحسبه ثج. واستغثْ من الزلل، ومثِّله العجّ. وبادر فقد تفوت الوقفةِ[(٤)] أهل وجِّ[(٥)]. اقبل نصحي، فمثل نُصحي لا يُمجّ. كم فهم وعظي ذو فطنة؛ فهج. يا من يقول: إذا شئتُ تُبت.

اليـوم عهدكـم فأيـن الموعـدُ ... هيهات ليست ليوم عهدكم غدُ

إن خرجت اليوم ولم تتب؛ خرجت من أولي الفهم.

لأي مـرمـىً تـزجـر الأيـانقـا ... إن جاوزت نجدا فلست عاشقا

وقوع الذنب على القلب، كوقوع الدهن على الثوب: إن لم تعجِّل غسله؛ وإلا انبسط ﴿**وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ**﴾ [النساء: ٧٢].

---

(١) مالك: هو ابن نويرة، أخو متمم. وقد قتله خالد بن الوليد رضي الله عنه.

(٢) الجنيب: الفرس يساق في الرهان إلى جنب.

(٣) الفج: من الثمار ما لم ينضح، الفج الثانية: الطريق الواسع بين جبلين.

(٤) الوقفة: وقفة عرفة.

(٥) وجّ: واد في الطائف.

يدي في قائمِ العَضْبِ   فما الإبطاءُ بالضربِ

ما دامت نفسك؛ عند التوبيخ تنكسر، وعينك: وقت العتاب تدمع؛ ففي قلبك بَعْدُ حياة. إنما المعاصي أوجبت سكتة؛ فأنشقْ هواك حُرَاقَ التخويف؛ وقد عطس. يا من قد أبعدته الذنوبُ عن ديار الأُنس. ابك وطر الوطن عساك تُردّ.

قال بعض السلف: رأيت شاباً في سفح جبل، عليه آثار القلق، ودموعه تتحادر. فقلت: من أين؟ فقال: آبق من مولاه. قلت: فتعود فتعتذر؟ فقال: العذر يحتاج إلى حجة، ولا حجة للمفرط. قلت: فتتعلق بشفيع؟ قال: كل الشفعاء يخافون منه. قلت: من هو؟ قال: مولى رباني صغيراً؛ فعصيته كبيراً. فواحيائي من حسن صنعه، وقبح فعلي. ثم صاح فمات. فخرجت عجوز، فقالت: من أعان على قتل البائس الحيران؟ فقلت: أقيم عندك. أعينك عليه؟ فقالت: خله ذليلاً بين يدي قاتله؛ عساه يراه بغير مُعين؛ فيرحمه.

بالله عليك يا فتى الأعراب   إن جُزتَ على مواطن الأحباب

فاشرح سقمي وقل لهم عمّا بي   ذاك المضنى يموت بالأوصاب

أيها التائبون بألسنتهم، ولا يدرون ما تحت نطقهم. لا يحكم بإقراركم ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. متى صدقت توبة التائب؛ بنى بيت التعبد بصخور العزائم، ولم ينته في أساسه دون الماء. ما ضُرب بسيف العزيمة قط إلا قطّ. التوبة الصادقة تقلع آثار الذنوب. إذا قرئ على التائب عهد: ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ذكرَ الإقرار، وعرفَ الشهود؛ فخجل من الخيانة؛ فجرت

العين، وأطرق الرأس. إن التائبين كاتبوا الله بدموعهم، وهم ينتظرون الجواب.

يا حادي الأظعان عُجْ متوقّفا وانظر دموع العاشقين تُراقُ

صبروا على ألم التهاجر والقلى وتجرّعوا مُرَّ الفراقِ وذاقوا

يا معاشر التائبين. من أقامكم وأقعدنا؟ من قربكم وأبعدنا؟ ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

قِفوا لأجلِ زَمِنٍ[1]. ارحموا من قد عطب.

ردوا المطايا وإلا ردّها نفسي وأدمعي فهما سيلٌ ونيرانُ

يا سائق الظعن قلبي في رحالهم أمانة رعيها والحفظ إيمان

يُخيلّ لي: أن الحيطان تبكي معنا، وأن النسيم قد رقّ لحزننا.

فلا ومن فطر الأشياء ما وجدت

كوجْدِنا العيسُ بل رقّت لبلوانا

ما أحسن هؤلاء التُّواب، ما أذل وقوفهم على الباب، فاعتبروا يا أولي الألباب.

بما بيننا من حرمةٍ هل رأيتما

أرقَّ من الشكوى وأقسى من الهجر

وأفضح من عينِ المحبِّ لسرِّهِ

ولا سيما إن أطلقتْ عَبْرةً تجري

وجُوههم أضوأ من البدر، جباههم أنور من الشمس، نوْحهم أفضل من التسبيح، سكوتهم أبلغ من فصيح. لو علمت الأرض

---

(١) زَمِن: مُقعد من عاهة.

قدر خوفهم؛ تزلزت. لو سمعت الجبال ضجيجهم؛ تقلقلت.

لابن المعتز:

اسقني فاليوم نشوانُ والرُّبى صاد وريّانُ

وندامى كالنجوم سطوا بالمنى والدهرُ جذلان

خطروا والسكر ينفضهم وذيول القوم أردان[1]

كلما رأيت تقلقلهم؛ تقلقل قلبي. وإذا لمحتُ اصفرارهم؛ تبلبل لُبّي. وإذا شاهدتُ دموعَهم؛ زاد كربي. وإذا سمعت حنينهم؛ تبدد ماء عيني.

ما ناحَ في البانِ الحمامُ إلا ورنّحني الغرامُ

فكأنني ثَمِلٌ تمشّتْ في مَفَاصِله المدام

مالي وبانات اللوى لولا الصبابة والهيام

* * *

(١) أردان: جمع: رُدْن: وهو أصل الكُمّ.

الفصل الثامن والخمسون

ما زالت المنون ترمي عن أقوس[1]، حتى طاحت الجسوم والأنفس. وتبدلت النعم، بكثرة الأبؤس. واستوى في القبور الأذنابُ والأرؤس. وصار الرئيسُ كأنه قط لم يرؤس.

قُل للمفرِّط يستعدّ	ما مِنْ ورودِ الموتِ بُدّ
قد أخلقَ الدهرُ الشبابَ	ومـا مضى لا يُسترد
فإلامَ يشتغـلُ الفتـى	في لهوِهِ والأمرُ جِـد
والعمرُ يقصرُ كلَّ يومٍ	بــي وآمالــي تمــد

لقد وعظت الدنيا، فأبلغت وقالت. ولقد أخبرت برحيلها، قبل أن يقال: زالت. وما سقطت جدرانها: حتى أنذرت ومالت. قرب الاغتراب في التراب. ودنا سل السيف من القراب. كم غنت رباب برباب[2]. ثم نادت على الباب بتباب[3]. يا من زمانه الذي يمضي عليه: عليه[4].

يا طويل الأمل، وهو يرى الموتى بعينيه. يا من ذنبه: أوجب أن لا يُلتفت إليه. قد مزجت لك كأس كربة. ولابد والله من تلك الشربة. يا منقولا بعد الأنس إلى دار غربة. يا طين تربة، وهو

---

(١) أقوس: أقواس.

(٢) الرباب: السحاب الأبيض، مفرده ربابة، وبالجمع تسمى المرأة. والرباب الثانية: جمع ربابة، وهي آلة الموسيقى المعروفة.

(٣) التباب: الدمار والهلاك.

(٤) عليه: أي ليس له.

يطلب في الدنيا رتبة. هذا مجلس ابن زيد. فأين عتبة؟

أتلهو برنْد الصبا وبانِه؟ ويرُوقك برقُ الهوى بلمعانه؟ وتغتر بعيش في عنفوانه؟ فتمد يد الغفلة إلى جني أغصانه. وتنسى أنك في حريم خطره وامتحانه. أما لقمة أبيك أخرجته من مكانه؟ أما نودي عليه بالفطر في رمضانه؟ أما شأنه شَانَه[١]؟ لولا وكف شأنه[٢]. أما يُستدلّ على نار العقاب بدخانه؟ نزل آدم عن مقام المراقبة درجة، فنزل، فكان يبكي بقية عمره: ديار الوفا. بَرْدُ النفسِ بالهوى لحظة؛ أثمر حرارة القلق. ألف سنة!! فاعتبروا. سالت من عينيه عيون، استحالت من الدماء دموع، شغلته عن لذات الدنيا هموم.

للمهيار:

هل بعـد مفترق الأظعـان مجتمعُ
أم هل زمان بهم قد فات مُرتجعُ

تحمّلـوا تسعُ البيـداءُ ركبَهـم
ويحملُ القلبُ منهم فوق ما يسع

الليـل بعدهـم كالهجـر متصـلٌ
ما شاء والنومُ مثلُ الوصل منقطع

أشتـاق نعمان لا أرضى بروضته
داراً وإن طابُ مصطاف ومرتبع

كان آدم، كلما عاين الملائكة تنزل؛ تذكر المرتبع في الربع.

---

(١) شانه: عابه.

(٢) وكف شانه: قطر مجاري الدمع.

فتأخذ العين في إعانة الحزين.

رأى بارقاً من نحو نجد فراعهُ
فباتَ يسحُّ الدمعَ وَجْداً على نجدِ

هل الأعصُرُ اللاتي مضينْ يعُدْن لي
كما كُنّ لي أم لا سبيلَ إلى الردِّ

ما أمرّ البعد بعد القرب. ما أشد الهجر بعد الوصل. يا مطروداً بعد التقريب. أبلغُ الشافعين لك: البكاء.

للمتنبئ:

وكيف التْذاذي بالأصائل والضحى
إذا لم يعد النسيم الذي هبّا

ذكرتُ به وصلاً كأن لم أفز به
وعيشاً كأني كنت أقطعه وثْبا

كان لقوم جارية، فأخرجوها إلى النخاس[1]، فأقامت أياماً تبكي. ثم بعثت إلى ساداتها، تقول: بحرمة الصحبة، ردّوني فقد ألفتكم.

يا هذا قف في الدياجي. وامدد يد الذل. وقل: قد كانت لي خدمة، فعرض تفريطٌ، أوجبَ البعد. فبحرمة قديم الوصل، ردوني فقد ألفتكم.

عللونا بوصال نافع   إننا للبعد كالشيء اللقا[2]
أو خذوا أرواحنا خالصة   أو ذروا في كل جسم رمقا
وارحموا من تنقضي أيامه   غمرات والليالي أرقا
ويح قلبي ما لقلبي كلما   خفق البرقٍ اليماني خفقا

---

(١) النخّاس: بائع الرقيق.

(٢) اللَّقَى: الملُقى، أو ما طرح ونبذ.

يا هذا، لا تبرح من الباب، ولو طُردت. ولا تزل عن الجانب، ولو أُبعدت. وقل بلسان التملق: إلى من أذهب؟

يا ربْع إن وصلوا وإن صرموا
فهم الأُلى ملكوا الفؤآد هُمُ
شغلوا بحسنهم نواظرنا
وعلى القلوب بحبهم ختموا
أتبعتهم نظراً فعاد جوى
ومن الشفاء لذي الهوى سقم
تمحو دموعي وسْم[1] إبلهم
وزفير أنفاسي لها يسم

كان الحسن شديد الحزن، طويل البكاء. سئل عن حاله، فقال: أخاف أن يطرحني في النار، ولا يبالي.

يعزُّ عليَّ فراقي لكم وإن كان سهلاً عليكم يسيراً

يا من كان له قلب، فمات. يا من كانِ له وقت، ففات. استغث في بوادي القلق:

ردوا عليّ ليالي التي سلفت

احضر في السحر؛ فإنه وقت الإذن العام، واستصحب رفيق البكاء، فإنه مساعد صبور. وابعث رسائل الصعداء، فقد أُقيم لها من يتناول.

---

(١) الوسم: العلامة التي يعلم بها البعير كيّا.

للمصنف:

عَبَرت بريحكم الصَّبا سَحَراً
فارتاح قلبي المدنفُ الحرِضُ
مالــي أراك سقيمــة بهــم
يا ريح عندي لا بكِ المرض
أتبعتهــا نفســا أشيعهــا
فــإذا جــروح القلــب تنتقض
قف صاحبي إن كنتَ تُسعدني
عند الكثيب فثــمّ لــي غرض
وانشــد فـؤآدي عنـد «كاظمة»
فــي كـلٍ ركب راح يعتــرض
أشكو ومنــي مُبتــدى ألمــي
عيني رمت وفـؤآدي الغرض
فرضوا على الأجفان إذ هجروا
لا تلتقي فاصبر لما فرضوا
كيف اصطباري بعد فرقتهم
يا جِيــرَةٌ مــا عنهـم عوض

* * *

الفصل التاسع والخمسون

يا من سيّب قلبه في مراعى الهوى، وألقى حبله على الغارب. ستعلم من يطول نُشدانه للضلاّل؟

للمهيار

دع ملامي بالحمى أو رُحْ ودعني
واقفاً أطلب قلباً ضاع مني
ما سألت الدار أبغي رجعها
رب مسئول سواها لم يجبني
أنا يا دار أخو وحْشِ الفلا
فيك من خان فعزمي لم يخني
ولئن غال مغانيك البلى
عادة الدهر فشخص منك يغني
إن خَبتْ نار فهذي كبدي
أو جفا الغيثُ فهذا لك جفني

أكثر فساد القلب من تخليط العين. ما دام باب العين موثقاً بالغض، فالقلب سليم من آفة، فإذا فتح الباب طار طائر، وربما لم يعد. يا متصرفين في إطلاق الأبصار، جاء توقيع العزل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور. والقلب كعبة: «ويسعني» وما يرضى المعبودُ بمزاحمة الأصنام.

عيناي أعانتا على سفك دمي
يا لـذةَ لحظةٍ أطالتْ ألمي
كم أندم حين ليس يغني ندمي
ويلي ثبت الهوى وزلّت قدمي

يا مطلقاً طرفه، لقد عقلك. يا مرسلا سبع فمه، لقد أكلك. يا مشغولا بالهوى، مهلاً قتلك، بادر رمقك، فقد رمقك[1] بالرحمة من عذلك[2].

عثرت يوم العذيب فاستقل[3]
مـا كلُّ سـاعٍ يُحسُّ بالـزلل
ما سلمت قبلك القلـوب على
الحسن ولا الراجمون بالمقل
سافـــر طَرْفي يـــوم الظعائن
بالسفح وآب الفوآد بالخـبل
نظـــرةُ غـــرٍّ جَنَـــتْ مقارعةً
يفتـك فيهـا الجبـانُ بالبطـلِ
حصلت منهـا علـى جراحتهـا
واستأثـــر الظاعنـون بالنفـــل

إذا لاحت للتائب نظرة لا تحل، فامتدت عين الهوى،

---

(١) رمقك: الأولى: النفس الأخير، والثانية: نظر إليك ولاحظ.
(٢) عذلك: لامك وأنّبك.
(٣) استقل: اطلب الإقالة والعذر.

فزلزلت أرض التقى، ونهض معمار الإيمان: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]؛ لاحت نظرة لبعض التائبين؛ فصاح.

حلفت بدينِ الحب[1] لا خُنْتُ عهدكم

وتلك يمينٌ لـو علمت غمـوس

إذا خيّم سلطانُ المعرفةِ، بقاعِ القلب؛ بث جنده في بقاع البدن، فصارت السباخ رياض الرياضة.

ساكنٌ فـي القلب يعمـره

إذا نزل الحبيب ديار القلب، لم يبق فيه نزالة.

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم

وكان بذكر الخلق يلهو ويمرحُ

فلما دعا قلبي هواك أجابه

فلست أراه عن فنائك يبرح

رُميت ببعد منك إن كُنتُ كاذباً

وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح

فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل

فلست أرى قلبي لغيرك يصلُح

أول منازل القوم: «عزفت نفسي عن الدنيا».

وأوسطها: «لو كشف الغطاء».

ونهايتها: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه».

---

(١) سبق التنبيه مراراً إلى أن الحلف بغير الله لا يجوز.

وما تطابقت الأجفانُ على سِنَة
إلا وجدتك بين الجفن والحدقِ
وهل ينام حزينٌ موجَعٌ قلِقٌ
أجفانه وُكّلتْ بالسهْدِ والأرق
شغلت نفسي عن الدنيا ولذتها
فأنت والروح شيء غير مفترق
فَلِمْ تعذبها بالصد يا أملي
ارْحَمْ بقيَّة ما فيها من الرمق

أرواح المحبين، خرجت بالرياضة من أبدان العادات، وهي في حواصل طير الشوق، ترفرف على أطلال الوجد، وتسرح في رياض الأنس. عند المحبين شغل عن الجنة، فكيف يلتفتون إلى الدنيا؟ ما ترى عين المحبين إلا المحبوب. «في يسمع وبي يبصر»:

أنت عينُ العينِ إنْ نظرتْ ولسان الذكـر إن ذكـراً
أنت سمعي إن سمعت به أنت سرُّ السـرِّ إن خطـرا
ما بقي لـي فيك جـارحـة كلهـا يـا قاتلـي أسـرا

باتت قلوبهم يقلقها الوجد. فأصبحت دموعهم يسترها الجفن. فإذا سمعوا ناطقاً يهتف بذكر الحبيب؛ أخذ جزْرُ الدمع في المد. من أقلقه الخوف، كيف يسكن؟ من أنطقه الحب، كيف يسكت؟ من آلمه البعد، كيف يصبر؟ سل عنهم الليل، فعنده الخبر. أتدري كيف مرّ عليهم؟ أبلغك ما جرى لهم؟

أيعلمُ سَالٍ كيف باتت المتيّمُ

افترشوا بساط قيس، وباتّوا بليل النابغة[١]، إن ناحوا فأشجى من متمم[٢]. وإن ندبوا فأفصح من خنساء. اجتمعت أحزاب الأحزان على قلب الخائف، فرمت كَبْدَاءُ[٣] الخوف الكبد. فوصل نصل القلق، فقلق حبة القلب، فانقلب. فصاح الوجد: من شاء اقتطع. فلو رأيت فعل النهاية؛ لرحمت المتمزق.

للمهيار:

أيها الرامي وما أجرى دما لا تجنّب قد أصبت الغرضا

اطلبوا للعين في أثنائه نظرة تكحلها أو غمضا

طال حبس المحبين في الدنيا عن الحبيب؛ فضجت ألسُنُ الشوق. فلو تيقظت في الدجى؛ سمعت أصوات أهل الحبوس:

للمصنف:

طال ليلي وداما ومنعت المناما

وجَدَ الوجْدُ عندي منذ بانوا مقاما

ليتهم حين راحوا ودعوا مستهاما

سار قلبي وجسمي لم يسر بل أقاما

لست أدري فؤادي إذ غدوا أين هاما

حبهم قُوتُ قلبي منذ كنت غلاما

---

(١) ليل النابغة يضرب به المثل في الشدة. وذلك في قصيدته التي يقول فيها:

فبتُّ كأنّ العائدات فرشن لي هراسا به يُعلى فراشي ويُقَشَبُ

(٢) متمم بن نويرة في رثائه لأخيه مالك.

(٣) الكَبْداء: القوس يملأ الكف مقبضها.

حمّلوا ضعف قلبي يذبــلا وشمامــا
كـم رمونـي برشْقٍ وأحــدّوا سهامــا
مــا لعينـي تبْكـي إن سمعـتُ حمَامــا
كلمــا نــاح رشت فظننــت الغمامــا
هــل نسيــم لكربي أيـن ريحُ الخزامـى
هجركم يــا حبيبي كــان موتـا زؤاما
أكـل اللحــم مني ثــم أبلـى العظاما
صــار ليلـي نهــارا ونهــاري ظلامــا
إنمــا بــتُّ أشكــو لوعتــي والغرامــا
فاعـذروا أو فلومـوا ما أبالي الملاما
افرجوا عـن طريقي قــد خلعتُ اللجاما
ورميــتُ سلاحــي وكشفــتُ اللثامــا
أسعدونــي فإنـــي قـــد فنيت سقاما

★ ★ ★

◘ الفصل الستون ◘

إخواني، تفكروا في الذين رحلوا، أين نزلوا؟ وتذكروا أن القوم نوقشوا، وسئلوا. واعلموا أنكم كما تعذلون، عذلوا. ولقد ودوا بعد الفوات لو قُبِلوا.

لأبي العتاهية:

سألتُ الدار تُخبرني ... عن الأحباب ما فعلوا

فقالت لي: أناخ القوم ... أياما وقد رحلوا

فقلت: فأين أطلبهم ... وأيُّ منازل نزلوا

فقالت: بالقبور وقد ... لقوا والله ما فعلوا

أناسٌ غرّهم أملٌ ... فبادرهم به الأجل

فنوا وبقي على الأيام ... ما قالوا وما عملوا

وأُثبتَ في صحائفهم ... قبيحُ الفعلِ والزلل

فلا يُستعتبون ولا ... لهم ملْجاً ولا حيل

ندامى في قبورهم ... وما يغني وقد حصلوا

أين من كانت الألسن تهذي بهم؟ لتهذيبهم. وأصبحت فُلْك الاختبار تجري بهم، لتجريبهم. أقام قيامتهم، منادي الرحيل، لتغري بهم، لتغريبهم. فباتوا في القبور وحدانا، لا أنيس لغريبهم. أين أهل الوداد الصافي في التصافي؟ أين الفصيح الذي إن شاء أنشأ في القوافي القول الشافي؟ أين قصورهم التي تضمنتها مدائِح الشعراء؟ صار ذكر القوافي في القوافي. لقد نادى الموتُ أهل

العوالي، والقصور العوالي الطوافي: تأهبوا لقدومي. فكم غرثان[١] طوي في طوافي. رحل ذو المال وما أوصى في تفريق كدرٍ أو صافي. ولقي في مَرِّه أمراً مُرّاً، لا تبلغه أوصافي. ذاقوا طعام الآمَال، فانتُزِع من أفواههم يوم المآل، وعاد الخوى في الخوافي[٢]. عوى في ديارهم ذئب السقام بتكذيب العوافي[٣].

انقطعت آمالهم، وصار كل المنى في دفع المنافي. تزلزل وُدُّ أحبابهم التْوى، وبث التوى في التوافي. تالله لقد نال الدود والبلى. ما أرادا منهم. وألفيا في الفيافي. آلت قبورهم إلى الخراب أو لا، فلا يُدري أهذا قبر المولي أو لا؟ وهم سواء في السوافي[٤].

كم أعرضوا عن نصيح، ورفعوا ما قد تلا في التلافي. كم ندموا على ضياع زمانهم؟ الذي خلا في خلافي. كم رأيت عاصيهم قد أعرض عني إلى عدوي، والتجا في التجافي. أما أخبرتهم بوصف النار؟ أنها: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦]، في الشوافي؟ فاعتبر بحالهم فإنه يكف كفَّ الهوى، وهو الواعظ الكافي.

أين الأبصار الحدائد قبل إحضار الشدائد؟ أما استُلبت القلائد من ترائب الولائد؟ لابد من إزعاج هذا الراقد، فيقع الفراق بين فريق الفراقد[٥]. يا موثقا في حبالة الصائد. والله ما كذبك الرائد.

---

(١) غرثان: جوعان.

(٢) الخوافي: ريشات إذا ضمّ الطائر جناحيه خفيت.

(٣) العوافي: الطيور. وكل طالب رزق. المفرد: عافي.

(٤) السوافي: الرياح.

(٥) الفراقد: جمع فرقد، وهو ولد البقرة الوحشية.

يا عمي البصيرة ولا قائد. كم أضربُ في حديد بارد؟!

أليْلى وكلٌ أصبح ابن ملوّحٍ ولُبْنى وما فينا سوى ابن ذريح

ذهبت أعماركم في طِلابِ الشهوة، والموت قد دنا فما هذه السهوة؟ والقلوب غافلة فالإم القسوة؟ والصلح معرض فحتّام الجفوة؟ أين ربُّ المال؟ أين ذو الثروة؟ أما فَرَسَ الموتُ ذا الفرس، وأخلى الصهوة؟ طوبى للمتيقظين إنهم لقدوة. علموا عيب الدنيا، فما أمسكوا عُروة. وأنت في حبها، كقيس وعروة. أيحسن بعد الشيب لهوٌ وصبوة. أأبقى نأيُ الزمانِ طيبَ ناي وقهوة؟ قربت نوق الرحيل، مساءً أو غدوة. جذبت أيدي المنون، كرها وعنوة. يا قليل التدبير ولا عقول النسوة. إلى كم عيب وعتب؟ أما فيكم نخوة؟

واعجباً، لتاجر يرضى بتعب شهر، ليتمتع بربحه سنة، فكيف لا يصبر أيام عمره القليلة؟ ليلتذ بربحها أبداً؟ يا من يروح ويغدو في طلب الأرباح. ويحك، اربح نفسك.

يا أطفال الهوى، طال مكثكم في مكتب التعليم، فهل فيكم من أنجب؟ اقرؤوا أدلّة التوحيد من ألواح أشباحكم. وتلقفوها من أنفاس أرواحكم؛ قبل أن يستلبَ الموتُ، من أيدي اللاهين، ألواحَ الصور. ويمحو سطور التركيب بكف البلى، وما فهم المكتوب بعد. كم يلبث مصباح الحياة على نكباء النكبات؟ من رأى بعين فكره معاولَ النقض في هذا المنزل؛ ناح على السكان.

يا هذا، مشكاة بدنك في مهابِّ قواصفِ الهلاك، وزجاجة

نفسك في معرض الانكسار. فاغتنم زمان الصفو، فأيام الوصل قصار. كم يلبث قنديلُ الحياةِ على عواصفِ الآفات؟ أنفاسُ الحي خُطاه إلى أجله. درجات الفضائل كثيرة المراقي، وفي الأقدام ضعف، وفي الزمان قصر. فمتى تُنال الغاية؟

وقف قومٌ على راهب فقالوا: إنا سائلوك، أفمجيبنا أنت؟ قال: سلوا ولا تكثروا، فإن النهار لن يرجع، والعمر لن يعود، والطالب حثيث في طلبه ذو اجتهاد. قالوا: فأوصنا. قال: تزودوا على قدر سفركم. فإن خير الزاد ما أبلغ البغية.

إخواني، الأيام صحائف الأعمار؛ فخلدوها أحسن الأعمال. الفرصُ تمرّ مرّ السحاب. والتواني من أخلاق الخوالف. من استوطأ مركب العجز، عثر به. تزوج التواني بالكسل؛ فولد بينهما الخسران.

كان عمر وعائشة يَسْرِدانِ الصوم. وسرد أبو طلحة أربعين سنة. وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة، وقام ليلها. وكان عامر بن عبدالله يصلي كل يوم ألف ركعة. وختم أبو بكر بن عياش في زاوية بيته ثماني عشر ألف ختمة. وكان لكهمس في كل شهر تسعون ختمة، وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة.

صافَحوا النجْمَ على بُعْدِ المنازلِ
واستطابوا القَيْظَ من بَرْدِ الظلالِ
واستذلّوا الوعر من أخطارها
إنما الأخطارُ أثمان المعالي

ركبـوا الضـرَّ إليهـا ربمـا
صحّتْ الأجسامُ يوماً بالهزال
وجَرُوا يومـاً إلـى غاياتهـا
بالعوالي السمر والقب العوالي[1]

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضرّ ويصفرّ. وكان ابن أدهم كأنه سُفُّودٌ من العبادة. وكانت «رابعة» كأنها شنٌّ بال. ومات حسان بن أبي سنان، فكان على المغتسل كالخيط. وكان محمد ابن النضر لو كُشط جميعُ لحمه؛ لم يبلغ رطلا.

جزى اللهُ المسير إليه خيراً وإن تـرك المطايا كالمزاد

أكبر دليل على الحب؛ نحول الجسم، واصفرار اللون.

للحارثي:

سلبتَ عظامـي كلَّهـا فتركتُها
مجرّدةً تَضْحى لديك وتخصر[2]
أخليتهـا مـن مُخِّها فكأنهـا
أنابيبُ في أجوافها الريحُ تصفر
إذا سمعتْ باسم الحبيب تقعقعتْ
مفاصِلُها من خـوف مـا تنتظـر
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب تنظري
ضنى جسـدي لكننـي أتسـر

(١) العوالي السمر: نوع من الرماح. والقب العوالي: القاطع من السيوف.
(٢) تخصر: تدق وتضعف.

وليس الذي يجري من العين ماؤها

ولكنهـا روح تـذوب فتقـطر

قال الجنيد: دخلت على سري السقطي، فمد جلدة ذراعه - وقد يبست على العظم - فما امتدت. فقال: والله لو شئت أن أقول: هذا من محبته، لقلت.

وهواك ما أبقى هواك علي فيك ولا ترك

أيلومني فيـك الـذي يُزري علي ولم يرك

رفقا بعبدك سيدي هذا عُبَيْدك قد هلك

* * *

الفصل الحادي والستون

يا من أيامه تعظه، حين تبنيه وتنقضه. يا من صحته تمرضه، وسلامته تحرضه، يُقرض عمره فيفنى، ومن يُقرضه:

أرى الدهر أغنى خطْبهُ عن خطابه
بوعـظ شفـى ألبابَنَـا بِلُبابِـه

له قُلُبٌ[1] تهدي القلوب صواديا[2]
إليها وتُعمي عن وشيك انقلابه

هـو الليثُ إلا أنـه وهـو خـادر
سطا فأغابَ الليثَ عن أُنْس غابه

وهيهات لم تسلم حلاوة شهده
لصاب[3] إليه من مرارة صابه[4]

مُبِـدٌ مباديـه[5] تغُـرُّ وإنمـاً
عواقبـه مختومـة بعقابـه

ألم تر من ساس الممالك قادراً
وسارتْ ملوكُ الأرض تحت ركابه

ودانتْ له الدنيا وكادت تُحلّه
على شُهْبها لو لا خمود شهابه

---

(١) قُلُب: جمع: قليب، وهو البئر.

(٢) صوادي: جمع صادي، وهو العطشان.

(٣) صاب: مائل.

(٤) الصابَ: شجر المرّ.

(٥) مباديه: بداياته.

لقـد أسلمتـه حصنـه وحصونه
غداة غدا عن كسبه باكتسابه
فلا فضةٌ أنجته عند انفضاضه
ولا ذهبٌ أغناه عند ذهابه
سلاَ شخْصَهُ وُرَّاثُه بتُراثه
وأفَرَدَهُ أترابُهُ بترابه

كم دارس أعلمك: أن الربْع دارس. كم واعظ ناطق وآخر هامس؟ كم غمستَ حبيباً في الثرى كفُّ رامس؟ كم طمس وجهاً صبيحاً من البلى طامس؟ تالله ما نجا بطبه بقراط، ولا أرسطاطالس. صاح الموت بالقوم؛ فنكس الفارس. أين الفطن اللبيب؟ أين اليقظ القائس؟ أتشتري أخس الخسائس بأنفس النفائس؟ أتؤثر لذة لحظة تجني حرب البسوس وداحس؟ يا مقترين من التقى، بل يا مفالس. يا منهمكين في الخطايا، ما تنفع الملابس. اشتروا نفوسكم عن الذنوب، تشتروا لها السنادس.

إخواني، لو ذكرتم أنكم تبادون؛ ما كنتم بالمعاصي تبادون[1]. لقد صوّت فيكم الحادون. وما كأنكم للخير ترادون.

واعجبا، تصطادون المواعظ، ولا تُصادون. إلى متى تراوحون الذنوب وتغادون؟ يا مقيمين وهم حقاً غادون. أتعادون من يقول: إنكم تعادون[2]؟ كأنكم بكم تقادون إلى مقام فيه تقادون[3]. أما

(١) تبادون: الأولى: من الإبادة أي الموت، والثانية: تجاهرون.

(٢) تعادون: الأولى: من المعاداة، والثانية: من الإعادة.

(٣) تقادون: الأولى: تساقون، والثانية: من القود والقصاص.

سمعتم كيف نادى المنادون؟ كل شيء دون المنى دون.

يـا نائم الليـل تنبّهْ للتقـى   وانهضْ فقد طال بك القعود

بيــن يديــك حــادثٌ لمثله   يغسل عــن أجفانــه الرقــود

ما جحد الصامتُ من أنشأه   ومن ذوي النطق أتى الحجود

الدهر خطيب كاف، والفكر طبيب شاف. كم قُطع زرعٌ قبل التمام؟ فما ظنُّ المستحصد؟ من عرف الستين أنكر نفسه. من بلغ السبعين اختلفت إليه رُسُلُ المنيّة. عواري الزمان في ضمان الارتجاع. «يوسف» العقل ينظر في العواقب. و «زليخا» الهوى تتلمّح العاجل.

يا مقدمين على الحرام. أنتم بعين من حرّم. ينبغي لمن أُلبس ثوب العافية؛ أن لا يدنسه بوسخ الزلل. زرع النعم مفتقر إلى دوران دولاب الشكر. فإذا فتح القلب، سُكْرَ الاعتراف بالعجز؛ صار السقي سبحا. هذا اليوم يقول: ارضني، وعليَّ رضا أمس. السكون بالبلادة أصعب من التحريك بالهوى، إذا رآك عقلُكَ، وقد تولى حسُّك تدبيركَ؛ تولّى. ويحك، لا تأمن حسك على عقلك؛ فإنه عكس الحكمة. العقل نور، والحس ظلمة. الحس أعشى، والعقل عين الهدهد. الحس طفل، والعقل بالغ. العقل يدخل في المضائق، والحس أبله. الحس لا يرى إلا الحاضر، والعقل يتلمّح الآخر. الصبر عين الأغراض صبر، غير أن الحازم يجعل مراقبة العواقب تقوية. ما خلا قط وجهُ سرورٍ من تعبّسِ مكروه. ولا سلمت كأس لذة من شائبة نغصة.

للمتنبئ:

فذي الدار أخونُ من مُومِسٍ ... وأخدع من كفة الحابل
تفانى الرجالُ على حبِّهَا ... وما يحصلون على طائل

كل صاف من الدنيا مقرون بكدر، حتى إنه في الغيث عَيْث. أتريد أن لا ينعكس لك غرض؟ فما هذا موضعه. الهِبَات ذَاهِبَات. والليالي مناهبات. الدنيا قنطرة، واستيطان القناطير بله.

هل نجْدُ إلا منزلٌ مفارَقٌ ... ووطنٌ في غيرهُ يقضى الوطر

الهم فيها أكثر من الفرح، والسرور أقل من الحزن ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

يا مجتهدا في طلب الدنيا، اجعل عُشْر اجتهادك للأخرى. جُهِّزَتْ البناتُ، وتزوجت البنين. فأنت بماذا تجهزت للرحيل؟ يا متقاعدا عن أوامر الرب، احذر أن يقعدك عن نهضاتك تزمن[1].

واعجبا: إن حُرِّكتَ إلى الطاعة، فَزُحَل. وإن لاح لك الهوى، فعُطارِد. عينك، قد استرقّها المنظور، ولسانك يتصرف فيه اللغو، ويدك يحركها الزلل، وخُطى أقدامك إلى الخطأ. ثم قد أسكنت الهوى قلبَك. فأين يكون الملك؟ «وهل ترك لنا عقيل من منزل»[2].

ويحك: إن الإنسان يشدّ في أصبعه خيطاً يتذكر به حاجته. وهل في جسدك عرق أو شعرة إلا وهي تُذكرّ بالخالق؟ فما وجه هذا النسيان البارد؟ يا من باعنا نفسه، ثم ماطل بالتسليم! لا أنت

---

(١) تزمن: عاهة مقعدة.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في الحج: (١٥٨٨)، ومسلم في الحج: (١٣٥١).

ممن يفسخ العقد، ولا ممن يمضي البيع. تدّعي الرحلة إلى دار الحبيب، ودهليز سرادقك إلى بلد الهوى، هيهات. لا يدرك علم الربانية إلا من ربّى نيّة.

للمهيار:

يا قلبُ ما أنت وأهلُ الحمى وإنما هم أُمْسُكَ الذاهبُ
ودون نجد وظباء الحمى أن يقْرح المنسم والغاربُ

لابد في سلوك الطريق من مصابرة رفيق البلاء، وله خلق صعب؛ فاصبر على مداراته. البلايا ضيوف، فأحسن قِرَاها[1]؛ لترحل عنك إلى بلد الجزاء؛ مادحة لا قادحة. من حكّ بأظفار شكواه جلْدَ عيْشِه، أدمى دينَه. البلاءُ ظلمة غبش، ويا سرعة طلوع الفجر.

اللهم أعِن أطفالَ التوبةِ على ما ابتُلوا به من جوعٍ شديد، فإذا أُعدَّ قُرْصُ الإفطار: نزل ضيف: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ [الحشر: ٩] فزاحم. فأراح ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا﴾ [العنكبوت: ٢].

إن هواك الذي بقلبي صيّرني سامعاً مطيعا
أخذت قلبي وغمضَ عيني سلبتني النومَ والهجوعا
فذر فؤادي وخُذْ رقادي فقال: لا بل هما جميعا

فإذا تمكنت قدمُ المريد، وطاب له ارتضاعُ ثدي الوصال؛ قطع عنه في أهنأ ما كان يراد منه، زيادةُ القلق. في الحديث: يوحي الله تعالى إلى جبريل عليه السلام: اسلب عبدي حلاوة

---

(١) القِرى: ما يقدم للأضياف.

مناجاتي؛ فإن تضرّع إلي، فردّها. فلو سمعت استغاثة المحبين؛ لأورثتك القلق.

على بُعْدِك لا يصبر من عادتُه القُرْبُ
ولا يقوى على حجبك من تيّمهُ الحبُّ
فمهلا أيها الساقي فقد أسكرني الشرب
فإن لم ترك العينُ فقد يشهدك القلب

★ ★ ★

الفصل الثاني والستون

يا من قد غلبته نفسُه، وبطش بعقله حِسُّه. استدرك صبابة[١] اليقظة، وصح في سمع قلبك بموعظة.

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا
واعصي الهوى فالهوى ما زال فتّانا

أما تُرينا المنايا كيف تلقطنا
لقطا وتلحق أُخرانا بأولانا

في كل يوم لنا ميْتٌ نُشيّعه
نرى بمصرعه آثار موتانا

يا نفس مالي وللأموال أتركها
خلفي وأخرج من دنياي عُريانا

أبعد خمسين قد قضّيتها لَعِباً
قد آن أن تقصري قد آن قد آنا

ما بالنا نتعامى عن مصائرنا
ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا

نزدادُ حِرصاً وهذا الدهرُ يزجُرنا
كأن زاجرَنا بالحرص أغرانا

أين الملوكُ وأبناء الملوك ومن
كانت تخرُّ له الأذقانُ إذعانا

---

(١) الصُّبابة: ما تبقى من الشراب.

صاحتْ بهم حادثاتُ الدهرِ فانقلبوا
مستبدلين من الأوطان أوطانا
خلوا مدائن كان العزُّ مفرشها
واستفرشوا حُفَرا غُبْراً وقيعانا
يا راكضاً في ميادين الهوى مَرِحاً
ورافلاً في ثياب الغيِّ نشوانا
مضى الزمان وولى العمر في لعبٍ
يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا

أين الزاد يا مسافر؟ أين درع التقوى يا سافر؟ لقد أنشب الموت فيك الأظافر، ولا تشكن أنه ظافر. هذه النبل، فأين المغَافِر[1]؟ كيف تصنعُ إن غضب الغافر؟ يا مبارزاً بالقبيح. أمؤمن أنت أم كافر؟ إن قمت سدلت من ثياب كبرك، وإن أقمت سدرت من شراب خمرك. اصطفقت أبواب المواعظ، وما استفقت.

تقف في الصلاة بغير خضوع. وتقرأ التخويف وما ثَمّ خشوع. يا نائماً عن صلاحه كم هذا الهجوع؟ يا دائم الحضور عندنا هل عمرك إلا أسبوع؟ إن لنجم الحياة لأفول. ولشمس الممات لطلوع. أين أبوك؟ أين جدّك؟ السيف قطوع. كيف تبقى مع كسْرِ الأصولِ ضِعافُ الفروع؟ تعلق الدنيا بقلبك، وتعتذر بلفظ مصنوع. إصرارك كالصحيحين، وإقلاعك حديث موضوع.

---

(١) المغافر: جمع مِغْفر، وهو زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح.

مزق أملك؛ فالعمر قصير. حقق عملك؛ فالناقد بصير. زد زاد سفرك؛ فالطريق بعيد. ردد نظر فكرك؛ فالحساب شديد، صِحْ بالقلب؛ لعله يرعوي. سلمه إلى الرائض؛ عساه يستوي. يا مؤثر البطالة، عالم الهوى دنس. عاشق الهوى جامد الفكر؛ فلو ذاب ما ذاب.

سهرُ العيون لغيرِ وجهك ضائعُ

وبكاؤهن لغير وصلك باطلُ

يا هذا. وجِّه ناقتك إلى بادية الزيارة؛ فإن لها بنسيم نجد معرفة. قفها على الجادة؛ وقد هب لها نسيم الشيح من الحجاز. فإن أعوزك في الطريق ماء؛ فتمم مزادتك بالبكاء:

لعلي بن أفلح:

دَعْها لك الخيرُ وما بدا لها	**من الحنين ناشطا عقالها**
ولا تعللها بجوٍّ بابلٍ	**فهو أهاج بالجوى بلبالها**
ولا تعقها عن عقيق رامةً	**فإنها ذاكراه قد أمالها**
نشدتك الله إذا جئت الربى	**فَرِدْ أضاها واستظلَّ ضالها**
وناوح الوُرْق بشجو ثاكل	**أطفى[1] لها ريب الردى أطفالها**

بكى «آدم» في طريق ابتلائه ثلاثمائة سنة. وعام «نوح» في دمعه ثلاثمائة عام. وضج «داود» من دائه حتى ذوى. كان كلما هاج حر الحزن، هاج نبات الفرج، فحالت الحال دمعا. فأجدب البصر. وأعشب الوادي. فلو وزنت دموعه، بدموع الخلائق: رجحت.

(١) أطفى: أمات.

للشريف الرضي:

عندي من الدمع ما لو أن وارده
مطي قومك يوم الجزع ما نُزحا
غادرن أسوان[1] ممطورا بعبرته
ينحو مع البارق العلوي أين نحا
هل تبلغنهم النفس التي تلفت
فيهم شعاعاً أو القلب الذي قرحا
إن هان سفْحُ دمي بالبين عندهم
فواجب أن يهون الدمع إن سفحا

كان يحيى بن زكريا يبكي حتى رقّ جلده، وبدت أضراسه. هذا وقد كان على الجادة، فكيف بمن ضل؟ واعجبا من بكائه، وما ثم مأثم. فكيف بمن ما انقضى يوم إلا ومأتمٌ ما تمَّ؟ يا هذا إن كان قد أصابك داء داود[2]؛ فَنُح نَوْح نُوح؛ تَحْيى حياة يحيى.

لا تحسبن ماء العيون فإنه ... لك يا لديغ هواهم درياقُ
شنوا الإغارة في القلوب بأسهم ... لا يرتجى لأسيرها إطلاق
واستعذبوا ماء الجفون فعذبوا الـ ... أسراء حتى درّت الآماق

كان عمر بن عبدالعزيز وفتح الموصلي، يبكيان الدم. وقليل في جنب ما نطق به لسان الوعيد. إذا خلا الفكر باليقين؛ ثارت عجاجة الدمع. فإذا أقرح الحزنُ القلب؛ استحالت الدموع دما.

---

(١) أسوان: الحزين المنفرد.

(٢) سبق التنبيه إلى أن ما قيل عن معصية «داود» عليه السلام باطل من الإسرائيليات.

للمهيار:

أجارتنا بالغورِ والركبُ مُتْهِمُ
أيعلم خالٍ كيف بات المتيّم

تناءيتـم من ظاعنين وخلفـوا
قلوبا أبت أن تعرف الصبر عنهم

ولما انجلى التوديع عما حذرته
ولـم يبـق إلا نظـرة تتغنـم

بكيت على الوادي فحرّمتُ ماءه
وكيف يحـلُّ المـاءُ أكثـره دم

واعجباً، أُطارحكم حديث العذيب. وأنتم من وراء النهر.

يا منقطعين عن الأحباب، تعالوا نمشي رفقة، فمجمعنا مأتم الأسى، موعدنا مقابر الأسف.

تعالين نعالج زفرة البيـــن تعالينـــا
نزود أُذنا شكوى وتودع نظـرة عينـا
ونبكي من يد البين عسانا نعطف البينـا
فما زاد النوى إلا لجاجـا مـا تباكينـا
إلى أين أما تعلم يـا سائقهـا الأينـا
إذا عرّست بالجرعاء وسطـا بيـن مـا بينـا
فحيّى الله يَبْرِينَ[1] وعيـن الرمـل حيينـا

★ ★ ★

(١) يبرين: موضع.

الفصل الثالث والستون

يا هذا، عاتب نفسك على تفريطها، ثم حاسبها على تخليطها. حدثها بما بين يدها، وأخبرها، أشر عليها بمصلحتها ودبِّرها.

استعدي للموت يا نفس واسعي
لنجـاة فالحـازم المستعـدُّ
قـد تَبَيّنتِ أنـه ليس للحي
خلـودٌ ولا مـن المـوت بُـدّ
أي ملك في الأرض أو أي حظ
لامرئ حظه من الأرض لحد
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيام
عليـه الأنفـاسُ فيها تُعـدّ

آه لنفوس بغرور هذه الدنيا يُخدعن؛ فإذا فاتهن شيء من فانٍ توجعن. شربن من مياه الغفلة وتجرعن. فلما بانت حبّة الفخ أسرعن. فما انجلت ساعة التفريط حتى وقعن. أما علمن أنهن يحصدن ما يزرعن؟ أما تيقن أنهن في هلاكهن يشرعن؟ يا قلة ما تنعمن. ويا احتقار ما تمتعن. أما هن عن قليلٍ في اللحد يضجعن؟ أين تلك الأقدام المشيعة لهن؟ تصدعن. بئس حافظ الأجساد، تراب يقول: دعهن لما أودعن. طالما كنّ يُوترن الذنوب ويشفعن. فلو رأيتهن بعد الموت يتضرعن ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] لا والله لا يُرْجعن.

يا عجبا، هذه الآفات لهن ويهجعن. وهذا الحبس الشديد ويرتعن. يالها من مواعظ فهل أثّرن أو نجعن؟ يا هذا، اخْلُ بنفسك في بيت الفكر، واعذلها في الهوى. فإن لمْ تَلِنْ؛ فاخرج بها على عسكر المقابر، فإن لم ترعو؛ فاضربها بسوط الجوع.

يا هذا، العزلة تجمع الهم، والمخالطة نهّابة. الهوى مرضع كثير التخليط؛ فلهذا طفل قلبك كثير المرض. عجل فطامه؛ وقد صَحّ. العزلة والقناعة والصبر والعفة والتواضع: عقاقير كيمياء النجاة. يبلغن بمستعملهن مرتبة الغنى. والحرص والشره والغضب والعجب والكبر: كلهم مجانين في مارستان العقل، وهو القيم عليهم. فليحذر الغفلة عنهم؛ فإنه إن أفلت مجنون، حلّ الباقين.

يا هذا، حصن السلامة العزلة. أقل ما في الخروج منه من الأذى، مصادمة الهواء المختلف المهابّ، في بادية الشهوات. وقد عقبته جَنوبُ المجانبة للصواب، فصار وباء. وإياك أن تتعرض للهواء الوبي، مغترا بصحة مزاجك؛ فإنك إن سلمت من فضول الفتن من التلف؛ لم تأمن زكمة. ومتى تمكنت زكمة الهمة؛ لم تشم الفضائل.

يا قلب إلام لا يفيد النصح
عُمْرٌ ولّى وقد توالى القُبْحُ
جرح دام وقد تبدّى جرح
ما تشعر بالخُمار حتى تصحو

لما انقشع غيم الغفلة عن عيون أهل اليقين؛ لاح لهم هلال

الهدى، في صحراء اليقظة؛ فبيتوا نية الصوم عن الهوى، على عزم: «عزفت نفسي عن الدنيا».

دخل محمد بن كعب القرظي على عمر بن عبدالعزيز، وقد غيّره الزهد، فأنكره. فقال: يا ابن كعب، فكيف لو رأيتني بعد ثلاثة أيام في قبري؟

لم تُبق فيهم حراراتُ الهوى وجوى

الأحزانِ غير خيالاتٍ واشباحِ

تكاد تنكرهم عينُ الخبير بهم

لولا تردد أنفاسٍ وأرواحِ

كان وهب بن الورد، قد نحل من التعبد. فكانت خضرة البقل، تبين تحت جلدة بطنه.

للمهيار:

زعمت لا يبلي هـواك جسدي

بلى وحسبي بكـم لقـد بلـي

دارك تدري أنه لولا الهوى

ما طـل دمع مقلتـي فـي طلـل

إخواني، من عرف ما يطلب؛ هان عليه ما يبذل.

لصردر:

وكم ناحل بين تلك الخيام تحسبـه بعضَ أطنابهـا

أنضى القومُ رواحلَ الأبدانِ في سفرِ الشوق؛ حباً لتعجيل اللقاء. فكم طووا منزلا على الظلماء؟ حتى كلَّ كلُّ المطي بتلك

الجعجعة. ورفيق الرفق يصيح بهم.

للمهيار:

دعوها ترد بعد خمس شروعا

وأرخـوا أزمتهـا والنسوعـا

وقولوا دعاء لها: لا عقرت

ولا امتـد دهـرك إلا ربيعـا

حملـن نشاوى بكأس الغـرام

فكـلٌ غـدا لأخيـه رضيعـا

إذا أجـدبوا خصّهـم جدبُهـم

وإن أخصبوا كان خصبا جميعا

طوالُ السواعدِ شمُّ الأنوافِ

فطابوا أصـولا وطابـوا فروعـا

أحبـــوا فـــرادى ولكنهـم

على صيْحة البين ماتوا جميعـاً

حمَوا راحـة النوم أجفانهم

ولفّوا على الزفرات الضلوعا

أسكانَ رامةَ هـل مـن قِـرى

فقد دفع الليلُ ضيفا قنوعا

كفـاه من الـزاد أن تمهـدوا

له نظـرا أو حديثـاً وسيعـا

قيل لأبي بكر النهشلي وهو في الموت: اشرب قليلاً من الماء.

فقال: حتى تغرب الشمس.

للمهيار:

نفّرها عن وِرْدِها بحاجر
شوقٌ يعوقُ الدمَع في المحاجر
وردّها على الطوى سواغباً
ذلُّ الغرامِ وحنينُ الذاكر

واشوقاه إلى تلك الأشباح، سلام الله على تلك الأرواح.

ها إنها منازلٌ تعودتْ منـي إذا شارفتُها التسليما
وقفت فيها سالماً رأد الضحى[1] ورحت من وجدٍ بها سليما[2]
يا نفحة الشمال من تلقائها ردي علي ذلك النسيما

يا هذا، إن أردت لحاق السادة؛ فخل مخاللة الوسادة، واجعل جلدتك بردتك، وحد عن الخلق، والزم وحدتك. اكحل عينيك بالسهر والدمع. وضع على قروح الجوع مرهم الصبر. وتزود للسير زاد العزم. واقطع طريق الدنيا بقدم الزهد. واخرج إلى خصب الأخرى عن ضنك الدنيا. وسِحْ في بَوادي التقى؛ لتنزل بِوادي الفخر. فإن وصلت إلى دوائك؛ تناولته من يد: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤]، وإن مت بدائك. فمقابر الشهداء: ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ**﴾ [القمر: ٥٥].

* * *

---

(١) رأد الضحى: ارتفاعه.

(٢) السليم: اللديغ.

◘ الفصل الرابع والستون ◘

يا مشغولا بتلفيق ماله عن تحقيق أعماله. من خطر ذكر الرحيل بباله؛ قنع بالبلغ ولم يباله.

مالُكَ للحادثات نهبٌ أو للذي حازه وُرَّاثه

أو لك إن تتخذه ذُخْرا فلا تكن أعجزَ الثلاثه

لابد والله من العبور إلى منزل القبور. يسفي عليك الصَّبا والدبور. وأنت تحت الأرض تبور. آه من طول الثبور بعد طيب الحبور. يالكسرٍ بعيد الجبور. لا ينفع فيه صبر الصبور. يندم على عثرته العثور. ويفترش الدثور حتى يثور. أين كسرى وبهرام جور؟ أين المتقلبون في حجور الفجور؟ أين الحليم أين الضجور؟ أين المهر العربي، والناقة العيسجور[١]؟ أين الظباء الكنس[٢]، والأتراب الحور. كنّ يُزيِّن در البحور بالنحور؟ غرق الكل في يم من التلف زَخور[٣]. واستوى الوضيع والفخور تحت الصخور. لا فرق بين ذوات الإماء وذوات الخدور في ذلك المهبط الحدور. لقد بان للكل أن الدنيا غرور. وعرفوا في المصير شرور السرور. وتيقنوا أن تزوير الأمل للخُلْد زُور. وتفصّلت أعضاؤهم ولا تفصيل لحم الجزور. ودُكّت بهم الأرضُ ولا كما دُكَّ الطُّور. وبانت حُسباناتهم

---

(١) العيسجور: الصلبة السريعة.

(٢) الكنس: التي تدخل كناسها وسط الشجر، وسميت بذلك لأنها تكنس الرمل حتى تصل إلى كناسها.

(٣) زخور: زاخر ممتلئ.

وفيها قصور. وتأسفوا على مساكنة القصور في مساكن القصور[١]. وهذا المصير لو عمّرتم عُمْرَ النسور. والرامي مصيب وما يدفع السور.

فإذا انقضت بعده تلك العصور، ونفخ في الصور، وخرجت أطيار الأرواح من أعجب الوكور، وباتت الأرض تموج، والسماء تمور، ولقى الكفور ناراً تلتهب وتفور. انزعج الخليل والكليم! فمَن بِشر[٢] وطيفور؟

كم للمنايا في بني آدم
توسّعٌ منه تضيقُ الصدور
فالوقت لا تحدث ساعاته
إلا الردى المحض بوشك المرور
أيامنا السبعة إيْسَارُنَا[٣]
وكلنا فيها شبيه الجزور[٤]
طهرت ثوباً واهيا ثم ما
قلبك إلا عادم للطهور
لو فطن الناس لدنياهم
لاقتنعوا منها اقتناع الطيور

---

(١) القصور: التقصير.

(٢) بشر: الحافي.

(٢) إيسار: من اليسار والغنى، والذي في المخطوط: «أستارنا».

(٣) الجزور: البعير أو الناقة. والذي في المخطوط: (الخدور). والخدر ستر يُمدّ للجارية في ناحية البيت.

ويحك، إن الدنيا تغر، ولابد لك منها؛ فخذ قدر الحاجة على حذر. أما ترى الطائر: كيف يختلس قوته؟

هذا العصفور يألف الناس، فلا يسكن داراً لا أهل بها. وهو مع هذا الأُنس شديد الحذر ممن جاور. هذا الخطاف يقطع البحر لطلب الأنس بالإنس. ثم يتخذ وكره في أحصن مكان من البيت. ولا يحمله الأُنس بهم على ترك الحذر منهم. بل يعطي الأنس حقه، والحزم حقه. أما عرفت أدب الشرع في تناول المطعم؟ ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس.

شره الحرص يغني[1] بلاغِمَ البلادة. ولا يسْهُل شربُ المسهِّل إلا على من تأذى بحركات الأخلاط. لا يقدر على الحمية إلا من تلمح العافية في العاقبة. شُغْل العقلِ النظرُ في العواقب. فأما الهوى: فإيثاره لذة قليلة، تعقب ندامة طويلة. فملبّس في قضاياه. المؤمن بين حرب ومحراب. وكلاهما مفتقر إلى جمع الهم. ويريدُ المحرابُ القيامَ بأشراط الوضوء. والدنيا في مقام امرأة؛ واللمس ناقض. طريق المتقين تفتقر إلى رواحل[2]، وإبل عزائمكم كلُّها كالّ. إنما يصلح للملك قلبٌ فارغٌ ممن سواه.

وقلبك «خانٌ»[3] كل يوم وليلة
يُفارفه ركبٌ وينزله ركبُ

---

(١) يغبي: يدفع بكثرة، من الغْبية: الدفعة الشديدة من المطر، والصب الكثير. أو بمعنى يخفي. من قولهم: غبا: أبطن، والذي في المخطوط: «يقوي».

(٢) رواحل: جمع راحلة.

(٣) خان: بيت ومحل.

في كل يوم ترهن قلبك على ثمن شهوة، فيستعمله المرتهن؛ فقد أخلق. أنت توقد نار التوبة في المجلس في الحلفاء[١]. فإذا أردت منها قبسا بعد خروجك لم تجد. تبكي ساعة الحضور على الخيانة؛ والمسروق في جيبك. يا مظهرا من الخير ما ليس له. لا تبع ما ليس عندك. كم نهاك عن نظرة. وتعلم أنه بالحضرة. أفلا تراقب الناظر برد الناظر[٢]. وكأنك ما تعرف أن الحاضر حاضر.

واعجباً لك، تعد التسبيح بسبحة، فهلا جعلت لعدٍّ المعاصي أخرى؟ يا من يختار الظلامَ على الضوء. الذباب أعلى هِمّة منك. متى أظلم البيت خرج الذباب إلى الضوء. أما ترى الطفل في القماط يناغي المصباح؟ ويحك، خذ بتلابيب نفسك، قبل أن يجذبها ملك الموت. وقل: أيتها النفس الحمقاء، إن كان محمدٌ صادقاً؛ فالمسجد؛ وإلا فالدير.

الناس من الهوى على أصناف

هذا نَقَض العهدَ وهـذا وافِ

هيهات من الكدور تبغي الصافي

لا يصلُح للحضرةِ قلبٌ جافِ

يا هذا، أكبر دليل لك علينا: أنك كنت مبددا في ظهور الأصول، فنظمت بالقدرة نظما عجيباً خالياً عن العبث؛ فما تُنقضُ إلا لأمرٍ هو أعجب منه. مُدّت أطنابُ العروق، وحُفرت

---

(١) الحلفاء: نبت.

(٢) الناظر: الأولى: الناظر إليك. الثانية: العين.

خنادُق الأعصاب، وضُربت أوتاد المفاصل، وأقيم عُمُد الصلب، ثم مُدَّ السرادق. فنصب سرير القلب في الباطن للملك «ويسعني قلب عبدي المؤمن».

إذا لم يجد صبٌّ على النأي مخبراً

عن الحي بعد البين أين أقاموا

فعند النسيم الرطب أخبار منزل

بـه لسليمـي بالعقيـق خيـام

يا هذا، إن كنت محبا؛ فحبيبك معك في كل حال. حتى عند الموت، وفي بطن اللحد.

للغزي:

يا حبذا العـرعـرُ النجديُّ والبانُ

ودارُ قـومٍ بأكنـاف الحمى بانـوا

وأطيبُ الأرض ما للقلب فيه هوى

سَمُّ الخياطِ مـع الأحبـاب ميـدان

إذا أقفر قلبك من ساكن: «ويسعني»، فتحت النفس باباً لعناكب الغفلة؛ فنسجتْ في زواياه من لعابِ الأملِ طاقاتِ المنى.

اللهم أجر القلوب من جورِ النفوس. يا سلطانَ القلب، نشكور إليك النزالة[1].

★ ★ ★

(١) النزالة: السَّفَر.

الفصل الخامس والستون

إخواني، اعرفوا الدنيا؛ وقد سلمتم. ثم اعملوا فيها بما علمتم. لا يغرنكم منها الوفْر؛ فإنكم فيها سَفْر[١]. أمَا بعد توطئةِ المهادِ الحفْر؟ أتتوطن «مِنى» وتنسى النفْر؟

أرى الدنيا ومـا وُصفتْ ببر ... متى أغنت فقيراً أرهقتهُ
إذا خُشيت لشرٍّ عجّلتهُ ... وإن رُجيت لخيرٍ عوّقته
تعلّقها ابنُ جهلٍ في صباه ... فهام بفارك ما علقته
سقته زمانه مَقْراً وصابا[٢] ... وكأس الموت آخر ما سقته
أبادت قصر قيصر ثم جازت ... بإيوان ابن هرمز فارْتقته
أما افْتتحتْ له في الأرض بيتا ... فآوته النزيلَ وأطبقته
إذا انْفلتَ ابنُها عنها بزهدٍ ... ثنته بزخرفٍ قد نمّقته

أترى لم تنفع التجارب؟ أما ترون الدنيا كيف تحارب؟ ألا تُلقون حبلها على الغارب؟ أما سيفُ الهلاكِ في يد الضارب؟ تالله لقد جَلاَ اليقينِ ظلامَ الغياهب. ألا عزم زاهدٍ يتوكأُ على عصا راهب؟

ودُنياك إن وَهبت باليمين ... يسارَ الفتى سلبّت باليسار

إخواني، احذروا الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت. ذانك يفرقان بين المرء وزوجه، وهذه تفرق بين العبد وربه. وكيف لا، وهي التي سحرت سحرة بابل؟ إن أقبلتْ شغلت، وإن أدبرتْ قتلت.

---

(١) سَفْر: مسافرون.

(٢) المقر: السم، والصاب: المرّ.

نظرتْ فأقصدت الفؤاد بسهمها

ثـم انثنت عنـه فكـادَ يهيمُ

ويلاه إن عرضت وإن هي أعرضت

وقْـعُ السهـامِ ونزعُهـنّ أليـم

كم في جرع لذّاتها من غُصص، طالبها معها في نغص. بكى عليها حتى إذا حصلتْ بكى عليها خوفاً من الغير. إنها إذا صفت حلالا؛ كدرت الدين. فكيف إذا أخُذت من حرام؟ إن لحم الذبيحة ثقيل على المعاء، فكيف إذا كان ميتة؟ الظَلَمة في الظُلْمة يمشون في جمع الحطام، يصبحون ويمسون على فراش الآثام ﴿**فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُم**﴾ [البقرة: ١٦]، من نبت جسمه على الحرام؛ فمكاسبه كبريت به يوقد. الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب. أتراهم نسوا طي الليالي سالف الجبارين ﴿**وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ**﴾ [سبأ: ٤٥]؟ فما هذا الاغترار ﴿**وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ**﴾ [الرعد: ٦]، ﴿**فَهَلْ يَنتَظِرُون**﴾ [يونس: ١٠٢]. من لهم إذا طلبوا العود ﴿**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ [سبأ: ٥٤]. كم بكت في تنعم الظالم عينُ أرملة؟ وأُحرقت كبدُ يتيم؟ ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾ [ص: ٨٨].

ما ابيضّ لون الرغيف، حتى اسود وجه الضعيف. ما تروقت المشارب؛ حتى ترنّقت[1] المكاسب. ما عبل[2] جسم الظالم؛ حتى ذوت دولة قواه. لا تحتقر دعاء المظلوم؛ فشرر قلبه محمول بعجيج

(١) ترنقت: تكدرت.

(٢) عبل: سمن.

صوته إلى سقف بيتك: نَبّاله مصيب، ونَبْله غريب، قوسه حَرَقُه، ووتره قَلَقُه، ومرماته هدف: «لأنصرنك»[1]، وسهم سهمه الإصابة.

وقد رأيتَ وفي الأيام تجريبُ

كم مِن دارٍ دَارت بنعم النعم؛ دارت عليها دوائر النقم ﴿**فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا**﴾ [يونس: ٢٤]، كم جارٍ في حلبة المنى، قد استولى طَرْفُه[2] على الأَمَد[3]، صدمه قهر عقوبة؛ فألقاه أسرع من طرف. بينا القوم ينبسطون على بُسط البسيطة؛ كُفّتْ أكفّهم بمقامع القمع، لَسَبَتْهم[4] عقارب ظلمهم؛ نفخ عليهم ثعبان جَوْرهم، عقرتهم أُسود بطشهم، نسفتهم عواصف كِبْرهم. وفي الغير عِبر.

ويحك، إذا كانت راحةُ اللذة، تُعقِب تعبَ العقوبة؛ فدع الدَّعَة[5] تمضي في غير الدعة. والله ما تساوى لذة سنة، غم ساعة. فكيف والأمر بالعكس؟ كم في يَمِّ الغرورِ من تمساح؟ فاحذر يا غائص. يا من قد أمكنه الزمان من حركات التصرف في العدل؛ لا تجر. فما يُؤمّن من الزَمَنِ الزَمِن؟

ومتى بلغت إلى الرئاسة فاستلب

كرةَ العُلى بصوالج[6] المعروف

---

(١) هذا جزء من حديث في دعوة المظلوم، رواه الترمذي في الجنة: (٢٥٢٦)، وفي الدعوات: (٣٥٩٨)، وابن ماجة في الصيام: (١٧٥٢)، وأحمد: (٢/٣٠٥، ٤٤٥).

(٢) الطَّرْف: الجواد الكريم.

(٣) الأمد: الغاية.

(٤) لَسَبَتْهم: لدغتهم.

(٥) الدَّعة: خفض العيش وسهولته.

(٦) صوالج: جمع صولجان، وهو العصا أو المحجن.

كان عمر يخاف مع العدل - يا من يأمن مع العدول - رؤي بعد موته باثنتي عشرة سنة، فقال: الآن تخلصت من حسابي.

واعجباً، أقيم أكثر من سني الولاية. أفينتبه بهذا راقد الهوى؟ أحسن شعائر الشرائع العدل. الظلم ظلمة في نهار الولاية، وجذْب يرعى لحوم الرعية. والعدل صوت في صُورِ الحياة يبعث به موتى الجور. أيها الظالم، تذكر عند جورك عدل الحاكم، تفكر حين تصرفك في سَرَفِك. عجباً لك، تدعي الظرف، وتأخذ المظروف والظرف. كلا أو في الظرافة رأفة؟ ستعلم أيها الغريم قدر غرامك.

إذا يلتقي كلُّ ذي ديْنٍ وماطله

مَنْ لم يتّبع بمنقاش العدلِ شوكَ الظلم من أيدي التصرف؛ أثر ما لا يؤمن تعدّيه إلى القلب. يا أرباب الدول، لا تعربدوا في سكر القدرة؛ فصاحب الشرطة بالمرصاد. «سليمان» الحكم، قد حبس «آصف» العقوبة. في حصن: ﴿**فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ**﴾ [مريم: ٨٤]، وأجرى رُخاء الرجاء ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّه حُجَّةٌ**﴾ [النساء: ١٦٥]. فلو قد هبّتْ سَمومُ الجزاء من مَهَبِّ ﴿**وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ**﴾ [الأنبياء: ٤٦]. قلعت سُكْر: ﴿**أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٧٨]. فإذا طوفان التلف، ينادي فيه نوح: ﴿**لا عَاصِمَ**﴾ [هود: ٤٣]. فالحذر الحذر قبل: ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ**﴾ [الزمر: ٥٦]، ﴿**وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ [ص: ٣].

وأنت أيها المظلوم، فتذكّر: من أين أُتيت؟ فإنك لا تلقى كدراً، إلا من طريق جناية: ﴿**لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

كان لبّانٌ، يخلط اللبن بالماء، فجاء سيل فذهب بالغنم. فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات، فصارت سيلا. ولسان الجزاء يناديه: «يداك أوكتا وفوك نفخ».

اذكر غفلتك عن الآمر والأمر وقت الكسب، ولا تنس اطراح التقوى عند معاملة الخلق. فإذا انقضّ عاصف، فسمعت صوت سوطه يضرب عقد الكسب؛ جزاء لخيانة العقود. فلا تستطرف ذلك. فأنت الجاني أولاً. والبادي أظلم.

★ ★ ★

الفصل السادس والستون

يا مشغولا بأمله عن ذكر أجله. راضيا في صلاح خِلاله بِخَلَلَه.
هل أُتي المُساكنُ لِكَسَلِه إلا من قِبَلِه؟

أضحى لك في قبضة المطامع آمَالُ
ترجو دَرَكاً والردى لعمركُ مغتالُ
هل أنت معدّ ليوم حِشْرِك زاداً
في يوم يرى الفوزَ بالقيامة عمال
إن أغفلك الدهر بُرهة فسيأتيـ
ـك على غفـلة بحتفـك معجـال
بادر بمتابٍ فربمـا طـرق المـو
ت بسهـم مـن المنية قتّـال
أين المتحامون عن زخـارف دنيا
إن أوطنت المـرء عقبتـه بترحـال
خلاّبـة عقـلٍ بباطلٍ متمـاد
غرّارة صادٍ رأى المطامعَ كالآل[1]
إن شيم[2] سحاب له فذاك جَهام[3]
أو ظن بهـا وابـلٌ فذلك خـال

(١) الآل: السراب.
(٢) شيم: من شام البرق؛ نظر إليه: أين يمضي؟ وأين يمطر.
(٣) الجهام: سحاب لا مطر فيه.

دع عنك حديث الركاب أين تولت
أو ذكْرَ ديارٍ بها العفاء وأطلال
يا حسرةَ من أنفق الحياة غروراً
قد باع لها الفرصة الرخيصة بالغال
لا تحتقر الذنب فالصحائف تحصي
ما كنت تناسيت من قبائح أفعال

يا ضاحكا ملء فيه سروراً واغتباطا، وقد ارتبطت له المنونُ خيلَ التلف ارتباطا. أما بَسَطَ الإنذارُ على باب الدار بساطا؟ أما الحادي مُجَدٌّ؟ فمالِ المنادى يتباطى؟ أيحسن بالكبير أن يتمرس الهوى ويتعاطى؟

عجباً لعالمٍ بقربِ المنايا، كيف لا ينتهب التقى التقاطا؟ ولجسد بال، جر بالعُجْبِ والرياء رِيَاطاً[1]. إلى كم هذا الإسراع في الهوى والوجيف؟ وباب البقاء في الدنيا قد سُدَّ وجِيف. إن الأمن في طريق قد أخيف؛ رأي رذيل، وعقل سخيف. يا من يجمع العيب إلى الشيب ويضيف. لا الماء بارد ولا الكوز نظيف. إن إيثار ما يفنى على ما يبقى، لمزيف لا ظريف. كم أتى خريف؟ وكم أناخ ريف؟ ويكفي من الكلِّ كلَّ يومٍ رغيف. أيجوع بشر الحافي ويشبع وصيف[2]؟ ويذل هذا، ويخدم هذا مائة وصيف؟ وما أدرك هذا: مُدَّ هذا، ولا النصيف[3]. ألا أريب؟ ألا لبيب؟ ألا حصيف؟

(١) الرياط: جمع ريطة. وهي: الملاءة. (٢) الوصيف: الخادم.
(٣) إشارة إلى حديث: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا، ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه، رواه البخاري في فضائل الصحابة: (٣٦٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة: (٢٢١). والمدّ: ربع صاع. والنصيف: نصف المد.

لا يعجبنكم استقامة غصن الهوى، فالغصن قصيف. ها نحن قد شتّينا، ولعلنا لا نصيف.

سلِ الأيامَ ما فعلت بكسرى — وقيصر والقصور وساكنيها

أما استدعتهم للموت طُرّاً — فلم تدع الحليم ولا السفيها

دنت نحو الدنيّ بسهمِ خَطْبٍ — فأصمته[1] وواجهت الوجيها

أما لو بِيعت الدنيا بفلْسٍ — أنفتُ لعاقلٍ أن يشتريها

يا من عمره يذوب، وما يتوب. إذا خرقت ثوب دينك بالزلل؛ فارقعه بالاستغفار؛ فإن رفاء الندم صناع في جمع المتمزق. يا هذا، إنما يضل المسافر في سفره يوماً أو يومين، ثم يقع على الجادة.

واعجبا من تيه خمسين سنة. يا واقفا مع الصوَرِ. خالطْ عالم المعنى. أما علمت أن تغريد الحمام نياحة؟ أنت تظن البلبل يغني، وإنما يبكي على أحبابه.

ليت شعري عن الذين تركنا — بعدنا بالحجاز هل يذكرونا

أم لعل المدى تطاول حتى — بَعُدَ العهدُ بيننا فنسونا

أرجعوا حُرمةَ الوصالِ فإنا — لهم في الهوى كما عهدونا

لو صفت لك فكرة؛ كان لك في كل شيء عبرة. كل المخلوقات بين مُخوِّف ومُشوِّق. حر الصيف: يذكر حر جهنم. وبر الشتاء: محذّر من زمهريرها. والخريف: ينبه على اجتناء ثمار الأعمار. والربيع: يحثّ على طلب العيش الصافي. أوقات الأسحار: ربيع الأبرار. وقوة الخوف: صيف. وبرودة الرجاء: شتاء. وساعات

(١) أصمته: رمته فقتلته.

الدعاء والطلب: خريف.

إذا استحرّ الحر، تقحّم القحل، فطلّقَ القطْرُ الأرض، فلبست سِرْبالَ الجدْب. وأحدّت في حَفْش[١] الذل. فلما طالت أيامُ الأيمة[٢]. أومأ إلى المراجعة الرجع[٣]، فبكت قطراته لطول الهجر، فضحك لكثرة بكائه روْضُ الأرض، فبنى البناء ربْع الربيع، فنهضت ماشطة القدرة؛ لإخراج بنات النبات من مخدر الثرى، ففرشت الحلل بمصبغات الحلل.

فسمع الورد هتاف العندليب، وحنين الدواليب؛ ففتح فاه مشتاقا إلى مشروب. فإذا الطل صبوح. فقال: ألا مُنادم؟ فأبت الأزهارُ مصاحبةَ من لا يقيم. فأجابه بعد اليأس الياسمين. فقال: أنا نظيرك في قصر العمر؛ والمؤانسة في المجانسة. فأشر أنت إلى «المذنب»، باحمرار الخجل. حتى أشير أنا إلى «الخائف». باصفرار الوجل.

فرأى البلبلُ طيبَ الاجتماع، فغنى، فرنّت ديارُ اللهو، فدخل الناطورُ[٤] والصياد. فاقتطف الناطور رأس الورد، واختطف الصياد البلبل الوغد. فذُبح في الحال العصفور، وحبس الورد في قوارير الزور. وقيل للياسمين: لم اغتررت بزور؟ ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾ [**المؤمنون**: ١١٥]. فلما بكى الوردُ بكاءَ نادمٍ على الاغترار؛ صلح للمتطيبين: «**أنين المذنبين أحب إلينا من زجل المسبحين**».

فانتبه يا مخدوع، فالعمر الورد، والزجاجة القبر، والنفس البلبل، والقفص اللحد.

---

(١) حِفش: البيت الضيق، والشيء البالي.

(٢) الأيمة: الخلوّ من الزواج.

(٣) الرجْع: المطر بعد المطر.

(٤) الناطور: حارس النخل والكرم.

الفصل السابع والستون

إخواني، المستقِرُّ يزول. والمقيمُ منقول. والأحوال تحول[١]. والعتاب على الفاني يطول. وكم نعذل وكم نقول؟

سيقطعُ ريبُ البيـن بين الفريقين
لكلِّ اجتماعٍ فُرقـةٌ من يـدِ البينِ
وكلٌ يقضِّي ساعـة بعـد ساعـة
تُخاتله[٢] عن نفسه ساعة الحيْن[٣]
وما العيش إلا يـوم موتٍ لـه غد
وما الموت إلا رقدةٌ بين يومين
وما الحشر إلا كالصباح إذا انجلى
يقوم له اليقظانُ من رقدة العين
أيا عجبا منّي ومن طـُول غفلتي
أؤملُ أن أبقى وأنـّى ومـن أيـن

أين قُطان الأوطان؟ أين الأطفال والشمطان؟ أين الجائع والمبطان؟ أين حطان وقحطان؟ أين العبيد والسلطان؟ أين الباني وما طان[٤]؟ أين السقوف والحيطان؟ أين المروج والغيطان؟ أين المهاري[٥] والأشطان[٦]؟ أين الآجال والخيطان؟ أين المحب

---

(١) تحول: تتحول وتتغيّر.
(٢) تخاتله: تخادعه.
(٣) الحين: الهلاك.
(٤) طان: طين.
(٥) المهاري والمهارى: الإبل المهريّة
(٦) الأشطان: جمع شطن، وهو الحبل الطويل.

والحبيب؟ في الثرى خطان. تعرف وتصدف ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥].

الطريقُ الهاديةُ واسعةُ الفِجاج. والدليلُ ظاهرٌ لا يحتاج إلى احتجاج. وأما بحر الهوى: فما يفارقه ارتجاج. ما فيه ماء للشرب، بل كله أجاج. والعجب من راكب فيه يَتّجِرُ في الزجاج. كم مزجور عنه، غرّقتهُ في لُجه، لجاج.

يا معاشر العصاة، قد عمَّ الجدبُ أرض القلوب، وأشرفت زروع التقوى على التوى[1]. فاخرجوا من حصْر الذنوب إلى صحراء الندم. وحوِّلوا أردية الغدر عن مناكب العهود. ونكسوا رؤوس الرياسة على أذقان الذل؛ لعل غيوم الغموم على ما تلف، تأتلف.

إخواني، قد بشّر الرشاش، فاثبتوا؛ وقد سال الوادي.

واحبس الركب علينا ساعة	نندب الربْعَ ونبكي الدِّمنا[2]
فلذا الموقف أعددنا البكا	ولذا اليوم الدموع تُقتنى
زمنا كان وكنا جيرة	يا أعاد الله ذاك الزمنا
بَيْنُنَا يوم أثيلاتِ النَّقى	كان عن غيرِ تراضٍ بيننا

إذا خرجت القلوب بالتوبة من حبس الهوى إلى بيداء الإنابة؛ جرت خيول الدمع في حلبات الوجد؛ كالمرسلات عرفاً. إذا استقام زرعُ الفكر؛ قامت العبرات تسقي، ونهضت الزفرات تحصد، ودارت رحا التحيّر تطحن، واضطرمت نار القلق تُنضِج؛

---

(١) التوى: الهلاك.

(٢) الدمن: الآثار.

فحصلت للقلبِ بِلّةٌ[1] يتقوّتُها في سفر الحب.

يا من لم يصبر عن الهوى صبرَ يوسف؛ تعيَّنَ عليك حزنُ يعقوب. فإن لم تطق، فذلُّ أخوته يوم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨].

خوفُ السابقة وحذرُ الخاتمة: قلقل قلوبَ العارفين. وزادهم إزعاجاً: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]. كلما دخلوا سكة من سكك السكون؛ شرع بهم الجزعُ في شارعٍ من شوارع القلق. لما حرّك نسيمُ السحر أغصان الشجر؛ أخذت ألسُنُ قلوبهم في بثِّ القلق. فكاد نَفَس النفْس يقطع الحيازيم[2]؛ لو لا حزم التمسك.

للشريف الرضي:

وإني لأُغرى بالنسيم إذا سرى
وتعجبني بالأبرْقَين[1] ربوع

ويجني على الشوق نجدي مُزْنه
وبرقٌ بأطرافِ الحجاز لَمُوع

ولا أعرف الأشجان حتي تشوقني
حمائم وُرْق في الديار وقوع

في كل الليل تهب الرياح؛ ولكن لنسيم السحر خاصية. ما أظنه تعطّر إلا بأنفاس المستغفرين. لنفس المحب عطرية تنمّ على قَدْرِ طيبه.

---

(١) بِلّة: البلة: الندوة بالماء.

(٢) الحيازيم: جمع حيزوم: الصدر، أو الصدر وما حوله.

(٣) الأبرقان: ماء لبني جعفر.

أحبّ الثرى النجدي من أجرع الحمى
كأني لمن بالأجرعين نسيبُ
إذا هبّ علوي الرياح رأيتني
أغضّ جفوني أن يُقال مُريبُ

المحبّون على شواطئ أنهار الدمع نزول؛ فلو سِرْتَ عن هواك خطوات، لاحت لك الخيام.

وصلـوا إلى مولاهـم وبقينـا وتنعمـوا بوصالـه وشقينـا
ذهبت شبيبتُنا وضـاع زمانُنـا ودنـت منّيتنـا فمـن يُنجينـا
فتجمعوا أهلَ القطيعةِ والجفا نبكي شهوراً قد مضت وسنينا

كان بعض السلف، يقول: اللهم إن منعتني ثواب الصالحين؛ فلا تحرمني أجر المصاب على مصيبته. وكان آخر يقول: إن لم ترض عني؛ فاعف عني. كان القوم زينة الدنيا، فمذ سُلبوا تسلّبت. خلت والله الديار، وباد القوم، وارتحل أربابُ السهر، وبقي أهلُ النوم، واستبدل الزمانُ آكلي الشهوات بأهل الصوم.

كفى حزنا بالواله الصبِّ أن يرى
منـازل من يهـوى معطّـلة قفْـرا

يا من كان له في حديث القوم ذوق، أين الوجدُ والشوق؟ إذا طال لبث الطين في حافات الأنهار، تكامل ريّه، فإذا أنضب الماء عنه استلبت الشمسُ جميع ما فيه من رطوبة؛ فيقوى شوقه إلى ما فارق. فلو تركت قطعة منه على لسانك؛ لأمسكته شوقاً إلى ما فارقت من رطوبة. أشد الناس حباً لحديث الحجاز من سافر.

فكانت بالفرات لنا ليال سرقناهن من ريبِ الزمان

يا هذا، كنت تدعي حبناً، وتؤثر القرب منا. فما هذا الصبر الذي قد عنَّ عنّا؟ كنت تستطيب رياح الأسحار. وما تغير المحب؛ ولكن دخل فصل برد الفتور، ولم تحرزه؛ فأصابك زكام الكسل. كنت في الرعيل الأول. فما الذي ردّك إلى الساقة[1]؟ قف الآن على جادة التأسف، والزم البكاء على التخلف. فأحق الناس بالأسى. من خُصّ بالتعويق دون الرفقاء.

يا صاحبيّ أطيلا في مؤانستي
وناشداني بِخلاّني وعُشّاقي
وحدثاني حديث الخيف إن له
روحا لقلبي وتسهيلا لأخلاقي
ما ضرّ ريح الصَّبا لو ناسمتْ حَرَقي
واستنقذت مهجتي من أسر أشواقي
داءٌ تقادم عندي من يُعالجه
ونفثة بلغت مني مَن الراقي
يمضي الزمان وآمالي مصرّمة
ممن أحبّ على مطلٍ وإملاق
واضعية العمر لا الماضي انتفعتُ به
ولا حصلت على علم من الباقي
بلى علمت وقد أيقنت يا أسفا
أني لكل الذي قدمته لاق

---

(١) الساقة: مؤخرة الجيش.

الفصل الثامن والستون

إخواني، من عامل الدنيا خسر، ومن حمل في صف[1] طلبها كُسِر، وإن خلاصَ محبِّها منها عَسِر، وكل عاشقيها قد قُيِّد وأُسر ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أرى الشهد يرجع مثل الصبرِ فمـالِ ابـن آدم لا يعتبـر؟
وخَبَّـرَهُ صـادقٌ فـي الحديث فـإن شكّ في ذاك فليختبـر
ودنيـاك فالـق بطـول الهـوان فهـل هـي إلا كجسـر عُبـر

يا طالباً ما لا يدرك، تتمنى البقاء وما تُترك. كأنك بالحادي قد أبركَك. وهل غير الحصاد لزرع قد أفرك؟

وكيف أشيدُ في يومي بناءً وأعلم في غدٍ عنه ارتحالي
فلا تنصب خيامك في محلٍ فإن القاطنين على احتمال

يا من أعماله رياءٌ وسمعةٌ. يا من أعمى الهوى بصره وأصم سمعه. يا من إذا قام إلى الصلاة لم يُخلص ركعة. يا نائما في انتباهه. إلى متى هذه الهجعة؟ يا غافلا عن الموت، كم قلع الموت قلعة؟ كم دخل دارك، فأخذ غيرك؛ وإن له لرجعة. كم شرى شخصا بنقد مرض، وله الباقون بالشفعة. كم طرق جبارا، فأشتّ[2] شمْله، وأخرب ربعه. أفلا يتعظ البيذق بسلب شاه الرقعة؟ يا عامر الدنيا، إنما الدنيا دار قلعة[3]. كم مزقت قلبا بحبها؟ فرجع ألف قطعة.

---

(١) حمل في الصف: تقدّم وهجم.
(٢) أشتّ: شتت وفرق.
(٣) دار قلعة: أي ليست بموطن استقرار.

إن خصّت بطيب المذاق، أغصت وسط الجرعة. يوم تَرَحِها سنة. وسنة فَرِحِها جُمعة. إنها لمظلمة. ولو أوقدت ألف شمعة. وهي مع هذا خائنة، ولو حلفت بربعة[١]. كم درست عليكم مجلدات، تقول: ما هذه الأنفس مخلدات. أين الأقارب؟ أين اللدات؟ أفلا روائد ذهن للأخبار منتسمات؟ آه للقاعدين عن طلب المكرمات. آه للمستريحين، لقد رضوا بمؤلمات.

ذهب العمر وفـات ... يـا أسيـر الشهوات

ومضى وقتك في لهو ... وسهـو وسبـات

بينما أنت على غيِّك ... حتـى قيـل: مـات

إخواني، ما لقلب العزم قد غفل؟ ولنجم الحزم قد أفل؟ مهلا فشمس العمر في الطَّفَل[٢]. ومن لم يحضر الوغى[٣]، لم يحرز النفل.

ثواني هـم فلـم أقـره ... أوائل من عزمتي أو ثواني

فيـا هندُ وانٍ عن المكرماتِ ... من لا يُساور بالهندواني[٤]

يا معاشر العلماء، أتقنعون من الصفات بالأسماء؟ أتؤثرون الأرض على السماء؟ أفي السكر أنتم أم في الإغماء؟ أترضون بالثريا الثرى؟ أتغمضون العيون من غير كرى؟ أتنامون؟ فمن يحمد السُّرى؟! أتحيدون، وفي الأنف البرى[٥]؟ أتحلّون عقد: ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) الربعة: المصحف.

(٢) الطفل: قرب الغروب

(٣) الوغي: الحرب والقتال.

(٤) الهندواني: السيف.

(٥) البرى: التراب.

اشْتَرَى﴾ [التوبة: ١١١]. إنكم لأحقُّ بالحزنِ. فما أرَى. احضروا ناحيةً لا تكلفكم الكرى[1].

يا قومنا هذي الفوائدُ جمّةٌ

فتخيّروا قبل الندامةِ وانتقوا

إن مسّكم ظمأٌ يقول نذيركم:

لا ذنَب لي قدْ قلتُ للقوم استقوا

يا معاشر العلماء: قد كتبتم ودرستم، ثم إن طلبكم العلم فلستم في بيت العمل. ثم لو ناقشكم الإخلاص؛ لأفلستم. شجرة الإخلاص أصلها ثابت. لا يضرها زعزع: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [النحل: ٢٧]. وأما شجرة للرياء، فاجتثت عند نسمة: ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ [الصافات: ٢٤]. كم متشبه بالمخلصين في تخشعه ولباسه؛ وأفواه القلوب تنفر من طعم مذاقه؟ واأسفى ما أكثر الزور.

أمـا الخيـامُ فإنهـا كخيامهـم

ليس كل مستدير يكون «هلالا»، لا لا.

وما كلُّ مَنْ أومى إلى العزِّ ناله

ودون العلى ضربٌ يُدمّي النواصيا

كم حول «معروف»[2] من دفين ذهب اسمه كما بلي رسمه، و «معروف» معروف:

فما كلُّ دارٍ أقفرتْ دَارةُ الحمى

ولا كل بيضاء الترائب زينبُ

---

(١) الكرى: العدو الشديد.

(٢) معروف: الكرخي، الزاهد المشهور.

لريح المخلصين عطرية القبول، وللمُرائي سَموم النسيم. نفاق المنافقين صيّر المسجدَ مزبلة ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]، وإخلاص المخلصين رفع قدر الوسخ. «رب أشعث أغبر»[١].

أيها المرائي. قلب من تُرائيه بيد من تعصيه. لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك؛ فما يتبهرج الشحم بالورم. المرائي، يتبرطل على باب السلطان، يدعي أنه خاص، وهو غريب. أتدرون ما ذنب المرائي؟ «دعا باسم ليلى غيرها».

فيا أسفى، ذهب أهل التحقيق، وبقيتُ بُنيّات الطريق[٢]. خلت البقاع من الأحباب، وبدلت العمارة بالخراب. يا ديار الأحباب، عندك خبر؟ المخلص يُبهرج على الخلق بستر الحال؛ وببهرجته يصح النقد.

كان في ثوب أيوب السختياني، بعض الطول؛ لستر الحال. وكان إذا وعظ، فرقّ؛ فَرِق[٣] من الرياء. فيمسح وجهه، ويقول: ما أشد الزكام.

لصردر:

أحبسُ دمعـي فيندُّ شـارداً　　كأننـي أضبطُ عبـداً آبقـا

ومـن محاشاة الرقيب خلتني　　يوم الرحيل في الهوى منافقا

كان أيوب يحيي الليل كله، فإذا كان عند الصباح: رفع صوته؛ كأنه قام تلك الساعة.

---

(١) جزء من حديث سبق تخريجه.

(٢) بنيات الطريق: الطرق المتفرعة جانبا، أو التُرّهات.

(٣) فَرِق: خاف وفزع.

لصردر:

أُكلّفُ القلَب أن يهوى وأُلزمه
صبراً وذلك جمعٌ بين أضدادِ
وأكتم الركبَ أوطاري وأسأله
حاجاتِ نفسي لقد أتعبت زوادي
هل مُدْلجٍ عنده من مُبْكرٍ خبرٌ
وكيف يعلمُ حالَ الرائحِ الغادي
وإن رويت أحاديث الذين مضوا
فعن نسيم الصبًا والبرق إسنادي

كان إبراهيم النخعي: إذا قرأ في المصحف، فدخل داخل؛ غطاه. وكان ابن أبي ليلى: إذا دخل داخل وهو يصلي؛ اضطجع على فراشه.

أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها
مَضْغَ الكلام ولا صبغ الحواجبِ

مرض ابن أدهم، فجعل عند رأسه ما يأكله الأصحاء؛ لئلا يتشبه بالشاكين. هذه والله بهرجةٌ أصحُّ من نقدك.

للعباس بن الأحنف:

قد سحب الناسُ أذيالَ الظنون بنا
وفرّقَ الناسُ فينا قولهم فرقا
فكاذبٌ قد رمى بالظن غيركم
وصادق ليس يدري أنه صدقا

اشتهر ابن أدهم ببلد، فقيل: هو في البستان الفلاني. فدخل الناس يطوفون. ويقولون: أين إبراهيم بن أدهم؟ فجعل يطوف معهم. ويقول: أين إبراهيم بن أدهم؟

للمهيار:

ضناً بأن يعلم الناس الهوى ولمن

وهبت للسرِّ فيـــه لــذَّةَ العلَـنَ

عرِّض بغيري ودعني في ظنونهم

إن قيل من بك يخفي الحق في الظنن

قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه: أن طاوسا كان يكره الأنين؛ فما أنّ حتى مات.

لصردر:

تفيضُ نفوسٌ بأوصابها[1] وتكتـم عُوّادَهـا مـا بهـا

وما أنصفَتْ مُهجةٌ تشتكي هواها إلـى غيـر أحبابهـا

لمّا همّ الطبعُ. بالتأوّه من البلاء، كشفت الحقائقُ سُجُفَ المحبوب؛ فلم يبق لتقطيع الأيدي أثر.

بدا لهـا من بعد مـا بـدا لهـا

روضُ الحمى أن تشتكي كَلالَها[2]

رحل والله أولئك السادة، وبقي والله قرناء الرياء والوسادة.

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعدَ أولئك الأقوامِ

---

(١) الأوصاب: الهموم والأحزان.

(٢) الكلال: التعب والضعف.

أسمعُ أصواتاً بلا أنيس، وأرى خشوعاً أصله من إبليس.

للمهيار:

تشبهتْ حـورُ الظباء بهـم ... إذا سكنت فيك ولا مثل سكن

أصامتٌ بناطقٍ ونافرٌ بآنسٍ ... وذو خـلا بـذي شجـن

مشتـبه أعرفـه وإنمـا ... مُغالطاً قلتُ لصحبي: دار من

قف باكياً فيها وإن كنت أخا ... مؤانساً فبكِّها عنك وعن

لم يبق لي يومَ الفراقِ فضْلةٌ ... من دمعة أبكي بها على الدِّمن

* * *

الفصل التاسع والستون

يا من قد أُرخي له في الطول، وأُمهل له بمِّد الأجل. اخْلُ بنفسك وعاتبها، وخذ على يدها وحاسبها؛ لعلها تأخذ عدتها، قبل ان تستوفي مُدّتها.

وجدتُ أيامي لي رواحلا
وآن أن ينحطّ عنها الراحلُ
وصيح بي: عرِّس[1] فقد طال المدى
وكل ركْبٍ في التراب نازل
تهدد الحيْن[2] فهل من سامع
وجاء بالنصح فأين القابل
وكل شيء زاجرٌ مُحدِّثٌ
يفهم ما قال الحصيفُ العاقل

إخواني، بادروا قبل العوائق، واستدركوا فما كلُّ طالبٍ لاحق. واشكروا نعمة من ستركم عن الذنوب، واعرفوا فضله؛ فقد أعطاكم كل مطلوب. ما أعم جوده لجميع خلقه، وما أكثر تقصيرهم في حقه. عمّ إحسانُه الآدمي والبهائم، والمستيقظ والنائم، والجاهل والعالم، والمتقي والظالم.

من تأمل حسن لطفه لخليقته، حيّره الدهش. خلق الجنين في بطن الأم، فجعل وجهه إلى ظهرها؛ لئلا يجري الطعام عليه.

---

(١) عرِّس: التعريس: النوم آخر الليل. (٢) الحيْن: الهلاك.

وجعل أنفه بين ركبتيه؛ ليتنفس في فراغ. وسيق قُوته في مُصران السرّة. وليس العجب تغذّيه؛ لأنه متصل بحي. إنما العجبُ خلْقُ الفرخ في البيضة المنفصلة. فإنه من البياض يُخلق، ومن المحِّ يتغذى. فقد هيأ له زاد الطريق قبل سيْرِ الإيجاد.

إذا تفقّأت بيضةُ الغراب، خرج الفرخ أبيض، فتنفر عنه الأم، لمباينته إياها. فيبقى مفتوح الفم؛ لطلب الرزق. فيسوق القدرُ إلى فِيه الذباب. فلا يزال يغتذى به حتى يسودّ. فتعود أمه إليه.

خلَقَ الطيرَ ذا جُؤجؤٍ[1] مخدّد؛ لتجري سفينةُ طيرانه في بحر الهوى. وجعل في جناحه وذَنبه ريشاتٍ طوال؛ لينهض للطيران. ولما كان يختلسُ قُوتَه خوفاً من اصطياده، جعل منقاره صلباً لئلا ينسحج[2]. ولم يخلق له أسنان؛ لأن زمان الانتهاب لا يحتمل المضغ. وجعلت له حوصلة كالمخلاة، فينقل إليها ما يستلب، ثم ينقله إلى القانصة في زمان الأمن. فإن كانت له فراخ. أسهمهم[3] قبل النقل.

كلما طالت ساقُ الحيوان طال عنقه؛ ليمكنه تناول طعامه من الأرض. هذا طائر الماء، لا يقف إلا في ضحضاح[4]. فيتأمل ما يدب في الماء. فإذا رأى ما يريد: خطا خطوات على مهل، فيتناول. ولو كان قصير القوائم. كان حين يخطو يضرب الماء ببطنه،

---

(١) الجؤجؤ: الصدر.

(٢) ينسحج: ينقشر.

(٣) أسهمهم: وزّع عليهم أجزاء من الحب.

(٤) الضحضاح: الماء اليسير.

فيهرب الصيد.

هذه العنكبوت تبني بيتها بصناعة يعجز عنها المهندس. إنها تطلب زاوية، فجعلتْ فيها خيطا، ووصلت بين طرفيها بخيط آخر، وتلقي اللعاب على الجانبين. فإذا أحكمت المعاقد، ورتبت القَسْط[1] كالسُّدَى، أخذت في اللُّحمة. فيظن الظانُّ أن نسجها عبث. كلا إنها تصنع شبكة؛ لتصيد قُوتها من الذباب والبق. فإذا أتمت النسج، انزوت إلى زاوية، ترصدُ رصْدَ الصائد. فإذا وقع صيد؛ قامت تجني ثمار كسْبها، فتغتذي به. فإذا أعجزها الصيد؛ طلبت زاوية، ووصلت بين طرفيها بخيط، ثم علقت نفسها بخيط آخر. وتنكست في الهواء؛ تنتظر ذبابة تمر بها. فإذا دنت منها، دبّت إليها، واستعانت على قتلها، بلفِّ الخيط على رِجْلها. أفتراها علمت هذه الصنعة بنفسها؟ أو قرأتها على بعض جنسها؟ أفلا يُنظر إلى حكمة من علّمها؟ وتثقيف من ألهمها؟ فإن لم يكن لك نظرٌ يُعجّبك منها؛ فيعجب من عدم تعجبك. فإن أعجب أفعال القدر: من أضله [الله][2] على علم.

القلب جوهر في معدن البدن، فاكشف عنه بمعول المجاهدة، ولا تطينه بتراب الغفلة. رميتَ صخرةَ الهوى على ينبوع الفطنة؛ فاحتبس الماء. انقب تحتها إن لم تطق رفعها؛ لعل الجرفَ ينهار.

(١) القسط: المتفرق. وفي اللطائف: «القمط» بدل: «القسط».

(٢) السُّدى: الممدود من الثوب. (٣) الله: هذه الزيادة من المخطوط.

في قُربنا نيلُ المنى   فتنبهوا يا غافلينا
عجباً لقوم أعرضوا   عنَّا وقومٌ واصلونا
نقضوا العهود وبارزونا   بالصدود وكاشفونا
واستعذبوا طعمَ القطيعةِ   والجفا حتى نسونا
يا ويحهم لو قد دروا   ما فاتهم لاستعطفونا

إلهى، ما أكثر المعرض عنك، والمعترض عليك. وما أقل المعترضين لك. يا روح القلوب، أين طلابك؟ يا نور السماوات، أين أحبابك؟ يا رب الأرباب، أين عبادك؟ يا مسبب الأسباب، أين قُصّادك؟ من الذي عاملك بلُبّه فلم يربح؟ من الذي جاءك بكربه فلم يفرح؟ أي صدرٍ صَدَرَ عن بابك ولمُ يشرح؟ من ذا الذي لاذ بحبلك فاشتهى أن يبرح؟ يا معرضا عنه: إلى من أعرضت؟! يا مشغولا بغيره: بمن تعوضت؟!

مت على من غبت عنه أسفاً
لستْ عنه بمصيبٍ خَلَفا
لن ترى قُرّة عينٍ أبداً
أو ترى نحوهم مُنْصَرَفا

بِعتَ قيام الليل بفضل لقمة، شربتَ كأس النعاس؛ ففاتك الرُّفقة. ضُرب على أذنك؛ لا في مرافقة أهل الكهف. تناولت خمر الرقاد؛ فوقع بك صاحب الشرطة، فعمل في حقك بمقتضى «قم وانم»[1] فجعل حدَّك الحبس عن لحاق المتهجدين،

(١) قم وانم: كذا في المطبوع. وفي المخطوط: «اقم وانم»؟!.

والله لو بعت لحظة - من خلوة بنا - بعمر «نوح» في ملك «قارون»؛ لغبنت. لا بل بما في الجنان كلها؛ ما ربحت. ومن ذاق عرف.

إخواني. اسمعوا بحرمة الوفاء، فما كل وقت يطلع «سهيل». فإذا خرجتم من المجلس: فاقصدوا المساجد الخراب، وضعوا وجوهكم على التراب، وابعثوا أنفاس الأسف. وكفى بها شفيعاً في الزلل. فإن وجدتم قلوبكم قد حضرت؛ فاذكروني معكم.

للشريف الرضي:

وقولوا لجيراني على الخيف من منى
تُراكم من استبدلتُمُ بِجَوارِيا

ومن ورد الماء الذي كنت واردا
به ورعى العُشْبَ الذي كنت راعيا

فوا لهفي كم لي على الخيف شهقة
تذوب عليها قطعةٌ من فؤاديا

* * *

الفصل السبعون

يا تائها في بوَادي الهوى، انزل ساعة بِوَادي الفكر؛ يخبرك بأن اللذة قصيرة. والعقاب طويل. واعجبا لمن يشتري شهوة ساعة بِغمٍّ الأبد. كانت المعصية ساعة لا كانت. فكم ذلّت بعدها النفْس؟ وكم تصاعد لأجلها النَفَس؟ وكم جرى لتذكارها دمع؟

للشريف الرضي:

قضت المنازلُ يوم كاظمة ... أن المطي يطول موقفها
سبقت مدامعنا برشّتها ... من قبل أن يُومي مُكفكفها
إن كنت أنفدت الدموع بها ... فالوجد بعد اليوم يخلفها
لا تنشدّن الدارَ بعدهم ... إني على الإقواء أعرفها
رفقاً بقلبي لا تعذبه ... العين منك وأنت تطرفها
في القلب منك جراحةٌ عظُمتْ ... ما زلتُ أدملها وتقرفها[1]
هل يعطفنكم توجّعها ... أو يقبلن بكم تلهفها

يا من قد هبت على قلبه جَنُوب المجانبة، فلفقت غيم الغفلة، فأظلم أفق المعرفة. لا تيأس، فالشمس تحت الغيم. لو تصاعد نَفَسُ أسف دارت شَمالا؛ فتقطع السحاب. أنفع دواء أجده لك: نقض أخلاط التخليط بالدموع. بضاعة المذنب: دمعه، رأس مال المقر: حزنه. راحة الأواب: قلقه، عيشة التواب: حَرَقه.

كان آدم يبكي بعد هبوطه حتى يخوض في دمعه، فكان

(١) قرف الجرح وتقرّف: تقشّر.

جبريل يأتيه. فيقول: كم هذا البكاء؟ ولسان حاله يجيب.

للشريف الرضي:

يا عاذل المشتاق دعه فإنه

يطوي على الزفراتِ غيرَ حَشاكا

لو كان قلبُك قلبَه ما لُمته

حاشاك مما عنده حاشاكا

يا جبريل، ما تغير عليك أمر. وأنا نُقلت من برد عيش إلى حر. ما سكنتُ قط مسكني، ولا توطنتُ موطني. فاقرأ على ربعي سلامي. وقل له: لا تنس أيامي.

للمصنف:

إذا جُزْتَ بالغور عرِّج يمينا

فقد أخذ الشوقُ منا يمينا

وسلِّم على بانة الواديَيْن

فإن سمعت أوشكت أن تبينا

وروِّ ثرى أرضهم بالدموع

وخَلِّ الضلوع على ما طُوينا

وصِحْ في مَغَانِيهم: أين هم

وهيهات أمُّوا طريقاً شطونا[1]

أراك يَشُوقك وادي الأراك

ألدار تبكي أم الساكنينا

---

(١) شطونا: بعيداً.

سقـى اللهُ مرتعنـا بالحمـى
وإن كـان أورثَ داءً دفينـا

وعاذلـة فـوق داء المحب
رويداً رويـداً بنـا قـد بلينـا

فمـن تعذليـن أمـا تعذرين
فلو قد نفقت دفعت الأنينـا

إذا غلب الحـبُّ صحّ العتاب
تعبت وأتعبت لـو تعلمينـا

ما زال «آدم». يشيم برق العفو. فلما طال عليه الزمانُ حملَ صعداء الوجْد «رسالةَ شكوى» ما علمتْ بمضمونها الرياح.

إذا بدا البرقُ من نجدٍ طربتُ له
وكدتُ من طربي[٢] أقضي لذكرهم

وتحمل الريح إن هبّتْ شآمية
منّي السلام إلى أطلال ربْعهم

فرضٌ علـي أراُعيهـم وأحفظهـم
علـى البعـاد ويرعوني بفضلهم

يا معاشر المذنبين، تأسوا بأبيكم في البكاء. تفكروا: كيف باع دارا قد ربُّى فيها؟ وضاع الثمن؟ لا تبرحوا من باب الذل؛ فأقرب الخطائين إلى العفو: المعترف بالزلل. ما انتفع آدم في

(١) شام البرق: نظر إليه، أين يسير؟ وأين يمطر.
(٢) أقضي: أموت.

بلية: ﴿وَعَصَىٰ﴾ [طه: ١٢١]. بكمال: ﴿وَعَلَّم﴾ [البقرة: ٣١]. ولا رد عنه عز: ﴿اسْجُدُوا﴾ [البقرة: ٣٤]، وإنما خلصه ذل: ﴿ظَلَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال سري: بتُّ ببعض قرى الشام، فسمعت طائراً على شجرة، يقول طول الليل: أخطأت لا أعود. فقلت لأهل القرية: ما اسم هذا الطائر؟ فقالوا: فاقُد إلفْه.

للمهيار:

تأوّهتْ تـأوه الأُسيـرِ ورْقَاءُ ذاتُ وَرَقٍ نضيرِ
تنطق عن قلب لها مكسور كأنها تنطق عن ضمير
لبيك يا حزينة الصفير إن استجرتِ بي فاستجيري
لك الخيار أنجدي أو غوري وحيثما صار هواكِ صيري
قصي جناحي زمن فطيري

إخواني. نفترق على هذه الحال؟ غفلة شاملة، ودموع جامدة؟ لا بالله لا تفعلوا.

يا حادي العيس لا تعجل بنا وقف
نُجري دموع هواهم ثم ننصرف
فما يـزال نسيـمٌ مـن يمانيـة
يأتي إلينا بريّـا روضةٍ أُنُف[١]

إذا رأيتم باكيا في المجلس، فارحموه. وإذا شاهدتم قلقا، فاعذروه. لا تعجبوا من واجدٍ ما لم تجدوه.

---

(١) الروضة الأنف: التي لم ترع.

لابن المعتز:

دعوة ليطفي بالدموع حرارةً

على كبدٍ حرّى دعوه دعوه

سلوا عاذليه يعذروه هُنَيْهة

فبالعذل دون الشوقِ قد قتلوه

لا تلوموا صاحب الوجد؛ فما يرى بحضرته أحدا.

ظن الأراك لدى واديه أظعانا

فما استطاع لما أخفاه كتمانا

فبان للركب ما قد كان يستره

عن كلٍّ مستخبر عن حب من بانا

كان أبو عبيدة الخواص يمشي في الطريق ويصيح: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه.

هذا ولَهي وكم كتمتُ الولهَا

صوناً لحديث من هوى النفس لها

يا آخرَ محنتي ويا أولها

أيام عناي[1] فيك ما أطولها

ليس للمحبِّ قرار، ولا له من الحب فرار. تعرقل وفات. وخُنق فمات.

ولي عبراتٌ تستهلُّ صبابةً

عليك إذا برقُ الغمام تألقا

(١) عناي: عنائي.

ألفتُ الهوى حتى حلَت لي صُروفه
وَرُبَّ نعيمٍ كان جالبه شقا
وأذهلُ حتى أحسب الصدَّ والنوى
بمعتَرَكِ الذكرى وصالا ومُلتقى
فها أنا ذو حالين: أما تلذذي
فحي وأما سلْوتي فلك البقا

لو أشرفت على وادي الدجى؛ لرأيت خيام القوم، على شواطئ أنهار الدموع. خلوا والله بالحبيب، وطال الحديث. عين تبكي من المحبوب، وأخرى تبكي عليه. لفظة تشكو منه، وأخرى تشكو إليه. ريٌّ تامٌ لمحبته، وعطشٌ محرقٌ إلى رؤيته.

للمصنف:

الماء عندي قد طما[1]	وأنا الذي أشكو الظما
جسمي معي لكن قلبي	عند سكان الحِمى
واها لهم لو أنهم	عادوا وجادوا لي فما
أرجو نوالا منهم	هيهات هم حبي وما
ميلي إلى غير الأُلى	سكنوا فؤادي إنما
أشكو إليهم منهم	كَلْماً[2] يزيد وكُلّما
هجروا تفاقم أمرُهم	ياليتهم داووا كما
جرحوا فلو طبُّوا شفوا	هيهات لولاهم لما

(١) طما: زاد.

(٢) كلْما: جرحا.

ذهب الزمان بأن أقول: عسى وأرجو ربما
يا أيها المضنى بهم لم يبق منك سوء الذما[1]
فألذّ ما كان الوصال فعـاد مُـــرّاً علقما
تركـوك بعـد فراقهم متحيِّراً تبكـي دمـا
يا بانةَ الوادي ارحمي مـن لا يـزالُ متيّمـا
يا نسمةَ الريح الشمال ألا ابلغيهم بعض مـا
ألقى فحرُّ سمائـم ال أنفاس يكفي معلمـا
نفسي تكابد وجْدها بكمُ فما فَغَرتْ فمـا
لكــنّ آثـار المحبـة ليس تخفــى أينمـا

★ ★ ★

(١) الذما: الذماء: بقية النفس.

الفصل الحادي والسبعون

إخواني، ألا ناظرٌ لنفسه قبل الموت؟ ألا مستدرك زاد رمسه[١] قبل الفوت؟ ألا مزدجر بواعظ أمسه؟ فقد أسمعه الصوت؟

ما ضرّ عبدٌ نفسَه ... قبل خروج نفسِهِ
هل يومه أو غده ... إلا نظير أمسه
وعلّه يلقى الردى ... قبل غروب شمسه
كم مُدْلجٍ مُهجّرٍ ... يسعى لبِعْلِ عِرْسه
وأكيس الناس امرؤ ... جد ليوم رمسه

إخواني، حبالُ الآمال رثاث[٢]، وساحرُ الهوى نفّاث، والأماني على الحقيقة أضغاث، والمالُ المدّخرُ رزقُ الوُرّاث. عجباً لأجسام ذكور، وعقول إناث!!

إلامَ الرواحُ في الهوى والتغليس[٣]؟ وحتّامَ السعي في صُحبة إبليس؟ وكم بهرجة في العمل، وكم تدليس؟ أين الأقران؟ هل لهم من حسيس؟ أما تعلم أنهم ندموا على إيثار الخسيس؟ تالله لقد ودّوا طلاق الدنيا قبل المسيس.

لقد أسمعكَ الموتُ وعيدَك، وكأنك به: قد ضَعْضَعَ مَشِيدَك. وأخلى منك دارك، وملأ بك بِيدك[٤]. لقد أمرضك الهوى، وفي

(١) الرمس: الدفن والقبر.
(٢) رثاث: من أرث الحبل: قدم وبلي.
(٣) التغليس: السير في الظلام آخر الليل.
(٤) البيد: الصحارى. جمع بيداء.

عزمه أن يزيدك. هل لذّت لذةُ الدنيا، فصفت؟ هل عافت إلا وعافت[1] وعفت[2]؟ هل تبعتَ عرضا وقفتَ، فوقفتْ؟ هل أرشفت شفة من رضابها فشفت؟ بينا محبها يُناجيها بألفاظ المنى؛ خفت. ما بلغ المراد منها، إلا من صدَّ عنها والتفت.

عين المنية يقظي غير مطرفة
وطرف مطلوبها مذ كان وسنانُ
جهلا تمكّن منه حين مولده
فالمرءُ صاحٍ ولُبُّ المرء سكران

كم نرمي هدف سمعك برشق كلام؟ كم نلدغ أصل قلبك بحمة ملام؟ لا تنفع الرياضة إلا في نجيب. لو سُقي الحنظل بماء السكر، لن يخرج حلواً. شجر الأثْل، وإن دام الماء تحته، لم يُثمر. سحاب الهدى قد طبق بيد الأكوان، وأظن أرض قلبك سبخاً. إنما يغلب هذا على ظني؛ لبعد صلاحك، وقد يستحيل الخمر خلا. كم تحضر المجلس وتخرج؟ وما علقت بشيء. ويحك، هذا البنفسج، يطرح في الشيرج[3] فيعبق به طول السنة. وكذلك الورد في الأشنان[4].

ومن البلية عذْلُ من لا يرعوي
عن غيّه وخطابُ من لا يفهم

---

(١) عافت: الأولى: من العافية، والثانية: كرهت.

(٢) عفت: ذهبت.

(٣) الشيرج: لعلها: «السيرج» وهو زيت السمسم.

(٤) الأشنان: شيء تغسل به الأيدي للتنظيف.

ويحك إلى كم تعدو خلف موكب الهوى؛ وما تربح إلا الغبار؟ دع حبل الرعونة من يد التمسك؛ فإنه لا مِرّة[1] له. ما قُتل أحدٌ بأحدّ من سيف: «سَوْفَ» ومواهبُ الأعمار، مسترجعة بالأنفاس، حتى تُستوفى. ألست نقضت عهد: ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. بعد عَقْد عُقَده؟ فكيف حلّ لك الحلّ؟!

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم
من الوصل إلا ما رجعتم إلى الوصل

نحنُ لك على الوفاء ما زلنا. وأنت ما ثبت يومين.

لكثير:

وكنا ارتقينا في صعود من الهوى
فلمّا علوناه ثبتٌ وزلّتِ

وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا
فلما توافينا شددتُ وحلّتِ

واعجباً، تنبه الحيوانات بالليل، فتصوّت. وأنت غافل. ويحك، إذا فتحت عينيك في الدجى؛ فصح بقلبك:

قم بنا يا أخي لما نتمنى ... واطرد النومَ بالعزيمة عنّا
قم فقد صاحت الديوكُ ونادت ... لا تكون الديوكُ أطرب منا

إخواني. مصيبتنا في التفريط واحدة، وأهل الأحزان أهل.

انا ليجمعنا البكاءُ وكلّنا ... نبكي على شَجَنٍ من الأشجان

مجلس الذكر مأتم الأحزان. هذا يبكي لذنوبه، وهذا يندب

(١) مِرّة: قوة.

لعيوبه، وهذا على فوات مطلوبه، وهذا لإعراض محبوبه.

يتشاكى الواجدون جوىً واحداً والوجد ألوانُ

يا نائحَ الفكرِ: نضّد. يا نادب الحزن: عدّد. يا لائم النفس: شدد. يا رامي القلب: سدد. يا جامع الدمع: بدد. يا مطرب السر: ردد.

للمهيار:

نشدتُك يا بانةَ الأجْرعِ متى رفع الحي من لعلعِ

وهل مرّ قلبي في التابعين أم حار ضعفاً فلم يتبع

رأيتُ له بين تلك القلوب إذا اشتبهت أنَّـةَ الموجع

أدر يا نديمي كأس الحديث فكأسي بعدهم مدمعي

يا مقيداً عن السير بقيود الشواغل. أيطمع في لحاق الطير مقصوص القوادم[1]؟ صوت في الأسحار بالسائرين؛ لعل عطفا ينعطف إليك في عطفة رحمة. فقد تَرِقُّ الساقةُ لأهل الفاقة.

للمهيار:

ردوا لنا يوماً ولو ساعة على الغضا من عيشنا الزائل

لي ذلة السائل ما بينكم فلا تَفُتْكم عِزّة الباذل

سل الليل عن الأحباب، فعنده الخبر. خلا الفكر بالقلب في بيت التلاوة؛ فجرت أوصافُ الحبيب، فنهض قلقُ الشوق يضربُ بطونَ الرواحل لِيَنْهَرَ السهر؛ فلا وجه لنوم القوم.

للخفاجي:

أترى طيفكم لما سرى أخذ النوم وأعطى السهرا

(١) القوادم: ريشات في مقدم جناح الطائر.

ما نلومُ الليلَ بل نعذره إنما طولّه من قصرا

يا عيونا بالغضا راقدة حرم الله عليكن الكرى

لو عدلتن تَساهَمنا[(١)] جوىً مثل ما كنا اشتركنا نظرا

حبذا فيك حديثٌ باطنٌ فَطِنَ الدمعُ به فانتشرا

من لم يكن له مثل تقواهم؛ لم يعلم ما الذي أبكاهم؟ من لم يشاهد جمال يوسف؛ لم يعلم ما الذي آلم قلب يعقوب؟

من لم يبت والحب حشو فؤاده لم يدر كيف تفتّتِ الأكباد

لو دمت على سلوك البادية؛ طابت لك ريحُ الشِّيح.

تقر لعيني أن أرى رمْلة الحمى

إذا ما بدت يوما لعيني قلالها[(٢)]

ولستُ وإن أحببتُ من يسكن الغضا

بأول راجٍ حاجةً لا ينالها

★ ★ ★

(١) تساهمنا: تقاسمنا.

(٢) قلال: جمع: قلة. وهي رأس الجبل.

الفصل الثاني والسبعون

يا من كانت له معنا معاملة، وطالت بيننا وبينه المواصلة. ثم اختار الهجر والمفاصلة. إن لم يكن جميلٌ؛ فلتكن مجاملة. تفكّر؛ تعرف قدر ما فاتك. وابك لذنبٍ حرمك الفوز، وأفاتك. اسكب دموع أسفك. فربَّ دمٍ بالأسى سُفِك. واندب أطلال مألفك؛ لعلك تغاث في موقفك.

للمهيار:

تظــن ليالينــا عـــودا ... على العهد من برقتي ثهمدا[1]

ويا صاحبي أين وجهُ الصباح ... وأين غدٌ صِفْ لعيني غدا

وخلف الضلوع زفيرٌ أبى ... وقد برد الليل أن يبردا

خليلي لي حاجة ما أخفّ ... لرامة[2] لو حملت مسعدا

أريد لأكتم وابن الأراك ... يفضحها كلما غــردا

أحب وإن أخصب الحاضرون ... ببادية الرمــل أن أخلـدا

أرى كبدي قسّمت شعبتين ... مع الشوق غـوّر أو أنجدا

تمنـاك عيني وقلبـي يــراك ... بشوقـي حاشـاك أن تفقـدا

اللهم نور دنيانا بنور من توفيقك، واقطع أيامنا في الاتصال بك. وانظم شتاتنا في سلك طاعتك. فأنت أعلم بتلفيق المقترف. اللهم قوِّ مُنَن[3] أطفال التوبة بلبان الصبر. ارفق بمرضى الهوى في

(١) ثهمد: موضع. (٢) رامة: موضع.

(٣) مُنَن: جمع مُنّة: وهي القوة.

مارستان البلاء. افتح مسامع الأفهام لقبول ما ينفع. سلم سيارة الأفكار من قاطع طريق. احرس طلائع المجاهدة من خديعة كمين. احفظ شجعان العزائم من شر هزيمة. وقِّعْ على قصص الإنابة بِقلم العفو. لا تسلّط جاهل الطبع على عالم القلب. لا تبدّل نعيم عيش الروح بجحيم حرِّ النفس. لا تمت حي العلم في حي الجهل. أخرجنا إلى نور اليقين، من هذا الظلام. لا تجعلنا ممن رأى الصبح فنام. لا تؤاخذنا بقدر ذنوبنا؛ فإنك قلت: ﴿وَلَا تَنسَوُا **الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٣٧].

واعجباً. لمن عرفك ثم أحب غيرك، ولمن سمع مناديك ثم تأخر عنك.

حرام عليّ العيش ما دمت غضبانا

وما لم يعد عني رضاك كما كانا

فأحسن فإني قد أسأت ولم تزل

تُعوّدني عنـد الإسـاءة غفرانـا

إلهي، لا تعذب نفساً قد عذبها الخوف منك. ولا تخرس لسانا كل ما يروي عنك. ولا تُقْذِ بصرا طالما يبكي لك. ولا تخيّب رجاءً هو منوط بك.

إلهي، ضع في ضعفي قوة من منك. ودع في كفّي كفّي عن غيرِك. ارحم عبرة تترقرق على ما فاتها منك. بَرِّدْ كبداً تحترق على بُعدها عنك.

للشريف الرضي:

أشكو إليك مدامعا تَكِفُ بعد النوى وجوانحا تجف[١]

ما كان أسرع ما نبا[٢] زَمَنٌ وتكدّرتْ من وُدِّنا نُطَف

حبل غدا بأكُفِّنا طرفٌ منه وفي أيدي النوى طرف

لهفي على ذاك الزمان وهل يثني زمانـا ماضيا لهـف

واأسفى، لمنقطع دون الركب، متأخر عن لحاق الصحب. يعدّ الساعات في: متى؟ ولعل. ويخلو بفكر في: عسى وهل؟

لقيس المجنون:

أعُـدُّ الليالي ليلـة بعـد ليـلة

وقد عِشتُ دهـرا لا أعد اللياليا

وأخـرجُ من بيـن البيوت لعلنـي

أحدّثُ عنك النفس بالليل خاليـا

يمينا إذاكانت يميـنا وإن تكـن

شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا

ألا يا حمامي بطن نعمان هجتما

عليَّ الهـوى لمـا تغنّيتما ليـا

وأبكيتماني وسط صحبي ولم أكن

أبالي بدمع العين لو كنت خاليـا

ذكت نارُ شوقي في فؤادي فأصبحتْ

لهـا وهـج مستضـرم في فؤاديـا

---

(١) تجف: تضطرب وتتحرك.

(٢) نبا: بعُد وولّى.

خليلي ما أرجو من العيش بعد ما

أرى حاجتي تُشرى[١] ولا تشترى ليا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظنان كلَّ الظنِّ أن لا تلاقيا

أيها المتخلف في أعقاب الواصلين، استغث بهم، علق على قطارهم؛ فلعل جملك يصل.

يا صاح والصاحب لا يدعى به

إلا إذا لجّ الغرامُ واعتدى

خذ بيدي من سطْوه البيْن فما

أظن أن البين أبقى لي يدا

أين ليالينا القصار بالحمى

واكبدا على الحمى واكبدا

يا من قد مضت له ليالي مناجاة. ثم طبق الدستور، وقطع المعاملة. اندب زمان الوصال؛ لعل حالا حال[٢] يعود.

للمهيار:

يا ليلتي بحاجرٍ إن عاد ماضٍ فارجعي

بتنا على الأحقاب ننـ ـهال بكلٍ مضجع

قالوا: الصباح فانتبه فقال لي الطيف: اسمع

فقمتُ مخلوطا أظن البازل[٢] ابن الربع[٣]

---

(١) تشرى: تباع. (٢) حال: تحوّل وتغيّر.

(٣) البازل من الإبل: من تسع سنين فصاعدا. وابن الربع: ابن أربع.

حيـــران طرفـــي دائـــر أطلبُ مـــا ليس معـــي
أرضـى بأخبـار الرياحِ والبـــروقِ اللمّـــع
وأيـن مـن بـرق الحمى شائمـــةٌ بلعلـــع
أفرشني الجمـر وقـال: إن أردتَ فاهجـــع

ذكر الوصال في زمان الهجر تلف، خصوصاً إذا لم يكن للحبيب خلف. قال ابن مسروق: كنت أمشي مع «الجنيد» في بعض دروب بغداد، فسمع منشداً يقول:

منازل كنت تهواها وتألفها أيام أنت على الأيام منصور

فبكى الجنيد بكاءً شديداً. وقال: ما أطيب منازل الألفة والأنس، وأوحش مقامات المخالفة. لا أزال أحن إلى أول بدء إرادتي وجدة سعيي.

للمهيار:

يا ليلتيَّ بـذات الشيـحِ والضـالِ
ومنبتِ البانِ من نعمـان عُـودا لي
ويـا مرابع أطـلالي بـذي سلـم
لهفي على ما مضى من عصرك الخالي
ويـا مـآرب نفسي والذيـن هـم
بالوصل والهجر إعلالي وإبلالي(١)
قد كان قلبي بكم مأوى السرور فمذْ
نأيتُم صـارَ مـأوى كـلٍّ بلبـال

(١) الإعلال: إصداء الإبل قبل ريها. الإبلال: من البلل.

فلو شربت بعمري ساعة سلفت

من عيشتي معكم ما كان بالغالي

مالي أعلل نفسي بالوقوف على

منازل أقفرتْ منكم وأطلال

من لي بكتمان ما ألقاه من ألمٍ

وظاهري مُعْرِبٌ عن باطنِ الحال

قالوا: تشاغَلَ عنَّا واصطفى بدلاً

منّا وذلك فعل الخائن السالي

وكيف أشغل قلبي عن محبتكم

بغير ذكركم يا كلَّ أشغالي

* * *

الفصل الثالث والسبعون

واشوقاه إلى أرباب الإخلاص. واتوقاه إلى رؤية تلك الأشخاص. إني لأحضر ذكركم، فأغيب. وإن وقتي بتذكركم لَيَطيب.

للشريف الرضي:

إذا هزّنا الشوقُ اضطربنا لهزّه
على شعب الرّحلِ اضطراب الأراقم[١]

فمن صَبَوات تستقيمُ بمائلٍ
ومن أرْيحيات تهبّ بنائم

وأستشرفُ الأعلامَ حتى يدلني
على طِيبها مَرُّ الرياح النواسم[٢]

وما أنسم[٣] الأرواحَ إلا لأنها
تهبّ على تلك الربى والمعالم

الإخلاص مِسْكٌ مصونٌ في مَسْك[٤] القلب؛ تُنَبِّهُ ريحُه على حامله. العملُ صورةٌ والإخلاصُ روح. المخلصُ يعدُّ طاعته - لاحتقاره لها - عرضا، وقلمُ القبولِ قد أثبتها في الجوهر خالصاً. الإخلاص اليسير كثير، ووجود عمل الرياء عدم. قراضة الأماني لا تقف، وصحيح الشبه مردود. خليجٌ صاف أنفعُ من بحرٍ كدر.

---

(١) الأراقم: جمع أرقم، وهو نوع من الثعابين.
(٢) النواسم: التي بها نسيم.
(٣) أنسم: أشم.
(٤) المسك: الأولى: الطيب المعروف، والثانية: الجلد.

إذا لم تخلص فلا تتعب. لا يكسر الجوز بالعهن[1]. أتحدو ومالك بعير؟ أتمدّ القوس وما لها وتر؟ أتتجشأ من غير شبع؟

واعجبا، من وحشي بلا جبل. كم بذلَ نفسَه مُرَاءٍ لتمدحه الخلق، فذهبت والمدح. ولو بذلها للحق، لبقيت والذكر. عملُ المرائي بَصَلَةٌ كلُّها قشور. المرائي يحشو جرابَ العمل رمْلاً؛ فيثقله ولا ينفعه. ريح الرياء جيفة تتحاماها مسامُّ القلوب. وما يخفى المرائي على مسانحِ[2] الفَطِن. لما أخذ دوُد القزّ ينسج؛ أقبلت العنكبوتُ تشبّه. وقالت: لك نسج، ولي نسج. فقالت دودة القز: ولكن نسجي أردية للملوك، ونسجك شبكة للذباب. وعند مسٍّ النسيجين يبين الفرق.

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ تبيّنَ من بكى ممن تباكى

شجرة الصنوبر تثمر في ثلاثين سنة، وشجرة الدباء تصعد في أسبوعين. فتقول لشجرة الصنوبر: إن الطريق التي قَطَعتِهَا في ثلاثين سنة، قد قطعتها في أسبوعين. فيقال لي: شجرة، ولك: شجرة. فتجيبها: مهلا إلى أن تهب ريح الخريف.

قال الدب للآدمي: أنت تمشي على رجلين، وأنا أيضاً. فقال الآدمي؛ ولكنّ صدمةً تردّك إلى أربع. وكم أصدم وأنا منتصب.

كان الأشياخ في قديم الزمان أصحاب قدم، والمريدون أصحاب ألم. فذهب القدم والألم. كان المريد يسأل عن غُصّة، والشيخُ

---

(١) العهن: الصوف.

(٢) مسانح: ما يعرض من الرأي ويسنح.

يعرفُ القِصّة. فاليوم لا غُصة ولا قِصّة. كان الزهد في بواطن القلوب؛ فصار في ظواهر الثياب. كان الزهد حرقة؛ فصار اليوم خِرْقة.

ويحك، صوّفْ قَلبكَ لا جسمك. وأصلح نيتك لا مُرقّعتك. غير زيك أيها المرائي؛ فهو يصيح: خذوني. تحملن السيف، وما تحسن القتال! سيفٌ ودرعٌ لِزَمنٍ هتكة[1]، ولمقعد فضيحة. البهرجُ يتبيّن عند الحكّ. إذا كان العَلَويّ ثابت النسب، لم يحتج إلى ضفيرتين، ولا يصير المخنث تركيا بلبس القباء، ولا المرائي وليا بلبس العباء.

هذه من النكت الخفايا. وفي الزوايا خبايا.

واعجباً، ما الدواعي إلى الدعاوي؟ الباطن ينطق! لمّا علم الصالحون خطر البيات[2]؛ أدلجوا بأحمال الأعمال في ليل الكتْم. كان البكاءُ إذا غلب «أيوب»[3] قال: ما أشد الزكام.

هَبِيني أستُرُ البلوى　　أليس الدمع يفضحني
لساني فيك أملكه　　ودمعُ العين يملكني

صام داود بن أبي هند أربعين سنة لم يعلم به أحد. كان يأخذ غداءه ويخرج إلى الدكان، فيتصدق به في الطريق. فيظن أهلُ السوق أنه قد أكل في البيت، ويظن أهلهُ أنه قد أكل في السوق.

---

(١) هتكة: فضيحة.

(٢) البيات: الإهلاك ليلا.

(٣) أيوب: السختياني.

لجابر الجرمي:

ومستخبرٍ عن سرِّ ليلى رددته فأصبح في ليلى بغير يقينِ
يقولون: خبرنا فأنت أمينها وما أنا إن أخبرتهم بأمين

كان ابن سيرين يتحدث بالنهار ويضحك. فإذا جاء الليلُ أخذ في البكاء والعويل.

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليلُ هزّتني إليك المضاجعُ
أقضّي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهمَّ بالليلِ جامع

كان خوفهم من الرياء يوجب مدافعة النهار، فإذا خلوا بالحبيب لم يصبر المشوق.

أحنُّ بأطراف النهار صبابةً وبالليل يدعوني الهوى فأجيبُ

لو قدروا على استدامة الكتمان، ما أذاعوا

وكم يقدر المشتاق أن يكتم الوجدا

إذا جن الليل وظلامه؛ ثار شجن المحب وسقامه. ورمى الوجد، فأصابت سهامُه. واستُطلق مزادُ العين؛ فانهلّ سجامه[1]. وطال بالحزين قعودُه وقيامُه.

كم بذكراك ولوعي يا جوىً بين الضلوعِ
هجعَ العاذلُ لكن من لعيني بالهجوع
هي في شغل عن النوم بمرفضّ[2] الدموع
أتغنى بك في الحي كورْقاءٍ سجوع

---

(١) السجام: دمع العين.

(٢) مرفضّ: متحدر متساقط.

لو أبصرتَ طلائعَ الصديقين، في أوائل القوم، أو شاهدت ساقة المستغفرين في أواخر الركب، أو سمعت استغاثة المحبين في وسط الليل.

من رأى البرق بنجد إذ تراءى
سُلِبَ النومَ وأهدى البُرحاءا
فاض فيضاً كجفوني ماؤه
والتظى وهناً كأنفاسي التظاءا
نام سُمّار[1] الدجى عن ساهر
اتخذ الهمَّ سميراً والبكاءا
أسْعدتـه أدمـعٌ تفضحـه
فإذا ما أحسن الدمع أساءا

إذا رأيتم حزينا، فارحموه. وإذا شاهدتم قلقا، فاعذروه. وإذا رأيتم باكيا، فوافقوه.

الدمعُ يخونُ كلَّ كاتم — والحب يحلل العزائم
القلبُ بحبكم لديغٌ — ما أقلقني من الأراقم
والوجدُ يغالب المقاوي[2] — والسالم فيه من يسالم
هذا والغبـن فـي هواكـم — سلمت لكم فما أخاصم
سالت بكم دموع عيني — والدمع بمقلتي يزاحم
أبكي أثر الحبيب كرها — والحزن تهيجه المعالم

(١) السمار: جمع سامر، وهو من يتحدث ويسمر بالليل.

(٢) المقاوي: كذا في المطبوع والمخطوط. ولعل الصواب: (المقاوم).

يـا مانـع مقلتي كـراهـا مـرّ الليلُ ولست نائـم
قد صمت عن الهوى لأحظى في الحب لكم بأجر صائم
هل يُبذلُ ورْدكم لظامٍ حيران على الورود حائم
ناحت فزجرتها حمامٌ مالي تزعجني الحمائم
يرقين إلى ذُرى غصون أنّـى تحملك القوائـم
تبكين وما شجاك شوق شكواك إذاً من العظائم
إن كنت صدقت فاسعديني لا نسمع لومة اللوائم
طارت وبقيت في ضماني لا أبرح والزعيمُ غارم

★ ★ ★

▫ الفصل الرابع والسبعون ▫

إخواني، سار المتقون ورجعنا، ووصلوا وانقطعنا، وأجابوا الداعي وامتنعنا، ونجوا من الأشراك ووقعنا. تعالوا ننظر في آثارهم، وندرس دارس[1] أخبارهم، ونبكي من التفريط على ما نابنا، ونندب ما لحقنا وأصابنا.

للمصنف:

ودّعوا يوم النوى واستقلوا
ليت شعري بعدها أين حلّوا
يا نسيم الريح بلِّغْ إليهم
أن عقدي معهم لا يُحلّ
لي من الريح الشمال انتهالٌ
فإذا هبّتْ سحَيرا فعلٌ[2]
عرّضوا قلبي لسقم طويل
باطنٍ يظهرُ منه الأقل
لو بكت عيني على قدْرِ وجْدي
صار واديهم دما لا يحلّ

سافر القوم على رواحل الصدق، فقطعوا أرض الصبر، حتى وقعوا برياض الأنس. فعبقت قلوبهم بِنَشْر[3] القُرْب، وتعطّرت بنسيم

---

(١) دارس: ذاهب.

(٢) العللّ: إصدار الإبل قبل ريّها.

(٣) النشْر: ريح الطيب.

الوصل. فعادت سكرى من صِرْفِ[١] سُلافِ[٢] الوجْد. وعربدت على عالم الجسم. فكلما ربا الحب ذاب.

خذي بيدي ثم ارفعي الثوب فانظري

ضَنَىَا جسدي لكنني أتكتّمُ

حمائمُ أرواحهم مسجونةٌ في أقفاص أشباحهم. تُصوّتُ لشجو شوقها، وتقلقُ لضيق حبسها.

للمهيار:

بالغور دار وبنجد هوى ... يا لهف من غار بمن أنجدا

يا حبذا الذكرى وإن أسهرت ... بعدك والدمع وإن أرمدا

البكاءُ دأبهم، والدمعُ شرابهم، والجوع طعامهم، والصمت كلامهم. فلو رأيتهم و عُذّالهم، وقد زادوا بالعذل أثقالهم.

سلمت مما عناني فاستهنتُ به

لا يعرف الشجو إلا كلُّ ذي شجنِ

شتّان بين خليّ مطلقٍ وشجٍ

في ربقة الحب كالمصفود في قرن[٣]

أمسيَت تشهد بادٍ من ضنى جسدي

بداخلٍ من جوى في القلب مكتمن

إن كان يُوجب ضري رحمتي فرضىً

بسوء حالي وحِلٌّ للضنى بدني

---

(١) الصرف: الذي لم يُمزج.

(٢) السُّلاف: الخمر.

(٣) القرن: القيد.

منحتُكَ القلبَ لا أبغـي بـه ثمنـا

إلا رضـاك ووافقري إلى الثمـن

أعندك من حديثهم خبر؟ ألك في طريقهم أثر؟

لخالد الكاتب:

رقـدتَ ولم تَرْثِ للساهر وليـلُ المحـبِّ بـلا آخـرِ

ولـم تدر بعد ذهاب الرقاد مـا فعـل الدمعُ بالناظـر

نازلهم الخوفُ فصاروا والهين. وفاجأهم الفكر، فعادوا متحيرين. وجن عليهم الليل، فرآهم ساهرين. وهبّت رياحُ الأسحار، فمالوا مستغفرين. فإذا رجعوا وقت الفجر، بالأجر؛ نادى منادي الهجر: يا خيبة النائمين.

ولمـا وقفنـا والرسائـل بيننـا

دموعٌ نهاها الوجُد أن تتوقفا

ذكرنا الليالي والعقيق وظلّها

الأنيقَ فقطّعنَ القلوبَ تأسفا

جُلّيت أوصافُ الحبيب في حلية الكمال، فقاموا على أقدام الشوق، يسيحون في فلوات الوجد. فلو رأيتموهم، لقلتم: مجانين. هيهات، من لا يعرف مناسك الحج؛ نسب المُحْرمين إلى الخبل. الناس يضحكون، وهم يبكون. ويفرحون، وهم يحزنون. ويناموں، وهم يسهرون.

تركت ليلى أمدّ من نفسي واأسفى للفـراق واأسفـى

لما تمكنّت المعرفةُ من قلوبهم، أثّرت شدّةُ الخوفِ، فارتفعَ

ضجيجُ الوجد.

رأى الصديق طائراً، فقال: طوبى لك يا طائر، تقع على الشجر، وتأكل من الثمر، ولا حساب عليك. ليتني كنت مثلك. وقال عمر: ليتني كنت تبنة، ليت أمي لم تلدني. وقال ابن مسعود: وددت أني إذا متّ لا أبعث. وقال عمران بن حصين: ليتني كنت رماداً. وقال أبو الدرداء: ليتني كنت شجرة تُعْضد[1]. وقالت عائشة: ليتني كنت نسياً منسيا. ودخلوا على عطاء السلمي، وحوله بلل، فظنوه قد توضأ، فقالت عجوز في داره: هذه دموعه.

لصردر

كلُّ سحابٍ أمطرت أرضكم ... حاملـة للمـاء مـن أدمعـي

وكـل ريـح زعزعت تربكـم ... فإنـها الـزفـرة مـن أضلعـي

أتاهم من الله وعيد وقذهم[2]، فباتوا على حرق، وأكلوا على تنغيص. فنومهم نوم الغرقى، وأكلهم أكل المرضى. عجزت أبدانهم، عما حملت قلوبهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

قال فرقد: دخلت بيت المقدس، خمسمائة عذراء، لباسهن الصوف والمسوح. فتذاكرن ثواب الله وعقابه، فمتن جميعاً في مقام واحد. قال أبو طارق: شهدت ثلاثين رجلاً، دخلوا مجالس الذكر، يمشون بأرجلهم صحاحاً إلى المجلس، وأجوافهم والله قرحة. فلما سمعوا الذكر، انصدعت قلوبهم.

(١) تعضد: تقطع.

(٢) وقذهم: الوقذ: شدة الضرب،و القتل بمثقل.

قصوا عليّ حديث من قتل الهوى

إن التآسي روح كـل حزيـن

قال عبدالواحد بن زيد: لو رأيت الحسن، لقلت: قد بُثّ عليه حزن الخلائق. ولو رأيت يزيد الرقاشي، لقلت: مثكل. أقبل ولدُ يزيدٍ يوماً يعاتبه على كثرة بكائه، فجعل يصرخ ويبكي حتى غشي عليه. فقالت أمه: يا بني ما أردت بهذا؟ فقال: إنما أردت أن أهون عليه.

صِحّةُ الشوقِ أحدثتْ علّةَ الصبر

وبُعْدُ المـزارِ زَادَ السّهـادا

كم عذولٍ عليكم رام إصلاحي

فكـان الصلاحُ منه فسادا

كلمـا زاد عذْلـه زاد جـدي

فكلانا فـي أمـره قـد تمادى

من لقلب أصليتموه لظى الجمر

وجنـب أفرشتموه القتـادا[1]

المحب إن تذكّر الربْع، حَنّ. وإن تفكرّ في البعد، أنّ. وإن جنّ عليه الليل، أظهر ما أجن. قُطع عليه رضاعُ الوصال، فلم يَتهنّ.

للمصنف:

يا بريق الحي حرمت المناما

فانقضى الليلُ سهاداً وقياما

---

(٣) القتاد: نبت له شوك.

أترى ما قد أرى يا صاحبي
كيف والشوق بروحي يترامى
يا سقى اللهُ حِمَاهم مُزْنةً
حلبْت أشْطُرها أيدي النّعامى
يا نسيم الريح بلِّغ وأعد
إن نفسي مع أنفاس الخزامى
آه لو عاد زماني بهم
عند جرعاء الحمى عوْدا لِماما
يا ليالينا بذي الأثل ارجعي
أسفا لو أنه يشفي الندامى
يا صحابي بلِّغوا إن جزتُم
بِنَقى الرمْلِ عن الجسم السلاما
إن قلبي يوم طُفْنَا باللوى
ورحلنا عنه بالوجد أقاما
يا غرامي إن شدت وُرْقٌ وهل
علّم الوُرْقَ سوى وجدي الغراما
قلقي في حرقي من أرقي
يرتقي بل ينتقي مني العظاما
طربي في كربي من حربي
تاه بي فيكم ولم أشرب مداما
لو جرت عيني على قدر الأسى
رجع الماءُ بواديهم حراما

الفصل الخامس والسبعون

إخواني، الخلوةَ مَهْر بِكْرِ الفكر، وسُلّم معراج الهمة. حريمُ العزلة مصونٌ من عيب غيث عبث. إذا خلت دارُ الخلوة من الصور؛ تفرغ القلب لملاحظة المعاني.

أوحشتني خلواتي — بك من كل أنيسِ
وتفردت فعاينتك — بالغيب جليسي
ودعاني الوجدُ والحبُّ — إلى المعنى النفيس
فبدا لي أن مهرَ الحبِّ — أنفاسُ النفوس
فكتبت العهد للحب — على طِرْسِ الرسيس[1]

يا هذا، إذا رُزقت يقظة، فصنها في بيت عزلة؛ فإن أيدي المعاشرة نَهّابة. احذر معاشرة الجهال، فإن الطبع لص. لا تصادقن فاسقاً؛ فإن من خان أول منعم عليه: لا يفي لك.

يا أفراخ التوبة: لازموا أوكار الخلوة؛ فإن هرَّ الهوى صَيُود. إياك والتقرب من طَرَفِ الوكْر، والخروج من بيت العزلة، حتى يتكامل نبات الخوافي، وإلا كنت رزق الصائد. الأنس بالإنس رِبْق. المخالطة توجب التخليط. وأيسر تأثيرها تشتيت الهمّ.

أقل ما في سقوطِ الذئبِ في غنمٍ
إن لم يُصب بعضها أن ينفر الغنم

قطع العلائق أصل الأصول. فرّغ لي بيتاً أسكنه. إن الطائر إذا

(١) الطرس: الصحيفة. والرسيس: ابتداء الحب والحمى.

كان زاقّاً[1]: لم يُرسل في كتاب. تأملوا إلى الفرس إذا قدم إلى الماء الصافي: كيف يضرب بيديه فيه حتى يتكدّر؟ أتدرون لم؟ لأنه يرى صورة نفسه في الماء الصافي وصورة غيره؛ فيكدره حتى لا تتبين فيه الصور؛ فيتهنّى بالشرب.

لا يظهر في خلوة المتيّقظ إلا الحق. كان أويس يهرب من الناس، فيقولون مجنون. وصف الرسول ﷺ لأصحابه حِلْية حُلّته، فقوّى توقَ عُمر. وكان في كل عام يسأل عنه أهل اليمن.

ألا أيها الركبُ اليمانون عرِّجوا
علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نُسائلكم هل سال نعمان بعدنا
وحب إلينا بطن نعمان واديا

لما كانت آخر حجة حجها عمر، قام على أبي قبيس. فنادى بأعلى صوته: أفيكم أويس؟

للشريف الرضي:

وإني للشوق من بعدهم	**أُراعي الجنوب[2] مراحا ومغدى**
وأفرح من نحو أوطانهم	**بغيث يجلجل برقا ورعدا**
إذا طلعَ الركبُ يممتهم	**أُحيي الوجوهَ كُهولا ومُرْدا**
وأسألهم عن عقيق الحمى	**وعن أرض نجد ومن حلّ نجدا**
نشدتكم الله فليخبرنّ	**من كان أقربَ بالرمل عهدا**

(١) الزاقّ: الذي له فراخ يزقهّم الطعام.

(٢) الجنوب: أي ريح الجنوب.

هل الدار بالجزْع مأهولة … أنار الربيعُ عليها وأسدى
وهل جلب الغيثُ أخلاقه … على محضرٍ من زَرُودٍ ومبدا

كان أويس يأتي المزابل إذا جاع. فأتاها يوما فنبح عليه كلب، فقال: يا كلب لا توذ من لا يؤذيك. كل مما يليك، وآكل مما يليني. فإن دخلتُ الجنة؛ فأنا خيرٌ منك، وإن دخلتُ النار؛ فأنت خير مني.

ذُلُّ الفتى في الحب مكرمة … وخضوعه لحبيبه شرفُ

كان الصبيان يرمونه بالحجارة، والعقلاء عند نفوسهم يقولون: مجنون. والمحبة تنهاه أن يفسر ما استعجم.

أبثهمُ وجدي وهمْ بيَ أعلم … وأرجو شفائي منهم وهم هم
وكم كدتُ من شوقٍ أبيّنُ مَنْ هُمُ … ويمنعني من ذاك خوفي منهم
وكم عذلوني فيهم غيرَ مرةٍ … فقلتُ لهم واللهُ بالصدقِ أعلم
إذا كان قلبي موثقاً في حبالكم … وجسمي لديكم كيف أفهم عنكم
فإن شئتم أن تعدلوا فتوصّلوا … إلى أن يعود القلب ثم تكلموا

صَاحِبْ أهلَ الدينِ وَصَافِهِمْ، واستفد من أخلاقهم وأوصافهم واسكن معهم بالتأدب في دارهم. وان عاتبوك فاصبر ودارهم[1]. إن لم يكن لكُ مُكْنة البَذر، ولم تطق مراعاة الزرع؛ فقف في رفقة ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٨]. أنت في وقت الغنائم: نائم. وقلبك في شهوات البهائم: هائم. إن صدقت في طِلابهم؛ فانهض وبادر. ولا تستصعب طريقهم، فالمعين قادر.

(١) دارهم: من المداراة.

تعرّض لمن أعطاهم، وسل فمولاك مولاهم.

رُبّ كنزٍ وقع به فقير. ورب فضلٍ فاز به صغير. علم الخضر ما خفي على موسى. وكشف لسليمان ما غطي عن داود. يا هذا، لا تحتقر نفسك. فالتائب حبيب، والمنكسر مستقيم. إقرارك بالإفلاس غنى. اعترافك بالخطأ إصابة. تنكيس رأسك بالندم رفعة. عرضت سلعة العبودية في سوق البيع، فبذلت الملائكة نقد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّح﴾ [البقرة: ٣٠]. فقيل: ما تؤثر سكة دراهمكم. فإن عيب الضارب بسرعة الضرب، أوجب طمسا في النقش. فقال آدم: ما عندي إلا فلوس إفلاس، نقشها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]. فقيل: هذا الذي ينفق على خزانة الخاص. أنين المذنبين: أحب إلينا من زَجَلِ المسبّحين.

واستعذبوا ماء الجفون فعذّبوا الأسـرار حتى درّت الآمـاق

يا معشر المذنبين، إن كان يأجوج الطبع؛ ومأجوج الهوى، قد عاثوا في أرض قلوبكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]. اجمعوا لي عزائم قوية، تشابه زبر الحديد، وتفكروا في خطاياكم؛ لتثور صُعَداء الأسف. فلا أحتاج أن أقول: ﴿انفُخُوا﴾ [الكهف: ٩٦]. شيدوا بنيان العزائم بهجر المألوف، ليستحجر البناء؛ فنستغني أن نفرغ عليه قطرا. هكذا بناء الأولياء قبلكم، فجاء الأعداء ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧].

ليس عزماً ما مرض المرء فيه ليس هماً ما عاق عنه الظـلام

الجد الجد. فما تحتمل الطريق الفتور. ضاقت أيام الموسم،

فجعجعوا[١] بالإبل. كان أسيد الضبي إذا عوتب في كثرة بكائه، يقول: كيف لا أبكي. وأنا أموت غدا؟ والله لأبكين. فإن أدركت بالبكاء خيراً؛ فمنٌ من الله علي. وإن كانت الأخرى؛ فما بكائي في جنب ما ألقاه؟ كانت عابدة لا تنام من الليل إلا يسيراً، فعوتبت في ذلك، فقالت: كفى بطول الرقدة في القبور رقادا.

أيها العذّالُ لا تعذلوا إنما العذلُ لمن يقبلُ

وأرى ليلي لا ينقضي طال ليلي والهوى أطول

تزوج رباح القيسي امرأة، فرأته نائما طول الليل، فقالت: ليت شعري. من غرني بك يا رباح؟

يا عقيقَ الحمى حمى اللهُ مغناكَ وروّى ثـراكَ من مُـزْنِ دمـعِ

من لصّبٍ يَشُوقه لامحُ البرقِ فيرتـاحُ قلبُـه للجـزع

يا خليلي ما أنت لي بخليلٍ ورفيقٍ إن لـم تقف بالرَّبـع

هذه طريقهم: فأين السالك؟ هذه صفاتهم: فأين الطالب؟

هذي المنازل والعقيق فأيـن سلمى والخيـام

لم يبق مذ صاحوا النوى لميتـمٍ فيهـا مقـام

* * *

---

(١) جعجعوا: صيحوا وحثوا واستنهضوا.

الفصل السادس والسبعون

أيها المقصر عن طلب المزاد، كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟ أين أهل السهر من أهل الرقاد؟ أين الراغبون في الهوى من الزهاد؟ رحل المتيقِّظون مستظهرين بكثرة الزاد. كلٌّ جوادٍ لهم، يعرف الجواد[1]. فساروا، فزاروا، والكسلان عاد.

للشريف الرضي:

يا قلبُ ما أنت من نجد وساكنه
خلّفتَ نجداً وراء المدلج[2] الساري
أهفو إلى الركب تعلو لي ركائبهم
من الحمى في أسيْحاقٍ وأطمار[3]
تفوحُ أرواحُ نجدٍ من ثيابهم
عند القدومِ لقربِ العهدِ بالدار
يا راكبان قفا لي فاقضيا وَطَري[4]
وحدّثاني عن نجدٍ بأخبار
هل روّضت قاعة الوعساء أم مطرت
خميلة الطاح ذات البان والغار

---

(١) الجوادّ: الطرق. جمع جادّة: وهي الطريق.

(٢) المدلج: السائر ليلاً.

(٣) أسيْحاق: السّحْقُ: الثوب البالي. والأطمار: جمع طمر: الثوب البالي، أو الكساء الخلق.

(٤) وطري: الوطر: الحاجة.

أم هل أبيتُ وداري عند كاظمة
داري وسمار ذاك الحي سماري
فلم يزالا إلى أن تمّ بي نفسي
وحدث الركب عني مدمعي الجاري

لما صفت خلوات الدجى؛ نودي آذن الوصول: أقم فلانا وأنم فلانا. خرجت بالأسماء الجرائد، وفاز الأحباب بالفوائد.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لامرأتي رابعة وقد قامت من أول الليل: قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه. ما رأينا من يقوم من أول الليل. فقالت: سبحان الله، مثلك يقول هذا؟ أما أقومُ إذا نُوديت؟

للمتنبي:

تقولين: ما في الناس مثلك وَامِق[1]
جدي مثل من أحببتُه تجدي مثلي
ذريني أنل ما لا يُنال من العلى
فصعب العلى في الصعب والسهلُ في السهل
تريدين إدراكَ المعالي رخيصةً
ولابد دون الشهد من إبر النحل

لما دارت كؤوس النوم. على أفواه العيون، فسكِرَتْ بالشراب الألباب، فطرحت الأجساد على فراش: ﴿يتوفى﴾ [الزمر: ٤٢] صاحت فصاحة الحب بالمحب: «كل مسكر حرام»[2]، فلما نفخ في صور

(١) الوامق: المحبّ.

(٢) البخاري في المغازي: (٤٣٤٣)، ومسلم في الأشربة: (١٧٣٣).

الإيقاظ في إبّان: ﴿وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٤٢]. قام أموات النوم، وقد رحل سفر الوصال. فلم يروا إلا آثار القرب في مناخ[١] الأحباب. وأثافي[٢]: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦]. ستر القوم قيامهم بالليل؛ فستر جزاءهم أن يطلّع عليه الغير ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ [السجدة: ١٧]، فلو عاينتهم، وقد دارت كؤس المناجاة. بين مزاهر[٣] التلاوة، فأسكرت قلب الواجد، ورقمت في صحائف الوَجَنَات: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وتمشت في مفاصلهم   كتمشي البرْء في السقم

اشتهر بقيام الليل كله، وصلاة الفجر بوضوء العشاء: سعيد ابن المسيب، وصفوان بن سليم، ومحمد بن المنكدر: المدنيون. وفضيل، ووهب: المكيان. وطاوس، ووهب: اليمانيان. والربيع ابن خيثم، والحكم: الكوفيان. وأبو سليمان الداراني، وأبو جابر: الفارسيان. وسليمان التيمي، ومالك بن دينار، وزيد الرقاشي، وحبيب العجمي، ويحيى البكاء، وكهمس، ورابعة: البصريون.

قالت أم عمرو بن المنكدر: يا بني أشتهي أراك نائما. فقال: يا أماه، إن الليل ليرد علي، فيهولني، فينقضي عني وما قضيت منه مآربي. وصحب رجل رجلا شهرين، فما رآه نائما. فقال: مالك لا تنام؟ فقال: إن عجائب القرآن أطرن نومي. ما أخرج من

---

(١) المناخ: موضع الإناخة والنزول.

(٢) الأثافي: حجارة القدْر.

(٣) مزاهر: جمع مزهر: العود.

أعجوبة، إلا وقعت في أخرى.

لا تلحه[١] إن كنت من سجرائه[٢] عذلُ المحبِّ يزيد في إغرائه
ودع الهوى يقضي عليه بحكمه ما شاء فهو مُسلِّمٌ لقضائه
فشقاؤه فيما يراه نعيمَه ونعيمه في ذاك عين شقائه
كحلت مآقيه بطول سهاده وحنت أضالعه على بُرُحَائه[٣]
دَنِفٌ ببابل جسمه وفؤاده بالخيف واعجبا لطول بقائه

قال سفيان: إن لله ريحا تسمى الصبحية. مخزونة تحت العرش، تهب عند الأسحار؛ فتحمل الأنين والاستغفار.

للمهيار:

يا نسيمَ الريحِ من كاظمة شدّ ما هجْت الأسا والبرحا
الصبا إن كان لابد الصبا إنها كانت لقلبي أروحا
اذكرونا ذكرنا عهدكم رُبَّ ذكرى قرّبت من نزحا
وارحموا صباً إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

يا طويل النوم، فاتتك مِدْحة: ﴿تَتَجَافَى﴾ [السجدة: ١٦]، وحُرِمتَ مِنْحة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِين﴾ [آل عمران: ١٧]، ولست من أهل عتاب: «فإذا جَنّه الليل نام عني». ليس في ليل الهجر منام. ومتى رأيت محباً ينام؟

---

(١) تلحه: تنازعه. من الملاحاة.
(٢) سجرائه: السجراء جمع سجير، وهو الخليل الصفي.
(٣) البُرَحاء: شدة الأذى.

للمتنبي:

فــإن نهــاري ليــلةٌ مُدْلهمّةٌ على مُقْلة من فقدكم في غياهبِ

بعيدة ما بين الجفون كأنما عقدتم أعالي كلّ هدْبٍ بحاجب

ثُوِّرت في الليل الحداة، وعكمت(١) أحمال الأعمال، وسارت رفقة المتهجدين، وترنم كلُّ ذي صوتٍ بشجو. وأنت في الرقْدة الأولى بعد.

لم يخلُ مرجانُ دمعٍ من عقيقِ دمٍ

شوقٌ بـلا عَبْـرة سـاقٌ بـلا قـدم

يا هذا، كيف تطبق السهر مع الشبع؟ كيف تزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل؟

دع الهـوى لأنـاسٍ يُعرفـون بــه

قد مارسوا الحب حتى لان أصعبه

بلوت نفسَكَ فيما لست تخبره

والشيء صعب على من لا يُجرّبه

فاثْنِ(٢) اصطباراً وإن لم تستطع جَلَداً

فــرُبَّ مـدرك أمـرٍ عـزّ مطلبــه

أحنو الضلوع على قلب يحيرني

فــي كــل يــوم ويعييني تقلّبــه

تنـاوُحُ الريــحِ مـن نجـدٍ يُهيّجه

ولامعُ البـرق من نعمـان يُطـر بـه

(١) عكمت: شُدّت وربطت.

(٢) في المخطوط: «مت».

الفصل السابع والسبعون

إذا هبت رياح المواعظ؛ أثارت - من قلوب المتيقِّظين - غيم الغمِّ على ما سلف. وساقته - إلى بلد الطبع المنحرف - برعد الوعيد، وبرق الخشية. فتترقّى دموع الأحزان، من بحر قعر القلب إلى أوج الرأس. فتسيل في ميازيب الشئون[1] على سطوح الوجنات. فإذا أعشب السر؛ اهتز فرحا بالإنابة.

محتْ بعدكم تلك العيون دُموعُها
فهل من عيونٍ بعدها نستعيرُها
رحلنا وفي سرِّ الفؤاد ضمائرٌ
إذا هب نجدي الصبا يستثيرها
أتنسى رياض الغور بعد فراقها
وقد أخذ الميثاق منك غديرها
يُجعّده مرُّ الشَّمال وتارة
يُغازله كرُّ الصبا ومرورها
ألا هل إلى شم الخزامى وعرعرٍ
وشيحٍ بوادي الأَثْل أرضٌ نَسيرها
ألا أيها الركب العراقيّ بلِّغوا
رسالة محزونٍ حواه سطورها
إذا كتبت أنفاسُه بعضَ وَجْدها
على صفحة الذكرى محاه زفيرها

(١) الشئون: مجاري الدمع.

ترفق رفيقي هل بدت نارُ أرضهم
أم الوجْدُ يُذكي ناره ويُثيرها
أعدْ ذِكْرَهم فهو الشفاء وربما
شفى النفسَ أمرٌ ثم عاد يُضيرها
ألا أين أزمان الوصال التي خلت
خلا ما حلا منها وجاء مريرها
سقى الله أياما مضت ولياليـاً
تضوّع ريّاها وفاح عبيرها

من تفكرّ في تفريطه: أنّ. ومن تذكّر أيام وصله؛ حنّ. من سمع صوت الحمام؛ ظنه لحسن الصوت غناء. كلا، بل لذكر ما مرّ من العيش ناح. إذا نظر الأسير إلى نفسه في ضيق القد، ولم يقدر على ضك القيد، قطع حزنُه حيازيمَ القلب. فنفسه بالأسف في آخر نفس

تَهِيمُ إذا ريحُ الصَّبا نَسَمَتْ لها
وتبكي إذا الورْقاء في الغصن غنّت
إذا جذبَ الصبحُ اللثامَ تأوّهتْ
وإن نشر الليلُ الجناحَ أرنت

كان «داود»، يؤتي بالإناء ناقصا، فلا يشربه حتى يتمه بالدموع.

يا ساقي القوم إن دارت عليّ فلا
تمزج فإني بدمعي مازجٌ كاسي

كان في خد عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء. وكان

في وجه ابن عباس كالشِّراكيْن الباليين من الدمع.

للمهيار:

ألا مَنْ لِعيْنٍ منْ بُكاها على الحمى
تجفّ ضروع المزن وهي حلوب
بكت وغدير الحي طامٍ وأصبحت
عليه العطاش الحائمات تلوب[1]
وما كنت أدري أن عيناً ركية[2]
ولا أن ماء الماقيين شروب

كان الحسن يبكي حتى يُرحم. وكان الفضيل بن عياض يبكي في النوم حتى ينتبه أهل الدار ببكائه. وكان عطاء يبكي في غرفة له حتى تجرى دموعه في الميزاب. فقطرت يوما إلى الطريق على بعض المارين. فصاح: أهل الدار، أماؤكم طاهر؟ فصاح عطاء: اغسله فإنه دمع من عصى الله.

وَمَنْ لُبّه مع غيره كيف حاله ومن سِرّه في جفنه كيف يكتم

وقالوا لعطاء السلمي: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي أن أبكي حتى لا أقدر أن أبكي.

وإن شفائي عَبْرةٌ مُهراقةٌ فهل عند رسمٍ دارس من مُعوّلِ

كان أشعث الحداني، وحبيب العجمي، يتزاوران، فيبكيان طول النهار. وكان حزام وسهيل وعبدالواحد، كل واحد في بيت،

(١) تلوب: تحوم حول الماء وهي عطشى.
(٢) الركية: البئر.

يتجاوبون بالبكاء.

للخفاجي:

ركبُ هوىً تجاذبوا حديثه فأترعوا من الغرام أكؤسا
وأسبلوا من الجفون أدمعا ظننتها ماءً وكانت أنفسا
لقد سمعتُ في الرِّحالِ أنَّةً أظنها نشطة وجْدٍ حُبسا

البكاء موكل بعيون الخائفين، كلما همت بفتح طرْفٍ، لتنظر إلى طَرَف من طُرَفِ الدنيا؛ طرفته دمعة. قال عليه السلام: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[1].

قال الحسن: لو بكى عبد من خشية الله. لَرُحِمَ مَنْ حوله، ولو كانوا عشرين ألفا. وقيل لثابت البناني: عالج عينيك ولا تبك. فقال: أي خير في عين لا تبكي.

لصردر:

إذا لم أفز منكم بوعدٍ ونظرةٍ إليكم فيما نفعي بسمعي وناظري
متى غنّت الورْقاء كانت مدامتي دموعي وزفراتي حنين مزاهري

البكاء لأجل الذنوب: مقام المريد، والبكاء على المحبوب: مقام العارف.

روحي إليك بكلّها قد أجمعت لو كان فيك هلاكها ما أقلعت
تبكي عليك بكلها عن كلها حتى يقال من البكاء تقطعت
فانظر إليها نظرةً بتعطّف فلطالما متعتها فتمتعت

إخواني، حر الخوف: صيف الذوبان. وبرودة الرجاء: شتاء

(١) رواه الترمذي في الجهاد: (١٦٣٩).

الغفلة. ومن لطف به، كان زمانه كله فصلا.

عينٌ تُسرُّ إذا رأتك وأختها تبكي لطول تباعدٍ وفراق
فاحفظ لواحدةٍ دوامَ سرورِها وعدِ التي أبكيتها بتلاق

سبحان من روح أرواح الخائفين بريح الرجاء. الضعيف إذا لم يتلاف تلف. لابد للمكروب من نسيم بارد.

بالله يا ريح الشَّمال إذا عزمت على الهبوب
فتحمّلي شكوى المحبِّ المستهام إلى الحبيب
قَرُبَ الضنى من مُهجتي لمّا بعدتُ عن الطبيب

وقف عتبة الغلام ليلة على ساحل البحر إلى الصباح يقول: إن تعذبني فإن لك محب، وإن ترحمني فإني لك محب. يا قومنا، المحب مع بذل روحه، يرتاح إلى المنى وإلى لعلّ؛ لأنه لا يرى ما بذل يصلح ثمنا لما طلب.

بقلبـي منهـم علـقُ ودمعي فيهم عَلَقُ
وبي من حبهـم حـرق لها الأحشاءُ تحترق
وما تركوا سوى رمقي[1] فليتهـم لــه رمقــوا

كان عبدالواحد يقول لعتبة: ارفق بنفسك. فيبكي ويقول: إنما أبكي على تقصيري.

قالوا: تصبّر فما هذا الجنون بهم
فقلت: يا قوم ليس القلب من قبلي

واعجبا. أو يقدر المحب على التصرف في قلبه؟ كلا. دينُ

(١) الرمق: آخر النفس.

المحبّ الجبر[1].

لأبي الشيص الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخِّرٌ عنه ولا متقدَّمُ

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمني اللّوّم

دخلوا على «رابعة» فقالت: لقد طالت علي الأيام بالشوق إلى لقاء الله تعالى. ودخلوا عليها مرة أخرى. فقالوا: أتشتاقين إليه؟ فقالت: هو حاضر معي. يا رابعة هذا ضد الأول. أجابت بلسان الحال: هكذا تحيُّر المحبّ.

ومن عجب أني أحنّ إليهم ... وأسأل عنهم من أرى وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

إذا بدت رابعة في القيامة مختمرة؛ وقعت لهيبة خمارها طيالسة العلماء. كان سفيان يتأدب لرابعة. كان هو صاحب مخزن العلم؛ فتردد إلى القهرمانة[2]؛ لأن لها دخولا أكثر منه، رحل المُلاّك وبقي المدّعون. أترى أي طريق سلكوا؟ نحن مُلِكْنا؛ والقومُ مَلَكوا.

للشريف الرضي، وللمهيار:

يا صاحبيْ رحْلي قِفا ... فسائلا لي الدِّمنا

وأمطرا دمعكما ... ذاك الكثيب الأيمنا

ما الدار عندي سكن ... إذا عدمت السكنا

(١) أي مذهبه في ذلك هو الجبر لا الاختيار.

(٢) القهرمانة: خادمة الملك.

كـان فـؤادي وهـم فظعنـوا فظعنـا
متى لعيني أن ترى تلك الثلاث من منى
ويوم سلْع لـم يكن يومـي بسلْـعٍ هيّنـا
ويـوم ذي البـان تبا يعنا فحزت الغبنا[١]
كان الغرام المشتري وكـان قلبـي الثمنـا
وبـارق أشيمـه[٢] كالطّرْف أغضى ورنا
ذكرنـي الأحباب والـ ذكرى تهيج الحزنا
من بطن مرٍ والسرى تـؤمّ عُسفـان بنـا
وبالعـراق وطـري يـا بعـد مـا لاح لنـا

★ ★ ★

(١) الغبن: الخداع.

(٢) شام البرق: نظر إليه: أين يمضي؟ وأين يمطر.

الفصل الثامن والسبعون

المحب يتعلق بكل شيء، ويهيم في كل واد. على القلق يمشي، وعلى الحرق يُمسي.

بقيتُ على الأطلال من بعدكم مُلقى

أهيمُ بكم غربا وأطلبكم شرقا

وأسأل أنفاس الرياح إذا جرت

يمانية عنكم واستنبئ البرقا

كان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء، ويبدو إلى التلاع[1]. مقاساة الخلق ظُلْمة. والحبيب لا يتجلّى إلا في خلوة.

وأخرج من بين البيوت لعلني

أحدّثُ عنك النفس في السر خاليا

المحب مقتول بلا سيف، ملقىً في مِنى المُنى لا عند الخيف. إذا سمعَ صوتَ منشدٍ قد غرّد؛ خلع لجام الصبر وتشرّد.

ولما غرد الحادي وسار القوم في الوادي

وراح القلب يتبعهم بلا ماء ولا زاد

رأيت قتيل بَيْنِهم صريعا ماله فاد

أول علامات المحبة دموع العين، وأوسطها قلق القلب، ونهايتها احتراقه.

---

(١) التلاع: جمع تلعة. وهي ما ارتفع من الأرض، وما اتسع من فم الوادي.

لقيس ذريح:

هل الحبُّ إلا زفرة بعد زفرة
وحرٌّ على الأحشاء ليس له برد
وفيضُ دموعٍ تستهلُّ إذا بدا
لنا علم من أرضكم لم يكن يبدو

قال ذو النون: لقيت امرأة متعبدة، فوعظتني فبكيت. فقالت: لم تبكي؟ قلت لها: فالعارف لا يبكي؟ قالت: إذا بكى استراح، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه.

لا وحُبِّك لا أصافح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استراح وإن كان موجعا
كبدي في هواك أهون من أن تقطعا
لم تدع سورة[1] الضنى فيّ للسقم موضعا

المحبة نزالة، وقوتها المهج. كانت أضلاع عمر بن عبدالعزيز تُعدّ. وكان جسد سري كالشنّ. وقف أبو يزيد في المحراب فكبّر، فتقعقت عظامه.

وإني لتعروني لذِكْراك روعةٌ لها بين جلدي والعظام دبيب
فما هو إلا أن أراها فجأة فأبهت حتى لا أكاد أُجيب

إذا رأيت محباً. ولم تدر لمن؟ فضع يدك على نبضه. وسَمِّ كلَّ من تظنه المحبوب. فإن النبض لا ينزعج إلا عند ذكره ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

---

(١) سورة الشيء: شدته.

للمهيار:

ألا فتى يسأل قلبي ماله ينزو إذا بَرْقُ الحمى بدا لـه

فهبّ يرجو خبرا من الحمى يسنده عنه فما روى لـه

أراد نجداً معه فانتقضت إرادة هاجت لـه بلْبالـه

وانتسم الريح الصبا ومن له بنفخة من الصَّبا طوبى لـه

المحبٌ في قلق لا سكون، والعجبٌ أنه يتكلف الثبات.

الوجدُ يُحرقة والليلُ يُقلقه والصبر يُسكته والحبُّ يُنطقه

ويستر الحال عمن ليس يعذره وكيف يستره والدمع يسبقه

المحب يبالغ في كتمان وجده؛ غير أن الدمع نمام.

آفة السر من جفو نٍ دَوَامٍ دوامـعِ

كيف يخفى من الدمو عِ الهوامي الهوامعِ[1]

كان أكثر القوم إذا جاءه البكاء دافعه؛ اتقاء اللاحي له. فيغلبه فلا حيلة.

للمتنبي:

حاشى[2] الرقيب فخانته ضمائره وغيّضَ الدمع فانهلّت بوادره

وكاتمُ الحبِّ يوم البيْن مفتضحٌ وصاحبُ الوْجدِ لا تخفى سرائره

إذا أقلقه الحب، ضجّ. وإذا أرقه الشوق، عجّ. وكلما حبس دمعه، ثجّ. وإذا استوحش من الخلق، هجّ. فالهموم تنوبُه من كل فج. حُشيت قلوب القوم بالغموم: حشو الورد في قوارير

---

(١) الهوامع: التي تسيل.

(٢) حاشى: تحاشى.

الزور. وكلما التهبت نار الحذر؛ جرت عيون الدمع في جداول العيون. فرشت على الخدود ماءً؛ ما ماء الورد عنده بِطيب.

لابن المعتز:

أسرَ القلب فأمسى لديه فهو يشكوه ويشكو إليه

عذّب الأحباب بالهجر حيناً فهم يبكون بين يديه

واعجباً لضعف بدن العارف، كم يحمل؟ وأسفا لقلب المحب، كم يصبر؟

نعم تحمل الأشواق والعيس ظلع[1]

ويمشي الهوى والناقلات قعود

ما أقوى جلَد جلْد القلب على نار الحب. كأنه قد ألبس ريش السمندل[2]. على أنه لابد من لذع يبين أثره. في صعود الصعداء دلالة تدل على الحريق. اشتط اللهيب، فشاطت القلوب. لولا أن القوم على شواطئ بحر الدموع نزول.

للشريف الرضي:

خذي حديثك في نفس من النفس

وجْدُ المشُوقِ المعنّى غيرُ ملتبسِ

الماء في ناظري والنار في كبدي

إن شئت فاغترفي أو شئت فاقتبسي

أشد ما على المحب، من مقاساة الحب، سماع اللوم. واعجبا

---

(١) الظلع: غمز البعير في مشيه.

(٢) السمندل: طائر بالهند زعموا أنه لا يحترق بالنار.

من خليٍّ يعذل ذا شجى. ويحك خل شأنه وشأنه.

فيا حبهم زدني جوىً كلَّ ليلة

ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ

لما أسلم سعد بن أبي وقاص، قالت له أمه: والله لا آكل ولا أشرب ولا يظلني سقف بيت، حتى تكفر بمحمد. فقال: اسمعي يا أماه؛ والله لو كان لك مائة نفس، فخرجت واحدة بعد واحدة؛ لم أكفر بمحمد. ويحها. ماخبرت خبر المحبة؟ متى وقع السلوُّ[1] في حبٍ صادق؟

للمتنبي:

عذْلُ العواذِل حول قلبي التائه

وهوى الأحبة منه في سودائهِ

القلبُ أعلمُ يا عذولُ بدائه

وأحقُّ منك بجفنه وبمائه

فو من أحب لأعصينّك في الهوى

قسماً به وبحسنه وبهائه[2]

أأحبه وأحب فيه ملامةً

إن الملامة فيه من أعدائه

لا تعذل المشتاق في أشواقه

حتى تكون حشاك في أحشائه

---

(١) السلوّ: التسلي والنسيان.

(٢) سبق التنبيه مرار إلى أن الحلف بغير الله لا يجوز.

واعجباً. لعاذلٍ في حبٍ ما ذاقه. وآمرٍ بهجرِ حبيبٍ ما شاقه.

ومـاذا عـلـى مُفـردٍ بالعـراق تذكّر بالرمْلِ عهْداً فحنّا

وإنـي لكـل شـجٍ عــاذرٌ إذا نـاح من طربٍ أو تغنّى

كانت أم الربيع بن خثيم، إذا رأيت قلقه بالليل. قالت: يا بني لعلك قتلت قتيلاً؟ فيقول: يا أماه قتلت نفسي. قيل لعابد كان ينتحب[1]: إنك تفسد على المصلين صلاتهم، بارتفاع صوتك. فقال: إن حزن القيامة أورثني دموعاً غزاراً، فأنا أستريح إلى ذرْفها أحيانا.

مهلا عذولُ صُليتَ نارَ جوانحي

وغرقت في تيار دمعي المسْبَلِ

هذي حشاي لديك فانظر هل ترى

قلباً فـإن صادفت قلبا فاعـذل

غاية العاذلين إيصال اللوم إلى الأسماع، فأما القلوب فلا سبيل إليها.

سِيّان إن لاموا وإن عذروا مالي عن الأحباب مصطبرُ

لا غــرو أن أغـرى بحبهـم إذ ليس لي في غيرهم وطـر

لابــد لـي منهم وإن تركـوا قلبي بنـار الهجـر يستعـر

وعليّ أن أرضى بما صنعوا وأطيعهم فـي كـل مـا أمروا

لو رأيت المحب، يهرب من العذْل إلى فلواتِ الخلوات، فإذا ناوله الوجد كأس الدموع؛ اقترح عليه غناء الحمائم.

---

(١) الانتحاب: النفس الشديد مع البكاء الشديد.

ذكــر الأحبــاب والوطنــا والصبـا والإلــف والسكنـا

فبكى شجـوا وحُقَّ لــه مُدّنفٌ[١] بالشوق حِلْفُ ضنى[٢]

أبعدت مرمى به رجمت من خراسـان بـه اليمنـا

مـن لمشتـاق تُميّلـه ذاتُ سجـعٍ ميّلت فنـنا

لم تعرض في الحنين بمن مسعـد إلا وقلـت أنـا

لك يـا ورقـاء أسوة من لم تذيقي طرْفه الوسنا[٣]

بك أُنسي مثل أُنسك بي فتعالـي نبـد مـا كمنـا

نتشاكـى مـا نجـنّ إذا بُحتِ شكوى صحتُ واحزنا

أنا لا أنت البعيد هوى أنا لا أنت الغريـب هنـا

أنا فـرد يـا حمام وهـا أنـت والإلـف القريـن ثنا

اسْرَحا رأد النهار[٤] معا واسكنا جنح الدجى غصنا

وابكيـا يـا جارتي لمـا لعبت أيدي الفراق بنا

أين قلبـي مـا صنعت بـه ما أرى صـدري لـه وطنـا

كان يوم النفر وهـو معـي فأبـى أن يصحب البدنـا

أبه حـادي الرفـاق حـدا أم له داعـي الفـراق عنـى

★ ★ ★

---

(١) المدنف: من به دنف، وهو المرض الملازم.

(٢) حلف ضنى: ملازم للضنى وحليف.

(٣) الوسن: النعاس.

(٤) رأد النهار: ارتفاعه.

الفصل التاسع والسبعون

يا هذا، قد سمعت أخبار المتقين؛ فسر في سرْبهم. وقد عرفت جدهم؛ فتناول من شرْبهم. ثم سل من أعانهم يُعْنِك، بما كان لهم.

لا يؤيسنّك من مجدٍ تباعُـدُه
فإن للمجـدِ تدريجاً وترتيبا

إن القناة التي شاهدت رفعتها
تنمـي وتنبـت أنبوبا فأنبوبا

استغنى القوم بِطِيبِهم عن مدح خطيبهم، فاسلك طريقهم؛ تكن رفيقهم.

لابن الرومي:

وسائلٍ عنهم: ما ذا يُقدّمهمْ
فقلت: فضلٌ به عن غيرهم بانوا

صانوا النفوس عن الفحشاء وابتذلوا
منهن في سُبل العلياء ما صانوا

المنْعِمُونَ وما منّوا على أحد
يوما بِنُعْمَى ولو منّوا لما مانوا[1]

قومٌ يعزّون إن كانت مغالبة
حتى إذا قدرت أيديهم هانوا

أطار خوفُ النارِ نومَهم. وأطال ذكرُ العطشِ الأكبرِ صومَهم.

---

(١) مانوا: يقال: مانه: قام بكفايته.

يحسبهم الناظرُ مرضى الأبدان؛ وإنما بهم سقام الأحزان.

مكتئبٌ ذو كبدٍ حرّى … تبكي عليه مقلة عبرى
يرفع يمناه إلى ربه … يشكو وفوق الكبد اليسرى
يبقى إذاحدثته باهتاً[1] … ونفسه مما به سكرى
تحسبه مستمعاً ناصتاً … وقلبه في أمة أخرى

إذا ذكروا العفو، طاب العيش. وإذا تصوروا العذاب، جاء الطيش.

أمدّ بإحدى مُقلتي إذا بدت … إليها وبالأخرى أراعي رقيبها
وقد غفل الواشي ولم يدر أنني … أخذت لعيني من حبيبي نصيبها

قال صالح المري: كان عطاء السلمي. قد اجتهد حتى انقطع، فصنعت له شربة سويق، فلم يشرب. فقال: إني والله كلما هممت بشربها؛ ذكرت قوله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣]. فلم أقدر. فقلت: أنا في واد وأنت في واد.

أطلتِ وعّذْبتَني يا عذولُ … بُليتُ فدعني حديثي يطول
أبيتُ أراقب نجم الدجى … إلى الصبح وحدي ودمعي يسيل

انبعثت غيوم الغموم. من أودية القلوب، فاستتمت قُبيل الصبح، فهطلت. فلها مع الشئون شئون. فجرت الأرواح في موتى العيدان، فقدحت فحرقت. فارتقت وُرْقُ الشوقِ منابرَ الشدْو؛ فأطربت. فصدحت بلابلُ المحبة، بين منثور منثورها؛ فبلبلت.

---

(١) باهتا: مبهوتا.

يا نفحات الريحُ مُرّي سحراً فبلبلي طَـرَّةَ[1] أرض بابـل
صفـي لأهـل بابـل بلابلـي وبلّغيهم في الهوى رسائلي
كـم من دم طاح بغير ثائـر وكـم قتيـل كَلَف[2] بالقاتـل

قلب المحب تحت فحمة الليل جمرة؛ كلما هب النسيم التهبت.

يمر الصَّبا صفْحا بساكن ذي الغضا
ويَصدع قلبي أن يهب هبوبها
قريبةُ عهدٍ بالحبيب وإنما
هوى كلِّ نفسٍ حيث حلّ حبيبها

سهر القوم يقع ضرورة؛ لأن القلق مانع من النوم. وليس لهم في تلك الشدائد رائحةٌ سوى جريان الدموع.

للسري:

بلاني الحبُّ فيك بما بلاني فشأني أن تفيض غروب شاني
أبيت الليـل مرتفقـاً أناجـي بصدق الوجـد كاذبـة الأماني
فتشهد لـي علـى الأرق الثريّا ويعلـم مـا أجـن الفرقدان[3]
فيا ولَـعَ العـواذل خـلِّ عني ويا كفّ الغرام خُذي عَناني

من صلى بالليل، حسن وجهه بالنهار. شيمة المحبة، لا تخفى. وصحائف الوجوه، يقرؤها من لم يكتب.

خذي حديثك في نفسي من النفس

---

(١) الطرّة: شفير النهر والوادي، وطرف كل شيء وحرفه.
(٢) كلف: متعلق.
(٣) الفرقدان: نجمان يهتدى بهما.

قطعت نياقُ جدِّهم باديةَ الليل، ولم تجد مس تعب. الطريق إلى المحبوب لا تطول.

بدا لها من بعد ما بدا لها[١] روضُ الحمى أن تشتكي كلالها
فخلِّهـا تمـرح فـي زِمامهـا فإنها قد سئمت عِقالهـا
أذكَرهـا مـرُّ النسيم سَحَراً مراتعـا تفيّـأت ظلالهـا
رنّحها الشوقُ المُمِضُّ والسرى فسحبت من وجدها جِلالها[٢]
تحسبها سكرى وما ذاك بها وإنمـا شـوق الحمـى أمالهـا

يا رب، قرِّب أرض كنعان من مصر؛ فقد نفذ صبر يعقوب. كان أبو يزيد، يقول: إلهي، إلى متى تحبس أعضاء مُحبّيك تحت التراب؟ احشرهم، واجعلني جسراً ليعبروا إليك.

وا ويلاه. أنا أشرب. وأنا أطرب. يتركوني أسيرَ وجْدي، أسيرُ وحدي. هلاّ سعت معي رِجْلُ رجل؟ أو أعانني ساعد مساعد؟ أين شرط الرفقة؟ أو ما العزاء للكل؟

لو عدلتُنّ تساهمنا[٣] جوىً مثل ما كُنّا اشتركنـا نظـرا

يا حاضرين عندنا بِنّية التنزّه؛ لستم منا. عودوا إلى أوكار الكسل. فالحرب طعنٌ وضرب. يا مودّعين ارجعوا، فقد عبرنا العذيب. دعونا نَخْلُ بالوجد في صحراء نجد. ستأتيكم أخبارنا

(١) (بدا): الأولى: من قوله: بدا له في الأمر: نشأ له فيه رأى جديد. والثانية: بمعنى ظهر.
(٢) الجلال: جمع جلّ، بكسر وضم الجيم. وهو ما تُلبسه الدابة لتصان به.
(٣) تساهمنا: تقاسمنا.

عن قريب، بعد فيد[١]. وأنت أيها الحادي، عُرْض[٢] المأزمين والخيف، تعلمك الدموع كيف ترمي حصى الخذف.

ألا غنِّياني بالـديـار فإنـنـي أحب زَرُوداً ما أقام ثراهـا

وبين النّقى والأنعمين مَحلّةٌ حبيبٌ لقلبـي قاعُهـا ورُباهـا

ونعمانُ يا سقياً لنعمان ما جرتْ عليه النّعامى[٣] بعدنا وصَباها

وللقلب عند المأزمينِ وجمْعِها ديونٌ ومقضى خِيفها ومِناها

★ ★ ★

(١) فيد: قلعة بطريق مكة.

(٢) عرْضَ: من جانب.

(٣) النعامي: ريح الجنوب، أو ريح بينه وبين الصبا.

الفصل الثمانون

يا مقيما في دائرة الغِيَر[١]. كم حضرت فيها مُحتَضَر؟ كم عاينت عينك قبراً يُحتفر؟ لقد ألانت مواعظُها كلِّ صلدٍ حجر. عجبا لفرخها، ما عيّد حتى نُحر.

إن فـي نـأي زمانـي عظـة	تُشغلُ العاقَل عن نأي زُنام[٢]
ومدام الفكر فيمن قد مضى	مُسْكرٌ يغنيك عن شـر مدام[٣]
عرّس القومُ[٤] وغِرْبانُ الدجى	إنما صاحت بتقويضِ الخيام
وحمامـات الضحى صادحـةٌ	نَوْحُها ينذرهـا صرف الحمـام
ومطايا الخيف قد زمت[٥] لكم	ودّعوا يا قـومُ وامضوا بسلام
ودَعُوا عنكم أباطيلَ المنى	ليست الدنيـا لنـا دار مقـام
أقسم الساقي بكاسات الردى	لَيدورنَّ على كلِّ الأنـام

يا من إذا عامل خان وظلم. يا من أمر بما ينفعه فلم. هذا القتير[٦] في الرأس كالعلم. أبقي بعد نوره يا ظالم ظلم؟ ألم يقل لك: ألمّ الضعفُ، انتبه؟ ألم؟ أين رفيقك؟ أدلج. وقد عرفت المنهج. والرحيل قد أزعج. وهذا فرسٌ مُسْرَج. والبضاعةُ كلُّها بَهْرج.

ويحك. تَعاهد قلب؛ فإذا رأيته قد مال إلى الهوى، فاجعل

(١) الغير: التغير والتبدل.
(٢) الزُّنام: الداهية.
(٣) المدام: الخمر.
(٤) عرس القوم: نزلوا آخر الليل.
(٥) زمّت: شد عليها المتاع.
(٦) القتير: الشيب، أو أوّله.

في الجانب الآخر ذكر العقاب ليستقيم. فإن غلبك الهوى، فاستغث بصاحب القلب. وإن تأخرت الإجابة، فابعث رائد الانكسار خلفها «تجدني عند المنكسرة قلوبهم».

يا هذا، أما علمت أن اللطف مع الضعيف أكثر. لما كانت الدجاجة لا تحنو على الولد؛ أخْرِجَ كاسيا. ولما كانت النملة ضعيفة البصر؛ أُعينت بقوة الشم. فهي تجد ريح المطعوم من بعيد فتطلبه. لما كان التمساح مختلف الأسنان، صار كلما أكل حصل بين أسنانه ما يؤذيه. فيخرج إلى شاطئ البحر فاتحا فاه طالبا للراحة. فيأتي طائر، فينقر ما بين أسنانه. فيكون ذلك رزقاً للطائر، وترويحا عن التمساح. هذه الخُلْدُ[1] دويبة عمياء، قد أُلهمت وقت الحاجة إلى القوت، أن تفتح فاها، فيسقط الذباب فيه، فتناول منه. هذه الأطيار تترنّم طول النهار. فيقال للضفدع: مالك لا تنطقين؟ فتقول: مع صوت الهزار[2] يُستبشع صوتي. فيقال: هذا الليل بحكمك «أنا عند المنكسرة قلوبهم».

لما خُلق الأخرسُ لا يقدر على الكلام، سُلب السمع؛ لئلا يسمع ما يكره، ولا يمكنه الجواب. فكل أخرس أطروش. لما تولع الجذام بأظفار أصحابه، صعب عليهم الحك؛ فمنع منهم القمل. فليس في ثياب المجذومين قملة.

سبحان من هذا لُطفه. سبحان من لا يعطف عنّا عِطْفه[3]. ثكلت

---

(١) الخُلْد: دابة عمياء تعيش تحت الأرض.

(٢) الهزار: طائر.

(٣) يعطف عنا عطفه: يُعرض عنا.

خواطر: أنست بغيرك، عدمت قلباً: يحب سواك.

لا أذاق الله عينا أبصرت غيركم يا قوت روحي وسنا
لا ولا كانت قلوبٌ سكنت عند ذِكْراكم ولا نالت مُنى

إلهي، أدلنا[١] من نفوسنا التي هي أقرب أعدائنا منا، وأعظمهم نكاية فينا. إلهي، تلاعبت خوادعُ آمالنا ببضائع أعمارنا؛ فصرنا مفاليس. أغارت علينا خيول الهوى، فاستأسرتنا بأسرنا. وأوثقتنا من أسرنا. ورمتنا في مطامير[٢] طردنا. فيا مالك الملك. أنقذ حبيسنا. وخلّص أسيرنا. وسيِّر أوبتنا من بلاد غربتنا. كم عُدنا مريضا وما عُدنا[٣]. كم رأينا الألحاد تُبنى وما تُبنا. كم أبصرنا وما أقصرنا. وانتهينا وما انتهينا[٤]. يا ملاذ العارفين. يا معاذ الخائفين. خذ بيد من قد زلّت قدمُ فطنته في مزلق فتنته. أقم من قعد به سوءُ عمله.

كم كم أشكو وأين نفعُ الشكوى قد قلّ تصبري وحلّ البلوى
مالي جلَدٌ على جفاهم يقوى أهوى قلقي إذا جفا من أهوى

يا من أصلح السحرةَ فجعلهم بررة. جاؤا يحاربون، وخُلَعُ الصلح قد خبئت، وتيجانُ الرضى قد رُصّعت، وشرابُ الوصال يُروّق. فمدوا أيدهم إلى ما اعتصروا من خمر الهوى. فإذا به قد استحال خلا. فأفطروا عليه.

(١) أدلنا: انصرنا، واجعل الدولة لنا.
(٢) مطامير: جمع مطمورة: الحفرة تحت الأرض.
(٣) عدنا: الأولى: من العيادة للمريض، والثانية: تبنا ورجعنا.
(٤) انتهينا: الأولى بمعنى قرب الأجل وانتهائه. والثانية: الانتهاء عن المعاصي.

واعجبا لسكارى من شراب الحب، عربدت عليهم المحبة؛ فصلبوا في جذوع النخل. ارتقى سلطانُ عزمهم إلى سماوات قلوبهم ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢].

واعجباً لعزمٍ صلْبٍ ما هاله الصلْب[1]. لا تتعرض بنار المحبة؛ إلا أن يكون لقلبك جلد السمندل[2]. أو صبر الفراش. يا هذا، الاحتراقُ على قدر الاشتياق. لما اشتد شوق الفراش إلى النار؛ تعجّل احتراقه. هجم يبتغي الوصال؛ فصال عليه المحبوب.

لاذ بهم يشتكي جواه ... فلم يجد في الهوى ملاذا
ولم يزل ضارعا إليهم ... تهطل أجفانه رذاذا
فقرّبوه فحادثوه ... وأتلفوه فكان ماذا

لما علم المحبّون أن الصبر محبوب؛ شمروا لحمل البلاء. ثم حلي لهم فعدّوه نعمة

سقمي في الحب عافيتي ... ووجودي في الهوى عدمي
وعذاب ترضون به ... في فمي أحلى من النعم

كان الربيع بن خثيم يقول في شدة مرضه: ما أحبُّ أنّ الله نقصني منه قُلامة ظُفر.

مرض الحب شفائي في الهوى ... كلما أركبني أطربني
فبقائي من فنائي فيكم ... وسروري منكم في حزني
وشربتم بوصالٍ مهجتي ... وأنا منتظر للثمن

---

(١) هاله: أخافه.

(٢) السمندل: طائر بالهند؛ يقال إنه لا يحترق بالنار.

كيف أرجو البرء من داء الهوى وطبيبي في الهوى أمرضني
وإذا البلوى أفادت قُرْبكم فمن النُّعمى دوَامُ المحن

إخواني، لسنا من رجال البلاء، فسلوا الله العاقبة. يضيق الخناق على المحب، ويمنع من التنفس «لئن قلت: آه لأمحونّك».

الحب يقول: لا تشع أسراري والدمع يسيل هاتكا أستاري
فالشوق يزيدني على المقدار وَا ناري إذنْ من الهوى وَا ناري

★ ★ ★

الفصل الحادي والثمانون

يا من أنفاسُه عليه معدودة، وأبوابُ التُّقى في وجهه مسدودة. وأعماله بالرياء والنفاق مردودة. غير أن محبة التفريط معه مولودة.

حياتُك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما
مضى نفسٌ منها انتقصت به جزءا
فتصبحُ في نقصٍ وتمسي بمثله
أمالك معقول تحس به رُزْءا[1]
يُميتك ما يُحييك في كلِّ ساعةٍ
ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزءا

كم أسرعت فيما يؤذى دينك ودأبت؟ كم خرقت ثوب إيمانك وما رأبت؟ كم فرقت شعب قلبك وما شعبت؟ كم فاتك من خير وما اكتأبت؟ يا كاسب الخطايا، بئس ما كسبت. جمعت جملة من حسناتك، ثم اغتبت. وحِصْن دينك ثلمت، لما ثلبت. وأنت الذي بدّدت ما حلبت. إن لاح لك أخوك عبته، وإن لاحى سببته.

يا عقرَب الأذى. كم لدغت؟ كم لسبت؟ تعلم أن مولاك يراك، وما تأدبت. تؤثر ما يفنى على ما يبقى؟ ما أصبت. تصبح تائباً، فإذا أمسيت كذبت. تمشي مع اليقين، فإذا قاربت انقلبت. تعمر ما لا يبقى، وما يبقى خرّبت. تأنس بالدنيا وغرورها؛ وقد جرّبت. كأنك بك في القبر، تبكي ما كسبت. لقد حسبت حساباً

(١) الرزء: المصيبة.

كثيراً. وهذا ما حسبت. يا وادي الشيح. كيف يقال: أعشبت؟!

يا هذا، أكثرُ الإنعامِ عليك: كفُّ فضولِ الدنيا عنك. إذا رأيت سرْبال الدنيا قد تقلّص؛ فاعلم أنه قد لطَفَ بك؛ لأن المنعم لم يقلصه عليك بُخلا أن يتمزق؛ لكن رفقاً بالماشي أن يتعثر. أحْرِمْ عن الحرامِ بنزعِ مخيطِ الهوى؛ لعلّ جذبَ القدرِ يُقارن ضَعْفَ كسْبِك:

إن المقادَير إذا ساعدت ... ألحقت العاجزَ بالحازمِ

يا تائهاً في فلاة الغفلات. اعلُ بأقدامِ الذهنِ نَشزَ الفكر؛ تلح لك البلد. ويحك. تركب البحار في طلب الدنيا. فإذا أُمرت بخير، قلت: إن وفقني. أصمَّ الله سمع الهوى؛ فما يسمع إلا ما يريد.

يا ملولاً كلّما ... ثُقّفَ بالعذْل التوى

عنتا تطلب في ... فَالُوذج الهوى نَوى

ما أحسن قولك، وما أقبح فعلك. كم يشكو «حزيران» نُطْقك من «كانون» عزمك؟ ويحك. بادر دُرَّ الأرباح ما دام يُنثر. فسينادى عن قليل: ﴿يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤] أتحسب تحصيل المعالي سهلا؟ نيل «سهيل»[١] أسهل. من أدلج في ليل الصبر فات المكّاس[٢]. يا من يتعب في التعبد ولا يجد له لذة، أنت بعد في سواد البلد. اخرج إلى البادية؛ تجد نسيم نجد. الاعتبار عندنا بالأعمال القلبية. غلبت حرارات الخوف قلب «داود»؛ فصار كفه كيراً ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وقويت روحانية «محمد»؛ فنبع

(١) سهيل: النجم المعروف.

(٢) المكاس: العشار الذي يجبي المكوس من التجار وغيرهم.

الماء من بين أصابعه.

لولا مدامع عشّاقٍ ولوعتهم لبان في الناس عز الماء والنارِ
فكلُّ نارٍ فمن أنفاسهم قُدحت وكل ماء فمن طرفٍ لهم جار

أيها المصلي. طهر سرك قبل الطهور، وفتّش على قلبك الضائع قبل الشروع. حضور القلب أول منزل، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية العمل. فإذا انتقلت عنها؛ أنخت بباب المُناجي. وأول قرى ضيف اليقظة: كشف الحجاب لعين القلب. وكيف يطمع في دخول مكة مُنقطع قبل الكوفة؟!

همك في الصلاة متشبث. وقلبك بمساكنة الهوى متلوّث. ومن كان متلطخا بالأقذار لا يطف. ادخل دار الخلوة لمن تناجي. وأحضر قلبك لفهم ما تتلو. ففي خلوات التلاوة تُزفّ أبكارُ المعاني. إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم: ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف: ٣١] استغرقت إحساس الناظرات ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]. فكيف بألباب علقت؟ فعُقِلتْ على الباب؟

لها بوجهك نـور تستدلّ بــه ومن نوالك في أعقابها حادِ
لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتُلهيها عن الزاد

لو أحببت المخدومَ لحضر قلبُك في الخدمة. ويحك، هذا الحديد يعشق المغناطيس؛ فكيفما التفت التفت. إن كنت ما رأيت هذا الحجر فانظر إلى الحرابي[1] تواجه الشمس، فكيف مالت؛ قابلتها.

---

(١) الحرابي: جمع حرباء.

للشريف الرضي:

وإني إذا اصطكّت رقابُ مُطيِّكم وثـوّر حـاد بالرفـاق عجـولُ

أُخالف بين الراحتين على الحشى وأنظر أنّىً مِلْـتُمُ فأميـل

قيل لعامر بن عبد قيس: أما تسهو في صلاتك؟ قال: أو حديث أحب إليّ من القرآن حتى أشتغل به؟ هيهات، مناجاة الحبيب، تستغرق الإحساس. كان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته. ولقد انهدمت ناحية من المسجد، فزع لها أهلُ السوق، فما التفت. وكان إذا دخل منزله؛ سكت أهل بيته. فإذا قام يصلي، تكلموا وضحكوا. علماً منهم أن قلبه مشغول. وكان يقول في مناجاته: إلهي، متى ألقاك وأنت عني راضٍ؟

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم

جعلتُ اشتغالي فيك يا منتهى شغلي

فمن لي بأن ألقاك في ساعة الرضا

ومن لي بأن ألقاك والكل لي مَنْ لي

كان الفضيل يقول: أفرحُ بالليل لمناجاة ربي، وأكره النهار للقاء الخلق.

المـوت ولا فـراق من أهــواه هذي كبدي تذوب من ذكراهُ

مـا أشوقني لـه متى ألقـاه ما مقصودي من المنى إلا هو

كان أبو يزيد يقول: وددت أن الله تعالى جعل حساب الخلق عليّ. قيل: لماذا؟ قال: لعله يقول في خلال ذلك: يا عبدي، فأقول: لبيك. ثم ليصنع بي ما شاء.

هل الطرفُ يُعطي نظرةً من حبيبهِ
أم القلب يلقى رَوْحةً من وجيبهِ

وهل لليالي عطفة بعد نفرة
تعود فيلهى ناظر عن غروبه

أحنُّ إلى نور اللّوى في بِطاحه
وأظما إلى ريّا اللّوى في هبوبه

وذاك الحمى يغدو عليلا نسيمه
ويمسي صحيحاً ماؤه في قليبه(١)

هو الشوق مدلول على مقتل الفتى
إذا لم يَعِد قلبا بِلُقْيا حبيبه

يا واقفا في صلاته بجسده والقلب غائب. ما يصلح ما بذلته من التعبد، مهراً للجنة، فكيف ثمنا للجنة؟! رأت فأرةٌ جملا، فأعجبها. فجرّتْ خطامه، فتبعها. فلما وصل إلى باب بيتها. وقف ونادى بلسان الحال: إما أن تتخذي داراً تليق بمحبوبك، أو محبوباً يليق بدارك.

خذ من هذه إشارة: إما أن تصلي صلاة تليق بمعبودك، أو تتخذ معبوداً يليق بصلاتك.

* * *

---

(١) القليب: البئر.

الفصل الثاني والثمانون

عجباً لمن رأى فعل الموت بصحبه، ثم ينسى قرب نحْبه، واستبداله ضيق المكان بعد رحْبه. من لم ينتبه بِوكْزِه؛ فسينتبه بِسحْبِه.

مال بني الدنيا غدوا أهلَ ضلال وعَمَهْ[1]
بصيرهم من جهله كأنه حلفٌ كمه[2]
أنت مقيم سائر فلا تقل لم ولمه
ولا تكلّم أحدا في غير برٍ كلمه
فكل معطى مهل أوقاته منصرمه
ولا تدوم للفتى شؤونه المنتظمه
يأتي على الأرض مدى وما عليها نسمه
ضاق رحيبُ العمر عن حاجاتنا المزدحمه

أين الأقران؟ وأين سلكوا؟ تالله لقد فنوا وهلكوا. اجتمع الأضداد في الألحاد، واشتركوا. وخانهم حبل الأمل بعدما امتسكوا. ونُوقشوا على ما خلّفوا وتركوا. وصار غاية الأماني أن لو تُركوا. تالله لقد سعد من تدبّر، وسلم من الأذى من تصبّر، وهلك مؤثر الهوى وأدبر. فكأنكم بالفراق يا ركّاب المعبر.

يا نائماً في لهوه وما نام الحافظ. لاحظ نور الهدى، فلا حظّ

---

(١) عمه: عمى.

(٢) حلف كمه: حليف كمه. والكمه: عمى يولد به الإنسان.

إلا للاحظ. ولا تغترّ ببرد العيش، فزمان الحساب قائظ[١]. يا مدبراً أمر دنياه ونسي أخراه. فخفف النداَء للآفظ. عجائب الدهر تغني عن وعظِ كلِّ واعظ. يا من رأينا يد التفريط قد ولعت به، فأتينا للومه ولعتبه. أما تصرّم السلف نذير الخلف؟ أما مهد الطفل عنوان اللحد؟ يا من لمع له سرابُ الأمل؛ فبدد ماء الاحتياط. أتراك ما علمت أن الأماني قمار؟ مدّ نهرُ الهوى، وقلبك على الشاطئ، فمرّ به. صُمَّ مسمعُ اليقظة؛ فصمّمت على الزلل. أكلّ الزمان ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]؟ أما تقع في يوم ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]؟!

الورع عن الذنوب: يُوجب قوة قلبية. قال بعض السلف: ارتكبت صغيرة، فغضب علي قلبي، فلم يرجع إلي إلا بعد سنة.

إخواني، إطلاق البصر سيفٌ يقعُ في الضارب.

يا للرجال لنظرة سفكت دماً ... ولحادث لم ألفه مستسلما

وأرى السهام تؤم من يرمي بها ... فعلام سهمُ اللحظ يُصْمِي[٢] من رمى

المحرمات حرم. ونظر المملوك إلى حرم المالك من أقبح الخيانة. يا بني آدم. تلمّحوا تأثير: ﴿وَعَصَىٰ﴾ [طه: ١٢١] لقمة أثرّت، أن عثّرت. فعري المكتسي، ونزل العالي، وبكى الضاحك، وقام المترفِّه يخدم نفسه؛ فاشتد بكاؤه. فنزل جبريل يسلّيه، فزاد برؤيته وجْدُه.

---

(١) القائظ: شديد الحر.

(٢) يُصمي: يصيب فيقتل.

للشريف الرضي:

رأى على الغور وميضاً فاشتاق
ما أجلب البرق لماء الآماق

ما للوميض والفؤاد الخفاق
قد ذاق من بين الخليط ما ذاق

داءُ غرامٍ ما له من إفراق[1]
قد كلَّ آسيه[2] وقد ملّ الراق

قلبي وطرفي من جوى وإملاق
في غرق ما ينقضي وإحراق

يا ناق أداك المؤدي يا ناق
ماذا المقام والفؤاد قد تاق

هل حاجةُ المأسورِ إلا الإطلاق

كان آدم كلما عاين الملائكة تصعد إلى السماء، وجناحه قد قد قُصّ؛ زاد قلقه.

وأصبحت كالبازي المنتّف ريشه
يرى حسراتٍ كلما طار طائرا

يرى خارقات الجو يخرقن في الهوى
فيذكر ريشاً من جناحيه وافرا

وقد كان دهراً في الرياض منعّما
على كل ما يهوى من الصيد قادرا

(١) الإفراق: البرء. (٢) آسيه: مداويه.

إلى أن أصابته من الدهر نكبةٌ

فأصبح مقصوص الجناحين حاسرا

أعظم البلايا، تردد الركب إلى بلد الحبيب، يودِّعون عند فراقهم الزَّمِن[1].

ولم يبق عندي للهوى غير أنني

إذا الركبُ مرّوا بي على الدار أشهقُ

كانت الملائكة إذا نزلت إليه؛ استنشق ريحَ الوصال من ثياب الواصلين. وتعرّف أخبارَ الديار، من نسمات القاصدين.

خبِّراني عن العقيق خبيـرا   أنتما بالعقيق أحدث عهدا

يا ناقضي العهود، دوموا على البكاء؛ فمن أشبه أباه فما ظلم.

كانت عابدة من أحسن النساء عينا، فأخذت في البكاء. فقيل لها: تذهب عيناك. فقالت: إن يكن لي عند الله خير، فسيبدلني خيراً منهما. وإن تكن الأخرى، فوالله لا أحزن عليهما.

للمتنبي:

قد علم البيـن منـا البين أجفانـا

تُدمي وألفّ في ذا القلب أحزانـا

قد كنتُ أُشفق من دمعي على بصري

فاليـوم كـلُّ عزيـزٍ بعدكـم هانــا

تُهدي البوارق أخلاف المياهِ لكم

وللمحبِّ مـن التذكــار نيرانـــا

---

(١) الزمن: المقعد من عاهة.

من سعى إلى جناب العز، بأقدام المسكنة، ووقف بباب الكرم على أخمص المسألة. ووصف ندمه على الذنب، بعبارة الذل؛ لم يعد بالخيبة.

ملكتم قلبي فما ... لي عنكم منصرفُ
فودّكم منه مكا ... ن كبدي أو ألطفُ
فلا برى وجدي بكم ... ولا أفاق الشغفُ
لست وإن أعرضتم ... أيأس من أن تعطفوا
وصبر يعقوب معي ... حتى يعود يوسفُ

يا معاشر المذنبين، اسمعوا وصيتي: إذا قمتم من المجلس، فادخلوا دار الخلوة. وشاوروا نصيح الذكر. وحاسبوا شريك الخيانة. وتلمّحوا تفريط التواني في بضاعة العمر. ويكفي ما قد مضى. فليحذر الأعور الحجر.

إذا نُقّي خاطرُ المذكر من ذل هوى، وصفى معينُ معنى كلامه من كدر طمع؛ انكشف الغشاء عن عينه. فرأى بالفطنة موضع قُطْنةِ مَرْهمِ العافية. فربّى حشائش الحكم، وركبّ فيها معاجين الشفاء؛ ففتحت سدد الكسل، واستفرغت أخلاط الشواغل.

فأما مجتلب الدنيا بنطقه؛ فإنه كلما حفر قليب[1] قلبه فأمعن، لاستنباط معنى؛ طمّ الطمع. إذا صدر العلم من عامل به؛ كان كالعربية ينطق بها البدوي. وأحلى أبياتِ الشِّعر: ما خرج عن أبيات الشَّعر.

(١) القليب: البئر.

جمعتُ بين الكتاب والسنة؛ ففتحا لي هذه المغاني. فهي تنادي السامعين: ولدت من نكاح لا من سفاح.

ومن جمع بين الجهل والبدعة؛ هذى الهذيان. فكلامه في مرتبة ابن زانية. إذا فتحت الوردةُ عينَها، رأت الشوك حولها. فلتصبر على مجاورته قليلاً، فوحدها تُجتنى وتُقبّل.

واعجباً لألفاظي وعملها. بطل السحرُ عندها. كلُّ المذكِّرين رجّالة، وأنا فارس. أخرج إلى المعاني في كمين، فأصيدها لا بأحبولة. إذا حضرتُ، ملكتُ اليعون. وإذا غبت، استرهنت القلوب.

للمهيار:

طرْف نجدية وطُرْف عراقي	أي كاس يديرها أي ساق
سنحتْ والقلوبُ مطلقةٌ ترعى	وثابَتْ وكلّها في وَثاق
لم تزل تخدع العيون إلى أن	علقت دمعة على كل ماق

* * *

الفصل الثالث والثمانون

إخواني، أعجب العجائب: أن النقّاد يخافون دخول البهْرج في أموالهم. والمبهرِج آمن. هذا «الصدّيق» يمسك لسانه، ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وهذا عمر، يقول: يا حذيفة، هل أنا منهم؟. والمخلِّط على بساط الأمن!!

الناسكـون يحـاذور	ن ومـا بسّيئة ألمـوّا
كانـوا إذا رامـوا كلاما	مطلقاً خَطَمُـوا وزَمّـوا
إن قيلـت الفحشـاء أو	ظهرت عَمُوا عنها وصمّوا
فمضـوا وجـاء معاشـرٌ	بالمنكرات طمُوا وطمّوا
ففـمٌ لطعْـم فاغـرٌ	ويـدٌ علـى مـال تضم
عدلوا عن الحسن الجميل	وللخَنَا[١] عمدوا وأمّوا[٢]
وإذا هُـمُ أعيتهُـمُ	شنعاؤهم كذبوا وأموا[٣]
فالصدر يغلـي بالهـوا	جس مثل ما يغلي المحمِّ

لله در أقوام، شغلهم حب مولاهم عن لذّاتِ دنياهم. اسمع حديثهم إن كنت ما تراهم. خوفْهم: قد أزعج أقلق. وحذَرُهم: قد أتلف وأحرق. وحادي جدّهم: مجدٌ لا يترفّق. كلما رأى طول الطريق نص وأعنق[٤]. وكيف يحسن الفتور وأوقات السلامة تسرق؟ دموعهم في أنهار الخدود تجري وتتدفق. يشتاقون إلى

(١) الخنا: الفُحْش.
(٢) أمّوا: قصدوا.
(٣) أموا: تقدموا.
(٤) نصّ: أسرع غاية الإسراع. وأعنق: أسرع.

الحبيب، والحبيبُ إليهم أشوق. يا حُسنهم في الدجى، ونورهم قد أشرق. والحياء فائض، والرأس قد أطرق. والأسير يتلظىّ، ويترجى أن يُعتق.

إذا جاء الليل: تغالب النوم والسهر. والخوف والشوق: في مقدم عسكر اليقظة. والكسل والتواني: في كتيبة الغفلة. فإذا حمل الصبر، حمل على القيام؛ فانهزمت جنود الفتور. فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان. سفر الليل لا يطيقه إلا مُضَمَّر المجاعة. النجائب في الأول، وحاملات الزاد في الأخير. قام المتهجدون على أقدام الجدّ، تحت ستر الدجى، يبكون على زمان ضاع في غير الوصال.

سقُوا بمياه أعينهم ... هناك الضال والرندا

بأنفاسٍ كبرقٍ في ... أنيـنٍ يُشبهُ الرعـدا

إن ناموا، توسّدوا أذرعَ الهمم. وإن قاموا، فعلى أقدام القلق. لما امتلأت أسماعهم بمعاتبة: «كذب من ادّعى محبّتي فإذا جنه الليل نام عنّي» حلفت أجفانُهم على جفاء النوم.

إن كان رضاكم في سهري ... فسـلامُ الله علـى وسنـي[1]

ما زالت مطايا السهر، تذرع[2] بيد[3] الدُّجى. وعيون آمالها لا ترى إلا المنزل. وحادي العزم يقول في إنشاده: يا رجال الليل

(١) الوسن: النعاس.

(٢) تذرع: تقطع.

(٣) البيد: جمع بيداء.

جدوا. إلى أن نمّ النسيمُ بالفجر. فقام الصارخُ ينعي الظلام. فلما هم الليل بالرحيل، تشبّثوا بذْيلِ السَّحر.

فاستوقف العيس لي فإن على خلب فـؤادي تشـدّ أرحلهـا

إن دثرت دارها فما دثرت منـازل فـي القلـوب تنزلهـا

قال علي بن بكار: منذ أربعين سنة، ما أحزنني إلا طلوع الفجر. لو قمت في السحر، لرأيت طريق العُبّاد، قد غُصّ بالزحام. لو وردت ماء مدْين، وجدت عليه أُمّةً من الناس يسقون.

بانوا وخُلِّفتُ أبكي في ديارهم

قل للديار: سقاك الرائح الغادي

وقل لأظعانهم: حُيِّيت من ظعن

وقل لواديهم: حُيِّيت من واد

يا بعيداً عنهم. يا من ليس منهم. ألك نِيّة في لحاقهم؟ أسرج كميتك[1]، واجرر زمامك، يقف بك على المرعى.

يا من يستهول أحوال القوم، تنقل في المراقي؛ تعلُ. قال أبو يزيد: ما زلت أسوق نفسي إلى الله، وهي تبكي حتى سُقتها وهي تضحك.

للمتنبي

ما زلت أضحك إبلي كلما نظرت

إلـى مـن اختضبت أخفافها بـدم

من اقتضى[2] بسوى الهنديِّ حاجته

أجـاب كـل سؤال عن هـلٍ بلـم

---

(١) كميتك: الفرس الكميت: الذي في حمرته قنوء. (٢) اقتضى: طلب.

قال أبو يزيد: كنت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمسين سنة مرآة قلبي. ولقد أحببت الله حتى أبغضت نفسي.

للخفاجي:

ثوّرهـا ناشطـة عقالـها ... قد ملأت من بدنها جلالها[1]

فلـم تـزل أشواقـه تشوقـها ... حتى رمت من الوجى[2] رحالها

ماذا على السائق من غرامة ... لو أنه أنصف أو رَثى لها

أراد أن تشرب مـاء حاجـر ... أرِيَّها تطلـبُ أم كلالها

إن لهـا علـى القلـوب ذمةً ... لأنها قد عرفـت بلُبالها

كانت لها على الصَّبا تحيةٌ ... أعجلها السائق أن تنالها

وامتدت الفلاةُ دون خطوها ... كأنها قد كرهت زوالها

فعلِّلوهـا بحديـث حاجـر ... ولتصنع الفلاةُ ما بدا لها

★ ★ ★

(١) الجلال: ما يلبس للإبل ليحميها.

(٢) الوجى: الحفا.

الفصل الرابع والثمانون

إخواني. دنا رحيلكم. وقد بان سبيلكم. وسيهجركم خليلُكم. وقد نصحكم دليلُكم.

يا مقيمين ارحلوا للذهاب بشفيرِ القبورِ حطُّ الركاب
نَعِّموا الأوْجُهَ الحِسانَ فما صونْكموها إلا لعفرِ التراب
والبسوا ناعم الثياب ففي الـ حفرة تعرون عن جميع الثياب
قد نَعْتكَ الأيامُ نعْياً صحيحاً بفراق الإخوان والأصحاب

تذكّر يا من نسي ركوبَ الجنازة. وتصوّر ما مِنْ مأوى في طول المفازة. ودع الدنيا مُودِّعا للحلاوة والمزازة. ارقم من قلبك ذكرَ الجزاء على جُزازة. كم ظالمٍ تعدّى وجار. فما رعى الأهلَ ولا الجار، حل به الموتُ فحلَّ الإزرار. وأدبر عن الأوامر؛ فأحاط به الإدبار. ودار عليه بالدوائر؛ فأخرجه من الدار. وخلا بعمله ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، ولكن لا ﴿فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، فانتبهوا فإنما هي جنة أو نار.

تعلقت بآمال طوال أي آمال
وأقبلت على الدنيا مُلِحّاً أي إقبال
فيا هذا تجهّز لـ فراق الأهل والمال
فلابدّ من الموت على حالٍ من الحال

يا من يحدثه الأملُ فيستمع، ويخوفهُ الأجلُ فلا يرتدع. وصل الصالحون إلى المنى، يا منقطع. وجوزوا على صبرهم؛

إي والله لم يضع. تلمحّ العواقب، فَتَلَمُّحها للعقل وضع. كأنه ما جاع قط من شبع. إذا تلاقحت غروس المجاهدة تلاحقت ثمار المدائح.

أفلح قومٌ إذا دُعوا وثبوا ... لا يحسبون الأخطار إن ركبوا
سارُون[١] لا يسألون ما فعل ... الفجرُ ولا كيف مالت الشهب
عوّدهم هجرُهم مطالبة ... الراحة أن يظفروا بما طلبوا

أشرف الأوصاف أوصاف الأشراف. سادات العادات عادات السادات. أحرار الشيم شيم الأحرار. أقدموا على الفضائل، وتأخرت. وقدموا الأهمّ، وأخّرت. الشجاع يلبس القلب على الدرع، والجبان يلبس الدرع على القلب.

للمتنبي:

وتكاد الظبا[٢] لما عودوها ... تنتضي نفسها إلى الأعناقِ
وإذا أشفق الفوارسُ من وقْعِ ... القَنا أشفقوا من الإشفاق
ومعال لو ادّعاها سواهم ... لزمته جناية السُرّاق

لُوِّحَ للقوم، فأجابوا. وكُرِّرَ الصياحُ بك، وما تلتفت. إذا سمعوا موعظة، غرستْ في قلوبهم نخيل العزائم. ونبات عزْمك عند الزواجر، كنبات الكَشُوثا[٣]. كم بين ثالثة الأثافي وسادسة الأصابع[٤]؟ بِعْ باعاً

(١) سارون: جمع ساري. وهو السائر ليلا.
(٢) الظبا: جمع ظُبة. والظُّبة: حدّ السيف.
(٣) الكَشُوثى، وبالمد: الكَشُوثا: نبت يتعلق بالأغصان ولا عِرق له في الأرض.
(٤) ثالثة الأثافي: ضرورة، وسادسة الأصابع: مُثْلة في اليد، زائدة.

من عيشك، بفتر[١] من حياتهم؟ لو صدق عزمك، قذفتك ديار الكسل إلى بيْداء الطلب. كان سلمان أعجمياً، فلما سمع بنبي عربي؛ صار بدويّ القلب.

للمهيار:

ولقد أحنُّ إلى زَرُود وطينتي

من غير ما فُطرت عليه زرودُ

ويشوقني عجف الحجاز وقد ضفا

ريف العراق وظلله الممدود

ويُطرّب الشادي وليس يهزّني

وينال مني السائُق الغرِّيدُ

أين وصفك من هذه الأوصاف؟ أين شجرة الزيتون من شجر الصفاف؟ صعد القوم، و نزلت. وجدوا في الجد، وهزلت.

شُمُّ العرانين[٢] في آنافهم أنف

من القبيح وفي أعناقهم صَيَدُ[٣]

إن تلْقهم تلْق منهم في مجالسهم

قوما إذا سُئلوا جادوا بما وجدوا

نالوا السماء وحطّوا من نفوسهم

إن الكرام إذا انحطّوا فقد صعدوا

---

(١) الفتْر: ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة.

(٢) العرانين: جمع عِرْنين، وهو الأنف.

(٣) الصَيَدُ: شموخ وارتفاع بالأنف.

إن بينك وبين القوم كما بين اليقظة والنوم. أين مسك من حمأة؟ وبخور من بخار؟ وصفوة من قذى؟

دخلوا على عابد، فقالوا له: لو رفقت بنفسك. فقال: من الرفق أُتيت.

اسمع يا كسلان. كانوا في طلب العلى يجتهدون، ولا يرضون بدون. على أنهم يعانون فيما يعانون[1]. القوم مع الحق حاضرون. وعن الخلق غائبون. فقولوا لعاذليهم: لمن تعذلون؟

للمهيار:

كُثُرٌ فيك اللّوّمُ فأين سمعي منهمُ

قلبي واللوم عليك مُنْجِدٌ ومُتْهِمُ

قالوا سهرت والعيونُ الساهراتُ نُوّمَ

وليس من جسمك إلا جلدةٌ وأعظمُ

وما عليهم سهري ولا رُقادي لهم

وهل سمات الحب إلا سهر وسقم

خذ أنت في شأنك يا دمعي وخل عنهم

كان بشر لا ينام الليل، ويقول: أخاف أن يأتي أمرٌ وأنا نائم.

رَقَدَ السُّمارُ وأرّقهُ همٌ للبينِ يُردّدهُ

فبكاهُ النجمُ ورقّ له مما يرعاه ويرصده

وغداً يقضي أو بعدَ غد هل من نظر يتزوّده

يهوي المشتاقُ لقاءكمً وصروف الدهرُ تقيّده

---

(١) يعانون: الأولى: من الإعانة، والثانية: من المعاناة.

بقي «بشر» خمسين سنة يشتهي شهوة، فما صفا له درهمها. وبضائع أعماركم كلها منفقة في الشهوات، من الشبهات. أبشروا بطول المرض يا مخلِّطين.

وا ويْلاهُ من ضياع كلِّ العمرِ قـد مـرّ جميُعه بشمرِّ الهجْرِ
ضاعتْ حِيلي وضلَّ عني صبري يا قومُ عجزتُ عن تلافي أمري

يا من فاتوه، وتخلّف. بلّ ثَراهُم من دمع الأسف.

دعْ شأنَ عينكِ يا حزينُ وشانها
وضع اليدين على الحشا وتململِ
هـذا وإنّ فراقهـم ولقـل مـا
يغني وقوفك ساعة في المنزل

جُزْ بنادي المحبة، وناد بالقوم؛ تراهم كالفراش تحت النيران.

للشريف الرضي:

يا دار من قتل الهوى بعدي وجـدوا ولا مثل الـذي عندي
لـو حرّكتْ ذاك الرمـادَ يـدٌ لرأت بقايـا الجمـر والوقْـد

تشتد عليهم نار الخوف، فيشرفون على التلف.

لولا نسيم بذكراهم يروحني

ينبسطون انبساط المحب، ثم ينقبضون انقباض الخائف. هذا «اللينوفر» ينشر أجنحة الطرب في الدجى، فإذا أحسّ بالفجر، جمع نفسه واستحى من إفراطه. فإذا طلعت الشمس، نكس رأسه في الماء، خجلاً من انبساطه.

أُباسطه على جزعٍ كشربِ الطائرِ الفزِعِ
رأى ماءً فأطمعهُ وخاف عواقب الطمع
فصادفَ فرصةً فدنا ولم يلتذَّ بالجرْعِ

كلما جاء كلامي، صعد. كلما زدت الوقود؛ فاحت ريح العود. أفيكم مشتنشق؟ أو كلكم مزكوم؟ «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»[1].

(باح مجنون عامر بهواه):

وما بحتُ حتى استنطَق الشوقُ أدمعي
وأذكرني عهْدَ الحمى المُتَقَادِمِ

أتجدون يا إخواني ما أجد من ريح النسيم؟

ألا يا نسيمَ الريحِ مالَكَ كلّما تجاوزت ميلا زاد نشْرُكَ[2] طيبا
أظن سُلَيْمى خُبِّرت بسقامنا فأعطتك ريّاها فجئت طيبا

★ ★ ★

(١) رواه أحمد في مسنده: (٢/٥٤١)، والطبراني في مسند الشاميين: (٨٣-١). وهذه الفقرة فيها نكارة.

(٢) النشر: ريح الطيب..

الفصل الخامس والثمانون

يا من كلّ يوم يُقدّم إلى القبر فارط. لا تغترر بالسلامة، فربما قبض الباسط. انهض للنجاة بقلب حاضر وجأش رابط. قبل أن يُلقيك على بساط العجز خابط. ونفس النفس تخرج من سم إبرة خائط.

قل للمؤمّل: إن الموت في أثرك
وليس يخفى عليك الأمرُ من نظرك
فيمن مضى لك إن فكرت معتبرٌ
ومن يمْت كل يوم فهو من نُذُرك
دارٌ تسافر عنها من غدٍ سفراً
فلا تؤوب إذا سافرت من سفرك
تضْحى غداً سَمَراً للذاكرين كما
صار الذين مضوا بالأمس من سمرك

اخل بنفسك في دار المعاتبة. وأحضرها دستور المحاسبة، وارفع عليها سوط المعاقبة. وإن لم تفعل خسرت في العاقبة.

خُلقْتَ جِسْماً سويا ثم زُرْتَ ثَرى
فصرتَ خطاً وطالت مُدّةٌ فمُحي
قف بالمنازل من عادٍ وغيرهم
فما ترى ثمّ من شخصٍ ولا شبحِ

كلٌّ مجازى بما أسداه من حسنٍ

وسيئٍ فاهْجر السوءاتِ وانتزح

لقد وعظك أمس واليوم، وأنت من سِنَةٍ إلى نوم. أين العشائر؟ أين القوم؟ اشتراهم البلى بلا سوْم. لا فطر عندهم ولا صوم. بلى، بلابل العتاب واللوم. هذا رشاش الموج ينذر بالعوم، ويُخبر بالحادثات، إشمامُها والرَوْم[1].

اغتنم صفو الليل	إنما العيش اختلاس
نلبس الدهر ولكن	متعةٌ ذاك اللباس

يا جامع الحطام، ولا يدري ما جنى. كلما نقض الواعظ اصلا من حرصك بنى. بادر الفوت، فإن الموتَ قد دنا. هذا بشير القبول، إياك عنى. النثار[2] كثير، فما هذا الوقوف والونى[3]؟ امدد يد الصدق؛ وقد نِلْت المنى. «هذه الخيف، وهاتيك منى».

أما تهزّك هذه المواعظ أيها المهزوز؟ أما يوقظك الصريح ولا المزموز؟ أما كل وقت عود الهلاك مغموز؟ أما كل ساعة غصن مقطوع ومحزوز؟ أما تراهم بين مدفوع وموكوز؟ كل أفعالك إذا تأملت ما لا يجوز. أين أرباب القصور؟ أين أصحاب الكنوز؟ هلك القوم وضاع المكنوز. وحِيزَ في حفرة البلى من كان للمال

(١) الإشمام: إشمام الحروف في علم التجويد أن يذيقها الضمة أو الكسرة بحيث لا تسمع ولا يعتدّ بها، ولا تكسر وزنا.

والرْوم: حركة مختلسة مختفاه، وهي أكثر من الإشمام لأنها تسمع.

(٢) النثار: ما يُلقى ويُنثر في العرس ونحوه.

(٣) الونى: الضعف.

يحوز. بينا تغرّهم الأناة؛ وقعت النواة في الكوز. أين كسرى؟ أين قيصر؟ أين فيروز؟ عروا عن الأكفان، وما كانوا يرضون الخزوز. وأبرز الموتُ أوْجُهاً عزّ عليها البروز. وساوى بين العرب والعجم والنبط والخوز. ونسخ بحسرات الرحيل لذات النيروز[١]. وكشف لهم نقاب الدنيا؛ فإذا المعشوقة عجوز. ما رضيت إلا قتلهم، وكم تدللت بالنشوز. لقد أذاقتهم برد كانون الأول، فإذا هم في تموز. وإنما قصدتْ غرورهم لتقتلهم في كالوز[٢].

واعجبا، بحر الوجود قد جمع الفنون: العلماءُ جوهره، والعبّادُ عنبره، والتجار حيتانه، والأشرار تماسيحه، والجهال على رأسه كالزَبَد. فيا من يجرى به على هواه، وهو عليه كالقفيا[٣] قف يا قفيا[٤]. كم تحضر مجلسا، وكم تتردد؟ وكم تُخوِّفُ عُقبى الذنوب. وكم تهدد؟ يا من لا يلين لواعظ وإن شدد. يا راحلا عن قريب، ما عليها مخلد. تلمح قبرك، لا قصرك المشيّد. وتعلم أن المطلق إذا شاء قيّد. أترى تقع في شرَكي؟ فإني جئتُ أتصيّد.

يا من يسأل عن مراتب الصالحين، مالك ولها؟! تساوم في راحلة، وما تملك ثمن نعل؟ تجمع من جوانب الحافات خبازي، وتريد أن تطعم أخضر؟! تطلب سهما من الغنيمة، وما رأيت الحرب بعينك؟!

---

(١) النيروز: المهرجان أو العيد عند الفرس.

(٢) كالوز: تجمع على: كواليز. وهم قوم يخرجون بالسلاح للماء إذا تشاحوا عليه. والذي في المخطوط: «كانون» أو «كالوز»؟!.

(٣) كالقفيا: لم نتبين معناها. والذي في المخطوط: «كالمنافي».

(٤) القفيُّ: الحفيّ. وفي المخطوط: «بأفقنا».

يُحاول نيلَ المجدِ والسيفُ مغمَدٌ
ويأمل إدراكَ العُلى وهو نائمُ

البلايا تُظهر جواهرَ الرجال. وما أسرع ما يفتضح المدعي.

تنام عيناك وتشكو الهوى لو كنت صباً لم تكن نائماً

رأى فقير في طريق مكة امرأة فتبعها، فقالت: مالك؟ فقال: قد سلب حبك قلبي. قالت: فلو رأيت أختي؟ فالتفت فلم ير أحداً. فقالت: أيها الكاذب في دعواه، لو صدقت ما التفتّ.

والله لو علمتْ رُوحي بمن عَلِقتْ
قامتْ على رأسها فضْلاً عن القدمِ

إذا كنت تشتغل اليوم عنّا بسوداء، فكيف تذكرنا إذا أعطيناك الحور؟

يا مؤثراً ما يفنى على ما يبقى. هذا رأي طبعك. هلاّ استشرت عقلَك؛ لتسمع أصحَّ النصائح؟ من كان دليله البوم؛ كان مأواه الخراب. ويحك، اعزم على مجنون هواك، بعزيمة. فرب شيطانٍ هابَ الذكْر. تلمح غِبَّ الخطايا؛ لعله يكفُّ الكفَّ. لا تحتقرن يسير الطاعات؛ فالذوْد إبل[١]. وربما أُحتِيج إلى عُوْيد[٢] منبوذ. لا تحتقرن يسير الذنب؛ فإن العشب الضعيف: يُفتل منه الحبل القوي، فيختنق به الجمل المغتلم. أو ما نفذت في سد سبأ حيلة جُرَذ[٣]؟

(١) الذوْد: من اثنتين إلى تسعة أبعرة، وقيل ثلاثة إلى عشرة، أو خمس عشرة، أو عشرين، أو ثلاثين. وقولهم: «الذود إلى الذود إبل» يدل على أنها موضع اثنتين؛ لأن الثنتين إلى الثنتين جمع.

(٢) عويد: تصغير عود.

(٣) الجُرَذ: ضرب من الفئران.

من عرف شرف الحياة، اغتنمها. من علم أرْباح الطاعات، لزمها. العمر ثوب ما كُفّ[1]. والأنفاس تستل الطاقات. كم قد غرقت في سِيفِ[2] «سوف» سفينة نفس؟ يا هذا أنت أجير؛ وعليك عمل. فإذا انقضى الشغل؛ فالبس ثياب الراحة. قال رجل لعامر ابن عبد قيس: كلمني. فقال: أمسك الشمس. دخلوا على الجنيد عند الموت وهو يصلي. فقيل له: في هذا الوقت؟! فقال: الآن تُطوى صحيفتي

حثوا المطيَّ فهذه نجدُ   بلغ المدى وتجاوز الحدُّ

يـا حبـذا نجـد وساكـنه   لو كـان ينفع حبذا نجـد

يا دار الأحباب، أين السكان؟ يا منازل العارفين، أين القطان؟ يا أطلال الواجدين، أين البنيان؟

تعاهدتكَ العِهَاد[3] يا طللُ   خبِّر عن الظاعنين ما فعلوا

فقـال: ألا اتبعتهم أبـداً   إن نزلوا منزلا وإن رحلوا

تركت أيدي النوى تقودهم   وجئتني عن حديثهم تسل

رحل القومُ، يا متخلّف. وسبقوك بالعزائم، يا مسوِّف. فقف على الآثار وقوف متلهف. وصح بالدمع، سر يا متوقف.

للشريف الرضي:

يا قلبُ جدّد كمدا   فموعُد البيْنِ غـدا

لم أر فرقاً بعدهم   بين الفـراق والـردى

---

(١) كفّ: خيطت أطرافه. (٢) السِّيف: ساحل البحر.

(٣) العِهَاد: جمع عهْد. وهو أول مطر الوسمي.

يـــا زفــرة هيجهـــا حـاد من الغـور حَدا
أرعي الحمول[١] ناظراً أو ألزم القلب يـدا
واطرد الطرف على آثارهـم مـا انطـردا
مذ أوقدوا بأضلعي حر الجوى ما بـردا
ومُذْ أذابوا ماء عيني للأسى مـــا جمدا
كنت أداوي كبدي لو تركوا لـي كبـدا

★ ★ ★

(١) الحمول: الهوادج، أو الإبل عليها الهوادج.

الفصل السادس والثمانون

إخواني. المفروح به من الدنيا، هو المحزون عليه. وبقدر الالتذاذ؛ يكون التأسف. ومن فعل ما شاء؛ لقي ما ساء.

مال ما كان المنى ما آلما صار ما أوصلنه قد صارما[1]

بينما أضحك مسروراً به سال ماء العين إذا ما سالما

الدنيا فلاة، فلا تأمن الفلا. بل تيقن أنها مارستان بَلاَ. ولا تسكن إليها، وإن أظهرت لك الولا. على أنها تخفض من علا. فلينظر الإنسان يمنة. فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يسرة. فهل يرى إلا حسرة؟ أما الربْع العامر، فقد درس. وأما أسد الممات، فَفرس. وأما الراكب، فكَبَتْ به الفرس. وأما الفصيح، فاستبدل الخرس. وأما الحكيم، فما نفعه أن احترس. ساروا في ظلام ظُلمهم، ما عندهم قبس. ووقفت سفينة نجاتهم؛ لأن البحر يبس. وانقلبت دول النفوس كلها في نفس. وجاء منكر بآخر «سبأ»[2]، ونكير بأول «عبس» أفلا يقوم لنجاته من طال ما جلس؟

آه، لنفس رفلت من الغفلة في أثوابها؛ فثوى بها الأمر إلى عدم ثوابها. آه، لعيون أعشاها الأمل، فسرى بها إلى سرابها. آه، لقلوب قلبها الهوى عن القرآن إلى ربابها؛ فربا بها. آه لمرضى علم الطبيبُ قدر ما بها، وقد رمى بها.

---

(١) البيت في المخطوط هكذا:

آل ما كان المنى أن آل ما صار ما واصلته قد صار ما

(٢) آخر سبأ: قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

لأبي العتاهية:

يا نفس ما هو إلا صبر أيام   كأن مُدَّتَها أضغاثُ أحلامِ
يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة   وخلِّ عنها فإن العيش قُدّامي

يا مغرورين بحبة الفخ، ناسين خنق الشرك: تذكروا فوات المُلتَقَط، مع حصول الذبح. ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣] الحذر الحذر من صياد يسبق الطير إلى مهابطه، بفخوخٍ مختلفة الحيل. قدِّروا أنكم لا ترون خيط فخه؛ أما تشاهدون ذبائحه في خيط: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

للشريف الرضي:

يا قلب كيف عَلِقْتَ في أشراكهم
ولقد عهدتك تفلتُ الأشراكا
لا تشكونَّ إليّ وجْداً بعدها
هذا الذي جرّت عليك يداكا

ألا يصبر طائر الهوى عن حبة مجهولة العاقبة؟ وإنما هي ساعة ويصلُ إلى برجِ أمنه، وفيه حبّات.

فإن حننت للحمى وطيبه   فبالغضا ماءٌ وروْضاتٌ أُخر

واعجباً، أن يكون حاملُ الكتاب من الطير أقوى عزيمةً منك. لعلّ وضعك على غير الاعتدال. الخَلْق يدل على الخُلق. لا تكون الروح الصافية إلا في بدن معتدل. ولا الهمة الوافية إلا لنفس نفيسة. لا يصلح لحمل الرسائل إلا الطير الأخضر أو الأنمر؛ لأنه إذا كان أبيض، كان كالغلام الصقلاني[1]. والصقلاني فطير خام،

(١) في المخطوط: «السقلابي».

لم ينضج في محل الحمل. وإذا كان الطائر أسود، دل على مجاوزة حدِّ النضج إلى الاحتراق. فإن اعتدل اللون، دلّ على نفاسة النفس، وشرف الهمة. فحينئذ يعرف الطائر سر الجناح. فيقول بلسان الحال: عرفوني الطريق بتدريج، ثم حملوني ما شئتم.

فإذا درج فعرف، حُمِّل فحمَل. فصابر الغربة، ولازم بطون الأودية. وسار مع الفرات أو دجلة. فإن خفيت الطريق، تنسّم الرياح، وتلمّح قُرْصَ الشمس. وتراه - مع شدة جوعه - يحذر الحب الملقى؛ خوفاً من دفينة فخٍ يُوجبُ تعرْقُلَ الجناح، وتضييع المحمول. فإذا بلّغ الرسالة، أطلق نفسه في أغراضها داخل البرج.

فيا حاملي كتب الأمانة إلى عبادان التعبد. أكثركم على غير الجادّة. وما يستدلُّ منكم من قد رَاقَهُ حُبُّ حَبّ، فنزل ناسياً ما حمل، فارتهن بفخٍ قد نُفخ، فذبح. ومنكم من بان[1] لتعرقل جناحه، وما قصده الذابح بعد. فلا الحبة حصلت، ولا الرسالة وصلت.

قطاةٌ غرّها شَرَكٌ فباتت ... تُجاذبه وقد علق الجناحُ

فلا في الليل نالت ما تمنت ... ولا في الصبح كان لها براح

لو صابرتم مشقة الطريق؛ لانتهى السفر. فتوطنتم مستريحين في جنات عدن. فيا مهملين النظر في العواقب، سلّفوا وقت الرخص. فما يؤمن تغيّر السعر. سلسلوا سباع الألسن. فإن انحلّت افترستكم لا ترموا بأسهم العيون، ففيكم تقع. رب راعي مقلة أهملها فأُغير على السرّح. من رأى الحقائق رأي عين؛ غض طرفه عن الدارين.

---

(١) بان: في المخطوط: «قد مات».

لو حضرتم حضرة القدس؛ لعبقتم بنشْر الأُنْس.

اطلبــوا لأنفسكــم مثلَ مـا وجدت أنــا
قد وجـدت لي سكنا ليس في هـواه عنا[1]
إن بعــدت قربني أو قربت منــه دنــا

يا هذا. اعرف قدر لطفنا بك، وحفظنا لك، إنما نهيناك عن المعاصي؛ صيانة لك، لا لحاجتنا إلى امتناعك. لما عرفتنا بالعقل، حرمنا الخمر، لأنها تستره. ومثل يوسف لا يخبأ. يا مُتناولاً للمسكر، لا تفعل. يكفيك سكر جهلك. فلا تجمع بين خليطين. اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عنه. وشكرك لمن تعنيك نعمه. وطاعتك لمن لا ترجو خيراً إلا منه. وبكاءك على قدر ما فاتك منه. وارفع إليه يد الذل في طلب حوائج القلب؛ تأتي وما تشعر.

يا هذا. عندك بضائع نفيسة: دموع ودماء، وأنفاس وحركات، وكلمات ونظرات. فلا تبذلها فيما لا قدْر له. أيصلح أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟ أو تتنفس أسفاً على ما يفنى؟ أو تبذل مُهجة لصورة عن قليل تُمحى؟ أو تتكلم في حصول ما يشين ويُتوى[2]؟

واعجبا. من مجنون بلا ليلى. ويحك. دمعة فيك تطفي غضبنا. وقطرة من دم في الشهادة تمحو زللك، ونَفَسُ أسف ينسف ما سلف، وخطوات في رضانا تغسل الخطيئات، وتسبيحة تغرس لك أشجار الخلد، ونظرة بعبرة تثمر الزهد في الفاني. ولكن تصحيح النقد

---

(١) عنا: عناء.

(٢) توي: هلك.

شرط في العقد.

سلَعُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ [طه: ٨٢]. لا تباع إلا بدينار: ﴿لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]. إذا كان خارج من سبيكة: ﴿وَآمَنَ﴾ [طه: ٨٢]. عن سكة: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢]. من دار ضرب: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

يا هذا، لو استشعرت زُرْمَانِقَةَ[1] الزهد، تحت مطرف: «رُبَّ أشعث أغبر». وسِحْتَ في بادية: «يُدفعون»؛ لأفضنا عليك خلع: «إذا رؤُوا ذكر الله».

يا هذا، إن لم تقدر على كثرة العمل؛ فقف على باب الطلب. تعرّض بجذبة من جذبات الحق، ففي لحظة أفلح السحرة.

لا تجزعنْ من كلّ خطبٍ عـرا ولا تـرى الأعـداء ما تشمتُ

يا قـوم بالصبر ينـال المُنـى إذا لقيتـم فئـة فاثبتـوا

طريق الوصول صعبة؛ وفي رجلك ضعف. ويحك، دم على السلوك تصل. أولُ النخلة السحوق[2] فسيلة. بدايةُ الآدمي الشريف مُضغة. ثمنُ المعالي جد الطلب، والفتورُ داءٌ مزمن. بلد الرياضة سحيق ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧] سحابة الصيف أثبت من قولك. والخطُّ على الماء أبقى من عهدك.

من السلوة في عينـ ـيك آيات وآثار

أراها منك بالذهن وفي الألباب أبصار

إذا ما برد القلب فما تسخنه النار

---

(١) زرمانقة: جبة من الصوف. معرب: «أشتربانه» أي متاع الجمال.

(٢) السحوق: الطويلة.

يا هذا، إذا حضر قلبك فنسيم الريح يُذكّرك. وإن غاب فمائة ألف نبي لا يُوصلون التذكرة إليك. تالله لقد ألمعنا المعنى، وما ألزمنا الزمنى[1].

ولي ألفُ بابٍ قد عرفت سبيله

ولكن بلا قلب إلى أين أذهبُ

* * *

(١) الزمنى: جمع زمن، وهو المقعد من عاهة.

◘ الفصل السابع والثمانون ◘

يا من يرحل في كل لحظة عن الدنيا مرحلة. وكتابه قد حوى حتى قدر خردلة. كُن كيف شئت؛ فبين يديك الحسابُ والزلزلة. ياعجباً من غفلةِ مؤمنٍ بالجزاء والمسألة. أيقين بالنجاة؟ أم غرورٌ وبَلَه؟!

تبني وتجمع والآثار تندرسُ
وتأمل اللبث والأرواح تُختلسُ
ذا اللب فكِّر فما في الخلد من طمعٍ
لابدَّ ما ينتهي أمر وينعكس
أين الملوك وأبناء الملوك ومن
كانوا إذا الناس قاموا هيبةً جلسوا
ومن بسيوفهم في كل مُعْتَرَك
تُخشى ودونهم الحجّابُ والحرسُ
أضحوا بمهلكة في وسط معركة
موتى وماشي الورى من فوقهم يطس[1]
وعمّهم حدثٌ وضمّهم جدثٌ
باتوا وهم جُثثٌ في الرمس قد حُبسوا
كأنهم قطُّ ما كانوا ولا خُلقوا
ومات ذكرهم بين الورى ونُسوا
والله لو نظرت عيناكَ ما صنعتْ
يدُ البلى بهم والدودُ يفترس

(١) الوطس: الضرب الشديد بالخف وغيره، والكسر.

من أوجهٍ ناضراتٍ حار ناظرها
في رونقِ الحسن منها كيف تنطمس
وأعْظُمٍ بالياتٍ ما بها رَمَقٌ
وليس تبقى وهذا وهي تُنتهس[1]
وألسنٍ ناطقاتٍ زانها أدبٌ
ما شأنُها شَانها بالآفة الخرس
نَسْتَهُمُ[2] ألسنٌ للدهر فاغرة
فاها فآها لهم إذْ بالردى وُكِسوا
عروا عن الوشي لما أُلبسوا حللا
من الرغام على أجسادهم وَكُسوا
حتام ياذا النُّهى لا ترعوي سفها
ودمع عينك لا يهمي وينبجس

أيها المطمئن إلى الدنيا، وهي تطلبه بذَحْل[3]. قد مرضت عين بصيرته فيها، فما ينفع الكحل. يتبختر في رياضها، وما يصبح إلا في الوحل. انتبه للرحيل. ثم اشدد الرحل. واستبدل خصب المراد عن قحل المحل. وتأمر على نفسك، فللنخل فحل.

اترك الشرَّ ولا تأمن بشر وتواضع إنما أنت بَشَرْ
هذه الأجسام تربٌ هامدٌ فمن الجهل افتخارٌ وأشَر

---

(١) تنتهس: تؤكل وتنتف.

(٢) (نستهم) كذا في المخطوط. والذي في المطبوع: (ثلتهم)؟!.

(٣) الذحْل: الثأر.

جسد من أربع يلحظها سبعة من فوقها في اثني عشر
في حياة كخيال طارق شغل الفكر وخلاّك ومرّ

تالله لقد كُشفت الَغيرُ ماً انسدل، فلم يبق مراء ولا جدل. هذا حمامُ قد هدل. فكم صرخ صوته وكم جدل. يا جائرين احذروا ممن إذا قضى عدل. واعلموا أن الآخرة ليس منها بدل. هذا هو الصواب، لو أن المزاج اعتدل. يا من عمره كزمان الورد، التقط واعتصر لا في زور. يا شمس العصر على القصر، قد بلغ مركبك ساحل الأجل، ووقف بعيرك على ثنية الوداع، وقاربت شمس عمرك الطَفَل[1]، وبقي من ضوء الأجل شفق؛ فاستدرك باقي الشعاع قبل غروب الشمس.

أينفق العمر في الدنيا مجازفة والمـالُ يُنفق فيهـا بالموازين

البدار البدار قبل الفوت، الحذار الحذار قبل الموت. ما في المقابر من دفين. إلا وهو متألم من «سوف». يا هذا متى تبت بلسانك، وما حللت عقد الإصرار من قلبك؛ لم تصح التوبة. كما لو سكَنَت الأمراضُ بغتةً من غير استفراغ؛ فإن المرض على حاله.

يا هذا، إذا لم يتحقق قصد القلب لم يؤثر النطق باللفظ. إن المكره على اليمين لا تنعقد يمينه «**إنما الأعمال بالنيات**»[2]. وقلبك كله مع الهوى. «**إن في البدن مضغة إذا صلحت صلح البدن، وإذا فسدت فسد البدن، ألا وهي القلب**»[3].

---

(١) الطفل: قبيل الغروب.

(٢) البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإجارة: (١٩٠٧).

(٣) البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة: (١٥٩٩).

أكثر الأمراض أمراض الهوى. وأكثر القتلى بسيفه. أرباب الهوى أطفال في حجور العادات، وإن شابوا. انحدرت عزيمتك في جريان نهر الهوى، فاصبر صبر مدّاد[١] لعلك تردها. ويحك انتبه لإصلاح عيوبك لعل المشتري يرضى. تالله إن المشتري ما يحب بطء «زُحَل» اكفف ثوب الكلام بالصمت، وإلا تنسّل. اطف حراق الهوى، وإلا عمل. ارفق بزجاج العمر؛ فما ينشعب إذا انكسر.

واعجبا، الظاهر غير طاهر، والباطن باطل، الأمل بخار فاسد الرعونة علة صعبة. منام المنى أضغاث. رائد الآمال كذوب. مرعى المشتهى هشيم. العجز شريك الحرمان. التفريط مضارب الكسل. ديْجور الجهل معتم. سؤر الهوى مغرق. روض اللهو وبي. غدير اللذات غدر.

ظللت أكرُّ عليه الرُّقى وتأبى عريكته أن تلينـا

كم قد لمتك؟ وما نفع. كم قد نصبُت لك شَرَكا؟ وما تقع. قِفْلُ قلبك «رومي» ما يقع عليه فش[٢]. يا هذا، المجاهدة حرب لا يصلح لها إلا بطل. متى تغير من جنود عزمك على الإنابة قلب واحد؛ لم آمن قلب الهزيمة عليك.

وإذا كان في الأنـابيب خلفٌ وقع الطيش في رؤس الصعاد

أيها المريد: تلطف بنفسك في الرياضة؛ تصل. مشي القطا بدبيب[٣]، ومشى العصفور نَقَزَان[٤]. العنكبوت الفطن ينسج في

(١) مدّاد: كذا في المخطوط والمطبوع.

(٢) فشّ القفل: الاحتيال لفتحه بغير مفتاحه. (٣) النقزان: الوثب.

(٤) بدبيب: في المطبوع: «بدبير»، وفي المخطوط: «بتعزر». ولعل الصواب ما أثبتناه.

زاوية. والمغفل ينسج على وجه الأرض. كن قيّما على جوارحك. وفِّها الحظوظ، واستوف منها الحقوق. أما ترى حاضن البيض يقلبه بمنقاره؛ فتأخذ كل بيضة حظها من الحضن؟ ثم أكثر ساعات الحضن على الأنثى؛ لاشتغال الذكر بالكسب. فإذا صار البيض فراخا؛ كان أكثر الزق على الأب. ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧] ما لقيت حواء عشر ما لقي آدم؛ لأنها وإن شاركته في العلم بفقد صورة النعيم، فهو منفرد عنها بملاحظة المعنى بعد عز: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]. يقبض جبريل على ناصيته للإخراج، والمدنف يقول: ارفق بي.

يا سائق البكرات[1] استبق فضلتها

على الغوير فظهر الفكر معقور

كان يتوقف في خروجه؛ لو تُرك. ويتشبث بذيل؛ لو نفع. ولسان الأسى يصيح بمن أسا:

تزوّد من الماء النقاخ[2] فلن ترى

بوادي الغضا ماء نُقاخا ولا بردا

ونل من نسيم البان والرند نفحة

فهيهات واد ينبت البان والرندا

وكر إلى نجد بطرفك إنه

متى تسر لا تنظر عقيقاً ولا نجدا

---

(١) البكرات: جمع بكرة، وهي الفتية من الإبل.

(٢) النقاخ: الماء البارد العذب الصافي.

ما زال مذ نزل يرفع قصص الغصص، على أيدي أنفاس الأسف، فتصعد بها صعداء اللهف:

ألا يا نسيم الريح من أرض بابل

تحمّل إلى أهل الحجاز سلامي

وإني لأهوى أن أكون بأرضهم

على أنني منها استفدت سقامي

واعجباً من قلق آدم، بلا مُعِينٍ على الحزن. هوامُّ الأرض لا تفهم ما يقول. وملائكة السماء عندها بقايا: ﴿**أتجعل**﴾ فهو في كربه «وحيد» بدار غربة:

ألا راحمٌ من آل ليلى فأشتكي غرامي له حتى يكلّ لسانيا

★ ★ ★

الفصل الثامن والثمانون

إخواني، أيام العافية غنيمة باردة، وأوقات السلامة لا تشبهها فائدة. فتناول ما دامت لديك المائدة. فليست الساعات الذاهبات بعائدة.

مضى أمسك الماضي شهيداً معدّلا ... وأتبعه يوم عليك شهيدُ

فإن تلك بالأمس اقترفت إساءة ... فبادر بإحسان وأنت حميد

ولا تبق فعل الصالحات إلى غد ... لعل غداً يأتي وأنت فقيد

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت ... حميمك فاعلم أنها ستعود

كأنكم بالقيامة، قد قامت. وبالنفس الأمّارة بالسوء، قد لامت. وانفتحت عيون طال ما نامت. وتحيرت قلوب العصاة وهامت.

غداً تُوفّى النفوسُ ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساؤا فبئس ما صنعوا

شبكة الحساب ضيقة الأعين، لا يعبرها شيء. وكيل المطالبة خصم ألد. أينطق «باقل» عُذْرك بين يدي «سحبان»[1] المناقشة؟ كلا. أيقن بالسجن.

يا هذا، إنك لم تزل في حبس؛ فأول الحبوس صلب الأب، والثاني بطن الأم، والثالث القماط، والرابع المكتب، والخامس الكدّ على العيال، والسادس الموت، والسابع القبر. فإن وقعت في الثامن نسيت مرارة كل حبس.

---

(١) باقل: يضرب به المثل في العي والحصر. وسحبان: يضرب به المثل في الفصاحة.

يا هذا ادخل حبس التقوى باختيارك أياما؛ ليحصل لك الإطلاق في الأغراض على الدوام. ولا تؤثرن إطلاق نفسك فيما تحب؛ فإنه يؤثر حبس الأبد في النار. إلى متى تسجن عقلك في مطمورة هواك؟ أو يحبس طاووس في ناووس[1]؟ ويحك. تفكر فيما بين يديك؛ وقد هان الصبر عليك.

لما خفيت العواقب على المتقين؛ فزعوا إلى القلق، وأكثروا من البكاء. فعذلهم من يُشفق عليهم، وما يدري العاذل أن العذل على حمل الحزن علاوة. قيل لبعض العباد: كم تبكي! قال: إذا لم أبك فما أصنع؟

ما كان يقرأ واشٍ سطرَ كتماني ... لو أن دمعي لم ينطق بتبيانِ

ماء ولكنه ذوب النفوس وهل ... ماء تولُّده من حر نيران

ليت النوى إذ سقتني سمّ أسودها ... سدت سبيل امرئ في الحب يلحان

قد قلت بالجزع لما أنكروا جزعي ... ما أبعد الصبر ممن شوقه دان

عُجنْا على الربْع نستسقي له مطراً ... وفاض دمعي فأرواه وأظماني

قوي حصْرُ الخوف؛ فاشتد كرب القوم. فكلما هبّ نسيم من الرجاء ولوا وجوههم شطره:

يا طربا لنفحة نجدية ... اعدل حر القلب باستبرادها

وما الصبا ريحي لولا أنها ... إذا جرت مرّت على بلادها

عبارة النسيم لا يفهمها إلا الأحباب، وحديث البروق لا يروق إلا المشتاق:

---

(٢) الناووس: مقابر النصارى.

ومرنحٍ فَطِنَ النسيمُ بوجْده فروى له خبر العذيب معرِّضا

العارف غائبٌ عند ذكر الدنيا، وحاضرٌ عند ذكر الأخرى، وطائشٌ عند ذكر الحبيب. يحضر المجلس موثقاً بقيود الهمّ. فإذا ذكر الحبيب قطع الوجدُ السلاسل. إن مداراةَ قيسٍ تُمكِن؛ ولكن لا عند ذكر «ليلى».

للخفاجي:

رمتُ بالحمى أبصارها مطمئنةً فلما بدت نجدٌ وهبّت جَنُوبُها

بخلنا عليها بالبرى[1] فتقطعت وقلّ لنجدٍ لو تفرّت قلوبها

لو برزت ليلى ليلا؛ لصار الظلام عند قيسٍ أوضح من ضحى.

إذا ما ونت نادى بها الشوق فانبرت

تجدُّ ومن نادى به الشوقُ أسرعا

مع سمع ذكر الحبيب، ولم يثر قلبه عن مستقره؛ فهو مدع.

للمهيار:

إذا ذكر المحبوب عند محبه ترنح نشوانٌ وجُنّ طروبُ

إذا قيل ميّ لم يسعني لذكرها خِبَاءٌ ولم يحبسُ بكاي رقيب

كلامي صحيح المزاج، خفيف الروح. أنا صائغٍ صانع. بابلي لفظي يبلبل. أنا ماشطة القوم. أنا لسان الوقت:

فكأني قساً[2] في عكاظ يخطبُ وكأن ليلى الأخيلية تندب

وكثير عـزة يـوم بَيْـنٍ يُطنبُ وابن المقفع في اليتيمة يسهب

(١) البرى: التراب.

(٢) قس: ابن ساعدة الإيادي.

أنا طبيب لبيب، أمزج التحذير بالتشويق للعاملين. وأجعل كأس التخويف صِرْفا للغافلين. وأجتهد في التلطف جهدي بالعارفين. الخام يعجب البدوي. وأما الحضري فدق مصر. الأدوية الحادة تؤذي الأبدان النحيفة. الزاهد ملاح الشط، والعارف ناتاني[1] المركِب. الزاهد مقتب[2]، والعارف في محمل. نفس الزاهد تسير به، وقلب العارف يطير به. العارف حال في الرحمة، غريب في الوطن. خلوته بمعروفه طُورُه. متى تقاضاه الشوق؛ حضر لا عن ميعاد. إذا وطى[3] بساط الانبساط. قال: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإذا سمع صاعقة الهيبة. قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ويأبى الجوى أنْ أسرَّ الهوى إذا امتلأ القلبُ فاض اللسان

إذا رأيتم ناطقاً بالحكمة قد طرب، فاعذروه. فإنه قد صدر ولم تردوا بعد. العالم المحقق قد اعتصر من كروم المعارف: خندريس[4] المعاني. فشرب منها حتى غُلب. فإذا عربد بالطرب فلم يعذره الصاحي؛ أمر ساقي النطق أن يدور بكأس اللفظ على أرباب الألباب. فإذا القوم نشاوى من الثمل. فيصبح حينئذ مواقف: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ [يوسف: ٣٠]، ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢].

عبرناكم يا منقطعين، وعلينا أن نرد. لابد للأمير أن يقف للساقة. عُودوا إلى أوكار الكسل؛ فنحن على نيّة دخول الفلاة.

---

(١) ناتاني: النوتي. والجمع: نواتي: الملاحون في البحر.

(٢) مقتب: يركب على قتب البعير.

(٣) وطى: وطأ.

(٤) الخندريس: الخمر.

اسمعوا وصايانا يا مودعين: إذا جنّ الليل فسيروا في بَوادي الدجى، وأنيخوا بِوادي الذل، واجلسوا في كسر الانكسار. فإذا فتح الباب للواصلين دونكم فاهجموا هجوم الكذابين. وابسطوا كف: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]. لعل هاتف القبول يقول: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

واذ جئتم ثنيات اللوى — فلجوا ربع الحمى في خطري

وصفوا شوقي إلى سُكّانه — واذكروا ما عندكم من خبري

وَاحنيني نحو أيام مضتْ — بالحمى لم أقض منكم وطري

كلما اشتقت تمنيتكم — ضاع عمري بالمنى وَاعمري

★ ★ ★

الفصل التاسع والثمانون

آه لنفس أقبلت على العدو، وقبلت. وبادرت إلى ما يؤذيها من الخطايا، وعجلت. من لها إذا سئلت عن قبيحها، فخجلت؟ وسُلّ عليها سيفُ العتاب، فَقُتلت.

ما لنفسي عن معادي غفلت ... أتراها نسيت ما فعلت
أيها المغرورُ في لهو الهوى ... كلٌّ نفسٍ سترى ما عملت
أف للدنيا فكم تخدعنا ... كم عزيزٍ في هواها خذلت
رُبَّ ريح لأناسٍ عصفت ... ثم ما إن لبثت أن سكنت
فكذاك الدهر في تصريفه ... قَدَمٌ زلتّ وأخرى ثبتت
أين من أصبح في غفلته ... في سرور ومرادات خلت
أصبحت آماله قد خُيِّبت ... وديار لهوه قد خربت
جُزْ على الدار بقلبٍ حاضر ... ثم قل: يا دارُ ماذا فعلت
أوجهٌ كانت بدوراً طُلّعاً ... وشموساً طال ما قد أشرقت
قالت الدارُ: تفانوا ومضوا ... وكذا كل مقيم إن ثبت
عاينوا أفعالهم في تُرْبهم ... فسل الأجداثَ عمّا استودعت
إنما الدنيا كظلٍ زائلٍ ... أو كأحلامِ منامٍ ذهبت

يا من هو في هِوةّ الهوى قد هوى. كم مسلوب بكف النوى[1] عما نوى. أين المستقر عيشه أدركه التوى[2] فالتّوى؟ أين الجبار

---

(١) النوى: البعد.

(٢) التوى: الهلاك.

الذي إذا علّق بالشوى[1] شوى؟ أين شبعان اللذات أدركه الطوى لما طوى؟ ليته لما ذهب الأصل تيقظ الفرع؛ فارعوى.

إلى متى خَلْف وعْدِ الدنيا وكله خُلْف؟ يا متعباً نفسه بالحرص، والقدر ما يتغير من صرفه. كم غرقت سفينة مهجة في لجة حِرْص. الطمع يخنق العصفور قبل الفخ. لما قنعت العنكبوت بزاوية البيت، سيق لها الحريص، وهو الذباب، فصار قوتا لها. وصوّت به لسانُ العبرة: رُبَّ ساعٍ لقاعد. ترسل قلبك مع كل مطلوب من الهوى. ثم تبعث وراءه وقت الصلاة، ولا يلقاه الرسول؛ فتصلي بلا قلب.

خلفت قلبك في الأظعان إذ نزلت
بالمأزميْن زمـان النفـر بالنفـر
ورحت تطلب في أراض العراق ضحى
ما ضاع عند منى فاعجب لذا الخبر
لما طرقنا النقى كان الفؤادُ معي
فضلّ عني بين الضال والسمر
يا أرجلَ العِيسِ تهنيك الرمالُ فما
أغدو بوجدي غداً إلا على الأثر

عليّ تفصيل الأمور والجمل. ما يرضى للقبر، بهذا العمل. يا من قد حمل الخطايا، وبئس ما حمل. أفي سكر أنت؟ أم في نمل[2]؟ لو علمت أن مكاوي الحديد، قد أحميت للسَمَل[3]. لم

(١) الشَّوى: اليدان والرجلان، والأطراف، وقحف الرأس، وما كان غير مقتل.
(٢) نمل: خدر. (٣) السمل: الفقء.

نُقرّق من اللباس، بين الجديد والسَّمِل[1]. يا ثقيل الطبع كالرمْل. فما يطربه الثقيل ولا الرمل[2]. تعصي ثم تصرّ؛ فتضيف إلى صفين الجمل[3]. يا من فقد قلبه؛ لا تيأس من عوْده.

فقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنـان كـل الظـن ألا تلاقيـا

الهوى قاطن، والصواب خاطر. وقلع القاطن صعب، وإمساك الخاطر أصعب. الهوى متدير[4]، والمواعظ نزالة، مع مداراة الجمل، تصل. لما تزينت زخارف الدنيا؛ تواثبت جهال الطبع لاتباع الهوى. فبعث العقل كافّاً لهم، فأقام عندهم، موكلا بهم. وكلما زاد في قيودهم، فكّوا السلاسل. وكلما تلا عليهم النصائح؛ أسمعوه القبائح. فواعجبا لمعرف بُلي بمقاساة أنذال.

ما يزال العقل يضرب الأمثال، ويشرح العواقب ولكن من يسمع؟ احضر معه في خلوة، واستحضر صدّيق الفكر، فإنه ثقة. فإن خرجتم إلى المقابر؛ قوي دليل النصح. مروا بقصور المذنبين؛ تجدوا أخبارهم مراً. وجوزوا على قبور الصالحين؛ فقد جوزوا في العاجل ذكرا. إذا مات المؤمن بكى عليه مصلاّه من الأرض، ومصعد عمله من السماء، أربعين صباحا. واعجبا للبقاع، تبكي عليهم، وتبكي منهم.

---

(١) السمل: القديم البالي.

(٢) الثقيل والرمل: من بحور الشعر. انظر كتب العروض.

(٣) صفين: الواقعة بين علي ومعاوية. الجمل: ما جرى يوم خروج عائشة.

(٤) متدير: نازل بالدار.

أما الوقوف فقد وقفت بدارهم وسألتها لو أن داراً تفهم
وإذا رأيت طُلولَهم أبصرتها طرْساً يخط به البلى وينمنم
نحلت لبيْنهمُ ولم أكُ عارفا أن الديار بهم تصح وتسقم

ياله من عذل؛ لو كان للمعاتَبِ فهم، لُحمّ منه. لقد نفختُ والله لو كان فحم.

للشريف الرضي:

والحرُّ من حذر الهوان يُزايـل الأمـر الجسيما
والعاجــز المأفــون أقعدُ ما يكونُ إذا أُقيما

العباراتُ حظُّ النفوس، والإشاراتُ قوتُ القلوب.

نزل بعض أرباب المعرفة إلى الشطّ فصاح: يا ملاّح، تحملني؟ فقال: إلى أين؟ قال إلى دار الملك. فقال: معي ركاب إلى القطيعة[1]. فصاح الفقير: لا بالله لا بالله. أنا منذ سبعين سنة أفرُّ منها.

دخل ذو فطنة إلى دار قوم، فرأى حبّاً، وإلى جانبه مركن قد زرع فيه صبر. فتواجد. فقال: حَبٌّ إلى جانبه صبر؟

يا نازلين الحمى رِفْقاً بقلبِ فتى
إن صاح بالبين داع باح مضمره
وقد يميل إلى المغنى[2] يُسائله
أخو الغرام ولكن من يخبّره

(١) القطيعة: محالّ ببغداد، أقطعها المنصور أناسا من أعيان دولته، ليعمروها، ويسكونها.
(٢) المغنى: المكان الذي غني به أهله، ثم رحلوا.

وما ذكرتكم إلا وهِمْتُ جوى
وآفة المبتلى فيكم تذكره
ولا عزمت على سلوان حبّكم
إلا ويخذلني قلبي وينصره

أين الذين كانوا نجوم الدنيا وأقمار الآخرة؟ قياما كالأعلام على جوادّ[1] الهوى، تقوى بأنفسهم نفوس أنفاس أهل التقوى. يصوتون بالمنقطع، ويرشدون المتحير، ما بقي في الديار ديار.

نسيم الصبا إن زرت أرض أحبتي
فخُصّهم عني بكلٍّ سلامِ
وبلغهم أني رهينُ صبابةٍ
وأن غرامي فوق كلِّ غرام
وإني ليكفيني طُروقُ خيالهم
لو انّ جُفوني مُتّعتْ بمنام
ولست أبالي بالجنان وباللظى
إذا كان في تلك الديار مقامي
وقد صمت عن لذات دهري كلها
ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

رحل القوم وتخلفنا، وبادروا أيامهم وسوفنا، وعرفنا طريقهم لكنا انقطعنا. فسيروا بنا، فإن لحقنا، وإلا تأسّفنا.

---

(١) جواد: جمع جادة: الطريق الواضح.

يا صاحبي إن كنت لي أو معي | فعد إلى روض الحمى نرتع
حي كثيب الرملِ رملِ الحمى | وقفْ وسلّم على لعْلع
وسل عن الوادي وأربابه | وانشد فؤادي في ربُى المجمع
وابك فما في العين من فضلة | ونُبْ فدتْك النفسُ عن مدمعي
واسمع حديثاً قد روته الصَّبا | تُسنده عن بانة الأجرع
وانزل على الشيح بواديهم | واشمم عشيب البلد البلقع
بلغ تحياتي إلى ربْعهم | وقل: ديار الظاعنين اسمعي
رفقاً بنضْوٍ قد براه الأسى | يا عاذلي لو كان قلبي معي
لهفي على طيبِ ليالٍ خلت | عودي تعودي مدنفاً قد نُعي
إذا تذكّرتُ زماناً مضى | فويح أجفاني من أدمعي
أراجعٌ لي وصلهم بعدها | يا نفس إن لم يصلوا ودِّعي
يا نفس كم أتلوا حديث المنى | ضاع زماني بالمنى فاقطعي
يا قلبُ لا تسكن على بعدهم | وأنت يا عينُ فلا تهجعي

★ ★ ★

الفصل التسعون

إخواني ألا ذو سمع وبصر؛ يعلم أن الأعمار فيها قصر؟ ألا متلمّح ما في الغِيَرِ من العبر؟ ألا ذاكر بيت التراب والمدر؟

تنبه فإن الدهر ذو فجعات
وشمل جميع صائر لشتات

نخلف مأمولاتنا وكأننا
نسير إليها لا إلى الغمرات

هل المرء في الدنيا الدنيّةِ ناظرٌ
سوى فقد حبٍ أو لقاء ممات

وما حركات الدهر في كل طرفة
بلاهية عن هذه الحركات

سيُسقى بنو الدنيا كؤوس حتوفهم
إلى أن يناموا لا منام سبات

وما فرحت نفس ببلوى وقد رأت
عظات من الأيام بعد عظات

إذا بغتت أشياءُ قد كان مثلها
قديماً فلا تعتدّها بغتات

واعقب من النوم التيقظ[1] راشداً
فلابد للنوام من يقظات

(١) في المخطوط: «فاعقب من النوم التنبه».

يا من يجول في المعاصي، قلّبه وهمُّهُ. يا معتقدا صحته، فيما هو سقمه. يا من كلما طال عمره، زاد إثمه. أين لذة الهوى؟ رحل المطعوم وطعمه. يا من سيجمعه اللحد عن قليل، ويضمّه. كيف يوعظ من لا يعظه عقله ولا فهمه؟ كيف يوقظ من قد نام قلبه؛ لا عينه ولا جسمه؟

ويحك تدارك أمرك قبل الفوت. أتنفع الاستغاثة والسم قد وصل إلى القلب؟ إن الدرياق يصلح قبل اللسع. ومذهب ابن سيرج، يستعمل قبل الطلاق[1].

لمن أُحدّث والقلب غائب؟ لمن أعاتب والفكر ذاهل؟ وآسفا من ضرب الخراج على بلد خراب. ويحك، أجماد أنت أم حيوان؟ هذا الفهد على خساسة خلقه، يصاد بالصوت الحسن. ومتى وثب على الصيد ثلاث مرات ولم يدركه، غضب على نفسه. كم قد وثبت على هواك مرة فلم تقدر عليه؟ فأين غضبك على التقصير؟ هيهات ليس عند الطاووس إلا حسن الصورة.

تفيق في المجلس لحظة، ثم تذكر الشهوات فيغمى عليك. إن الغراب إذا سكر بشراب الحرص تنقل بالجيف. فإذا صحا من خماره ندب على الطلل. لما عزّت نفس الببغاء، زاحمت الآدميين في النطق، وهي تتناول بكفها من جنس مطاعمهم. واعجبا لبهيم يتشبه بالناس، ولإنسان يتشبه بالبهيم. كل هذا سببه الهمة. لا يطمعن

(١) مذهب ابن سريج: أن الرجل إذا قال لزوجته: «إذا وقع عليك الطلاق فأنت طالق» أنها لا تطلق أبداً بذلك. بينما يرى البعض أنه إذا طلقها فإنها تطلق ثلاثاً. انظر المغني لابن قدامة: (٧/ ٣٣١-٣٣٢)، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود: (٦/ ١٩٨).

البطّال في منازل الأبطال. إن لذة الراحة لا تُتناول بالراحة[1]. من زرع حصد، ومن جدّ وجد.

وكيف يُنال المجدُ والجسمُ وادعٌ

وكيف يُحاز الحمدُ والوفـرُ وافـرُ

أي مطلوب ينال من غير مشقة؟ وأي مرغوب لم تَبْعد على مؤثره الشُّقة؟ المال؛ لا يحصل إلا بالتعب. والعلم: لا يدرك إلا بالنصب. واسم الجواد: لا يناله بخيل. ولقب الشجاع: بعد تعب طويل.

للمتنبي:

لا يدرك المجد إلا سيد فطن ... لما يشق على السادات فعّال

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتـال

يا أعجمي الفهم، متى تفهم؟ يا فرحاً بلذة عُقباها جهنم. ستدري متى تبكي، ومتى تندم: إذا جثا الخليل، وتزلزل ابن مريم. يا عاشق الدنيا كم قتلت مُتيمّ؟ ما للفلاح فيك علامة، والله أعلم. إن كان ثَمّ عذر؛ فقل وتكلم.

غاب الهدهد عن سليمان ساعة فتواعده. فيا غائباً عنا طول عمره. أما تحذر غضبنا؟ خالف موسى الخضر، في طريق الصحبة ثلاث مرات، فحل عقدة الوصل، بكف: ﴿**قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾ [الكهف: ٧٨]. أما تخاف - يا من لم يفِ لنا قط - أن نقول في بعض زلاتك: ﴿**قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾.

---

(١) الراحة: راحة اليد.

أعظم عذاب أهل النار، جهلهم بالمعذب. لو صحت معرفتهم بالمالك؛ لما استغاثوا: يا مالك.

وقع بينهم شخصٌ ليس من الجنس، كانت في باطنه ذرةٌ من المعرفة. فكلما حملت عليه النار؛ اتقاها بدرْع: «يا حنان يا منان» كان موته في المعاصي سكتة، فقبر في جهنم. فلما تحرّك الروح في الباطن، أُخرج. رأى الأسباب بيد المسبب. فتعلق بالأصل.

إخواني، اليوم رجاؤنا للرحمة قوي. فكيف نصنع غداً إن ضعف؟

هذا جزعي وما خلا مغناكم ... ما أصنع بعد بُعدكم حاشاكم

أقسمتُ بكم لكم وحسبي ذاكم ... لا أذكر غيركم ولا أنساكم

أزعجتموني بتقلقلكم، يا تائبين. أخرجتموني عن الحد، يا خائفين.

يا صبا نجد ويابان الحمى ... ارفقا بي في التثني والهبوب

تتقومون بمقالي، وتقومون على حر المقالي. ويخرج عاطل البطالة وهو خالي. وأنا لا أدري ما حالي ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [**يوسف**: ٨٦].

يا غاديا نحو هضاب الحمى ... بلغ رسومَ الدار ما عندي

كـم لي بتلك الدار من وقفة ... أشكو من الهجران والصد

يا ركبْ التوبة، إن تزودتم التقوى، وسرتم إلى الله، فاحملوا معكم رسالة متلهف، تحتوي على حسرة مُحْصر.

يا حادي العيس ترفق واستمع ... مني وبلـغ إن وصلت عنـي

وقف بأكناف الحجاز ناشدا ... قلبـي فقـد ضاع الغـداة مني

---

(١) هذا حلف بغير الله.

وقل إذا وصلت نحو أرضهم: ذاك الأسير موثق بالحزن
عرض بذكري عندهم عساهم إن سمعوك سائلوك عني
قل: ذلك المحبوس عن قصدكم معذب القلب بكل فن
يقول: أملّت بأن أزوركم في جملة الوفد فخاب ظني

يا معاشر التائبين، بحرمة الصحبة[1] لا تنسوني غدا. بعتكم أغلى الملك؛ فلا تنسوا كرامة الدلال.

أعوذ بك يا إلهي. أن تجعل حظي لفظي. واآسفى، أصف وأصُفّي ويشرب غيري.

فعندي زفيرٌ ما ترقّى إلى الحشى وعندي دموعٌ ما بلغن المآقيا

واحسرتا، أأكون كالقوس، رفعت السهم فمرّ، ولم تبرح؟ أأصير كالإبرة، تكسو غيرها، وهي عريانة؟ أأشبه حال الشمعة، أضاءت لغيرها، باحتراق نفسها؟

أترى يرجع لي دهر مضى أترى ينفعني قولي ترى
ويك يا عين أعيني قلقي إن توانيتِ فلا ذقتِ الكرى

إلهي: أيقظتني في الصبا، وأقمتني أدل الخلق عليك، ومزجت كأس نطقي بعذوبة، وجعلتني في إخباري معروفا بالأمانة؛ فركن إلي أهل المعاملة؛ ولو عرفوا إفلاسي ما عُوملت. إلهي طالما اجتذبت العصاة، بعد أن تهافتوا في النار. أفيصدرون وأرد؟! سيدي: إن لم أصلح للرضا، فالعفو العفو.

* * *

(١) هذا استحلاف بغير الله.

الفصل الحادي والتسعون

إخواني، أما ينبه على استعداد الزاد: سلب الآباء وأخذ الأجداد؟ أما يحرك إلى التيقظ ونفي الرقاد: عكس المشتهى، وردّ المراد؟

للشريف الرضى:

لنا كل يوم رنّةٌ خلف ذاهبٍ
ومستهلك بين النوى والنوائبِ

ونأمل من وعد المنى غيرَ صادقٍ
ونأمنُ من وعدِ الردى غيرَ كاذب

نُراعُ إذا ما شيك[1] أخمص[2] بعضنا
وأقدامنا ما بين شوك العقارب

نعم إنما الدنيا سمومٌ لطاعمٍ
وخوفٌ لمطلوبٍ وهمٌّ لطالب

وإنا لنهواها مع الغدر والقِلى
ونمدحها معْ علمنا بالمعائب

أي مطمئن لم يُزعج؟ أي قاطنٍ لم يُخرج؟ فرس الرحيل لنا أسرج، وما جرى على الأقران أنموذج. يا مختالا في ثوب الصبا، معجبا بمرطه. شرط المقام الرحيل، وقد تقاضى بشرطه. أما لك عبرة في رفع الزمان وحطِّه؟ أما ترى رقوم المنايا مكتوبة

(١) شيك: أصيب بشوكة.

(٢) أخمص: الأخمص من باطن القدم ما لم يصب الأرض.

بخطه؟ أما أعرب المسطور بشكل المرض ونقطه؟ هلاّ تصور العاصي، ساعة إنزاله إلى القبر، وحطه؟ أفلا يتذكر الغني، أخذ ماله على رغمه؟ من أصل قرطه[١]؟

يا من قد قاده الهوى بلا خزامة[٢]، لو قبلت مشورة العقل لم تتجرع مر: لو وليت. قدّر أن الزلل يخفى على الخلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] صوّر أنه قد عفا عنك، فأين الحياء مما جنيته؟

هَبِ البعثَ لم تأتنا رُسْلُه ... وجاحِمةُ النار لم تُضرمِ

أليس من الواجبِ المستحقِّ ... حياء العباد من المنعم

أقلُّ نِعمه، أن أوسع عرصة الوجود؛ لئلا يضيق نفس النفس بالحصر. وأجرى مجرى الهواء في جو الفضا، يقتسم بمكاييل الخياشيم؛ فيصل بالعدل إلى ذوات الذوات.

واعجبا، للغافلين عن هذا المنعم. بماذا اشتغلوا؟ أجهلا بوجوده؟ فهو أوضح من ضحى. أم ميلا إلى الدنيا؟ فهي أغدر من تاء بتمتام[٣]. إن سلمت فتنت، وإن تلفت قتلت. وقع نحل على «لينوفر» منتشر الورق، فأحب ريحه، فأقام. فلما تقبض الورقُ وغاص، هلك العاشق.

إخواني، إياكم والذنوب، فإنها أذلت عزيز: ﴿اسْجُدُوا﴾ [البقرة: ٣٤]. وأخرجت مقطع: ﴿اسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥]، لولا لطف:

---

(١) قرطه: في المخطوط: «قطه».

(٢) الخزامة: ما يوضع في أنف البعير.

(٢) تاء بتمتام: يعني حرف التاء في كلمة «تمتام». والتمتام: أن تسبق كلمته إلى حنكه الأعلى.

﴿ فَتَلَقَّىٰ ﴾ [البقرة: ٣٧] كان العجب.

استراح آدم إلى بعض العناقيد، فإذا به في العنا قيد. جاءه جبريل فسلم عليه، فبكى، وبكى جبريل. ثم قال: يا آدم ما يبكيك؟ قال: كيف لا أبكي، وقد حولني من دار النعيم إلى دار البؤس؟

واعجبا، بمجيء جبريل؛ زاد المريض ألماً.

آه لبـرْق لمعـا ماذا بقلبي صنعا
أيقظ مني للغـرام مستهاماً موجعـا
فبتُّ مـن إيماضه أسكب دمعي دفعا
يا برق أما تريني للصنيـع موضعـا
فحيِّ عني أربعا أكـرم بهـن أربعا
يا ناظراً أقسَمَ مِنْ بعد النوى لا هجعا
كبَّر مُذْ فارقهم على الرقـاد أربعا
كـم كبـد قطّعها بين الحبيب قِطَعا
حمّل وجْدي جلَدي أكثـر مما وسعـا

خرج آدم يؤُم الكعبة، فلما وصل طاف أسبوعاً. فما أتمه حتى خاض في دموعه.

دموع عيني مـذ جـدّ بيـنٌ مثل الدوالي وهي الدوا لي[1]

فشمت به إبليس حين نزل، وما علم، أن نزوله إلى دار التعبد صعود، كنزول الغائص خلف الدر: صعود. رأى في بدايته: طينا قد صلصل، وبذراً قد عفن. ونسي أنه ستهتزّ طاقاته في ربيع:

(١) الدوا لي: الدواء لي.

﴿فَتَلَقَّىٰ﴾ [البقرة: ٣٧].

ويلك يا إبليس ما جرى على آدم هو المراد من وجوده. «لو لم تذنبوا»[1] قدح أريد كسره؛ فسُلِّم إلى مُرتعش.

فلولا غليل الشوق أو لوعة الأسى
لما خُلقت لي أعين وجفونُ

لا يهولنك قوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨] فلك خلقتها. وإنما أُخرجتَ إلى مزرعة المجاهدة؛ فإذا حصدت فعُد.

إن قيل لك مرة: ﴿فَاهْبِطْ﴾ [الأعراف: ١٣] ففي كل يوم تنادى ألف ألف مرة: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]. إن تعذرت عن الحضرة مرة، فزيارة الحبيب ما تنقطع: «هل من سائل؟»[2]. الكُرة تُلقى من صاحب الصولجان بالطرد، ثم هو يطلبها.

ترجو في الحب عتق من أنت له إن كان كذا الحب فما أعدله
هيهات الحب يعتريه وله من حكمه قضى عليه وله

يا آدم، قد ذقت حلاوة الذنب، وتطعّمت مرارة الندم. فهل وفت بتلك؟ أين لذاتك إذا نزل الموت؟ كيف حسرات إذا وقع الفوت؟

ما أسرع ما انقضى زمان الوصل هل يرجع ما مضى برَدِّ الشمْلِ
من لي بهم وهل مفيد: من لي يكفي ما بي فلا تزد في عذلي

يا صبيان التوبة، اشكروا من نجاكم بالإنابة. ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا

(١) رواه مسلم في التوبة: (٢٧٤٩).
(٢) جزء من حديث النزول، وقد تقدم تخريجه: (ص ٣٦١).

حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. تذكّروا عظمة من عاهدتم. ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] لا تزدروا أثواب الفقر، فعليها أنوار المهابة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، لا يصعبن على الخيل تضميرها؛ فستفرح به يوم السباق. إن قال لك رفقاؤك: امش معنا ساعة، فقل: أقعدني الخوف:

يا نديميّ صحا القلبُ صحا فاطردا عني الصِّبا والمرحا

شمراً بردي للنسك ولا تعجبا من فاسد إن صَلُحا

زجر الحلم فؤاداً فارعوى ولحا الدهرُ امرءاً فيمن لحا

أيها التائب، قل لقلبك الراعي في رياض الهدى: احذر من لفتة إلى خضراء دمَنِ الهوى، فمرعاك أطيب، وشرابك أعذب ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ [يوسف: ٣٢]. نسيم الريح يقوي الروح؛ ما لم يختلط به بخار رديّ. كذلك كلام المذكِّرين: إذا سلم من بدعة؛ كان قوتاً للنفس. وإن مازجه هوى؛ هوى بصاحبه إلى العلل.

كلامي نهر، يأخذ من بحر الكتاب والسنة، صاف ما تغير قط. يسقي قلوبكم سيحا بلا كلف. وقد قنع من الخراج بالدعا. هل في مجلسي نقص فيقال: لو أنه؟ أو عيب، فيقال: إلا أنه؟ أو رأيتم مثله فيقال: كأنه؟ آه لو كان من أعجمي، ولكنه. أبلغ بلفظي منزل المعنى، وما طال سفر العبارة.

المعاني واسعة الفيافي، والألفاظ ضيقة العراص(١). وما يقدر

---

(١) العراص: جمع عرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

على حشو العرصة فوق ما تسع إلا مهندس. لآلئ هذه المعاني لطاف. فأي سِلْكِ فهمٍ دق؛ انتظمت فيه. وإنما يُنظم اللؤلؤ في خيط لا في حبل.

كلامي ثوب، فُصِّل على قدر أسماعكم. فهو لا يصلح إلا لكم. لا تنكروا مدحي لأهل بغداد فهم فَهِم(١). ألهذا البلد بدل؟

إذا رضت الأفهام السليمة، من وباء طعام العبارات الركيكة؛ عمل لفظي في شفائها ولا رُقَى الهند. كَلِمٌ، تُداوي كل كَلْم. ظُلْمٌ قياسُها بعذوبةِ الظلم(٢).

جواهــر كلهــا يتيــم	توجد مفقودة المثال
تجنب الغائصـون عنهـا	عجزاً وجاشت بحارها لي

* * *

(١) فهم: الفهم: سريع الفهم.

(٢) الظلم: الثلج.

◘ الفصل الثاني والتسعون ◘

يا ديار الأحباب أقوى[١] جديدها. أين أسودها؟ أم أين غيدها[٢]؟ أين ظباء الهوى مرت؟ ومن يصيدها؟ تساوى في القبور مواليها وعبيدها. قف يا حبيبي بالرسوم، وانظر نسخ النسيم بالسَّموم، وتبديل الأفراح بالغموم. هيهات، إن الدنيا لا تدوم. إنها على قتلك تحُوم. إيثار مثل هذا لوم[٣].

للخفاجي:

سل بغمدان أين ساكنه أو ... قل لنعمان: أين أين السدير[٤]

أيها الظاعنون لا زال للغيث ... رواح عليكم وبكور

قد رأينا دياركم وعليها ... أثر من عفائكم مهجور

وسألنا أطلالكم فأجابت ... ومن الصمت واعظ ونذير

عجباً كيف لم تمت في مغانيها ... أسىً ما القلوبُ إلا صخور

يا ديار الأحباب غيّرك الدهر ... وكانت بعد الأمور أمور

أيها الباكي على أقاربه الأموات، ابك على نفسك. فالماضي قد فات. وتأهّب لنزول البلايا وحلول الآفات. وتذكرّ قول من إذا ذكرك؛ قال: مات. كأنك بما أتى الماضين قد أتاك. ولقد صاح بك نذيرهم: أنت غدا كذاك. وليخرسن الموت بسطوته فاك، إذا

---

(١) أقوى: افتقر.

(٢) الغيد: جمع غيداء، وهي المتثنية لينا.

(٣) لوم: لؤم.

(٤) السدير: سدير النعمان بن المنذر.

وافاك. إنما اليوم لهذا، وغدا لذاك. قُرِئ على قبر:

أنا في القبر وحيدٌ قد تبرّا الأهل منّي
أسلموني بذنوبي خبتُ إن لم تعفُ عني

يا هذا: لاحت الغاية لعين الشيب، فصِحْ بخيلِ البدار. مرحلة الشيب تحط على شفير القبر. «وقد أنجد من رأى حضنا»[(١)] أتحمل مشاق السفر من وراء النهر، وتخاطر بالوقفة من نخلة؟!

يا هذا، إذا ركبت مركب التواني، فاجعل ناتاني[(٢)] المركب لمحاسبة النفس؛ فإنه يشم كل يوم ريح ثرى الأرض. فيعلم هل هو على خطأ أو صواب؟ ومتى لم يعلم الطريق؛ صدمه حجر فغرق. يا من يُحدَّث، وكأنه ما يسمع. متى لم ينصت سمعُ القلب ضاع الحديث. أترى ينطبع في شمع سمعك من هذا حرف؟ تحضرون المجلس فرجة، وتجعلون رجاء النفع حجة، ولا تسلكون إلى العمل محجة ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣].

واعجباً، تجتمع العزائم في المجلس اجتماع الثريا، فإذا خرجنا صارت كبنات نعش[(٣)]. لو تأملتم عيب الدنيا؛ لهان طلاقها.

سرورُ الدهر مقرونٌ بحزن فكن منه على حذر شديد
ففي يُمناه تاجٌ من نضار[(٤)] وفي يُسراه قيدٌ من حديد

---

(١) وقد أنجد من رأي حضنا: مثل. وحضن: اسم جبل في أعالي نجد. وانظر: إصلاح المنطق: (١/ ٥٧)، ومجمع الأمثال: (٢/ ٣٣٧).

(٢) ناتاني: النوتي، ملاح المركب في البحر.

(٣) بنات نعش: نعش الكبرى: سبعة كواكب: أربعة فيها نعش، وثلاث بنات.

(٤) النضار: الذهب والفضة.

آه للدنيا: مَلَكت القلب حين ملَكت، وأبْقت الغمّ ثم أَبقت[(١)].

تزودن منا كلَّ قلبٍ ومهجةٍ وزوّدننا للوجد عضَّ الأباهم[(٢)]

كم تألفت بحلو مذاقها، ثمّ أتلفت بمر فراقها.

فليت عهدك إذ لم يبق لي أبداً

لم يبق عندي عقابيلا[(٣)] من السقم

لما كان الصانع غائبا عن الإحساس؛ سطرت قدرته في ألواح التكوين عجائب الكائنات. ثم وضعت الألواح في حجور العقول؛ ليقرأها أذهان أطفال الطباع. فإذا أحذق الصبيان، وحُفظ المكتوب، محا السطور ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾ [التكوير: ١، ٢].

إخواني: عيون يقينكم رمدة[(٤)]. والفكر تبريد. من أيقن بالموت كيف يفرح؟ من علم قرب الحساب كيف يلهو؟ من عرف تقليب القلوب كيف يأمن؟

كان «سفيان الثوري» من شدة خوفه يبول الدم. فحمل ماؤه إلى الطبيب. فقال: هذا ماء رهبان. هذا ماء رجل قد فتّت الحزنُ كبده. وحُمل ماء «سري» إلى الطبيب، فلما نظر إليه قال: هذا بول عاشق. قال حامله: فسقطت، ثم غشي علي. ثم رجعت إلى سري فأخبرته. فقال: قاتله الله ما أبصره.

إذا أنا واجهت الصَّبا عاد برْدها

ومن حرّ أنفاسي عليه لهيبُ

---

(١) أبقت: الأولى من البقاء، والثانية من الإباق. وهو الهروب.

(٢) الأباهم: جمع إبهام. وهو الأصبع قبل السبابة.

(٣) العقابيل: بقايا العلة والعداوة والعشق، وما يخرج على الشفة غِبَّ الحمى، والشدائد.

(٤) رمدة: مصابة بالرمد.

وقد أكثرتْ فيّ الأطباء قولهم

وما لي إلا أن أراك طبيب

قيل لبعض عقلاء المجانين: لم سميت مجنوناً؟ قال: لما طال حبسي عنه في الدنيا، سميت مجنوناً لخوف فراقه:

قلبي بحبك ما يفيق وجفن عيني ما ينام

قد طال فيك الليل حتى ما يُقال له انصرام

والنجم فيه راكد والفجر يمنعه الظلام

ليل بغير نهاية ولكل مفتاح ختام

في وصلك العيش الهنيّ وهجُرك الموتُ الزؤام

إن لم تكن مع القوم في السفر، تلمح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى؛ ترى في صحائف الوجوه، سطور القبول بمداد الأنوار.

وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تتبرقعا

قال بعض السلف: لقيت غلاما في طريق مكة، فقلت له: أما تستوحش؟ فقال: إن الأنس بالله قطع عنّي كل وحشة. قلت: فأين ألقاك؟ قال: أما في الدنيا: فلا تحدث نفسك بلقائي. وأما في الآخرة: فإنه مجمع المتقين. قلت: فأين أطلبك في الآخرة؟ قال: اطلبني في جملة الناظرين إلى الله تعالى. قلت: وكيف علمت؟ قال: بغض طرفي عن كل محرم، واجتنابي فيه كل منكر ومأثم. وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه. ثم صاح. وأقبل يسعى حتى غاب عن بصري.

للشريف الرضي:

وما تلوّم[1] جسمي عن لقائكم ... إلا وقلبي إليكم شيّقٌ عجلُ

وكيف يقعد مشتاقٌ يحرّكه ... إليكم الحافزان الشوق والأمل

فإن هضتُ فما لي غيركم وطرٌ ... وإن قعدتُ فما لي غيركم شغل

وكم تعرض لي الأقوام بعدكم ... يستأذنون على قلبي فما وصلوا

* * *

(١) التلوّم في الأمر: التمكّث والانتظار.

الفصل الثالث والتسعون

سبحان من فاوت بين القلوب؛ فمنها ما لا يصلح إلا لخدمة الدنيا، ومنها ما لا يصلح إلا للتعبد، ومنها روحاني مشغول بمحبة الخالق:

للمتنبي:

أروحُ وقد ختمتَ على فؤادي ... بحبك أن يحلّ به سواكا
فلو أني استطعتُ غضضتُ طرفي ... فلم أُبصر به حتى أراكا
أحبك لا ببعضي بل بكلي ... وإن لم يُبْقِ حبُّك لي حِراكا
ويقبحُ من سواك الفعل عندي ... فتفعله فيحسن منك ذاكا
وفي الأحباب مختصٌ بوجد ... وآخرُ يدعي معه اشتراكا
إذا اشتبكت دموعُ في خدودٍ ... تبيّن من بكى ممن تباكى
فأما من بكى فيذوب شوقاً ... وينطق بالهوى من قد تباكى

النهارُ يزيد في كرب المحب، والليلُ يُروّحه، السَّحَرُ روضةٌ نجدية، يجد فيها المحبُّ ضالّة وجده. شراب المناجاة يروي ظمأ العاشق. لو رأيت المحب في الليل يتقلقل، ويناجي حبيبه ثم يتململ، وكلما أزعجه الشوق تحيّر وتبلبل، وما ألذ ما يصف حاله ويتعمل.

أحبّاي أما جفن عيني فمقروحُ
وأما فؤادي فهو بالشوق مجروحُ

يُذكرّني مرُّ النسيم عهودَكم

فأزداد شوقاً كلما هبّت الريح

أراني إذا ما الليل أظلم أشرقت

بقلبي من نار الغرام مصابيح

أصليّ بذكراكم إذا كنت خاليا

ألا إن تذكار الأحبّة تسبيح

يشح فؤادي أن يخامر سرّه

سواكم وبعض الشح في المرء ممدوح

لو لبس أحد المحبين حلة، علم أنه من الزهاد.

كيف يُخفي الليلُ بدراً طالعاً

كم بالغوا في كتم الحال؟ وستر الحب محال:

أسائل عمن لا أريد وإنما ... أريدكم من بينهم بسؤالي

فيعثر ما بين الكلام ورجْعه ... لساني بكم حتى ينم بحالي

وأطوي على ما تعلمون جوانحي ... وأظهر للعُذّال أني سال

كلما قوي حامل المحبة؛ زيد في حمله. «**نحن معاشر الأنبياء، أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل**»[1]، فورانُ قدرْ القلب من قدر شدة الإيقاد. كان يُسمع لصدر «الخليل» أزيزٌ من بعيد، خوفا من الله تعالى. وكذلك نبينا ﷺ: يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء. كان الوحي إذا نزل عليه وهو على ناقته، أثر فيها. فربما

(١) الترمذي في الزهد: (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى: (٧٤٨١)، وابن ماجة في الفتن: (٤٠٢٣)، وأحمد: (١/ ١٧٢، ١٧٣، ١٨٥) وغيرهم بمعناه.

وتدت بيديها في الأرض، وربما بركت لثقل الوحي.

للشريف الرضي:

أحست بناري في ضلوعي فأصبحت
يخبُّ بها حرّ الغرام ويُوضِعُ[1]

تحنّين إلا أن لا بك الهوى
ولي لا لك الإلف الخليط المودّع

وباتت تشكىّ تحت رحلي ضامرا
كلانا إذن يا ناق نضوٌ مفجّع

امِّاعتْ قلوبهم بالخوف، فهابتهم الجوامد، فالحجر يسلّم على الرسول ﷺ، والسكين لا تعمل في الذبيح. مالك أيتها المدية وعادتك القطع؟ قالت بلسان الحال: أخواتي تحز رقاب الكفار. وأنا قد ابتُليتُ بقطع عنقٍ إسماعيل. فقد وقفت مدهوشة بالبلوى، فعندي شغل. قطْعُ يد زليخا يجوز، فأما يد يوسف فمشكل.

أتراك تحلو لك عباراتي؟ أو تفهم إشاراتي؟ كم أجلو عليك عرائس المحبة؟ ولست كفؤاً؛ وإنما يحلّ النظرُ لمن يعقد. أقل أحوال القوم رفض الهوى. وهذا كالمستحيل عندك. كانوا إذا ابتُلوا صبروا، ثم صاروا إذا ابتلوا شكروا، ثم رأوا في البلى المبتلي؛ فسكروا. أين الذين أصفهم؟ مرّوا وعبروا.

---

(١) يخب: الخبب ضرب من العدو. والإيضاع: حمل الركاب على العدو السريع.

ليس بالصبّ من يُحرك بالشكوى لسانا ويُودعُ الدمع خدا
أيها الوامق الذي جعل الكتمان بين الوشاة والحب سدا
صاح: لولا صوني الغرام لأجريت دموعا توفي على البحر مدا
قل لحي على اللوى والكثيب الفرد جاد الحيا الكثيب الفردا
قد وقفنا من بعدكم نسأل البان ضلالا عنكم ونشكو الرندا
أين تبغي يا حادي الركب أفنيت المطايا سيراً ذميلا ووخدا(١)
قف قليلاً في الربع وارفق فما أبقيت منها إلا عظاما وجلدا
فلدار الهوى علينا حقوقٌ إن تركنا أداءها كان إداً(٢)
يا بني الودّ والوفاء وما أسمع إلا قولا وفاءً وودا
لِمَ نقضتم من غيرِ جُرْمٍ عهودا ما نقضنا منها على الرمل عهدا

كم أنشر بز(٣) المحبة؟ ولا أرى إلا مفلسا. تنزهوا في السلع، فسهلٌ عليّ طيّ المنشور. ما أحلى ذكر الأحباب، ما أطيب حديث أولي الألباب.

لصردر:

إيه أحاديث نعمان وساكنه
إن الحديث عن الأحباب أسمار
أفتش الريح عنكم كلما نفحت
من نحو أرضكم نكباء(٤) معطار

---

(١) الذميل والوخد: ضربان من السير.
(٢) إدا: الإد الأمر العظيم والداهية والمنكر.
(٣) البز: الثياب أو متاع البيت من الثياب ونحوها.
(٤) النكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين، أو بين الصبا والشمال.

تمكن الحب من حبات قلوبهم، فأخرجهم إلي الولَه. فلو رأيتموهم؛ لقلتم: مجانين.

قد لج بيّ الغرامُ حتى قالوا قد جُنّ بهم وهكذا البلبالُ
الموتُ إذا رضيتم سلْسال في مثل هواك ترخص الآجال

كانت رابعة تقول: لقد طالت علي الأيام والليالي، بالشوق إلى الله تعالى.

أُمرت عنك بصبرٍ وليس لي عنك صبرُ
يــا آمري بالتسلي ما لي مع الشوق أمر

قال الشبلي: رأيت جارية حبشية، فقلت: من أين؟ قالت: من عند الحبيب. قلت: وإلى أين؟ قالت: إلى الحبيب. قلت: ما تريدين من الحبيب؟ قالت: الحبيب.

وجدي بكم وصفو ودي لكم والقلـب فمـذ نأيتـم عندكـم
عيني عينٌ[1] لبُعْدكم بعدَكم لو شقوا قلبي لما رأوا غيركم

* * *

(١) عين: عين الماء.

الفصل الرابع والتسعون

يا هذا اشتغلت بفنون تعليلك، عن ذكر تحويلك. وستسلب من أخيك وخليلك، على تخبيطك وتخييلك.

كأنك بالمضي إلى سبيلك ... وقد جدّ المجهز في رحيلك
وجــيء بغاسلٍ فاستعجلوه ... بقولهم له: افرغْ من غسيلك
ولم تحمل سوى كفن وقطن ... إليهـم مـن كثيـرك أو قليلك
وقد مدّ الرجالُ إليك نعشا ... فأنت عليـه ممـدود بطولك
وصلـوا ثـم إنهـم تداعـوا ... لحملك في بكورك أو أصيلك
ولمـا أسلموك نـزلـت قبـراً ... ومن لك بالسلامة من نزولك
أعانك يـوم تدخـله رحيـمٌ ... رؤف بالعبـاد علـى دخولك
فسوف تجاور الموتى طويلا ... فدعني من قصيرك أو طويلك
أخي إني نصحتك فاستمع لي ... وبـالله استعنـتُ علـى قبولك
ألست ترى المنايا كل يوم ... تصيبك في أخيك وفي خليلك

إخواني، ما من الموت بُدّ. باب البقاء في الدنيا قد سُدّ. كم قدّ[1] في القبر قُدّ؟ كم خُدّ في الأخدود خَدّ؟ يا من ذنوبه لا تحصى، إنْ شككت عُدّ. يا من أتى باب الإنابة كاذباً، فرد. لقد حملت على نفسك ما يثقلها. فحسبك ما قد مضى، أتقتلها؟ يا طولُ سفرةِ الموتُ أوّلها. أين جزع النفس؟ أين تململها؟ كأنها بالمرض قد نزل يزلزلها. وبعث إليها رائد الأسف يستعجلها. الحذر الحذر،

(١) القد: قامة الرجل، وتقطيعه، واعتداله.

فقد فوّقَ السهامَ مُرسلها. الدروع الدروع، فقد جلى السيوف صيْقلها.

ما هذه الخصال المذمومة؟ أتؤثر العقول لذة مسمومة؟! ما هذا الحرص والأرزاق مقسومة؟ أنسيت يوم تنشر الصحف المختومة؟ أما تعلم أنها ستُظهر قبائح مكتومة؟ يا لها موعظة بين المواعظ، كالأيام المعلومة. أحسن من اللآلي المنثورة، وأعجب من العقود المنظومة.

العلم والعمل توأمان، أمهما علو الهمة. أيها المعلم، تثبت على المبتدئ ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]. فللعالم رسوخ، وللمتعلم قلق. ويا أيها الطالب، تواضع في الطلب؛ فإن التراب بينا هو تحت الأخمص صار طهوراً للوجه. السهرُ مَرقى إلى أطيبِ مرقد:

الهون في طلب الهوينْا كامنٌ وجلالةُ الأخطار في الأخطار

قلب العالم بحر. ما للجنة[1] قرار. إذا نزل غوّاصُ الفكر؛ ترقى إلى ساحل اللسان قدر الممكن. مياه المعاني مخزونة في صدر العالم، تفتح لزرع قلبه سيحا بعد سيح، ويدخر أصفاها قوتا للروح. فإذا تكاثرت عليه؛ صاح السيل. العالم ينفخ في صور فيه، بعبارة التخويف؛ فيموت هوى المعاصي. ثم ينفخ في صور التشويق؛ فيحيي روح المعرفة. فيخرج التائب من قبر غفلته في كفن يقظته، وقد بدلت الأرض غير الأرض؛ فيفتح له رضوان الرضا باب جنة الوصل.

لا تظنوا العالم شخصاً واحداً، العالمُ عالمَ، تصانيفُ العالم أولاده المخلدون دون أولاده. من خُلقَ للعلم شف جوهره من

(١) للجنة: كذا في المطبوع والمخطوط. ولعلها: «للّجة».

الصغر، فتراه ينفق في الجد بضاعة الشبيبة، ويسابق سائق العجز، يصل الكدود ليله بنهاره، كدود القز في زمان الشدة. فإذا امتلأ وعاء قلبه بما وعى؛ نسج الفهم في زوايا الذهن من المعاني المستنبطة: نسج القز. فإذا رأى عريانا من العلم، فأراد كسوته. بعث الفكر، فسل من لطائف اللطف طاقات، ثم أرسلها إلى صانع القوة، فبالغ في تحسينها، وتأنّق في تلوينها. ثم ينسجها اللسان على منوال البلاغة. فتُظْهرُ رقومُ نقوشها، عن شدود عقدتها الفطنَ الباطنة. فإذا الثوب نسيج وحده. ومثل تلك المطارف الطرائف؛ لا تُبتذل إلا في عيد مجلس الذكر.

ليس كل من ربى دود القز، سلاّلا. ولا كل قزاز، سقلاطونيا[١]. آه، من اشتراك الأسماء، وتلقيب القصدير بالبيع. ليس في كل معدن عرق الذهب. ولا في بطن كل عزال مسك. ليس من عام في قرار البحر حتى وقع بالدر اليتيم؛ كمن قعد على الساحل يجمع الصدف.

أمراء العبارات رَعِيّة لفصاحتي. ويك، إنه كيل بلا ثمن. سقى فصاحتي سيْح[٢]؛ فقد تضاعفت عليّ زكاة الشكر. سافر لفظي ببضائع فكري، من أرض قلبي إلى بادية فمي. فسلّم سِلَع النطق إلى منادي لساني. هيهات، فواكه الألفاظ اللذيذة في مذاق الأفهام السليمة، ليس لها ثمن. فهو يعرضها في موسم النصح، على

(١) سقلاطونيا: نسبة إلى «سقلاطون» بلد بالروم تنسب إليه الثياب.

(٢) السيْح: الماء الجاري الظاهر.

تجار الإرادة. فمن منكم يشتري حكمة بقبول؟

قد يُرى علو مكاني، ويُنسى الدَرَج. كم قد خضت بحراً ملحا حتى وقعت بعذب. كم قطعت مهمها[١] وحدي: حتى سُميت بالدليل. أنضيت[٢] مركب الجسم، ورفضت شهوات الحس، وواصلت الليل بالنهار في الجدّ، وأوقدت في دجى الهوى نار الصبر. فإن وثقتم بأمانتي، فهذا تخيير الشراء:

شـربت لإغلالـي رحيقـاً بسلسـال
من الشاهـق العالي علـى غيـر تصريد[٣]
فأصبحـت نشوانـا من الشرب سكرانا
وأطـرب أحيانـا بـلا نغْمـة العـود
وكـم جُبْتُ من واد وسرت بـلا حـاد
وبـت بـلا زاد سـوى ذكـر معبودي

★ ★ ★

(١) المهمه: المفازة البعيدة، والبلد المقفر.
(٢) أنضيت: أبليت.
(٣) التصريد: التقليل وعدم الري.

الفصل الخامس والتسعون

كم تُنذرُ الدنيا، وما تسمع؟ وكم تؤنس محبها من وصلها، ويطمع؟ فالعجب من فطن غرّه سرابٌ يلمع.

يأتي على الناس إصباحٌ وإمساءُ
وكلُّنا لصروفِ الدهرِ نسّاءُ
خسستِ يا دارَ دنيانا وربتما
يرضى الخسيسة أوباشٌ أَخِسّاء
إذا تعطفتِ يوماً كنت قاسية
وإن نظرت بعين فهي شوساء[1]
وقد نطقت بأصناف العظات لنا
وأنت فيما يراك الناس خرساء
أين الملوك وأبناء الملوك ومن
كانت لهم عِزّةٌ في الملك قعساء[2]
نالوا يسيرا من اللذات وارتحلوا
برغمهم فإذا النعماء بأساء

الدنيا دار كدر، بذلك جرى القدر. فإن صفا عيش لحظة، ندر. ثم عاد التخليط، فيذر الورود فيها كالصدر[3]. ودم قتيلها هدر.

---

(١) شوساء: تنظر كبراً وتغيّظا.

(٢) القعساء: المرتفعة المطمئنة.

(٣) الورود: إتيان الماء، والصدر: الذهاب عنه.

المرء من دنياه في كلف ... ومآله فيها إلى التلفِ
ولكل شيء فائت خلفٌ ... وحياتنا فوت بلا خلف

يا لاحقاً بآبائه وأمهاته، لابد أن يصير الطلا[1] إلى مهاته[2]. يا من جلّ همته شغل خياطه وطهاته. يغلبه الهوى، وهو غالب دهاته. إن كان لك عذرٌ في تفريطك، فهاتِه.

إخواني: مرُّ الزمان وعظُ الألباب. ويكفي في الإنذار موت الأصحاب. كم ترى في التراب من أتراب؟ أُغمدت تلك السيوف في شرِّ قِرَاب[3]. تناولتهم يد البلى من كف استلاب. و يحك، ضياء الدنيا ضباب، وشراب الهوى سراب. أترضى أن يقال: قد خاب؟ أما لهذا عندك جواب؟ كلما دخلنا من باب؛ خرجت من باب؟!

للشريف الرضي:

أُذكرُ تصابٍ والمشيبُ نقابُ ... وغير الغواني للمشيب صحابُ
أؤملُ ما لا يبلغ العمرُ بعضَه ... كأن الذي بعد المشيب شباب
وطعم لبازي الموت لاشك مهجتي ... أسفَّ[4] على رأسي فطار غراب
وأثقل محمول على العين ماؤُها ... إذا بان أحبابٌ وعزّ إياب

لله در أقوام. علموا قرب الرحيل؛ فهيأوا آلة السفر. وهونوا بالدنيا؛ فقنعوا منها بما حضر. واستوثقوا بقفْل التقوى من أذى النطق والنظر.

---

(١) الطلا: ولد الظبي ساعة يولد، والصغير من كل شيء.

(٢) المهاة: الظبية.

(٣) القراب: غمد السيف.

(٤) أسفَّ: الإسفاف: النزول لأسفل.

مالك خبر بحالهم، ولا عندك منهم خبر. قاموا في الجد، وقعدت. وسهروا في الدجى، ورقدت. طالما نَصَبوا[١] في خدمة المالك. وناقشوا أنفسهم مناقشة مُماحِك، وآثروا بالزاد؛ فزادوا على البرامك[٢]. واختُبروا بالبلى كالتبر عند السابك. هذه طريقهم، فأين السالك؟ أترضى بالتأخر عنهم؟ هذا برأيك؟ كأنك بهم وقد دخلت على الملأ الملائك: كل يا من لم تأكل، هذا بذلك. لما أريدوا؛ أفيدوا. لما شكروا المنعم؛ زيدوا. ولو فتروا عن التعبد، قيدوا.

نام العلاء بن زياد ليلة وِرْدِه، فجُذِبَ في نومه بناصيته. وقيل له: قم إلى صلاتك. فما زالت الأخبار قائمة في حياته ﴿**نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً**﴾ [الواقعة: ٧٣].

قال أبو سليمان: غلبتني عيني، فإذا أنا بالحوراء قد ركضتني برجلها، وهي تقول: أترقد عيناك والملك يقظان؟

قال: ونمت ليلة أخرى، وإذا بها توقظني وتقول: أتنام وأنا أُربّى لك في الخدور منذ خمسمائة عام؟

للنابغة الذبياني:

أقول والنجم قد مالت أواخره

إلى المغيب تبين نظرة حارِ

ألمحةٌ من سنا برقٍ رأى بصري

أم وجهُ «نُعْمٍ» بدا لي أم سنا نار

---

(١) نصبوا: تعبوا

(٢) البرامك: البرامكة. وقد كانت لهم سيرة حسنة.

أنبئتُ نُعْماً على الهجران عاتبة
سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري

قلوب القوم في الدجى قلقة، وأفئدتهم من الخوف محترقة، والنفوس من هجر الحبيب فَرِقة، وجفونهم من البكاء غرفة، وعروق المحبة في سويدائهم علقة، وشفاههم بكأس المناجاة مصطبحة مغتبقة(١). والآمال إليه كل وقت منطلقة، وما عادت قط، إلا وهي بالرجاء عبقة.

قل للمقيمين على وادي الحمى — عنّي إذا أتيتهم مُسلّما
قد صار طيب العيش مذ فارقتكم — عليّ من بعدكم محرما
وكلُّ شهدٍ ذُقته في وصْلكم — قد عاد من بعد الفراق علقما
لا عيش لي إن غبتم عن ناظري — وإن حضرتم ربما وربما
إن سألوك عن سقام قد رثى(٢) — لي فيه أهل الأرض معْ أهل السما
فقل لهم: ما يشتكي من سقم — لأنه يذكر فيه المسقما

واحسرةَ منْ مضوا وخلّفوه. لقد استبدل بالعسل الخل فوه(٣). آه على عيش ولّى ولا عودة. وعلى حادٍ سرى ولا وقفة. تالله لو صارت العينُ عيناً؛ ما وفت.

للمهيار:

يا لنسيم سحر بحاجر — ردّت به عهد الصبا ريح الصبا
سل من يدل الناشدين بالغضا — على الطريق ويردّ السلبا

(١) الاطباح: شرب الغداة. والاغتباق: شرب العشيّ.
(٢) رثى: رقّ. (٣) فوه: فمه.

أراجع لي والمنى مطمعة وطالع نجم زمان غربا
إذا اطمأنتْ أضلعي تذكّرتْ نواك فاهتزّتْ جوىً لا طربا

تالله ما تُعشق الأماكن لذَاتها؛ بل لسابق لَذّاتها.

لك يا منازل في القلوب منازل

للمعاهد عهدٌ عند المعاهدة؛ كلما تذكره الصبُّ، صبَّ الدموع.

للمتنبي:

وما شرقي بالماء إلا تذكراً لماء به أهلُ الحبيب نزولُ
وما عشت من بعد الأحبة سلوةً ولكنني للنائباتِ حَمُول
أما في النجوم السائرات وغيرها لعيني على ضوء الصباح دليل

أعرف الناس بالطريق: من قد سلك. إذا ذُكرت منازلُ مكة؛ حَنَّ الحاج.

للمهيار:

وإذا هبّ صبا أرضكم حملت ترب الغضى بانا ورندا
رُدَّ لي يوماً على وادي منى إن قضى اللهُ لأمر فات رَدّا
عجباً لي كيف أبقى بعدهم غير أن قد خلق الإنسان جلدا

* * *

الفصل السادس والتسعون

يا من قد ملكته نفسه، وغلبه حسه، وقد دنا حبسه، وسُتكَفُ خمسه، ولقد أنذره جنسه. عاتب نفسك؛ لعلها ترعوي، وسلمها إلى رائض العلم؛ عساها تستوي. أحضر دستورَ المحاسبة وحاسبها. واندبها إلى الخير، فإن أبت فاندبها[1].

للمصنف:

يا ويح نفس رضيت بالسقم	وفرطت في عمر منصرمِ
تَسْتَرُّ باللهو وتنسى حتفها	وتؤثر البعد على التقدم
وكلما أصبحتُ أبكي فعلها	أضحتْ عناداً لي في تبسم
تفرح بالفاني فما تطلب ما	يبقى لها فمن يكون حكمي
أقول يا نفس اتقي من لم يزل	معروفه يفوق وكْف الديم[2]
كم من ذنوبٍ لكِ قد سترها	وعاد بالفضل وبالتكرم
وكم له من نعمةَ جاد بها	وكم وكم أوْلاك طيب أنعم
وكم واعظ في كل يوم زاخر	وكم نذير زائر مسلّم
وكم يناديك لسان عبرة	وأنت عن قول الهدى في صمم
أين الذين شيّدوا واحترسوا	وأين من كان كثير النعم
مضى الجميع هل ترى من أثرٍ	لهم وصاروا في بيوت الظلم
تبدلوا بالدور تُرْبا كلهم	في قعر لحد ضيّقٍ منهدم

---

(١) اندبها: الأولى: ادعها وحثها. والثانية: نحُ عليها.

(٢) وكف الديم: هطل السحاب.

تفضّلتْ عظامُهم وحُصِّلتْ أعمالهم وأصبحوا كالعدم

وباشروا التراب بعد ترف وشرف وحُجُبٍ وخُدّم

وسُرُرٍ ودُرَرٍ وطُرَفٍ وتُحفٍ وصَوْلَةٍ وكرم

ولذةٍ في شهوة لذيذة وعزةٍ في عزْمَةٍ وهمم

لو قيل: قولوا: ما مُناكم طلبوا حياةَ يومٍ ليتوبوا فاعْلم

ويحك يا نفسُ ألا يتقظٌ ينفع قبل أن تزلّ قدمي

مضى الزمانُ في توانٍ وهوى فاستدركي ما قد بقي واغتنمي

انتظري الموت سيأتي بغتة وأنت بين أسف وندم

وحَرَقٍ وفَرَقٍ وحَسْرَةٍ وفيْضِ دمعِ العينِ في تسجّم

وترحلين عن ديار أُلْفَةٍ فانتبهي من رَقَدات النوّم

من لي إذا نزلتُ لحداً مظلماً هذا وكم من نازلٍ لم يسلم

من لي إذا قرأتُ ما أمليته أقبح مسطورٍ جرى بالقلم

من لي إذا أزعج قلبي حسرةً وهل تُرى يشفى بفوزي ألمي

كيف الخلاصُ والكتابُ قد حوى كلَّ فِعالي وجميعَ كلمي

يا نفسُ فاز الصالحون بالتقى فأبصروا الرشد وقلبي قد عمي

يا حُسْنهم والليلُ قد جنّهمُ ونورُهم يفوق نورَ الأنجم

ترنمّوا بالذكر في ليلهم فعيشهم قد طاب بالترنّم

قلوبهم للذكر قد تفرّغت دموعهم كلؤلؤ منتظم

أسحارهم بهم لهم قد أشرقت وخُلَعُ الغفران خيرُ القسم

ساروا وعدتُ عن طريقٍ واضحٍ دلّ على الرشد دليلُ العلم

دعني أبكّي ما حييت أبداً فحقُّ لي أبكي فلا لا تلم

يا عجباً لك، تتسمى باسم تاجر، وتخاصم على الدرهم وتشاجر، وتصابر لربح القيراط، الهواجر[١]، وتغضب لأجل الحبة وتُهاجر، وترضى في أفعالك باسم فاجر. أمالك من عقلك ناه ولا زاجر؟ يا من نومه كثير، وانتباهه نادر.

إن دُعيتَ إلى التوبة سوّفتها، وإن قمت إلى الصلاة سففتها، وإن لاح وجه الدنيا ترشّفتها، أما هي دار بلغة لضيفها، تضيفتها؟ أو ليس قد شبت؟ وما عرفتها. كم بادية في أرباح غير بادية[٢] تعسفتها؟ لقد استشعرت[٣] محبتها، أي والله والتحفتها. تالله لو علمت جناياتها، لعفْتها[٤]. أنسيت تلك الذنوب التي أسلفتها؟ آه لبضائع عمر، بذرتَ فيها وأتلفتها. كم تعد بالإنابة؟ وكل الوعود أخلفتها. فما تلين قناتك لغامز. ولا ترى ما تشتهي فتجاوز. ويحك، بين يديك أهوال وهزاهز[٥]. كم تُقوّم ولا تستوي؟ من يغيّر الغرائز. إبْكِ لما بِك، واندب في شيبك على شبابك، وتأهب لسيف المنوَن، فقد علق الشبا بك[٦].

قد كان عمرك ميلاً ... فأصبح الميلُ شبرا

وأصبح الشبرُ عقداً[٧] ... فاحفر لنفسك قبرا

عجباً للطرف، كيف اغتمض؟ ولمكلف، ما أدّى المفترض. يا من كلما بنى، على أن يلوذ بنا نقض. يا من إذا أدى حقا،

---

(١) الهواجر: شدة الحر في وسط النهار.

(٢) بادية: الأولى مفازة، والثانية: ظاهرة.

(٣) استشعرتها: الشعار ما يلي الجسد من الثياب.

(٤) عفتها: رغبت عنها وكرهتها.

(٥) الهزاهز: تحريكُ البلايا والحروبِ الناسَ.

(٦) الشبا: شبا السيف: حدّه.

(٧) عقدا: في المخطوط: «فِتْرا» وهو ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة.

فعلى مضض. يا من إذا لاح له صيد الفاني، جدّ وركض. يا من إذا قدر على جيفة الهوى، جثم وربض. يا مشغولا عن الجوهر بفاني العرض. إيثار ما يفنى على ما يبقى أشد المرض

ألا يا غافلا تُحصى عليه ... من العملِ الصغيرة والكبيرهْ
يُصاح بـه ويُنـذر كـلّ يوم ... وقد أنسْتهُ غفلتُـهُ مصيره
تأهّبْ للرحيـل فقـد تدانى ... وأنذركَ الرحيلَ أخٌ وجيره[1]
وكم ذنب أتيت على بصيره ... وعينك بالذي تأتـي قريره
تُحاذر أنْ تراك هناك عينٌ ... وإن عليـك للعينُ البصيره
وكم مـن مَدْخلٍ لو مِتَّ فيه ... لكنتَ به نكـالا فـي العشيره
وُقيتَ السوءَ والمكروه منه ... ورُحتَ بنعمـةٍ فيـه ستيره

هذا حادي الممات قد أسرع. هذه سيوف الملمات تلمع. هذه قصور الأقران بلقع. إن وَصَلَتْ الدنيا؛ فعلى نية أن تقطع. وإن بَذَلَتْ؛ فعلى عزم أن تمنع. أفيها حيلة، أم في وصلها مطمع؟

يا معرقا في البلى: قل لي لمن تجمع؟ إذا خلوت وتخليت، فكيف تصنع؟ أترى أنت عندنا؟ أو ما تسمع؟ يا محبوساً في سجن هواه، متى تتخلص؟ لو عرفتنا؛ ألفتنا. لنا أحباب لهم ألباب، هم اللباب. شغلهم على الدوام المحراب. حاضرون معكم بالأبدان، وبالقلوب غياب.

وشُغلتُ عن فهم الحديث سوى ... ما كان منك فإنه شغلي
وأُديم نحو محدثي نظري ... أن قد فهمت وعندكم عقلي

---

(١) جيره: جيران.

ما نال الصالحون ما نالوا؛ إلا بترك ما نطلبه، وما نالوا[١].

كانت هممهم في طلب الفضائل: تغلي في القلوب، غليان ما في القدور.

تخايل القومُ لذة الثواب؛ فسهلت عليهم مرارات الصبر. وتصوروا خلود الأبدان؛ فهان عليهم بذل النفوس. جدوا في الجد، فما سكنوا حتى سكنوا الجنة. وراحة المؤمن في الدنيا صِفْرٌ من راحة[٢]. فلو رأيتهم في الجنان يسرحون، منطلقين في أغراضهم يمرحون، لا يدرون بأي مطلوب يفرحون. أبالنجاة من النيران؟ أم بالخلود في الجنان؟ أم بالخيرات الحسان؟ أم برضى المليك الديّان؟ لقد نالوا من المراد، ما لم يكن في الحسبان.

من تلمح جولان مضمر[٣] الصبر في لذيذ العافية، وفرحة المفطر بعد إنصاب الصوم، وتناول العذْب بعد عذاب الظمأ، وسلامة الغريق بعد الإغراق في أذى الأذى، وخلاص التجر[٤] من مصر ماصر المكس[٥]، وتلاقي الأحباب، على باب الطول، بعد طول الفراق؛ رأى من قوة قرة العين، ما لا يدخل تحت حدٍّ قياس. بعد أن حدّق ياس، وقد وصفنا ما حصل للقوم. وجملة المبذول من الثمن: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

قف بالمحصّب واسأل أيها الرجلُ ... تلك الرسوم عن الأحباب ما فعلوا

فما أُسائل عن آثارهم أحداً ... إلا أجاب غرابُ البين: قد رحلوا

---

(١) نالوا: الأولى: من النوال، والثانية: نألوا جهدا.

(٢) راحة: الأولى: الكف. والثانية: على ظاهرها المعروف من الارتياح.

(٣) المضمر: الفرس الذي ضمّر استعداداً للسباق وغيره.

(٤) التجر: التجار. (٥) المكس: المكوس والضرائب التي تفرض على التجار.

الفصل السابع التسعون

من ركب الهوى هوى به، والنفس إذا استعملت التقوى تقوى به.

إن كنت يا صاحِ لبيباً حازماً فكن لأسباب الهوى مُراغما

لاتهو دُنياك فإن حبَّها رأسُ الخطايا تكسب المآثما

غرّارةٌ فكل من حلَتْ له لابد أن تُذيقه العلاقما

وإنما تخدمُ من أهانها كما تهين من أتاها خادما

فكن بها مثل غريبٍ مصلحٍ أزواده على الرحيل عازما

وبادر الأيام قبلَ فوتها مخاصما للنفس أو مسالما

فإنما عمر الفتى سوقٌ له يروح عنها خاسراً أو غانما

يا من يخطي على نفسه ويقترف، متى تندم وتعترف؟ يا من بحب العاجل قد كَلِف[1]. ستعلم غدا جفن من يكف[2]؟ يا محبوساً في سجن الهوى، لو ارعوى أنف. يا مترددا في التوبة، سارع ولا تقف. إلى متى أعمالك كلها قباح؟ إلى كم فساد؟ متى يكون الصلاح؟ ستفارق هذه الأجساد الأرواح. إما في غدو وإما في رواح. سيفنى هذا المساء والصباح. وسيخلو البلى بالوجوه الصِّباح. أفي هذا شك والأمر صراح؟ أين شارب الراح؟ راح، إلى قبر تُسفي[3] عليه الرياح، خلي للبلى والدودِ مُباح. لهما اغتباق به ثم اصطباح[4].

---

(١) كلف: كلف بالشيء: أولع به.

(٢) يكف: يقطر.

(٣) تسفي: تحمل التراب وتذره.

(٤) الاغتباق: الشرب عشيا. الاصطباح: الشرب غدوة.

عليه نطاق من التراب ووشاح. عنوانه: لا رواح. مفهومه: لا براح. مشغول عمن بكى عليه وناح. أما هذا لنا عن قليل؟ إنا لوقاح. كأنك بملك الموت قد صوّب بالروح وراح. فتأهب للنقلة على غفلة[1]:

لم أدر بالبين حتى أزعموا ظعنا

كل الجمال قبيل الصبح مزموم

هذا حادي الرحيل قد استعجلكم. فالبدار البدار، خلّوا كَسَلَكم. ودعوا التواني، فالتواني قد قتلكم. وآأسفى، سبق الصالحون، فماذا شغلكم؟ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُم﴾ [غافر: ٤٤].

ما على حادي المطايا لو ترفّقْ ... ريثما أسكب دمعي ثم أعنق[2]

يا فؤاداً كلما قلت خبت ... ناره ألهبه الوجد فأحرق

ذلك العيش الذي فات به ... سائق الدهر فولى أين يُلحق

زال إلا خطرة من ذكره ... كاد إنساني لها بالدمع يشرق

يلذع القلب إذا غنّى على ... فنن أو ناح قمريٌ مُطوّق

يا معدوداً مع الشيب في الصبيان، يا محبوسا مع البصراء في العميان. يا واقفا في الماء، وهو ظمآن. يا عارفا بالطريق، وهو حيران. أما وُعظت بآي القرآن؟ أما زجرت بنأي الأقران؟ أما تعتبر بصروف الزمان؟ أتعمر المنزل؛ وعلى الرحيل السكان؟ أما يكفي وعظ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]؟ تسافر ببضائع الأمانة، وما تنزل إلا في خانِ مَنْ خَانَ[3]. أفعالك كلها مكتوبة، فيا ليت

---

(١) في المطبوع: «فتأهب للنقلة عن غفلة»، وفي المخطوط: «فنهضت للنقلة على غفلة».

(٢) الإعناق: السير السريع.

(٣) خان: الأولى: بيت، والثانية: من وقع في الخيانة.

ما كان ما كان.

تدفن الميت، ولا وعظ كالعيان. ثم تعود غافلاً! يا قرب ذا النسيان. ويحك. أما تدري أن الهوى هوان ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

نُراع إذا الجنائز قابلتنا ... ونسكنُ حين تخفى ذاهبات

كروعة ثُلّة لظهور ذئب ... فلما غاب عادت راتعات

يا مستأنساً بظلٍ مُتقلّص، يا حريصا على الهوى، والموت عليه يحرص. يا من إذا كال فمُطفّف، وإن وزن فمتلصص. ما تتخلص من معامل، وهو عند الله متخلّص. تَفكّر فيمن أصبح مسرورا فأمسى وهو مُتنغّص. ومتى ازددت لذة؛ فاذكر قبلها المنغّص. حاسب نفسك وخذ على يديها لا تُرخّص. حائط الباطن خراب، فلماذا تُجصّص[1]؟ يا ابن آدم. أنت بين ذنبٍ لا تدري أغُفر؟ وحسنةٍ لا تدري أقُبلت؟ فأين الانزعاج؟

لمّا سُترت عن الصالحين العواقب؛ استراحوا إلى الأحزان، وفزعوا إلى البكاء. كانوا يتزاورون، فلا تجري في خلوة الزيارة إلا دموع الحذر. كان أشعث الحدّاني يزور حبيب العجمي، فيبكيان طول النهار.

باحت بسري في الهوى أدمعي ... ودلّت الواشي على موضعي

يا قومُ إن كنتم على مذهبي ... في الوجد والحزن فنوحوا معي

يحق لي أبكي على زِلّتي ... فلا تلوموني على أدمعي

(١) تجصص: التجصيص: طلاء الحوائط بالجصّ.

إخواني، أتدرون ما أقلق هذا التائب؟ أعلمتم ما أقدم هذا الغائب؟

سرى نسيم الصبا من حاجر فصبا

فبات يشكو إلى أنفاسه الوصبا

ما يبرح البارقُ النجديّ يُذكره

نجداً ويُلهبه وجداً إذا التهبا

يحق لمن رأي الراحلين إلى الحبيب وهو قاعد؛ أن يبكي. ولمن سمع بأخبار الواصلين وهو متباعد؛ أن يقلق.

أبصر الركبَ على الجزع ضُحى ... فتوالى دمعه مُنسفحا

يا خليلي بجرعاء الحمى ... سائلا من حلّ ذاك الأبطحا

وخذا عنّي أحاديث الغضا ... بَخِلَ الراوي بها أو سمحا

واستملاّها بدمعي واكتبا ... عن أخي الشوق إذا ما شرحا

وإذا هبّ الصَّبا قولا له ... عُدْ فقد هيجّت قلباً ما صحا

يا أُهيْل الحي من كاظمة ... عاد مستور الهوى مفتضحا

إذا رأيتم قَلِقاً؛ فارحموه، وإذا شاهدتم باكياً؛ فوافقوه، وإذا عاينتم واجداً؛ فاتركوه.

خلني من العذل ... ما الفؤاد من قبلي

لا تسل ففي كبدي ... شُعْلةٌ من الشعل

يا أطفال الهوى: أين أنتم والرجال؟

كم من حثٍّ وما أرى غير بطا

لو حركّت العزمَ نحونا فضلَ خُطا

تعصي قصـدا وتدعـيه غلطـاً

تصمي[(١)] عمدا وتزعم القتل خطا

يا هذا، إذا هممت بخير فبادر؛ لئلا تُغلب. وإذا هممت بشر فسوّف هواك؛ لعلك تَغلب. ثقف نفسك بالآداب، قبل صحبة الملوك؛ فإن سياسة الأخلاق مراقي المعالي.

قال بزرجمهر: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه، حتى من الكلب والهر والغراب. قيل: ما أخذت من الكلب؟ قال: ذبه عن حريمه، وإلفه لأهله. قيل: فما أخذت من الهر؟ قال: رفقتها عند المسألة، ولين صياحها. قيل: ومن الغراب؟ قال: شدة حذره.

لولا سخط نفس أبي بكر عليه لمفارقة هواها؛ ما نال مرتبة **«أنا عنك راض»**. لولا عري أويس[(٢)]. ما لبس حلة: **«يشفع في مثل ربيعة ومضر»**.

يا كثير الذنوب: متى تقضي؟ يا مقيما وهو في المعنى يمضي. اترك الهوى محموداً، قبل أن يتركك مذموماً. إن فاتتك قصبات السبق في الزهد؛ فلا تفوتنك ساعات الندم في التوبة. يا من كلما حُرّك إلى الجد سوّف. يا من شُدّد عليه الوعيد وما تخوّف. يا مريض الهوى بل يا مدنّف. إن كنت لا تعرف الدواء؛ فالطبيب قد عرف. هذا ممكن النصائح، ثم أنت بنفسك أعرف.

---

(١) تصمي: أصمى الشيء: رماه فقتله مكانه.

(٢) حديث فضل أويس القرني عن عمر: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٢). وليس فيه: «يشفع في مثل ربيعة ومضر». والذي جاء في (رجل لم يسم) أنه يشفع في مثل مضر: رواه أحمد في زوائد المسند: (٥/٣١٢)، وابن ماجه في الزهد: (٤٣٢٣) من حديث الحارث بن أقيش.

الفصل الثامن التسعون

اخواني، من عرف ما بين يديه؛ لم يؤثر الهوى، ولم يلتفت إليه. ومن تفكر في رحيل من كان لديه؛ صار النهوض للتزود متعيّناً عليه.

رحل الأحبّة عن ديارهم ... أهون بما أخذو ما تركوا
وعلمت أين مضى الخليط فما ... أنا بالمبالي أية سلكوا
ونفوسنا كحمائم وقفت ... للصائدين ودونها الشبك
مُتضرّبات في حبائلها ... ووهى جناحٌ ضمّه الشَرَك
إن الملوك إذا هم احتُضروا ... ودُّوا هنالك أنهم نَسكوا

كم فرحٍ بشهرٍ وإهلاله، مُتهللٍ لرؤية هلاله؛ اختطفه الموتُ في خلاله. كم مائلٍ إلى جمع ماله؛ تركه تَرِكَةً، ومرّ بأثقاله. هل رحم الموت مريضاً لضعف أوصاله؟ هل ترك كاسبا لأجل أطفاله؟ هل أمهل ذا عيال من جرّا عياله؟ كم راع قصرا، وما راعى عِزّ أبطاله. كم أشرف على شريف، فلم ينظر في خلاله. كم خرق درعا نبيلا بوقع نباله. كم أيتم طفلا صغيراً ولم يُباله. كم شد نفسا في سعة نعماه وشماله. كم بعث عليلا إلى البلى بعد التراقي إلى إبلاله؛ فرقي روحه إلى التراقي؛ ولم ينظر في حاله.

أليس إلى الآجال نهوى وخلفنا ... من الموت حادٍ لا يغبُّ عَجولُ
دع الفكر في حب البقاء وطوله ... فهمُّك لا العمرَ القصير يطول
ومن نظر الدنيا بعينِ حقيقةٍ ... تيقّن أن العيش سوف يزول
وما هذه الأيام إلا فوارسٌ ... تُطاردنا والنائبات خيول

بينا محب الدنيا في اختيال ومرح، وكلما جاء بابا من أبوابها فتح، وكلما عانى أمراً من أمرها صلح. فبينا هو في لذاته يدير القدح؛ قدح زناد العمر في حراق القدح. فمن يستدرك ما فات؟ ومن يداوي ما جرح؟

بينما المرء غافلٌ إذا أتاه من يد الموت سالبٌ لا يُصدُّ
فتأهب لماله كل نفس عرضة الأسر إنما الأمر جد

إلى كم تعصى وتتمرد؟ وأقبح من قبحك أنك تتعمد. يا رديّ العزم، يا سيئ المقصد. يا نقي الثوب، والقلب أسود. ما هذا الأمل ولست بمخلّد؟ يا مستوراً على القبيح: أتُقرّ ثم تجحد. أما الطريق طويلة؟ فمتى تتزود؟ تخلّص من أسر الهوى، فإنك مقيد. أتشتري لذّة ساعة بعذابٍ سرمد؟

سبيلك في الدنيا سبيلُ مسافر ولابدّ من زاد لكل مسافرِ
ولابد للإنسان من حمل عُدّةً ولا سيما إن خِيفَ صوْلة قاهر

يا مدمن الذنوب منذ كان غلاما، علام عوّلتَ قل لي علاما؟ أتأمن مأتى من أتى حراما؟ قد ترى ما حلّ بهم إليك قد ترامى[1]. أين المجتمعون على خمورهم والندامى[2]؟ كل القوم في قبورهم ندامى. أما ما جرى على العصاة يكفي إماما؟ لقد ضيعنا حديثاً طويلاً وكلاما. ما أرى ذلك إلا داءً عُقاما.

---

(١) ترامى: امتد ووصل.

(٢) الندامى: جمع نديم. وهو الصاحب والمرافق المنادم. والثانية: جمع نادم: أي متأسف على ما فعل.

ياليت شعري ما ادّخرتَ ليومِ بُؤسك وافتقاركْ
فلتنزلـــن بمنـــزلٍ تحتاجُ فيه إلى ادّخارك
أفنيتَ عُمْرك باغترارٍ ومُنَـاك فيـه بانتظارك
ونسيت ما لا بـد منـه وكان أولى بـادّكـارك
ولو اعتبرت بمـا تـرى لكفاك علما باعتبارك
لك ساعـة تأتيـك مـن ساعات ليلك أو نهارك
فتصيـر محتضـراً بهـا فتهيّ[1] من قَبْل احتضارك
من قبل أن تُقلى وتُقصى ثم تخرجُ عـن ديـارك
من قبــل أن يتثاقـل الـ زوار عنك وعن مزارك

متى تفيق من هذا المرض المراض؟ متى تستدرك هذه الأوقات الطوال العراض؟ يا عَرَض المنون، كيف تبقى الأعراض؟ أما الأعمارُ في كل يوم في انقراض؟ لقد نَبَتْ قبل شكة السهم صكّة المعراض. أما ترى الراحلين ماضيا خلف ماض؟ كم بنيان ما تمّ حتى تمّ مأتم؟ وهذا قد استفاض. إن الموت إليك - كما كان إلى أبويك - في ارْتكاض. إن لم تقدر على مشارع الصالحين، فرِدْ باقي الحياض. إن لم يكن لك ابن لبون، فلتكن بنت مخاض. إلى متى؟ وحتى متى؟ أتعب الروّاض. كلما بنينا نقضت، ولا بناء مع نقاض. يا من قد باع نفسه بلذة ساعة، بيعاً عن تراض. لبئس ما لبست، أتدري ما تعتاض؟ يا علة لا كالعلل، ويا مرضا لا كالأمراض.

---

(١) فتهيّ: فتهيأ.

لقـد أخبرتك الحادثـات نزولهـا

ونادتك إلا أن سمعك ذو وَقْرِ[١]

تنوح وتبكي للأحبة إن مضوا

ونفسك لا تبكي وأنت على الأثر

يا مخالفا من نهاه وأمره، يا مضيّعا في البطالة عمره. الزمان صولجان، والعمر كُرة. الدنيا بحر، والساحل المقبرة. احذر نوائبها فإن مشاربها كدرة. على أنها مزرعة يحصد كلٌّ ما بذره. فلا تحتقر معصية، فربما أحرقت شررة. أما عرفت سر: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، لو اقتنع اكتفى، ولكن المحنة الشره.

إخواني، كل مقاتل ليس معه سلاحُ عزمٍ: مغلوب. إذا برز شجاع اليقظة، بسلاح الجد؛ هشم وجه الأمل، وهزم جيوش الزلل. إذا استشعرت النفسُ زُرمانقة[٢] الزهد، ودخلتْ مُترهبنة ديْر العزوف؛ وجدت أنيس: «أنا جليس من ذكرني»[٣].

الخلوة شرك لصيد المؤانسة. فأخفى الصيادين شخصا؛ واقلهم حركة؛ أكثرهم التقاطا للصيد. ما صاد هرٌّ صاح. وحْلُ المخالطة يلزم المتهذب المتذهب رفع أذيال قميص الدين.

قيل للحسن: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوها؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم من نوره.

---

(١) وقر: ثقل في الأذن، أو ذهاب السمع كله.

(٢) الزرمانقة: جبة من الصوف (معرب).

(٣) هذا الأثر عن موسى عليه السلام: رواه البيهقي في الشعب: (٦٨٠)، وانظر: كشف الخفا: (٦١١).

أبدًا نفوسُ الطالبين إلـى طُلولِكـمُ تحـنُّ
وكذا القلوب بذكركم بعـد المخافـة تطمئن
جُنّتْ بحبكـم ومَـنْ يهوى يُجَـنّ ولا يجـن
يحياتكم[1] يـا سادتي جودوا بوصلكم ومُنّوا

رحم الله أعظما طالما نصبت وانتصبت. جن عليها الليل، فلما تمكّن وثبتَ وَثَبَتْ. إن ذكرتْ عدلَه، رهبتْ وهربتْ. وإن تصورت فضله؛ فرحت وطربت. عرفت إذ نبت[2] عن خدمته أنها قد أذنبت. هبّت على قلوبهم عقيمُ الحذر؛ فاقشعرّت وندبت. فبكت عليها سحاب الرجاء؛ فاهتزت وربت. حسبك. أن قوما موتى تحيى بذكرهم النفوس. وأن قوما أحياء تقسو برؤيتهم القلوب. سلام الله على تلك القبور، ورضوان الله حشو تلك اللحود.

طلولٌ إذا دمعي شكى البيْن بينها
شكى غيرَ ذي نُطْقٍ إلى غير ذي فهم

أماكن تعبدهم باكية، ومواطن خلواتهم لفقدهم شاكية. زال التعب وبقي الأجر، وذهب ليل النصب وطلع الفجر. جاء في الحديث: تحت شجرة طوبى مستراح العابدين.

إنما يطيب مكان الاستراحة بإجراء حديث التعب. وإنما يلذ الظل البارد لمن تأذّى بحر الهجير.

إخواني. مثلوا الاستراحة تحت شجرة طوبى؛ يهن عليكم السفر. ادأبوا في السير؛ فقد لاح العلم.

---

(١) هذا استحلاف بغير الله.
(٢) نبت: بعدت.

لمـا وردنـا القادسية حيـث مجتمـع الرفاقِ

وشممت من أرض الحجاز نسيـم أنفـاس العراق

أيقنت لي ولمن أحب بجمـع شمـل واتفاق

وضحكت من طيب الوصال كما بكيت من الفراق

مـا بيننـا إلا تصـرّم هـذه السبـع البواقي

حتـى يطـول حديثنـا بصنوف مـا كنّا نلاقي

★ ★ ★

الفصل التاسع التسعون

يا هذا، هون بأمر الدنيا تهن، وقدر أنها قط لم تكن، واحفظ دينك من مكرها وصُن. فمتى وفت؟ ومتى لم تخن؟

للمتنبي:

لا تلق دهرك إلا غير مُكترثٍ
ما دامَ يصحب فيه روحَك البدنُ
فما يديم سروراً ما سررت به
ولا يرد عليك الفائت الحزن
فما أضرّ بأهل العشق أنهم
هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا
تفنى عيونهم دمعا وأنفسهم
في إثر كل قبيح وجهه حسن
تحمّلوا حملتكم كل ناحية
فكل بيْنٍ عليّ اليوم مؤتمن
ما في هوادجكم من مهجتي عِوَضٌ
إن مت شوقا ولا فيها لها ثمن
سهرتُ بعد رحيلي وحشةَ لكم
ثم استمر مريري[1] وارعوى الوسن[2]

إنما الدنيا حلْمُ نائمٍ، وقائلةُ راقدٍ، ومَعْبَرُ مُعتبرٍ، وضحكةُ مستعبرٍ.

---

(١) استمر مريري: مضى عزمي.

(٢) الوسن: النعاس والنوم.

تالله ما أعجب بمالها؛ من نظر في مآلها. ولا بنى قصورها؛ من عرف غرورها. ولا مد باع الأمل، فباع وشرى بها؛ من تذكر مُرَّ شرابها. إنها إذا طغت على الطغام تُطغي. وإذا بغي نكاحها على العفاف تبغي. وكأنها تقصد هلاك محبها وتبغي. وكم عذلت في فتكها بالفتى الفتي وتلغي. أما درّ درّها فغرّتْ، فلما فرغت فغرت فاها[1]، فرغت للظعن[2]؟ أما سحبت قرون قارون مع أقرانه إلى القرار في قِرْن[3]؟ أما كفكفت بكفّها كفّ مكفوف حبها؟ فأرتك فن ما يكون فيك في كفن؟ تالله لقد لقي الغبي غِبّ[4] غباوته، فلما انجلى غيهب عيبته رأى الغُبْن والغَبَن.

يا أرباب اللِّمم[5] الشّماط، الموت بكم قد أحاط. هذا العدو مُنازِل فالزموا الرباط. ما هذا الفتور؟ ومهر الحور، الجد والنشاط؟ إياكم والزلل، فكم من دم أشاط[6]؟

أما سمعتم منادي: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الكهف: ٥٩]. أما ينذركم إعلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢]. أما يفصم عُرى عزائمكم: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: ١١]. أما يقصر من قصوركم: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]. أما سمعتم هاتف العبر ينادي: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

إذا رأيتم المباررين بالخطأ. قد اتسع لهم مجال الإمهال؛ فلا

(١) فغرت فاها: فتحته.
(٢) الظعن: الانتقال والارتحال.
(٣) قرن: القرن: حبل يجمع به البعيران.
(٤) الغب: العاقبة.
(٥) اللمم: جمع لمّة، وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن.
(٦) أشاط: أذهب وسفك.

تستعجل لهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. بينا القوم على غرور سرورهم ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]. يا سالكي سبيلهم انحرفوا عن هذه الجادة.

يا هذا. ظلمك لنفسك: غاية في القبح، إلا أن ظلمك لغيرك أقبح. ويحك إن لم تنفع أخاك فلا تؤذه. وإن لم تعطه فلا تأخذ منه. لا تُشابهن الحيَّة، فإنها تأتي إلى الموضع الذي قد حفره غيرها فتسكنه. ولا تتمثلنّ بالعقاب، فإنّه يتكاسل عن طلب الرزق، ويصعد على مرقب عال، فأي طائر صاد صيداً اتبعه. فلا تكون له همة إلا إلقاء صيده، والنجاة بنفسه.

في الحيوانات أخيار وأشرار، كبني آدم؛ فالتقط خير الخلال، وخلّ خسيسها. ولا تكن العصافير أحسن منك مروّة: إذا أوذي أحدها صاح؛ فاجتمعن لنصرته. وإذا وقع فرخها طِرْنَ حوله يعلمّنه الطيران.

يا هذا. تخلّق في إعانة الإخوان بخلق النملة: فإنها قد تجد جرادة لا تطيق حملها، فتعود مستغيثة بأخواتها، فترى خلفها كالخيط الأسود قد جئن لإعانتها. فإذا وصلن بالمحمول إلى بيتها رفهنه عليها.

هيهات إن الطبع الردي لا يليق به الخير. هذه الخنفساء إذا دفنت في الورد لم تتحرك، فإذا أُعيدت إلى الروث رتعت. وما يكفي الحية أن تشرب اللبن، حتى تمج سمها فيه. وكل إلى عائد؛ إلا أن الرياضة، قد تزل الشر جملة؛ وقد تخفف. كما أن غسل الأثر، إن لم يزله خفف. إن دمت على سلوك الجادة؛ رجونا لك الوصول وإن طال السرى.

يا هذا، الفيل والجمل يسبحان؛ ولكن الفيل مليح السباحة، والجمل يسبح على جنب، فيفتضح عند سباحة الفيل. ثم كلاهما يعبر. إذا لم تطق منازلة الحرب؛ فكن من حراس الخيم. إذا رأيت الباب مسدوداً في وجهك؛ فارض بالوقوف خارج الدار مع السؤال. إذا لم تظفرك الحروب؛ فسالم.

أترى يصلح هذا القلب بعد الفساد؟ أترى يتبدل بالبياض هذا السواد؟ كم أقول عسى أصلح ولعل؟ وكلما استوى قدمي زل. كم تتغير الأحوال وما أتغير؟ كم تصح لي الطريق وأتحول:

لله أمر من الأيام أطلبه هيهات أطلب شيئاً غير مطلوب
وحاجة أتقاضاها وتمطلني كأنها حاجة في نفس يعقوب

إلى كم تقول: سأتوب؟! ألم يخجل اللسان الكذوب؟

كلما أمليت يوما صالحا عرض المقدور لي في أملي
أقطع الدهر بظن حسن وأجلي غمرة ما تنجلي
وأرى الأيام لا تدني الذي أرتجي منك وتدني أجلي

إذا كانت كرة القلب بحكم صولجان التقليب؛ بطلت الحيل. لما قُرّب جبريل وميكائيل؛ اهتزت الملائكة فخراً بقرب جنسها من جناب العزة؛ فقُطع من بين أغصانها شجرة هاروت، وكُسر فنن ماروت[(١)]. وأخذ من لبّها كره: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ [ص: ٧٨] فتزودت الملائكة في سفر العبودية بزاد الحذر، وقادت في سبل معروفها بُخْت[(٢)] التطوع للمنقطعين ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾

(١) سبق التنبيه إلى أن ما قيل في شأن هاروت وماروت من الإسرائيليات التي لا يعول عليها.

(٢) البخت: نوع من الإبل.

[الشورى: ٥]، نودي من نادي الإفضال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. فسارت نجائب الأعمال إلى باب الجزاء. فصيح بالدليل: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ [الإسراء: ٧٤]. فقال: «ما منكم من ينجيه عمله»[١].

فيالسان القلق، تكلم بعبارة الدمع؛ لعله يقع في سمع القبول. فمراد المُمْرِضِ، أنينُ المبتلى.

النظر في هذه الأمور قلقل قلوب العارفين، فكانوا يبكون الدماء. اجتمعت أحزان القوم على القلوب، فأوقدت نار الحذر. فكان الدمع صاحب الخبر، فنّم. أقلقهم الخوف والفرق. أطافت بقلوبهم الحُرَق[٢]. لباسهم ملفقات الخِرَق. طعامهم ما حضر واتفّق. يا نورهم إذا جنّ الغسق. يا حسن دمعهم محدقا بالحدق. انقطع السلك، فسالت على نسق. فكتبت عذرها في الخد، لا في الورق. ذابت أجسامهم، فلم يبق إلا رمق؛ فلاحظهم العفوُّ لطفاً بهم ورفق. لو رأيتهم يتشبثون بذيل الظلام، ويأنسون بنوْح الحمام، ويهربون إلى الفلوات، وغاية لذاتهم الخلوات. نواح الحمام مُسخّر للمشتاق، لا يريد منه أجرة. بينهما أُنْس ممزوج بمنافرة:

إن كنت تنوح يا حمامَ البانِ ... للبين فأين شاهد الأحزان

أجفانك للدموع أم أجفاني ... لا يقبل مُدَّعٍ بلا برهان

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الرقاق: (٦٤٦٣)، ومسلم في صفات المنافقين: (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة. وقد جاء بنحوه من حديث عائشة أيضاً.

(٢) الحرق: جمع حُرقة.

الفصل المائـة

يا من أنفاسه محفوظة، وأعماله ملحوظة. أينفق العمر النفيس في نيل الهوى الخسيس؟

جدّ الزمانُ وأنت تلعب والعمر لا في شيء يذهب
كم كم تقول: غداً أتوب غداً غداً والموت أقرب

أما عمرك كل يوم ينتهب؟ أما المعْظَم منه قد ذهب؟ في أي شيء؟ في جمع الذهب! تبخل بالمال، والعمر تهب. يا من إذا خلا تفكر وحسب. فأما نزول الموت، فما حسب. لك نوبة لا تشبه النوب. بين يديك كربة لا كالكرب. تطلب النجاة، ولكن لا من باب الطلب. تقف في الصلاة إن صلاتك عجب: الجسم حاضر، والقلب في شُعَب. الجسد بالعراق، والقلب في حلب. الفهم أعجمي، واللفظ لفظ العرب. أنا أعلم بك منك: حب الهوى قد غلب. ومتى أسر الهوى قلبا لم يفلح، وكتب:

يا آدميٌّ أتدري ما مُنيتَ بـه أم دون ذِهْنك سترٌ ليس ينجابُ
يومٌ ويومٌ ويفنى العمرُ منطويا عامٌ جديبٌ وعامٌ فيه إخصاب
فـلا تغرنـك الدنيـا بزخرفها فأرْيُها إن بلاها عاقل صاب[1]
والحزم يجني أموراً كلها شرف والخرق يجني أموراً كلها عابُ

كأنكم بالدنيا التي تولت قد تولت. وبالنفوس الكريمة قد هانت وذلت. وبكؤوس الأسى قد أنهلت وعلّت. وبحمول الظاعنين

---

(١) الأري: العسل. والصاب: المرّ.

على الأسف قد استقلّت. متى يقال لهذه الغمرة التي جلت قد تجلّت[1]؟

واعجباً لنفس ما تنتبه وقد زلت. كلما عقدنا عقدة تنفعها حلّت. كم مستيقظ وقد فات الوقت، ينظر إلى نفسه بعين المقت؟ ويصيح بنصيحه: لقد صدقت؟ وينادي الكسل: أنت الذي عوّقت؟ فيجيبه: أنت من سكرك ما أفقت. كم قدم إلى القبور قادم؟ كلهم على فراش الندم نادم.

أطاعوا ذا الخداعِ وصدّقوهُ ... وكم نَصَحَ النصيحُ فكذّبوهُ
ولم يرضوا بما سكنوا مشيدا ... إلى أن فضضوه وأذهبوه
ألظّوا[2] بالقبيح وتابعوه ... ولو أمروا به لتجنّبوه
نهاهم عن طِلاب المال زهدٌ ... ونادى الحرصُ: ويلكم اطلبوه
فألقاها إلى أسماع غُثْرٍ[3] ... إذا عرفوا الطريق تنكّبوه
وحبل العيش منتكث ضعيف ... ونعم الرأي أن لا تجذبوه
حسبتم يا بني حواء شيئاً ... فجاءكم الذي لم تحسبوه
أديل الشرُّ منكم فاحذروه ... ومات الخير فيكم فاندبوه

إلى كم بالهوى تغرى وتلهج؟ أنسيت أنك عن محبوبك تُزعج؟ تفكرّ في حُلّةٍ من البلى لك تُنسج. يا من بضاعته كلها بهرج. ضيّقتَ على نفسك فلا مخرج. انتبه سريعا فالخيولُ تُسرج.

ولم يبق من أيام جمْع إلى منى ... إلى موقف التجمير غير أماني

---

(١) تجلت: انجلت وانكشفت.

(٢) ألظوا: لازموا وداموا وأقاموا.

(٣) غثر: سفلة الناس.

يا عُبُيْد فلْسه، يا عدو نفسه، تعانق الدنيا بيد الحرص: عناق اللام للألف. وتُنزل الدرهم من القلب منزلة البرء من الدَّنف. ترش ماء العيش حول الحانوت، وتنظر إلى الدرهم لا فيه. وتنصب ميزانَ البخس، ومكيالَ التطفيف، والغدر ثالثة الأثافي.

ويحك، أتبحث عن حتفك بظلفك؟ وتجدع بسيفك مَارِنَ أنفك(١)؟ ما أكرم نفسه قط: من لم يُهنها. فاحذرها؛ فكل ما يجري عليك منها. حاسبها قبل يوم الحساب، وزنها. وخف شين شينها، إن شئت عزها وزنها. واحفر لها زبية(٢) العزلة، وإن أبت فادفنها. واحصرها على الرغم، في رغام مسكها، ومسكنها. دِنْها، واحلف بالأيمان المغلظة ألا تُهادنها.

هذه قصص النجاة، قد أمليتها؛ فعنونها. هذه جوارشنات(٣) المواعظ، قد جمعتها؛ فاعجنها. يا موثق الأقدام بقيد العوائق. أجود ما للعصفور قطع السباق. لو تفكّر الطائرُ في الذبح ما حام حول الفخ. من طلب المعالي سهر الليالي. لو لا صبر المضمر على قلّة العلف ما قِيل سبّاق.

هوّن في الليل عليها الغررا إنّ العلى مُقيّداتٌ بالسرى
قد رُكّبت بسوقها رؤوسها حتى تخيّلنا الحجول الغررا
علّمها النومُ على رباطها ذليلةً أن تستطيب السهرا

(١) مارن الأنف: طرفه، أو ما لان منه.
(٢) الزبية: الحفرة التي تحفر للأسد ليقع فيها.
(٣) الجوارشنات: ما دق فلم ينعم دقّه.

قـد تركـت مطعمهـا لشوقهـا تقول: كل الصيد في جوف الفرا[1]

سينقشع غيم التعب عن فجر الأجر. كم صبر «بشر» عن شهوة حلوة حتى سمع كلمة خلوة: «كل يا من لم يأكل». ما مد سجاف نعم العبد على قبة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ [ص: ٤٣]. حتى جُرِّب في أمانة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص: ٤٤]. من لم تبك الدنيا عليه، لم تضحك الآخرة إليه.

كان بعض النجّارين يبيع الخشب، وكان عنده قطعة آبنوس ملقاة تحت الخشب، فاشتريت منه. فدخل دار الملك بعد مدة فإذا بها قد جُعلت سريراً للملك. فوقف متعجباً وقال: لقد كنت لا أعبأ بهذه. فكيف وصلت إلى هذا المقام؟ فهتف به لسان المفهِّم نائباً عنها: كم صبرتُ على ضرب الفؤوس ونشر المناشير حتى بلغتُ إلى هذا المقام.

جئت أشكو فاستوقفتني إلى أن
كلمتني من قبل أن كلمتني
وفدتنـي مـن السقـام ولكـن
أنفدتني دهـراً إلى أن فدتني

لمن أُصفّي وأصف؟ أفي عزمك اتباعي فأقف؟ الليل يضج من طول نومك، والنهار يستغيث من قبح فعلك.

يا أيهـا الراقـد كـم ترقـدُ قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخـذ مـن الليـل وساعاتـه حظـاً إذا مـا هجـع الرقّـدُ

---

(١) كل الصيد في جوف الفرا: مثل يقال للشيء يجمع الخيرات والحسنات.

من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد

قل لذوي الألبابِ أهل التقى: قنطرةُ الأرضِ لكم موعد

آخر الفصول المائة.

★ ★

قال المنشئ: ولما أتممت المائة التي ضمنتها، رأيت الثلاثة الأول كالخارج عن الوعظيات؛ لمشابهتها القصص. فغرمت هاهنا ثلاثة عوضها؛ لتخلص مائة وعظية. والله الموفق[1].

★ ★ ★

(١) قلت: إلى هنا انتهت مخطوطة «ولي الدين يكن».

◻ الفصل الأول ◻

إخواني، الموت مُقَاتِلٌ يقصد المَقَاتِل. فما ينفعك أن تُقاتل.

للمتنبي:

نعدّ المشرفيّةَ والعوالي ... وتقتُلنا المنونُ بلا قتالِ

وترتبط السوابق مقربات ... وما ينجين من خبب[1] الليالي

ومن لم يعشق الدنيا قديما ... ولكن لا سبيل إلى الوصال

نصيبك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيال

يُدفّنُ بعضُنا بعضاً ونمشي ... أواخرنا على هام الأوالي

وكم عينٍ مقبلة النواحي ... كحيل بالجنادل والرمال

لقد وعظ الزمان وما قصّر، وتكلم الصامتُ وما أقصر، ولاح الهدى، فإنما الشأن فيمن أبصر. ونطقت المواعظ بزجرٍ لا يُحصر. هلكت ثمود بصيحة، وعاد بريحٍ صرصر. وكُسِرَ كسرى، وقُصِرَ قَيْصر. تالله ما يبالي ميزان الجزاء، أربح أم أخسر؟ ولا حاكم العدل من أفلس وأعسر. هذا أمر مجمل، وفي غدٍ يُفسّر.

أيها المتحرك في الدنيا، لابد من سكون. لا يغرنك سهلها؛ فبعد السهل حزون. كم سلبتك من حبيب؟ وبعض القبح يهون. ما فرحها مستقيم، ولا ترحها مأمون. إنها لدار الغرور، ودائرة الهون. كم تلوّن؟ ولكن أين العقل من مجنون؟ فهلاّ أضعنا الحديث؟ قلب هذا مفتون:

---

(١) الخبب: السير السريع.

أيها السكران بالآما ل قد حان الرحيل

ومشيبُ الرأس والفُو دين[١] للموت دليل

فانتبه من رقدة الغفـ ـلة والعمر قليل

واطرَحْ سوف وحتى فهما داء دخيل

كأنك بما يزُعج ويَرُوع، وقد قلع الأصول وقطع الفروع. يا نائما في انتباهه، كم هذا الهجوع؟ أينفعك حين الموت جري الدموع؟ إذا رشق سهم التلف، فطاحت الدروع. وأتى حاصدُ الزرع. وأين الزروع؟ وخلَت المنازلُ وفرغت الربوع. وناب غرابُ البين عن الورقا[٢] السجوع.

قرنٌ مضى ثم نَمَى غيرُه كأنه في كل عام نبات

أقل من في الأرض مستيقظ وإنما أكثرهم في سُبات

أما علمت أن الدنيا غدا أمارة؟ أما برد لذّاتها ينقلب حرارة؟ أما ربحها على التحقيق خسارة؟ أما ينقص الدين كلما زادت عمارة؟ أما قتلت أحبابها وإليك الإشارة؟ إذا قال مُحِبّها: هي لي ومعي، أهلكته، وقالت: «اسمعي يا جارة».

إنما الدنيا بلاءٌ ليس للدنيا ثبوت

إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت

إنما يكفيك منهاً أيها الراغب قوت

---

(١) الفود: شعر الرأس مما يلي الأذن. فهما فودان.

(٢) الورقا: الورقاء.

يا من عاهدنا على الطاعة في الإعلان والإسرار. كيف استحلّ حلّ عقْدِ التوبةِ وعقَدَ الإصرار؟ متى يخرج العاصي من هذه الدار؟ شيب وعيب ونهاية الإدبار. ضدان بعيدان: ثلج ونار. كم بينكم وبين المتقين الأبرار؟ ملكتكم الدنيا وملكوها؛ فالقوم أحرار. كانت لهم أنفة؛ فاحتموا من العار. وعرفوا قدر الزمان، فانتهبوا الأعمار. فلو مددتم أبواعكم، ما كانت منهم كأشبار. لو اطلعتم عليهم في أوقات الأسحار؛ لرأيتم نجوم الهدى، لا بل هي أقمار. قاموا جميع الدجى على قدم الاعتذار. ثم تساندوا إلى رواحل البكاء والاستغفار. وقوي كربُهم فهبّتْ لهم نكباءُ[1] لُطْفٍ معْطار. رفعوا رسائل الجوى، فعاد جواب الأبرار.

لا توقدوا في القلب نار الحجيم ... كفى سقامي لفؤادي غريم
ما زلتُ عن حبّكم لحظة ... وحقكم[2] إني عليه مقيم
وكلما هبّت نسيمُ الصبا ... من نحوكم عشت بذاك النسيم

واأسفى: متى رحلوا؟ ليت شعري: أين نزلوا؟

أنجدت الدارُ بهم ... وأتهم الوجدُ معي

مالت بالقوم ريح السحر ميل الشجرة بالأغصان. فهزّ منهم الخوف أفنان القلوب، فانتثرت الأفنان؛ فاللسان يتضرع، والعين تدمع، والوقت بستان. خلوتهم بالحبيب تشغلهم عن نُعْم ونعمان. «سورهم» أساورهم، والخشوع تيجان. خضوعهم حُلاهم. فما

---

(١) النكباء: ريح انحرفت فوقعت بين ريحين، أو بين الصَّبا والشَّمال.

(٢) هذا حلف بغير الله.

دُرٌّ ومرجان؟ أخذوا قدر البلاغ، وقالوا: نحن ضيفان. باعوا الحرص بالقناعة، فما مُلْكُ أنو شروان؟ رفضوا حتى زمام المبيع، وما باعوا بثنيان. طالت عليهم أيام الحياة. والمحب ظمآن.

اطلع من خوخة التيقظ بعين التأمل؛ تر البرهان. أين أنت منهم؟ ما نائم كيقظان. كم بينك وبينهم؟ أين الشجعان من جبان؟ ما للمواعظ فيك موضع، القلب بالهوى ملآن. يا هذا، قف على باب النجاح، ولكن وقوف لهفان. واركب سفين الصلاح، فهذا الموت طوفان. أيكون بعد هذا إيضاح؟ أو مثل هذا تبيان؟ يا لها من موعظة، سحبت ذيل الفصاحة؛ فحار سحبان. بغدادية إمامية مستفتية، لا تعرف ضَرْب[1] خراسان.

* * *

(١) الضرب: المصنوع الزائف من النقود.

الفصل الثاني

إخواني، أين الذين سَلَبوا؟ سُلِبوا. طال ما غَلبوا، فُغلبوا. عمروا ديارهم، فلما تمت خربوا. وديفت[١] لهم كؤوس المنايا، فأُكرهوا وشربوا:

سيرُ الليالي إلى أعمارنا خَبَبُ ... فما تبين ولا يعتاقها تعبُ
وهل يؤمّل نيل الشمل ملتئما ... سفْرٌ[٢] لهم كل يوم رحلة عجب
وما إقامتنا في منزل هتفت ... فيه[٣] بنا: قد سكنا ربْعه النوب[٤]
وآذنتنا وقد تمّت عمارته ... بأنه عن قليل داثرٌ خربُ
ليست سهامُ قُسيّ الموت طائشةً ... وهل تطيشُ سهامٌ كلّها صيب
ونحن أعراضُ أنواعِ البلاء بها ... قبل الممات فمرميٌّ ومرتقب
أين الذين تناهوا في ابتنائهم ... صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا

أين أرباب الأماني والأمل؟ أُخذوا بين سكر الهوى والثّمَل[٥].

والذي علا على عليّ العلا نزل. وكأنه في الدنيا لم يكن، وفي القبر لم يزل.

كل حي فقصاراه الأجل ... ليس للخلق بذا الموت قِبَل
نوب[٤] أبدت لعاد قبلنا ... آن من ذات العماد المرتحل
فانثنوا عن ذلك الشِّرْبً الذي ... صار عَلاً لسواهم ونَهَل
ألبست قوماً سواهم حليهم ... ثم بزّته[٦] فعادوا بالعطل

(١) ديفت: خلطت.
(٢) سفر: مسافرون.
(٣) فيه: فمه.
(٤) النوب: النوائب والمصائب.
(٥) الثمل: السكر.
(٦) بزته: ابتزته واستردته.

فاسأل الإيـوان عـن أربابـه كيف جدّت بهم تلك الرحل
نقلتهـم عـن فضـاء واسـعٍ يمرحُ الطرفُ بـه حتى يمـلّ
نحن أغراضُ خطوبٍ إن رمت عـادت الأدرع ليناً[1] كالحُلـل
وإذا مـا أخلفـت أسهمهـا فأصابت بَطَـل القـوم بَطَـل

جز على القبور بقلب حاضر، وسلها: ما فعل الوجه الناضر؟ ثم افتح ناظر ناظر، وخاصم نفسك على التواني وناظر:

ومسندون تعاقروا كأس الردى ودعا بسيرهم الحمامُ فأسرعوا
خُرْسٌ إذا ناديت إلا أنهـم وَعَظوا بما يرضي اللبيب فأسمعوا
والدهرُ يفتك بالنفوس حمامه فلمن تعـدّ كريمـة أو تجمـع
عجباً لمـن تبقى ذخائـرُ ماله ويظل يحفظهن وهـو مضيّـع
ولعاقـل ويـرى بكـل ثنيّة يلقى له بطن الصفائح مضجع
أتراه يحسب أنهم ما أسأروا[2] من كأسهم أضعاف ما يتجرّع

كم صاح بك واعظ، وما تسمع؟ وكم حصلت ما يكفي، وما تقنع؟ لقد استقرضك مولاك مالك. فمالك تجمع؟ وضمن أن نبت الحبة سبع مائة، وما تزرع. تشتغل عن القرآن المنزّل، وتستمع من مغن يتغزّل. تمشي إلى نجاتك مشي أقزل[3]. وتخرج إلى الحرب وأنت أعزل. ويحك إن والي الحياة عن قليل يُعزل. كأنك بالسماء تمور، وبالأرض تزلزل. تنصب ولا تدري أي

(١) الأدرع: الدروع. لينا: ليّنة.
(٢) أسأروا: السور: بقية الشراب في الكأس.
(٣) أقزل: دقيق الساق مع عرج ظاهر.

الكفتين أنزل.

إخواني، غرقت السفينة ونحن نيام. أبوكم لم يسامح في لُقْمة، وداود عوتب على نظرة[1].

يا مظهرين ضد ما ... به الكتاب واردُ
إلى متى تبهرجو ... ن والبصيرُ ناقدُ
كيف يكون حالكم ... وهو عليكم شاهد
عجبت من مستيقظ ... والقلب منه راقد
مضيّعٌ لدينه ... وللذنوب رائد
كأنه على مدا ... ه مُهمَلٌ وخالد
فحسِّنوا أعمالكم ... فهي لكم قلائد
ولا تُضيعوا واجباً ... واجتهدوا وجاهدوا

إخواني، أفيكم عازم على الصلح؟ أمنكم مُحبٌّ يضجّ من الهجر؟ أفيكم ذو وجدٍ قلقٌ من البين؟ الوقت يقتضيك يا عاص. منادي القبول على منازل الوصول يقول: ﴿وَسَارِعُوا﴾ [آل عمران: ١٣٣].

الغيمُ رطبٌ ينادي: ... يا غافلين الصبوحُ
فقلت: أهلا وسهلا ... ما دام في الجسم روح

قد قيّد الطردُ قدميك، وغلّ الإبعادُ يديك. أفما لك عين تبكي عليك؟!

---

(١) سبق التنبيه إلى أن ما قيل في شأن نظر داود فيه نظر، وأنه من الاسرائليات التي لا يعتمد عليها.

وفي نظر الصادي[1] إلى الماء حسرة

إذا كـان ممنوعـا سبيـل المـوارد

على نوح نَحْتُ السفينة. وأن يصيح: اركبوا. فما ذنبه إن تخلف كنعان؟ إذا وقعت عزيمة العاصي على فراق دار المعاصي؛ هيّأ مركب القصد، وزود سفر العزم، وقام على أقدام الجد، وسعى على طريق الرجاء خائفاً من عارض رد. فيصيح به حينئذ هاتف القبول:

لئن قدمت من سفرة الهجر عيسكم[2]

تلقيتها بالوصل من كل جانب

إخواني: ما قعودكم وقد سار الركب؟ الْحقوهم في المنزل. النجاء النجاء من شر الخلاف. الوحا الوحا[3]، قبل لحاق الأسلاف. الحذر الحذر، من خطوات الخطايا. الهرب الهرب، قبل بث الأماني بالمنايا. قبل أن تنزلوا الكِفَات، وتلحقوا الرُّفات. وبين ماذا حلّ من آفاتٍ إلا أن تعاينوا الوفاة، وفات.

* * *

(١) الصادي: العطشان.

(٢) العيس: الإبل.

(٣) الوحا الوحا: الإسراع الإسراع.

الفصل الثالث

عباد الله، إنما الأيام طُرُق الجدّ، والساعات ركائبُ المجد، وأيام العافية أوقات تستدرك، وأحيان السلامة تنادي: «من جدّ أدرك».

كم للمنية من ضروب	بين الحوادث والخطوب
تـدع الحبيبَ بلا محبّ	والمحبَّ بـلا حبيـب
لا والـذي هـو قـاذفٌ	بالحقِّ عـلاّمُ الغيوب
وبحكمه يملـي لمـن	يملي القبيح على الرقيب
مـا للنفوس مـع المنية	في السلامة من نصيب
هيهـات أيـن يفوتـهـا	لابُـدّ مـن سهـمٍ مُصيب
من دبّ فوق الأرض أصبح	دارجـاً بعـد الدبيـب
فـإذا تغيّـبَ تحتـها	فكفاه بُعْـداً بالمغيب
ولكم طويل العمر ليس	لعيشـه بالمستطيب
ولربمـا انتُزع القصير	العمر مـن سعةٍ وطيب
لا تيأسـنّ مـن البعيد	وخَفْ مباعـدة القريـب
فلكم حملت مع المريض	إلى الثـرى نعش الطيـب

إخواني، احذروا دنياكم، فإنها خادعة. وانتظروا حتوفها، فهي لا ريب واقعة. أيها العبد، إلى متى تشتغل بها عن مولاك وهو غيور؟ وكيف تغترُّ بغَرِيرٍ[1] هوىً يغري ويغور؟ وكم عدلت عن العدل

(١) الغرير: غير المجرِّب.

وحاضرت المحظور؟ أتظن البقاءَ وقلائدُ الفراقِ كالأطواقِ في النحور؟ أما تعتبر بأقرانٍ قُرنوا بقرائِن أعمالهم في القبور؟ أما مواضعهم تضعك على وضع الوضائع والفتور؟ أما حلّوا اللحود فحالت حلى تلك البدور؟ أما مَنازلهم، إذ نَازلهم مُنازلهم، زال عنهم السرور؟ أبالى بفخرهم الموت؟ لا بل بلبل تلك القصور.

أين هم الآن قل لي؟ خلا خاليهم بالثبور. مال بهم عن المال ما لا يُردُّ، وصرفهم صرف الدهور. جرى بهم وما جار، كما جارى الجار، جاري المقدور. أصبحت وجوههم الصبيحة مُصْطبحةً شرابَ الدثور. مبانيهم أبينت، فلو أبينت لم تَبِنِ الإناثَ من الذكور. انفصمت عرى الأوصال، وحلوا بالخصال، فذو الوصال منهم مهجور. سكنوا بعد الودود مع الدود في اللحود، كمأسور. تكدّر صافيهم، فَمُصَافِيهم يُجافيهم، وما فيهم معذور. علا أعلاهم، علاءَ ترابٍ كثيرٍ موقور. وسكن المكين في كمين إمكانه، فاستكان في مكان محفور.

بينا مترفهم قد اطمأن و ﴿ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤]: إذا الأذى كالحذا، وكذا كل محتذ الغرور. وكم قال واعتذر، فلما لم يذر، قيل هذا الهذر، زور. صُبّ الصابُ في من صَبَا[1]، فالصَّبا تسفي على منصبه والدَّبور. وسيأتيك يا فتى، ما أتى من عتا، حتى في الرواح أو في البكور. فانتبه فإن الموت يدور على ساكني الدور. ويلتقط أرباب القصور بلا فتور ولا قصور. وكأنك بالأمر

(١) صب الصاب في من صبا: صب المرّ في فم من مال عن الحق وانحرف.

قد فصل ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، فمن جاز[1] قنطرة الهوى؛ آب بتجارة لن تبور ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

أين أهلُ الديار من قوم نوحٍ ... ثم عادٌ من بعدهم وثمودُ
بينما القوم في النمارق والديباج ... أفضت إلى التراب الخدود
وأطباء بعدهم لحقوهم ... ضلّ عنهم سعوطهم اللدود[2]
وصحيح أضحى يعود مريضا ... وهو أدنى للموت ممن يعود

يا قليل البضاعة، بل يا مفلس. ترجو النجاة بالمعاصي؟ لقد وُسْوس[3]. أتلبس ثوب الشيب ثم تُلبّس؟ جاء الصباح، فنسخ حكم الحندس[4]. وأطرق «النيلوفر» لما حدّق «النرجس». يا من يقوم من المجلس كما يجلس. كن كيف شئت، فإنما تجني ما تغرس، ألك عذر؟ قل لي: الباطل يخرس:

كيف الرحيل بلا زادٍ إلى وطن ... ما ينفع المرء فيه غير تقواهُ
من لم يكن زاده التقوى فليس له ... يوم القيامة عذرٌ عند مولاه

يا رب: إليك منّا نتظلم. أحوالنا تنطق عنا وما نتكلم. وقلوبنا من ذنوبنا تبكي وتتألمّ. وأنت العالم الذي لا تُعلَّم. أتتركنا للجهل وأبونا منك تعلّم؟ يا من أخّر ما شاء كما شاء وقدم. لا تجعلنا ممن إذا رحل تندّم. يا من نبّه الفضيْل وابن أدهم. قد

---

(١) جاز: عبر.
(٢) السعوط: ما يُسعط به المريض في أنفه. واللدود: الدواء الذي يلد به المريض في جانب من فمه.
(٣) وسوس: أي وسوس إليك.
(٤) الحندس: الظلام.

تركتنا الذنوبُ لا نُشترى بدرهم.

يا عمادي في شدتي ورجائي
عند فقري وكوكبي في المعامي
ساعتـي إن نأيت يـوم ويومي
مثل شهـر الشهـر مثـل العـام

يا صاحب الخطايا، لست معنا. يا مقبلا على الهوى، ما أنت عندنا. ضاعت حيلي في تحصيل قلبك. اشتدت حيرتي في تلافي أمرك. واعجباً، أُخوّفك عواقب الأمور، وما تتوب. وأشرح لك أحوال الصالحين، وما تؤوب. ومتى سقطتْ شهوةُ العليلِ دنا الموت.

قد أوقدتُ نار المواعظ إلى جانب كسلك، ونفس عزيمتك شديد البرودة. وقد اتّفقَ الأطباءُ على أن النفسَ الباردَ في المرض الحادِّ دليلُ الهلاك.

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشرُ الكفنا
ونحنُ في غفـلةٍ عمّا يُـراد بنـا
كـأن مـا قـد رأينـا في أحبّتنا
من الرحيل ونادي الدار ليس لنا

والله ما فاز سوى الزاهدين، ولا نال الربح غير العابدين، ونهاية الكمال للمحبين. كان همُّ القومِ طلبَ النجاة. وكانت لذّتهم في المناجاة. فارتفع لهم القدْرُ وعلا الجاه. لو رأيتهم في الأسحار وقد حار الخائف؛ بين اعتذار، واستغفار، ولطائف. يتخلل ذلك دمع غزير ذارف. يرمز إلى شوق شديد متكاثف.

كانت عابدة تقوم من أول الليل وتقول: تشاغل الناس بلذّاتهم. وقد جئتُ إليك يا محبوب.

سروري من الدهر لُقْياكم ... ودار سلامي مَغْناكم
وأنتم مدى أملي ما حييت ... وما طاب عيشي لولاكم
جنابُكم الرحبُ مرعى الكرام ... فلا صوّح[1] الدهرُ مرعاكم
حشا البينُ يوم رحلتم حشاي ... بنار الهموم وحاشاكم
فيا ليت شعري ومن لي بأن ... أعيش إلى يوم ألقاكم
إذا ازدحمت في فؤادي الهموم ... أعلل قلبي بذكراكم
وأستنشق الريح من أرضكم ... لعلي أحظى بريّاكم
فلا تنسوا العهد فيما مضى ... فلسنا مدى الدهر ننساكم

تالله لقد حصل للقوم فوز الدارين. ورضيتم أنت بالبين من البين. تنبهوا يا نيام. كم ضيعتم من عام؟ الدنيا كلها منام، وأحلى ما فيها أحلام؛ غير أن عقل الشيخ بالهوى غلام. علام قَتْلُ النفوس علام؟ هل هو إلا ثوب وطعام؟ ثم يتساوى خز وخام. ولذات طيبات ووخام[2]. إنما يعرف الفطناء لا الطغام.

آه للغافل إلى كم يُلام؟ أما تُوقظك الليالي والأيام؟ أين سكان القصور والخيام؟ دارت على الكلِّ كأس الحمام ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٧].

إلى متى مزاحمة الأنعام؟ ردوا هذه الأنفس بزمام. ازجروا

---

(١) صوّح: أذهب وألقى.

(٢) وخام: وخيمة.

هذه القلوب عن الآثام. اقرؤا صحائف العبر بألسنة الأفهام. موت الجيران شكْلٌ، وأخذ الأقران إعْجام. يا من أَجَلُه خلفه، وأمله قُدّام. رب يوم له مفتاح ماله ختام. يا مقتحما على الحرام أي اقتحام. ستعلم من يبكي في العقبى عقبى الإجرام، ويشارك الندامى على الندامى[1] والمدام[2].

يا طويل المرض، متى يبرى السقام. يا من إن قعد فللدنيا، وكذا إن قام. أول الدنيا همّ، وآخرها موتٌ زؤام. حلّ لها الفراق، وحرم عليها الدوام. سحابها لا يمطر، وسماؤها قَتَام. كلها عيْبٌ في عيب وذام في ذام. أتعيبها عند محبها؟ متى يسمع العذْلَ مُسْتَهام؟ خلِّها واخرج عنها بسلام إلى دار السلام. فالجنة رخيصةٌ ثَمّ، ما تغلو على مستهام. خذها إليك نصيحة من طَبٍّ[3] يداوي الأسقام، يضع الهناء[4] موضع النقب، ويعرف أصل الآلام. ويركبّ المرهم عن خُبرٍ، ويُدير كيف شاء الكلام. ما بعدها نصيحة تكفي والسلام.

آخر كتاب المدهش قد بلغ التمام والنهاية.

وفِرغ منه منشيه عبدالرحمن بن علي بن الجوزي يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة.

حامداً لله سبحانه ومصليا على محمد وآله وصحبه ومسلماً آمين.

---

(١) الندامى: الأولى: النادمون على فعلهم، والثانية: الجلساء يتنادمون على الشراب.

(٢) المدام: الخمر.

(٣) طب: خبير مجرّب.

(٤) الهناء: ما يهنأ به البعير الأجرب ويطلى.



الفهرس

الفهرس

الموضوع ص

الباب الثاني : في اللغة

الباب الثالث: في علوم الحديث

كتب للمحقق

١- النذير العريان لتحذير المرضى والمعالجين بالرقى والقرآن، دار طيبة، ط ٢.

٢- غزوة فريدة .. ودروس عديدة، دار الكتاب والسنة، ط ٢.

٣- رسائل مبكية من كلام الحسن البصري، دار الكتاب والسنة، ط ٣.

٤- رسائل موقظة من كلام الإمام ابن الجوزي، دار الكتاب والسنة، ط ١.

٥- مختصر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، دار العاصمة، ط ١.

٦- المدهش، لابن الجوزي، مكتبة الكوثر.

٧- السراج الوهاج في كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج، صديق حسن خان، دار طيبة بالرياض، تحقيق.